

تفسير
عرائس البيان
في
حقائق القرآن

تأليف
الشيخ العارف بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقائي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيقه
الشيخ أحمد فريد الزيري

المجلد الثاني

أول سورة التوبة - إلى آخر سورة "المؤمنون"



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

HY HUMANISTISEN TEDEKUNNAN KIRJASTO



107 207 4229

عَمَّا لَيْسَ الْبَيَانُ فِي

حَقَائِقُ الْقُرْآنِ

تأليف
الشيخ العارف بالله تعالى
أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقاي
المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق
الشيخ أحمد فريد الزبيدي

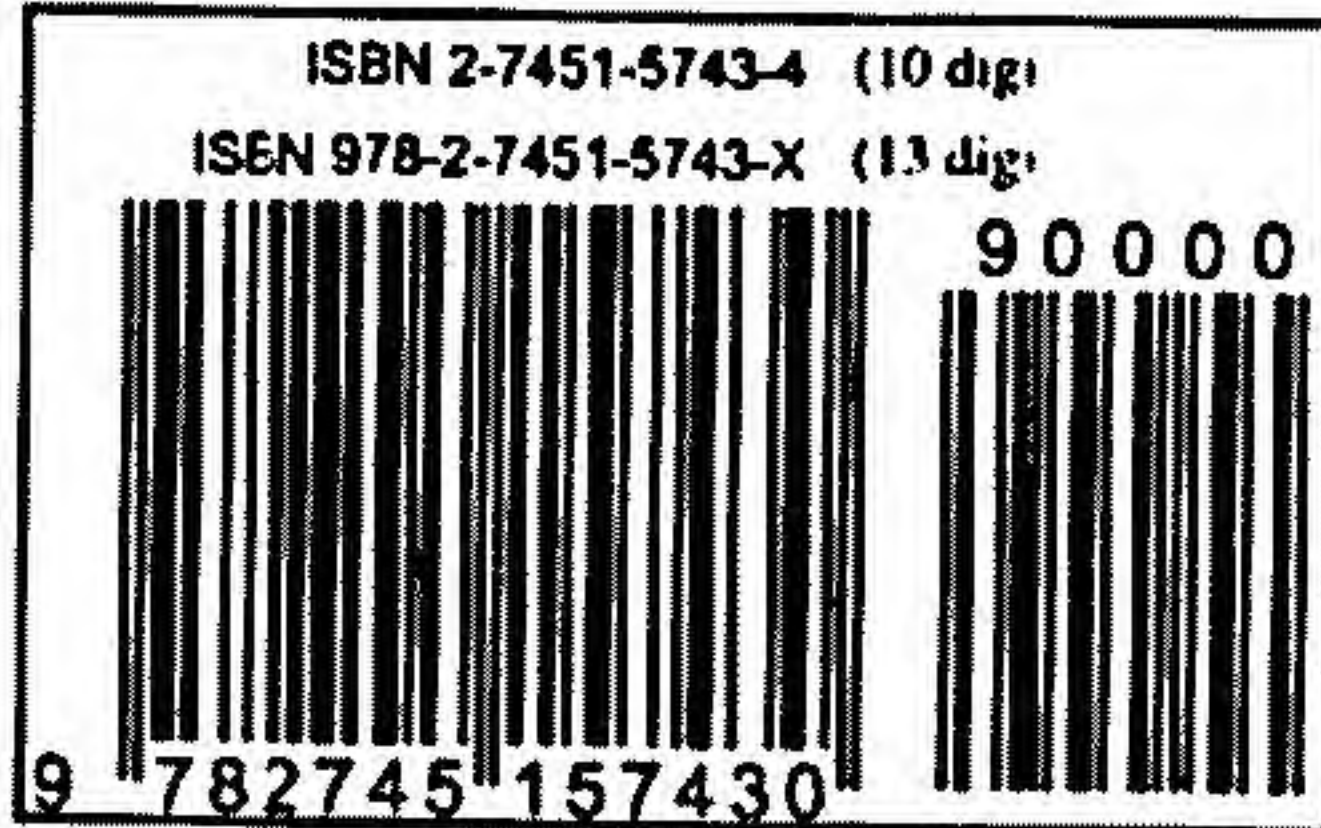
المجلد الثاني

المحتوى :

أول سورة التوبة - إلى آخر سورة "المؤمنون"

Title: 'Arā'is al-Bayān
fi Haqā'iq al-Qur'ān
classification: Exegesis of the Qur'an
Author : Rūzbahān al-Baqli
Editor : Aḥmad Faṛīd al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages : 1664 (3 volumes)
Year : 2008
Printed in : Lebanon
Edition : 1^{re}

الكتاب: عرائس البيان
في حقائق القرآن
التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : الشيخ العارف بالله روزبهان البقلي
المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت
عدد الصفحات: 1664 (3 أجزاء)
سنة الطباعة : 2008
بلد الطباعة : لبنان
الطبعة : الأولى (لوان)



دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان



Copyright
 All rights reserved
 Tous droits réservés



جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
 لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان
 ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنسيق الكتاب كاملاً أو
 مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
 أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

Exclusive rights by ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à ©

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban

Toute représentation, édition, traduction ou reproduction même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à des poursuites judiciaires.

الطبعة الأولى

٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ

دار الكتب العلمية

أسسها محمد علي بيضون سنة 1971

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Aramoun, al-Quebbah,	عرمون، القبة
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.	مبنى دار الكتب العلمية
Tel : +961 5 804 810/11/12	هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٥ ٨٠٤ ٩٦١
Fax: +961 5 804813	فاكس: ٨١٣ ٥ ٨٠٤ ٩٦١
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon	ص.ب. ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لب
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290	رياض الصلح بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

<http://www.al-ilmiyah.com>
sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

سورة التوبة

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ۖ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْإِيمِ ۖ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۖ فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ۚ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۖ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ۖ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۖ﴾

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

افهم أن الوفاء بالعقود، وعهود المعرفة والمحبة والعبودية، لا يأتي إلا ممن شاهد الربوبية حين خرج من العدم بنور القدم، ومن خلا من المحبة، وعشق القديم فليس له عهد، والوفاء بالعقد.

وكيف يكون منهم الوفاء وهم عن ساحة الكبرياء مطرودون إلى الأبد هم من وصال الحق غير مقبولين، قد برء الحق من أهل الرعونات الذين يعبدون أنفسهم وهواها، والدنيا وزينتها وجاهها، وقبلها ألزمهم سمات الفراق؛ لخروجهم من عهد الأزل والميثاق، ياليتهم لو أعلموا أداء الفرقة لفنوا من آلام البعد، وأي داء أشد من داء الفراق، وأنشد في هذا المعنى:

وكلُّ مُصِيبَاتِ الزَّمانِ رَأْيُهَا سِوَى فُرْقَةِ الْأَحْبَابِ هَيْئَةُ الْخَطْبِ

تقبل الله ورسوله كل عذر سوى الشرك؛ لأن الشرك ظلم عظيم، حيث ساوى الحدث بالقدم، ووقعت الفرقة بالبداهة بعد العهود.

وما أشد ذلك لاسيما إذا كانت بغتة على غير رقبة في أزمئة السليمة:
 فتنبأ بخير والدنا مطمئنة وأصبحت يوما والزمان تقلبا
 كانوا في زمان العهود على رجاء الوصول، فجازتهم طوارق الغيرة، وأسقطتهم عن
 نيل المنية، وكان سراج الوصل أزهر بيننا، فبهت به ريح من انبين فانطفأ.
 ثم أن الله سبحانه رأى نقض عهودهم بعد أن أمهلهم في زمان يمكن تدارك ما أفاقوا،
 وذلك ما قال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾^(١).

وأشفع عليهم بنقض العهد بين جمهور الخلائق، بقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾: عرف عباده يوم عيد الأكبر يعني: يوم كانت الأرض
 والسماء واحدا، بل العرش والكرسي والأرض سواء لكشف جلاله لنبئه وأوليائه.
 قال ﷺ: «إذا كان يوم عرفة إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم
 الملائكة...»^(٢).

بأنه تعالى برئ من المشركين المحجوبين بهوهم عن الله ورسوله، برئ منهم؛ لأن
 الحبيب يوافق حبيبه في كل مراده، وهكذا يقتضي غيرة التوحيد.
 قال ابن عطاء: كل من أشرك مع الله فيما لله غير الله فهو منه بريء، ثم من كرمه
 ورحمته ما أخرجهم عن مربع الرجاء بالكلى، وما قطع حبال الوصال بالجملة حين استتابهم
 بقوله: ﴿فَإِنْ تَبَتُّمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: إن رجعتم من حظوظ أنفسكم من الدنيا إلى
 حظوظ قلوبكم من مشاهدتي، فهو خير لكم، فإن الخير كل الخير في وصالي وقربتي.
 و«التوبة» عند أهل الإشارة: ذهاب الحدثان على الجنان عند مشاهدة قدم الرحمن.

قال أبو عثمان: التوبة مفتاح كل خير ﴿فَإِنْ تَبَتُّمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.
 ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
 وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿أَشْتَرُوا بِفَايْتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن
 سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ

(١) إشارة إلى أن للنفس في أرض البشرية سيرا وسياحة لتكميل الأوصاف الأربعة من النباتية والحيوانية
 والشيطنية والإنسانية التي تتولد بازدواج الروح العلوى الروحاني المفرد والقلب السفلى المركب من
 العناصر الأربعة. فالنباتية تولد الماء. والحيوانية تولد الريح. والشيطنية تولد النار. والإنسانية تولد
 التراب فلتكتمل هذه الصفات أرخيت أزمة النفس في مراتع الدنيا ونعيمها إلى البلاغة. تفسير حقي
 (٤/٤٨١).

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٤/٢٦٣).

الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَلِحُخُوتِكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفُصِلُ
 الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ
 فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٠٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا
 نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا يَخْتَفُونَ ﴿١٠٣﴾
 أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَتُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ
 عَلَيْهِمْ وَتُفْسِدُ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٥﴾ وَيَذْهَبُ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ
 يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾
 مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ
 حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾: وصف الله سبحانه المخالفين بأن
 ليس لهم رعاية أهل الجنة، ولا يحترمون أهل المعرفة؛ لقلة معرفتهم بحرمان أهل الحضرة،
 وما من الله عليهم من الكرامات السنية.

قال محمد بن الفضل: حرمة المؤمن أفضل الحرمات، وتعظيمه أجل الطاعات، قال الله
 تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾.

قوله تعالى: ﴿أَتَخَشَّوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: بين الله تعالى أن من
 يخشى غير الله، فلا وزن له في المعرفة، صغر الأعداء في عيون الأولياء؛ لثلا يفرعوا منهم في
 الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وملأ قلوبهم من أنوار هيئته وإجلاله، وحذرهم من
 المداينة في الدين، وعرفهم عجز الخلق بعد تعريفهم عزته وجلاله، أي: تخشونهم، وهم هباء
 في بطش قهر ربوبيتي، فأنا أهل أن تخشوا مني، فإني بوصف الجبروت قهار قهر كل من
 يبارزني في محاربة أوليائي، وأضاف خشيتهم إلى نفسه بلفظ الجمع على معنى الذات
 والصفات، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾: اسم الله: اسم عين الجمع، وهو عين
 الذات والصفات.

قال بعضهم: الخشية للذات، والخوف للصفات.

قال الله: ﴿أَتَخَشَّوْنَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾.

وقال: ﴿وَتَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

قوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ : خاطب المدعين الذين يظنون أن الحقيقة تحصل بمجرد الدعوى دون التحقق بالمعنى بالتفريع عند حسابهم ومخايلهم، وعرفهم أن من لم يكن باذلاً لوجوده الله، مخلصاً في معرفته بنعت زوال عوارض البشرية، والصدق في صحبته أهل الولاية، فهو على غلط من حسابانه، وفي سهو من حسابه، وذلك تمام الآية بقوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ (١)، ثم حذرهم عن دعوى المحال، وما في ضمايرهم من غبار الخيال، بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهْتَدِينَ ﴾ (٢) * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٣) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٤) .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ ﴾ : جمع الله سبحانه جملاً من الخصال الحميدة من الفرائض والسنن، والإيمان والمعرفة، والثقة بوجوده فيمن يجوز له عبارة مجالس أنس العارفين والمحبين والعابدين والمطمئنين والمراقبين. وتلك العمارة تكون بخلو قلبه عما دون الله عند دخوله في مساجد الله، وطهارة سره عن شواغل الطبيعة، وغبار الوسوسة.

قال بعضهم: عمارة المسجد بعمارة القلب عند دخوله بصدق النية، وحسن الطوية وطهارة الباطن لله، كما طهرت ظاهره بأمرك بالله، ودخول المسجد بالخروج عن جميع الأشغال والموانع، فذلك من عمارة المساجد.

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴾ (٥) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٦) يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا

(١) بطانة، أي: جاهدوا وأفردوا محبتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يتخذوا من دونهم بطانة، أي أصحاب سر يوالونهم ويثبون إليهم أسرارهم، بل اكتفوا بمحبة الله ومودة رسول الله والمؤمنين، دون موالاة من عاداهم. البحر المديد (٢/٣٨٨).

ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أُولِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣١﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرْتَضُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ .

قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ : أن الله سبحانه وصف المهاجرين في الآية المتقدمة، بخروجهم مما دون الله لوجدان رضوانه، وبشارته بلاقائه وغفرانه، وهو تعالى لما وجدهم أسارى سلب مشاهدته، ومقيدين بأسر محبته، ولم ير في قلوبهم من العرش إلى الثرى غير أنوار الإيقان والعرفان، بشرهم بنفسه بلا واسطة، وإذا كان المبشر واسطة بين الأحباب والحبيب، فهو عظيم كما قيل:

لَوْلَا تَمَتُّعُ مُقَلَّتِي بِلِقَائِهِ لَوَهَبْتُهَا لِمُبَشِّرِي بِإِيَابِهِ

لا سيما والحبيب هو مبشرهم بنفسه، وبشارته خطاب مع كشف المشاهدة، ومن يطيق أن يسمع بشارته بوصاله مع كشف جماله أن يبقى عند حسن شهوده، ولذة خطابه، وهذا كما أنشد:

تراءيت لي بالغيب حتى كأنما تُبشِّرني بالغيب أنك بالكف
أراك وب من هيبتي لك وحشة فتؤنسني باللطيف منك
ونحيي محيا أنت في الحب حشفة وإذا أعجب كون الحياة مع الحشف

بشرهم برحمته، ورحمته كشفت جماله بلا حجاب، وهو أول درجة العارفين، ثم بشرهم بالرضوان، وهو الوصال بنعت انؤانسة بلا كدورة الهجران، ثم بشرهم بدخولهم في جنات قربات الصفات والذات، بنعت تحصيل علوم الأزال والأباد من رؤيتها، والبقاء في نعيمها بنعت الدواء، وأي نعيم، وأي جنة أشرف من تجلي جلاله، وجماله لعرفانه.

بشر المؤمنين بالرحمة، وبشر المطيعين بالجنة، وبشر العارفين بالرضوان والوصلة، وأيضاً بشر التائبين بالرحمة، وبشر الصادقين بالمشاهدة، وبشر المحبتين بالمجاورة.

قال أبو عثمان: هو الذي يستجلب رضوانه، ورضوانه يوجب مجاورته، ومجاورته توجب النعيم الدائم.

قال الله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ . ويقال: إن القلوب مجبولة على حب من يُبشِّر بالخير، فأراد الحق سبحانه أن تكون محبة العبد

له سبحانه على الخصوص، فتولى بشارته بعزیز خطابه من غير واسطة، فقال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ﴾ (١) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٤) قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٥) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾: أخبر سبحانه أن الأولياء والأصفياء لا تخلو قلوبهم من قوارع خطرات الامتحان، مع شرفهم بالولاية، واصطفائيتهم بالكرامة؛ ليعلم الحق أن ولايتهم غير مكتسبة بالأعمال، وهذا تعريفه تعالى مواضع نعمه لهم، واختياره لهم المنازل الرفيعة في الأزل، ومعنى الآية أي: حيث تبراكم من حولكم وقوتكم، وافتقرتم إليّ، وفررت مني إليّ، ونصرتكم على عدوكم بحولي وقوتي حين شاهدتم عزة أزليتي، وجلال أبديتي، وحين نظرتكم إلى حولكم وقوتكم، واحتجبتكم بها عن مشاهدة قدرتي تركتكم مع أنفسكم.

قال جعفر: استجلاب النصر في شيء واحد، وهو الذل والافتقار والعجز، لقوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾: لم تقوموا فيها بأنفسكم، ولم تشهدوا قوتكم وكثرتكم، وعلمتم أن النصر لا يوجد بالقوة، وأن الله هو الناصر المعين، ومتى علم العبد حقيقة ضعفه نصره الله، وحلول الخذلان بشيء واحد، وهو العجب.

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾، فلما عاينوا القدر من أنفسهم دون الله، رماهم الله بالهزيمة، وضيق الأرض عليهم.

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾: موكولين إلى حولكم وقوتكم وكثرتكم، فلما رأى تقصيرهم بصرف عيونهم عن مشاهدة الله إلى أنفسهم طرفة عين، وندموا على ذلك، ورجعوا بعد الامتحان إلى ساحة الرحمن ألبسهم الله أنوار قربه، وكساهم سنا قدرته وهيبته، ولذت قلوبهم بحسن عنايته حتى قويت بها في احتمالها أثقال عبوديته^(١)، وبَيَّن ذلك بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: والإشارة فيه إلى أن قلب نبيه ﷺ كان لم يخلُ أيضًا من شواهد امتحانه؛ لأن الحق حق، والخلق خلق؛ ولذلك قال: ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾.

كان عليه الصلاة والسلام في مثل ذلك يقول: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»^(٢).

﴿سَكِينَتُهُ﴾: زيادة أنوار كشف مشاهدة الله له حين خاف من مكر الأزل، فأراه الله اصطفايته الأزلية، وأمنه من مكره لا أنه ينظر من الحق إلى نفسه طرفة عين، لكن إذا غاب في بحار القدم لم ير للحدث أثرًا، ورأى الحدثان متلاشية في قبض بطش العظمة، ففرغ منه به، فأواه الله منه إليه حتى سكن به عنه سكينته بالدنو، حيث قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨]، وثباته بدنو الدنو، بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٩]، فلما وصفه بالمرتبة الأعلى، والمشاهدة الأدنى، وسكينة قربه الأصفى، زاد في وصفه حين لم ير في مشاهدة القدم ما خرج من العدم، بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] سكينته كانت من رؤية الذات، وسكينة المؤمنين من رؤية الصفات.

قال بعضهم: السكينة التي أنزلها الله على رسوله ﷺ هي التي أظهر عليها ليل المسرى عند سدره المنتهى، فما زاغ، وما طغى، بل السكينة إقامة مقام الدنو، بحسن الأدب ناظرًا إلى الحق، مستمعًا منه، مثنيًا به عليه، بقوله: «التحيات لله»^(٣).

والسكينة التي نزلت على المؤمنين، هي سكون قلوبهم إلى ما يأتيهم به المصطفى ﷺ من

(١) قال القشيري: يعني نصركم يوم حُين حين تفرق أكثر الأصحاب، وافترت أنياب الكثرة عن نقاب القهر فاضطربت القلوب، وخانت القوى أصحابها، ولم تُغن عنكم كثرتكم، فاستخلص الله أسراركم - عند صدق الرجوع إليه - بحسن السكينة النازلة عليكم، فقلَّب الله الأمر على الأعداء، وخفقت رايات النصر، ووقعت الدائرة على الكفار، وارتدت الهزيمة عليهم فرجعوا صاغرين.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٢٨٦/١)، ومسلم (٣٠١/١).

وعد ووعد، وبشارة وحكم.

وقيل: السكينة المقام مع الله بفناء الحظوظ.

قال الأستاذ: السكينة استحكام القلب عند جريان حكم الرب بنعت الطمأنينة، وبخمود آثار البشرية بالكلية، والرضا بالبادي من الغيب من غير معارضة واختيار. ويقال: السكينة الفرار على بساط الشهود بشواهد التأديب، بإقامة صفات العبودية من غير لحوق مشقة، ولا تحرك عرق بمعارضة حكم، وذكر تمام نعمه بإنزال الملائكة عليهم بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾.

وفي لطيف الإشارة «الجنود»: روادف آثار قوة تجلي الحق بغير الاحتجاب، ونعت الانقطاع.

قال الأستاذ: الجنود ههنا وفود اليقين، وزوائد الاستبصار، ثم إن الله سبحانه وصف من كان مجبولاً في الأزل بسمة السعادة، وبقي في حجاب النكرة، يخرج به بأنوار سوابق حكمه من ظلمات قهره، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾: كشف لهم ما غاب عنهم من أنوار معدن الغيب، وهداهم بها إلى محل شهود الحضرة، ومنّ عليهم بكشف المشاهدة، وأوصلهم إليه بالرحمة، وسترهم بوصله عن غير الفرقة، وذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: ما أكرم مولانا تعالى سبقت رحمته ومغفرته لعباده في الأزل، مع علمه بما يبدو منهم من العصيان، ولم يكن عليهم غضباً، ولم يسلب منهم غفراناً، سبحانه ما أطفه سبحانه. قال الأستاذ: ردّهم من الجهل إلى حقائق العلم، ثم نقلهم من تلك المنازل إلى مشاهد اليقين.

ثم إن الله أعلمنا بفضلته أن مَنْ لم يكن خاطره مطهراً بمياه التوحيد من بحر التفريد من أدناس الوسوس، ورياء الناس لا يصلح لمقام القرب والاستئناس، بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾: بيّن أن من بقي في قلبه في عبودية خالقه نظر إلى غيره، أو إلى نفسه لا يجوز أن يدنو من مجالس أوليائه، فإن صحبته تشوش خواطرهم، وتنجس بنفسه أنفاسهم، وحذر العارفين أيضاً من صحبة المخالفين؛ لأنهم غرائس الله، ولا يجوز أن ينظر إليهم.

قال الجنيد: الصوفية أهل بيت لا يدخل فيهم غيرهم، والإشارة فيه أيضاً أن من عكس فيه آثار قهر القدم، أوقعه في بحر رؤية النفس، وتلك الرؤية نجاسة بقيت في قلبه، ولا يقرب بها من مواقف القدسية من عالم الملكوت والجبروت.

قال أبو صالح حمدون: المشرك في عمله، مَنْ يحسّن ظاهره لملاقاة الناس، ومجاورتهم

ويُظهر للخلق أحسن ما عنده، وينظر إلى نفسه بعين الرضا عنها، بما أظهر عليها من زينة العبادات، وينجس باطنه بمخالفة ما أظهره من الرياء والشهوات، وسائر المخالفات، فذاك المشرك في عبادته، النجس باطنه، ولا يصلح لبساط القدس إلا المقدس ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلناً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، ومن كان نجساً، فإن الأمكنة لا تطهره، وستر الظاهر عليه لا ينظفه.

وقال الأستاذ: فقدوا طهارة الأسرار بهاء التوحيد، وبقوا في قدرات الظنون والأوهام، فمنعوا قربان المساجد التي هي مشاهد القرب.

ثم إن الله سبحانه وعد العارفين بأن يكسوهم كسوة غنى بقائه؛ حتى لا يحتاجوا للنظر إلى سواه بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١): إذا أخرجتم أهل الدنيا من بين سفير الأعلى من المقرين الذين نعوتهم الفقر، وسماهم التصوف والعبادة، ويخطر على قلوبكم انقطاع مواساتهم لكم، فانا أغنيكم عما سواي، وأرزقكم من غير وسيلة تحتجبون بها عني.

قال الأستاذ: توقّع الإرفاق من الأسباب، من قضايا انغلاق باب التوحيد، ومن لم يفرد معبوده بالقسمة يبقى في فقر سرمدى.

ويقال: من أفلح بعفو وكرم مولاه، واستمطر سحب جوده غناه عن كل سبب، وكفاه كل تعب، وقضى له كل سؤل وأرب، وأعطاه من غير طلب.

﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢)
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ^(٣) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ^(٤) يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ

(١) أي: فقراً بسبب منع المشركين من الحرم، وكانوا يجلبون لها الطعام، فخاف الناس قلة القوات منها، إذا انقطع المشركون عنهم، فوعدهم الله بالغنى بقوله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من عطائه وتفضله بوجه آخر. وقد أنجز وعده بأن أرسل السماء عليهم مدراراً، وأسلمت العرب كلها، وتمادى جلب الطعام إلى مكة، ثم فتح عليهم البلاد، وجلبت لهم الغنائم، وتوجه الناس إليهم من أقطار الأرض، وما زال كذلك إلى الآن، وقيده بالمشيئة؛ لتقطع الأموال إلى الله، ولينبه على أنه متفضل في ذلك وإن الغنى الموعود يكون لبعض دون بعض، وفي عام دون عام. البحر المديد (٢/ ٣٩٤).

يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِشْرِهِمْ بِعَذَابِ الْيَوْمِ ﴿١٣١﴾
يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا
كَتَبْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتِزُونَ ﴿١٣٢﴾.

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾: عبر من بقي في رؤية المقتدى عن رؤية الحق، وإن كان وسيلة منه، فكان في أفراد القدم من الحدوث إلى النظر إلى الوسائط شرك، وتصديق ذلك تمام الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾: غيره الوحداية ما أبقت في البين غير أمن الشواهد والآيات، وجميع الخلق.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، ولما رأى الله غير القدم على شأن استهلاك الغير، زجر من مدحه، وتجاوز في المدح، فقال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح»^(١)، وتحرك في تفريد سره من رفع الحدثان، حين تكلم في الصحو بعد السكر، وأخبر عن فناء الكل في الكل، وقطع مسالك الصورة عن أفراد القدم، بقوله ﷺ: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب، ولا نبي مرسل»^(٢)، بعد أن كان مأمورًا بمتابعة الخليل ﷺ، بقوله تعالى: ﴿أَنْ أَتَّبِعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٢].

قال أبو يزيد في «مقالة التوحيد»: إياك أن تلاحظ الحبيب والكليم والخليل، وتجد عند الله سبيلاً.

وسئل الشبلي عن وصف جبرائيل ﷺ، فقال: والله ما خطر على قلبي منذ شهر أن الله خلق جبرائيل، وأخبر عن فناء شهوده في شهود الله.

قال بعضهم في هذه الآية: سكنوا إلى أمثالهم، فطلبوا الحق من غير مكانه، وطرق الحق واضحة لمن كمل بنور التوفيق، وأبصر سبل التحقيق، ومن عمي عن ذلك كان مردوداً عن طريق الحق إلى طرق الضالين من الخلق.

وقد وقع أنهم معيرون وموبخون بقلّة عرفانهم أهل الحقائق، وركونهم إلى أهل التقليد، وسقطوا عن منازل أهل التوحيد في التفريد، وهكذا شأن من اقتدى بالزّرافين من أهل السالوس المتزيّنين بزيّ المشايخ والعارفين المتحققين، وتخلّف خلف الجامعين للدنيا، الذين يقولون: نحن أبناء المشايخ، ونحن رؤساء الطريقة، يضحك الله الدهر ملجأهم حيث علموا أن الولاية بالنسب، حاشا أن من لم يذق طعم وصال الله، وقلبه معلق بغير الله يكون

(١) رواه البخاري (١٢٧١/٣).

(٢) تقدم تخريجه.

من أولياء الله.

قال الجنيد: إذا أراد الله بالمريد خيراً، هداه إلى صُحبة الصوفية، ووقاه من صحبة القراء، ولو اشتغلوا بشأنهم وجمع دنياهم، ولم يتعرضوا لأولياء الله، ولم يقصدوا إسقاط جاههم يكفيهم شقاوتهم، لاسيما ويطعنون الصديقين والعارفين، قال الله تعالى في شأنهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَا أَن يُوَسِّدَ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾: كيف يُطفئون نيران حسناتهم، وأنوار شمس الصفات، التي تبرز من جباه وجوههم، ولآليء خدودهم، وأصلها ثابت في أفلاك الوجدانية، وسماوات القيومية، ويزيد نورهم على نور؛ لأنه تعالى بلا نهاية، ولا منتهى لصفاته.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾: إن الله سبحانه سنَّ سنةً أزليةً، ألا يجد أحدٌ سبيله إلا يفيض له أستاذًا عارفاً بالله وبعبوديته وربوبيته، فيدله إلى منهاج عبوديته، ومعارج روحه وقلبه إلى مشاهدة ربوبيته، ويكون هو واسطة بينه وبين الله، وإن كان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، بغير علة، ولا سبب جعله واسطة للتأديب، لا للتقريب، وصيره شفيعاً للجنيات، لا شريكاً في البدايات، هداه نور القرآن، ودينه حقيقة البيان مع إظهار البرهان.

قيل: جعل الله الوسائط طريقاً لعباده إليه، وبعثهم أعلاماً على الطرق، ونوراً يهتدون به، وعَمَّرَ بهم سبيل الحق، وحقيقة الدين، قال الله تعالى: ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: وَبَخَّ الله البخلاء بقلّة الإنفاق، وخروجهم عن سبيل الوفاق، ولا يكون ذلك إلا من موارث النفاق، وتأثير الفراق.

قال بعضهم: من بخل بالقليل من ملكه، فقد سدَّ على نفسه باب نجاته، وفتح على نفسه طريق هلاكه.

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ إِنَّمَا النِّسْيَةُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾: جعل الله أيام الفراق ممدودة، وجعل أيام الوصال بلا حساب، ولا انقطاع، وجعلها على التأبيد.

قال الله تعالى: ﴿لَا مَقْطُوعَةٌ وَلَا مَمْنُوعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣٣]، وجعل لأيام العبادة منقطعًا، وجزاؤها بمشاهدته لهم لم يجعل له منقطعًا.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَوِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]: حث بهذه الآية المشتاقين إلى الفرح بوصاله، وزيادة شوقهم إلى كشف جماله، حيث جعل أيام التفرقة القليل، وحسن وصالهم الخليل:

دَنَا وَصَالَ الْحَبِيبِ وَاقْتَرَبَا وَطَرَبَا لِلْوَصَالِ وَأَطْرَبَا

كان في الكتاب الأزلي لأيام العبودية حصر؛ لأنها زمان الامتحان، وهي من أوصاف الحدثان، فإذا خرجت من أماكن الكونين لا يبقى إلا أنوار جمال الرحمن المنزهة عن تغاير الملوان، وعن الانقلاب والدوران، وحدود المكان، ومضي الزمان، لا يكون هناك إلا كشف جمال الأزل بجلال الأبد، وكشف جلال الأبد بجمال الأزل ليس عنده مساء غروب بالفناء، ولا صباح علل البداء.

وقت العارف في كشف جمال وجهه ليس وقت الأزمنة، بل تسرمد استغراقه في بحار القدمية، وطيرانه بأجنحة البقاء في هواء الأبدية، ولا يجري عليهم طوارق الزمان، ولا علة الحدثان، ما أطيب أيام الوصال للمشاهدين كشف الجمال، وطوبى لأعين قوم أنت بينهم فهن من نعمة من وجهك الحسن.

والإشارة في قوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كشف أوقات السرمدية بنعت تجلي الأزلية لوقت مرور القضاء والقدر، اليوم عبارة عن طلوع الشمس وغروبها، وليس في جلال القدم مشرق الحدث، ومغربة المشارق هناك آزال، وآزال الآزال، والمغارب آباد وآباد الآباد، الدهر الدهار، والفلك الدوار فانيان في قدم الرحمن، أوجد من العدم وقتاً بقدر يوم، فخلق الخلق في ذلك اليوم.

وقوله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾^(١) وجعل بكرمه ورحمته منها شهور القربات، وزيادة للمدانات، ومناسكا للعبادات، وشرفها لكشف المشاهدات، ومنعهم فيها عن التمتع والتنعم، وأمرهم فيها بالتعطف، وأمهل فيها الخارجين من السنة؛ لتأهبهم أهبة الأولية والأبرار إلى جوار الرحمة، وما سواهما من الأيام والشهور، رفاهية لأهل الأنس، ومطايبة لأهل البسط، وكذلك تلك الحرمات على أهل القربات، وقال: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ إلى الطريق المستقيم إلى الله، وشهادة وصال الله، وكشف مشاهدة الله، وحذرهم فيها عن مخالفة الله، بقوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾، بمنعها عن المجاهدات، وطلب المشاهدات، وإعطائكم حظها من الشهوات.

قال بعضهم: ظلم نفسه من أطلق عناقها في طرق الأمان من أتباع الشهوات، وارتكاب السيئات، والتخطي إلى المحارم.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوُّ أَعْمَلِهِمْ﴾ ذم الله قوما عموا عن رؤية ما بدا لهم من نفوسهم من المخايل الشيطانية التي هيجتهم إلى الاستبداد بآرائهم الفاسدة في استبداعهم طهي الباطل، وهم رأوها من أنفسهم مستحسنة، من قلة عرفانهم بطريق السنة الإلهية.

قال الواسطي: خيرهم على ما فيه هلاكهم، ولم يعذبهم، بقوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوُّ أَعْمَلِهِمْ﴾.

وسئل جعفر الصادق عن قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوُّ أَعْمَلِهِمْ﴾.

قال: هو الرياء، ثم حث المؤمنين بترك الدنيا ولذتها؛ لأجل مشاهدته، وحسن رضاه بقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: اخترتم موضع الكرامات، وظهور الآيات عن كشف المشاهدات.

قال يحيى بن معاذ: الناس من مخافة النصيحة في الدنيا وقعوا في فضحية الآخرة.

قال الله: ﴿أَتَأْتَلُّكُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾، ثم وصف الدنيا بالقلّة والدناءة، ووصف الآخرة بالشرف والمنزلة، بقوله:

﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: ما وجد العارف الصادق في الدنيا من القربة والمعرفة، والوجه والحالة والفضل والكرامة في جنب ما تجده من الحضرة بعد

(١) لما علم أنهم لا يُدَاوِمُونَ على مُلَازِمَةِ الْقُرْبِ أَقْرَدَ بَعْضُ الشُّهُورِ بِالتَّفْضِيلِ، لِيُخْصَّوْهَا بِاسْتِكْثَارِ الطَّاعَةِ فِيهَا. فَأَمَّا الْخَوَاصُّ مِنْ عِبَادِهِ فَجَمِيعُ الشُّهُورِ لَهُمْ شَعْبَانُ وَرَمَضَانُ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْأَيَّامِ لَهُمْ جُمُعَةٌ، وَجَمِيعُ الْبَقَاعِ لَهُمْ مَسْجِدٌ، تَفْسِيرُ الْفَشِيرِيِّ (٣/ ٩٥).

وصوله إليها، وما يرى من وصال الحق، وكشف جماله أقل من قطرة في البحار.
قال النهرجوري: الدنيا بحر، والآخرة ساحل، والمركب واحد، وهو التقوى، والناس سفر.

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَى اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٤﴾ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٥ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعْدَتْ عَنْهُمْ آلُفٌ شُقَّةٌ وَسَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾: مَنْ كَانَ مُصْطَفَى بَتَأْيِيدِ الْأَزَلِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى نَصْرَةٍ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ، وَمَنْ أَعَزَّهُ اللَّهُ بِعِزَّتِهِ، جَعَلَهُ نَاصِرًا لَهُ، وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنْ نَصْرَتِهِ، وَنَاصِرُهُ تَشْرَفُ نَصْرَتُهُ، أَوْ نَصْرَةُ الْخَلْقِ قَائِمٌ بِنَصْرَةِ الْحَقِّ، وَمَنْ انْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْخَلْقِ، أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ هَمٍّ، وَيَصِلُ إِلَى كُلِّ نِعْمَةٍ.
وصف تعالى نصرته لنبيه ﷺ حين أوى إليه في دخوله مع صاحبه في الغار، بكشف جماله، وإبراز نور منه لصاحبه، أي: مَنْ كَانَ قَادِرًا بِنَصْرَةٍ مِنْ كَانَ مَخْفِيًا وَرَاءَ نَسِجِ الْعَنْكَبُوتِ عَلَى أَعْدَائِهِ بِلَا مَدَدِكُمْ وَلَا عُدَدِكُمْ، وَأَيْضًا هُوَ يَنْصُرُهُ، وَيَجْعَلُهُ غَالِبًا عَلَى كَافَةِ الْخَلَائِقِ مِمَّا أَعْطَاهُمْ مِنْ رَايَةِ نَصْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ، وَأَعْلَامِ دَوْلَةِ الرِّسَالَةِ وَالنَّبَوَّةِ.

قيل: نصره الله حيث أغناه عن نصرتك، بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وَمَنْ كَانَ فِي مِيدَانِ الْعِصْمَةِ، كَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنْ نَصْرَةِ الْمَخْلُوقِينَ، أَلَا تَرَاهُ لَمَّا اشْتَدَّ الْأَمْرُ كَيْفَ قَالَ: بِكَ أَصُولُ فَإِنَّكَ النَّاصِرُ وَالْمُعِينُ.

ومعنى قوله: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾^(١) إشارة إلى خاصية الصديق لصحبته الحبيب، إذ كان مشرب من مشارب بحار نبوته، وسواقي أنهار رسالته التي جرت

(١) رُوِيَ أَنَّ الْمَشْرِكِينَ طَلَعُوا فَوْقَ الْغَارِ يَطْلُبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ فَقَدُوهُ مِنْ مَكَّةَ، فَأَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهِ تَالِئُهُمَا» فَأَعْمَاهُمُ اللَّهُ عَنِ الْغَارِ، فَجَعَلُوا يَتَرَدَّدُونَ حَوْلَهُ فَلَمْ يَرَوْهُ. وَقِيلَ: لَمَّا دَخَلَ الْغَارَ بَعَثَ اللَّهُ حَمَاتَيْنِ، فَبَاضَتَا فِي أَسْفَلِهِ، وَالْعَنْكَبُوتُ نَسَجَتْ عَلَيْهِ. الْبَحْرُ الْمَدِيدُ (٢/٤٠٤).

من قلزم القدم.

ولولا تلك الأهلية لما كان فردًا في الصحبة، وكان الصديق في منزل ما كان محمد، وكان الله ولم يكن معه شيء من شقائق قدسه، وبرق من بروق أنوار أنسه، خرجا من تلك الأنوار ودخلا بها في الغار، وعرف الحبيب الصديق خصائص المعية معه حين ورد عليه طوارق الامتحان، وأخرجته من رؤية الحدثان، بقوله: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: لا يحزن بتغير الاصطفائية، وانكسار حصون العصمة، فهو معناه بمعنى القدرة والعلم الأزلي، وعناية الأبدية، وظهور مشاهدته من حيث القلب والروح والعقل، بوصف المناجاة والمدانة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿ثَانِيَ آثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾.

قال: في محل القرب في كهف الأنوار في الأزل.

وقال في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾: ليس من حكم من كان الله معه أن يحزن.

وقال الشبلي: ﴿ثَانِيَ آثْنَيْنِ﴾: تشخصه مع صاحبه، ووحد الواحد بقلبه مع سيده.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ معناه: إن الله معنا في الأزل حيث وصل

بيننا، ووصل الصحبة، ولم يتفضل.

قيل في قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾: كان حزن أبي بكر رضي الله عنه؛ إشفاقًا على النبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل: شفقة على الإسلام أن يقع فيه وهن.

وقال فارس: إنما نهى عن الحزن؛ لأن الحزن عنه، وإنما هو تعريف أن الحزن لا يحل

بمثله؛ لأنه في محل القرية.

وقيل: أخرجتهما الغيرة إن الغار عليهما الحق، فسترهما عن أعين الخلق؛ لأنهم كانا في

مشاهدته يشهدهم ويشهدونه، ألا ترى كيف يقول صلى الله عليه وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: «ما ظنك باثنين الله

ثالثهما»^(١) مشاهدًا لهما، وعونًا وناصرًا.

ويقال في قوله: ﴿نَصْرَهُ اللَّهُ﴾ من تلك النصره أبقاه إياه فيما أبقاه به من كشوفاته في

تلك الحالة، ولولا نصرته لتلاشى تحت سطوات كشفه.

ويقال: صحيح ما قالوا للبقاع دون ما خطر ببال أحد، أن ذلك الغار يصير مشوى

ذلك السيد صلى الله عليه وسلم؛ ولكن يختص بقسميه ما يشاء، كما يختص برحمته من يشاء.

ويقال: علقت قلوب قوم بالعرش، فطلبوا الحق منه.

(١) رواه البخاري (١٣٣٧/٣)، ومسلم (١٨٤٥/٤).

وهو تعالى يقول: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أنه سبحانه تقدس عن كل مكان، ولكن هذا الخطاب حياة لأسرار أرباب المواجيد، وينشد:

يَا طَالِبَ اللَّهِ فِي الْعَرْشِ الرَّفِيعِ بِهِ لَا تَطْلُبِ الْعَرْشَ إِنْ الْحَبَّ فَارُهُ

لي نكتة عجيبة في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ في قوله ﷺ لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ هذا نفى الاتحاد بالوحدانية، كما نفى عن عيسى وأمه حين زعموا النصراني أن الله ثالث ثلاثة؛ فقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] نفى الإلهية عن الروح والصدقية، كما نفى هاهنا عن سيد المرسلين، وسيد الصديقين حتى لا يظن ظان أن من العرش إلى الثرى لم يكن في ساحة الكبرياء والأزلية أثر؛ لأن الإلهية القديمة ممتنعة عن الانقسام والافتراق والاجتماع، وتحقيق ذلك قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ وتلويح ذلك نفى الاتحاد، وإظهار الانبساط، ودليل الإشارة بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أثبت الحزن في طلب أبي بكر ﷺ، وذلك الحزن حزن فوت الحال، والوقت في زمان البأس والابتلاء، وعرف ﷺ أن الوقت والحال لا يفوت عنا، فهو تعالى معنا بالكشف والوقت والحال، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، ثم زاد في حدث الكشف والوصال حيث حزن صاحبه لأجلها بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ إشارة أن سكينة نزلت من عند الله على قلب محمد ﷺ، وتلك زيادة وضوح الكشف والمدانة، النبي ﷺ كان مستقيماً في الأحوال كلها، وما حزن لأجل الفوت، ولكن أنزلت السكينة عليه؛ لأجل زيادة استقامة قلب الصديق، وذهاب الحزن عنه؛ ليستضيء نورها من جمال النبي ﷺ، ولو أنزلت على الصديق بغير واسطة النبي ﷺ؛ لذاب تحت إشراق سلطان أنوار القدم؛ لأن تلك البرهاء في تلك الأوقات لا يحتملها إلا المرسلون من أولي العزم، كما قال: أنزل سكينة أبي بكر على محمد، وإن كان البهاء راجعاً إلى الله سبحانه، ويحتمل أن السكينة نزلت على أبي بكر، فأما النبي ﷺ فكانت السكينة عليه، قيل ذلك.

قال بعضهم: السكينة لأبي بكر ما ظهر له على لسان المصطفى صلوات الله عليه من قوله ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١).

قال بعضهم: السكينة سكون القلب إلى ما يبدو من مجاري الأقدار.

وقال ابن عطاء: يحتمل أن أبا بكر لم يكن محزوناً، ولكن النبي ﷺ لشفقته عليه، حذر ما

يجوز أن يكون في ذلك الحال، فقال له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

قال أبو بكر بن طاهر: دعا الرسول ﷺ بأخص أسمائه وأرفعها، وقدم اسمه على صفتها.

وقال موسى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء: ٦٢]: فدعاه باسم التربية، وهو من عموم الأسماء، وقدم اسمه على اسم ربه، فقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾: فلذلك عصم أمة محمد ﷺ عن الشرك، وابتلى أمة موسى ﷺ بعبادة العجل.

وهنا أن موسى ﷺ كان غيورا، فلم ير في البين أحدا من غيره على لجه، فكان النبي ﷺ خرج من حد الغيرة هاهنا؛ لأنه كان غنياً بالمشاهدة، وكان موسى في محل الافتقار إلى المشاهدة.

وقال الكلبي: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾.

قال الحبيب ﷺ: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، فوقع موسى في رؤية الصفات، حيث سمى بالرب، ووقع النبي ﷺ في رؤية الذات بما سماه باسم الجمع، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وزاد عليه نعمته بقوله:

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ هذه الجنود جنود عساكر تجلي جمال الأزل، أنزلت على أسرارها؛ لأنها تطيق حملها، فإن في الكون لم يكن لتلك الجنود محل قبولها.

وقال جعفر في قوله: ﴿بِجُنُودٍ﴾ اليقين والثقة بالله، والتوكل عليه.

ويقال: كان الرسول ﷺ ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ بظاهر شبحه، ولكن كان مستهلك الشاهد في الواحد بسره، ثم وصف منته سبحانه على الكل، بإذها به ظلمة الطبائع، وإخراجه أنوار الشرائع، بقوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ جعل الدعاوى الباطلة فانية تحت أنوار التوحيد، والحقيقة كلمة انفراده بفردانيته، وعلوه بنعت التنزيه والتقدير عن ظنون خلقه، بأنه عزيز بعز الكبرياء، وحكيم في اختصاص أوليائه بكشف البقاء، ثم إن الله سبحانه حث الجميع على التسارع ببذل القلوب والأرواح والأشباح إلى ميادين الوجدانية والفردانية؛ لرؤية جماله، وكشف جلاله، وإدراك وصاله، بقوله:

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا إلى أبواب الأزل خفافاً بالعقول القدسية، وثقالاً

بالقلوب المملوكة، وأيضاً خفافاً بالأرواح الروحانية، وثقالاً بالقلوب السماوية، وأيضاً خفافاً بالإرادات الصادقة، وثقالاً بالمحبة المفرطة، وأيضاً خفافاً بالإيمان، وثقالاً بالإيقان، وأيضاً خفافاً بالأنس، وثقالاً بالقدس، وأيضاً خفافاً بأنوار المودة، وثقالاً بأمانات المعرفة،

وأيضاً خفافاً بالتجريد عن الحدثان، وثقالاً بأنوار التوحيد إلى جمال الرحمن.
وأيضاً خفافاً بنعوت الافتقار، وثقالاً بكسوة غنى العزيز الغفار، وأيضاً خفافاً
بالقناعة، وثقالاً بالتوكل، وأيضاً خفافاً بالبسط، وثقالاً بالقبض.
قال ابن عطاء: خفافاً بقلوبكم، وثقالاً بأبدانكم.

وقال أبو عثمان: خفافاً وثقالاً في وقت النشاط والكراهية، فإن البيعة على هذا وقعت.
كما روي عن جرير بن عبد الله قال: بايعنا رسول الله ﷺ على المنشط والمكروه.
وقال بعضهم: خفافاً إلى الطاعات، وثقالاً إلى المخالفات، وجاهدوا بأموالكم للفقراء
ألا تمنعوهم حقوقهم، وجاهدوا بأنفسكم الشياطين؛ كيلا تستولي عليكم.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ
الْكَاذِبِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ إن من سنة الله سبحانه إذا أراد أن
يفتح كنزاً من كنوز غرائب علمه، ونوال قربه، ولطائف وصلته على أحد من أحبائه
وأصفيائه وأنبيائه، أوقعهم في محل الامتحان، وأجرى عليه زلة من زلل الحدثان؛ حتى يضيق
صدره بالغيبة، ويذوق قلبه مرارة الفُرقة، وتذوق روحه من الندامة، ويطيح عقله من حشمة
العتاب، ويزول شبحه من دار الاحتجاب، فيطلع الله شمس عزة جلاله من مطلع قلبه،
ويتنسم صبح الوصال من مشرق روحه، وتبدو أنوار الصفات من روازن أسرارهِ، وتشرق
سبحات الذات في أرض فؤاده، وتتور مجامع عقله بظهور سنا أفعاله، فيرى العبد في البسط
بعد القبض مشاهدة بديهة، ووصلة أبدية، وخطاباً سرمدياً يطير بأنوارها في الآزال والآباد،
وتصير ذلته زلفى، وذنبه كشف وصله، ويقابل الله من ذنبه لجميع حسنات العالمين؛ لأنه
مصطفى في الأزل بمحبته، ومجتبى بنوال قربه في القدم، وتكون سيئاته حسنات، وزلاته
زلفات؛ لأنه مختار الله في أرضه، وعروسه بين عبادهِ، جميع حركاته تقع حسنة، وأفعاله تكون
عند الله مستحسنة، وهكذا شأن الأحباب، المحب يعتذر لزلة حبيبه، ويعشق على غيرة
معشوقه؛ لأن من كان حسناً، فما يبدو منه أيضاً يكون حسناً:

فإن نطقَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلَا حَةٍ وإن سَكَتَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ جَمِيلٍ

ملاحظته، وحسن وجهه يعتذر لذنبه في وجه شافع يمحو إساءته عن القلوب بالمعاذير:

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مُحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ

مَا حَطَّكَ الْوَاشُونَ عَنْ رَتْبَةٍ عِنْدِي وَمَا ضَرَّكَ مَغْتَابُ

كَأَنَّهُمْ أَثْنَوْا وَلَمْ يَعْلَمُوا عَلَيْكَ عِنْدِي بِالَّذِي عَابُوا

ولما سبقت الاصطفائية له قبل وقوع المعاملات، سبق منه العفو له قبل الزلات. كان ﷺ من عظمته في المعرفة إذا جرى عليه حكم له موقع العتاب، خاطبه الله قبله بعفو وتلطف حتى لا يفني وجوده في رؤية جلاله وهيبته من حدة الحياء والاحتشام، ولا يكون إلا لمن كان معرفته كاملة، ألا ترى إلى قوله ﷻ: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه»^(١).

قيل: إن الله إذا عاتب أنبياءه وأوليائه، عاتبهم ببر قبلها، أو بعدها ألا تراه يقول: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾.

وقال الحسين بن منصور - قدس الله روحه -: الأنبياء مبسوطون على مقاديرهم واختلاف مقاماتهم، وكل يطيع حظه باستعمال الأدب بين يدي الحق، وكل أدب على ترك الاستعمال، فمنهم من أنس قبل التأديب، ومنهم من أنس بعد التأديب، على اختلاف مقاماتهم، فأما محمد ﷺ، فإنه أنس قبل التأديب، إذ لو أنس بعد التأديب لتفطر لقربه من الحق، وذلك أن الحق تعالى أمره بقوله: ﴿فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، ثم قال مؤدباً له على ذلك ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ لذاب، وهذا غاية القرب.

وقال تعالى حاكياً عن نوح ﷺ: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]، مؤدباً له، وأنسه بعد التأديب ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] إلى قوله: ﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

ولو لم يؤنسه بعد التأديب لتفطر، وهذا مقام نوح ﷺ، وليس المفضول بمقصر، إذ كل منهم له رتبة من الحق، ولي نكتة من عجيب الخطاب أن لفظ المسامحة والأنس، جرى على فعل الماضي لا على فعل المستقبل، وكلامه تعالى أزي أي: عفا الله عنك في الأزل، قبل وجود العمل ففرح فؤاده بعفوه السابق له، ثم استعمل الانبساط معه بموضع الاستفهام من الأمر، بوصف الاستئناس والبسط، ولو قال: إن الله يعفو عنك، لكان مستوحشاً في موقع الخطاب؛ لأن المرجو ليس كالمدرَك.

﴿لَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ٢١٦ ﴿إِنَّمَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَتْ أَبَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ ٢١٧ ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ٢١٨ ﴿لَوْ خَرَجُوا

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (ص ٢٩٤).

فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا تُضْعُوهَا خِلَالَكُمْ يَبْتَغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَفْذِلُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: وصف الله الولاية والنبوة أنها شقيقان، وما وقع الأمر من الغيب، إلا والولي والنبى يقبلانه بالإيقان والعرفان، وكيف يكون الولي مخالفاً للنبى، وهو مخاطب بسر الإلهام وبمتابعته. قال الواسطي: كيف يستأذن من هو مأذون له الإذن، وإن قام بإذن، وإن قعد قعد بإذن، فجريان الحركات منه تظهر سوابق المأذون له فيه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾: بين الله سبحانه أن إرادة العباد لا تقع إلا بإرادته، حيث يقول: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾: نفى عنهم صدق الإرادة، ولو كانوا صادقين في الإرادة؛ لاستجابوا لبذل الوسع والطاقة، ولكن سقمت إرادتهم، فحصلت دون الخروج بإرادتهم، كذلك لو صح منك الهوى أرشدت للحيل.

قال جعفر: لو عرفوا الله؛ لاستحوا منه؛ ولخرجوا له عن أنفسهم وأزواجهم وأموالهم؛ بذلاً لأمر واحد من أوامره.

وقال بعضهم: لو طلبوا التوكل؛ لسلخوا سبيل الثقة بالله؛ فإنها الطريق إليه.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾: وصف أهل النفاق الذين لدغتهم أفاعي القرب بنعت عدم الترياق من مفرج الوفاق، دعاهم بلسان الأمر إلى العبودية، وأجرى شقاوتهم في سابق أحكامه الأزلية، كانوا مخاطبين بالعبودية، غير مكاشفين بجمال الربوبية، امتحنهم بالأمر، وردهم عن ساحة الكبرياء بالحكم، طالبهم بالأعمال، ومنعهم عن الأحوال.

قال جعفر: طالب عباده بالحق، ولم يجعلهم لذلك أهلاً، ثم لم يعذرهم ولاهمهم على ذلك ألا تراه يقول: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾^(١).

قال ابن الفرحي: إنما هو نعت واحد، كالماء الواحد يسقى به ألوان الشجر، فيختلف ثمارها، ولو سقى الورد بالبول ما وجد منه إلا ريح الورد، ولو سقى الحنظل بهاء الورد لما خرج إلا الحنظل وريحه، إنما هي اللطيفة التي جرى بها الخذلان والتوفيق.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ

(١) قاله بعضهم لبعض، أو قالوه للمؤمنين تشبيهاً لهم. قال ابن جزى: قائل هذه المقالة رجل من بني سليم، ممن صعب عليه السفر إلى تبوك في الحر. البحر المديد (٢ / ٤٣١).

وَهُمْ كَرِهُوا ﴿١٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ۖ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ إِنْ نُصِبتْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبتْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ ﴿٢٢﴾ قُلْ أَذِفُقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُوا﴾: وصف المنافقين بأن من غاية حسدهم، وقلة معرفتهم باصطفائية أهل الولاية يطلبون أن تمتنعهم عن الله؛ وعن طريقه، فإذا رأوا ما كشف الله للأنبياء والأرلياء يحمدون في ظلمات كفرهم وحسدهم.

قال السوسي: حملوك على طلب الدنيا والركون إليها، حتى أظهر الحق سرك من الركون إلى شيء سواه، وظهر أمر الله.

قال: فتح لك من خزائن الأرض، وعرفها عليك، وأبيت أن تسكن إليها، وتقبل منها، وهم كارهون ما أنت عليه من الإعراض، عما أقبلوا عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ ما كتب للأنبياء وللأولياء في الأزل إلا سعادة الولاية، وشرف النبوة، وحقيقة الوصلة، ولطائف علوم المشاهدة، وما كتب من البليات لهم فتلك زيادة أحوالهم؛ لأن الله تعالى جعل قلوبهم بنور رضاه، فيقبلون كلاً منه بسابق الرضا والاصطفائية، فيزيد في حالهم شرف القرية من كل مكروه ومحبوب، وهم في ذلك بنصره الله محفوظون، وعليه بفضلهم متوكلون، وعما يبدو منه بفضلهم عنه راضون، لقوله: ﴿هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال بعضهم: العارف بالله: مَنْ سكن إلى ما يبدو له في الوقت بعد الوقت من تصاريف القضاء، ومجاري القدرة، ولا يسخط وارد من ذلك.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۖ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَتَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مِنْهُمْ لِمِغْنِكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٢٥﴾ لَوْ يَخْدُونَ مَلَجَأً أَوْ مَغْرَبَتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ تَجَمَّحُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ وصف الله الجاهلين بجلاله، المحجوبين عن مشاهدة جماله، الذين لم يذوقوا من عبودية خالقهم طعم وصاله، ولو كانوا أهل الذوق من مناجاة الله في الصلاة، وإدراك قرة العيون منها، لكان حالهم كمال ما أخبر ﷺ عن المصلي الصادق بقوله: «المصلي يناجي ربه»^(١).

وما أخبر عن حال نفسه ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة»^(٢). ولكن خص الله هذه المراتب الشريفة بالخشعيين في جبروته، والمتواضعين في الملكوت بقوله: ﴿وَإِنَّا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَشِيِّينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، ووصفه إياهم بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢].

قال محمد بن الفضل: من لم يعرف الأمر، قام إلى الأمر على حد الكسل، ومن عرف الأمر قام إليه على حد الاستغناء والاسترواح.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ إن الله سبحانه حذر المؤمنين بها خاطب نبيه ﷺ عما مع أهل الدنيا من الأموال والزينة أن يستحسنوها، فيحتجبون بها عن عمل الآخرة ورؤيتها، فإن الناظر إلى الدنيا بنعت استحسانها من حيث الشهوة والنفس والهوى، يسقط في الساعة عن مشاهدة ملك الملكوت، وأنوار الجبروت.

وبيّن سبحانه أن أموال الدنيا سبب احتجابهم عن الله، وإيصال العذاب إليهم؛ لأن الدنيا إذا كثرت لم تخل من الحرام والشبهات، ومن باشر الحرام، وأكل الشبهات صار معذباً بحجاب الباطن، وعمي عن مكاشفة الآخرة، وعذاب الظاهر بالغرامة في الدنيا والعذاب في الآخرة قال ﷺ: «حلالها حسنات، وحرامها عذاب»^(٣).

قال بعضهم: لا يعجبك ما يتزينون به من صنوف الأموال والعبيد والخدم، ويستكثرون به من أولاد.

(١) رواه البخاري (١/١٩٨).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/١٢٨).

(٣) رواه الديلمي في الفردوس (٥/٢٨٣)، وفيه (نجاسة) بدل (حسنات).

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾.

قال: يعذبهم لجمعها، ويعذبهم بحفظها، ويعذبهم لحبها، ويعذبهم بالبخل بها، والحزن عليها، والخصومة فيها كل هذا عذاب لأن يوردهم عذاب النار.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ • إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥١﴾ مَخْلُوفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ خَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ فَأَنْ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٥٣﴾ تَحَذِّرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُّوا إِنِّي أَخْرَجْتُ مَا تَحَذَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴾: وصف الله قوما ليسوا من أهل مقام الرضا، بأنهم كانوا محرومين عن معرفة الله ورسوله، ومعرفة حقائق الدين، ولو كانوا من أهل المعرفة، لرضوا فيما ابتلاهم الله، فإن الرضا مقرون بالمعرفة، ونعت الراضي المنشاط بما استقبله من الله، ويستلد بأشر قلبه من البلاء؛ لأنه يحتمل البلاء برؤية المبلي، ويسكن في جريان المقادير عليه مما يرد على قلبه من روح أنوار المقدر، والراضي موصوف بصفة الرضا من الله، والمتصف بصفاته يرضى برضا الله في امتحانه، ورضا الله مقدس عن التغير بوارد الحدثان.

وبين الله سبحانه أن الراضي عن الله، فالله خلفه عن كل فوت، وحياته عن كل موت بقوله: ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾: من كان هو حسبه، فأجره مشاهدة حسيبه.

قال الله: ﴿ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أي: من قربه ومشاهدته.

﴿ وَرَسُولُهُ ﴾: يظهر لنا من فوائد الغيب المكشوفة له، ويؤدبنا بما استأثره الله من حقائق الأدب. ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾: بنعت الشوق إلى جماله لا إلى غيره من العرش إلى الثرى،

علم الله تعالى أدب الرضا، والسؤال في هذه الآية الصادقين والعارفين والمريدين.

قال إبراهيم بن أدهم: من رضي بالمقادير لم يغتم.

وقال فضيل الراضي: لا يتمنى فوق منزلته.

ثم إن الله تعالى لما دس رغام الحرمان في أفواه المدّعين بمقام الإيمان والمعرفة، الذين طلبوا من النبي ﷺ ما خص الله به الروحانيين والريائيين، مما ألزم على أعناق أهل الدنيا الذين يجمعونها من سهم الزكاة ذكر أنّه استأثره لأهل المراقبات والمشاهدات، وغيرهم من أهل المقامات بقوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾: إن الله سبحانه قسّم هذه الجوائز من فضله ولطفه على أهل معرفته، رحمة منه عليهم بعلمه أنهم غائبون في أودية فردانيته، المستغرقون في بحار وحدانيته، والهون من حبه هائمون، ومن شوقه لا يطيقون أن يشتغلوا بما لا بدّ لهم من كثيرات حريقات؛ ليأخذوا كلهم على قدر مراتبهم من سهام ما رزقهم الله حلالاً طيباً مما أوجبه على طلاب الدنيا، وحذر أهل الدنيا من عذابه الأليم، إذ يقصرون في إعطاء الزكاة إلى هؤلاء السادة يطيب نفوسهم، ونشاط قلوبهم وبين عدد أهلها.

وقسمهم ثمانية أقسام، وجعل أولهم الفقراء، وحسم أطماع غيرهم عن هذه السهام.

وقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾: ومن بعدهم من أصناف الثمانية، ودليل الخطاب أن هذه لهم لا لغيرهم بدأ بالفقراء، وهم: المتجردون بقلوبهم وأبدانهم عن الكونين والعالمين، المنعوتون بنعت التنزيه حيث وقعوا في قدس القدم، فاتصفوا بقدسيته، وتنزهوا بتنزيهه، وانفردوا بفردانيته يفتقرون إلى وصال الأبد.

﴿وَالْمَسْكِينِ﴾: هم الذين سكنوا في حجاب الأنس بنور القدس، حاضرين في

العبودية بنفوسهم، غائبين في أنوار الربوبية بقلوبهم؛ لذلك اختار المسكنة سيد فرسان العالمين

محمد ﷺ بقوله: «اللهم أحييني مسكيناً وأمتي مسكيناً وأحسني في زمرة المساكين»، وأنشد:

مساكينُ أهلِ الأرضِ شاقّتْ قلوبُهم فهُمُ أنفُسٌ عاشُوا بغيرِ قلوبٍ

﴿وَالْعَمِلِينَ﴾: أهل التمكين من العارفين، وأهل الاستقامة من الموجدین الذين

وقعوا في نور البقاء، فأورثتهم البسط والانبساط، فيأخذون منه ويعطون له، وهم خزائن

خزائن جوده، المشفقون على أوليائه، قلوبهم معلقة بالله لا بغيره من العرش إلى الثرى.

﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: هم المريدون الذين سلكوا طريق محبته برقة قلوبهم، وصفاء

نياتهم، وبذلوا مهجتهم في عساكر ميادين شوقه ومحبته وعشقه، وهم عند الأقوياء ضعفاء

الأحوال، يحفهم الله هذه التحفة في مواساة حظوظهم، واستجلاب نشاط نفوسهم في

طاعات مولا هم، وحاشا أنهم بذلوا أنفسهم لنيل ثواب، ولرؤية مقام أو تطلُّع حال، بل فناء لله عما سوي الله، كما أنشد بعضهم:

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ فَانِيًا عَنْ حَظِّهِ وَعَنْ الْهَوَى وَالْأَنْسِ بِالْأَحْبَابِ
أَوْ تَيْمَنَهُ صَبَابَةٌ جَمَعَتْ لَهُ مَا كَانَ مَفْتَرَقًا مِنَ الْأَسْبَابِ
فَلَأَنَّهُ بَيْنَ الْمَرَاتِبِ وَقَفَ لِمَنَالِ حَظٍّ أَوْ لِحَسَنِ مَأْبِ

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ : هم الذين رهنوا قلوبهم بلذة محبة الله وبقيت نفوسهم في المجاهدة في طريق الله لم يبلغوا بالكلية إلى شهود كشف مشاهدة الله فتارة يغريهم سلبات القهر، وتارة يفينهم أنوار اللطف، فلحظة هم في الحج بحار الإرادات، ولحظة هم في سواحل بحر القرية ما أشد جبرتهم في فقر الولاية، وما أعظم رغبتهم في فقر المحبة لا يصلون إلى الحقيقة ما دام عليهم بقية المجاهدة.

قال عليه السلام: «للكاتب عبد ما بقي عليه درهم»^(١).
وأنشد في ذلك:

تَمَنَّى عَلَى الزَّمَانِ مَحَالًا أَنْ تَرَى مَقْلَتَايَ طَلَعَتْهُ حَرًّا

﴿وَالْغَرَمِينَ﴾ : هم الذين ما قضوا حقوق معارفهم في العبودية، وما أدركوا في إيقانهم حقائق الربوبية، وهم بقوا أبدًا في تلك الغرامة؛ لأن الفقدان بلا نهاية والموحدان بلا نهاية، ومن نودي ما فات عنه في الفقدان من بذل الوجود بنعت الصبر، ومن يؤدي حقوق الوجدان بنعت الشكر هذا قبل المعرفة غريم لا يقضي دينه.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ : هم المحاربون مع نفوسهم بالمجاهدات والمرابطون قلوبهم في شهود الغيب لكشف المشاهدات.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ : هم المسافرون بقلوبهم في بوادي الأزل ومسافرون بأرواحهم في فغار الأبد وبعقولهم في طرق الآيات وبنفوسهم في طلب أهل الولايات.

﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ : واجبة منه على أهل زمام الإيمان، يواسوا بهذه القسمة أهل الإيقان والعرفان.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ : بأحوال هؤلاء المقرين في غيبتهم عن الدنيا،
﴿حَكِيمٌ﴾ : حيث أوجب مواساتهم على أهل الآخرة والعقبى.

(١) رواه أبو داود (٢٠ / ٤)، والترمذي (٥٦٠ / ٣).

قال بعضهم: الفقراء ثلاثة:

فقير لا يسأل، ولا يتعرض، وإن أعطي لا يقبل، فذاك كالروحانيين.

وفقير لا يسأل، ولا يتعرض، وإن أعطي قبل مقدار حاجته، فذلك لا حساب عليه.

وفقير يسأل مقدار قوته، وإن استغنى كف، فذلك في حظيرة القدس.

وقال إبراهيم الخواص: نعت الفقير السكون عند العدم، والإيثار والبذل عند الوجود، والمسكين من يرى عليه أثر العدم.

وقال الأستاذ: الفقير الصادق عندهم، من لا ساء تظله، ولا أرض تقله، ولا سمة في أوان العبودية تتناوله، ولا معلوم يشغله، فهو عبد بالله لله يرد إلى التمييز في غير هذا الوقت، مصطلم عن شواهد واقف بربه، متشعب عن حماسته.

وقال الأستاذ: ابن السبيل عند القوم، إذا تقرب العبد من مآلوفات أوطانه، فهو في قرى الحق، فالجوع طعامه، والخلوة مجلسه، والمحبة شرابه، والأنس سوره، والحق تعالى مشهوده.

﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] للقوم وعد في الجنة، والآخرين نقد في الوقت، وهو شراب المحاب وغذاء شراب الثواب، وأنشد:

ومقعد قوم مشى من شرابنا وأعمى سقينا ثلثا فابصرا
أخرس لم ينطق ثلثين حجة أدركنا عليه الكأس يوما فأخبرا

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١٦) الْمُتَنَفِّقُونَ وَالْمُتَنَفِّقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٧) وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (١٨) كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٢٠) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ^٤
أُولَئِكَ سَمِعَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وصف الله نبيه ﷺ بأخص صفة، وهو الخلق العظيم الذي من الله سبحانه، بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وهكذا وصف الحساد، يرى الحسن من غيره قبيحاً، ويرى القبيح من نفسه حسناً، وعين الرضا تري القبيح حسناً من الجميع، كما قيل:

وعين الرضا عن كل عيب كيلة
ولكن عين السوء تبدي المساوي
وقيل:

عين العداوة بالمساوي موكلة
وعين الرضا عن المعاييب كيلة
قال الأستاذ: بسطوا لسان الملامة في الرسول ﷺ، فعابوه بما هو أمانة كرمه، ودلالة فضله، قال عليه السلام: «المؤمن غر كريم والمنافق خب لئيم»^(١).
وقيل: من العاقل، قالوا: الفطن المتعاقد.

ولو لا الكريم أتته بخديعة
وأعلم بأنك لم تخادع جاهلاً
قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾: أخبر سبحانه أن طينة النفاق في وقت مباشرة قهره فيها بعضها من بعض، وما يتولد من قطرة نفاقهم يستحسنه بعضهم من بعض، ويأمرون بعضهم بخالفة الله، ومخالفة رسوله في إيذاء أولياء الله.
قال أبو بكر الوراق: المنافق ستر المنافق يستر عليه عوراتهن، والمؤمن مرآة المؤمن يبصر عيوبه، ويدله على سبيل نجاته.

قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ^٥ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾: وصف الله بخل المنافقين، وقلة نصرهم للمؤمنين، وإقباض أيديهم برفعها إلى الدعاء، وغيظهم للمؤمنين حين يقبضون أيديهم من الغضب في نفوسهم، وخلواتهم وراء الستور بالوكزات لأهل الحق.
وهذه صفة المبغضين إذا جلس واحد منهم يعرض أنامله، ويقبض يده، ويهيج قلبه حسداً وعداوة على أولياء الله.

قال الله: ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْهِمْ^٦ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ^٦ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾

(١) رواه أبو داود (٢٥٠ / ٤)، والترمذي (٣٤٤ / ٤).

[آل عمران: ١١٩] ثم يتن أن هذا الغيظ من تولد نسيانهم قهر الله في بطش جبروته، وبروز عظام أنوار ملكوته، لم يكونوا من أهل الذكر، فطراً عليهم طرآن النسيان، لم يذوقوا حقائق الذكر، تركوا أمر الله لجهلهم بجلال الله، فتركهم الله في ظلمات قهره يعمهون، لا يرون سبيل الرشداً أبداً، وهكذا وصف من ادعى معرفة الله، ولم يذوق طعم محبة الله، ولا يستقيم في دعواه، ونفر من الطريق إلى جمع الدنيا من قلة صبرهم مع أولياء الله، فيجمعون الدنيا: ويحتجبون بها عن ذكر الله، فتركهم الله في حبها وحب جاهها، ولا ينفقون منها في طريق الله.

قال الله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ فَنُوسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ .

قال بعضهم: يقبضون أيديهم عن رفعها إلى مولاهما في الدعوة والحوائج، كما روي عن النبي ﷺ أنه رأى كأنه في الموقف، ويده على صدره كاستطعام المسكين.

هَـ اَنَا مَدَدْتُ يَدِي إِلَيْكَ فَرَدَّهَا بِالْوَصْلِ لَاسْتِمَاتَةِ الْحَسَادِ

وقيل: يقبضون أيديهم عن الصدقة.

وقيل: يقبضون أيديهم عن معونة المسكين.

وقال سهل: في قوله: ﴿فَنُوسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ : نسوا أنعم الله عندهم، فأنساهم الله شكر

النعم.

وصف المؤمنين والمؤمنات بالموافقات في جميع الخيرات بقوله:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ ؛ لأن أرواحهم كانت مستغرقة في

أنوار القدم، وهو تعالى ألف هناك بين الأرواح، بأنها من جواهر أنوار الملكوت ألفت بعضها بعضاً بألف الله سبحانه في مشاهدته جماله، حين إذا قربا طعم وصال، فأحب المؤمنين بعضهم بعضاً بمحبة الله في قلوبهم، ويتعاونون بعضهم بعضاً في عبادة الله، ونصرة أنبياء الله وأوليائه.

وقال أبو عثمان: المؤمنون أنصار يتعاونون على العبادة، ويتبادرون إليها، وكل واحد

منهم يشد ظهر صاحب، ويعينه على سبيل نجاته، ألا ترى النبي ﷺ يقول: "المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضاً" ^(١). وقال ﷺ: "المؤمنون كالجسد الواحد" ^(٢).

قال الله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ .

وقال أبو بكر الوراق: المؤمن تولى المؤمن طبعاً وسجيةً.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

(١) رواه البخاري (١/١٨٢)، ومسلم (٤/١٩٩٩).

(٢) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص ٣٤).

وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٧﴾ يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَنَفْسَ الْمَصِيرِ ﴿٣٨﴾ مَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أُولُو بَرِّ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ خَلَوْا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤١﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٣﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٤﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٥﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٤٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ﴾: إن الله سبحانه وعد أعلى شهود الغيب من الموقنين الصادقين في رؤية الآخرة والالحوق بالله، وهذا الوصف منه تعالى وصول نفذ؛ لأن الخبر منه معاينة؛ حيث يهيب روائع قدسه لأهل الأنس، وتنشقها مع طيبها أرواحهم وقلوبهم؛ لأجل ذلك هاموا في شوقه، وغابوا في حبه، وطاروا من الفرح بوصاله.

وما قرن هذا الوعد بشرط من شروط العبودية، في نفس الآية يدل عنه فضل بلا علة، ووصول أهلها إلى معادنها؛ لأن تراب أهل العرفان من معدن الرضوان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]:

اصطفاهم الله في الأزل لحضرته، وسماهم المؤمنين أي: الصادقين فيما رأوا بقلوبهم أنوار الغيب، والمؤمن إذا كان صادقاً، فهو صالح وشهيد؛ لأنه اتبع ببذل نفسه وروحه، بمن استنشق من الغيب من نسيم الوصال، وهو مقبول لحبه بمشاهدة الجمال، ولا يبالي الله بما

جرى على صورته من الزلّات، فإن المؤمن إذا باشر معصية ندم، وغص بتلك المعصية له، وصار مرأماً منغصاً بندامته، ويذوب قلبه رجاء ربه، وكانت معصيته طاعة، وعدمهم بالجنّات، وقلوبهم في جنّات المشاهدة، فكيف يلتفتون إلى الجنة؟
ووعدهم بالمساكن الطيبة، وهم ساكنون بأرواحهم في مشاهدة جماله وقربه ووصاله، ويجري عليهم واردات لذة خطابه، ولذيذ لطائف نوره، وطابت نفوسهم في مساكن طاعاته، باسترواحهم بنسيم مروجه رجاء وصاله، وطابت عقولهم بدورانها في أنوار آياته، وطابت قلوبهم بشهودها على مشارب صفاته، فتشرب منها شربات المحبة، وتسكر برؤيتها بنعت الحيرة.

وطابت أرواحهم بطيرانها في سباحات ذاته، بأجنحة رضوانه، فهي تُعلّق أبداً إلى مساكن كشف قدمه، وجلال سرمدية رضوانه الأكبر، بتشّمْ صبح الصفات في وجوه الهائمين في محبة مشاهدة الذات.

يا أخي هؤلاء في الدنيا في طيب مساكن الوصلة، وجنّات عدن القرية، وما داموا هاهنا في هذه الغربية، وجدوا ما يعاين لأهل الوعد، فلا يُيالون بالغد، فإنّ قلب جميع المساكن لا يكون إلا برؤيته وجماله، ومن أدرك ذلك كيف يلتفت إلى حُسن النظر، وطيب المسكن؟، وإن كان في موضع وحشٍ، وأنشد:

تَمَنَيْتُ مِنْ حُبِّي بَشِينَةَ أَنَا	عَلَى مَدَمَتِ فِي الْبَحْرِ لَيْسَ لَنَا
وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ لَمْ يَكُنْ مِمَّا وَصَفْنَا بِهِ أَثَرُ	فَهُوَ خَرَابٌ مُسْتَوْحِشٌ وَإِنْ كَانَ الْجَنَّةُ
أَجِيرَانُنَا مَا أَوْحِشَ الدَّارِ بَعْدَكُمْ	إِذَا غَبِثُمْ عَنْهَا وَنَحْنُ حُضُورَ
وَأَيُّ لَاهُوى الدَّارِ وَلَا يَسْتَقِرُّنِي	بِهَا الرَّدُّ إِلَّا أَنَّهُمَا مِنْ دِيَارِ كَا

ويقال:

قومٌ بطيب مسكنه بوجود عطائه وقومٌ بطيب مسكنه بشهود لقاءه
وقال الأستاذ: أمانة هذا الرضوان، وجدان طعمه فقدًا، فهو في روح الأنس، وروح الأنس لا تتقاصر عن راحة دار القدس، بل هو أتم وأعظم، ثم حثّ نبيه ﷺ، بجهاذ من حاله يخالف حال هؤلاء، حتى يطهر وجه الأرض من الأغيار، وذلك من غير الجبار على أهل تلك الدار.

بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

(١) قال التستري (٢٠٥/١): جاهد نفسك بسيف المخالفة وحملها حولات الندم، وسيرها في مفاوز

﴿الْكُفَّار﴾ : النفوس الأمارة، وجهادها إماتة شهواتها، ﴿وَالْمُنْتَفِقِينَ﴾ : هم إبليس وجنوده، وجهادهم [مجاهدة] طريق الوسواس بالجوع الدائم، والحزن القائم، والزجر الغليظ عليهم يكون من القلب الروحاني المملوء من النور الرباني، وفيه رخصة زجر المدّعين، فيجوز الصادق أن يزجرهم، ويُعرض عنهم.

قال محمد بن علي: جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين باللسان.

وقال سهل: النفس كافرة، فجاهدها بسيف المخالفة، وأحملها جولات الندم، وسيّرها في مفاوز الخوف، لعلك تردّها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا لمتحير في أمره، مبهور في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

قال الله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ .

ثم وصف الله أهل النفاق بنقض العهود، وفسخ العقود، وشحّ النفوس، بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُم مِّنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ : هذا وصف المغرورين الذين ما ذاقوا لهم محبة الله، ولو وجدوا لذة منها بقدر رأس إبرة، ليدلوا وجودهم لشوق جماله.

قال النصر آبادي: الفضل في رؤية الإحسان، رأوا من أنفسهم إحساناً لم يعملوه بعد، وصدقة لم يتصدقوا بها، وصحّحوا لأنفسهم أفعالا، بقوله: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ ، فنقضوا العهد لما ظهر لهم ما سألوه، فتولّد لهم من ذلك البخل الذي قال عنه النبي ﷺ : «أي داء أدوى من البخل»^(١).

والتولي عن سبيل الرشد، والإعراض عن مناهج الحق، وذلك أنهم أخلفوا وعدهم في السخاء، فلزم عليهم الخيانة والبخل والكذب، بقوله: ﴿فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ عَخِلُوا بِهِ﴾ .

ثم إن الله سبحانه وصفهم بتمام الحرمان عن السعادة والسخاوة، بقوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ، زاد نفاقهم جزاء لبخلهم.

قيل: هو ميراث البخل، وهو الكذب والخلف والخيانة.

الخوف، لعلك تردّها إلى طريق التوبة والإنابة، ولا تصح التوبة إلا من متحير في أمره، مبهور في شأنه، واله القلب مما جرى عليه.

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص ١١١).

سُئِلَ أَبُو حَفْصٍ: مَا الْبَخْلُ؟ قَالَ: تَرَكَ الْإِثَارَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ أَعْلَمَ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى عَقُودِهِمُ الْفَاسِدَةِ، وَعَهْودِهِمُ الْكَاذِبَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، لِمَعْرِفَتِهِ لَسَجِيَّتِهِمُ الْمَجْبُولَةِ بِالْبَخْلِ وَالنِّفَاقِ، بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾. أَعْلَمْنَا وَصَفَ عِلْمَهُ الْمَحِيطَ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَخَوْفَنَا مِنْ عَظِيمِ مَرَاقِبَتِهِ، وَارْتِصَادِهِ بِمَرَاصِدِ الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ، وَعَرَفْنَا مَكَانَ الْحَيَاءِ مِنْهُ، وَاجْلَالَهُ وَالْخَوْفَ مِنْ عَظَمَتِهِ، حَيْثُ أَنَّهُ عَلَّامٌ عَلَى خَطَرَاتِ قُلُوبِنَا، وَحَرَكَاتِ أَسْرَارِنَا، ذَكَرَ السِّرَّ وَالنَّجْوَى، وَ«السِّرَّ»: مَا هُوَ يُعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ، وَ«النَّجْوَى»: مَا هُوَ يُعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ أَيْضًا، وَلَا يَعْلَمُ مِنْكَ أَحَدٌ غَيْرَ اللَّهِ.

النَّجْوَى: سِرٌّ، وَسِرٌّ غَيْرُ النَّجْوَى سِرُّ السِّرِّ.

قِيلَ: «السِّرَّ»: مَا لَا يَطَّلَعُ عَلَيْهِ إِلَّا أَعْلَمُ الْأَسْرَارِ، وَ«النَّجْوَى»: مَا يَطَّلَعُ عَلَيْهِ الْحَفَظُ. ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨١) فَإِنَّ رَجْعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَفَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٢) وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ (٨٣) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِمُ الْبَاقِيَ وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٤) وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَفْذَنَكَ أُولُوا الطَّلُولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٥) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٦) لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٧) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٨) وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٨٩).

قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي: فليضحكوا فيها ما شاء، وإذا أبغضوها وصاروا إلى الله، استأنفوا بكاء لا ينقطع أبدًا.

وقال أبو يزيد: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾: لئلا تغرَّتهم الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾: شوقًا إلى

مولا هم.

قال طاهر المقدسي: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾: فإتهم في دار الخدمة، وليس من أوصاف الخدم الضحك الكثير.

﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾: فإتهم في ميادين الحزن والغم، ولذلك اختار سبحانه وتعالى تقليل الضحك، والضحك إذا كان من غيبة الأنس، ووضوح صبح نور الجمال، فالضحك والبكاء هناك واحد.

والبكاء الكثير: ما يكون قبل المشاهدة في الشوق، وبعد كشف المشاهدة من الفرح، والأنس بالوصال، فهذا البكاء هو بكاء المريدين، وذلك من الأشجان والأحزان، والمحبين من الفوت والفراق.

وصف الله حال الأولين بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣]: وذلك بديهة الغيب عند ظهورها من الغيب، فيفرح لصورتها ويجهل بحقائقها، وهو معذور ما دام مغلوبًا، لذلك نهى النبي ﷺ الضحك من غير مجب، وما يجوز للمقتضين من ركوب التوحيد، وأحزان المحبة، أن يكون ضحكهم ترفيه فؤادهم من برحاء الحزن، لا يجوز أكثر من ذلك.

قال في قوله تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾^(١): عين فاضت دمعها بأخبار، وعين فاضت دمعها على قلة الوقار، وعين فاضت دمعها على الإخلاص والصفاء.

قال الحريري: العيون الباكية على ضروب: فعين تبكي عبادة ورسما، وعين تبكي خشية وحزنا، وعين تبكي هيبة ووجلا، وعين تبكي خصوصية وحقيقة.

ثم مدح الله رسوله وأصحابه بعد ذم المنافقين، بقوله: ﴿لَكِنَّ الرَّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

جاهد الرسول ﷺ باحتمال أثقال أمانة الرسالة، وأدائها بغير حظوظ البشرية، وجاهد العارفون، بإفناء وجودهم لمشاهدة الله، ونيل وصاله، ثم وصف المؤمنين بالمعية معه بالأرواح في مشارب بحار المشاهدة، وسواقي الرسالة، فالولاية حين أشهداها الله مشاهدته في أبد الأزل حين عرّف نفسه لهم، بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ولولا تلك المعية والتعريف، لما وافقوا في بذل مهجهم معه في معارك مشهد العشاق

(١) أي: تملأ بالدمع فاستعير له الفيض الذي هو الانصباب من الامتلاء مبالغة، ومن الدمع متعلق بتفيض ومن لا ابتلاء الغاية، والمعنى تفيض من كثرة الدمع والرزية بصرية وتفيض حال من المفعول. تفسير حقي (٣/٣١٧).

المقتولين بشوق المحبة من أهل الأشواق، ثُمَّ عَمَّهم الله مع نبيّه ﷺ بنيل جزيل الطافه، ولذا نذ الفاظه، واعتطفاه من كشف أنوار جماله، وسناء جلاله، بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾.

يعني المشاهدة والمكاشفات والوصلات والقربات، ثُمَّ زاد في وصفهم، بأنهم نجوا بهذه النعم، وسابقة سعادتهم، من نكايات قهره، ونكال بطشه، بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

الفائزون من كل فرقة، والظافرون بكل بغية، وتصديق ذلك قوله سبحانه: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. جناية قرباته، ومشاهدات صفاته التي تُجري أنهار علوم الأزليات في أنوارها من بحار الذات، ومن فاز بشرية منها، يصير متصفاً بتلك الصفات، ويكون باقياً في مشاهدة الذات، وذلك الفوز، النجاة من الحدثان، والبلوغ إلى مشاهدة الرحمن.

قال بعضهم: اجتهد الرسول في أداء الرسالة، أبلغ العناية، وجاهد المسلمون بأنفسهم في قبول ما جاء به من الشرع، ما كان منه حظ النفس بالنفس، وما كان منه حظ المال بالمال.

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٠) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٥١) • إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَفْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٢) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٣) سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٤) يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَيْتَ اللَّهِ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٥٥) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ: وصف الله زُمرَة أهل المراقبات، ومجالس المحاضرات، والهاثمين في المشاهدات، والمستغرقين في بحار الأزليات الذين أنحلوا جُسومهم بالمجاهدات، وأمروا نفوسهم بالرياضات، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر وجولانها في الفكر، وخرجوا بعقائدهم الصافية عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية، بأن رفع عنهم بفضل حرج الامتحان، وأبقاهم في مجالس الأنس، ورياض الإيقان.

وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ يعني: الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة.

﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾: الذين أمرضهم مرارة الصبابات.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾: الذين يتجرّدون عن الأكوان بتجريد التوحيد، وحقائق التفريد.

﴿حَرَجٌ﴾: عتابٌ من جهة العبودية والمجاهدة؛ لأنهم مقتولون بسيف المحبة، مطروحون بباب الوصلة، ضعفهم من الشوق، ومرضهم من الحب، وفقروهم من حُسن الرضا، ثم زاد في وصفهم بالشفقة على دين الله، وعلى سُنّة رسوله، بقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. إذا عرفوا عباد الله طريق الله، والأسوة بسُنّة رسول الله ﷺ، ثم وصفهم بترائي قلوبهم هلال جلاله بنعت بذل أرواحهم ونفوسهم لله في الخُلوات، وبيّن أنهم فائزون من نكايات المكر والامتحان، وجميع البليّات والعقوبات، بقوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ما على المشاهدين جلاله وجماله سبيل الحجاب، وقارعة العتاب؛ لأنّه كان في الأزل اختارهم برحمته السابقة، وغفر في القِدم تقصيرهم في المعرفة، بأنّه علم أن الخلق يعجزون عن حمل بوادي عظمتهم، وأوائل كشف سلطان كبريائه، قال الله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾: مَنْ لم يكن من القدرة، فقد رفع عنه الحرج.

قال ابن طاهر: لو لم يكن في الفقر والقلة إسقاط الحرج عن صاحبه، لكان ذلك عظيمًا.

قال الله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾.

وقال القاسم: في قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾: من يرى الإحسان كلّ

من الله، فلا يكون لأحدٍ عليه سبيل، وقد وقع لي في قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: ما على من أصفاه الله في سابق إحسانه عليه تغيير الاصطفائية قطّ، وإحسانه لله

إحسان الله فيه، وشهوده عليه، وشهود العبد مشاهدته بشرط ألا يرى لغير الله وزناً من نفسه، وجميع الأكوان حتى لا يجد عليه أحد سبيل المنّة.

ثم وصف هؤلاء المحسنين بالفقر والظرافة فيه، بنعت بذل الوجود، وصدق اللقاء المحمود، بقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: لترفعهم عن رؤية غير الله؛ حتى رؤية ما وجدوا من الله من حظوظ حلاوة مشاهدته إلى الفناء فيه؛ حتى لا يبقى فيهم غير حظ الله منهم.

أيضاً أي: لتحملهم بالله؛ حتى يكونوا معك في مشاهدة الله أبداً، ولا ينقطعوا عنك طرفة عين، ثم بين الله سبحانه وصف القوم برغبتهم في بذل وجودهم لله، وسرعة مسارعتهم إلى الله، وشدة شوقهم إليه، وكثرة حزنهم بما فاتوا عنهم من حقوق الطريقة بتمام الآية، مما أجابهم رسول الله ﷺ: ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: لا أجد من العرش إلى الثرى شيئاً يحملكم غير الله، ثم قال الله: ﴿تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾: بين أن البكاء من الحزن، وهو بكاء المرئيين؛ لأن بكاء العارفين والمحبتين من الفرح بالله.

قال النصر آبادي في قوله: ﴿إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: يحملهم على الإقبال علينا، والثقة بنا والرجوع.

وقال أيضاً: يحملهم أي: فتحميل عنهم أثقال المخالفات، ثم بين أن العتاب على من سكن إلى الدنيا، وفرح بها، بقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَقْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾: وصف المتقاعدين عن الحق، وعن السير إلى معارك شهداء العشق الذين قتلوا بسيف المحبة، باشتغالهم بنفوسهم الأمارّة، وهواها القاطع سبيل طلعة الله سبيل العار والشنار عليهم؛ لأنهم تركوا حظ الأكبر بالحظ الأصغر.

قال النصر آبادي: ألزم الله الندم الأغنياء؛ لأنهم اعتمدوا أملاكهم وأموالهم، واستغنوا بها، ولو اعتمدوا على الله، واستغنوا به لما ألزموا المذمة.

ثم وصف تكلف أهل الدنيا، في إنفاقهم بالنفاق والرياء والسمعة، ثم رأوا ذلك أيضاً غرامة؛ لأنهم لم يعرفوا ما يطلبون، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُرمِ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٥٥) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٦) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ

اتَّبِعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ خُنَّ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١١﴾.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾: هكذا شأن من لم يذوق ذوق السخاء في المعرفة.

قيل: من يري الملك لنفسه، كان يُنفقه غرامة عنده، ومن يري الأشياء لله عارية في يده، رأى ما يُنفقه عنها إلا غرمًا.

ثم استثنى من هؤلاء من تصديق الله ورسوله والدار الآخرة، بنور قذفه الله في قلوبهم، وشرح به صدورهم، فينفقون على رجاء قربة الله.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يعني: مشاهدات، وكشف حجاب، ورجاء وصال.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾: بأن يدعوا لهم، ويستزيد لهم مزيد قربة الله.

ثم قال تعالى على وجه استحسان ما أنفقوا له على أوليائه: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: إنها وسيلة إلى قربة الله، بل من قربة الله منهم، وفقهم ببذل وجودهم له^(١).

ثم وصفهم بأنهم سيدخلون في حضرته وقربته، وحجاب مملكته، ويرونه بلا حجاب، ولا عتاب، بقوله: ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: رحمة مشاهدته، أن يسترهم بكنفه عن غيره.

قال بعضهم: من طلب القربة إلى الله هان عليه ما يبذله في جنب ذلك، وكيف ينال القربة إلى الله من لا يزال يتقرب إلى ما يُبعده من الله، وهي الدنيا.

ثم وصف الله أهل سعادة الكبرى من سوابق زمرة الأعلى، الذائقون طعم مجالس دنائي، وكان قاب قوسين أو أدنى، بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ الأولون من المهجّرين والأنصار أي: السابقون بالأرواح قبل الكون إلى مشاهدة الأزل، بنعت المحبة والمعرفة والشوق حين أوجدها الحق من مكن الغيب، وأحضرها لديه على جزائر النور، ومجالس

(١) وقال ابن عجيبة: تقريبهم إلى حضرة ربهم، وهذا شهادة من الله لصحة معتقدتهم وكمال إخلاصهم. البحر المديد (٢/٤٣٩).

السرور، فلا يزال طائرات بأجنحة الرضا في قضاء البقاء بنعت الفرح بالمنى.
 فإذا تلبّست بأشباحها، طلبت أماكنها ومعادنها، فأبصرت بنورها مراد تجلّي القدم،
 فسبقت إليها، وسكنت بسبيل الاستقامة في طريق المعرفة بطلب زيادة الزُلفات، وحقائق
 الوصلات.

قال ابن عطاء: «السابق»: من سبق له في الأزل حُسن عنايته، فيظهر عليه في وقت
 إيجاده أنوار تلك السابقة، فإنه ما وصل إليه أحد، إلا بعد أن سبق له في الأول منه لطفٌ
 وعناية.

وقال الواسطي: السَّابِق قولاً وفعلاً، وحذّر النفس حسرة المسبوق، ثم وصف
 السابقين لهم، فقال: «وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ» أي: أدركوهم، وأدركوا ما هم فيه من
 لطائف الكرامات، وأنوار المشاهدات.

وقوله: «بِإِحْسَنٍ» أي: بإحسان الله عليهم في الأزل، حيث أرشدهم طريق
 المعارف، فأحسنوا بإحسان الله، وإحسانهم شهودهم حضرة الله، بنعت استضاء نور الإيقان
 والإيمان والعرفان.

ثم بيّن تعالى أن هذه الكرامة لهم من حُسن الرضا عنهم في الأزل، بقوله: «رَضِيَ
 اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ»: رَضاه عنهم سابقة الاصطفائية منه لهم في الأزل، فجعلهم راضين
 عنه بعد كشف لقائهم، فقد اختاروا مشاهدة الله على ما سواها إلى الأبد.

قال جعفر عليه السلام: بما كان سَبَقَ لهم من الله من عنايته وتوفيقه، ورضوا عنه بما مَنَّ عليهم،
 بمتابعتهم لرسوله صلى الله عليه وآله، وقبول ما جاء به، وإنفاقهم الأموال، وبذلهم المهج.

وقال النصر آبادي: ما رضوا عنه، حتى رضي عنهم بفضل رضاه عنهم، رضوا عنه.
 «وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ
 يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا
 وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٤﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ
 التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٥﴾.

قوله تعالى: «وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا»:
 وصف الله قوماً عرفوا معائب أنفسهم لمعرفة الله وتعريفه إياهم نفسه، فعرفوا نفوسهم
 بمعرفة الله، فندموا عما جرى عليهم من أعلام المخالفات من الخجل والحياء بين يد الله.
 وهم قومٌ ألحقهم أنوار العناية تارة إلى المباشرة، وسائر القرية، ونشّقهم نسائم

الوصلة، ثُمَّ مَسَّهْم طَوَارِقَ الْفِرْقَةِ، امْتِحَانًا مِنَ اللَّطْفِ وَالْقَهْرِ؛ كَيْ يَعْرِفُوا الْحَقَّ بِمَعْرِفَةِ قَهْرِهِ وَلَطْفِهِ، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾، فَإِذَا بَلَغُوا إِلَى مَحَلِّ الْإِسْتِقَامَةِ، رُفِعَتْ عَنْهُمْ نَوَائِبُ الْإِمْتِحَانِ، وَسَكَنُوا فِي مَشَاهِدَةِ الرَّحْمَنِ، وَهَذَا قَوْلُهُ: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قَالَ بَعْضُهُمْ: صِفَةُ النَّادِمِينَ وَالْمَعْرُضِينَ عَنِ الذُّنُوبِ، وَالنَّائِبِينَ لِلتَّوْبَةِ هِيَ: الْإِعْتِرَافُ بِمَا سَبَقَ مِنْهُمْ، وَكَثْرَةُ النَّدَمِ عَلَى ذَلِكَ، وَالِاسْتِغْفَارُ فِيهِ، وَنَسْيَانُ الطَّاعَاتِ؛ وَذِكْرُ الْمَعَاصِي عَلَى الدَّوَامِ، وَالِابْتِهَالُ إِلَى اللَّهِ بِصَحَّةِ الْإِفْتِقَارِ؛ لَعَلَّ اللَّهَ يَفْتَحُ لَهُ بَابَ التَّوْبَةِ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ أَهْلِهَا.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾: يَبَيِّنُ سَبْحَانَهُ أَنْ يَدَهُ فِي اخْتِذِ الصَّدَقَةِ، يَدُ اللَّهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الْصَّدَقَةُ تُقَعِّدُ فِي يَدِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَقَعُ فِي يَدِ السَّائِلِ﴾.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَا خُذْ الصَّدَقَاتِ﴾ أَيُّ: خُذْ مَا يَتَعَلَّقُ بِحِظْوِظِ أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ حِظٌّ مِنَ النَّفْسِ.

وَأَيْضًا أَيُّ: بَاشِرِ أَمْوَالَهُمْ بِأَخْذِ الصَّدَقَاتِ لِلْفُقَرَاءِ؛ حَتَّى تَصِلَ بَرَكَةُ يَدِكَ إِلَى أَمْوَالِهِمْ، وَتُطَهَّرَ بِلَطْفِ يَدِكَ نَفُوسَهُمْ مِنَ الْمَعَاصِي وَجَمِيعِ الْعَذَابِ، وَتُطَهَّرَ قُلُوبُهُمْ مِنْ حُبِّ مَا سِوَى اللَّهِ.

﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾: تُقَدِّسُهُمْ مِنَ الْبَخْلِ، وَسُوءِ الْخُلُقِ.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: ادْعُ لَهُمْ بِقَبُولِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ لَوْصَالِهِ، وَقَبُولِهِ مِنْهُمْ مَا مَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نَوَالِهِ.

﴿إِنْ صَلَّوْا عَلَيْكَ﴾: سَكِينَةُ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّ دُعَاءَكَ لَهُمْ، مَقْرُونٌ بِالْإِجَابَةِ، وَهُمْ مُوقِنُونَ بِذَلِكَ.

قَالَ رُوَيْمٌ: تُطَهَّرُ سِرَائِرُهُمْ، وَتُزَكَّى نَفُوسُهُمْ.

قَالَ الْوَاسِطِيُّ: تُطَهَّرُ أَبْدَانُهُمْ مِنْ دَنَسِ الْإِنْشَغَالِ بِهَا وَالْإِنْقِطَاعِ إِلَيْهَا، وَتُزَكَّى عَنْ دَنَسِ الْإِفْتِخَارِ بِهَا، وَالْمُكَاثَرَةِ بِجَمْعِهَا، وَلَيْسَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ زَكَاةٌ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ عَلَى سِرَائِرِهِمْ خَطَرُ الْأَمْوَالِ.

وَقَالَ أَيْضًا: تُطَهَّرُ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَنْجَاسِ الذُّنُوبِ، وَتُزَكَّى بِوَاطِنِهِمْ وَسِرَائِرُهُمْ مِنْ أَنْجَاسِ الْعُيُوبِ، فَأَنْجَاسُ ذُنُوبِ الظَّاهِرِ الْمَنْعِ، وَأَنْجَاسُ عُيُوبِ الْبَاطِنِ الْأَذَى.

وقيل في قوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾^(١) أي: ادع لهم، فإنَّ دعاءك لهم يكون سكونا إلى الآخرة، وانقطاعا عن الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾^(٢) إنَّ الله سبحانه عرَّف الخلق كرمه القديم، وفضله العميم يُعطي الكثير، ويقبل القليل، ويرى من عبده كثير السيئات، ويبدِّلها له بالحسنات.

أي: يقبل توبة الأسف على ما فاته من قُرْبَةٍ في زمان الطاعة، ويأخذ صدقة الموقن بجزائه بكشف المشاهدة.

قال النصر آبادي: فرق بين القبول والأخذ؛ لأنه قد يقبل ثم يأخذ، ولا يأخذ إلا عن قبول، فالأخذ أتم وأعم.

وقال أيضًا: أخذ الصدقة أجل من قبول التوبة؛ لذلك تقع فيه الترية، قال النبي ﷺ: «إنَّ الله يأخذها فِيرِهَا كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله..»^(٣) الحديث.

وعند عبده وخادمه - والله أعلم - أن القبول أنتم من الأخذ؛ لأنه ربا يأخذ، ولا يليق بنفسه وتعطى إلى غيره، ولا يقبل بطيب نفسه منه، بل يأخذ بطيب قلب المُعطي، فإذا قبل لطيب نفسه يأخذ لنفسه، ولا يعطي إلى غيره.

وأيضًا: يرى أن قبول التوبة أعظم من قبول الصدقة؛ لأنَّ الصدقة شيء لا يتعلق بوجود التائب، وما جرى على التائب من المعصية كراهية عند الله، لأجل منازعته ومخالفته وذلك يتعلق بالجبروت، فإذا ندم وخضع وخجل بين يدي الله، يصير خارجًا من صورة المنازعة، وخاضعًا للربوبية، فما كان في نفسه من الإيَّان واليقين والندم والخجل، أعظم من جميع الكون عند الله.

إن كان صدقة منه، فإنه يُعْظَم الله ويَصْدُقُه، وينزَّهه بفنائه في عظمته، وهذا عمل القلب والصدقة وما سواهما عمل الجوارح، وأين عمل الجوارح عند عمل القلب؟ وذكر الله أعظم من جميع الصدقات وجميع المعاملات، فإنه ذَكَر ذاته وصفاته، قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال النبي ﷺ «حمد الحامد أعظم مما أعطي له من النعمة».

﴿وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ

(١) قال القشيري (٣/ ١٦٢): إنَّ تُعَاثِرُهُمْ بِهَيْئَتِكَ معهم أئمنُ لهم من استقلالهم بأموالهم.

(٢) رواه البخاري (٢/ ٥١١)، ومسلم (٢/ ٧٠٢).

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجُونَ لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَخْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ مُخَبَّرُونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَنْ أُسُسَ بُنْيَنُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسُسَ بُنْيَنُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ بين سبحانه مراتب علوم الإلهية على ثلاثة أقسام: استأثر قسماً لنفسه، وقسماً لرسوله، وقسماً لأوليائه، فما استأثر لنفسه، فهو العلم القديم، وإحاطة نظره القديم على كل محدث، ولا تخفى عليه الضمائر، وما يجري في السرائر علماً ورؤية بغير علة الاكتساب.

ثم استأثر الأنبياء بنور منه يرون به، فترى قلوبهم به أعمال الخلائق عياناً وبياناً، وذلك نور الذات، واستأثر أوليائه بسنا منه، فيرى به أعمال الخلائق في الخُلُوات، وما في قلوبهم من المغيَّبات بالفراسات الصادقة، ذلك نور الصفات، وفيه تخويف المخلصين والصادقين الذين يتعرض لقلوبهم النعوس، والشياطين بالهواجس والوساوس في أوقات الفِترَةِ؛ حتى يراقبوا أسرارهم، ويراعوا أوقاتهم بتقديس القلوب من الخطرات.

قال أبو حفص أو أبو عثمان: اعمل، وأصلح العمل، وأخلص النية، فإن الله يرى سرّك وضميرك، والرسول يراه رؤية مشاهدة، والمؤمنون يرونه رؤية فِرَاسة وتوسم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدُ أُسُسٍ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾: بين الله سبحانه أن تأسيس كل عبادة لا يكون إلا بالتقوى، والتقوى بظهور الأسرار عن النظر إلى الأغيار، وكل موضع يتضرّر فيه، ونيران التقوى تحرق جميع الأوصاف النفسانية والشیطانية من الشرك والشك والرياء والنفاق والسمعة، ولا يبقى هناك إلا صفاء السرّ وطهارة الضمير، وخلوص النية، وصفاء القلب، وتجريد ذكر الله عن ذكر مخلوق.

وإذا كان كذلك تكون العبادة والإرادة، تبلغ الإيِّمان والإيقان إلى درجة العرفان،

والعرفان يبلغ هذه المراتب إلى درجة التوحيد، والتوحيد يبلغ الجميع إلى مشاهدة المُوَحَّد، حتى صارت كل غيبة عياناً، وكل نكرة عرفاناً وكل إبهام بياناً، قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

وفي هذه الآية عرّفنا الله سبحانه أن الشرّ قديمٌ، وفي كل زمانٍ، لكل صادق قيّض الله له بذاته ملعوناً سالوساً يؤذيه، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]، ومن جملة من كان يؤذى نبينا ﷺ: أبو عامر الفاسق، وكان راهباً أمر المنافقين ليينوا مسجداً ضد مسجد قباء، أو مسجد النبي ﷺ رياء وسمعة ونفاقاً، وصدّ الخلق عن الدخول في الإسلام.

كذلك في زماننا هذا لبسوا الصوف، وأظهروا الزهد، وبنوا بقاع السوء، وجلسوا فيه بالأربعين، ويرسلون الشياطين إلى أبوابه، لا تراك العوانين حتى يقولوا أن فلاناً في الأربعين، ينبغي أن تزوروه، فإنه من أولياء الله، ويريدون بذلك جرّ المنفعة إليهم، وصرف وجوه الناس إليهم مع مضادات أولياء الله، فإذا دخل عليهم أحد من العوام، يقعون في ذكر مساوي أولياء الله، وعيبهم وقبح المقال فيهم؛ ليصدوا الناس عن التبرّك بهم، والاعتقاد فيهم يخونون الله، ويخونون أولياء الله، والله لا يهدي كيد الخائنين، طهر الله وجه الأرض من مثلهم.

قال أبو بكر الوراق في قوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾ من صحّح إرادته بدءاً، ولم يعارضه شكٌ أو ريبٌ، فإنّ أحواله تجري على الاستقامة، وتصحيح الإرادة، هو الخلع عن مراده أجمع، والرجوع إلى مراد الله فيه.

قال الله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى﴾.

قال أبو عثمان: أرض الفتنة لا يَنْبُتُ فيها إلا الفتنة، وأرض الرحمة تُصيب الإنسان رحمة، ولو بعد حين^(١).

ثم إن الله سبحانه وصف أهل القباء بتقديس أسرارهم، وعلو مراتبهم، وقبولهم في أزل محبته هم، بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ مُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ مُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾: وصفهم بحبّ الطهارة، ووصف نفسه تعالى بحبّ المطهّرين.

والطهارة: طهارة الأسرار من الخطرات، وطهارة الأرواح من الغفلات، وطهارة القلوب من الشهوات، وطهارة العقول من الجهلات، وطهارة النفوس من الكفريات،

(١) (أحق أن تقوم فيه) أي: أولى بأن تصلى فيه، وهو مسجد قباء، أسسه رسول الله ﷺ في أيام مقامه بقباء، حين هاجر من مكة، من الإثنين إلى الجمعة، وهذا أوفق للقصة. البحر المديد (٢/ ٤٤٧).

وطهارة الأبدان من الزلات، ومن أحبه الله في الأزل، يُطهره في الدنيا مما يشغله عن الله طرفة عين، فإن المحب لا يترك حبيبه في شيء يُضر به.

قال سهل: الطهارة على ثلاثة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية.

وقال بعضهم: ﴿مُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ أي: يُطهروا أسرارهم عن دنس الأكوان، ثم وصف سبحانه هؤلاء الرجال، وتأسيسهم بناء الطاعات على موافقة الله ورسوله، وطلب رضوانه، بقوله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ رَبِّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ؟﴾ الله بُنيان، وهو قلوب الصديقين، وفيها مناظر القدس، ومحافل الأنس، تحفوها أنوار تجلي الحق سبحانه، فمن أسس بُنيان قلبه بعد تطهيره عن دنس الأخلاق، وتنويره بنور الخلاق؛ لذكر جلاله، وتعظيم عظيمته، وحُب لقائه، وشوقه إلى جماله، ومعرفته وتوحيده، وإفراد قدمه عن الحوادث بنعت فنائه في احتشام الله، وخوفه وإجلاله، وخشيته من كبريائه، ومراقبته خطابه وأسراره، وطلب رضوانه ووصاله، يصل بهذه الأوصاف إلى أن يكون قلبه موضع أسرار الله، ولطائف رضوان الله، وظرف محبة الله، ومحل زيارة الله، كما حكي للنبي ﷺ عن الله سبحانه، بأن له تعالى ظروف أسرارته في الأرض، قال: «إن لله أواني ألا وهي القلوب»^(١).

قال أبو تراب النخشي: من كان إبقاء إرادته على الصحة والسلامة من هواجس نفسه إلى الرضوان الأكبر، والمقام الأرفع.

قال الله: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ رَبِّهِ؟﴾.

قال الواسطي: ﴿عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ رَبِّهِ؟﴾: لا من نفسه يكون الله أصل تلك التقوى. ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ؟ فَاسْتَبَشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم﴾ (٢٣) التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّابِقُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٤) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ

(١) رواه الحكيم الترمذي (١٨٨/٣).

الْجَحِيمِ ﴿١٣٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٣٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةُ﴾ تقتضي همة المعرفة أنه أغار على نفسه في الأزل بعد أن وصف نفسه بمحبتهم، فمنهم عن نفسه، وشغلهم بغيره مكرًا بهم واستدراجًا، اشترى نفسه منهم؛ لأنه بذاته نفس الكل، حيث قام الوجود بنفسه، ولولا قيامه على شيء تلاشت الأشياء، ما قلَّ من لحظة عرض نفسه الحدثان، ولم يرها أهلًا لنفسه، فاشترى نفسه من نفسه؛ لعلمه بضعف الخلق عن تحمل وارد تجلي عظمة نفسه، وكيف يقوم الحدث جلال القدم، وهو تعالى قيمة نفسه لا غير، اشترى شفقة عليهم؛ كيلا يتلاشوا في سبحات عزته، ثم اشترى أموالهم، وهي كشوف نعوته الأزلية، وتمتعهم بمشاهدتها؛ حتى لا يبقى سرّ العدم إلا في القدم.

فلما قطعهم عن رؤية سبحات القدم بالحقيقة، شغلهم بما يليق بهم، وهي الجنة، وأيضًا لم يرَ للنفوس والأموال نفاسة حيث اشتراها بالجنة، ولو كان لها موقع لا اشتراها بنفسه لا بشيء محدث، وأيضًا اشترى النفوس؛ لأنها حجاب القلب من الرب، وكذلك المال؛ حتى لم يبق بينه وبين الرب حجاب، وأيضًا اشترى منهم النفوس التي تحت سلطانهم بالمجاهدات، وما اشترى قلوبهم؛ لأن قلوبهم لم تدخل تحت أملاكهم، فإنه مستغرق في رؤية الصفات.

وقال ابن عطاء: نفسك موضع كل شهوة وبلية، ومالك محل كل إثم ومعصية، فأراد أن يزيل ملكك عما نصرك، ويُعوّضك عليه ما ينفعك عاجلاً أو آجلاً.

قال سهل: لا نفس للمؤمن؛ لأنها دخلت في البيع مع الله، فمن لم يبيع من الله حياته الفانية، كيف يعيش مع الله، ويحيى حياة طيبة.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾.

قال جعفر: مكر بهم على لسان الحقيقة ولسان المعاملة، واشترى منهم الأجساد لمواضع وقوع المحبة في قلوبهم، فأحياهم بالوصلة.

وقال الحسين: نفوس المؤمنين نفوس أبيّة اشتراها الحق، فلا يملكها سواه.

وقال النصر آبادي: سئل الجنيد: متى اشترى؟ قال: حين لا متى أزال عنهم العلل، بزوال ملكهم عن أنفسهم وأموالهم؛ ليصلحوا لمجاورة الحق ومخاطبته.

وقال النصر آبادي: اشترى منك ما هو صفتك، والقلب تحت صفته لم يقع عليه

المبايعة، قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن»^(١)
 فقال: النفس محل الغيب، والكريم يرغب في شراء ما يزهد فيه غيره، وما سئح لي بعد
 قولهم، وما ذكرت في مقدم قولهم: أنه تعالى ألبس النفوس حين أوجدها لباس قهر الربوبية،
 فأسخطت من مباشرته وصف الكبرياء، فلما اتَّصف بقهره تعالى نازعته، فعلم الحق تعالى لو
 تركها مع المؤمنين أغوتهم، كما أغوت فرعون، بقوله: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» [النازعات:
 ٢٤]، وكما قال إبليس: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» [الأعراف: ١٢]، فهلكها بقهره؛ حتى لا يبقى في
 المؤمن غير العبودية.

ثم أن الله سبحانه فرَّح فؤاد العارفين بوفائه معهم، وخطابه بأخباره عن صدقه بوفائه؛
 ليكونوا في بذل وجودهم وقتل نفوسهم، والجهاد مع عدوهم على حسن الظن في الله،
 وحسن الرضا إلى وعد الله وفائه لعهدده، بقوله:

«وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ؟ أَي: كُلُّ حَادِثٍ نَاقِصٍ فِي أَمْرِ الْمُسْتَقْبَلِ وَالْقَدِيمِ،
 مَنْزَعٌ عَنْ نَقَائِصِ الْحَدَثَانِ، فَيَفْعَلُ بِمَوْجِبِ الْأَخْبَارِ عَلَى مُوَافَقَةِ الْحُكْمِ، وَيُعْطِي لِلْعَبْدِ مَا وَعَدَ
 بِهِ وَأَكْثَرَ، إِظْهَارًا لِرَبُوبِيَّتِهِ، وَمَنَّا عَلَى عِبَادِهِ.

قال الحسين: عهد الحق في الأزل إلى خواصه باختصاص خاصة خصَّهم من بين
 تكوينه، فأظهر آثار أنوار ذلك عليهم عند استخراج الذر، فرأى آدم ﷺ الأنوار تتلأأ،
 فقال: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ ثم أظهر سمات ذلك حين أوجدهم، وهى آثار ذلك العهد الذي عهد
 إليهم فوقهم بعهودهم «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ؟».

ثم إن الله سبحانه بشَّر المؤمنين باشتراؤه نفوسهم منهم، وبما يجازيهم بها من لطفه
 وكرمه وفضله ومشاهدته، بقوله:

«فَاسْتَبْشِرُوا بِالَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ»، وأضاف اشتراء النفوس إلى نفسه، اشتراها
 في الأزل، وأضاف بيعها إلى المؤمنين، وأين المؤمنون في الأزل؟

وأقام نفسه مقام المؤمنين؛ لإشارة مقام الاتِّصاف والاتِّحاد، كما أشار إلى النبي ﷺ،
 بقوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ
 الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الأنفال: ١٧]، والآية من قبيل عين
 الجمع بشَّره نبيهم، والغرض من ذلك المشتري أي: بشَّروا بمتابعتكم معي حيث
 اصطفتيكم بخطابي وشرائي، الذي يُنبئكم عن كريم نطفي بكم، بأنِّي أعطيتكم ما وعدتكم بلا

عذاب ولا حساب، واكشف عن وجهي قناع الجبروت، وأريكم جمالي وجلالي، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

قال النصر آبادي: البُشرى في هذا البيع، أنه يُوفي بما وعد، بأن لهم الجنة، ويزيد لمن يشاء فضلاً منه وكرماً بالرؤية والمشاهدة.

ثم وصف أهل ذلك البيع والشراء، بأوصاف المقامات مفصلاً ومقتسماً، بعد أن جعل جميع الأوصاف في اسم العلم الذي هو المؤمن، وذلك الاسم اسم جامع لمعانٍ كثيرة، وهي ما وصفهم الله بهذا في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّابِقُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ بين تسعة مقامات، وذكر في أولها ذكر الإيمان، حيث قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان أصل جميع المعاملات والحالات والدرجات والمنازلات، وهو أصل جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، وهو تعريف الله نفسه لعبده بعد أن جعله عاقلاً مستعداً لمعرفة، فاهماً لخطابه.

ومن الإيمان تشعب هذه الخصال، وهذه المقامات، فصارت قسمة المقامات عشرة مع الإيمان، والإيمان أوله.

والمؤمن ممتحنٌ ببلايا المعرفة من الله، فيذوق مرارة الفرقة بعد ذوق الوصلة، فيقع بتوفيق الله السابق في الأزل، فيوقظه من نوم الغفلة، وينبّهه من قدرة الفرقة حتى يتنبه ويفتح عين قلبه، فيعرف ما أفسدت النفس والشيطان في مصارع قلبه بذئاب الشهوات، وسباع الشبهات، ويرى خيول الهوى في محلّ الروح الناطقة، فيهيّج سرّه نور الإيمان إلى إخراجها من منظر نظر الله، فيقدّس أسرارهِ من النظر إلى الأغيار، ويخرج نفسه من منازل الاغترار، ويندم على ما فاتهِ من أوقات الطاعات، ويرجع بالحياء والخجل إلى أبواب المداناة، ويستأنف عمل الإرادات، حتى تستحق له مرتبة التوبة، فيتوب الله عليه بعطف وصاله وكشف جماله.

فالتائبون: قومٌ رجعوا من غير الله إلى الله، واستقاموا بالله مع الله، ولا يرجعون من الله إلى غير الله أبداً.

ثم يوجب هذه الأوصاف للتائب الصادق، العبادات والمجاهدات والرياضات، حتى يذوق طعم العبودية، وذلك بعد الحرية عما سوى الله، حتى يكون عبداً لله لا لغير الله، ويرى مشاهدة الله في عبادة الله بعين الإحسان ونور العرفان، كما قال سيد فرسان العالمين في ميادين

المعرفة محمد رسول الله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^(١).

فالعابدون: هم القائمون بالله في الله عن غير الله، فإذا تمت هذه النعم لهذا العابد يقتضي حاله حمد المنعم القديم بإحسانه السابق للعابد في الأزل بإنعامه، فيحمده بوصل الخجل، وخرس السنة أسرارته عن البلوغ إلى ثنائه، فيحمده بلسان حمده بنعت نسيان غيره في حمده، فيحمد مُنعمه بنعمة تعريف نفسه له، فيستعف لسان الحمد من صفته، فيصفه بصفته لا بوصفه؛ لأن الحادث كيف يطيق أن يحمد القديم؟

ألا ترى كيف رأى النبي ﷺ نفسه عن حمده في رؤية جلاله مقصورة عن البلوغ إلى حقيقة حمده وثنائه، بقوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

فالحامدون: الذاكرون الله لجميع الوجود ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلانية، حتى لا تخلو شعرة منهم إلا ولها لسان من الله بحمد الله به في جميع الأنفاس، المستغرقون في بحار امتنان مشاهدته.

ثم يقتضي حمده للحامد حبس النفس عن مآلوفاتها حين عاين هلال جماله في سماء الإيقان، ألا ترى كيف قال ﷺ: «صوموا لرؤيته»، ولا يكون فطوره إلا حلاوة مشاهدته؛ لقوله ﷺ: «وأفطروا لرؤيته»^(٣).

فالسائحون: السيّارون بقلوبهم في الملكوت، الطائرون بأجنحة المحبة في هواء الجبروت، ثم السباحة في أقطار الغيب، يقتضي المشايخ الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة والكبرياء في مراكم الكشف، فيركع بنعت السكر لجبروته في كلّ موطن من العالم شوقاً إلى جود جماله، وحسن وصاله.

فالراكمون: العاشقون المنحنيون من ثقل أوقار المعرفة على باب العظمة من رؤية الهيبة، ثم يقتضي ركوع هذا الراكع شهود أسرارته في منازل الأنوار؛ لطلب جمال الملك الغفار جلّ جلاله وعزّ كبريائه، فيسجد عند كلّ كشف في كلّ موضع وحش، حتى يصير مدهوشاً في دهشة بديه كشف جماله من كلّ قبلة في العالم، فيسجد لجميع الجهات لغيبه في معانيات الصفات.

وهكذا كان هشام بن عبدان الشيرازي - رحمة الله عليه - في سكره، ومات بهذه الصفة بارك الله في حياته ومماته، وجعلنا مثله في عرصات المقبولين بسيف محبته، وكشف مشاهدته

(١) رواه البخاري (٢٧/١)، ومسلم (٣٧/١).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٦٧٤/٢)، ومسلم (٧٥٩/٢).

﴿وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

فالساجدون: الشاهدون مشاهدة الغيب بعد كشف الغيب حرقةً وهيجاناً وشوقاً وهيئاً، أنشد:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا الْعِزَّةَ رُكَّعًا وَسُجُودًا

وهذا السجود يقتضي التوبة، والقربة تقتضي المشاهدة، والمشاهدة تُصير شاهداً متصفاً بصفاتها، فمن وقع في نور أسماء الله وصفاته، صار متصفاً بوصف الربوبية، متمكناً في العبودية، فيحكم بحكم الله بهذه النعوت.

وقال: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الداعون الخلق إلى الحق بلسان الظرافة، ومباشرة المعاملة، الباذلون أنفسهم في الله، دفع المضرة عنهم، وأخرجهم عن معصية الله بتأييد الله، وبما كساهم الله من أنوار هيئته، وكسوة سنا عظمتها، فيكونون محتشمين باحتشامه بين الخلائق، فنههم عن متابعة الشهوات بعد أن منعتهم نفوسهم عن جميع المخالفات.

قال تعالى: ﴿وَالْتَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الناهون نفوسهم عن الهواجس، وشياطينهم عن الوسوس، وقلوبهم عن طلب الآخرة، وأرواحهم عن وقوفها في مقام المحبة؛ لأن الأزلية بلا نهاية، والوقوف على منزل واحد حرام على كل عاشق، وهذا مجال يقتضي رتبة أعلى، وهي حفظ حدود الله، وتابعوا سنة الله ورسوله في شريعته، وأمروا على أنفسهم وعلى خلقه أمر الله ورسوله، ولا يتجاوزون عن حدود الله التي أعلامها معروفة في خطابه، فالحافظون لحدود الله، القائمون في مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم، فلا يتجاوزون عن حد العبودية، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبية، وبعد أن اتصفوا بصفاته، وعانوا جمال ذاته، لا يدعون الربوبية كفعل سكارى المحبة؛ لأنهم في محل التمكين على أسوة مراتب النبي ﷺ مع كماله، قال: «أنا العبد لا إله إلا الله»^(١).

ثم جمع هذه الأوصاف الشريفة، والمراتب الرفيعة في اسم واحد، وهو اسم المؤمن، وبشَّرههم بجزيل المقامات في الدنوّ والمداناة، بقوله: ﴿وَنَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: العارفين الذين هذه الأوصاف صفتهم، وهم في أعلى الدرجات من التوحيد أي: بشَّره أنا لهم وهم لي، حجاب بيني وبينهم أبداً، وإذا خرجوا من هذه المفاوز الوعرة لا يبقى بيني وبينهم امتحان بعد ذلك، فإنَّ هناك لهيب الوصال بلا علة الفرقة، وكشف الجمال بلا حجاب الوحشة، قال تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

ولي أيضًا لطيفة في حقّ المؤمنين، أنّ الله سبحانه ذكر أوصاف هؤلاء الكبراء من أهل المقامات والدرجات، وما ذكر ذكر البشارة هناك، كأنّ ذلك يقتضي حزن المؤمنين الذين هم في أدنى الدرجات من درجاتهم، فبشّرهم بالبشارة، وعاملهم بالبيع والشراء.

قال في الأول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾، وقال في آخر الآية: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: اشترت منهم نفوسهم بثمن كريم.

قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بأنّ ذلك الثمن الكريم جنة مشاهدتي، التي بسّامة بنعت الرضا في وجوههم حين تطلع لعيونهم، وأن ليس لهم هذه المقامات، فإنّ مشتري المفلسين، وأنا مبشّر المحزونين، أي: الدرجات لهؤلاء، وأنا للمؤمنين خاصة بلا علة المعاملة، ولا شبهة الجهد والجاهدة، وأيضًا: بشّر المؤمنين بهذه المقامات، فإنّها أيضًا من أهل المقام بإيمانهم بهؤلاء الأصفياء.

آلا ترى إلى قول رويم - قدّس الله روحه - حيث قال: من آمن بكلامنا هذا من وراء سبعين حجابًا، فهو من أهله.

قال سهل في قوله: ﴿التَّائِبُونَ﴾: ليس في الدنيا شيء من الحقوق، أوجب على الخلق من التوبة، إلا بالحمد على ما وقفت به عليه من طلب طريق التوبة، ولا تصحّ التوبة إلا بمداومة السباحة والرياضة، ولا تدرك هذه المقامات، إلا بمداومة الركوع والسجود، ولا يصحّ هذا كله، إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصحّ مما تقدّم، إلا بحفظ الحدود ظاهرًا وباطنًا.

والمؤمن من تكون هذه صفته؛ لأنّ الله يقول: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين هم بهذه الصفة.

قيل في قوله: ﴿التَّائِبُونَ﴾ الراجعون إلى الله بالكلية عن جميع ما لهم من صفاتهم وأحوالهم، العابدون القائمون معه على حقيقة شرائط الخدمة، الحامدون العارفون نعم الله عليهم في كلّ خطرة وطرفة عين.

﴿السَّائِحُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم عن مرادها؛ طلبًا للرضا.

﴿الرَّاكِعُونَ﴾ الخاضعون له على الدوام.

﴿السَّاجِدُونَ﴾ الطالبون قربه.

﴿الَّامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ الأمرون بسنة النبي ﷺ.

﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عن ارتكاب مخالفات السنن.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ المراعون أوامر الله عليهم في خوارجهم، وقلوبهم، وأسرارهم؛ وأرواحهم، ﴿وَنَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ القائمين بحفظ هذه الحرمات. وقال أبو يزيد: السياحة راحة، من سَاح استراح.

وقال أبو سعيد الخزاز في قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾، قال: هم الذين أصغوا إلى الله بأذان فهمهم الواعية، وقلوبهم الطاهرة، ولم يتخلفوا عن ندائه بحال. وعن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر قال: لا تَصَحَّ العبادة إلا بالتوبة، فلذلك قَدَّم التوبة على العبادة، ولا تتم التوبة إلا بملازمة العبادة، فجعلها تالية.

قال ابن عطاء: ﴿التَّيْبُونَ﴾ الراجعون إلى الله من كُلِّ ما سواه من الأغيار. و﴿الْعَبِيدُونَ﴾ الواقفون على بابه يطلبون الإذن عليه شوقاً منهم إليه. و﴿الْحَمِيدُونَ﴾ هم الذين يشكرونه على السراء والضراء، إذ كُلُّ منه، وما كان منه، فهو مقبول بالسمع والطاعة.

و﴿السَّابِحُونَ﴾ التاركون شهواتهم، ومراداتهم لمراد الحق فيهم. و﴿الرَّاكِعُونَ﴾ الخاضعون لعظمة الله. و﴿السَّاجِدُونَ﴾: المتقربون إلى الله بخدمته، و﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ القائمون بأوامر الله بحسب الطاقة: ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ التاركون مخالفة الحق أجمع، وهم الذين يوالون أولياء الله، ويعادون أعداءه. قال الأستاذ في قوله: ﴿التَّيْبُونَ﴾ الراجعون إلى الله، فَمَنْ راجع، يرجع عن زلَّته إلى طاعته، وَمَنْ راجع، يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه، وَمَنْ راجع، يرجع من شهود نفسه إلى شهود لُطفه، وَمَنْ راجع، يرجع عن الإحسان بنفسه وأبناء جنسه إلى الاستقرار في حقائق حقه.

وقال في قوله: ﴿الْعَبِيدُونَ﴾ هم الخاضعون بكلِّ وجه، الذين لا تسترقهم كرائم الدنيا، ولا تستعبدهم عظائم العقبي، و﴿الْحَمِيدُونَ﴾ الشاكرون له على وجود أفضاله المثنون عليه عند شهود جماله وجلاله، و﴿السَّابِحُونَ﴾ الممتنعون عن خدمة غير الله، المكتفون من الله بالله، و﴿الرَّاكِعُونَ﴾ الخاضعون لله في جميع الأحوال تحت سلطان التجلي، و﴿السَّاجِدُونَ﴾ في الظاهر بنفوسهم على بساط العبودية، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية.

﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هم الذين يَدْعُونَ الخلق إلى الله،

ويحذرونهم عن غير الله، يتواصون بالإقبال على الله، وترك الانشغال بغير الله. ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ يحفظون الله مع الله أنفاسهم.

قيل في قوله: ﴿السَّابِقُونَ﴾ الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار؛ طلباً للاستبصار، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها، بالتفكير في جوانبها ومساكنها، والاستدلال بتغيرها على منشئها، والتحقق بحكمة خالقها، كلما يرون من الآيات التي فيها، ويسيحون بأسرارهم في الملكوت، فيجدون روح الوصال، ويعيشون بنسيم الأنس، والتحقق بشهود الحق.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١٠) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ نَحْيٍ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١١) ﴿

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ سبحانه إذا أذاق طعم وصاله، ولذائذ حلو خطابه أرواح الصديقين والعارفين، وأراهم جماله وجلاله، فجعلهم عاشقين بوجهه، شائقين إلى جماله، وهم بهذه النعوت لا يترحون عن بابه، ولا يفرحون إلا بوصاله، ولا يلتفتون بقلوبهم ونياتهم إلى غيره، فلما اصطفاهم بهذه الصفات في الأزل بنفسه، كيف يحببهم عن نفسه، وهو بذاته كان محباً بحبهم، وعاشقاً بعشقهم، وشائقاً إلى شوقه، حاشا التغير في أهل الصفات، ولا تبديل الكلمات التامات التي سبقت باصطفائيتهم في الأزال، وأزال الأزال، وهم بحمد الله في كنف الله، محروسون بعين لطفه عن عين قهره إلى الآباد وآباد الآباد، ولا اعتبار بما يجري عليهم من أحكام الابتلاء والامتحان، فإن سيئاتهم تُوجب الحسنات، وحسناتهم تُوجب القربات، وهم غير مأخوذِينَ بالجنايات، لسبق العنايةات.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ﴾ لا يمنع تغير ما ذكرنا، فإن الضلال هاهنا ظهور النكرة في محل الامتحان من القهر والغيرة، وخفاء الحال، والغرض في ذلك انفتاح عين المعرفة في النكرة، حتى يعرفوا الحق بطريق القهر واللطف، وتأويل الظاهر. قال بعضهم: مَنْ جرى له في الأزل من السعادة والعناية نصيب، فإن الجنايات لا تؤثر عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ في الأبد، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ في الأزل.

وقيل: لا يُضِلُّهم بعد إذ هداهم إليه.

وقال الأستاذ: الإشارة فيه أنه لا سلب لعطائه، إلا بترك الأدب منكم.

ويقال: من أهله لبساط الوصلة ما مُنِّي بعده بعذاب الفرقة، إلا لمن سلب منه ترك الحرمة.

ثم وصف نفسه بأنه مالك الملك من العرش إلى الثرى؛ إعلاما بأن الحكم له في الضلالة والهداية والحياة بالوصلة، والموت بالفرقة؛ بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

إشارة القهر أن ملك الكون لا خطر في قلب العارف عند رؤية المكون؛ لأن من عاين المكون غاب عن الكون، والكون له؛ لأن العارف والمعروف بشرط الانبساط واحد، له ملك الولاية في الأرض، وملك الملكية في السماء، من قصده لهاتين المنزلتين يكون مرهونا للدرجات عن المشاهدات، التي تُحْيِي قلوب العشاق بجمالها، وتميت المشغولين بغيره، بفراقها، وتُحْيِي قلوب العارفين بالبسط والأنس، وتميت نفوسهم بالقبض والهيبة.

قال ابن عطاء: من طلب من الملك غير المالك؛ فقد أخطأ الطريق.

وقال جعفر: الأكوان كلها له، فلا يشغلك ما له عنه.

قال الأستاذ: يُحْيِي من يشاء بعرفانه وتوحيده، ويُمِيت من يشاء بكفرانه وإلحاده.

ويقال: يُحْيِي قلوب العارفين بأنوار المواصلة، ويُمِيت نفوس العابدين بآثار المنازلة.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(١٧٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ﴾^(١٧٨) يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١٧٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَٰلِك بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٨٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٨١)

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾^(١) التوبة توبتان: توبة العبد: وهى الرجوع من الزلات إلى الطاعات.

وتوبة الله: رجوعه إلى الله بنعت الوصال، وفتح باب المآب، وكشف النقاب عن الاحتجاب، وطلب العتاب:

إِذَا مَرَضْتُمْ أَتَيْنَاكُمْ نَعْوَدُكُمْ وَتَدِينُنَا فَنَاتِيكُمْ فَنَعْذُرُ

انظر لطف الله بنبيه وأصحابه، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم، رجع إليهم قبل رجوعهم إليه؛ ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة، ورجوعه إليهم بكشف القربة، فتوبة النبي ﷺ من غيبته عن المشاهدة باشتغاله بأداء الرسالة، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة، فلما ذاقوا طعم الجنايات، واحتجبوا عن المشاهدات، أدركهم فيض الوصال، وانكشف لهم أنوار الجمال، وهكذا سنة الله مع الأنبياء والأولياء إذا دانوا في مقام الامتحان، وبقوا في الحجاب عن مشاهدة الرحمن، يُمطر عليهم وابل سحاب الكرم، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرق القدم، فيؤنسهم بعد إياسهم، ويوصلهم بعد قنوطهم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨]، وقال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْفَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]، وأنشد في معناه:

كُنَّا كَمَنْ أَلْبَسَ أَكْفَانَهُ وَقَرَّبَ النِّعَشَ مِنَ الْمَلْحِدِ
فَحَالَ مَاءُ الرُّوحِ فِي جَسْمِهِ فَرَدَّةٌ أَمْلُ إِلَى الْمَوْلِدِ
تَبَارَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا كُلُّهُ هُوَ بِالسَّرْمَدِ

قال بعضهم: توبة النبي ﷺ، هي مقدمة توبة الأمة؛ لتصح بالمقدمة التوابع من توبة التائبين.

وقال بعضهم: توبة الأنبياء لمشاهدة الخلق في وقت الإبلاغ، إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة، بل لا يحضرون في مواضع الغيبة؛ لأنهم في عين الجمع أبداً، ثُمَّ خَصَّ الثلاثة الذين غرقوا في بحار الامتحان، برجوعه عليهم بقبول توبتهم، بقوله:

(١) أي نبي الروح بمنزلة النبي يأخذ بهلام الحق حقائق الدين ويبلغها إلى أمته من القلب والنفس والجوارح والأعضاء. فالمعنى: أفاض الله على نبي الروح ومهاجري صفاته الذين هاجروا معه من مكة الروحانية إلى المدينة الجسدانية والأنصار من القلب والنفس وصفاتها وهم ساكنوا مدينة الجسد فيوضات الرحمة. تفسير حقي (١٨٧/٥).

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾:

انبسطت عرصات قلوبهم لتراكم غيوم القبض، وتتابع على أسرارهم أنوار العظمة، فأبرزت الأرض من عظام برحاء مواجيدهم، وتراكم حقائق همومهم، فلا يبقى ذرة من الأرض إلا واستغرقت في بحار أنفاسهم الملكوتية، واحترقت بنيران أفئدتهم الجبروتية، وما رأوا على وجه الأرض ما يستأنسون به غير الله.

ثم وصف نفوسهم بفنائها في آثار قلوبهم، بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ﴾ ضاقت نفوسهم من حمل وارد الغيب عليهم، وعن أثقال أرواحهم، التي هي مطايا أسرار الألوهية، ولطائف كنوز الربوبية، وفنوا تحت سلطان كبريائه، ودخلوا تحت أكناف لطفه من عزائم قهره.

بقوله تعالى: ﴿وَوَظَنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ عرفوا موضع الفرار منه إليه، فقطعوا الوسائط، وخاضوا في بحار القهر بسفن اللطف، فلما رأهم منفردين من دونه، أقبل إليهم بنوادر لطفه؛ ليقلبهم من الكون إلى وجهه، بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ رفع حجاب الحشمة من البين؛ ليدخلوا الحضرة بوصف الأنس، اشتاق إليهم، فشوقهم إليه، ثم وصف نفسه بأنه قابل التوبة في الأزل، رحيم على من رجع إليه، بأن أمنه بعد خوفه، وقربه بعد بعده.

قال أبو عثمان: من رجع إلى الله، وإلى سبيله، فلتكن صفته هذه الآية، تضيق عليه الأرض حتى لا يجد فيها لقدمه موضع قرار، إلا وهو خائف أن الله ينتقم منه فيها، وتضيق عليه أحوال نفسه، فينتظر الهلاك مع كل نفس، هذه أوائل دلائل التوبة النصوح، ولا يكون له ملجأ ولا معاد ولا رجوع؛ إلا إلى الله بانقطاع قلبه عن كل سبب.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾.

وقيل في قوله: ﴿وَوَظَنُوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ لن يعتمدوا حبيباً، ولا خليلاً؛ ولا كليماً، بل قلوبهم منقطعة عن الخلق أجمع، وعن الأكوان كلها. لذلك قيل: المعارف ألا تلاحظ حبيباً ولا خليلاً ولا كليماً، وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً.

وقال أحمد بن خضرويه، لأبي يزيد: بماذا أصل إلى التوبة النصوح؟

قال: بالله وبتوفيقه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾.

قال بعضهم: عطف عليهم بنوال عطفه ونعمه وفضله، فألفوا إحسانه، ورجعوا إليه،

فكان هو الذي أخذهم إلى نفسه، لا هم بأنفسهم رجعوا إليه.

قال الأستاذ: إذا أشرفوا على العطب، وقاربوا من التلف، واستمكن اليأس من قلوبهم من النصر، وظنوا نفوسهم على أن يذوقوا إليهم اليأس، أمطر عليهم سحب الجود بالإجابة، فيعود عود الحياة بعد يسه طرياً، ويرد الأُنس عقب ذُبوله غُضاً جلياً.

وقال في وصف الثلاثة لما صدق منهم الملجأ: سبق إليهم الشفاء، وسقط عنهم البلاء، وكذلك الحق يكون نهار اليسر على ليالي العسر، ويطلع شمس المنّة على فخوس الفتنة، ويله من تلك السعادة، فيمحق تأثير طوارق النكادة سنّة منه سبحانه، لا يُبدّلها عادة في الكرم يجريها، ولا يحولها، ثم حث هؤلاء المخاطبين بالتوبة والمغفرة، ونظر أنهم من المؤمنين، بطلب زيادة المقامات والدرجات، وحذّرهم من نفسه، وطالبهم بالصدق في وفاء المعرفة، بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ جعل الطريق على ثلاثة أقسام: الإيمان، والتقوى، والصدق، وهي من أعمال القلوب؛ لأنها تُثبت حقائقها بكشف أنوار الغيوب، ومن خُصّ بالإيمان والتقوى والصدق، يُدرك بالإيمان مشاهدة أنوار حقائق الآيات، ويدرك بالتقوى مشاهدة أنوار الصفات، ويدرك بنور الصدق مشاهدة أنوار الذات، سَمَّاهم مؤمنين، ودعاهم من مقام الإيمان إلى مقام التقوى، وهو رؤية إجلاله، والتبرّي من غيره، ودعاهم من التقوى إلى مقام الصدق، وهو مقام الاستقامة مع الله، حيث لا يفر الصادق منه ببلائه، ويبيّن أن المؤمن مستعدّ لإدراك نور التقوى، وإدراك نور الصدق، ولولا ذلك ما حثّهم على طلبها، وخوّف المؤمنين عن مخالفة الصادقين، أي اقبلوا يا أهل الإيمان ما يصدر من الصادقين من أحكام علوم المجهول الغريبة، والبراهين العجيبة؛ حتى تكونوا بالإيمان به معهم في مقام المشاهدة؛ لذلك قال ﷺ «من أحبّ قوماً فهو معهم»^(١).

وقال بعضهم: ﴿مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ مع المقيمين على منهاج الحق

قال بعضهم ﴿الصَّادِقِينَ﴾ الذين لم يُخلفوا الميثاق الأول، فأنها صدق الكلمة.

قال أبو بكر بن طاهر: مع مَنْ ضاقت نيتهم عن طاعته، وخُلِصت سرائرهم لمودة ما يرد عليهم.

﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ

(١) رواه البخاري (٢٢٨٣/٥)، ومسلم (٢٠٣٢/٤).

الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ اختار الله سبحانه قوماً خاصاً لمجالسة نبيه ﷺ على الدوام، وخصَّهم لإلقاء الأسماع الخاصة، لتلقف خطاب الحق من فلق الغيب، وجعل الآخرين للأسفار والمجاهدات والرياضات؛ ليلغهم إلى مقام المشاهدة والصحة، فالأولون أهل الحضور وشهود الغيب، والمؤانساة بالصحة، وفهم الخطاب.

قال تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ليفهموا حقائق أحكام المعرفة، والطريقة والحقيقة، والشريعة، والآخرون إذا تمكَّنوا في العبودية، وأدركوا مقام أهل المؤانسة، وفهموا مراد الله من خطابه، وإذا الكلُّ على سعادة من الأزل وحيث لحق بعضهم بعضاً؛ لأنَّ شمس العناية إذا أشرقت يجاري الكلُّ أنوارها، إذا طلع الصباح لنجمٍ راح تساوى فيه سكران وصاح.

قال سهل: أفضل الرحلة رحلة من الهوى إلى العقل، ومن الجهل إلى العلم، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الاستطاعة إلى التبرُّي من الحول والقوة، ومن النفس إلى التقوى، ومن الأرض إلى السماء، ومن الخلق إلى الله.

قال المرتضى: السياحة والأسفار على ضربين: سياحة؛ لتعلُّم أحكام الدين وأساس الشريعة، وسياحة لآداب العبودية ورياضة الأنفس، فمن رجع من سياحة الأحكام، قام بلسانه يدعو الخلق إلى ربه، ومن رجع من سياحة الآداب والرياضة، قام في الخلق يؤدِّبهم بأخلاقه وشمائله، وسياحة هي سياحة الحق، وهي رؤية أهل الحق والتأدُّب بأدابهم، فهذا بركته تضم العباد والبلاد. قال الله: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾.

قال سهل في قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ ليفهموا في الدين مراد خطابه، ويقوموا باستعمال ما أمروا به مخلصين له الدين، ثم حثهم بقتال نفوسهم، ومجاهدة هواهم، بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ الكفار: النفوس الأبدية التي هي مجمع الهوى والبلاء والحجاب، من عرفها قاتلها وأماتها بفنون الرياضات، حتى لا يبقى في عرضات قلبه من عروق أشجار الشهوات أثر، فينبت فيها بعد ذلك أشجار المعارف، والكواشف ونور الحكمة، ورياحين المودة، وورود الشوق، وياسمين العشق، ويكون بهذه الأنوار مزار جنود الأسرار، ومنازل نزول الأنوار.

قال سهرن: النفس كافرة، فقاتلها بمخالفة هواها، واحملها على طاعة الله، والمجاهدة في سبيله، وأكل الحلال، وقول الصدق، وما أمرت به من مخالفة الطبيعة.

وعن علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر معناه: مجاهدة النفس وشرورها، فإنه أقرب شيء إليك صدق الصادق، حيث وافق قول سيد الصادقين ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وصف الله أهل الإيمان بفتح آذان قلوبهم بسماع خطابه، وفهم بيانه، واستبشار قلوبهم بروح الخطاب، وزيادة إيمانهم في السماع.

قال ابن عطاء: أما الذين حكموا الربوبية، وتمسكوا بعهد العبودية، زادتهم معرفة في قلوبهم، ونظراً أسقط عنهم النظر إلى ما سواه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٢٠) ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٢١) ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٢٢) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٣) ﴿إِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٢٤).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ جهلهم على جهلهم عند معاينة البرهان؛ لأنهم ليسوا من أهل العيان.

قال سهل: أي زاد أهل الأهواء والبدع المضلة جهلاً إلى جهلهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أخبر الله سبحانه عن أهل الفتنة والعزة، لا يعرفون طريق الحق بعد امتحانهم بالبلايا المتواترة، ولا يهتدون سبيل الرشاد بعد إظهار البرهان لهم، وكيف لا يكونون هكذا، وهم في الأزل محجوبون عن عناية السرمديّة.

قال أبو عثمان المغربي: ليس الرجوع في أيام الفتنة، إلا إلى الملجأ والاستغاثة، وطلب

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/١٥٧).

الأمان، وقصد التوبة، فمن رجع إلى غير هذه الأسباب لم يسلم من فتنة نفسه، وإن سلم من فتنة العوام.

قال الله: ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ أي: لا يرجعون إلى الله بقلوبهم، والراجع إلى الله سالم من الفتن والآفات والهَمِّ.

﴿يَذْكُرُونَ﴾ أي: لا يشكرون نعمى السالفة عندهم، وهم يعلمون رِفي بهم في الفتنة.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أخبر سبحانه عن كريم ميلاده ﷺ، وعظيم ميعاده ومراده، وشرف بها أمته، حيث اختاره منها باصطفائية رسالته، وعظم شأنه، والحمد لله الذي جعل طيبته من طيبتنا، وشرف طيبتنا حيث جعلها من طيبته، ونخصَّ جوهر روحه من أرواحنا، وشرف أرواحنا حيث كانت مع روحه في أول بديهة الأمر من الله سبحانه، وأي كرامة أعظم كرامة من أن الله سبحانه جعل نبينا من أنفسنا، وأرسل إلينا بالرافة والرحمة، وأكرم خلقه حيث جعله رحمة للعالمين، قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قال الخراز: أثبت لنفسك خطراً، حين قال: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾. قال الحسين: من أجلكم نفساً، وأعلامكم همّة، جاد بالكونين عوضاً عن الحق، ما نظر إلى الملكوت، ولا إلى السدرة، ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] قلبه عن موافقته. قال ابن عطاء: نفسه موافقة لأنفس الخلق، خلقه ومبائنه لها حقيقة، فإنها نفس مقدسة بأنوار النبوة، مؤيدة بمشاهدة الحقائق، ثابتة في المحل الأدنى، والمقام الأعلى ما زاغ، وما طغى، ثم زاد في وصفه، بقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ اشتدت عليه مخالفتنا مع الحق، ومتابعتنا هواناً، واحتجابنا عن الحق.

قال بعضهم: شقَّ عليه ركوبكم مراكب الخلاف.

قال سهل: شديدٌ عليه غفلتكم عن الله، ولو طرفة عين، ثم زاد في وصفه، بقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: حريصٌ على محبتكم بمشاهدة الله، ومعرفة صفاته وذاته، وعلى متابعتكم أمر الله، رءوفٌ برأفة الله بالمؤمنين، ورحيمٌ برحمة الله على الصادقين، رءوفٌ بأهل الجنايات من المدنيين، ورحيمٌ على أهل الطاعات من المقصّرين، فيها تشفع لأهل الجنايات، وتدعو لأهل الطاعات، وهذا من اتّصافه بصفة الله، حيث ألّبه أنوار عنايته، وزيّنه بلطفه وشفقته.

قال بعضهم في قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: على هدايتكم لو كانت الهداية إليه، مُشْفِقٌ على من اتَّبعه أن يأتيه نزغة من نزغات الشيطان، رحيمٌ يستجلب برحمته له رحمة الله إياه.

وقال: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾: أن تبلغوا محل أهل المعرفة.
قال جعفر الصادق: علم الله عجزَ خلقه عن طاعته، فعرفهم ذلك؛ لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفر من خدمته، فأقام بينه وبينهم مخلوقاً من جنسهم في الصورة، فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾، فألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقاً، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، ثم أفرد عليه السلام لنفسه خاصة بعد أن كان من جنسهم بالصورة، فأواه إلى نفسه بشهوده عليه في جميع أنفاسه، وسلى قلبه بإعراضهم عن متابعتة، بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ في أمر النبوة، وشرف الرسالة وجماله، حسبي عن الجملة، وقربه ووصاله يكفيني عن جميع مراتب الثقلين؛ لأنه بوحدانيتها منزلة عن الأضداد، فنزهنني عن صُحبة الأغيار بمشاهدة الأنوار بوصفه لنفسه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا غير في البين من العرش إلى الثرى.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على نفسي وغيري، فإنه عماد المتوكلين، وبه ثبتت قلوب الصادقين.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ حيث ألبس العرش أنوار عظمتة بعظمتة، ولولا ذلك لذاب العرش في سبحات وجهه بأقل لمحّة.

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّتِّلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّحِرُ مُبِينٌ ۚ ٢ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ ٣

﴿الر﴾: الألف عين الوجدانية، واللام عين الأزلية، والراء عين الربوبية من عين الوجدانية، تجلّى بالألف لقلوب الموحدين والمنفردين من الحدثان، ليفنوا في سباحات الألوهية، وتجلّى من عين الأزلية باللام لأرواح العارفين لتطيره بأجنحة أنوار القدم في القدم، وتجلّى من عين الربوبية بالراء؛ لأسرار المحبين ليستأنسوا بحسن الصفات، ويشتاقوا إلى مشاهدات الذات، سقى الموحدين رحيق الأنانية بأقداح الألف من بحار الوجدانية، فخرجوا بنعت الاتحاد، وسقى العارفين عبقار العشق بأقداح اللام من أنهار الجمال، فخرجوا بنعت الاتصاف والهين، وسقى المحبين عروق الوداد بأقداح الراء من عيون أنوار الربوبية، فخرجوا بنعت الخيرة هائمين.

وأيضاً: الألف آلاؤه للصادقين، واللام ألطافه للمقربين، والراء رحمته على التائبين. قال الحسين: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وقد وقع لي إنما يكون في سورة يونس من الغرائب والعجائب والقصص والأمثال جمعها في ثلاثة أحرف في الألف واللام والراء، ونبّه بها قلب نبيه ﷺ، بإشارة الأحرف الثلاثة فكفى له ذلك؛ لأن بينه وبين الله رموزاً وإشارات، لا يطلع عليها جميع الخلائق، فلذلك يحتاجون إلى نزول سورة كاملة.

وأيضاً: خاطبه بأحسن الأسماء مواساة وتربية، أشار بالألف: يا آدم الثاني؛ لأن الألف أول الحروف من آدم، وأشار باللام: يا لطيف، وأشار بالراء: يا رحيم، كما قال: يا ﴿طه﴾، يا ﴿يس﴾، ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَتَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي: هذه الأبناء آيات صفاتية أزلية التي كنت حكيمًا، وعالمًا بها في القدم والأزل، أيضًا أي: تلك علامات ما ألهمنا روحك في الأزل، فنعرفك بها مكان خطاب الأول، إن القرآن محكم بحكم الأزلية، وحججه البالغة بأمر الربوبية، والدعاء إلى العبودية من فهمه صار حكيمًا بحكمته. وقيل: أي فيه علامات قبول الحكماء لهذا الخطاب.

وقيل: الكتاب الحكيم العهد الناطق عليك بأحكام الظاهر والباطن. قال الأستاذ: إن هذا الكتاب هو الموعود لكم يوم الميثاق، والإشارة فيه أن الصفر نسيج الشعر وغيره.

والعناج: الخيط الذي يشد من أسفل الدلو، حققنا لكم الميعاد وصفرنا لكم عناج الوداد، وانقضى زمان البعاد، فالعصاة ملقاة، والأيام بالسرور متلقة، فبادروا إلى شرب كاسات المحاب، واستقيموا على نصيح الأحباب: خلقه لم يعرفوا موقع عناية الله وفضله واختياره لنبيه نبوته ورسالته بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

وأخبر أن هذه الخاصية من الله سبحانه له؛ بأن ينبه النوامين عن مشاهدة عظمتهم بعظيم بطشه وجلال قدره بقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾، ويبشر الصادقين في إيمانهم؛ بأن وصاله لهم بنعت السرمدية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

أخبر عن أوائل كرمه وسوابق نعمه الصادقين في إرادتهم، والمخلصين في مقاصدهم أن لهم وصالاً بغير حجاب، وكشف جمال بغير عتاب.

وأيضاً أي: بشر العارفين أن لأرواحهم في مقام قدس جلالي وأزلي قدم المحبة وصدق اليقين بمشاهدة، حين كشف جمال وجهي لها في ميثاق الأول، وصدق تلك الأقدام بوصف المحبة أنها لا تزول عن محل الاستقامة في العبودية، وعرفان الربوبية.

وأيضاً: ما وصفت قدم الربوبية في إيجاد الكونين إلا بصدق محبتي لهم في الأزل.

وأيضاً: معنى الآية أولها تخويف بقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي: خوف من نسيبي طرفة عين بفوت حظ مشاهدتي وفراقي ووله وصالي، ثم بشر بلسان نبيه ﷺ من كان جميع قلبه مملوءاً من حبه وصفاء ذكره.

وأيضاً أي: بشر المريدين الذين أيقنوا قربتي لهم وعنايتي لهم أنهم وإن أخطأوا بمباشرة هوى نفوسهم في زمان فترتهم ألا يقنطوا من فضلي ولطفي القديم بهم في سابق حكمي، فإن لهم عندي قدم صدق الإرادة في البداية، ولا يحذر من كرمي أن أهدم صدق أقدامهم في الإرادات بل آريهم بعناياتي إلى قربي ووصالي، وأراعي عواقب أمورهم؛ حتى تكون أقدام الأواخر مستويات بأقدام الأوائل.

قال أبو سعيد الخراز: تفرق الطالبون عند قوله: «من طلبني وجدني»^(١) على سبيل شيء، أولهم أهل الإشارات طلبوه على ما سبق من قوة الإشارة، وهم أهل قدم الصدق عند ربهم، فبالقدم أشار إليهم، فهم أهل الطوالع والإشارات، حظهم منه ذلك. وقال سهل: سابقة رحمة أودعها في محمد ﷺ.

وقال الترمذي: قدم صدق هو إمام الصادقين والصديقين، وهو الشفيع المطاع وسائل المجاب محمد ﷺ.

وقيل في قوله: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ أي: مما يذهل قلوب الصادقين المنتبهين.

وقال النصر آبادي في قوله: ﴿بَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾: القدم للصدق لم يبق له مقام إلا وقد سلكه بحسن الأدب، لذلك إن قدم الصدق هو موضع

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/١٩٣).

الشفاعة للنبي ﷺ.

وقال الأستاذ: قدم صدق ما قدموه لأنفسهم من طاعات أخلصوا فيها، وفنون عبادات صدقوا في القيام بنقصها^(١).

ويقال: هو ما قدم الحق سبحانه لهم يوم القيامة من مقتضى عنايته بشأنهم، وما حكم لهم من فنون إحسانه وصنوف ما أفردهم به من امتنانه، ثم وصف نفسه تعالى بالربوبية والالوهية؛ تنزيهاً لتربية أسرار العارفين، وتقديساً لقلوب الموحدين بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾، ثم بين أعلام الالوهية لترفيه فؤاد الموقنين بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، أخبر عن ترضيته الملكوت بأنوار الجبروت لاستبصار العاقلين، وجعل أيام بقائهما معدودة لإطفاء نيران عجلة الإنسان، وإلا هو مقتدر بقوة القدم، أن يوجد ألف ألف سماء وألف ألف أرض بأقل من لمحة، ثم جعل العرش مرآة قدسه، ومأوى أرواح أحبائه بقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، خامر أنوار عظمة العرش، وجعله مأوى أنفاس الصديقين، ومنتهى مسالك المريدين.

ثم أخبر أنه تعالى يستهل طريقه إليه لطالبيه بقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾: يقدس للأرواح العاشقة الصادقة طرق مشاهدته ووصاله من علة الحدثان، ويصطفي قلوب العارفين بكشوف عجائب صفاته وأنوار ذاته، ثم بين أنه يختار لولاية الأولياء بنفسه لانتقاص من جهة الخلق، وعلة الخليفة بقوله: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾: من يعطيه لسان الانبساط يسأل ويشفع بعد انبساطه إليه، وإلا كيف يكون للحادث عند القديم وزن؟! ثم عرف نفسه بما وصف به نفسه لفهماء المعرفة والمربين بأنوار المحبة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

ثم دعاهم إلى عبادته بعد معرفته بقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: أي: اعبدوه بالمعرفة؛ لأنه خلق الخلق لعرفانه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ

(١) أي أعمالاً حقة ثابتة قدموها لأنفسهم صدقوا فيها وأخلصوا فيها يسروا له لأنهم خلقوا له وكان مما يسعى إليه بالأقدام، وزاد في البشارة بقوله: (عند ربهم) ففي إضافة القدم تنبيه على أنه يجب أن يخلص له الطاعة كإخلاص الصدق من شوائب الكذب، وفي التعبير بصفة الإحسان إشارة إلى المضاعفة. نظم الدرر (٤/٤٢).

وَعَذَابُ الْيَمِّ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٨﴾

قال: «كُنْتُ كَنَزًا مَخْفِيًّا، وَأَحْيَيْتُ أَنْ أُعْرَفَ»^(١).

ثم حثهم بالتفكير والتذكر بقوله: «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ»: أي: أفلا تخوضون في بحار الأفكار لتدركوا حقائق الأذكار، وتبصروا بها حقائق الأنوار، وتنكشف لكم لطائف الأسرار.

قال بعضهم في قوله: «يُذَبِّرُ الْأَمْرَ»: يختار العبد ما هو خير له من اختياره لنفسه. ثم بين سبحانه أن نفسه تعالى مرجع كل غريق فيه، ومنجى كل خائف منه، وماوى كل هائم له، ومآب كل أواب إليه، ومقصد كل قاصد إليه، ومطلب كل طالب له، ومنتهى همه كل سيار في أسفار آزاله وآباده بقلبه وروحه وسره إليه بقوله: «إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا»، كل صفة منه تعالى مراد كل مجذوب بنورها إليه من القدم إلى الأبد، فمرجع العاشقين جماله، ومرجع العارفين جلاله، ومرجع الموحدين كبرياؤه، ومرجع الخائفين عظمته، ومرجع المشتاقين وصاله، ومرجع المحبين دنوه، ومرجع أهل الفناء ذاته، أنوار ذاته أوطان أرواح القدسية، وأنوار صفاته مزار قلوب الوالهة، وأنوار أفعاله مقر عقول الهائمة، تعالى جلاله عن علة الحدثان والأكوان، والحدثان يرجع إلى مصرف وجود القدم؛ لأنها بدت منه، وإليه تعود، هو مقدس بعظمته عن أن يكون محلاً للحادث، وتصديق ذلك بيانه في آخر الآية: «وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ»: أبدأهم من العدم بتجلي القدم.

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ١٧٣).

ثم يفنيهم بقهر سلطان غيرته، ومرجعهم إلى معدن الأول، ثم يعيدهم رحمة وشفقة ليجازي العارفين بكشف جماله بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ : أي: يجزي الذين شاهدوا بقلوبهم مشاهد الملكوت بكشف جمال الجبروت، ويجازي الذين أصلحوا سرائرهم لنزول أنواره يجازيهم بمدانة وصاله.

يا أخي من رجع من سفر البعاد إلى قرب محبوبه يفرح المحبوب بمقدمه، ويعطي نفسه لمريده وزائره؛ فإنه سبحانه يكشف نقاب الغيرة عن جمال مشاهدته لكل أبواب إليه.

أَيَا قَادِمًا مِنْ سَفَرَةِ الْهَجْرِ مَرْحَبًا أَيَا ذَاكَ لَا أَنْسَاكَ مَا هَبَّتِ الصَّبَا

قال الجنيد: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ : منه الابتداء وإليه الانتهاء، وما بين ذلك مراتع فضله وتواتر نعمه، فمن سبق له في الابتداء سعادة أظهر عليه في مراتعه وثقلته في نعمه بإظهار لسان الشكر وحال الرضا ومشاهدة المنعم: ومن لم يجر له سعادة الابتداء أبطل أيامه في سياسة نفسه، وجمع الحطام الفانية ليرده إلى ما سبق له في الابتداء من الشقاوة.

قال الله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ : فالراجع بالحقيقة إليه هو الراجع مما سواه إليه، فيكون متحققًا في الرجوع إليه.

قال الأستاذ: الرجوع يقتضي ابتداء الأرواح قبل حصولها في الأشباح كان لها في مواطن التسبيح والتقديس إقامة، والغائب إذا رجع إلى وطنه من سفره فلقدومه أثر عند محبيه وذويه.

ويقال: المطيع إذا رجع إلى ربه فله الحسنی والثواب والزلفى، والعاصي إذا رجع إلى ربه بنعت الإخلاص وخسران الطريق فيلقى لباس الغفران، وحلة الصفح والأمان ورحمة مولاه خير له من نسكه وتقواه.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ : فموعود المطيع الفراديس الأعلى، وموعود العاصي الرحمة والرضا والجنة لطف الحق، والرحمة وصف الحق، فاللطف فعل لم يكن ثم حصل، والوصل نعت لم يزل.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدُوْا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ﴾ : من كان له في جميع عمره نفس على وصف ما ابتداء الحق به ففي الإشارة يكون له إعادة.

ولقد أنشد قائلهم:

كُلُّ نَهْرٍ فِيهِ مَاءٌ قَدْ جَرَى فَإِلَيْهِ الْمَاءُ يَوْمًا سَيَعُودُ

ثم وصف الله تعالى نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة القائمة بتنوير العالم بنوره.

ومنَّ بذلك على عباده بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾: جعل شمس الذات ضياءً للأرواح العارفة، فبصرت بها عيون الآزال والآباد، وجعل قمر الصفات نورًا للقلوب العاشقة، فنظرت به شمائل أخلاق الجمال والجلال، فالأرواح فنيت بصولة الذات في عين الذات، والقلوب بقيت المشاهدة الصفات في عين الصفات، فشمس الذات غير محجوبة في جميع الأوقات عن بصائر الأرواح؛ لذلك عاينتها، ولا غابت عنها؛ لأنها مقام التوحيد والمعرفة، إن الشمس النهار تغرب بالليل، وشمس القلوب ليست تغيب، وقمر الصفات يبدو للقلوب في أوقات بسطها، ويخفى في أوقات قبضها، ولذلك صارت القلوب في القلب في أنوار الصفات، فكما خفي القمر في شعاع الشمس ويزيد وينقص كذلك حالات القلوب في خفايا الصفات وظهورها، فلقمر الصفات في قلوب المحبين منازل من المداناة؛ لظهور المواجهات والحالات، وليان أعداد الأنفاس التي لا ينبغي لها أن تجري إلا باجتماع همم المعرفة، وصفاء المحبة والإحاطة بأوقات الواردات العينية، وهذا معنى إشارة قوله: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾^(١).

قال بعضهم: الشمس مختلفة؛ فشمس المعرفة يظهر ضياؤها على الجوارح، فتزينها بأداب الخدمة، وأقمار الأنس تقدر الأسرار بنور الوجدانية والفردانية، فتدخلها في مقامات التوحيد والتفريد.

وقال بعضهم: جعل الله شمس التوفيق ضياء الطاعات للعباد، وقمر التوحيد نورًا في أسرارهم، فهم ينقلبون في ضياء التوفيق، ونور التوحيد إلى منازل الصديقين، ثم زاد سبحانه ذكر أعلام شواهد ملكوته، وأنوار جبروته للمؤمنين بقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، جعل الليل مأوى أنس العارفين، وجعل النهار مواضع نزهة الصديقين، أظهر في لباس الليل أنوار العظمة، وأبرز من مرآة النهار أنوار مشاهدة الجمال والجلال، وجميع ما خلق من العرش إلى الثرى مرآتي لطغيانه، تبرز منها لأهل الهيبة والوجل أنوار صفاته، ليله قبض قلوب العارفين، ونهاره بسط فؤاد المحبين، وما بينهما بين سماء الأرواح وأرض القلوب أشكال الأحوال من المكاشفات، ولا يراها إلا المتقي عما دونه من الحدثان.

(١) أي: حساب الأوقات من الأشهر والأيام والليالي والساعات لصالح معاشكم ودينكم من فرض الحج والصوم والفطر والصلاة وغيرها من الفروض، تفسير حقي (٥/٢٢٩).

قال الأستاذ: النهار وقت حضور أهل الغفلة في أوطان كسبهم، والليل وقت أرباب الوصلة بانفرادهم شهود ربهم.

قال قائلهم:

هِيَ الشَّمْسُ إِلَّا أَنَّ لِلشَّمْسِ غَيْبَةً وَهَذَا الَّذِي تَعْنِيهِ لَيْسَ يَغِيبُ
وقال: الليل لأحد شخصين: إما للمحبين فوق النجوى، وإما للعاصين فلبث الشكوى.

ثم وصف الله من لا نصيب له مما ذكرنا من رؤية شواهد الغيب، ولاحظ له من رؤية الآيات بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، أي: لا يخافون فراقنا، ولا يرجون وصالنا.

ثم ذكر علة قلة رجائهم وخوفهم بقوله: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَوْا بِهَا﴾: أي: لإيثارهم يوم الفانية على حياة الباقية، ثم ذكر سبب ذلك؛ لأنهم غفلوا عن رؤية أنوار الصفات في مرآة الآيات بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾.

قيل: لا تخافون الموقف الأعظم يوم تبلى السرائر، وتظهر الخفايا، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ركنوا إلى مذموم عيشهم، ﴿وَاطْمَأْنَوْا بِهَا﴾ نسوا مفاجآت الموت، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، تقلب القلوب وعقوبات الجوارح.

ثم وصف أهل خالسته من الصادقين الذين سبقت لهم منه الحسنی في الأزل بالعناية إلى الأبد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾: أي: الذين عاينوا الحق في عهد الأول بعيون المحبة، وكنسوا غبار الحوادث من طريق المعرفة، ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ﴾ بذاته إلى صفاته، وبأنوار صفاته إلى جلال ذاته بإيمانهم، يعني: بما سبق لهم في الأزل من هداية الله في علم الله، ثم بين أنهم في جوار جماله ومعاينة لقائه، حيث أفاض عنهم بركات شهودهم إلى أهل القربات بقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، هم في جنات المشاهدات تجري من تحت عيون أرواحهم أنهار المعارف وأسرار الكواشف.

قوله تعالى: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تظهر عليهم بركات اقتدارهم عند إيجاد الذر بقولهم: بل فمن بركاتها لزوم الفرائض واتباع السنن وتحقيق الإيمان وتصحيح الأعمال.

ثم إن الله سبحانه وصف المشاهدين جماله أنهم إذا رأوه هيَّجَتْهم نعم المشاهدة، وراحة
الوصلة وثناء جلاله، فأغارهم أنوار سطوات العزة وسبحات العظمة، ولا يتهاى لهم في ثنائه
إلا العجز عن ثنائه، فيؤول حالهم في الثناء إلى أنهم جمعوا خصائص صفاته في نعت التنزيه
بقوله: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ﴾، وهذا حال سيد المرسلين صلوات الله عليه حين عاين
الحق، وقال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

ثم عرفهم مكاره نعمه عليهم من تعريف نفسه فيقولون: ﴿اللَّهُمَّ﴾ أي: أنت إلهنا
وبك عرفناك ونزهناك سبحانهك اللهم.

ثم وصف تحيتهم بأنهم يبدؤون باسم السلام بقوله: ﴿وَتَحِيَّيْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: بأن سلموا
من خوف حجابهِ وأليم فراقهِ، يبرئ بعضهم بعضاً من وصمات النفسانية والشرطانية، بتبري
الحق وتنزيهه عن الحوادث بأنه تعالى سمي نفسه بالسلام، والسلام المبرئ من الحوادث،
فتحيتهم هناك تنزيهه، فلما عرفوا حقائق نعمه التي أدركوها بغير علة الاكتساب أثنوا على
ربهم ومدحوه به لا بهم بقوله: ﴿وَأَخِرُ دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: آخر
ذكرهم مدحه تعالى؛ حيث صرحوا أن ما نالوا منه نالوا بفضلِهِ الأزلي واصطفائيتِهِ القديمة.

قال ذو النون في قوله: ﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّيْهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾: مقام
المحققين من العارفين بالتنزيه والتبري من جميع ما لهم من أنواع الأقوال والأفعال وغير ذلك،
والرجوع إلى الحق على حد التنزيه له أن يقصده أحد بسبب أو يتحجب إليه بطاعة أو يعمل
كلاً إلا لإظهار سعادة الأزل على السعداء، وسهات الشقاوات على الأشقياء.

وقال الشبلي في قوله: ﴿وَأَخِرُ دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: لو ألهموا
حد الحق في أوائل الأنفاس لسقطت عنهم الدعاوى، لكنهم لم يزالوا يركضون في ميادين
الجهل إلى أن فتح لهم طريق الحمد، فلما فتح لهم طريق الحمد سقطت عنهم الدعاوى،
فرجعوا إلى رؤية المنّة، فكانت آخر دعواهم أن قالوا: الحمد لله رب العالمين فرضوا الكل به،
ورجعوا بالكلية، فأنطقهم لما أنطقهم به من المنطق المحمود.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ
ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢).

كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ
 كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ
 بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
 يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ
 عَلَيْكُمْ وَلَا أَذْرَنْكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾
 وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا
 عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى
 عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ
 رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ
 رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ
 رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا
 تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

وقد وقع لي بعد قول شاه العارفين -رحمة الله عليه، وقدس الله روحه: إن القوم لما
 خرجوا من رؤية علل الحوادث، وغرقوا في بحار الذات والصفات أرادوا أن يشنوا عليه بما
 رأوا منه من عجائب أنوار الصفات، وأسرار الذات، فما وجدوا ثناءه عليه إلا من تعريفه
 إليهم، فوجدوه المنعم عليهم في جميع ما وصفوه به، فلا يكون لهم موضع من ثنائه إلا الحمد
 لتأييده لهم؛ فإن منتهى قول الوصافين صفاته العجز عن البلوغ إلى حقائق ثنائه، ولا يتعرض
 لهم بعد ذلك إلا الحمد، ثم العجز عن الحمد عن الخجل في المحمود القديم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِيًا﴾: إن الله
 تعالى وصف المتحيرين بين القضاء والقدر والإرادة والمشيئة، فإذا أظلم عليهم سجون ليالي
 البليات، وأذهب عنهم مباشرة القهر أثر الراحة حرك يد اللطف الأزلي سلاسل عقود
 قلوبهم إلى إقبال الحضرة، وأضاء تنفس صباح لوائح الغيب في أسرارهم، فصرفهم بنعت
 الاضطراب إلى باب الربوبية، فرأوا هنالك أعلام قهر الجبروت، وخرجت عقولهم من مكمن
 جنس الامتحان، وحثهم إلى التضرع في ميادين السلطنة، فخلصوا من ورطة الامتحان
 بدعائهم على باب الرحمن، فما سكنوا عن تواتر البلاء، فاشتتت عقولهم بقاءهم في الاستقامة،

فتصول عليهم عساكر القصریات، وأغرقتهم في بحار الشهوات، وأعمتهم أنظار المشاهدات، ويفعلون قبائح الأعمال، وينسون عهود الأفضال، وأيام النوال:

عن كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يُعْرَبُوا مَآذَا اكْتَسَى وَلَمْ يَكُ صُـلُوكًا إِذَا مَا تَحَوَّلَا

يا ليتهم لو كانوا صادقين في اللجوء إليه، والتضرع بين يديه، فإن من بلغ إلى مقام الدعاء وعرف مقاماته؛ فهو في منزل الانبساط، والمنبسط شاهد رضوانه، وموضع نظره وإحسانه، ومن وصف هذا الداعي أن يكون مستأنساً بربه، ويدعوه في جميع حالاته، وإذا دعاه بنية صادقة وعقيدة صافية فدعاه في زمان البلاء الصبر، وفي زمان النعمة الشكر.

قال أبو حفص: الدعاء باب الله الأعظم، وهو سلاح المؤمن عند النوائب.

وقال أيضاً: يرجع العبد إلى ربه بالحقيقة عند الفاقات، ونزول المصائب بالرضا، ولكنه لما لم يكن له في أوقات الرفاهية رجوع إليه رد في حال المصائب، والضروريات إلى الدعاء واللجوء.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت جدي يقول: الدعاء على العادة جناية، وعلى اليقين نجاة وعبادة كما قال النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(١).

ولكن للدعاء أوقات وآداب وشروط، فمن لم يطالب نفسه بأوقات الدعاء وآدابه وشروطه كان محروماً، وآداب الدعاء وشروطه ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»^(٢).

ثم زاد في وصف هؤلاء الذين لم يدركوا حقائق العبودية في مشاهد الربوبية، بأنهم هلكوا بانصرافهم عن باب الله، ومحل الإخلاص إلى متابعة الشهوات والاقتداء بالوسواس بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾: الظلم هاهنا الإنكار بعد الاعتراف والإعجاب بالرأي بعد ترك السنة، والأسوة لما عتوا على أسماء الله بعد علمهم بصدق كراماته، أهلكهم الله بأن تركهم في حجاب الشهوة والنفس، ولم يعرفهم طريق الخطأ، ولم يشدهم إلى طريق أهل قربه ووصاله.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ لما اعتمدوا سوانا.

وقال أبو عثمان: لما ظلموا لما لم يعرفوا حقوق أكابرهم، ولما يتأدبوا بآدابهم، ثم خوف الله سبحانه خلفاء الأنبياء من الصديقين والمقربين لا يلتفتوا في طريق الله إلى شيء غير الله،

(١) رواه الترمذي (٢١١/٥)، وأبو داود (٧٦/٢).

(٢) رواه الترمذي (٥١٧/٥).

ولن يروا عزًا من طريق السنن إلى سبيل أهل اليقين بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: خلفاء الأرض نواب الأنبياء وورثة الرسل، وهم أهل الاستقامة والتمكين والجمعية، الذين يخاطبهم الله في كل نفس بلسان الولاية، ويورثهم خطابه الآداب السنية، والأعمال الزكية والأخلاق الكرامية، والأسوة الحسنة، ثم يورثهم هذه الأحكام بالأنس بالذكر، والخوض في الفكر، والسير بالقلوب في أنوار الغيوب، والطيران بالأرواح في عالم الأفراح، وإيواء الأسرار إلى سرادق المجد، فيرون بعد ذلك في حضرة القدس مجالس الأنس، ويشربون من بحار محبته، ويشتاقون إلى لقائه، ويعشقون بوجهه، ويرونه لظهور الصفات وكشوف الذات كفاحًا، ويسمعون منه تعالى كلامًا صرًا، فيرجعون بعد ذلك إلى دعوة الخلق إلى الله بالسنة الموعظة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ حدود الله عليهم.

قال بعضهم: لم يزل الأنبياء هم خلفاء، والأولياء هم خلفاء، أبدلهم الله مكانهم؛ ليروا السباقين سنتهم، ويمسكوا على طريقتهم، قال الله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾: ذكر الله سبحانه عجائب أحوال العارفين في هذه الآية، أي: يسير نفوسكم في بر المجاهدات، ويسير قلوبكم في بحر المشاهدات.

وأيضًا: يسير عقولكم في بر الآيات، ويسير قلوبكم وأرواحكم في بحر الصفات والذات، ثم وصف سير القلوب والأرواح في بحار الذات والصفات بقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾: أي: في كنف الرعاية الأزلية، ولولا ذلك الفلك كيف يجري الحدث في أنوار بحار القدم جرت القلوب في بحار الصفات بعناية الذات لا بها؛ إذ هي في قبضة ملكة وملكوته، وأصابع أنوار جبروته يقلبها بسفن قبضه في أنوار صفته، وذلك قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾: ربح الكرم والعناية لسيورها بريح لطفه في بحار الآزال والآباد، وما أطيب مهب صبا وصاله في قلوب العاشقين والرامقين، فأنشد:

الْأَيَّانُ نَسِيمَ الرِّيحِ مَالِكٌ كُلَّمَا تَقَرَّبْتُ مَنَّا زَادَ نَشْرَكَ طَيْنًا

أَظُنُّ سُلَيْمِي خَبِرْتَ بِسِقَامِنَا فَأَعْطَيْتَ رِيَاهَا فَجِئْتَ طَيِّبِنَا
 ففرحت القلوب بسيرها في الوصال بطيب ريح الجمال، وذلك قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُوا
 بِهَا﴾: نشطوا بالله على الله، فلما سكنوا في مجالس الوصال وتمتعوا بحسن الجمال عادت عليهم
 غيرة القدم، وأرادت أن يخرجها من ساحة القدم وبساطين الكرم إلى معادنها من العدم،
 وهكذا عادة العشق يذيق العاشق من الفراق بعد ذوق الوصال، وذلك قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحُ
 عَاصِفٍ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾، فتذروها عواصف قهر الأزل، وتحيطها أمواج
 بحار الأبد، وفارقها طيب ريح الوصال وحسن لطائف الجمال، وبقيت في أمواج عظمة
 الكمال.

قال قائلهم:

وَبِتْنَا عَلَى رَغَمِ الْحَسودِ وَبَيْنَنَا حَدِيثُ كَرِيحِ الْمَسْكِ شَيْبَ بِهِ الْخَمْرُ
 فَوَسَّدَتْهُ كَفِّي وَبِتُّ ضَجِيعُهُ وَقُلْتُ لِلَّيْلِ طُلِّي فَقَدْ رَقَدَ الْبَدْرُ
 فَلَمَّا أَضَاءَ الصَّبْحُ فَرَّقَ بَيْنَنَا وَأَيُّ نَعِيمٍ لَا يَكْدِرُهُ الدَّهْرُ
 وأنشد أيضًا:

أَقَمْنَا زَمَانًا وَالْعَمِيونَ قَرِيرَةً وَأَصْبَحْتُ يَوْمًا وَالْجَفَوْنَ سَوَاكِبُ
 فلما وصلت القلوب إلى قاموس الكبرياء وكادت تنفى بأمواج البهاء قرّت منه إليه،
 واستعادت من قهره بلطفه بقوله تعالى: ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
 الدِّينَ﴾: دعوا الله بعد استماع مناداة الله بعد التبري من غير الله، وبذل الموجود لله: ﴿لَئِنْ
 أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: أي: لئن تخلصنا من قهر غيرتك والغرق في
 بحار ألوهيتك لأننا نحن الحدث والحدث لا يوازي القدم فوقنا برؤية جمال بقائك لنبقى
 ببقائك معك في بقائك، ونشكرك بك لا بنا، فلو أردت فناءنا كيف نبقي معك؟!
 فإذا وجب علينا شكر البقاء مع بقائك وشكرنا معرفة عجزنا عن حمل شكرك؛ حيث
 شكرت نفسك بشكرك القديم المنزه عن شكر الشاكرين.
 قيل: يسيركم في بوادي الشوق، وبحار القربة.

﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ﴾: يعني في القبضة والأسر وهبت رياح الكرم على
 المریدين الذين هم في الطريق وفرحوا بما يلحقهم من العناية والرعاية جاءتها ريح عاصف
 أتت عليهم من موارد القدرة ما أفنأهم عن صفاتهم، وحيرهم في طريقهم، وجاءتهم أمواج
 القهر، وقهرهم عملهم.

﴿وَوَظَّنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾: توهموا أنهم من الهالكين في أمواج، وهم المطهرين الأخيار عن الله، مخلصين له الدين، تركوا ما لهم وبهم وعليهم من الاختيار والتدبير، ورجعوا إلى حل التفويض والتسليم فنجوا.

وقال بعضهم: سير العباد والزهاد بالأنفس في البر، وهو الدرجات والمنازل، وسير العارفين بالقلوب في البحر، وفيها الأمواج والأخطار، ولكن سير شهر في يوم:

كذارجة البيوت لمن ريش ولكن لا يطرن مع الحمامة

وقال بعضهم: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِيرُ كُرِّيَ الْبَرِّ﴾ هو الصفات، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ استغراقاً في الذات^(١).

وقال بعضهم: ﴿يُسِيرُ كُرِّيَ الْبَرِّ﴾ الاستدلالات بالوسائط، ﴿وَالْبَحْرِ﴾ غلبات الحق بلا واسطة.

وقال النوري في قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: المخلص في دعائه من لا يصحبه من نفسه شيء سوى رؤية من يدعو.

﴿فَلَمَّا أَجْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

ثم وصف الله سبحانه أهل بحار السكر الذين دعوا بالسكر بعد نجاتهم منه به؛ لأنهم رجعوا إلى ما لم يكن لهم من كشف الأسرار، وهتك الأستار بقوله: ﴿فَلَمَّا أَجْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْتَغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: فلما نجوا من طوفان الفناء في سطوات الأزل بقوا بنعت السكر في مقام البقاء، ادعوا الأنانية، تجاوزوا عن حد العبودية بسكرهم في جمال الربوبية، ثم خوفهم سبحانه عن ملازمة إحاطة أنوار عظمتهم عليهم بعد رجوعهم من السكر إلى الظلمة بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: يرجع إليكم ما ادعيتم لا إلى القديم؛ فإنه منزلة عن النظر، والاتحاد بالخلقة، وكل ما ذكرتهم من ذكري ودعواكم بقربي في أتم معانيه، فهو مردود عليكم؛ فإن ساحة الكبرياء مقدسة عن إدراك الفهوم جلال قدر الأزل، تعالى الله عما خطر على قلب بشر.

(١) فيه إشارة إلى أن المسير في الحقيقة هو الله تعالى لا الريح فإن الريح لا يتحرك بنفسه بل له محرك إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا يتحرك هو في نفسه أيضاً بل هو منزّه عن ذلك وعمّا يضاهيه سبحانه وتعالى ومن عرف ذلك وقطع الاعتماد على الريح في استواء السفينة وسيرها تحقق بحقائق توحيد الأفعال وإلا بقي في الشرك الخفي، تفسير حقي (٢٥٠/٥).

قال الواسطي: البغي يحدث عن ملاحظة النفس ورؤية ما خدع به.
كما قيل لذي النون: ما أخفى ما يخدع به العبد؟ قال: الألفاف والكرامات، ورؤية الآيات.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ﴾: حتى إذا ركبوا مراكب المعرفة، وجرت بهم رياح العناية، وطابت نفوسهم وقلوبهم بذلك، ﴿وَفَرِحُوا﴾ بقصدهم إلى مقصودهم ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾: أفتتهم عن أحوالهم وإراداتهم، ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾، فزالت عنهم أخطار سعيهم، ﴿وَوُظِنُوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ﴾: تيقنوا أنهم مأخوذون عنهم، ولم يبق لهم ولا عليهم صفة يرجعون إليها، وأن الحق خصهم من بين عباده بأن سلبهم عن إياهم؛ ولأنه لا شيء لهم ولا صفة، دعوا الله مخلصين له الدين، صفى الحق أسرارهم له حتى أخلصوا الدعاء، وخلصوا له سرًا وعلنًا، فلما نجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهِ أَمْتًا أَمْتًا لَبًّا أَوْ بُخَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرِبَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٠١﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٢﴾ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٤﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِهَانًا تَعْبُدُونَ ﴿١٠٥﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَفْلَةٍ ﴿١٠٦﴾ هَٰذَا لِكُتْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

فلما ردهم إلى أوصافهم وأشباحهم رجعوا إلى ما عليه عوام الخلق من طلب ما يصلح للنفس، ثم إن الله ضرب مثلاً لمن سلك الطريق بالجهل، وغير الاقتداء بأهل المعرفة أن جميع سعيه يكون هباءً منثورًا بقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾.

أول رغبة السالك مثل الماء الذي وصل إلى البذر في الأرض عند شروعه في المجاهدات والرياضات؛ لقوله: ﴿فَآخَتَلَطَ بِمِمْ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾، فكثرت عليه الأعمال الوافرة المتنوعة من تصفية القلب ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾، ورياضة النفس عما يأكل الأنعام، فتمكن في العبادات وصفاء الأوقات، وفرح بما تسهل إليه من شمائل الطافه، ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: بهجة العبادات وزينة الطاعات، وظن أنها تجري بمراده إلى المال، ﴿وَوَظَنَ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِירוْنَ عَلَيْهَا﴾ فيخرج عليه عساكر القهريات من مكمن الآفات مع مفاداته، والعجب والرياء منه، ﴿أَتَنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾، فلما تعجب بنفسه ورأى أعماله تجمي عليه النفس والشيطان ويغريانه بالعجب والرياء والسمعة، فجاء قهر الله بفصاحته من عند ليالي قبائحه أو نهار طاعاته، فجعلها هباءً منثورًا كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرِبْ بِالْأَمْسِ﴾، وهذا المثل لا يعرفه إلا من له نظر الاعتبار ونور الاستبصار؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، نعوذ بالله من قهر الله، ما أطيب زمان الإرادة والركة والصفاء، يا ليت لو يبقى المريد في شأنه، لكن يغرقه قهر الغيرة في بحر الوسوس والمخائيل والرياء والسمعة حتى لا يجد من زمان الصفاء في قلبه ذرة:

فَقَدْنَاهُ لَمَّا تَمَّ وَعَتَمَ بِالْعُلَا كَذَاكَ خُسُوفُ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ

ويقال: كما أن الربيع تتورد أشجاره، وتظهر أزهاره، وتخضر رباعه، وتتزين بالنبات ألوانه وطلاعه، ثم لا يؤمن أن نصيبه آفة من غير ارتقاب، وينقلب الحال بما لم يكن في حساب كذلك من الناس من يكون أحواله صافية وأعماله بشرط الجلوس زاكية، وغصون أنسه متدلية ورياض قربه موقنة، ثم تصيبه عين فيذبل عود وصاله، وينسد أبواب عقائد إقباله كما قيل:

عَيْنُ أَصَابَتِكَ إِنَّ الْعَيْنَ صَائِبَةٌ وَالْعَيْنُ تَسْرِعُ أَحْيَانًا إِلَى الْحَسَنِ

قال رجل لأبي محمد الجريري -رحمة الله عليه: كنت على بساط الأنس، وفتح لي طريق إلى البسط فزللت زلة، وحجبت عن مقامي فكيف السبيل إليه، دلني على الوصول إلى ما كنت عليه؟ فبكى أبو محمد، وقال: يا أخي الكل في قهر هذه اللحظة، لكني أنشدك أبياتاً لبعضهم.

فأنشد يقول:

قِفْ بِالْأُفْءَالِ فَهَذِهِ أَثَارُهُمْ تَبْكِي الْأَحِبَّةَ حَسْرَةً وَتَشُوقًا
كَمْ قَدْ وَقَفْتُ بِهَا أَسَائِلُ مُحِبًّا عَنْ أَهْلِهَا أَوْ صَادِقًا أَوْ مُشْفَقًا

فَأَجَابَنِي دَاعِي الْهَوَىٰ فِي رَسْمِهَا فَارْقَتْ مَنْ تَهْوَىٰ فَعَزَّ الْمُلتَقَىٰ

ثم إن الله سبحانه يدعو العباد من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية؛ لئلا يفتنوا بزخرفها وغرورها، ويصلوا إلى جواره ونعيم مشاهدته بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ السالكين إلى الجنة، ويهدي المجذوبين إلى المشاهدة. وأيضًا: يدعو الجميع إلى داره، ويهدي خواص العارفين إلى وصاله، والجوار للعموم من الفرقة، والفوز والوصال للخصوص، داره في الدنيا قلوب العارفين؛ لأن فيها سلامة القربة وأنوار المشاهدة، وفيها صراط الله المستقيم الذي تسري فيه عساكر تجلي جماله إلى قلوب العارفين، وتسري همهم فيه إلى مصاعد قرب رب العالمين، ولكن لا يهدي إليها إلا من يشاء من خواص المريدين والصادقين.

والإشارة في الدعاء إلى دار السلام أن السلام هو الله المنزه عن علل الحدثان، يدعو إلى جواره المتبرئ من الأكوان، المتصف بصفة الرحمن، وأهل هذه الدعوة على ثلاث مراتب: أهل الدار، وأهل المشاهدة، وأهل الوصال الدار لأهل الإيمان، والمشاهدة لأهل الإيقان، والوصال لأهل العرفان، يدعو أهل الإيمان إلى داره، وينادي أهل الإيقان بتقربهم من مشاهدته، ويهدي أهل معرفته بعد إدراكهم وصاله إلى معرفة شمائل صفاته ولطائف أنوار ذاته؛ لأن هناك الطريق المستقيم حيث عرف نفسه لعارفيه.

قال أبو سعيد القرشي: خرجت هداية المريد من الاجتهاد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وخرجت هداية المراد من المشيئة، وهو قوله: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وهو الفرق بين المريد والمراد.

وقال القاسم: الدعوة عامة، والهداية خاصة، بل الهداية عامة، والصحبة خاصة، بل الصحبة خاصة، والاتصال خاص.

وقال بعضهم: لات الدعوة لمن لم يسبق له من الله الهداية.

وقال جعفر: عملت الدعوة في السرف تجللت بها وركنت إليها.

وقال أيضًا: ما طلبت الجنة إلا بالسلام، وإنما اختارك بهذه الخصائص لكيلا تختار عليه أحدًا.

وقال بعضهم: يدعو إلى دار السلام بالآداب، ويهدي من يشاء للحقائق والمعارف.

وقال بعضهم: الدعوة لله، والهدى من الله.

وقال الأستاذ: الدعاء تكليف، والهداية تعريف، فالتكليف على العموم، والتعريف

على الخصوص.

ويقال: الصراط المستقيم طريق المسلمين، وهذا للعوام بشرط اليقين، ثم طريق المؤمنين وهو طريق الخواص بشرط عين اليقين، ثم طريق المحسنين، وهو طريق خاص الخا^ص بشرط حق اليقين، فهؤلاء ذوو العقل أصحاب البرهان، وهؤلاء بكشف العلم أصحاب البيان، وهؤلاء بضياء المعرفة بالوصف كالعيان، وهم الذين قال ﷺ فيهم: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^(١).

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم زاد الله في وصف هؤلاء بالقربة الرفيعة والدرجة السنية، ومشاهدته الكريمة بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: حسانهم شهود قلوبهم مشاهد قربه تعالى في مراقباتهم وخلواتهم بنعت بذل وجودهم، والأكوان كلها لأول بوادي حسن تجلي الحق سبحانه، وما ذكر الله سبحانه من جزائهم بهذه النعوت الحسنى، وهي إدراكهم إياه كشف نور جماله؛ لأنهم لو أدركوه بنعوت العظمة هلكوا، إحسانهم من حسن جمال أرواحهم الناطقة بالكلمات القدوسية، وحسن الحق من حسن جماله القديم، يجازيهم بكشف حسنه وجماله، ثم ذكر زيادة النعم عليهم بقوله: وزيادة الحسنى مشاهدته، والزيادة وصاله والبقاء معه في مشاهدته.

وأيضاً: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ النظر إلى جماله، والزيادة: الاتصاف بصفاته.

وأيضاً: ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ محبته، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ معرفته.

قال الواسطي: معاملة الله على مشاهدة الحسنى الالتذاذ في معاملاتهم، والزيادة هو النظر إلى الله.

قال الأستاذ: يحتمل أن يكون الحسنى الرؤية، والزيادة دوامها، ويحتمل أن يكون الحسنى اللقاء، والزيادة البقاء في حال اللقاء.

ثم زاد الله ذكر شرفهم بأن غبار البعد لا يلحق جمال وجوههم بقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾: لا يغشى وجوههم قتر الخجالة، ولا يلحق وجوههم ذل الفرقة.

وأيضاً: لا يرهق وجوههم قتر الفراق، ولا ينكشف في وجوههم شمس الوفاق.

ثم زاد في وصف عيشهم بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾: باقون في أنواع القربات في مشاهدة الذات والصفات.

(١) رواه البخاري (٤/١٧٩٣).

قال بعضهم: كيف تذل وجوه بلقائها الحق منه بالحسنى والإحسان، وكيف تذل شواهد من شاهد الحق على الدوام، بل هي على زيادة الأوقات تزيد نوراً وضياء وعزاً.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا لَكَ تَبَلُّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَصَلُّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

وقال الأستاذ: لا يقع عليها غبار الحجاب وبعبكسه حديث الكفار، حيث قال: ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، فالذلة التي لا تصيبهم هي أنهم لا يردون من عز شهوده إلى رؤية غير.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا لَكَ تَبَلُّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾: أخبر الله سبحانه عن مواطن امتحانه وتمييزه بغيرته القديمة بين الصادق في دعوى محبته وبين الكاذب؛ لأن الصادق في محبته هناك لا يفرغ من النيران، ولا يطمع في الجنان؛ لغلبة شوقه إلى جمال الرحمن، والكاذب تبدو سرائر ضلاله، وتنكشف فساد ضمائره بين جميع الخلائق، فيرد الصادق إلى لطف مولا هم، ويرد الكاذبون إلى قهر جبارهم بقوله: ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ﴾، فيبقى للصادقين خصوصية درجاتهم في المحبة والوصال مع حقائق معانهم، ويضل سعي المرائين الذين يراءون الناس بأعمال الصادقين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وأيضاً: يمتحن نفوس الحدثان عند بوادي سطوات سبحات جلال الرحمن، حيث يضمحل الحادث في القديم، ويبقى القدم للقدم، ويكون الحدث مقدماً في القدم، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمُّ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصَرِّفُونَ﴾.

قيل: يطالب كل مدَّع بحقيقة ما أدعاه.

قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُمُّ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾: بين سبحانه أن ما يبدو من نور شهوده هو وصف رؤيته وإعلام صفته، وكشف ذاته بلا شك ولا شبهة، وذلك قوله: ﴿فَذَلِكُمُّ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾: أي: هو الحق بلا شبه ولا تشبيه ولا تعطيل.

ثم بين أن من لم يعرف الأشياء والشواهد بهذه المثابة فهو ضالٌّ من طريق مشاهدته، وطريقه عمياء لا يكون الرشيد فيها؛ لأن من احتجب بالكون عن المكون فهو يغيبه في مهمة

القهر، ولا يهتدي من كان مرهوناً بالأشياء عن خالق الأشياء، وهذا معنى قوله: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

ثم بين أن البعد لا يقتضي إلا البعد، وليس للعبد حد، فأين يذهب البعيد في البعد، ولا يجد في البعد إليه سبيلاً.

قال تعالى: ﴿فَأَنِّي تُصَرَّفُونَ﴾: أي: إلى من ترجعون إذا فات وصاله عنكم.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٦﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنِّي تُصَرَّفُونَ ﴿٦٧﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وليس للحدثان مصرف الفرار، فأنى أين وإنهم؟! إن هذه الآية إشارة سابق قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾: أي: من يرزق الأرواح من الملكوت غذاء قربه ووصاله، ومن يرزق القلوب من ملكوت الأرض صفاء عبوديته، ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾: من يملك إسماع العارفين بلذيد جلاله، ومن يملك أبصار الصديقين بكشف جماله والنظر إلى جلاله؟ ومن يخرج الحي من الميت؟ أي: من يخرج الأرواح العارفة الأحياء بحياته ومعرفة ذاته وصفاته من العدم بنور القدم، ويخرج الميت من الحي، من يخرج الأنفاس الفانية في عظمتها الباقية من القلوب الحاضرة في مشاهد القرية، ومن يدبر الأمر، من يسهل قطع صفات مفاوز النكرات للعارفين، ومن يعرف أمور العبودية والربوبية قلوب الموحدين؟

ثم بين أن من شاهد هذه المراتب يعترف بها صدقاً وعدلاً بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾، فإذا اعترفوا بذلك، وصاروا شاهدين معاني شهوده لا خوفهم من نفسه إلا أن يلتفتوا إلى سواه في طريق بقوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: فلا تخافوا من فراقه، ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾: أي: هو منعم هذه النعماء، يرببكم بهذه السعادات لا غير، فأين تصرفون منه إلى غيره؟

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾: أخص الإشارة فيه أي: إذا وقعتهم في أنوار معرفتي بعد كشوف صفاتي وذاتي لا تطلبوا كنه القدم؛ فإنه معادن الملكوت ونكراتها بلا نهاية؛ لأن القدم ممتنع عن إحاطة القلوب به، وعن إدراك الأرواح والبصائر حقائقه

والكنهية.

قال الحسين: الحق هو المقصود بالعبادات والمصمود إليه بالطاعات، لا يشهد بغيره ولا يدرك بسواه.

وقال الواسطي: ﴿قَدْ كَرَّ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾: لا يجوزنا موحد أن يشهد بشاهد التوحيد؛ لأنه وصف الأشياء بالضلال، فلم تنهياً لضال أن يقف، ولا لعاجز أن يصف.

وقال الحسين: الحق هو الذي لا يستقبح قبيحاً، ولا يستحسن حسناً، فكيف يعود إليه ما منه بدا، ويؤثر عليه ما هو أنشأه؟!

قال بعضهم: قلوب أهل الحق مع الحق على مراتب: فقلب في قبضة الحق مأسورٌ بكشف الوجد مسرورٌ، وقلب طار إليه بالشوق وروح برياح القدوم بالقدوم عليه، وقلب اعتقد فيه الآمال فهو عليه ثقل الأعمال، وقلب انقطع إليه بالكلية من كل البرية، وقلب شديد الاحتراق لشدة الاشتياق.

وقال بعضهم: ﴿الْحَقُّ﴾ طريق العلماء، والحقيقة طريق الحكماء، والتحقيق طريق الأولياء، والحقائق طريق الأنبياء.

وقيل في قوله: ﴿فَأَنْ تَصْرَفُونَ﴾ من الحق إلى سواه^(١).

قال الواسطي في قوله: ﴿وَمَنْ يُدْبِرْ الْأُمْرَ﴾: من يبدئ أمره ويعيده ويدبر في أوقاته السائرة، فإذا قال: من يدبر الأمر أزال الأملاك فكيف يجوز لقائل أن يقول: فعلي وعملي!.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾

﴿فَأَنْ تَوْفَكُونَ﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِي فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ مَا

﴿كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أم يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ

(١) استفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع واستبعاده والتعجب أي كيف تصرفون من التوحيد وعبادة الله تعالى إلى الإشراف وعبادة الأصنام الذي هو ضلال عن الطريق الواضح.

مُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ^ط فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِءٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِءٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾: أثبت الحجة على أن الحدثان معلولة لا تراحم القدم المنزه عن العلل، وكيف يكون من العاجز القدرة على إيجاد الموجود، وهو كان معدوماً، وفي وجوده عند قدم جلالة بالحقيقة معدوم حيث لا يقوم بنفسه بل يقوم بالقديم، هذا ردُّ على من أقبل إلى غير الله.

ثم وصف نفسه تعالى الشريك بأنه يبدئ الأشياء ويعيدها أبداً، يكون بشهود قدمه على العدم بوصف كشوف جميع الصفات، ثم يسلط أنوار العظمة والهيبة، فتضمحل الحوادث تحت أذيال سراق العزة، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بكشف جمال البقاء، فيبقى ببقائها في بقاءه، فينقلب في مدارك تصريفه بنعت المشيئة والإرادة القديمة، يبدئ أنوار القيومية في قلوب العارفين، فيبدئ بلطائفها حقائق المعرفة، ثم يغشيها بسطوات الجلال حتى لا يبقى في ظهور المعروف سوى المعروف، ثم يعيدها بكشف قناع الجمال، وحسن البهاء فتبقى لشاهد حسنه.

قال ابن عطاء: يبدئ بإظهار القدرة فيوجد المعدوم، ثم يعيدها بإظهار الهيبة نفس الموجود.

وقيل: يبدئ بكشف الأولياء، فيمحو منها كل خاطر سواه، ثم يعيده، فتبقى بإبقائه، فلذلك عظم حال العارف، فلما قدس عليه الخليفة عن راحة الأزلية عرف مكان العلة المخاطبين بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي﴾، صدق هذه الآية ما ذكر في الآية الأولى، وهي مصداقها بأن الهادي لا يكون إلا المكون القديم، والمنزه الأزلي كما أن وصفه القدرة القديمة، فأيضاً وصفه الهداية الأبدية، هو تعالى يهدي بنفسه وكشف العارف وجوده للحق انذني على أوليائه وأصفيائه، وهو حقائق العبودية والتأدب بآداب الشريعة.

وأيضاً: الله هو الحق يهدي أهله إلى نفسه بنفسه؛ لأنه كان غيباً لا علة في الأزل، فتحقق حق غيبته على أهل محبته.

ثم عرف حقوقه لحقه لأهل حقيقته، بأن يزيلوا علة النظر إلى غيره، وأن يتبعوا المحبة

والشوق ما يوجب رضاه بوصف الأسوة والافتداء بالكتاب والسنة، وذلك قوله: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدَى﴾.

سئل الحسين: من هذا الحق الذي يشيرون إليه؟ قال: معلل الأنام ولا يصل إليه إلا هو.

سئل الواسطي: ما حقيقة الحق؟ قال: حقيقته لا يقف عليه إلا الحق.

قال الحسين: الحق من الحق ومن أجل الحق، وهو قائم الحق مع الحق، وليس وراء ذلك إلا رؤية الحق.

قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ﴾.

ثم إن الله سبحانه أخبر عن حال الكل فهم عن إدراك حقيقة القدم وعظمة البقاء في توهم النفوس، وتمايم الظنون بقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: ظاهر الآية وصف أهل البعاد، وللقوم إشارات فيها، أن العقول محجوبة بالآيات، والقلوب محجوبة بالذات، والأرواح محجوبة بالراحات، والنفوس محجوبة بالشهوات، والأسرار محجوبة بالخطرات، وما وجدت الكل من ساحة الكبرياء إلا رسوم الأفعال، وما وقع عليها إلا ظلال الملكوت وتصرفات الجبروت، وأين الحدث عن إدراك كنه القدم، والأصل ممتنع بذاته عن أن يطلع على حقيقة وجوده خاطر من الخواطر وسر من الأسرار، ولب من الألباب، حاشا أنهم في مخائيل الظنون عن إثبات الوجدانية بل مستبصرون بنور الحق، وهم على بصيرة معرفته وتوحيده.

قال تعالى: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾: بل هم مستغرقون بنور الحق في بحار الأزلية والسرمدية، وما هم مبتلون بقطرة من وصول حقائقها، يشربون من لججها أنهاراً، وهم عطاشى، كما قال قائلهم:

وَأَقِفْ فِي الْمَاءِ عَطَشَانَا وَلَكِنْ لَيْسَ بِسَقِي

وهكذا دأبهم أبد الأبدين كيف يصل الحدثان إلى قدم الرحمن، وهو منزّه عن الاتصال والانفصال.

قال الجنيد في هذه الآية: مر عليّ بذي أرباب التوحيد حتى أبو يزيد ما خرجوا من الدنيا إلا على التوهم.

وهكذا قال الواسطي: إلا ظناً أنهم قد وصلوا، وهم في محل الانفصال لا وصل ولا فصل على الحقيقة ذات ممتنع عن الاتصال، كما هو ممتنع عن الانفصال.

وسئل أبو حفص عن حقيقة التوكل؟ فقال: كيف يجوز لنا أن نتكلم في حقائق

الأحوال والله يقول: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

سئل أبو عثمان عن الظن؟ قال: هو اجس النفس في طلب مرادها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾: بين الله سبحانه عجز خواطر الجهل عن إدراك العلوم المجهولة عند أكثر الخلق المعروفة عند أهل المعرفة، تنطق بها السنة الروحانيين والملكوتين، وهي من أسرار الملك والملكوت، وعين الصفات والذات، فلما لم يكونوا من أهل الخطاب كذبوا حقائق الخطاب الذي جرى على لسان الأولياء والصديقين والأنبياء والمقربين، وهكذا عادة الفلاس والمنكرين كرامات أهل المشاهدات، وفراسات أهل المكاشفات لجهلهم وغرورهم وقياساتهم الفاسدة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِمْ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾: يسمعون حقائق كلمات القوم، التي هي مخبر عن حقائق أسرار الغيب، ويسمون ظلمات، يا ليتهم لو يشمون من ألف فرسخ رائحتها لطاروا من الفرح بوجدانها، لكن ما خلقوا لقبول الخلائق.

قال بعضهم: كذبوا أولياء الله في براهينهم لما حرموا ما خص القوم به، والمحروم من حرم حظه من قبولهم وتصديقهم الإيمان بما يظهر الله عليهم من أنواع الكرامات.

قال أبو تراب النخشي: إذا بعدت القلوب عن الله مقتت القائمين بحقوق الله.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٣).

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: «الناس أعداء لما جهلوا» (١).

ثم بين سبحانه أنهم يجرمون من سماع الخطاب الخاصة، وعن رؤية جمال القديم بالبصائر الصافية عن كدورات عوارض البشرية بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾.

هذه الآية مصدق الأول لما لم يسمعوا بأسماع العقول والأفهام خطاب الغيب، كذبوا حقائق الإلهام، ولما لم يبصروا مشاهدة الحق بعيون القلوب كذبوا ما أخبرهم أولياء الله بما

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠ / ٢٤٢).

رأوا من أنوار الغيوب، صرح الحق سبحانه أنهم مسلوبون في الأزل أسماع خصوصية العقول القدسية الملكوئية، وأبصار الأرواح الجبروتية لا جرم لم يكن لهم استعداد قبول الحقائق وعلم الدقائق، وقد تبين أن المعرفة بحقائق العلوم اللدنية والنظر إلى عالم الملكوت لم يكن مكتسبًا، بل هما موهبتان خاصتان من مواهب الله الخاصة الأزلية، خصَّ بهما في سابق علمه وأوائل حكمه أهل خالصة وده بغير اعتدال اكتسابهم، ولو كان مكتسبًا لكان النبي ﷺ قادرًا على أن يسمعهم ويبصرهم، بل فضل الله يؤتيه من يشاء من خواص عبادته خالصة عرفانه، والحمد لله الذي خصَّ نجباءه بسمع اخلاصة من أسماء صفاته، والحمد لله الذي اصطفى أوليائه البصر الخاص من أبصار صفاته، ولم يبق بين ذلك السمع والإسماع والخطاب حجاب، ولم يبق بين ذلك البصر والإبصار ورؤية جماله نقاب.

قال الحسين: من استمع إليك بآياه فإنك لا تسمعه، إنما تسمع من أسمعناه في الأزل فيسمع منك: وأما من لم تسمعه فما إلا صم، والسمع وإن سمع لم يعقل فكأنه لم يسمع.
قال الله تعالى: ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾: إلا من أجرينا عليه حكم السعادة في الأزل.

قال بعضهم: إذا أنت لم تسمع نداء الله، فكيف تجب داعي الله؟
قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

وقال الواسطي: ليس من ينظر إليك بنفسه يراك، إنما يراك من ينظر إليك بنا، فأما من ينظر إليك بنفسه أو به فإنه لا يراك، ولا يراك إلا من يعمر أوقاته في رؤيتك، ويستغرق هو فيها، قال الله: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وقال ﷺ: «طوبى لمن رآني ومن رأى من رأي»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (١٠) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١١) وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَلْيَلِغْنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ مُبْدٍ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (١٢) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٣) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٩٦/٤).

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾

ثم بين سبحانه أن ما يجري في الأكوان من الأمر والقضاء والطاعة والمعصية والكفر والإسلام هو ما جرى في الأزل بأقلام الأقدار على ألواح الأحكام السابقة بمشيئة الله وإرادته القائمة بذاته، وفيما قسم في الأزل لخلقه كان حكماً علياً حكيماً لم يظلم في ذلك؛ حيث اختار قومًا بالولاية والنبوة، وألزم قومًا الكفر والضلالة؛ لأنه مالك الملك يتصرف في ملكه كما يشاء بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾: لا يظلم على الكافر والمطروود إذا عاقبهم؛ فإنهم مخلوقون في الأزل لقهره لا للطفه، ولا يظلم على أهل لطفه؛ حيث يريهم بلطائف مشاهدته بأقدار حواصلهم، ثم أعلمنا أن تلك الطائفتين السعداء والأشقياء يظلمون بأنفسهم بقوله: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾: ظلم سعداء المعرفة والمحبة على أنفسهم أنهم يريدون أن يدركوا الحق بحقيقة أزليته، وهم إلى إدراك كنهه، وهو تعالى عالمٌ بعجز الحدث عن حمل وارد القدم كما هو، فيريهم ما يطبقون من نفسه، ولو يريهم من حقائقه ذرة يهلكون في أول بوادي سطواتها، وظلم استفتاء الكفر طلب الربوبية من أهل العبودية.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَالَسْنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٢﴾

قال الواسطي في هذه الآية: لا يتجلى لهم بحقه؛ فإن ذلك ظلم؛ لأن الخلق لا يحتملونه، بل فيه ذهابهم، ويستحيل أن يكون لهم من القوة ما يطبقون بحقه؛ إذ في ذلك مساواة ومقارنة^(١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾: أخبر عن عين

(١) قال شيخنا البوزيدي رحمه الله: زينة الله التي أظهر لعباده هي لباس المعرفة، وهو نور التجلي، والطيبات من الرزق هي حلاوة الشهود. وهي لمن كمل إيمانه وصدقته في الحياة الدنيا، وتصفو له إلى يوم القيامة، فهي حلال على أهل التجريد؛ يتمتعون بها في الدارين، وإنما حرّم عليهم ما يشغلهم عن ربهم من جهة الظاهر، وما يقطعهم عن شهوده من جهة الباطن، وسوء الأدب مع الله، والتعرض لعباد الله، والشرك بالله؛ بأن يشهدوا معه سواه، وأن يقولوا على الله ما يورهم نقصاً أو خللاً في أنوار جماله وسنائه. البحر المديد (٢/ ٢٤٥).

التوحيد وزوال الحدث في القدم، وجعل المشيئة مشيئة واحدة، وهي المشيئة التي لا مدخل فيها لمشيئة الحدثان صرف عن سوابق القضاء والقدر علة اكتساب الخلق.

﴿وَيَسْتَكْبِرُونَكَ أَهَقُ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٢﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٣﴾﴾

قال بعضهم: نفى السيد الأخص أن يكون له من نفسه شيء، أو يعتمد لها حالاً بل أظهر أن الكل منه، ولمن له الكل من لا يملك الأصل، فكيف يملك فروعه من لم يملك نفسه كيف يملك ضررها ونفعها؟ ومن صحت له هذه الحالة، فقد سلم من مدح الخلق، وذمهم بالطمع فيهم والتوسل بهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَكْبِرُونَكَ أَهَقُ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أخبر سبحانه عن عمى الجاهلين الذين لم يروا أنوار جلاله وعظمته في مرآتي كل ذرة؛ لأنهم في غواشي طباعهم محجوبون عن شهود الحق على كل شيء ظهور نفسه.

ومصدق ذلك قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾﴾ [فصلت: ٥٣]، ثم أخبر عن وصفهم وشكوك بواطنهم.

وقال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، ومن كان محجوباً عن لقائه فأيضاً يكون محجوباً إذ أن أسرارهم عن حقائق الخطاب، وعن فهم معانيه، وإن كان لهم بصيرة صافية يرون بها المخبر عنه في الخبر، ولا يحتاجون إلى الاستخبار منه؛ لأن وراء كل خبر أثر.

قال بعضهم: أنوار الحق مشرقة، وآثاره ظاهرة لا يشك فيها إلا معاند، ولا يعنى عنها إلا ضال، فالتحققون بحقائق الحق هم سالكون مسالك أنوار الحق في مقاصدهم ومواردهم ومصادرهم، والراجعون منها إلى الأغيار هم الضالون عن سنن الحق.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَكْبِرُونَكَ أَهَقُ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾
﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ هُوَ مُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ اشتد غوائم القدم بأن الأكوان، والحدثان صادات من فيض فعله سحرت في بطش عزته محتاجات إلى مزيد رحمته حسم أطماع عبيده عنها، وصرف وجوههم منها إلى نفسه إذ لا ذرة من الكون جارية إلا بمشيئته فما دام الكل له، فابذل كلك لكليته حتى يكون كله لك لا غير،

فإن وعد الله في ذلك حق لا يخيب رجاء الصادقين، ولا يخلف مواعيد المقربين.
قال بعضهم: المغيرون من يرجع إلى غيرته في سؤاله ومهمات وطلباته، وله ما في
السموات وما في الأرض، فالكل له، فمن طلب بعض الكل من غيره فقد أخطأ الطريق.
وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أن يحرم سائل غيره، ويبعد عليه وجه طلبته، ولا
يخيب سائله، ويبلغه إلى أقصى أمانيه.

ثم بين الحق أن من أقبل إليه يحيه بأنوار حياته حتى يبقى مع الحق بوصف شهوده على
معاينة ذاته وصفاته، ويميت نفسه حتى لا تزاحم بظلمة هواجسها أنوار أسرارهِ في قلبه
بقوله: ﴿هُوَ تَحْيِيٌّ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: يحيي قلوب العارفين بمعرفته ومشاهدته،
ويميت نفوس الزاهدين بأنوار هيئته ومراقبته، فمعاد العارفين مشاهدة جماله وجلاله، ومعاد
الزاهدين آلاءه ونعماءه، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.
قال بعضهم: هو يحيي القلوب بإماتة النفوس بحياة القلوب، وهذا لمن كان إليه
رجوعه في جميع أحواله.

وقيل: يحيي الأسرار بأنوار العزة، ويميت النفوس بنزع الشهوات عنها.
﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى
وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ
لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهُ يَتَفَتَّرُونَ﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ
الْفَيْصَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾

قال النصر آبادي: يحيي الأرواح في المشاهدة والتجلي، ويميت الهياكل في الاستتار.
ثم ذكر سبحانه سبب هذه الحياة الباقية التي هي شفاء أرواح الصديقين، وقوة أبدان
المريدين، ومنور أسرار العارفين، وشفاء ألم فراق المشتاقين، وخبر دوام الوصال للمستأنسين
والمحبين، وهو كلامه القديم الذي هو بناء القدم والبقاء، وحلاوة الجمال والجلال وأحكام
الربوبية والعبودية بقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمٌ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا
فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: خاطب أهل ودّه وسماهم بالناس؛ لأن غيرهم
ليسوا بالناس في الحقيقة؛ حيث لم يعرفوا حقوق الأزلية؛ لذلك وصفهم بأجهل الجهل بقوله:
﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، والناس من نسي نفسه، وما دون الله في الله أي: قد جاء
من عند الله موعظة أحكام العبودية، ﴿وَشِفَاءٌ﴾ أي: أنوار الربوبية، ﴿وَهُدًى﴾: تعريف

نفسه بظهور أنوار صفته، ﴿وَرَحْمَةً﴾: فتح أبواب المشاهدة، فالموعظة للمريدين، والشفاء للمحبين، والهدى للعارفين، والرحمة للمستأنسين المشتاقين.

وأيضًا: الموعظة للنفوس، والشفاء للقلوب، والهدى للأرواح، والرحمة للأشباح.
وأيضًا: الموعظة مقام الهيبة، والشفاء مقام الوصلة، والهدى مقام المعرفة، والرحمة مقام المخاطبة، والموعظة صدرت من العظمة، والشفاء صدر من حسن الجمال، والهدى صدر من عيان القدم والبقاء والرحمة، للعموم صدر من الأفعال، وللخصوص صدر من الصفات، وللخصوص الخصوص صدر من الذات.

وأيضًا: الموعظة للآبقيين، والشفاء لمرضى المحبين، والهدى للمريدين، والرحمة للواصلين، بدأ بالموعظة لمرض حبه؛ لأنها أدوية إسهال شهواته بمعجونات موعظته تقديسًا لأسراره عن عوارض بشرياته، فإذا كان مقدسًا بسقيه من أشربه مراهم ألطافه شفاء لذلك السقم؛ ولأنه تعالى يشفي بخطابه صدور مرضى أهل شوقه، بمقدمك المبارك زال سقمي، وفي لقياك عجل لي شفائي، فإذا شفي يعذبه بهدايته إلى نفسه، فلما كل في صحته يطهره بمياه رحمته عن أوساخ المرض والاستحسان.

قال ابن عطاء: الموعظة للنفوس، والشفاء للقلوب، والهدى للأسرار، والرحمة لمن هذه صفته.

قال جعفر: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أي: راحة لما في السرائر.

وقال جعفر: لبعضهم شفاء المعرفة والصفاء، وبعضهم شفاء التسليم والرضا، وبعضهم شفاء التوبة والوفاء، وبعضهم شفاء المشاهدة واللقاء.

وقال الأستاذ: الموعظة للكافة، ولكنها لا تنجع في أقوام آخرين، فمن أصغى بسمع سره اتضح نور اليقين في قلبه، ومن استمع إليه بنعت غيبته ما اتصف إلا بدوام حجبه.

ويقال: الموعظة لأرباب الغيبة ليؤم الشفاء للخواص، والهدى للخاص الخاص، والرحمة لجميعهم، وبرحمته وصلوا إلى ذلك.

ويقال: شفاء كل أحد على حسب ذاته، فشفاء المذنبين بوجود الرحمة، وشفاء المطيعين بوجود النعمة، وشفاء العارفين بوجود القربة، وشفاء الواجدين بوجود الحقيقة.

ويقال: شفاء العاصين بوجود النجاة، وشفاء المطيعين بوجود الدرجات، وشفاء العارفين بالقرب والمناجاة.

ثم زاد تمام نعمته على عباده؛ حيث أنعم عليهم بتذكير الموعظة والشفاء عن العلة وإهداية إلى القربة، وإدخالهم في زمرة الرحمة والمشاهدة، ودعائهم إلى رؤية فضله السابق،

ورحمة الكاملة عن رؤية الاكتساب وعلى الاجتهاد وفرح فؤادهم بقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: حكم في الأزل باختصاص أهل وده أن يختارهم لولايته، ويصطفيهم بالنظر إلى مشاهدته، وسماع خطابه بلا واسطة، فالمشاهدة فضله، والخطاب معهم والوصلة لا نهاية لهما؛ حيث لا يقع لديهما لهم موانع من علل الحدوثية، وعوارضات البشرية للرؤية واللقاء.

قيل: فضل الله دوام التوفيق، ورحمته تمام التحقيق.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٠١﴾﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

قيل: فضل الله الرؤية، ورحمته أبقاهم في حال الرؤية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾: أخبر عن عظيم اطلاعه على أسرار الخواطر وما يجري في الضمائر، وكيف لا يطلع وهو مبدؤها ومنشؤها.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠١﴾﴾: خوف أشرف خلقه من اطلاعه؛ حيث قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: ما تكون في طلب وسيلة منك إلى التوصل بها إليّ وما تتلو منه أي: من قرآن من خطابي التبليغ على عبادي لتخبت قلوبهم بلذة خطابي إلا وأنا منتظر قدوم أسرارك عليّ، وأراعي خطرات قلبك حتى لا يجري ذكر غيري من العرش إلى الثرى، فتح بهذا الخطاب لحبيبه أبواب أنوار عظمته؛ ليكون عظيم الشأن في عيون العالمين، ثم خاطب الجميع بهذا الخطاب بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾: من عبوديتي وطلب مشاهدة ربوبيتي: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: مطلقاً على جريان همكم على أسراركم بنعت كشف جلالي وعظمتي وإلقاء سطوة كبريائي على قلوبكم حتى لا تكونوا إلا مشاهدي عظامم جبروتي، وشرائف ملكوتي، ومعنى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: عند عزائمكم في بذل وجودكم إليّ، وكل حركة غيبية تجري عليكم.

ثم أخبر عن سلطان إحاطته على كل ذرة من العرش إلى الثرى بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ

مُبِينٌ^(١): يَبَيِّنُ أن ما صدر من العدم بنور القدم يكون بين علمه القديم وقدرته القائمة بذاته، ونظره الشامل على وجود جميع الأشياء على حد صغرها وكبرها، وأنها بجمعيتها معروفة في علمه عند بصره، وكلها قائمة بذاته وصفاته، وفي جميع الأوقات ينظر إلى كل ذرة بنظر الحفظ والرعاية، ولولا كمال عزة قدرته وإحاطته بعلمه القديم لتفتت ما بين عرصات الملكوت والجبروت، وبهذه الآية يكمل خوف المراقبين وحذر الواجدين وإجلال العارفين وخشية الموحدين ورعاية الصادقين ومؤانسة الصديقين ومطالبة المريدين.

قال الشقيق: على العبد أن يلزم قلبه دوام نظر الله إليه وقربه منه، وقدرته عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

وقال بعضهم: من شهد شهود الحق إياه قطعه ذلك عن مشاهدة الأغيار أجمع.

قال النصرآبادي: شَتَّانَ بين من عمل على رؤية الثواب، وبين من عمل على اتباع الأمر، وبين من عمل على سبيل المشاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾.

وقد وقع لي إشارة لطيفة أن الله سبحانه يَبَيِّنُ التفاوت بين الأرواح والأشباح، وبين أجرام الأكوان تفاوتًا شريفًا، حيث أخبر تعالى أنه مع الأرواح والأشباح بأنوار شهوده وكشف وجوده واستغراقها في علمه بقوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: خطاب الأرواح والأشباح وأجرام الأكوان معها بالعلم والقدرة والإحاطة بعلمه عليها، فالله سبحانه مع العبد العارف بنعت القربة والمشاهدة، والكون مستغرق في علمه بقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، وما أنت العارف لو شاهد مشهوده ليغيب عن الخوض في الأعمال، بل يطير إليه بأجنحة الأحوال إذا انكشف جماله لمحبه لم يبق بين المحب والمحبوب واسطة الأعمال، وإذا كان كذلك يسقط عنه أحزان الفوات، وخوف الآفات؛ إذ هو في مشاهد الوصال ورؤية الجمال؛ لقوله سبحانه في وصف المشاهدين جماله المستأنسين وصاله الخارجين عن مكائد القهريات ونوائب العقوبات: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾: العارف الصادق

(١) هذه الآية وأمثالها هي أصل المراقبة عند القوم، وهي على ثلاثة أقسام: مراقبة الظواهر، ومراقبة القلوب، ومراقبة السرائر، فالأولى للمعوم، والثانية للمخواص، والثالثة لخواص الخواص، فأما مراقبة الظواهر: فهي اعتقاد العبد أن الله يراه، ومطلع عليه في كل مكان، فينتج له الحياء من الله، فيستحي أن يسيء الأدب معه وهو بين يديه. البحر المديد (٣/ ١).

إذا كوشفت له أنوار جمال الذات استأنس بها، وفرح بمواصلتها على الدوام، ثم دخل في نور البسط، وغلبت عليه الطمأنينة والرجاء.

ثم يدخل في سماع الانبساط من روح الوصال، فيغلب عليه النشاط والاستبشار، وذلك مقام لا يدخل فيه وجل القلوب من سطوات العظمة، ولا اضطراب الأرواح من أنوار الهيبة، ولا فناء الأسرار من قهر سلطان الأولية، ولا اضمحلال الوجود من قوارع العزة؛ لأن الولي العارف إذا كان في رؤية هذه الصفات تكون أسرار، في أسفار الآزال والآباد، ويكون هناك على خطر الفناء من غير القهريات، ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «المخلصون على خطر عظيم»^(١)، فإذا سكنت أسرار عن تلك الأصغار وكملت الحق في الحق وتمكنت بالله في الله وتوطأت في مواطن أنوار الجمال لا يجري بعد ذلك عليه طوارقات الامتحان، ألا ترى إلى المؤمن في الجنان لا يجري عليه آفات العذاب وصور الخوف والحزن؛ لأنه في جنان الظاهر وموضع الروح والريحان، فالعارف الولي أيضًا إذا بلغ إلى جنان جمال مشاهدة الله يكون محروسًا برعاية لطفه عن طوارق قهره أمنا به عنه؛ لذلك قال: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ»، فقوله تعالى: «لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» من مكر السابق في الأزل؛ فإنهم أصحاب العناية في سوابق علم القدم، «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» من مستقبل عارض القهر؛ لأنهم أصحاب انكفايات إلى الأبد، وكيف يخاف من ينظر إلى جماله، وكيف يحزن من يكون في سنا جلاله، ولا تتم الولاية إلا بأربعة: المقام الأول: مقام المحبة، والثاني: مقام الشوق، والثالث: مقام العشق، والرابع: مقام المعرفة، لا تكون المحبة إلا بكشف الجمال، ولا يكون الشوق إلا باستنشاق نسيم الوصال، ولا يكون العشق إلا بدنو الدنو، ولا تكون المعرفة إلا بالصحبة، وأصل الصحبة وكشف الألوهية القديمة مع ظهور أنوار الصفات جميعًا، فإذا رأى أنوار الصفات وصرف النعوت والأسماء ومشارب الصفات وعرف بها الذات سبحانه ويخرج من درك الفناء فيها بنعت البقاء فيكون وليًا، فيورث محبته الطاعة، ويورث شوقه الحالة، ويورث عشقه بذل الوجود، ويورث معرفته الخلو مما سواه، فيتورث بطاعة الفراسات، وتورث الحالة اللطافة والظرافة، ويورث بذل الوجود الكرامات، ويورث الخلو مما سواه الهيبة والوقار، فإذا كان كذلك بها وصفنا تكون الآية لله في بلاد الله شئائله البشارة والسخاوة وأخلاقه الصحبة والنصيحة، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويحفظ حدود الله على عباد الله، طوبى لمن رآه، طوبى لمن صحبه، وأثر خدمته.

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٤٥).

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿١﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
 الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢﴾ وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ
 الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي
 الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْبِقُونِ إِلَّا
 الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
 مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٥﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ
 هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا
 أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا
 يُفْلِحُونَ ﴿٧﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا
 كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٨﴾ * وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ
 مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا يَتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ
 أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٩﴾ *

وتصديق ما ذكرنا وصف الله إياهم عقب هذه الآية بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: آمنوا عاينوا الله بنور الله، وشاهدوا الله بشهود الله إياهم، وعرفوا الله
 بالله؛ حيث لا سبب لمعرفتهم إلا كشف جمال الله لهم، ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾: عما سواه من
 نفوسهم وغيرها من العرش إلى الثرى؛ فإيمانهم بوجوب الكرامات، وتقواهم توجب
 المشاهدات، ثم أفرح فؤادهم بنيل وصاله وإدراك مشاهدته بنعت الرضا عنهم في الدنيا
 والآخرة بقوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لهم في الدنيا مشاهدة
 البيان، وفي الآخرة مشاهدة العيان، لهم في الدنيا مكاشفات، وفي الآخرة مشاهدات، لهم في
 الدنيا التجلي، وفي الآخرة مقام التدلي، لهم في الدنيا رؤية الله في المنامات، وفي الآخرة عيان
 المشاهدات.

ثم بين أن تلك الاصطفائية الأزلية لا تتغير أبداً بقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾
 أي: لا تبديل لما سبق لهم في الأزل من حسن عنايته لهم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾؛ حيث
 نجوا من قهره وظفروا بوصاله ومشاهدته، وأي فوز أعظم من ذلك.

قال الواسطي: حظوظ الأولياء من أربعة أسماء، وقيام كل فريق منهم باسم منها، هو
 الأول والآخر والظاهر والباطن، فمن فني عنها بعد ملاستها فهو الكامل التام، ومن كان

حظه من اسمه الظاهر لاحظ عجائب قدرته، ومن كان حظه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره، ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله ما سبق، ومن لاحظ اسمه الآخر كان مربوطاً بما يستقبله، وكلّ كوشف على قدر طبعه وطاقته، إلا من تولاه الحق بيره وقام عنه بنفسه.

وقال بعضهم: قلوب أهل الولاية مصانة عن كل معنى؛ لأنها موارد الحق. سئل بعضهم: ما علامة الأولياء؟ قال: همومهم مع الله، وشغلهم بالله، وفرارهم إلى الله.

قال أبو سعيد الخراز: الأولياء في الدنيا يطيطون بقلوبهم، يرتادون ألوان الفوائد والحكمة، ويشربون من عين المعرفة، فهم يفرون من فضول الدنيا؛ ويأنسون بالمولى، ويستوحشون من نفوسهم إلى وقت موافاة رسول الرحيل. وقال أيضاً: نفوس الأولياء جملة قلوبهم، وقلوب الأعداء تحمل أثقال نفوسهم من الشرك طمعاً في راحة نفوسهم.

وقال أبو يزيد: أولياء الله عرائس الله، ولا يرى العرائس إلا من يكون محروماً منهم، وهم مخدرون عند الله في حجال الأنس لا يراهم أحد. قال أبو علي الجوزجاني: الولي هو القاني في حاله، الباقي في مشاهدة الحق وذاته، تولى الله اصطفاؤه، فتوالت عليه أنوار الولي، لم يكن له عن نفسه إخبار، ولا مع أحد غير الله قرار. وسئل أبو حفص عن الولي؟ قال: الولي من أيد بالكرامات وغُيَّب عنها.

وقال محمد بن علي الترمذي: الولي بشرى كأنه على روحه في منامه، وعلى قلبه من تلطفه، فروحه تسري إلى تحت العرش، فتسجد فيه، وقلبه يسري إلى فوق العرش فيلاحظ المجالس ويناجي ويبشر^(١).

(١) قال الإمام القشيري - رحمه الله تعالى: اختلف أهل الحق في الولي، هل يجوز ألا يعلم أنه ولي أم لا؟ فكان الإمام أبو بكر بن فورك يقول: لا يجوز ذلك؛ لأنه يسببه الخوف ويوجب له الأمن، وكان الأستاذ أبو علي الدقاق يقول بجوازه. وقال القشيري: وهو الذي نريده ونقول به.

قال: ونيس ذلك بواجب في جميع الأولياء، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم أنه ولي، وكانت معرفة تلك كرامة له انفرد بها، وليس كل كرامة لولي يجب أن تكون تلك بعينها لجميع الأولياء بخلاف الأنبياء ﷺ؛ لأنه يجب أن يكون لهم معجزة؛ لأن النبي مبعوث إلى الخلق، فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه، ولا يعلم ذلك إلا بالمعجزة، ويعكس ذلك قال الولي؛ لأنه ليس بواجب على الخلق ولا على الولي أيضاً ليعلم بأنه ولي، والعشرة من الصحابة - رضي الله عنهم - صدقوا الرسول ﷺ فيما أخبرهم أنهم من أهل الجنة. وقول من قال: لا يجوز ذلك، لا يخرج من الخوف، فلا بأس أن يخافوا بغير العافية، والذي يجدونه في قلوبهم من الهيبة والتعظيم والإجلال للحق سبحانه وتعالى يزيد ويربو على كثير من الخوف.

قال أبو سعيد الخراز في قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾: هم به وله، موقوفون بين يديه، غير أن الحق تمتع لهم بها له، أراهم من عظيم الفوائد وجزيل الذخائر مما لا يقع لهم علم به، ولا علم عليه قبل حين وروده حتى يكون الحق مطالعاً لهم على ما يريد من ذلك على حسب ما قسمه لهم، فهم في ذلك على أحوال شتى، فذلك قوله: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: جعل سكون العشاق والمشتاقين والمحبين في الليل المناجاة معه، ونيل الوصال منه، وخفض جناح القهر تحت أقدام الهمة الجامعة، ينظر عين الجمع إليها، ما أطيب أنس العارفين في الليالي حين أمطروا من عيونهم الباكية من شوق الله الدرر واللالى. وأنشد:

أقضي نَهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني بالليل والهمم جامع
وجعل النهار سريان أنوار القدرة، تطلع من جبتها كل لحظة شمس الصفات، وأنوار الذات، فصار مرآة نظر العارفين، وتجلى الحق فيها هم، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٦) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَتَبْجِئْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ وَجَعَلْنَاهُمْ خُلَفَاءَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (٧٧) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٨) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (٧٩) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (٨٠) ﴿قَالَ مُوسَىٰ أَنْتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلَحُ السَّحَرُونَ﴾ (٨١) ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي

واعلم أنه ليس للولي مساكنة إلى الكرامة التي تظهر عليه، ولا له ملاحظة لها، وربما تكون لهم في ظهور جنسها قوة يقين وزيادة بصيرة لتحقيقهم أن ذلك فضل الله تعالى مستدلين على صحة ما هم عليه من العقائد.

الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَنْقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ ۚ أَلَيْمٌ ﴿٨٨﴾ ۝

قال بعضهم: جعل سكون الليل إلى الخلوة والمناجاة والنهار مبصرًا ليصروا فيه عجائب القدرة والاعتبار بالكون.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾: يعني المسلمين في إسلام نبيه نوح عليه السلام انقياد نفسه المتصفة بصفات الله عند قدم جلاله وجبروت ملكوته وعظم كبريائه؛ حيث نازعت نفوس المتصفين بصفاته بنعت الأنانية من حدة سكرهم في بحار التوحيد وقفار التجريد، ومهمة التفريد؛ لأنه من أولي العزم، وصار صاحبًا بعد السكر، وليس لأهل الصحو إلا هدوء الأسرار تحت أذيال الأنوار.

وأيضًا: أن أكون من القائلين بالقلوب الربانية سهام امتحان قهر غيرة الأزل.

قال بعضهم: ممن تسلم، سري من قلبي، وقلبي من نفسي، ونفسي من لساني، ولساني الكذب والغيبة والبهتان.

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾: سبق الحق باصطفائه أهل حقيقته بالحق الذي للحق مع أهله، فيظهر تلك الاصطفائية للخلق بالآيات الواضحة والكرامات المشرقة، التي لا تكون إلا بكلمات الأزلية التي يتكلم بها مع نفسه لسياق محبيه وعارفيه على كل مبطل، ودافع عن طريق الحق.

قال بعضهم: الحق على ثلاثة أوجه: حق أحق، وهو قوله: ﴿وَمُحِقُّ اللَّهِ الْحَقُّ بِكَلِمَتِهِ﴾ أي: كون الكون بكلماته، وحق أحقه حق، وهي: الصفات؛ لأنها قائمة بالوصوف، والوصوف قائم بالصفات، والحق المطلق هو الله، قال الله تعالى: ﴿قَدْ لِكُفْرِ اللَّهِ رَبُّكُمْ﴾.

قال الحسين: حق الحق بكلماته أي: بإظهار ما أوجد تحت الـ ﴿كُنْ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ أي: إن كنتم عرفتم الله، وكنتم منقادين لربوبيته العبودية فعليه توكّلوا، فإن المعرفة والانقياد والعبودية توجب تسليم الوجود لتصرف خالقه بنعت استلذاذ مرارة الامتحان.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ وَجَنُوزَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ءَالْكَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

سئل إبراهيم الخواص عن قوله: ﴿فَاعْلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾؟ قال: تناولوا السبب من الله بلا واسطة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾: عرف الله سبحانه لهما مكان الدعاء حتى يعرفا مكان الإجابة والسؤال؛ لأن مكان الدعاء مكان الإجابة، ومن لم يعرف مكان الإجابة لا يستحسن منه الدعاء والسؤال، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ في معرفتهما مكان السؤال مني بشرط معرفتهما مني مكان الإجابة، وذلك مكان الرضوان والبسط والانبساط.

وأيضًا: هذا تهديد لهما أي: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ لضعفكما من تحمل وارد امتحاني، ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ بعد ذلك في تحمل بلائي والصبر فيه؛ فإن استقامة المعرفة تقتضي الرضا بالقضاء والسكون في البلاء.

قال ذو النون: الاستقامة في الدعاء ألا تقنط لتأخير الإجابة، ولا تسكن إلى تعجيل الإجابة، ولا تسأل سؤال خصوص.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝﴾
 قيل: ﴿أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ﴾ استقيا على مناهج الصدق.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: كان ﷺ مصطفى في الأزل بشرط الرسالة والنبوة، والمقام المحمود الذي خُصَّ به عن جميع خلقه، فلما جاء عليه أوائل الاصطفائية ودلائل الرسالة وحقائق أنوار الوصلة بغثة ولم يحصل له ترميد الحاصل البداية تردد حاله وعارضه وسره، وخاف من فوت الحال، فسأل الحق قلبه بخطابه، وأحاله إلى رؤساء أخبار كتبه المنزلة ليعرفوا من هناك نشر فضائله واختصاصه في الأزل برسالته بما وجدوا في كتبهم، ألا ترى كيف أراد أن تلقى نفسه من جبل جرى شوقاً إلى جبريل ﷺ ورسالة الله سبحانه، حتى جاء جبريل وأخذه وتسلاه بسلام الله ووحيه.

ألا ترى إلى قوله: «زملوني زملوني»^(١)، ولا تعجب عن خواطر التردد عن البشر، وإن كان رفيعاً، فإن شاهد القدم لو بقلب سربال الربوبية يبلغ قلوب الصديقين، ويفني أرواح المقربين من يتخلص من معارضة النفس بعد المكاشفة، وتلك المعارضة تصدر من الحق امتحاناً وعبرة، حتى تطلع على الطالب شمس العناية، وقمر السعادة، فيرى الحق بالحق ويستقيم به له.

ألا ترى كيف قال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»^(٢)، وكيف قال: «نحن أولى بالشك من إبراهيم»^(٣)، ليس هذا شكاً في وعد الله إنه رفع المعارضة والخطرات، ألا ترى إذا استقام وزال الامتحان من مقام العرفان والإيقان، كيف قال: «لا أشك لا أشك»^(٤)، لا تعجب مما ذكرنا؛ فإن الحق حق، وأخلق خلق، حاشا أنه كان في شك، إنما كان في رؤية جلال القديم، يرى نفسه غريباً عجيباً، ويتمجب مما يرى من غرائب وضوح الرؤية، كان كمن لم ير، فتحير في أمر الأزلية وأحكام الربوبية، قد اضمحل الحدث في القدم، ويرى القدم، ولم ير أنه يرى القدم بالحدث، فدهش بين رؤيتين يسمع خطاب

(١) رواه البخاري (٤/١)، ومسلم (١/١٤١).

(٢) رواه مسلم (٤/٢٠٧٥).

(٣) رواه البخاري (١٢٣٣/٣)، ومسلم (١/١٣٣).

(٤) رواه عبد الرزاق في مصنفه (٦/١٢٥).

الأزل، فيرى الحدث متكلفاً بين أنوار القدم:

أَنَا مَبْصُرٌ وَأُظُنُّ أَنِّي نَائِمٌ وَيَجْمَعُنِي بِاللَّيْلِ وَالْهَمُّ جَامِعٌ
كَبُرَ الْعَيَانُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّ صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْعَيَانِ تَوَهُّمًا

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: مما فضلناك وشرفناك، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، وهم الأعداء كيف وجدوا وصفك في كتبهم، وكيف رأوا فيها نشر فضائلك يدل عليه قوله بفتح حين أنزلت هذه الآية: «لا أشك لا أشك»^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾: تقاضى سر الأزل من الأزل لقهره ولطفه أهلاً يكونون من مصرفها صادرين، وإليهما راجعين بنعوتهما، فأجاب الحق سبحانه سره بكلماته الأزلية بسعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء، فلزم سمات لطفه الأزلية على وجوه المقبولين، وألزم سمات قهره على أعناق المخطودين، فبقي أهل اللطف من الأزل إلى الأبد في لطفه، ويقبلون منه ما يصدر من إرادته ومشيته وأمره، وبقي أهل قهره من الأزل إلى الأبد في ظلمات قهره، فلا يرون واضحات مواهبه على أنبيائه وأوليائه إلا وينكرون عليها؛ لأنهم يرونها بعيون مظلمة وأبصار مطموسة. قال الواسطي: من لم يلحقه نور الأزل لا يتبين عليه صفاء الوقت؛ فإن صفاء الأوقات نتائج أنوار الأزل، قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾: أعلم الحق سبحانه أن شأن مشيته لا يكون على سنن العقول وإدراك الفهوم لما رفع مسنون المعهود الذي جرى عادته في رسم المواجهة أن يأخذ بعد معاينة العذاب، ولا يقبل التضرع والتواضع فحول ذلك، وقبل تضرع المتضرعين عند معاينة البأس؛ لئلا يظن ظان أن أمره على مقادير العقول، تعالى الله أن يكون في حين الدركات، التجأوا منه إليه، فأنكشف لهم صبح الوصال من مطالع الجمال بعد قهَاب دجى الضلال، فعاینوه بعد التجائهم، فعكس أنوار طلوع شمس الألوهية عليهم،

فجازهم من سطوات القهر؛ لأن رحمته سبقت على غضبه، ولولا كشف جماله لهم لبقوا في حجاب النكرة واحترقوا.

وأيضاً: ﴿لَمَّا ءَامَنُوا﴾ أي: عرفوا صفات الحق بعد بروز أنوارها في قلوبهم ارتفع عنهم عذاب البعد والفراق، ثم بين اختصاص المختصين واصطفائية المصطفين أنها بمشيئة الأزلية ولا بعلة الاكتساب يكون الولي ولياً، بل بفواتح كرمه وسوابق نعمه قوماً من العارفين ويقهر قدمه يضع آخرين.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَتَجْعَلَ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ^(١).

وصرح الحق أن لو شاء لخلقهم جميعاً مستعدين للولاية بقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾، ولكن جعل قوماً غذاء رحمته السابقة، وجعل قوماً غذاء قهره الأول؛ لتكون الصفتان على قوام حظهما من البرية، وتبين خاصية أحبائه وطرده أعدائه، وفيه إياس الطامعين في إيمان من ليس له أهليه لمعرفته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: كل نفس ليس لها استعداد معرفته وقبول محبته، وليس بها من الله سابقة حسن عنايته في الأزل بنعت اصطفائيتها بالولاية كيف تعرفه، ومعرفته نتائج أنوار طوابع صفاته في قلوب العارفين.

(١) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ إشارة بالاسم الرب إلى أن ما بعده من قبيل القرينة، إمّا بالنسبة إليه ﷻ فبالعلم، وإمّا بالنسبة إلى قومه فيبقاء بعضهم على حاله من الجهل والمعصية، وعبارة الخطاب له ﷻ وإشارته لكل من هو بصدد التبليغ من الورثة.

قوله ﷻ: ﴿لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أراد بمن في الأرض: الأنس والجن، كما دلت عليه كلمة مَنْ، فإنهم هم المكلفون: منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون. وأما مَنْ في السماء، وما في الأرض من الملائكة، وما عدا الإنس والجن؛ فهم مؤمنون مسبحون، باقون على فطرته الأصلية، لا يحتاجون إلى الدعوة والتبليغ.

قوله ﷻ: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ أي مجتمعين في الإيمان؛ كاجتماع الملائكة في سجدة آدم، واجتماع بعض القبائل والطوائف على الإيمان، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ [النصر: ٢]؛ فإن بعض الناس إذا دخلوا في دين الله مجتمعين بمشيئة الله تعالى؛ فكلهم مَنْ شأنهم الدخول فيه كذلك؛ لكن الله لم يشأ ذلك لحكمة تقتضيه؛ وهي كون الموطن موطن الجمال والجلال، وظهور آثار الأسماء الإلهية مطلقاً، فلو آمن كلهم؛ لبقى بعض الأسماء بحيث لا حكم له في العين، وذلك ينافي جمعية نشأة الإنسان.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٠١ ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ١٠٢ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٣ ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠٤

قال بعضهم: لا يظهر الإيذان على أحدٍ إلا لسعادة سابقة له في الأزل ونور متقدم، ثم زين السماوات والأرضين بأنوار ملكوته وجبروته، وأظهر منها سبحات جلاله وشهود عظمته لنظار المعارف وألباء الكواشف، ودعاء الأحياء والأعداء إلى النظر إليهما بقوله: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما يبرز من نوره من جبين الشمس وسناه من عارض القمر وضيائه من مرآة الكواكب، الذي انكشف لخليله، وسليبه من الحدثان إلى رؤية القدم بالنظر إلى هذه الوسائل، حين قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، ثم أخبر عن خروجه منها إلى أنوار السرمدية والفردانية بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ١٠٢: أي: لو أن لكم بصائر الصفاتية وأبصار الذاتية انظروا؛ فإن جمال القدم ظاهر للعاشقين، عيان للمشتاقين، وبيان للمحبين، ثم بين أن من لم يكن له عين من تلك العيون، ونور من تلك الأنوار، ألا ترى جماله وجلاله تعالى يقول: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: كيف يفعل الآيات بمن خلق محروماً عن الإيذان بمكون الآيات.

قال بعضهم: لا تصل العقول الخالية عن التوفيق إلى سبيل النجاة ولما يفنى ضياء العقل مع ظلمة الخذلان، إنما ينفع أنوار العقل من كان مؤيداً بأنوار التوفيق وعناية الأزل، وإلا فإنه متخبطٌ في هلاكه بعقله.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إن الرسل وأتباعهم من المؤمنين محفوظون بنور عنايته عن اقتحام قهره عليهم، نجاة الأنبياء والمرسلين من حجاب الخطرات، ونجاة العارفين من حجاب الشهوات، ونجاة المؤمنين من غارات إبليس وسلب الشياطين إيمانهم برعايته القديمة المقرونة بمحبته الأزلية إياهم؛ لأن من أحبَّ أحداً حفظه عن مهالك البعد منه.

﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ منا، وننجي المؤمنين من قهرنا الأنبياء في عين الجمع، وهم في عين التفرقة، هم في الذات، وهم في الصفات، وكان ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ نجاة العارفين؛ لأننا

اصطفيناهم في الأزل بالكرامات والولايات، ومن اصطفيناه حقاً علينا الوفاء بما أخبرنا عن نفسنا في حقه.

قال بعضهم: «تُنَجِّي رُسُلَنَا» من مراد النفس، وغلبة الشهوة، وغفلة الوقت وسطوات العدو وشتات السر، «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا» بالرسول نجريهم على مناهج الرسل، «كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا» نجاة من صدق في عبوديته.

«وَأَنْ أَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (١٦) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٧) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الْكَرِيمُ (١٨) يَتَأَيُّمُ النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٩) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُصِمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٢٠).

قوله تعالى: «وَأَنْ أَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا»، «لِلدِّينِ» هاهنا: محبة الله والشوق إلى لقائه، ومعرفة صفاته أي: أقبل بوجهك إلى هذه الصفات الحنيفة الخليفة المبرأة عن محبة كل مخلوق سوانا، ثم أقبل بهذه الصفات جميعاً وجهك الاستقامة إلى مشاهدة وجهنا الأزلي المنزه عن المخايل والتصاوير حتى تراني بي، وتصل إليك أنوار وجهي الذي لو أشاط ذرة منها على جميع الأكوان والحدثان من العرش إلى الثرى يضمحل جميعاً تحت أنوار سلطان بهائي وجلالي، قال (عليه السلام): «حجابُه النورُ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» (١): أي: يستقيم لي في ذلك المقام حتى تطيق أن تحمل أثقال أنوار مشاهدتي، ثم خوِّفه من الالتفات إلى غيره في إقباله عليه بقوله: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»: من الطالبين من غيري، والآسرين على حبال مشاهدتي ما لا يليق به من الحدثان.

قال ابن عطاء: صحح معرفتك، ولا تكونن من الناظرين إلى شيء سوى الحق، فيمقتك الله، وإقامة الملة الحنيفة، هو تصحيح المعرفة.

ثم زاد تأكيد الإقبال عليه والإعراض عما سواه بقوله: «وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ»: شدد أمر التوكل والاعتماد عليه بقطعه طريق الإعراض عما سوى وصاله، وبين أن من نظر إلى غيره عند امتحان الله بالسراء

والضراء يكون مغلوب قهره، متروك حظه، محروماً من مراده، محجوباً عن الله بغير الله، باقياً في فوات المراد، ومن كان بهذه الصفة فهو ظالم؛ حيث وضع الربوبية عند من لا يستقيم في العبودية.

قال شقيق: الظالم من طلب نفعه ممن لا يملك نفع نفسه الضر ممن لا يملك الدفاع عن نفسه، ومن عجز عن إقامة نفسه كيف يقيم غيره! قال الله: ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم زاد تأكيداً إليه في رجوع عبادته بالكلية وإعراضهم عما سواه بقوله: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾: عرّف حبيبه أن كل حركة من العرش إلى الثرى فهو تعالى محركها، وكل روح وجسد وقلب ونفس وهمة وعقل وكفاية مستغرقة في بحار مقاديره لا يجري عليهم إلا موارد القضاء والقدر، وكل مشيئة في الامتحان بالضر وإيصال النفع تصدر من حكمة السابق، فينبغي ألا يرى الغير في البين، ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الحجاب ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ لذلك ﴿إِلَّا﴾ ظهور أنوار وصاله، ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ كشف جماله، ﴿فَلَا رَادَّ﴾ لفضل وصاله من سبب، وعلة من الألوان والأعمال، فإن المختص في الأزل بوصالنا لا يحتجب بشيء من الأشياء؛ لأنه في الفضل السابق مصون عن جريان القهر.

ثم علق ذلك بمشيئته السابقة، وأخرجه عن اكتساب البشر بقوله: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ من عرفانه؛ لأنه سائر الأولياء في قباب عصمته عن طرفان قهره رحيم بهم؛ حيث ربّاهم بجماله، وآواهم إلى وصاله.

قال ابن عطاء: قطع الحق على عبادته طريق الرغبة والرغبة إلا إليه بإعلامه أنه الضار النافع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: الحق هو القرآن في ظاهر التفسير وحقائقه وتجلي ذاته في صفاته، وصفاته في فعله، فوصل بركة تجليه إلى كل مبارك، وانصرف نوره عن كل محروم، ثم بيّن سبحانه أن عروس القدم قد انكشف لأهل النعم، فمن رآه، رآه بحظه الوافر، ومن أخطأه أخطأ طريق النجاة بقوله: ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾: أي: من عرفني فمعرفة راجعة إليه، ومن جهلني فجهله راجع عليه، فإن ساحة الكبرياء منزّهة عن معرفة العارفين وجهل الجاهلين؛ حيث ما استوحش حين جهلوه، وما استأنس حين عرفوه، ثم بيّن أن المتولي تعالى

هو بنفسه في الهداية والضلالة بقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.
 قال الواسطي: لو وقع التفاضل بالنعوت والصفات كان الذات معلولاً ما أظهر، فإنها
 أظهره لك إن أجرى الإحسان عليكم فلكم بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسَنْتُمْ لَا أَنْفُسَكُمْ﴾، إن
 أجرى الاهتداء فلكم بقوله: ﴿فَمَنْ آهْتَدَىٰ فَلِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ﴾، وإن أجرى الشكر
 فلكم بقوله: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَلِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.

ثم إن الله سبحانه أمر نبيه بمتابعة مراده، واستقامته في العبودية، والصبر في بلائه،
 والرضا بقضائه بقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْخَاكِمِينَ﴾
 أي: اتبع ما يحل في قلبك من خطاب الأزل، وطيب روحك بطيبه، واصبر إذا شملت راحة
 وصلتي، ولا تضطرب؛ فإنك في امتحان الرسالة، حتى يحكم الله برفع الحجاب عن مشاهدته،
 ويريح العارفين والمحبين والمشتاقين عن بلية الحجاب أبداً، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْخَاكِمِينَ﴾ بأن يفرق
 بين أوليائه وأعدائه، ويخلص أهل العرفان من أذية أهل الحرمان، والله أعلم.

قال سهل: أجرى الله في الخلق أحكامه، وأيدهم على اتباعها بقدرته وفضله، ودلهم
 على رشدهم بقوله: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ﴾، والصبر على الاتباع، وترك تدبير
 النفس فيه النجاة عاجلاً من رعونات النفس، وآجلاً من حياء المخالفة، والله أعلم.



سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَا ۝٢ تَعْبُدُونَ إِلَّا
 اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ ۝٣ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَعًا حَسَنًا
 إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۝٤ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
 كَبِيرٍ ۝٥﴾.

﴿الر﴾: الألف إشارة جميع التأويلات التي جرت في سوابق الأزل الألوهية، واللام
 إشارة جميع لوازمات العبودية التي وجبت أحكامها في الأزل على أهل العبودية، والراء
 إشارة إلى راحات مشاهدة الذات، والصفات للأرواح والأشباح.

قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ﴾: مخبرات الكتاب من عيون الصفات،
 والذات نزعت عن تغاير الحدثان؛ لأن أصلها صفة القدم، وليس في القدم تبديل وتغيير،

﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾: أي: بينت للأرواح العارفة والقلوب الشائقة مصارفها وحقائقها، وتلك الآيات معرفة الصفات والذات لأهل المشاهدات والمكاشفات تعرف لهم أحكام الربوبية والعبودية؛ ليشهدوا بأنوارها شهود أنوار الحق، ويعلموا ما يجري من أحكام الغيب القدري على الخلق.

قوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾: هو من كلام أزي حكيم؛ إذ حكم باصطفائية عرفانه بمعرفته ﴿خَبِيرٍ﴾ باستعدادهم وقبولهم بوصف محبة عبوديته. قال بعضهم: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ﴾ في قلوب العارفين، ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ أحكامه على أبدان العاملين.

قيل: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ﴾ بالكرامات وفصلت بالبينات.

قال الأستاذ في قوله: ﴿أُحْكِمَتْ﴾: حفظت عن التغيير التبديل، ثم فصلت تبيان نعوت الحق فيما يتصف به من جلال الصمدية، وما يعبد به الخلق من أحكام العبودية. ثم بيّن سبب نزول الكتب بهذه الأوصاف؛ ألا يكون العباد إلا لمولاهم، لما كان بينهم من مواصلة المحبة ووجوب الربوبية والعبودية بقوله: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لا يلتفتوا إلى ما الله في عباده الله، ثم بيّن أنه ~~نذير~~ نذيرٌ بعظائم قهره وبشيرٌ بلطائف وصله. قال الأستاذ: نذيرٌ من الله بالفرقة، بشيرٌ بدوام الوصلة.

ثم أمرهم بالافتقار إلى مشاهدته والافتخار بوصاله والاستغفار عن ملاحظة غيره في طلبه إدراك جماله، والرجوع من قهره إلى لطفه، ومن النفوس وحظها وهواها إلى مراده ومتابعة أمره بقوله: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾: استغفروا من جنایات الأسرار، وتوبوا إليه لطنب الأنوار ترك النظر إلى الأغيار قدم الاستغفار على التوبة؛ لأن الاستغفار تقديس، والتوبة تخليص، الاستغفار من الزلل، والتوبة من الغفل.

سُئل سهل بن عبد الله عن الاستغفار؟ فقال: هو الإجابة، ثم الإنابة، ثم التوبة، ثم الاستغفار، والاستغفار بالظاهر، والإنابة بالقلب، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها.

وقال بعضهم: استغفروا ربكم عن الدعاوى، وتوبوا إليه من الخطرات المذمومة.

وقال يوسف: استغفار العام من الذنوب، واستغفار الخاص من رؤية الأفعال دون رؤية المنة والفضل، واستغفار الأكابر من رؤية كل شيء سوى الحق لما بلغت في ذكر التفسير، إلى هاهنا سألني بعض أهل الصحبة عن حقائق استغفار العارفين؟ فقلت: استغفارهم عن

كون وجودهم مع كون الحق، وعن تقصيرهم في المعرفة عن إدراك حقائق صفات معروفهم، وعن دعوى الأنانية في السكر في مقام صحوهم، وعن غاشية عين العبودية في مشاهدة الربوبية.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «إِنَّهُ لِيَغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لِأَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(١)، ومن جملة استغفاره ﷺ في هذا المقام استغفار من رؤية وجوده الحق، وعن رؤية مشاهدة الالتباس في رؤية مشاهدة صرف الوجدانية، وعن خواطر الأنانية.

ثم بين أنه تعالى يجازيهم بعد رجوعهم مما سوى الحق إلى الحق بالتمتع ببقائه ووصاله والفرح بجماله أبد الأبدين بقوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا»: المتاع الحسن أنوار المواجه على الدوام، وصفاء الأحوال على السرمدية، وسنا الأذكار وحلاوة الأفكار، ونزول حقائق الكواشف، وظهور لطائف المعارف، والفرح برضوان الله، ولين العيش في مشاهدة الله، ما أحسن هذا المتاع منا في من الدنيا لقاءك مرة فإن نلتها استوفيت كل منائيا.

قوله تعالى: «وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ»: يؤتي فضل مشاهدته لمن له فضل المعرفة، ويؤتي فضل وصاله لمن له فضل الشوق إلى جماله، ويؤتي فضل الكرامات لمن له فضل العبادات، ويؤتي فضل التحقيق لمن له فضل التوفيق، ويؤتي فضل كفاية الأبد لمن له فضل عناية الأزل، ويؤتي كل ذي فضل الندامة على ما سلف من ذنوبه، والاستغفار من الله والرجوع من نفسه إلى خالقه فضل طمأنينة القلب بالذكر، وفضل رؤية منه الحق بنعت نسيان الخلق، ووصل المؤانسة بروح الوصال، ولذة نور الجمال.

قال الواسطي في قوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا»: طيب النفس، وسعة الرزق، والرضا بالمقدور.

وقال سهل: هو ترك الخلق والإقبال على الحق.

قال أبو الحسن الوراق: يرزقكم صحبة الفقراء الصادقين.

وقال الجنيد: لا شيء أحسن على العبيد من ملازمة الحقيقة، وحفظ السر مع الله، وهو تفسير قوله: «يُمَتِّعُكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا».

قال الحسين: «مَتَاعًا حَسَنًا»: الرضا بالميسور، والصبر على كرمه المقدور.

وقال الواسطي: «وَيُؤْتِي كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ»: ذو الفضل من رزق بعد الاستغفار، والتوبة حسن الإنابة والإخبات مع دوام الخشوع.

قال النصر آبادي: رؤية الفصل يقطع عن المنفصل، كما أن رؤية المنة يحجب عن المنان.
 ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٥١﴾.

قال بعضهم: يوصل كل متحقق إلى ما يستحقه من مجالس القرية وسمو المنزلة.
 قال الجوزجاني: من ندر عليه الفضل في السبق يوصله إلى ذلك عند إيجاده.
 سئل أبو عثمان عن قوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾؟ قال: يحقق أمانى من أحسن ظنه به.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الخطرات،
 ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من النظرات، يعلم ما يسرون من أذكار القلوب، وما يعلنون من الإخبار عن
 الغيوب، يعلم ما يسرون من الحالات، وما يعلنون من المعاملات، وهو تعالى كسا أنوار
 جلاله فؤاد الصديقين، فيرون بأبصار قلوبهم ما يجري في صدور الخلائق من المضمرات
 والخطرات، كما يرون الظواهرات بعيون الظاهرة، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ
 لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، وقال ﷺ: «اتقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(١).
 قال قائلهم:

أَبَعَيْنِي أَرَاكَ أَمْ بِفُؤَادِي كُلُّ مَا فِي الْفُؤَادِ بِالْعَيْنِ بَادٍ

قال فارس: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من أحوالكم، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من أفعالكم، وهو
 عالم بكم قبل أن خلقكم وأبدعكم.

وقال أيضًا: الحركات على الجوارح، والمشاهدة على الأسرار.

وقال بعضهم: ما يسرون من الإخلاص، وما يعلنون من العبادات.

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي
 كِتَابٍ مُّبِينٍ ٥٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
 عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ
 الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٥٣ وَلَئِن أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ
 إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۚ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ
 بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾: دعا الجمهور بلسان التوحيد إلى منازل التفريد؛ ليدخلوا إلى مراتب الرضا، ويجلسوا على مساند الصفا، وينظروا في مرآة الأقدار مبصر الأنوار، لتطمئن أسرارهم في جريان التقدير، بما رأوا من سوابق القسمة، وأوائل الحكمة لكل دابة رزق عليه بقدر حوصلتها، فرزق الظاهر للأشباح، ورزق المشاهدة للأرواح، ورزق الوصلة للأسرار، ورزق الرهبة للنفوس، ورزق الرغبة للعقول، ورزق القربة للقلوب، ورزق الملائكة الخوف والذكر، ورزق الجن الزجر والوعيد، ورزق الحيوان روح العنصر، ورزق الحشرات خطرات التسبيح، ورزق السباع اقتحام ظلام عظمة الأفعال، ورزق الطيور الفرح والتهليل، ورزق الإنسان الذي تعيش به هو فيض الفعل وروح الفعل، ونور الصفة وشهود سنا الذات على الأسرار، وهو تعالى بلطفه يعلم مصارف الجميع من أفعاله وصفاته وذاته لما قال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾: مستقر الأرواح أنوار ذاته، ومستقر القلوب أنوار صفاته، ومستقر العقول أنوار أفعاله، مستودع العقول العبادات، ومستودع القلوب المشاهدات، ومستودع الأرواح المكاشفات، ومستقر الأشباح أكناف الآيات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ قبور المجاهدات، ومستقر العقول الأذكار ومستودعها الأفكار، ومستقر القلوب المحبة، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ المعرفة، ومستقر الأرواح التوحيد، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ الفناء في الموحد مستقر الجميع أصلاب العدم، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أنوار القدم.

قيل: قرأ يوسف بن الحسين هذه الآية، ثم قال: ندب الله عباده جميعاً إلى التوكل والاعتماد، فأبوا بأجمعهم إلا اعتماد على عواري ما ملكوا إلا فقراء المهاجرين، ثم جرت تلك البركة في الفقراء الصادقين إلى من ترسم بهم من الصوفية، فالخلق أبوا الاعتماد على الأسباب، وأبت هذه الطائفة أن تعتمد على غير المسبب، وهو من أشد المناهج.

قيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ ظاهر إسلامه، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ باطن إيمانه.

وقيل: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ من الخلق، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ من الحق.

وقيل: ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ في الطاعات، ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ في الأحوال.

يقال: مستقر العابدين المساجد، ومستقر العارفين المشاهد.

ويقال: النفوس مستودع التوفيق من الله، والقلوب مستودع التحقيق من قبل الله.

قيل: القلوب مستودع المعرفة، والمعرفة وديعة فيها، والأرواح مستودع المحبة، فالمحباب ودائع فيها، والأسرار مستودع المشاهدات، فالمشاهدات ودائع الله^(١).

(١) قال ابن عجيبة: أي: يعلم مستقرها في العلم، ومستودعها في العمل، أو مستقرها في الحال، ومستودعها =

﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَةً ثُمَّ نَزَعْنَهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكُفُورٌ ۝
 وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝
 إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝
 فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتْرٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ
 مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝
 أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝
 فَإِنْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَةً ثُمَّ نَزَعْنَهَا مِنْهُ﴾: إِنَّ اللَّهَ سبحانه وصف الممتحن الذي ذاق من طعم أحوال العارفين والمحبين والمريدين، واقتحم في حظوظ النفس وظلمات هواها، واحتجب بها عن مذاق مراتب الذاكرين والصالحين، ولم يتدارك ما فاته من عمارة الأوقات، وحراسة الأنفاس بقي في حجابيه، وألبس عن مدارك إخوانه، وزاد خوضه في متابعة النفس، ويكون هالكًا مع الهالكين، وكم من طائفة هلكوا في هذه الورطة، ولم يتعشوا.

قال قائلهم:

وَكَاْنَ لِىْ مَشْرَبٌ يَصْفُوْا بِرُؤْيَيْكُمْ فَكَدَّرْتَهُ الْاَيَّامُ حِيْنَ صَفَا
 قال أبو سعيد الخراز: من أذيق حلاوة الذكر وصفاء السر ثم نزع منه من سنا المقامات والأحوال فليحكم لقلبه بالموت، ولسره بالعمى عن طريق الهدي؛ لذلك قال الله: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحِمَةً ثُمَّ نَزَعْنَهَا مِنْهُ﴾، وهو محل القربة، ﴿ثُمَّ نَزَعْنَهَا مِنْهُ﴾، وهو حجاب النعمة.

ثم ذكر سبحانه وصف المتخلص من محن الفراق والناقة من مرض سم أفاعي القهر بمفرح الترياق إذا أدرك ما فاته، وطلع عليه شمس العناية مشرق الكفاية، وأقبل عليه أيام السعادة بعد ذهاب أيام الشقاوة بقوله: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

في المقام، أو مستقرها في للفناء، ومستودعها في البقاء، أو مستقرها في التلوين ومستودعها في التمكين، أو مستقرها في عالم الأشباح، ومستودعها في عالم الأرواح.

السَّيِّئَاتُ عَنِّي»: أذقناه نعماء الوصال بعد ضراء الفراق، أذقناه من شراب الوداد بعد رجوعه إلى المراد، يطربه المواجهيد، فيسكره أنوار شراب الوصلة، فيهيج نفسه بهيجان قلبه، ويضطرب ويفرح بذهاب ظلمة الهجران عنه، ويظن أن الأوقات باقيات عليه، فيدعى بدعاوي البشرية بالمقامات والأحوال عند الخلق، وذلك غلطٌ عظيمٌ يفرح بغلظه، ولا يعلم مزية قدمه فيكون بعد ذهاب الوقت كما كان، وذلك معنى قوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾.

ثم استثنى الله سبحانه أهل الاستقامة والثبات في موازات تجلي أنوار قدمه بنعت الخنوع والفناء حتى يجري عليهم بديهة المكاشفة وصولات الوقت بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: أي: صبروا فيما وجدوا من أعلى الزلفى، وأرفع القربة، ولا يفشون تلك الأسرار عند الخلق بنعت الدعوى.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْزَوُ ۖ﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: استقامتهم على تدارك الأوقات بوصف وضع أقدام الصدق على هواهم؛ حيث يراعون أنفاسهم، ويقدسونها عن شربها مع الخطرات، ثم وعد الله لهم بصبرهم واستقامتهم، وتدارك أحوالهم غفران ما مضى من الفترة والغفلة، وأنه تعالى يسترهم عن نفوسهم، وهواجسها، وشياطينهم، ووساوسها بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: المغفرة: إقبال الله عليهم بوصف قبولهم، والأجر الكبير دوام الأوقات على السرمدية وتواتر المواجهيد، وبلوغهم إلى انبساطات الأول بوصف رفع الاحتشام، وتذكير ما سلف من الفرقة.

وقال الأستاذ في تفسير قوله: ﴿وَلَمَّا أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسْتَه﴾: من استمسك بعروة التضرع، واعتكف بقوة التذلل، وتحسا كاسات الحسرة، علا بعد نهل طالعه الحق بنعت الرحمة، وجدد له ما اندرس من أحوال القربة، وأطلع عليه شمس الإقبال بعد الأفول والغيبة، كما قيل:

تَقْشَعُ غَيْمُ الْهَجْرِ عَنْ قَمَرِ الْحَبِّ وَأَشْرَقَ نَوْرُ الصَّبْحِ فِي ظُلْمَةِ الْغَيْبِ

وليس لأحوال الدنيوية كبير خطر في التحقيق، ولا بعد نوالها وتكدرها من جملة المحن عند أرباب التحصيل؛ لكن المحبة الكبرى، والوزنة العظمى تذبل غصن الوصال، وتكدر مشرب القرب، وأفول شوارق الأنس، ومد بصائر أرباب الشهود، فعند ذلك تقوم قيامتهم،

وهناك تسلب العبرات، وهي أرواح، فتقطر من العيون بتصاعدها، فإذا نعت في ساحات هؤلاء غراب البين ارتفع إلى السماء نواح أسرارها بالويل.

ومن جملة ما قالوا في ذلك:

قُولَا لِمَنْ سَلَبَ الْفُؤَادَ فِرَاقَهُ وَلَقَدْ عَهِدْنَا وَالْمَنَاحَ عِنَاقَهُ
تَفَدَّ الْغُرَاءَ فَبِالَّذِي هُوَ بَيْنَنَا إِلَّا وَثَبْتَ لِرِزْدَانَا إِزْهَاقَهُ
عَهْدِي لِمَنْ جَحَدَ الْهَوَى أَرْمَانِ مَا نَوَّرَ الصَّبَابَةَ لَا يَضِيقُ نَطَاقَهُ
فَالآنَ مَدْخَلَ الزَّمَانِ يُوْصِلُنَا ضَاقَ الْبَسِيطُ فَشَانَهُ فَعِرَاقَهُ
هَلْ تَرْتَجِي مِنْ وَصْلِ عَزَةٍ رَجْعَةً تَخَفُوا عَلَى قَمَرٍ يَدُومُ مُحَاقَهُ
إِنْ كَانَ ذَاكَ كَمَا تُرِيدُ فَخَازِمَا فَجَرِ الْمَسْرَةَ أَنْ يَرَى إِشْرَاقَهُ
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْتَخَسُونَ﴾ (١٠) **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** (١١) **أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَتْ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِّنَ الْأَحْزَابِ فَالْنَارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِّن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ** (١٢).

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْتَخَسُونَ﴾: أخبر الله سبحانه أهل الرياء والسمعة الذين لا يريدون من أعمالهم إلا الترفع والجاه والزينة والمال، وهم عن الآخرة بها محجوبون، ولو ذاقوا طعم رؤية الآخرة وجاء أهل المعرفة التفتوا إلى حظوظ أنفسهم، ومع ذلك أعطاهم الله ما يحجبهم عنه في الدنيا والآخرة، ولا تظن يا أخي أن العارف المتمكن إذا باشر الدنيا وزينتها هو من جملتهم، إنه يريد الله برغبة المعرفة والشوق، ويريد الدنيا للكفاف، والعقاب يرزقه الله حياة حسنة طيبة بأنه يجعل الدنيا خادمة له، فيجعله في عين الخلق، ويرفع هيئته في قلوب الناس، قال الله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾.

وقال **﴿مَنْ أَحْسَنُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ فِي عَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ﴾** (١٣)، وليس كالمرائين الذين جعلهم الله محرومين من شرف الآخرة بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا﴾.

(١) هو من الأحاديث التي تفرد المصنف بذكرها في كتبه.

قال أبو بكر الوراق: الحياة الدنيا هي ارتكاب الأمانى، واتباع الشهوات والجولان في ميادين الآمال والغفلة عن بغة الآجال، وجمع ما فيها من الأموال من وجوه الحرام والحلال في زينة الدنيا هي ما أظهر الله فيها من أنواع العلائق التي أخبر الله عنها بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِلِ ۝﴾.

وتصديق ما ذكرنا من وصف العارفين والمرايين قوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾، تقدير الآية على وجه الاستفهام، ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ كمن هو في الضلالة والجهالة، أفمن كان معرفة من ربه وولاية وعلامة من كراماته وكل عارف إذا شهد الحق سبحانه بقلبه وروحه وعقله وسره، وأدرك فيض أنوار جماله وقرنه يؤثر ذلك في هياكله، حتى يبرز من وجهه نور الله الساطع، ويراه كل صاحب نظر، قال تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: فالبيئة بصيرة المعرفة، والشاهد بروز نور المشاهدة منه.

وأيضاً: البيئة كلام المعرفة وشاهده الكتاب والسنة، ومن كان بهذه المثابة يرى بعين الحق مكنون الغيوب وأسرار القلوب، ومشاهدته غالباً على يقينه، ويقينه غالباً على بصيرته، وبصيرته غالباً على عقله، وعقله غالباً على نفسه بحيث لا يزاحم هواجسها على مناطق الغيب، وظلمتها لا تغشى أنوار القرب، بل هي فانية بحياتها تحت وارد الحق من الكشف والعيان والبيان، ويبين ما قلنا ويصدق قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: كل وارد من الحق فهو الحق حين زالت عنده معارضة النفس، فإن خطر معارضة في أول نزول الوارد فهي امتحان الحق فيرد عليها واردات حقيقة فتزيلها أصلاً، قال الله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ حين بقيت الواردات وزالت المعارضات.

قال أبو عثمان: من كان على البيئة لا يخفى عليه سرٌّ.

وقال رويم: البيئة هي الإشراف على القلوب، والحكم على الغيوب.

قال الجنيد: البيئة حقيقة يؤيدها ظاهر العلم.

قال أبو بكر بن طاهر: من كان من ربه على بيئة كانت جوارحه وقف على الطاعات والموافقات، ولسانه مزموراً بالذكر ونشر الآلاء والنعماء، وقلبه منوراً بأنوار التوفيق وضياء التحقيق، وسره وروحه مشاهد للحق في جميع الأوقات، عالماً بما يبدو من مكنون الغيوب ومستورها، ورؤيته للأشياء رؤية يقين لا شك فيه، وحكمه على الخلق كحكم الحق، لا ينطق

إلا بحق، ولا يرى إلا بحق؛ لأنه مستغرق في الحق، فأنى له مرجع إلا إلى الحق، ولا إخبار له إلا عنه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ﴿١٩﴾﴾

ولما وصف الله البينة وصدق الشاهد وصف المغالطين ومدعين مقامات أهل الولاية افتراء وزورًا وبهتانًا قال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أي: ظالم أشد ظلمًا ممن يدعي الولاية، وكان في سابق الحكم كذابًا، كأنه يريد نقض إبراهيم حكم الأزل الذي سبق بكفره وزوره وبهتانه، وسبق بعنايته الأولياء والصديقين، فظلمه من جهة كذبه على الله بإخراج نفسه على دعوى الولاية، وهو كاذب، وغرض هؤلاء المفسدين صرف وجوه الناس إليهم رياءً وسمعةً وجاهًا، فيعرفهم الله لجميع الخلائق حين يعرضون على ربهم؛ ليفضحهم ويكشف قبائحهم عند الخلق، يوبخهم على رءوس الأشهاد بدعائهم الباطلة، فيشهد على كذبهم كل صادق في الحضرة، ثم تبعدهم عن القرب والوصول إلى النار والوبال. قال بعضهم: المفتري على الله من اتخذ أحوال السادات بدعوات لنفسه حالًا، وأظهر من نفسه مشاهدته ما لا يشهده أولئك الذين يفضحهم الله في الدنيا بكذبهم، فيطلع عليهم الذين يشهدون حقائق الأشياء، فيقولون: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم؛ لأنهم أظهروا من الأحوال ما ليس لهم، وتزينوا بالعواري من لباس السادة، فهذه فضائحهم في مجالس أهل الحقيقة إلى أن يرجعوا إلى الفضيحة في مشهد الحق.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾: لا يسمعون خطاب الحق بأسماع القلوب، ولا يرون مشاهدة الحق بأبصار الأرواح، وكيف يسمعون وما سبقت لهم في الأزل العناية، وكيف يبصرون وليس لهم حظٌّ عن أنوار القربة، وما تطلع من وجوه الصديقين والعارفين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

فِيهَا خَلِدُونَ ﴿٣١﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَرِّ ﴿٣٤﴾.

قال بعضهم: كيف يستطيع السمع من لم يفتح مسامعه لسماع الحق، وكيف يبصر من لم يكتحل بنور التوفيق؛ إذ لا سماع إلا عن إسماع، ولا بصر إلا عن إِبصار.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: ﴿ءَامَنُوا﴾ أي: أيقنوا مواعيد الغيب بنعت رؤيتها، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بذلوا مهجهم للوصول إلى قرب الحق، وزكوا سرائرهم بصفاء الذكر وجولان الفكر، ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: فنوا تحت أنوار سلطان كبريائه حين عاينوها بأبصار أسرارهم، أولئك أصحاب مشاهدة صفات البقاء بعد إفنائهم في أنوار صفات القدم، باقون في البقاء؛ لأنهم لا يزالون بعد ذلك إلا أصحاب الصحو بعد المحو.

قال شاه الكرمانى - رحمه الله عليه: الإخبات ثلاثة: غم الإيأس مع التوبة لكثرة العود إلى الذنوب، وخوف الاستدراج في إسبال الستر، وتوقع العقوبة في كل وقت حذر، أو إشفاقاً من العدل.

قال الأستاذ: الإخبات التخشع لله بالقلب بدوام الانكسار، ومن علامات المختبين الذبول تحت جريان المقادير بدوام الاستعانة بالسرى، ثم أن الله سبحانه فرّق بين المقبولة في الأزل بنعت اصطفايتهم بالولاية، وبين المطرودين في القدم باحتجابهم عن الوصلة والمشاهدة بقوله: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾^(١): مثل المحق والمدعي كمثل السميع والبصير والأعلى السميع يسمع بسمع الحق من الحق كلمات الحق التي يفرق بها بين لمات الملكوتية، والهواجس النفسانية، ويبصر ببصر الحق جمال الحق الذي ينور بصائر العارفين، وأبصار المحبين بحيث يرون بها ضمائر القلوب، وحقائق الغيوب فهذه

(١) فمثل الكافر كمن جمع بين العمى والصمم، ومثل المؤمن كمن جمع بين السمع والبصر. فالواو لعطف الصفات، ويجوز أن يكون شبه الكافر بمن هو أعمى فقط، وبمن هو أصم فقط والمؤمن بضدهما، فهو تمثيل للكافرين بمثالين، قاله ابن جزى. وقال البيضاوي: يجوز أن يراد به تشبيه الكافر بالأعمى؛ لتعاميه عن آيات الله، وبالأصم لتصاممه عن استماع كلام الله، وتأبيه عن تدبره معانيه. أو تشبيه المؤمن بالسميع والبصير؛ لأن أمره بالضد، فيكون كل منهما مشبهاً باثنين باعتبار وصفين. أو تشبيه الكافر بالجامع بين العمى والصمم، والمؤمن بالجامع بين ضديهما، والعاطف لعطف الصفة على الصفة. البحر المديد (٤٠ / ٣).

الأوصاف وصف المتحققين.

وقال القائل في هذا المعنى:

لَيْلِي مِنْ وَجْهِكَ شَمْسُ الضُّحَى وَأَنْسُ الصَّدْفَةَ فِي الْجُودِ
النَّاسُ فِي الظُّلْمَةِ مِنْ لَيْلِهِمْ وَنَحْنُ مِنْ وَجْهِكَ فِي الضُّوءِ

والجاهل الغاوي لا يسمع هوائف الإلهام؛ بأن ليس له سمعٌ الخاص، ولا يبصر أنوار المعرفة بعوارضات البشرية، ما أبين مثل الحق! حيث بيّن صريحاً نعوت العارفين، وجهل الجاهلين، ثم استفهم عن أهل العقول استواء أهل الهمم أي: لا يستويان، وكيف يستوي حال العارف بالله والجاهل بالله.

قال بعضهم: البصير من عاين ما يراد به، وما يجري له، وعليه في جميع أوقاته، والسميع من يسمع ما يخاطب به من تقريع وتأديب وحث وندب لا يغفل عن الخطاب في حال من الأحوال.

وقيل: الأعمى الذي عمي رؤية الاعتبار، والأصم الذي منع لطائف الخطاب، والبصير الناظر إلى الأشياء بعين الحق فلا ينكر شيئاً، ولا يتعجب من شيء.

وقيل: السميع من يسمع من الحق، فميز بذلك الإلهام من الوسواس.

وقال الجنيد: الأعمى هو الذي عمي عن درك الحقائق.

وقال الأستاذ: الأعمى من عمي أبصار رشد، والأصم الذي طرش سمع قلبه، فلا بالاستدلالات يشهد سر تقدير في أفعاله، ولا بنور فراسته يتوهم ما وقف عليه من مكاشفات الغيب لقلبه.

وقال: البصير هو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين، ويشهد صفاته بعين اليقين، ويشهد ذاته بحق اليقين، فالغائبات له حضور، والمستورات له كشف، والذي يسمع بصفته لا يسمع هواجس النفس، ولا وساوس الشيطان، فيسمع من دواعي العلم شرعاً، ثم خواطر التعريف قدرًا، ثم مكاشف الخطاب من الحق سرًا، فهؤلاء لا يستويان، ولا في الطريق يلتقيان، وانظر ما قال الأستاذ.

وأنشد:

أَيُّهَا الْمَنْكُحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلاً عَمَّرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِ

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾

﴿١٧﴾ قَالَ يَنْقُورِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْشُرَ لَهَا كَرِهُونَ ﴿١٨﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَزَّلَكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾: هذه عادة السفلة وأهل الجهل والغباء الذين قاسوا بآرائهم الفاسدة حال الأنبياء والصديقين، ولو شاهدوا ذرة من حالهم لما اتوا حسرة من شوقها، لكن سبق لهم الشقاء الأزلي محجبهم عن جمال أحوالهم وأنوار أسرارهم، وبقوا بظنونهم المختلفة، وقياساتهم الفاسدة في الأشكال والهيكل، واحتجبوا عن رؤية الأرواح وطيرانها في الملكوت والجبروت، وتكبروا على أولياء الله من قلة معرفتهم بنفوسهم، ومن قلة إدراكهم حقائق القوم.

قال ابن الفرحي: لم يشهد مخالف الأنبياء والرسل منهم إلا أهياكل البشرية، وعموا عن درك حقائقهم في ميادين الربوبية، واختصامهم بما خصوا به من فناء حظوظهم فيهم، وبقاء أشباحهم وهياكلهم رحمة للخلق، فقالوا: ﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: أكلًا وطعمًا وشربًا، ولو لاحظوا مقامهم من الحق وقربهم منه لآخر سهم مشاهدتهم عن مثل هذا الجواب؛ لأنهم في مشاهد القدس.

﴿وَيَنْقُورِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ وَلِكِنِّي أَرَنَكُم مِّثْلَهُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَيَنْقُورِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَنْشُوعُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثُرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنشُرُ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ﴾: بين سبحانه من قول نبيه نوح عليه السلام أنه قال: ما أنا بطارد قوم اختارهم الله بالنظر إلى جماله والجلوس على صفائح قدسه ومجالس أنسه وسماع كلامه، والمعرفة بصفاته وذاته وقربه وقرب قربه في الأزل وسابق العلم.

تصديق ذلك قوله: ﴿إِنَّهُمْ مُلَقُوا رَبِّهِمْ﴾ أي: ليس على قبولهم والمرادهم من اختارني

بالرسالة، فقد اختارهم بالولاية، يختص برحمته من يشاء لا ينظروا إلى انكسارهم في الطريقة، وإعراضهم عن دنيا الدنية ورثاة ثيابهم، وصفرة ألوانهم وقصر أكمالهم، فإنهم حائم أبراج الملكوت وبزاة معارج الجبروت.

قال أبو عثمان في هذه الآية: ما أنا بمعرض عن أقبل على الله، فإن من أقبل على الله بالحقيقة أقبل الله عليه، ومن أعرض عن أقبل على الله فقد أعرض عن الله.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١٠) أَمْرٌ يَقُولُونَ أَفَرَّغْتَهُ قُلُوبُ إِنْ أَفَرَّغْتَهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَجْرِمُونَ (١١) وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَهِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٢) وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (١٣) وَيَصْنَعِ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (١٤) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (١٥)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ أي: كيف تنفع نصيحتي لكم ولم يخلقكم الله على استعداد قبول، وذلك من شقاء الأزل، والنصيحة لا تنفع إلا لمن كان في قلبه زاجر من ربه يمنعه من المعصية ويحثه على استماع النصيحة.

قال حمدون القصار: لا تنفع النصيحة لمن لم ينصح نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ (١٣).

قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾: في هذه الكلمة إشارة عين، وذلك استعارة عين الربوبية من عيون الأزلية، ليصر بها حقائق الصنوع في علم الله، فيصنع الفلك بمنقوشه على نقش ختم علم ملك الأزل أي: اصنع الفلك بعيني كما كنت أردت وجود السفينة في الأزل، وذكر الأعين، وهذا إشارة إلى عيون الصفات التي معادن أنوارها حقائق الذات أي: لتصف عينك في صناعة الفلك بأعين الصفاتية لترى بها ما أردنا من هيئتها وتركيبها، وذلك موجود في كلامه على لسان نبيه ﷺ، حيث حكى عن الله سبحانه بقوله: «إذا أحبته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» (١).

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٨٤).

وأيضاً: فيه تقاضا جريان العبودية في مشاهدة الربوبية كقوله ﷻ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»^(١).

وأيضاً أي: كن في عيون رعايتنا وحفظنا، ولا تكن في رؤية عملك والاعتماد؛ فإن من نظر إلى غيري احتجب بغيري عني.

قال بعضهم: أسقط عن نفسك تدبيرك، واصنع ما أنت صانع من أفعالك على مشاهدتنا دون مشاهدة نفسك، ومشاهدة أحد من الخلق.

وقال بعضهم: اصنع الفلك، ولا تعتمد عليه؛ فإنك بأعيننا رعاية وكلاءة، فإن اعتمدت على الفلك وكلت إليه وسقطت عن أعيننا.

قوله تعالى: «وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»: إن الله سبحانه أدب نبيه نوحاً ﷺ ها هنا عرفه سابق العلم في غرقهم وهلاكهم؛ ليعرف طريق الدعاء ومكانه، وعرف أنه سبق بالدعاء عليهم.

وقيل: ذلك ولم يقبل ها هنا؛ لأن دعاء الأول موافق القدر، والعارف المجاب إذا دعا على أحد بعد ذلك.

ألا ترى إلى قول ذي النون ﷻ حيث دعا على أهل سعائته كيف كانوا يفرقون، فقال بعد ذلك: إلهي تبت، ألا أدعو على أحد من عبادك بعد ذلك، وفيه وصف رقة قلب نبيه ﷻ عليهم بعد احتمال جنونهم وأذيتهم، وهكذا يكون شأن الصادقين.

قال ذو النون: إن كنت قد أيدت في الأزل بشيء من العناية فقد نجوت، وإلا فإن النداء والدعاء لا ينقذ الغرقى.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿١١﴾ وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجَرْنَهَا وَمُرْسَتْهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِىْ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ»: هذه الآية وافقت قوله تعالى: «وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ»؛ لأن سوابق السعادة والشقاوة لا تتغير بصنائع الحداث، ولا يزال هما على وصفهما إلى الأبد، كما كانا في الأزل.

قال بعضهم: بالسبق قيد العواقب، فمن أجري له في السابق السعادة كانت عاقبته

السعادة، ومن أجري له في السبق الشقاوة كتب له بالشقاوة: ﴿وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ
مَجْرِنَهَا وَمُرْسَنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ١١٩﴾، وألسنة الأنبياء والأولياء قاصرة عن سؤال
مخالفة ما جرى في الأزل؛ لأنه حكم القاهرية سلطان الجبارية.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِنَهَا وَمُرْسَنَهَا﴾: البحر بحر القدم والأبد، والسفينة قلب
العارف يجري بشمائل العناية بروح الناطقة الربانية، ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِنَهَا﴾ في قلزم الصفات،
﴿وَمُرْسَنَهَا﴾ في قاموس الذات.

ثم أخبر سبحانه عن كمال كرمه؛ حيث لم يسد عليها الجري في الصفات مع حدوثيتها،
ولم يفنها في الذات مع ضعفها بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وأيضاً أي: بسط الله إياها بأنوار جمال مشاهدته جريها في الصفات، ويقبض الله
بسطوات العظمة سكونها وثبوتها.

﴿قَالَ سَافَوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا
مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ١٢٠﴾ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَغِي مَاءَكَ
وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ١٢١﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ١٢٢﴾ قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ أَهْلِكَ مِنْ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا
لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْشَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ١٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي: لا عاصم عند صولة
تلاطم بحر القهريات إلا عواصم أنوار اللطيفات من التجأ إليه منه نادبه عنه.

قال الأنطاكي: لا اعتصام لأحد من خلق الله إلا بالله.

وقيل: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾: إلا من دلّه على الاعتصام به،
وذلك الذي يعصمه الله من أمره.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ
الْأَمْرُ﴾: لما غاصت سفينة القلوب في بحار غيوب القدم ودارت في لجج عظمتها كادت أن
تغرق بطوفان غيرتها، فسبقت لها عناية الأزلية، وما أبقتها في بحار الفناء؛ لكلا يفني العبودية
في سطوات الربوبية، فنادت ألسنة الوصال إلى سماء كمال الذات وأرض الصفات: ﴿يَتَّارِضْ
أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي﴾، فامتنعت الذات والصفات عن دركها، وتلطفت الصفات

والذات عليها بإرجاعها إلى مشاهد الأفعال والآيات، واندرس عليها مسالك الآزال والآباد، وهذا معنى قوله: «وَوَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ»: جرى عليها أحكام معارف الذات والصفات، وغرق منها ما دون الذات والصفات في الذات، والصفات من النفوس، وهواجسها والشياطين ووساوسها، والعقول ومراتب مقاماتها، والكونين والعالمين، واستوائها بنعت التمكين على جودي الطريق، والحقيقة أن تكون ساكنة بعد الاضطراب في المواجيد، وصاحبة بعد السكر بأشربة بحار المقادير، وهذه برمتها مشروحة في قوله النبي ﷺ حيث دنا من الوصال وتدلّى إلى مشاهدة الجمال، وكان بين قاب قوسي الأزل والأبد بقوله: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»، واستعداد في دنو الدنو من الغرق في بحار الأزل والفناء في ميادين الأبد من قهر طوفان قلزم الكبرياء والعظمة، بما سبق له من حسن عناية القدم بنعت الرضا بقوله: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»^(١)، كان ﷺ في مدارك الصفات، ومرائي أنوار الذات سابقاً في بحر حقائق الأزلية، فخاف من فئاته في قهر النكرات، ففرّ تارة من الصفة إلى الصفة، وتارة من الفعل إلى الفعل، ومن الذات إلى الذات تارة، فقال: أَعُوذُ بِرِضْوَانِ عَنَّا، ومن سخط غيرتك عليك، أن يعرفك أحد غيرك، وأيضاً أي: أَعُوذُ بِرِضْوَانِ جَمَالِكَ مِنْ سَطَوَاتِ جَلَالِكَ حتى لا أفنى بك فيك، وأَعُوذُ بِرِضَا بِقَائِكَ مِنْ صَوْلَةِ عَسَاكَرِ قَدَمِكَ.

فلما دار في الصفة وخاف من الزوال فرّ منها إلى أنوال الأفعال؛ ليروح فؤاده الغائب في الألوهية عن أثقال رجاء العزة، فقال: «أَعُوذُ بِمَعَاذِكَ مِنْ عِقَابِكَ»^(٢): بمعافاة دعائك الأزلي من عقوبة هجرانك الأبدي، فلما استروح من أثقال السير في الصفات بلطائف الأفعال رجع إلى مشاهدة الذات، فقال: «أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ»^(٣): أَعُوذُ بِفِرْدَانِيَّتِكَ مِنْ حَلَاوَةِ جَمَالِ مَشَاهِدَتِكَ، التي تصير العاشق بك بنعت وحدانيتك، حتى يخرج بدعوى الأنانية في مشهد تنزيلها، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَذَا الْمَكْرِ حَتَّى أَكُونَ لَا أَكُونَ أَنْتَ تَكُونُ، وَأَزُولُ كَمَا لَمْ أَزُلْ، وَتَكُونُ كَمَا لَمْ تَزَلْ تَكُونُ، فلما فني عن رسوم العبودية وعن مشاهد الربوبية من الأفعال والصفات وبقي بإزاء أنوار الألوهية بنعت استقامة التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، واستعار من الحق لسان الأزلي، وأثنى به عليه، فقال: «لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ»^(٤)، ثم أخرج

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

الثناء والنفس والعبودية والتكليف والكينونة والقرب والبعد والتصارييف والعلل من ساحة وجود صاحب الجود الأزلي بقوله: «أنت كما أثبتت على نفسك»^(١).

جئنا إلى ظاهر الآية: إن نبي الله نوحاً ﷺ كان في مضيق القبض من أذى قومه، فاشتبهى وصلة بلا فرقة، وبسط بلا قبض، وأنسا بلا وحشة، فدعا ربه حتى يخلصه من ذلك، فأغرق قومه وناجى ربه، وانفرد به عن كل، فتغاضت بشريته ابنه، فجاء الموج وأغرق الكل حتى لا يبقى في قلبه غير الله.

وقال الأستاذ: لما غرق ابن نوح ﷺ سكن الموج ونضب الماء وأقلعت السماء، فكانه كان المقصود من الطوفان أن يغرق ابن نوح.

فكان كما قيل:

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

ثم أخبر سبحانه عن انبساط نبيه نوح ﷺ بقوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾: تحرك سر بشريته في موضع أحسن الحق حيث من حقه تقديس الأسرار عن النظر إلى الأغيار، وبذل الموجود والمجهول بينه وبين الخليل ﷺ في منزل الامتحان فرق حين ألقي إلى النار، ولم يلتفت إلى إعانة المخلوق، حين قال: «أما إليك فلا»^(٢) وسلم نفسه، ولم يتعرض لقلبه معارضة برئ من حوله، وقوله من نفسه والكون جميعاً، وههنا قد التفت إلى غرق ابنه، وأين ذكر الابن في منازل التوحيد والتسليم، والرضا شرط المعرفة والتوحيد فنادى، وقد طاب في مناداته مع ربه سبحانه وسأل ابنه، وحكم بأنه أهله وليس هو من أهله قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

وأيضاً: تعرض داء علقه البشرية بينه وبين رؤية القدر السابق، ولولا ذلك بإرسال الله بالمناداة في منازل الانبساط، وأسرار المناجات لطائف الخطاب، وحقائق المكاشفات، وكل انبساط في مقام الامتحان ليس على مقارنة رؤية حكم السابق، فهو ساقط عن محل البلوغ وإدراك المراد.

قال الحسين: لم يوزن لأحد في الانبساط على بساط الحق محال؛ لأن بساط الحق عزيز حواشيه قهر وجبروت، فمن انبسط عليه رد كنوح ﷺ لما قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ قيل: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾.

ثم إن الله سبحانه عرف نبيه نوحاً ﷺ بعد ارتفاع الأهلية بينه وبين ابنه بارتفاع أهلية

(١) تقدم تخريجه. (٢) رواه الطبري في التفسير (١٧/ ٤٥).

المعرفة والمحبة بين روحه وروحه في منازل الأول عند عبد الله، وذلك أن في الأزلية لم يؤت الله ابنه أهلية عرفانه وإتقانه، فقال: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾: ليس له ما أعطاك الله من المعرفة والرسالة والقربة: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: أدبه بالألا تسأل إلا ما وافق القدر، وكل دعاء لم يوافق مراد الله في سابق علمه لم يؤثر في مراد الداعي.

وقوله: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ أي: ليس عمله على موافقة السنة، ثم وعظ وقال: ﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: الجاهل من جهل قدر الله وقدر أهله أي: أنزهك عن سوء الأدب في السؤال على غير قاعدة مرادي، وفيه تهديد لخواص العارفين ليكونوا على بساط الحق، مجردين لخواطرهم عن الالتفات إلى غير الله، وأن يكونوا في محل احتشام الله مستسلمين لمراذه.

قال القاسم: الأهل على الوجهين: أهل قرابة، وأهل ملة، فنفى الله عنه أهلية الملة لا أهلية القرابة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾: أما علمت أنني قد أمضيت حل الشقاء والسعادة في الأزل، ولا راد لحكمي وقضائي، إنني أعظمك أن تجهل تلك الأحكام.

قال بعضهم في قوله: ﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ﴾: لما اشرف نوح عليه السلام ابنه على الغرق قال: ﴿إِنْ أَبْنَى مِنْ أَهْلِي﴾، قال خصصت غلبك للدعاء دون سائر عبادي وابنك واحد منهم، ﴿إِنِّي أَعْظُمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾: في أن يقضي حَقك على خصوص، ويمهل حقوق عباده بأجمعهم، ثم رجع عليه إلى ساحة الكبرياء بسرّه المتضرع الحق، ورجوعه من نفسه إليه بوصف الخنوع.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (١٧) قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (١٩) وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يٰنِقْمٍ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَتَمَرُّ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٢٠) يٰنِقْمٍ لَا أَسْأَلُكَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٢١)﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَسِرِينَ ﴾: إنَّ السؤال لا يستحسن إلا بالعلم بالمسئول، ولما علم موضع الخطأ تواضع بجبروته وخاضع ملكوته، أي: إن لم تغفر لي ترك الأدب وترحمني بتسهيل أمر الربوبية في العبودية عليّ أكن من الذين فقدوا حقائق المعرفة في العبودية.

قال أبو سعيد الخزاز: إن نوحاً عليه السلام وهو من أهل الصفوة وأولي العزم من الرسل هج وكدح لربه ألف سنة إلا خمسين عاماً.

ثم قال: ﴿إِنَّ آتِنِي مِن أَهْلِي﴾، فعوتب عليه، فأبكاه ذلك سنة حتى قال: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾، فكان دهره بطلب المغفرة من هذه الكلمة، ونسي ما كدح وعني واجتهد لما رجع إلى الله، وتواضع للكبرياء، ألبس الله عليه لباس العافية والأمن من أنوار قربه وحضرته بقوله: ﴿يَنْتُوحُ أَهْبَاطُ سَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ أي: اهبط بوصف التخلق والاتصاف بصفتنا من سفينة الحقيقة بسلامة منا، بأنك بعد ذلك لا تنفي في سطوات عظمتنا إذا اتصفت بصفتنا؛ لأن بركة وصلتنا معك تنجيك بركة مني، وبركتك مع قومك تنجيهم من عذاب فرقتي، ثم هو تعالى شرف نبينا ﷺ بكشف أنباء الغيب بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ الكشف والأنباء على مرتبتين، الأولى: للأرواح قبل الأشباح في ديوان الغيب حتى رأت بنور الغيب أسرار المكتوم، والأخرى: بعد كونها في الأشباح، فترى ويسمع، وسمعت في الغيب قبل دخولها في الأشباح تحديد المكاشفة، وتذكير العقود المشاهدة، وما قال سبحانه: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا﴾ أي: قبل كون روحك، وأما بعد كَوْن روحك علمت ما كان وما سيكون، وهاهنا تسلية قلبه عليه السلام في احتمال البلوى عن أهل الجفاء ابتداءً بأهل الوفاء من أولي العزم من الرسل.

وتصديقه قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: اركب مركب الصبر معي في ظهور حقائق وجودي ولطائف بلائي في ميادين التقوى من غيري، من العرش إلى الثرى، بالهمة الرفيعة فوق العلا، فإن عاقبة المتقين المتبرئين من غيري بي وصالي والنظر إلى جلالي وجمالي.

قال الجنيد: كشف الله لكل نبي ظرفاً من الغيب، وكشف لنبينا ﷺ أنباء الغيب، وهو الغاية في الكشف، فكان مكشوفاً له من الغيب ما لا يجوز أن يكون مكشوفاً لأحد من المخلوقين، وذلك لعظم أمانته وجلال قدره؛ إذ الأسرار لا تُكشف إلا للأمناء، فمن كان أعظم أمانة كان أعظم كشفاً.

قال النصرآبادي: نجاة العاقبة لمن رسم في الأزل رسم التقوى، وحلي به، قال الله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿ وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا جُنُوبَكُمْ ۚ ﴾ (١) قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٤﴾ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَدَّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَكَسَخَفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَدَّى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيطٌ ﴿٦﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٧﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِبَايَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٨﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٩﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۖ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١١﴾ قَالَ يَقُومِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٢﴾ وَيَقُومِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذُرُّوَهَا تَأكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٣﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٥﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿١٦﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۖ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۖ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿١٧﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ (١) أي: استغفروا من النظر إلى غيري، وتوبوا إلى من

(١) يضاعف قوتكم، ويزدكم فيها وإنما دعاهم إلى الله، ووعدهم بكثرة المطر، وأعقم أرحام نسايتهم ثلاثين سنة؛ فوعدهم هود عليه السلام على الإيمان والتوبة بالأطمار وتضاعف القوة بالتناسل. قاله البيضاوي.

نفوسكم ورؤية طاعتكم، راعوا عنها يرسل سماء القدم على قلوبكم مدرار أنوار تجليها، ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ أي: يزد قوة أرواحكم في طيرانها، ولبساتين قدسي ورياض أنسي، وتلك القوة من سقيي إياها شراب الديمومية من بحار السرمدية والأزلية، ومشاهدة الذات والصفات.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوكَ أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴿أي: غصت في بحار جلالي الأزل، وهو شاهدي وأنا بريء مما تشيرون إليه من دونه، بريء من حولي وقوتي، وانظر إليكم ما بكم تقدرون في ملكه بذرة، فاحتالوا لي جميعاً إن كنتم تقدرون بالحيلة، ولا ينظرون لا بحيلولتي، فإني على ثقة من ربي في ثبوتي ورسالتي، وبيان براهينه، وعلى سلطان كبريائه دل كل شيء، وهو حسبي وحسب كل صادق في بلائه، وذلك قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾، مشاهدته بشهوده على ﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾: ربي يريني بأنوار مشاهدته ولطائف وصلته، وربكم بإيجادكم وتربيتكم بأغذية الظاهر.

ثم وصف جلال قدره وإحاطته على كل ذرة بقوله: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾: آخذ ناصية كل مخلوق بأيدي القدم، وأخرجها بجبروته من أماكن العدم، ويجذب كل دابة من العرش إلى الثرى إلى ميادين ملكوته، ويغذي كل واحدة منها من موائد تجلي صفاته وذاته وآياته وأفعاله للأرواح غذاء مشاهدة الذات، وللقلوب غذاء مشاهدة الصفات، وللعقول غذاء مشاهدة أنوار الأفعال، وللنفوس غذاء الطبائع من عناصر الكون: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: على طريق الربوبية التي مناديا صحاري الآزال والآباد، وهكذا على طريقة كل رباني صمداني يسيروني في طريق الذي هو السير في عالم الذات والصفات، وذلك الطريق مستقيم؛ حيث هو تعالى بجلاله يظهر نفسه في جميع الأحوال لقلوب أوليائه، وأوليائه يسرون إليه بطريقة، وجذب ظهوره.

إذا نحن أدجننا وأنت أمامنا كفى لمطايانا تلقاك هادياً

﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: إذ هو مقدس عن اعوجاج الحدثاني وتغاير النفساني، لا تسدّه علة، ولا تعوجه زلة.

قال الواسطي في قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾: غلب على هود عليه السلام في ذلك الوقت حال الوصلة والقربة مما يأتي بشيء ولا أحسن به؛ إذ هو في محل الحضور، ومجلس القربة.

وقال في قصة لوط عليه السلام: قال لو أن لي بكم قوة كان نطقه نطقاً طبيعياً، شاهد في ذلك حال ووقته واشتغاله بهم، وقال هود عليه السلام: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾: نطق عن مشاهدة لا يرى سواه.

وقال بعضهم: أي: كيد يلحق من هو في قبضة الحق وسرادق العز، وجلابيب الهيبة، والكيد لا يلحق إلا من هو سائر في طرق المخالفة.

وقال بعضهم في قوله: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾: كيف يكون لك محل، وأنت بغيرك قيامك وبقاءك؛ لذلك قيل: من قال أنا فقد نازع القبضة.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿٦٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا﴾: بشارة الرسل للخليل عليه السلام من الله سبحانه بدوام وصاله، وكشف جماله بلا حجاب ولا عتاب، وإن خلته تولدت من سابق خلته الأزلية والاصطفائية الأبدية، وبأن النبوة باقية في أولاده، وبشروا أنه تعالى مشتاق إلى أحبائه وأخلائه، وبشروا له بقدم أخص أولاده، وأخص خلق الله من العرش إلى الثرى محمد صلى الله عليه وآله، وبشارتهم بأولاده من المرسلين نظام الرسالة، ودوام الشريعة، ونشر الحقيقة والسلام، منهم أخيار عن أهليتهم لخليله ورفع النكرة، وتعريف العهد الأولية بنعت زوال الخطرات والمعارضة، وسلامهم ممزوج بسلام الحبيب، وبديهة دنوه من خليله، وسلام الخليل إظهار السرور بالضيف وإكرامهم، وإظهاره الأهلية منه، عرف سره سرهم، موافق سلامه سلامهم، أي: هاهنا بيت كرامة وسلامة من العيوب، وما أطيب سلام الحبيب على الحبيب! وما ألد رسالة الحبيب إلى الحبيب! وما أشهى بشارة الحبيب للحبيب! وإن كان بالوسائط:

سلام على سلمى وإن شط دارها	سلام على أرض قديم بها العهد
سلام على جاراتها بجوارها	سلام حزين رامق شقة الصد
سلام عليها دائماً متواتر	سلام على أرض إليها لها قصد
إذا نزلت سلمى بواد فائها	زال وسلسال وشيخانها ورد

قال بعضهم: بشروا لإبراهيم بأن نسبة الخلّة ثابتة فإنها لا تنقطع.

وقال بعضهم: بشروه بإخراج محمد صلى الله عليه وآله من صلبه، وأنه خاتم الأنبياء، وصاحب لواء

الحمد.

وقال بعضهم: رسول الخليل إذا ورد فهو بشارَةٌ، فإذا أَدَّى الرسالة قد تمت به البشري خصوصًا إذا أدى من الخليل سلامًا، ألا تراه كيف ذكر: ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ من الخليل، فقال: سلام من الخليل، تم به المراد.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿سَلَامًا﴾: قال: سلام سلم لك رتبة الخلّة من الزلل، قال: سلام أي: هذه السلامة التي توجب لي السلام من السلام.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِينٍ﴾: أخبر عن فتوته وإكرام ضيفه، ولكن فيه ما فيه من إشارة إلى قلبه المذبوح، وروحه المجروح، ونفسه المذبذبة بين يدي سلطان جبروته، وأنوار ملكوته، وسناء جماله، وسر جلاله، وتلك مجموعة نيران المحبة، ولهب الشوق، وحرقة العشق، ليسلبها بياسمين القرب، وورد الأنس، ونسيم صباء الوصلة. وأيضا: تعريف أحوال الملائكة هل جاءوا بالبأس أم ذلك من لطيف صنيع الأبناء، وفيه إظهار المعارضة والخفية؛ ليعرف شأن الحال، وإن كان خلقه السخاء والكرم. قال بعضهم: من آداب الفتوة إذا ورد الضيف أن تبدأ بالكرامة في الإنزال، ثم ثنيه بالطعام، ثم بالكلام.

ألا ترى الخليل كيف بدأ بالطعام بعد السلام، قال: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِينٍ﴾، وهو تعجيل ما حضر وابتكلف التكلم بعد ذلك لمن أحب.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾: أنكر على تركهم استعمال الخلق، ولكن ما عرف شأن الحال الذي فيه إشارة عجيبة، أي: لا تذبح عندنا عجلًا فإننا لا نحتاج إلى العجل، وليس للعجل مكان المحبة، ولكن اذبح لنا إسماعيل، فإن المحبة والعشق مقتضيان قربان الوجود بين يدي المعشوق.

حكى عن أبي الحسن البوشنجي أنه قال: من دخل هذه الدويرة، ولم ييسط معنا في كسيرة أو فيها حضر، فقد جفاني غاية الجفاء.

وقال ابن جعفر: مَنْ امتنع عن تناول طعام الفقراء والفتيان فقد أظهر كبره.

وقيل في قوله: ﴿نَكِرَهُمْ﴾: نكر أخلافهم، مع ما تفرّس فيهم من الخير.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: خيفة إبراهيم من الملائكة ليس من جهل بهم إنما رأى آثار بأس قوم لوط من شمائلهم، وهناك متوقع الإنذار؛ لأن ربها جاء الرسول بالإنذار:

لَعَلَّكَ غَضَبَانُ وَلَسْتَ بِعَالِمٍ سَلَامٌ عَلَى الدَّارِينَ إِنْ كُنْتَ رَاضِيًا
وأيضًا خاف على أخيه لوط عليه السلام ومؤمني قومه: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ
لُوطٍ﴾ رفعوا الحجاب وتبينوا العتاب.

قوله تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾: رحمة الله وقربة الله وبركات
الله أنوار مشاهدة الله.

وأيضًا: رحمة الله نبوة الله وولايته، وبركات الله رسالة الله وخلافته، وبقي ذلك في
أولاده حتى خصَّ باستجابة دعوته محمد صلى الله عليه وآله وعلى آله وأهل بيته وأولاده.
وأيضًا: رحمة الله محبة الله، وبركاته معرفته وتوحيده.

﴿وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رِثَاءً إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾^(٧٦)
قَالَتْ يَنْوِيْلَتِي ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾^(٧٧) قَالُوا
أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ﴾^(٧٨) فَلَمَّا
ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ مُجَنَّدًا لَنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾^(٧٩) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ
مُنِيبٌ﴾.

قال بعضهم: بركات أهل البيت من دعوات الخليل، ودعوات الملائكة، وأمر النبي صلى الله عليه وآله
بالدعاء به في الصلوات في قوله: كما باركت على إبراهيم، فبارك علينا، فأنا من أهل بيته
وأولاده: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ﴾: محمود بحمده القديم؛ حيث حدَّ نفسه بمجيد عظيم الشأن لا
يناله عوض الفطن، ولا يدركه بعد الهمم، فلما وصلت بركات الله إليه وانفتحت له أبواب
المكاشفة وأدركه فيض البشارة خرج قلبه من غبار الامتحان، وانبسط مع الرحمن بقوله:
﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ مُجَنَّدًا لَنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾: ذهب عنه خوف
البعد، وجاءته بشرى القرب، وذاق طعم الودِّ وسكر الخليل بوجه الخليل، وانبسط الخليل إلى
الخليل، وهكذا عادة السكارى إذا شربوا شراب الوصلة وسمعوا صلوات القرية يخرجون
بنعت السكارى على بساط الانبساط، وفي ذلك يحمل عنهم ما لا يحمل من غيرهم من أهل
الهيبة والإجلال، وانبساطه إليه من مواليد انبساطه إليهم.

ألا ترى كيف قال: ﴿جَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ﴾، ثم قال: ﴿مُجَنَّدًا لَنَا﴾؛ فالبشارة انبساط الله،
فانبسط بانبساط الله، لكن انبساط الخليل لا يكون إلا رحمة وشفقة على خلقه وأوليائه، ألا
ترى كيف قال: ﴿مُجَنَّدًا لَنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾: كان يسترحم لهم، ويسأل نجاة لوط وأهل بيته، لما
فيه من الظرافة والسخاوة والفتوة والمودة والحلم بما وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ

مُنِيبٌ ﴿١﴾: «حليم» بأنه كان لا يدعو على قومه، بل قالوا: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وتأوّه زفرة قلبه مع غيرة عينه من الشوق إلى جمال ربه، وهكذا وصف العاشقين: التأوّه والزفرات، والشهقة، والغلبات، والصيحة والعبرات، «مُنِيبٌ» حيث أناب إلى كنف قدمه، وقوام خطاب قدسه ومجالس أنسه من رؤية شواهد ملكوته؛ حيث قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾، ومجادلته كمال الانبساط لم تكن جهلاً، ولكن كان مشفقاً باراً كريماً، رأى مكانة نفسه في محل الخلّة واصطفائية القديمة وهو تعالى يحب غضب العارفين، وتغير المحيّن، ومجادلة الصديقين، وانبساط العاشقين؛ حتى يحثهم على ذلك، وفي الحديث المروي من النبي ﷺ أنه قال: «لما أسري بي رأيت رجلاً في الحضرة يتذمر. فقلت لجبريل عليه السلام: من هذا؟ فقال: أخوك موسى يتذمر على ربه تعالى. فقلت: وهل له ذلك؟ فقال: يعرفه فيحتمل عنه»^(١)، ألا ترى كيف وصف الله انبساط كليمه بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، ولا يجوز الانبساط إلا لمن كان على وصفهم.

قال بعضهم: ذهب روح ما يجده في نفسه من تنزههم عن طعامه، وعلم أنهم الملائكة، وجاءته البشري السلام من الله لما فزع من قضاء حق الضيف، ولقي البشري رجوع إلى حد الشفقة على الخلق، والمجادلة عنهم، ﴿مُجْتَدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ للرحمة التي جبله الله عليه، ثم إن الله سبحانه ذكر وصف خليله بأنه لم يعرف الملائكة في أول مقدمهم، ثم وصف نبيه لوطاً عليه السلام بما وصف خليله من ضيق صدره، والخيفة منهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: حزن لأجلهم، وضاق صدره شفقة عليهم من فتنة قومه، ثم وصف بأنه مشفقٌ حزينٌ كريمٌ على الأضياف بقوله: ﴿وَلَا تُخْزَوْنَ فِي ضَيْفِي﴾، وحكمة إنشاد باب الفراسة على إبراهيم ولوط أنها كانا في محل البسط وحسن الرجاء من الله سبحانه، ولا يتوقفان البأس والعذاب على القوم، فلما رأيا ملائكة الله لم يعرفاهم باشتغالهم بمعهود حال البسط، ولطائف الرجاء والقربة، وإن كان سرهما لا يغيبان عن معرفتهم، ولكن عارضهما تقدير لإمضاء حكم الله على قوم.

قيل: إن إبراهيم كان صاحب النبوة والخلّة والرسالة، ولا بد أن تكون فراسته أصدق من فراسة كل أحد، ولكنه في هذا الحالة لم يعرف الملائكة ليعلم أن الحق سبحانه إذا أراد إمضاء حكم سدّ على من أراد عيون الفراسة كما سد فراسة النبي ﷺ في قصة الإفك إلى الوقت الذي أنزل به الوحي، والتبس الحال على لوط عليه السلام إلى أن ينزله الأمر، ولما أخذ تلاطم بحر

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣/ ٤٣١)، وذكره ابن عجيبة في البحر المديد (٣/ ٦٢).

الامتحان لوطاً ^{١٣٦} طلب قوة وركناً شديداً ليدفع بهما قوم من ارتكاب المعصية.

قال سبحانه: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾: رأى نفسه في منازل الابتلاء والامتحان، ورأى أبواب المكاشفات والواردات والمشاهدات مسدودة، ولم ير نفسه إلا في محل الخوف، ورؤية المكر وخشية العظمة، قال: لو أن لي في هذه الساعة اتصافاً بصفة القدرة والقدر الأزلية كما كان حالي قبل هذا الامتحان لرفعتكم عن الكفر والمعصية.

﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي: لو كشف لي حاشية من حواشي قوام العدم آوي إلى هناك، وأسرع من رؤيتكم أو آتي من عالم الملكوت بياسكم أو أدعو لكم، أو كان لي لسان الرباني الرحاني ليهتدوا إلى مواقع بالرشد، وتعرفوا حقوق الله عليكم.

قال ابن عطاء: لو أن المعرفة بيدي لأوصلتها إليكم.

﴿يَتْلُو بَرَاهِيمُ أُعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾^(١٣٧) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئِ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ^(١٣٨) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْفَوْرُ هَتُولَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفَى أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ^(١٣٩) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ^(١٤٠) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ^(١٤١) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ^(١٤٢) ﴿

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ أَهْلَكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

قال بعضهم: لو أن لي جراءة على الدعاء عليكم لدعوت، أو آوي إلى ركن شديد من علم الغيب بما أنتم صائرون إليه من سعادة أو شقاوة، فلما تم الأمر وعرف الحال، كشف الملائكة له حال القوم، ووعدوا هلاك القوم وقت الصبح بقوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، كأنه تسارع إلى مكان التخلص من بين الضلال، وأراد أن يرجع إلى قرب الله ومشاهدته وتسريح من رؤية الأضداد؛ لأن رؤية الأضداد هي الروح، كأنه قال: لو أن بكم قوة أزلية أهلكتكم، وآوي إلى ركن شديد إلى حضرة الملكوت مجالس الجبروت،

وأستريح من صحبتكم، ورؤية معصيتكم، فانتظر بعد ذلك ما وعدوه، قيل له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^(١).

ما أشد على العارفين انتظار واردات الغيب، وطلوع صبح المشاهدة، وانفلاق شرق العناية، وإشراق شمس المكاشفة! دنا وصال الحبيب، واقتربا وأطربا للوصال وأطربا. حكي عن السري أنه قال: قلوب الأبرار لا تحتل الانتظار.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۖ مَّسُومَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾^(٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا﴾: إذا طاب عيش العارفين بجمال معروفهم، وسكنوا بمواساة لطائف قربه، واستأنسوا بنرجس مودته، وورد وصلته وباسمين نور صحبتته، واطمأنوا في مكانات كشوف غرائب الملك والملكوت، وأمنوا من بليات الامتحان، هاج غيرة القدم عليهم، وأقلعهم طوارقات القهر، وأنقتهم إلى منازل الامتحان، وجعلت أعالي قلوبهم وأحوالهم أسافل نفوسهم وشهواتها، حتى يعرفوا أن ساحة التكبرياء منزّهة عن الأنس والوحشة والوجود والعدم، والمريدون إذا استكبروا على المشايخ يقلب الله مواجيدهم بطر النفوس ومجاهدتهم اتباع شهواتهم، الويل لمن كان هكذا المسلم عليهم أحجار البعد، نعوذ بالله منها، وسماتها تواتر العصيان، والخروج على أطيار بساتين الرحمان، وهذا جزاء من خرج على سادته ومشايخه، قال الله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: ما هذا الحجاب والبعد من التاركين السنة والمتابعة ببعيد.

قال بعضهم: لما أدركهم الحكم السابق الجاري في الأزل عليهم قلبنا عليهم أرضهم كما حكمنا عليهم بتقليب قلوبهم، وصرفهم عن طريق الحق وسبل الرشاد.

وقال محمد بن الفضل: ما أصاب قوم لوط ما أصابهم إلا بالتهاون بالأمر، وقلة المبالاة، وارتكاب المحارم بالتأويلات.

قال الله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي: ما له بعذاب ممن حملوا ما علموا من تحطي الشرع، والتهاون بالأمر، وارتكاب المناهي بالتأويلات ببعيد^(٣).

(١) إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ حلول العذاب حينئذ أقطع ولأنه أنسب يكون ذلك عبرة للناظرين.

(٢) في قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ دلالة على أن القضاء المبرم لا يُردُّ؛ وهو القضاء الغير المعلق، وإليه الإشارة بقوله تعالى أيضًا: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورِمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ ۖ مُحِيطٌ ﴿٢٤﴾ وَيَنْقُورِمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٢٦﴾﴾ قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتَكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: أراد خير الدنيا الذي هو محل الاستدراج والامتحان، وإن رأى خير الآخرة ما خاف عليهم وأهل المعرفة، إذ رأوا أنفسهم في أعالي الدرجات والمقامات والاستقامة، زاد لهم خوفاً؛ لأنهم عرفوا الله بغيره القدم، ولا يستقيم بإزاء غيرته الحدثان، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأخوفكم منه»^(١). قال بعضهم: أقرب حال إلى الاستدراج أيام الأمن والدعة، وتواتر النعم عليك، وترادف الخيرات عندك.

ألا ترى الله حاكياً عن بعض أنبيائه لأمته: ﴿إِنِّي أَرَانُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾.

وقال بعضهم في: ﴿أَرَانُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: بنعمة من الله، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾: تقصيركم في شكر النعمة.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾: بقية الله وقربته ووصاله وما أدخر لأوليائه من الكرامات السنية والدرجات الرفيعة. قال بعضهم: ما أدخر الله لكم من كراماته خيراً مما تسألونه فيه.

استطاعوا﴾ [البقرة: ٢١٧]؛ فإن مفهومه أنهم لا يستطيعون أن يردوا المخلصين الراسخين عن دينهم، وإن ركبوا في ذلك، متّين كل صعب وذلول، لما إن الله كتب في حقهم السعادة فلا يتغيّر بحال من الأحوال، وأما القضاء المعلق فبخلاف ذلك، وتحقيقه أن كلاً من السعادة والشقاوة؛ إمّا أصلية أو عارضة، فالأصلية لا يُعارضها عارض، وإن عارضها، فالمال إلى السعادة والشقاوة؛ لأن الأبد مرآة الأزل، فلا تزال صورة الأزل منعكسة في مرآة الأبد، فالمؤمن الأصلي لا يضرّه الكفر العارضي فإنه مكتوب في علم الله أنه مؤمن، وكذا في بطن الأم؛ فإن بطن الأم ناظرة إلى علم الله، فهما لوحان متوافقان، وكونه مكتوباً في اللوح المحفوظ؛ إنه كافر لا يضرّه؛ لأنه لوح المحو والإثبات.

(١) ذكره الحسيني في البيان والتعريف (١/ ٢٩٤).

﴿قَالَ يَبْقَوْمِ اَرَأَيْتُمْ اِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِّنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا اُرِيدُ اَنْ اُخَالِفْكُمْ اِلَىٰ مَا اَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ اِنْ اُرِيدُ اِلَّا اِلَّا صُلْحًا مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي اِلَّا بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَاِلَيْهِ اُنِيْبُ ﴿١٢١﴾ وَيَبْقَوْمِ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي اَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا اَصَابَ نُوْحًا اَوْ قَوْمَ هُوْدٍ اَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيْدٍ ﴿١٢٢﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوْا اِلَيْهِ اِنَّ رَبِّي رَحِيْمٌ وَدُوْدٌ ﴿١٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اُرِيدُ اَنْ اُخَالِفْكُمْ اِلَىٰ مَا اَنْهَيْتُكُمْ عَنْهُ﴾: ليس للصادقين مع الخلق معادة بسبب من اسباب الدنيا، إنما أبغضهم وخالفهم حين يتركون متابعة السنة وما يعطونهم، إلا بعد تركهم هوى نفوسهم، ولا ينصحهم إلا شفقة عليهم.
قال أبو عثمان: ليس بواعظ من كان واعظًا بلسانه دون عمله.

وتصديق الآية قوله: ﴿اِنْ اُرِيدُ اِلَّا اِلَّا صُلْحًا مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ما كان في عقلي ونيتي من قوة الله اريد بها إصلاحكم، ولكن الهداية والتوفيق ليست معي، ولا أطيق أن أنقذكم مما جرى عليكم في الأزل: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي اِلَّا بِاللّٰهِ﴾ أي: اصطفايتني بالنبوة والولاية باختيار الله في الأزل: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أسكن به لا لغيره، واثق به فيما وعد لي، ﴿وَاِلَيْهِ اُنِيْبُ﴾: أرجع إليه بنعت شوقي إلى لقائه.

قيل في قوله: ﴿اِنْ اُرِيدُ اِلَّا اِلَّا صُلْحًا مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: مرادي صلاحكم أن يساعدكم التوفيق، ولا أستطيع أنا ذلك لكم إلا بمؤنتي من الله لي عليه.
قال النهرجوري: التوفيق حسن عنايته من الحق سبق إلى العبد ليس له فيه سبب، ولا منه له طلب.

قال الجنيد: التوكل ألا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة الفاقة، ولا يزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوْا اِلَيْهِ اِنَّ رَبِّي رَحِيْمٌ وَدُوْدٌ﴾ أي: استغفروا مما جرى على قلوبكم من أنكم قدرتم بشيء من الطاعة والعصيان، فإن الطاعة والعصيان لا يتعلقان إلا بالسعادة والشقاوة الأزليتين، والرضا والسخط.

﴿ثُمَّ تُوبُوْا اِلَيْهِ﴾ أي: تبرءوا من حولكم وقوتكم، فإذا تيقنتم ذلك وخرجتم من رؤية وجودكم بلبسكم ربي لباس معرفته؛ لأنه رحيمٌ بعارفيه، ويلقي حلاوة؛ فإنه ودودٌ لأهل وده.

وقال محمد بن فضل: من لم يكن ميراث استغفاره بصحيح توبته كان كاذبًا في

استغفاره، ﴿وَسْتَغْفِرُكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ومن لم يكن ميراث توبته بصحيح محبته كان مبتلاً في توبته؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾، ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾.

وقال أبو عثمان: الودود الذي تودد إليك بالنعمة قديماً وجديداً من غير استحقاق ولا وجوب.

﴿قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ قال ينفقون أرهطى أعز عليكم من الله وأخذ ثموه ورآكم ظهرياً إني ربى بما تعملون محيطة ﴿وَيَقُولُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جثمين ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرْنَكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: مستوحشاً مما نحن فيه، مستأنساً بما أنت فيه، وأيضاً: ضعيفاً فيما تدعى من الرسالة والمعجزة، وما تدعى من القربة والمشاهدة، فإني أضعف الضعفاء، كيف تقدر أن تخبر عما لم يعرفه، وما لا يليق بعقول الخلائق.

قال الترمذي: مهجور فيما بيننا، لا تعاشر، ولا تعاشر.

قال بعضهم: قليل العقل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرقد المرفود ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَىٰكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ وما ظلمنهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آياتي التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيء ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ

يَوْمَ مَشْهُودٌ ﴿١٣٢﴾ وَمَا تُؤْخِرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدُّودٍ ﴿١٣٣﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٣٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنْفَوْنَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٣٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِقَائِلَتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾: الآيات قدرته على الإخبار عما وجد من أنوار جلاله، وحقائق حضرته، ونشر فضائل معارفه وكواشفه، والسلطان المبين ما ظهر من وجهه من سطوع نور الأزلية، وأثار المحبة التي قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّمِّي﴾.

قال ابن عطاء: الآيات هي القوة عند مخاطبة الحق، وسماع كلامه، والسلطان هو الانبساط في سؤال الرؤية.

قال جعفر: الآيات هي التواضع عند أولياء الله، والسلطان التكبر على أعداء الله. وقال بعضهم: الآيات محبة في قلوب خلقه، والسلطان هيبتهم له محبة في هيبة.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظِلْمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾: تهديد لأهل الغفلة في النعمة الذين شغلتهم النعمة عن رؤية المنعم.

قال أبو بكر الوراق: إذا سخط الله على قوم أكثر عليهم نعمة، وأنساهم شكره، ونزع عن قلوبهم التوفيق، وتراهم سدى حتى أغمروا في المعاصي، واستوجبوا أخذه، أخذهم على غرة.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾: ذلك اليوم يجمع العارفون لموقف رؤية الجلال، وشهودهم مشاهد الكبرياء والعظمة، ويجمع المحبون ما قامت مشاهدة الجمال، وشهودهم لقاء البقاء، ويجمع الموجدون لرؤية القدم وشهود الأزل، وهم صبار لا يزالون عن طوارق القدرة وسطورة العظمة؛ لأنهم في الدنيا أهل جمع وأهل شهود.

قال أبو سعيد الخزاز: من عاشق في حقيقة عين الجمع لم يهوله ما جمعوا له من ذلك المقام، ومن كان في كشف المشاهدة لم يتعجب من شهود ذلك اليوم؛ لأنه كان مكشوقاً له عن ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: الأيام منها يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موجود، ويوم محدود، فالיום المفقود: أمسك؛ فإنك على ما فرطت فيه، واليوم المشهود يومك فتزود منه ما استطعت، واليوم المورود: لا تدري هو لك أم أنت له لعله ليس من أيامك،

وهو غذك فلا تشغل به ولا تهتم له، واليوم الموعود: فاجعله من بالك، واذكره على كل أحوالك، واعمل له فإنه آخر أيامك، ويوم ممدود: يوم يقوم الناس لرب العالمين، فانظر لنفسك لوقوف ذلك.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وجواب السؤال قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾، ويرجى من كرم الله ولطفه أن الكفار إذا حشروا يدخلهم النار بلا حساب، ثم يحشر المؤمنون إلى عند الميزان، وتبدل الأرض، ويقلع السماء من البين، ويحاسب المؤمنون حسابًا يسيرًا، وهو قادر أن يحاسبهم بلحظة، فإذا أراد أن يدخلهم الجنة يخرج الكفار من النار، ويلقهم في بحر الحيوان، ويدخلهم مع المؤمنون في الجنان؛ لأنه تعالى وعد أنهم في النار ما دامت السماوات والأرض، فإذا زالت السماء والأرض كملت الحجة، وهذا شيء مرجو، ليس بمعتقد أهل السنة.

ومعنى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ إلا من آمن بقلبه قبل معاناة الآخرة بلهفة، ولم يطلع عليه أحد غير الله، فإن دخله وورد على الصراط كالمؤمن يكون كذلك إن شاء الله؛ فإنه تعالى مستغني عن عذاب الكافرين، كما يستغني عن إيمان المؤمنين وطاعتهم، وإيش يضر به أن يدخل الكفار في الجنة وساحة كبريائه منزهة عن خلل الحدثان، وإذا أنشر بساط الكرم يدخل الأولون والآخرين والمؤمنون والكافرون في حاشية من حواشي بساط رحمته، وهو صادق فيما وعد وأعدوا، وإنما العلم عند الله.

وتأكيد ما ذكرنا قول أبي مجلز: هو جزاؤهم إلا أن يشاء ربك يتجاوز عنهم فلا يدخلهم النار.

وقال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمان تحقق أبوابها ليس فيها أحد، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا.

وقال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرًا أسرعهما خرابًا.

وتصديق هذه الأقوال قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وإن هذا مما يؤيد إن شاء الله.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ ﴿١٢٦﴾ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُ هَتُولَاءُ مَّا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴿١٢٧﴾ نَصِيبُهُمْ غَيْرُ مَنْقُوصٍ ﴿١٢٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

الْحِثِّبَ فَأَخْلَفَ فِيهِ^(١) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَلَهُمْ لَئِي شَلَّ مِنْهُ
 مُرِيبٌ^(٢) وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَيُوفِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ^(٣) إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ^(٤) فَاسْتَقِمْ كَمَا
 أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا^(٥) إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(٦) وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ
 ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ^(٧) وَأَقِمِ
 الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ أَلِيلٍ^(٨) إِنْ أَحْسَنْتَ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ^(٩) ذَلِكَ ذِكْرِي
 لِلذَّاكِرِينَ^(١٠) وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ^(١١) فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ
 قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ^(١٢) وَاتَّبَعَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ^(١٣) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ
 بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ^(١٤) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ
 مُخْتَلِفِينَ^(١٥) إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ^(١٦) وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ
 الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ^(١٧) ﴿

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ﴾: الذين سبقت لهم في الأزل العبادة
 الكبرى، وهي التوحيد والمعرفة على قواصير النور على رفارف الجنان تحت سرادق العرش.
 ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾: سماء الجنة وأرضها، سماؤها
 العرش، وأرضها الدر ومكة البيضاء من مسك أذفر.
 ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾: وقع المشيئة على العارفين والمحبين والمشتاقين؛ فإنهم يجتازون
 على الجنان، ويدخلون في أنوار حبال الرحمن أبد الأبد.
 قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ
 وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾^(١).
 وقال أيضاً: في فاكهة أهل الجنة في أهل الجنة ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾.
 وقال ابن عطاء: إلا ما شاء ربك من الزوائد لأهل الجنة من الثواب، ومن الزوائد
 لأهل النار من العقاب.

(١) الإشارة: السعادة على قسمين: سعادة الظاهر، وسعادة الباطن. والشقاوة كذلك. أما سعادة الظاهر ففي
 الدنيا بالراحة من التعب، وفي الآخرة بالنجاة من العذاب، وأما سعادة الباطن ففي الدنيا براحة القلب
 من كد المهرم والأحزان، واليقين والاطمئنان في حضرة الشهود والعيان، وفي الآخرة بدوام النظر في
 مقعد صدق عند مليك مقتدر. وشقاوة الظاهر باتصال الكد والتعب. البحر المديد (٣/٧٥).

وقال الجنيد: الشقي من حُرِم الرحمة، والسعيد من رُزِقها.

وقال إبراهيم الخوَّاص: الشقي من اعتمد تدبيره وقوته، والسعيد من فَوَّض أمره إلى ربه، والسعيد الذي ساعده التوفيق الأزلي في كل ما يريد من المقامات، وتسهيل الطاعات، والشقي ميت القلب عن مورد تجلي رؤية الرب.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: أمر الله سبحانه نبيه ﷺ في معهد الأزل أن يقوم بتحمل أمانة علوم كنوز القدم، وما يتعلق بها من كشوف أنوار صفاته وذاته إلى الأبد، وذلك بعد أن كساه كسوة الربوبية وقدرة الأزلية، فذكره عهده الأول بعد كونه متجليًا بأنوار التأيد والعناية، وقيامه بأداء حقوق الرسالة والنبوة، فآن الآن أوان الامتحان؛ حيث زينت الدنيا بأحسن زينتها لك، وأجريت الطبيعة فيك، وأن يستقيم أصحابك وأمتك في حمل ما تخبرهم من أحوالك معي، وأحوالهم وكراماتهم بين يدي؛ فإني بجلالي وقدري أكشف أسراري لك ولأمتك من أهل الحقائق ما لا يطيق بإزائها السماوات والأرض، فاستقم بما يليق برسالتك.

﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ من أمتك بما يليق بولايتهم، وليس للاستقامة حد؛ لأنها مقامات وحالات ومعارف وكواشف وتوحيد ويقين وصدق وإخلاص وآداب وخطاب، وفي كل مقام استقامة من يستقيم فيها جميعًا، وفيما يرد عليه من واردات المواجه من اللطفيات، وما يرد عليه من الامتحان والبليات، صار موصوفًا بالاستقامة، ومن يطيق أن يقوم بإزائها مستقيمًا، ولا يثبت على صفوان القدم آثار أهل العدم من جعله الله مستقيمًا بتأييده صار مستقيمًا، المخصوص في ذلك محمد ﷺ، لذلك قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»^(١)، ولما ثقلت عليه أثقال الاستقامة على تتابع كشوف الأزليات وأسرار الأبديات قال: «شيتني هود»^(٢).

وقال ابن عطاء: إنما ينال الاستقامة على حسب ما أكرم به من نور السر.

وقال بعضهم: من يطيق مثل هذه المخاطبة بالاستقامة إلا من أُيد من المشاهدات القوية، والأنوار البينة، والآثار الصادقة.

ثم عصم بالتثيت، ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَكَ﴾، ثم حُفظ في وقت المشاهدة، ومشافهة الخطاب، وهو المزين بمقام القرب والمخاطب في بساط الأنس محمد ﷺ، بعد ذلك خوطب بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾: ولولا هذه المقدمات لانفسخ دون هذا الخطاب.

ألا تراه كيف يقول للأمة: «استقيموا ولن تحصوا»^(٣) أي: لا نطيقوا الاستقامة التي

(١) رواه ابن ماجه (١/١٠١)، وأحمد (٥/٢٧٦).

(٢) رواه الزمذي (٥/٤٠٢).

(٣) تقدم تخريجه.

أمرت بها.

وقال جعفر الصادق في قوله: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ﴾: افتقر إلى الله بصحة العزم. قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت أبا علي الشونبي يقول: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت له: روي عنك أنك قلت: «شيتني هود»^(١)، فقال: نعم، فقلت له: ما الذي شيتك منه قصص الأنبياء وهلاك الأمم؟ فقال: لا، ولكن قوله: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ﴾.

وقال جعفر الصادق: منهم من استقام على توحيده، ومنهم من استقام على إيمانه، ومنهم من استقام على إسلامه، ومنهم من استقام على معرفته، ومنهم من استقام على عظمته، ومنهم من استقام على الحمد والثناء، ومنهم من استقام على الكرم والوفاء، ومنهم من استقام على الخوف والرجاء، ومنهم من استقام بالله لا شيء سواه.

وقال بعضهم: من استقام بالحق لا يعوج، ومن استقام بباطل فهو غير مستقيم؛ لأن الاستقامة لا تكون إلا بالحققة.

وقال بعضهم: الاستقامة لا تكون إلا باتباع السنة.

وقال الحريري: الاستقامة في النعمة للعوام، والاستقامة في البلاء استقامة للخواص. وقال الجنيد: الاستقامة مع الخوف والرجاء حال العابدين، والاستقامة مع الهيبة والحياء حال المقربين، والاستقامة مع الغيبة عن رؤية الاستقامة حال العارفين. وقال الأستاذ: يحتمل أن تكون السنن في الاستقامة سنن الطلب، أي: سل من الله الإقامة على الحق.

ويقال المستقيم: من لا ينصرف عن طريق الله ما لم يصل إلى الله يصل سيره بسراه. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي: لا تقتدوا بالمرائين والجاهلين وقرناء السوء، فتمسكم نيران البعد، وحب الجاه والرياسة، وتلحقكم نار البدعة والضلالة.

وأيضاً: لا تسكنوا إلى نفوسكم المظلمة بجهلها حقوق الله سبحانه.

قال الكتاني: من لم يتأدب لحكيم أو إمام يكون بطالاً أبداً، قال الله: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾.

وقال سهل: لا تعتمدوا في دينكم إلا السني.

وقال حمدون القصّار: لا تصاحب الأشرار؛ فإن ذلك يجرمكم الأخيار.

وقال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: لا تركنوا إلى نفوسكم؛ فإنها ظلمة.

وقال سهل: لا تجالسوا أهل البدع.

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾: إن الله سبحانه حفظ الأوقات على أهل المشاهدات والمحاضرات، ووسمها بوظائف الطاعات لهم ليصلوا بالمجالسات والمحاضرات والمراقبات والطاعات إلى معالي الدرجات والقربات؛ لأن من حضر بقلبه وروحه وعقله مجالس الذكر والمراقبة يصل سره إلى رؤية المشاهدة أحد طرفي النهار؛ لأن كثرة الفترة والزلة والغفلة يكون بالنهار حتى يكونا ذاهبين بما جرى بينهما من الغفلات بما فيها من صفاء الأذكار وجولان الأفكار، وأخذ طرفاً من الليل، وهو أولها لبقاء صفاء الوقت، وحلاوة الذكر والطاعة، وحرقة الوجد، وهب القلب، ولذة الأنس إلى النهار، ولا يترك صاحبها عاقلاً، وإن كان نائماً، فإذا وصل أوقات الليل بأوقات النهار ووصل أوقات النهار بأوقات الليل بنعت عد الأنفاس، ونفي خواطر الوسوس، تذهب أنوارها غبار الخطرات، وظلمة المعارضات، وهيجان الطبيعيات البشرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾: إن حسان أنوار المشاهدات تذهب سيئات المعارضات، وتذهب حسنات كشف الجمال سيئات الخيال، وتذهب حسنات التوحيد والمعرفة والفهم سيئات الظن والوهم، ولا يعرف ما وصفنا إلا أهل الذكر من المريدين، وأهل المراقبة من المحبين، وأهل الرعاية من العارفين، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾.

قال أبو عثمان: الأوقات والساعات جعلت علامات الأذكار أوقاتاً للتيقظ والاعتبار، فمن مرت عليه أحواله وأوقاته وساعاته في غفلة، فليتيقن بموت القلب؛ لأنه مطالب في كل وقت من أوقاته، إما بفريضة أو سنة أو أدب.

قال الواسطي: أنوار الطاعات تذهب بظلم المعاصي.

قال بعضهم: رؤية الفضل تسقط عن العبد رؤية العمل.

قال أبو عثمان: حسن الظن بالخلق يذهب بالآمنة والغيبة، ويورث الشفقة والنصيحة والرحمة، وذلك موعظة لمن يوفق له ويؤهل.

وقال يحيى بن معاذ: إن الله لم يرض للمؤمن بالذنب حتى ستر، ولم يرض بالستر حتى غفر، ولم يرض بالغفران حتى بدل، ولم يرض بالتبدل حتى أجره عليها، فقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، وقال: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾.

يقال: حسنات التوبة تذهب سيئات الزلة.

ويقال: حسنات العرفان يذهبن سيئات العصيان.

ويقال: حسنات العناية تذهب سيئات الجناية، ولما عظم شأن حفظ الأوقات، وأشكل رعاياتها على أهل المشاهدات والمجاهدات أمر بالصبر عليها بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ في دفع الخطرات المذمومة عن مزار المجاهدة وأنوار المكاشفة.

وأيضًا: واصبر تحت رجاء تجلي الكبرياء، فإني أجازي بإحسانك بذل وجودك بنعت طلب رؤيتي بكشف جمال بقائي حتى لا تفنى بنور كبريائي، وتبقى معي بنور بقائي. قيل: اصبر على أداء الطاعات، وعن ارتكاب الجنايات، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن في آداب العبودية.

وقيل: اصبر على الذكر؛ فإن من ذكر الله على الحقيقة ذكره، كما قال ﷺ: «يقول الله: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي...» الحديث^(١)، وأي أجر أعظم وأجل وأبقى من ذكر باق يكون ثواب ذكر باق.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾: القرى قلوب العارفين، وأهلها الأرواح القدسية الملكوتية، فإذا كانت الأرواح مخالفة لنفوسها الأمارات بآلا تجليها في حواشي الأذكار والأفكار ينزل عليها عساكر أنوار تجلي القدس، وتكون قلوبها رياض الأنس، وإن الله سبحانه لا يجليها على أيدي الخطرات والنفوس الأمارات، ولا يجري عليها أحكام القهريات، وينورها بأنوار المشاهدات والقربات.

وأيضًا: لا يهلك قلوب العارفين والمؤمنين والموقنين والمحبين ونفوسها مطمئنة بذكره. قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾: فإن خطر عليها خاطر من قبل اخواجس والوسواس لا يحجب الحق أسرارها من جماله ومشاهدته بما خطر عليها من بعض الخواطر، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] أي: بقليل ظلم أهل القرية، أي: بقليل من هواجس النفوس.

وأيضًا أي: بظلم منه تعالى على القلوب؛ فإنه مترّ عن الظلم، وكيف يكون منه الظلم على المقبلين وهو تعالى اصطفاهم في الأزل بصلاحية قبول معرفته؛ حيث عرفهم ذاته بكشف

(١) رواه البخاري (٢٦٩٤/٦)، ومسلم (٢٠٦١/٤).

صفاته إياهم، فبقيت تلك الصلاحية.

قال بعضهم: ما أخذ أحدًا إلا بجريته، ومن لزم الصلاح والطاعة وقاه الله الآفات ومكاهه الدارين؛ لذلك قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَتْنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾.

قال أبو سعيد القرشي: الصلاح هو الرجوع إلى الله في كل نفس بالابتغال والتضرع.

قيل: في تفسير الطاهر وأهلها ينصف بعضهم بعضًا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾: أي: على سبيل واحد من توحيده ومعرفته وقربته ومشاهدته، ولكن حكمته الأزلية وعلومه القدمية تفرقهم في طرق المعارف، وأعطى كل واحد منهم سبيلاً يسلك فيه من معرفة ذاته وصفاته جميعاً، فيسيرون إليه بسبيل الصفات وطريق الذات على حسب مذاقهم ومشاربهم، فبعض في المعرفة، وبعض في التوحيد، وبعض في العشق، وبعض في الشوق، وبعض في الإرادة، وبعض في الحالات وبعض في المعاملات، ولا يشبه حال المريدين حال المتوسطين، ولا حال المتوسطين حال العارفين، وحال العارفين حال الأنبياء والمرسلين، وتقدر علومهم ومعرفتهم، ولم يرتفع الاختلاف بينهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي: مختلفين في الأحوال والمقامات والأفعال والأقوال، ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ ويبلغه إلى مقام الغيبة عنه من وله في أنوار القدم، وفنائه في سطوات الأزل، وأيضاً: إلا من يبلغه مقام الصحو والتمكين حتى يطلع على الكل، فلا تخالفهم فيما هم فيه؛ لأنه في مقام الاتصاف ونعت التمكين خارجاً عن التلوين.

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: طباعهم مجبولة باختلاف ترقى المقامات ودرجات الحالات، وهذه سنة الله جرت في الجميع، قال تعالى: ﴿كُلُّ أَنَاسٍ مُّشْتَرِبُهُمْ﴾، ويمكن أن الجميع خلقهم للمخالفة في البدايات، وللموافقة في النهايات في هذه المقامات وهذه الدرجات، ويمكن أن الجميع خلُقوا للرحمة، وهي الموافقة في النهاية بعد عبورهم على بحار الأحوال والأعمال، إذا وصلوا إلى بحار المشاهدة، فيفرقون فيها، ولا يُعرف هناك في تلك الساعة الوضع من الشريف؛ لأنها منازل الشرفات وحقائق المدانات، وهو بجمعهم رءوف رحيم.

إذا طلع الصبح لنجمٍ راح نساوى فيه سكران وصاحي
﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾

وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٣٣﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ .

قال الجنيدي: خلقهم للاختلاف، ولو خلقهم للموافقة لما رجعوا عنه إلى سواء، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ منهم فأيدهم بأنوار الموافقة، فلزموا الشدة، ولا يلتفتوا إلى الأغيار.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ : أنهم رزقهم الله فهم خطابه، فإن الصادق العارف إذا وقع في بحر الأزل يرى عجائب كشوف الصفات وأنوار الذات سبحانه تعجب بشأنه، وظن أن واقعه لم تقع على أحد غيره، خاصة في بداية حاله وبديع كشفه، فظن أنه فريد في حاله، فعرف الله سبحانه أحوال ما مضى على أوليائه ليعلم أن حاله لم يكن غريباً، بل يكون معروفاً عند العارفين، ومعلوماً عند الصديقين، ومشروحاً عند المرسلين؛ ليفرح بسنة الله التي جرت باصطفائية أوليائه في أوليائه في الأزل، ولا يغيرها طوارق الحدثان.

قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا نَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ،
والشيء إذا كان معروفاً عند العلماء والأولياء لا مدخل فيه للمعارضات والشبهات.

قال أبو بكر الكتاني: سألت الجنيدي عن مجازات الحكايات؟ قال: هي جنود من جنود الله في أرضه يقوي بها أحوال المريدين؛ فقلت: أله أصل في الكتاب؟ قال: قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾^(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أي: الكشف لك في هذه الخطابات على أثر كل خطاب جمال الحق سبحانه، وكشوف صفاتك على وفاق الخطاب، فحيث يخبر الخطاب عن الكبرياء ينكشف لك الكبرياء، وكذلك العظمة والجلال والعزة والقدم والبقاء، وإن أخبر عن الذات يكشف لك الذات صرفاً، فإذا كان ﷻ في منازل الابتداء يقويه الحق بذكر

(١) سکن قلبه بما قص عليه من أنباء المرسلين، وعرفه أنه لم يرق أحداً إلى المحل الذي رقاؤه إليه، ولم ينعم على أحد بمثل ما أنعم عليه، ويقال قص عليه قصص الجميع، ولم يذكر قصته لأحد تعريفاً له وتخصيصاً. ويقال لم يكن ثبات قلبه بما قص عليه ولكن لاستقلال قلبه بمن كان يقص عليه، وقرئ بين من يعقل بها يسمع وبين من يستقل بمن منه يسمع. تفسير القشيري (٣/٣٨٨).

أحوال من الأنبياء ليطبق أن يحمل بدائع الواردات العجيبات له، فإذا قوي بها يثبت بكشف جماله وجلاله حتى يطبق أن يعبر على بحار نكرات القدم، ولا يتغير بطوارق المكربات والامتحانات.

ثم إن الله سبحانه يقوي قلوب تابعيه من الأولياء والمؤمنين بما جرى عليه من أحكام الغيب وأنباء الأزلية، ليطبقوا أن يحملوا أثقال ما أوحى إليه، فثبت قلب النبي ﷺ بقصة الرسل، وما كشف لهم، وثبت قلوبهم الأمة بقصته وحاله، فما أشرف هذه الأمة، حيث هو ﷺ سبب تثبيت قلوبهم.

وتصدق ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: صورة القرآن موعظة لأهل المعاملات وحقائقه بنصره لأهل المعاينات، يعرف الكل من بحار القرآن ما يوافق حاله وفهمه وإدراكه، فالعموم متعلقون بظاهره، والخصوص متعلقون بباطنه، وخصوص الخصوص في تجلي الحق فيه، وحقيقة القرآن هو الصفة الأزلية، فإذا انكشف القرآن بأصله فقد انكشف الحق فيه لمن خص بخصوصية الصفة، وأخبر بذلك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فقال: إن الله يتجلى لعباده في القرآن.

قال أبو زيد: فوائد القرآن على حسب ما يؤهل له مستمعه، فمن سمعه من أمثاله ففائدته فيه علم أحكامه، ومن سمعه كأنها سمعه من النبي ﷺ يقرأ على أمته موعظته منه بيان معجزته، وانشرح صدره بلطائف خطابه، ومن سمعه من جبريل ﷺ كأنها يقرأ إلى النبي ﷺ؛ فمشاهدته في ذلك مطالعات الغيوب والنظر إلى ما فيه من الموعود، ومن سمع الخطاب فيه من الحق فني تحته، ومحقت صفاته، وصار موصوفاً بصفات التحقيق يعني عن علم اليقين وعين اليقين، ويحصل في درجات حق اليقين.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: غيب السماوات والأرواح، وغيب الأرض والقلوب، يعلم ما أودع الأرواح من علوم كنوز الذات، ويعلم ما أودع بابه عن أسرار الصفات.

وأيضاً: غيب السماوات ما في قلوب الملائكة من علوم المقادير التي تجري بنعوت القضاء والقدر على أفعال العباد، وغيب الأرض علوم معرفة ذاته وصفاته في قلوب الأنبياء والمرسلين والعارفين والصادقين.

وقوله: ﴿وَالِلَّهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾، ﴿الْأُمُورُ﴾ هو الأرواح ترجع إليه على قدر مشاربها من عيون الصفات وأنوار الذات، ثم رغبة إلى عبوديته التي تورث الحرية، والحرية تورث التوحيد، والتوحيد يورث التجريد، والتجريد يورث التفريد، والتفريد يورث المحو في

الذات، والصحو في الصفات، فإذا قرر هذه المقامات يؤمنه من زوال الشرف، ومحو المحو عنه به، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: هو حسبك، ارجع من قهره إلى لطفه، ومنه إليه؛ ولذلك قال ﷺ: «أعوذ بك منك»^(١).

قال النهرجوري في قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ﴾: لا يعملها إلا هو، ولا يطلع عليه إلا الأمناء من عباده، وهم الذين يصلحون للقرب، والمجالسة، وحفظ الأسرار، والنظر إلى المغيبات، وهم الذين لم يبق عليهم منهم حظ، ولا لهم فيهم مطالبة، وكانوا بلا كون، وشهدوا بلا شهود، بل يكونون بالتكوين، ويشهدون بالأشهاد، فلا هم هم، ولا هم لا هم، فهم من حيث الوجود لا هم، من حيث الاتحاد هؤلاء أهل الغيب الذين غيبوا عنهم، فلا لهم في أنفسهم حظ، ولا للخلق إليهم سبيل؛ لأنهم أخرجوا عن حدود التفرقة إلى عين الجمع، فلا ثم كلام، ولا عنه عبارة بحال.

وقيل في قوله: ﴿وَالَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾: مرجع الكل؛ لأن منه مبدأ الكل. ﴿فَاعْبُدْهُ﴾: أسقط عنك حظوظ نفسك، وقف مع الأمر بشرط الأدب والسنة، وتوكل عليه لا تهتم بما قد كفيته، واهتم بما نذبت إليه، ﴿وَمَا رَأَيْتُكَ بِغَنَافِلِ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، كيف يغفل عنك من قدر عليك عملك، وما أنت لاقية إلى آخر أنفاسك، والله أعلم.



سورة يوسف عليه السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِينَ الْغَفِيلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: الألف إشارة إلى أنائية التوحيد، واللام إشارة إلى نكرة أهل التجريد، والراء إشارة إلى ربانية أهل التفريد.

قوله تعالى: ﴿رَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: مظنات الإشارات في الأحرف

الثلاث علامات المعارف، المعرفة في الصفات القديمة المبينة أنوارها في قلوب الصديقين، وآثارها في شواهد الملك والملكوت، وما ذكر في القرآن.

قوله: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾: أوصاف ونعوت وأسماء وصفات مبينة أسرار الخطاب لأهل المكاشفات والمشاهدات من العارفين والمقربين، والحكمة في الخطاب بالحروف كتمان الأسرار عن الأغيار، وهي سنة الأحباب في رفع النقاب في الحجاب.

أبكي إلى الشرق إن كانت منازلكم من جانب الغرب خوف القيل والقال
أقول بالخذ خال حين أذكره خوف الرقيب وما بالخذ من خال
هذا سر الحبيب مع الحبيب، ولا يطلع عليه إلا من له شُرْبٌ من بحره، وسقي من نهره، وطلوع من شرقه، وأقول في غربة؛ لأن بهذه الطائفة رموز وإشارات لا يقف عليها إلا طيارٌ في الملكوت وسيارٌ في الجبروت.

قال الأستاذ: في إنزال هذه الحروف المقطعة إشارة، وهو أن من كان بعين الفضل والصحو استنبط من اللفظة السيرة كثيرًا من المعاني، ومن كان يشاهد الغيبة والمحو يسمع الكثير فلا يفهم منه السير.

وقال أيضًا: الإشارة من الكتاب المين هاهنا إلى حكمة السابق له بأن برقية إلى الرتبة التي لم يبلغها غيره.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾: إن الله سبحانه لما أراد أن يوقع عنقاء همته إتعاب قوسيينية إلى شبكة عشق زينب، وسقاها من مشارب سواقي الالتباس زلال بحر تجلى صفة الجمال بأقداح الأفعال، رأى قدس همته عن علل الإنسانية في ذلك، وغيرته على معهد مشاهدة الأزل تسلى قلبه بهذه القصة التي هي مطية رواحل أسرار العاشقين والواقين، وهو تعالى بجوده واختياره له سيادة الكونين ورسالة العالمين يواسيه لثلا يضيق صدره في محل الامتحان؛ لأنَّ امتحان بالعشق الإنساني مراقبي مشاهدة جمال الآزال والآباد ليسير في ميادين القدم والأبد بمراكب العشق، فإنَّ بالعشق بلغوا إلى العشق، وحسن القصة بيان عشق الإنساني في مراتب الأرواح العاشقة، وطيرانها من هذه المقامة إلى عشق الألوهية، ومشاهدة الأزلية.

بيّن تعالى أن قصة العاشق والمعشوق أحسن القصص لما فيها من الأمثال والعبر، والذوق والشوق، والفراق والوصال، والبلاء والعناء، وشأن يوسف عليه السلام كله عشق به أبوه، وهكذا كل من رآه؛ لأن حسن جمال القديم ألبس وجهه، وكان مرآة الله في بلاد الله تجلّى الحق منها للعباد.

وكيف لا يكون أحسن القصص ١٩ وهذه القصة قديمة أزلية، وكل حسن في العالم هي معدّ بها، ومنها صدر كل الحسن والمستحسن، ومن كمال حسنها أنّه تعالى أخرجها من تحت التكليف، ولم يذكر في قصة العاشق والمعشوق الأمر والنهي، كأنها خير الوصال وأثر الجمال، ومثل لعشاقه معه، ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. قال بعضهم: أعجب القصص، وفيه تعزية وسلوة للنبي ﷺ لما لقي من أهل بيته أنّ يوسف لقي من إخوته أكثر مما لقي هو من أهل بيته، فلم يخرج عليهم بنفسه منتقمًا، بل رأى ذلك كله من موارد القضاء ومواجب القدر، فلما رجعوا إليه: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، كيف يكون عليكم فيه غيبٌ وكنتم المجهولين عليه، وكبت المقصود به من حيث القضاء والقدر.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: اشتغل العوام لسماع القصص، واشتغل الخواص بالاعتبار فيه؛ لقوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. وقال بعضهم: هذا يدل على صدق أحوال المؤمنين، ومعاني صفة المتقين، وإلى حقائق صحبة المحبين، وصفاء سر العارفين، تنبيهًا على حسن عواقب الصابرين، وحثًا على سلوك الصادقين، وبعثًا على سبيل المتوكلين، والافتداء بزهد الزاهدين، ودلالة على الانقطاع إلى الله، والاعتماد عليه عند نزول الشدائد، وكشفًا عن أحوال الخائبين، وقُبْح طريق الكاذبين، وابتلاء الخواص بأنواع المحن والفتن، وكشف تلك المحن وعواقبها عن الإعزاز والإكرام، وتبديل تلك الشدة بالراحة، والبؤس بالنعمة، والعبودية بالملك، وفيه ما يدل على سياسة الملوك في ممالكهم وحفظ رعاياتهم وغير ذلك.

وقال الأستاذ: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ لأننا نحن نقص عليك أحسن القصص، لخلوه عن الأمر والنهي الذي سماعه يوجب إشغال القلب.

وقيل: أحسن القصص؛ لأنه غير مخلوق.

وقيل: لا فيها ذكر الحبيب والمحبوب.

ولما كان يوسف ﷺ بتلك المثابة التي ذكرتها، وأنه كان مرآة حسن الحق، وأن حسنه تأثير معادن حسن الأزل، يخضع له الحدثان لما عليه من كسوة جمال الرحمن، أخبر عن رؤياه، وما رأى فيها بقوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(١): جمع الله في اسم يوسف ﷺ أربعة حروف: الياء، والواو،

(١) فائدة: والرؤيا تختص بالنوم، والرؤية، بالناء بالبصر. قال البيضاوي: وهي انطباع الصورة المنحدرة من

والسين، والفاء، والياء: يسار ملكه، والواو: وضاحة وجهه، والسين: اطلاعه على أسرار الغيب بحسن تأويل الرؤيا والمكاشفات، والفاء: وفاءه في عهد الرسالة، فإذا اجتمعت هذه الأوصاف في يوسف عليه السلام سمي يوسف عليه السلام، وأيضاً كان فيه خالص العبودية والحزن في شوقه إلى جمال الربوبية.

قال بعضهم: سُمِّيَ يوسف بيوسف عليه السلام؛ لأن الأسيف العبد، وتعبد يوسف، ويقال: لحزنه، والأسف الحزن.

جئنا إلى معنى رؤياه: رؤياه: أول مقام المكاشفة؛ لأن أحوال المكاشفين أوائلها المنامات، فإذا قويت الحال تصير الرؤيا كشفاً، وبين الرؤيا والمكاشفات مقامات ذكرتها في الكتاب المكاشفة، وافهم رزقك الله فهم معاني المكاشفات أن الله سبحانه مثل عالم الملكوت مما فيها مع أسرار الجبروت بنيران الكواكب والشموس والأقمار.

وأيضاً: مثل بها أحكام أكابر الأنبياء والأولياء، فالشمس مثل الذات، والقمر مثل الصفات، والكواكب مثل الأوصاف والنعوت والأسماء، وليس غرضي هاهنا بيان أشكال المكاشفات برقتها، لكن أقول بعون الله وتأييده نبذة مما كوشف ليوسف عليه السلام: كان يوسف عليه السلام آدم الثاني؛ لأن عليه كان من كسوة الربوبية ما كان على آدم، فرأت الملائكة على آدم ما رأت، فسجدوا له كلهم، وهاهنا سجد له أشراف الأنبياء، وهم خير من الملائكة، وكيف لا يسجدون لهما، ومن وجهها تتلأل الأنوار القدوسية، وجلال السبوحية:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتَ حَدِيثَهَا خَرُّوا الْعِزَّةَ رُكَّعًا وَسُجَّدًا

وفيه إشارة لطيفة: أن الخليل عليه السلام رأى ذلك المعنى من جبين الشمس، وعارض القمر، ونور الكواكب، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، وهذا عذر للملائكة والأنبياء في سجودهم لآدم عليه السلام ويوسف عليه السلام؛ لأن هناك يتجلى الحق سبحانه من أجرام الفلك التي معادنها الأفعال، وهنا يتجلى الحق منها وهما من خصائص تجلي الصفات صادران، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾: ألبس أنوار الهيبة على أجرام الفلك، فهاجت إليها سرائرهم، كما ألبس على طور أنوار الهيبة فهيج الله سر موسى إليها، وألبس أنوار الجمال آدم عليه السلام ويوسف عليه السلام، فهاجرت إليه أسرار الملائكة والأنبياء، فيا ليت لو رأى الخليل يوسف عليه السلام وآدم عليه السلام لراى فيها أكثر مما راى في أجرام الفلك:

أفق المتخيلة إلى الحس المشترك، المصادفة منها إنما يكون باتصال النفس بالملكوت؛ لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ. البحر المديد (٣ / ٨٨).

خليلي وعد أحسن الناس كلهم ويحسدها من حسن شمس والبدر
فيا ليت الجميع لو رأوا جمال سيد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه لهاموا في
البوادي والقفار، وغرقوا في الفيافي والبحار، وتطير الملائكة من السماء؛ لأن نوره أنور،
وشمسه أزهى، وبدره أشرق، نوره كان من معادن جمال القدم، وسراج أسرج من سمة
الكرم، وفيه نكتة عجيبة من حقائق التوحيد: أن مشار الخليل ما قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ سجدت
لبعض نبيه بياناً لتزيه جلال الكبرياء، وتزيه ساحة العزة والبقاء عن الأضداد والأنداد، رأى
الخليل ﷺ هذا المعنى بنور النبوة، فقال: ﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وفيه أدب المريد أن
المكاشفة تذكر عند أستاذه ليفرق بين الكشف والخيال.

﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ
لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رُتُوكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رُتُوكَ
عَلَيْمٌ حَكِيمٌ ۝ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَاءِ لِيُنْذَرُوا ۝﴾

قال بعضهم: أعجبه حسن رؤياه حتى قصّها على أبيه، فكأنه فيه أول بلية ومحنة إلى أن
بلغ إلى تحقيق ما رأى، فلما رأى يعقوب أسرار الرؤيا وتأويلها خاف على ابنه: ﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا
تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾، وهكذا شأن أهل قصة المعرفة، لا يجوز للمريد أن يفتق سر
المكاشفة إلا عند أستاذه، والأنفع في بحر الحجاب، ومحن الدعاوى، ويكون مرتهاً بعيون
الغيرة، كان يعقوب ﷺ في ذلك الوقت في رؤية العلم من رؤية ما جرى في الأزل فدبر وقاية
ابنه بحسن التدبير قوة من صورة التدبير إلى عين التقدير.

قال بعضهم: إن يعقوب ﷺ دبر ليوسف ﷺ في ذلك الوقت خوفاً عليه أن يقع من
إخوته في شيء، فوكل إلى تدبيره، ووقع به ما وقع، ولو ترك التدبير ورجع إلى التسليم لحفظ،
ولما قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رُتُوكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ
وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رُتُوكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾،
ولما قال: ﴿أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾، وقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾: أراه الله فيه ما كان يخافه
عليه؛ لذلك قيل: إن التفويض والتسليم خير من ملازمة التدبير، ولما وصاه وقال: لا
تقصص الرؤيا عرفه اختصاصه في الرسالة والنبوة والحسن والجمال والخلق والخلق بقوله:
﴿وَكَذَلِكَ نَجْتَبِيكَ رُتُوكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: اجتباه بأن كساه من نوره نور
الجمال، ورباه بمفرح الكمال، ورزقه الرسالة والكشف وعلوم المدينة الإلهية التي قال:

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، وتمام نعمته عليه أن بلغ إلى مقام التمكين، ورؤية التحقيق، وفاز من التلوين، وذاق طعم الاستقامة، وبلغ أشده إلى ما بلغ الذبيح والخليل، وخروجه من درك امتحان العشق بنعت القدس والجارة، كما كان وصف الأنبياء والصديقين.

قال ابن هند: اجتباه ما منحه به من حسن الخلق، ولطيف الصحبة مع أوليائه وأعدائه، وترك الانتقام لنفسه بحال.

وقال بعضهم: اجتباك ربك فصرف عنك كيدهم، ولولا اجتباه لورد عليك منهن ما ورد.

قال يحيى بن معاذ: من تمام نعمة الله على يوسف أن جعله منعماً على إخوانه، واضطروهم إلى الخضوع له والتذلل بين يديه بقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾. وقال سهل: ويتم نعمته عليك بتصديق الرؤيا التي رأيتها لك.

وقال بعضهم: ويتم نعمته عليك في أن عصمك عن ارتكاب ما لا يليق بك ولآبائك. وقال الأستاذ: من إتمام النعمة توفيق الشكر على النعمة، ومن إتمام النعمة أن يصونك عن شهود النعمة برؤية المنعم، فلما أعظم شأن يوسف في حسنه وجماله، وقدسه وطهارته وظرافته مع إخوانه في احتمال البلاء منهم، وترك الانتقام منهم لنفسه عظم الله ذلك.

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّالِينَ﴾: آيات يوسف سواطع نور الحق من وجهه، وظهور علوم الغيب في قلبه، ومعرفته بذات الله وصفاته، وكريم الآية ونعمائه ولطيف أفعاله وصنائه، وما وضع الله في النفس الأمانة من عظيم قهر شهواتها، واستيلاء هواها، وفترتها وشرتها، ودقائق خدعتها، ولطيفة ما بينها وبين طبائع الشياطين، وحسن عاقبته، وبلوغه إلى أهل التمكين، وما بدا من إخوته من الغيرة والفرقة، وهذه البراهين تذكرة وتبصرة للمريدين والمحبين العارفين.

قال حمدون القصّار: للخلق في يوسف ﷺ آيات، وله في نفسه آية، وهو أعظم الآيات، وهو معرفته بمكر النفس وغدرها، قال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.

وقال بعضهم: إنّ من الآيات التي في يوسف أنه حجة على كل من حسن الله خلقه ونعوته ألا يدنس بمعصية.

قال ابن عطاء: آياته ألا يسمع قصته محزون إلا استراح إليه، وأخرج منه ما فيه راحة لما هو فيه.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

﴿١﴾ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٢﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهَا بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٣﴾ قَالُوا يَتَابَنَّا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿٤﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٥﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿٩﴾ قَالُوا يَتَابَنَّا إِنَّا ذَهَبْنَا فَنَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٠﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١١﴾ .

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾: يَبِّنُ اللهُ سُبْحَانَهُ مَحَلَّ امْتِحَانِهِ بِأَنْ لَمْ يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ حَتَّى الْأَنْبِيَاءَ لثَلَايَا مِنْ مَكْرِهِ فَإِنَّ كَيْدَهُ مَتِينٌ، وَهُمْ فِي ذَلِكَ مَا بَلَغُوا مَقَامَ النُّبُوَّةِ، وَلَكِنْ عَجِبْتَ مِنْ شَأْنِ قَهْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ، كَيْفَ غَيَّرَ فِطْرَةَ الْمَعْرُوفِينَ فِي دِيْوَانِ الْأَزْلِ بِالْوِلَايَةِ وَالرَّسَالَةِ حَتَّى يَفْعَلَ اللهُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يَرِيدُ، وَذَلِكَ مِنْهُ تَعَالَى عَذْرٌ لِلْمُذْنِبِينَ جَمِيعًا، وَيَبِّنُ أَنْ مَكَانَ الصَّدَقِ يَخْطُرُ عَلَيْهِ آفَاقُ النَّفْسِ وَالْحَسَدِ وَالْخُدْعَةِ، بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾، وَهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ مَوْضِعَ الْخَطَا فِي نَفْسِهِمْ مِنْ إِضْمَارِ إِيْدَاءِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، سُبْحَانَ مَنْ حَجَبَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ وَكَدَّرَ عَلَيْهِمْ مِشَارِبَ الصَّفَاءِ وَالْمُودَةِ، وَحَجَبَهُمْ عَنِ الْعِلْمِ بِفِرَاسَةِ أَبِيهِمْ؛ حَيْثُ عَرَّفَهُ اللهُ مَكَائِدَ نَفْسِهِمْ!

قال بعضهم: لم يكن يأمنهم عليه؛ لما كان يرى من فِرَاسَةِ النُّبُوَّةِ فِي شَوَاهِدِهِمْ مِنْ إِضْمَارِ الْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ.

قوله تعالى: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾^(١): إِمْهَالٌ يَعْتُوبُ بَنِيهِ، وَتَرْكُهُ دَفْعَ لَعِبِهِمْ، بِأَنَّهُ رَأَى لَطَافَةَ خَاطِرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَوَاصِلَةَ حُزْنِ النُّبُوَّةِ فِي قَلْبِهِ، وَنَاقِثَ بَرَحَاءِ الْقَبْضِ

(١) أي: يتسع في أكل الفواكه ونحوها، فإن الرتع هو الاتساع في الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل ونحوهما مما يكون الغرض منه تعلم المحاربة مع الكفار وإنما سموه لعباً لأنه في صورته وأيضاً لم يكونوا يومئذ أنبياء وأيضاً جاز أن يكون المراد من اللعب الإقدام على المباحات لأجل إشراح الصدر، تفسير حقي (٥٣/٦).

في صدره، فأذن لهم بذلك؛ ليخرج يوسف عليه السلام لحظة من تحت أثقال هموم المعرفة، وتواتر تراكم حزن المحبة، ومواجيد القربة، ويستروح ساعة برؤية الآلاء والنعماء، فسأعهم بذلك، ليس أنه غافل عن تأديبهم، وزجرهم عن اللهو واللعب، ورأى ما في ضمايرهم من لطيف المكر، وعلم أنه موضع البلاء، فجعل المعول عليهم وسبق التقدير على التدبير، وحجب غيرة الله بينه وبين يوسف عليه السلام.

قال محمد بن علي الترمذي: لما لم يزجرهم عن اللعب وسكت عنهم جاء من ذلك اللعب ما اتصل عليه به الحزن.

قال ابن عطاء: لو أرسله معهم وسلمه إلى القضاء لحفظ، لكنه اعتمد على حفظهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فخانو، لو ترك تدبيره عليه وحفظهم له لكان محفوظاً كما حفظ الآخرين، قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾.

قال بعضهم: رجع يعقوب إلى نفسه في ثلاث مواطن فابتلي فيها: قال ليوسف عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فكادوا له، ولما قالوا: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فقالوا: أكله الذئب، ولما قال هم: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾، أصابهم في ذلك ما حذر عليهم منه.

قوله: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾: صدق يعقوب خاف من ذئب حسدهم، وبرؤيته في ذلك حقيقة، وكل ما رأى يعقوب من هذه الوقائع فقله فيها وقوع نظر سره على سابق التقدير، وكل ما قال لبنه من الزجر والنصيحة في حق يوسف عليه السلام مما رأى بنور النبوة ما يقع في المستقبلات من الوقائع، وذلك غير مناقض لحقيقة التوحيد، وكيف يكون استعمال معاملات العقل وعادة البشرية حجاب الأنبياء والصدّيقين من رؤيتهم حقائق التقدير، وهم يعلمون أن من العرش إلى الثرى من الحريات والسكنات عاجزة بين حرفي الكاف والنون.

وأيضاً: أخاف من ذئب التقدير أن يفرّق بيني وبين ابني وأنتم عما أراه غافلون، رأى غيرة الحق عليه حتى لا ينظر إلى الوسائط في شهود حقيقته، وتصديق ذلك أن الذئب لم يأكل يوسف، فعلمنا أن الذئب ذئب الحسد، وكيف كانت فراسة خطأ، ورأى بنور فراسة ما كان يجري على يوسف إلى آخر عمره وافق في متابعة مراد الله؛ لأنه أراد أن يفرق بينه وبين يوسف عليه السلام أريد وصالي ويريد هجري فأترك ما أريد لما يريد.

قال أبو علي الجوزجاني: خاف الذئب فسلط عليه، ولو خاف الله لمنع عنه كيد الإخوة.

وقال الجنيد: ما أوقعهم في الحسد إلا ما أظهر من شفقتة عليه بهذا القول.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذَّقْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾: لما رأى يعقوب أن حبال التقدير لا تضر وأن تواتر البلاء لا ينقطع وأن عساكر الغيرة لا تمتنع أرسله معهم، وذهب مع سيول بحر القهريات مرید المرادة، وكيف تدفع تقدير الأزل قوة العصبية وعلة التدبير، وربما نفى نظر التوحيد في بعض الوسائط في بعض الأوقات، فقطع الله ذلك حتى لا يستمسك غريق بحر المعرفة من قبلهم، فالقوة في الجُب، ثم لما أرسل بنيامين قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾: حفظه وردّه إلى يوسف عليه السلام، وردّهم جميعاً إلى يعقوب، كذا حان من اعتمد على ربّه، ومن اعتمد على غيره.

ولما وقع يوسف عليه السلام في بحر الامتحان، وعجز في أيدي الأخوان، وذاق طعم جفائهم، رفع عروس الغيب رأسه عن بحر البلاء لتسلية قلب يوسف عليه السلام بالولاء بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: لتنبئهم بأنباء الأزلية، ومناطق الربوبية بلسان النبوة ما غاب عنهم، وما علموا وفعلوا وصنعوا حين نبغك إلى رتبة الأعلى من النبوة والرسالة والتمكين والاستقامة، وهكذا كمال تسلية الله سبحانه صديقه في ابتلائه.

وقال الأستاذ: الإشارة فيه أنه لما حلّت به البلوى عجلنا له تعريف ما ذكر من البشرى ليكون محمولاً بالتعريف في عين ما هو محتمل له من البلاء العنيف.

ويقال: إن انقطع عن يوسف عليه السلام مراعاة أبيه إياه حصل له الوحي من قبل مولاه.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾: سرّ هذه الآية أن طبيعة البشر إذا ظفرت بمرادها رقت، فإذا دُعيت بالبكاء أجابت، ولكن لا يكون بكاءها إلا من فرح الخداع وحب الجاه والرياسة، وإنّ ذلك البكاء أكثره تباكياً، بكوا بغير عبرة ولا بفلق وحزن من أسف، ولا بزفرة جاءوا عشاء حتى لا يتبين تباكيهم من بكائهم، ويرتفع من بينهم وبين أبيهم سجون الاحتشام:

إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى

قيل: أخروا المجيء إلى وقت العشاء الآخرة ليدنسوا على أبيهم.

وقيل: ليكونوا إجراء في الظلمة على الاعتذار، ونرويح ما مكروا.

قوله: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر

جميل: فتح الله سبحانه ثوب رزق الرازقين في هذه الآية، الذين زينوه بالرزق والسود، وادّعوا صدق المقامات والكرامات، وإنّ دم الكذب إشارة إلى من يدعي جراحة المحبة على

قلبه، ودم القلب من ذبح الله إياه بسيف محبته، وليس كذلك، فإن دم المقتولين بسيف المحبة دم صدق يصدق صاحبه في عيون الصادقين.

قال عليه السلام: «المتشيعُ بما لم يعطِ كلابس ثوبي زورٍ، ومن كذب وقع كذبه في قلوب العوام^(١)».

والعجب أن ما يطلع عليه العوام كيف لا تطلع عليه قلوب الأنبياء والصدّيقين، هاجت طبيعتهم بسر الحسد، فيتولد منه الكذبات والجنايات؛ لأن مثل الحسد كالنار المخفية في الزبد، فإذا خرجت يحترق العالم بها.

قال الحسين بن الفضل: لما كذبوا في إجداء الأمر بقولهم: «فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ»^ط رجعوا في آخر الحال عند الاعتذار إلى الكذب حين قالوا: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ»^ط بيّن الله سبحانه بقوله: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ»^ط فراسة يعقوب عليه السلام، وإطلاعه على أسرارهم في المكر، وعرفهم سر مكائدهم نفوسهم ولم يعرفوها، والأنفس هاهنا أسرار تقدير قهر الأزل؛ أي أنتم مخدوعون بخداعكم، وأنا لا أرى في البين غير سابق التقدير، فألبس سربال الصبر الجميل في مراد الجليل، والصبر الجميل ما يصبر به صاحبه بالله لا بنفسه بنعت شهود سره مشاهدة المقدر والمبتلى في بلائه تقديره.

قال تعالى: «وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ»^ط وقال سبحانه: «وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا»^ط وتحقيق هذا الصبر سكون القلب بما يجري عليه الرب سبحانه بنعت ذوقه صفاء الذكر، وإدراك رؤية المذكور، وتحقيق ذلك قوله تعالى: «وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ»^ط أي: استعانتني في بلائه وصبري به لا بغيره.

وأنشد الشبلي في حقائق الصبر:

عبراتٌ خططنَ في الخدِّ سطرًا فقراء من لم يحسن يقرأ صابر الصبر
فاستغاث به الصبر فصاح المحبُّ بالصبر صبرًا

قال الحسين: الصبر الجميل السكون إلى موارد القضاء سرًا وعلنًا.

وقال أيضًا: الصبر الجميل تلقى المحنة بمشاهدة المنّة.

قال الحكيم الترمذي: انصبر الجميل أن يلقي العبد عنانه إلى مولاه ويسلم إليه نفسه مع حقيقة المعرفة، فإذا جاءه حكمٌ من أحكامه ثبت له مسلمًا بوارد الحكم، ولا يظهر بورود حكمه جزعًا بحال.

(١) رواه البخاري (٢٠٠١/٥)، ومسلم (١٦٨١/٣).

قال يحيى بن معاذ: الصبر الجميل أن يتلقى البلاء بقلبٍ رحيبٍ ووجهٍ مستبشر.
﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ
بِضْعَةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ نَّحْسٍ ذَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا
فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا
غُلْمٌ﴾: فلما خرجت الأرواح من أماكن العدم وطارت في هواء القدرة وطلبت أنوار موارد
القدم فوجدت قاموس الكبرياء، فأدلت دلاء الهمم فيها، فأنكشف لها من مطالع الأزل
شموس المشاهدة وأقمار العزة، فلما ظفرت بموارد الحقيقة صاحت بصياح العشق وقالت: يا
بشرى، هذا شاهد القدم وعروس الأزل، فوجدت شاهدها، وفرحت بمشاهدته، وطارت
سكرانة في هواء آزاله وآباده من الفرح ببقاء؛ لأنها وجدت بضاعة المعارف وريح الكواشف.
قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوهُ بِضْعَةٍ﴾: جعلت أنوار جلاله في صميم أسرارها، وسترها عن
الأغيار، وجعلها بضاعة التوحيد والمعرفة والمحبة؛ ليريح بها مدانة الوصال والاستئناس
بالجمال، يا ليت لسيادة يوسف عليه السلام لو عرفت ما في وجه يوسف عليه السلام من تألؤ أنوار حسن
الأزل لسجدت له، كما سجدت الملائكة لأنه كالعبودية، ولكن للعشق والمحبة؛ لأنه شاهد
الله في شاهد الله.

قال جعفر: كان الله تعالى في يوسف عليه السلام سرًّا، فغطى عليهم موضع سرِّه، ولو كشف
لهم عن حقيقة ما أودع فيه لما تواروا، ألا تراهم كيف قالوا: ﴿هَذَا غُلْمٌ﴾، ولو علموا آثار
القدرة فيه لقالوا: هذا نبيٌّ وصديقٌ^(١).

ولما كشف للنسوة بعض الأمر: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ﴾، ولما لم يعرفوه بخاصية النبوة والولاية، ولم يروا عليه آثار جمال الله سبحانه باعوه
بثمن بخس؛ لجهلهم به وبما فيه من ودائع كنوز القدرة وأنوار المشاهدة، والعلوم اللدنية
الغيبية بقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ نَّحْسٍ ذَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾.

ولو كان فيهم ما كان في يعقوب عليه السلام من عشق الله ومحبة، وما رأى في مرآة وجهه من
أنوار قدرة الباري سبحانه، ما باعوه بالكونين والعالمين؛ لأن ما في وجه يوسف عليه السلام من جمال
الظاهر لم يكن في الكونين إلا في أمثاله من الأنبياء والصديقين، وجمال ظاهره كان من جمال

(١) نادى البشرى، بشارة لنفسه، أو لقومه، كأنه قال: تعال هذا أوانك. وقيل: اسم لصاحبه، ناداه ليعينه
على إخراجه فأخرجوه. البحر المديد - (٣/ ٩٧).

باطنه، ولو اطلعوا على جمال باطنه لوقعوا بين يديه صرعى من سكر محبته، ولراوا عجائب الملكوت والجبروت في ظاهره وباطنه.

قال جعفر: باعوا بالبخس من الثمن؛ لجهلهم بما أودع الله فيه من لطائف العلوم وبدائع الآيات.

قال ابن عطاء: ليس ما باع إخوة يوسف عليهم السلام من نفس لا تقع عليها البيع بأعجب من بيعك نفسك بأدنى شهوة، بعد أن بعته من ربك بأوفر الثمن، قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾، فبيع ما قد تقدم بيعه باطل، وإنما باع يوسف أعداؤه الذين كانوا يعادونه، وأنت تبيع نفسك من أعدائك، وهي شهواتك وهواك، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك.

وقال الجنيد: إنما باعوه بذلك الثمن؛ حيث لم يتفلسوا فيه ما كان به؛ لأنه لم يكن وضع لهم في جنبه حظ.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مِرَّةَ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ألا ترى إلى الذي اشتراه لما كان له في يوسف عليه السلام حظٌ كيف قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾، فصدقت فيه فراسته، ونال به الهداية.

وقال ابن عطاء: لو جعلوا ثمنه الكونين لكان بخس في مشاهدته، وما خُصَّ به. قال الجنيد: كل ما وقع تحت العدد والإحصاء فهو بخس، ولو كان الكونين فلا يكن حظك البخس، وهو كل شيء دونه، ولما لم يعرفوا مكانته، وباعوه اشتراه من رآه بعين الحقيقة وأعد مبواً جلاله وقدره في أخص موضع في العالم، وهو مكان المحبة والعشق بقوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ اشتراه بالدنيا للآخرة معرفةً بجلالة وجماله، وقال لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾: أي: لا تنظري إليه بنظر الشهوة، فإن وجهه مرآة تجلي الحق في العالم، وأين طور سيناء في مكانته من وجه يوسف عليه السلام، وتجلى الحق من طور سيناء المولى، وتجلى الحق من وجه آدم للملائكة، وتجلى الحق من وجه يوسف عليه السلام لأجرام الملكوت، وسلاطين معارف الجبروت، وليعقوب عليه السلام وأمثاله من أنظار الغيب.

ألا ترى كيف قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، وأيضاً: أكرمي تقواه بتقواك، وأيضاً: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾؛ فإنه بهديه أمر

الفعل في مجمع عين الجمع، لا تنظري إليه بعين العبودية، ولكن انظري إليه بنظر المعرفة؛ لترى فيه أنوار الربوبية، وأيضاً: ﴿أَكْرِمِي﴾: اجعلي محبته في قلبك لا في نفسك، فإن القلب موضع المعرفة والطاعة، والنفس موضع الفتنة والشهوة.

﴿عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا﴾: أن يعرفنا منازل الصديقين، ومراتب الروحانيين، ويبلغنا بركة صحبتته إلى مشاهدة رب العالمين.

قال بعضهم في قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾: أحسني صحبتته في الدنيا؛ لعله أن يكون لنا شفيعاً في الآخرة.

قال الجنيد في قوله: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾: لما نظر إلى يوسف عليه السلام، وركز بقلبه إليه صار يوسف عليه السلام محنة عليه.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ رَءَاهُ أَتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿١٣﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

قالت له امراته: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ﴾.

ثم إن الله سبحانه وصف ما وهب إلى يوسف عليه السلام من أحكام الغيب، ورؤية كشوفات الملكوت، وتمكينه في المعرفة والنبوة والرسالة بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾: مكناه صبراً عظيماً في تمكين المعرفة، وحمل وارد مشاهدة

الغيب، وسكنائه من فوران الأحوال، وتغاير التلوين، وبلغناه حقائق الصحو؛ ليكون كهفًا لغرباء المعرفة، والمسترشدين من أهل المحبة، وليعرفه بعد تمكينه حقائق المكاشفات، وتأويل لطائف المنامات، وما يبرز من الملكوت في اللبس المجهولة من تصرف الملائكة، وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾: إن كان إنهاء راجعه إلى يوسف عليه السلام، هو تعالى المتولي على أمر يوسف عليه السلام؛ بأن خلّصه من مكان الامتحان، وبلغه إلى درجة الرضوان، وبأن نجاه من فتنة الطغيان، وورطة الحرمان؛ بأن كشف له البرهان والسلطان حين مكر به الشيطان، خلّصه من كيد الحساد، وجعله قبلة الأوتاد، والله غالب على أمره حين دبّر يعقوب عليه السلام في حقه ما دبّر؛ ليعرفه غلبة سلطان قهره واستيلاء تقديره على تدبيره غالب على أمر يوسف عليه السلام؛ حين برّاه من آفة شهوة زليخا حين همت به وهمّ بها، قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.

وأيضًا: والله غالب على أمره على أمر عشقه، وعشق زليخا؛ لأنّ مكان العشق ممزوج بطباع الإنسانية، وإن كان صرف العشق من زند نعوت عشق الأزل، فكشف له سلطنة الكبرياء، وخلّصه بالكبرياء من مقام العشق الممزوج بطبع البشر؛ كأنه غلب الصفة على الصفة، وإن كان الهاء راجعًا إلى الله سبحانه.

فيه إشارة لطيفة: إنّ أمره من عالم الفعل، والأحكام والرسوم الشريعة والطريقة، والعقول مكلفة به، أمر رسماً وغلب قهراً أمر بالشرعية، وغلب مقادير الأزلية أمراً، وغلب على أمره بنسخه وتبديله أمر يوسف عليه السلام بالتبرؤ من الأغيار، وبألا يلتفت إلى الحداث في مكان العرفان، لكن غلب جلال قدره، وانكشف ليوسف عليه السلام في وجه زليخا، فأظهر القدس، وجوّه بالقدس إلى الهمة؛ ليزيقه حلاوة عشق الإنسان؛ ليفوز به عشق الرباني، ومن هناك رقاها إلى مدارج ملك الأزال والآباد، ومن لم تكن بدايته عشقاً كان من المجاهدين لا من العارفين، لا بأن العشاق طاروا إلى جناب مشاهدة الحق، وإنّ العشق مركب عشقه، والعشق من عشقه صدر؛ لأنه كان عاشقاً في الأزل، وعشقه معادن جميع عشق العشاق.

قال تعالى: ﴿حُجِّبَتْ وَحُجِّبَتْهُ﴾ [المائدة: ٥٤]: كما أنّ حسن يوسف وزليخا وجميع الحسن في العالم انشعب من حسنه وجلاله وجماله، كأنّ عشقه غلب على أمر العبودية؛ لأنّ العشق صفة الربوبية، ولم يكن عجباً غلبة الربوبية على العبودية.

وأيضًا: ما دام الأمر خارجاً عن أماكن الأفعال وصار صرف الصفات فهو غالب على جميع الحداث، وتدبير أهل العرفان؛ لآته واحد في ملكه، أحد في ملكوته، والكائنات خاضعة فانية لجبروته.

وما ذكرنا من هذه المعاني الغريبة والتفاسير العجيبة من حقائق أمر الإلهية لا يعرفها إلا أبناء المعرفة ونظار المشاهدة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعلمون مواضع تقدير الأزلية؛ حيث دبر أمور الحدثان من العرش إلى الثرى، وكيف يطلع الحدثان على قدم الرحمن. قال ابن عطاء: غالب على أمر نفسه، أجراه على ما شاء إلى من شاء، وصرفه عمّن شاء، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنه الغالب في أمره الذي أمر عباده من طاعتهم، إن شاء يسر لهم من طاعته، وإن شاء أعجزهم فيها.

قال الواسطي: يصرفهم في تدبيره ويدبرهم في تصرفهم، ويجد منهم المفقود، ويفقد منهم الموجود، فالإضافات ضرب من الإشراك.

ثم وصف الله سبحانه بلوغ يوسف أشد النبوة والولاية والتأييد الأزلية، وما وهبه من أنوار العلوم والحكمة بقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: ﴿أَشُدَّهُ﴾: تمكينه واستقامته في المعاملات والحالات ومراتب الآداب في العبودية كشف له تصرفات الربوبية في معادن المكاشفة.

﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: حكمًا بالعبودية، وعلماً بالربوبية، حكمًا بالطريقة، وعلماً بالحقيقة، حكمًا بممالك الدنيا، وعلماً بممالك الآخرة.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾: نجازي المحسنين الذين راقبوا الله سرًا وعلانية، وبذلوا مهجتهم بالله وفي الله إلى الأبد.

قال النصرآبادي في هذه الآية: لما عقل عن الله أوامره ونواهيه والاستقامة معه على شروط الأدب أعطيناه حكمًا على الغيب في تعبير الرؤيا، وعلماً بنفسه في مخالفة هواها.

قوله تعالى: ﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ءَوَلَّكَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: كانت مستغرقة في العشق الروحاني فغلبت عليها شهوة العشق، فراودته، وذلك أن رعونة سر الطبيعة صارت منجذبة برقة عشق الروحاني إلى معدنه فغلظت وصارت محجوبة بالطبيعة من الحقيقة.

﴿وَوَلَّكَتِ الْأَبْوَابَ﴾: لما كان عشق يوسف ﷺ في قلبها، وصورته مصورة في خيالها لا يحتاج إلى غلق الأبواب، فإن قيد همتها حكمة همّت يوسف حين همّت به وهمّ بها أغلقت أبواب أسرار عشقها على يوسف، فصارت فاشية بأن العشق لا يبقى الكتمان:

أَلَا فَاسَقْنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكْنَ الْجَهْرُ

فَبُخِ بِاسْمِ مَنْ تَهْوَى وَدَغْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا خَيْرَ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا سِترُ
وأيضًا: غارت على يوسف حتى لا يرى أحدًا أسرارهما، فغلقت الأبواب، كذا ينبغي
للعاشق.

قال الشبلي في قوله: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾^(١): قطعت الأسباب وجمعت الهمة عليه،
ثم غلب على يوسف عليه السلام قدس النبوة فامتنع من مراودتها بقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي
أَحْسَنُ مَقْوَايَ﴾ أي: ربي سبحانه وتعالى أحسن مثواي في الاصطفائية الأزلية، واختارني
بالرسالة والنبوة، وعلمني من تأويل الأحاديث، وألبسني لباس حاله الذي هو يوجب أن
ينظر إليها بنعت الهيبة والإجلال، هذا سيد السادات، وسيد الظاهر، أحسن مثواي؛ بأن
اختارني لآخرته لا لدنياءه، وأحسن مثواه في قلبك بنعت محبة الله، فلا ينبغي لك أن تنظر إلا
بمحبة الله.

قيل: لما نظر في ترك المعصية إلى صاحبه وولي نعمته الأدنى، ولم ينظر إلى ربه وولي
نعمته الأعلى، عوقب بالهم حتى قال: ﴿هَمَّتْ بِهِمْ وَهَمَّ بِهَا﴾.

وقال بعضهم: برؤية الهمة امتنع من الفتنة.

قال الأستاذ: إنه أكرمني مولاي تعالى؛ حيث خلقتني من الحب، وجعل في قلب
العزیز لي محلاً، فقال لي: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾، فقال: لا ينبغي أن أقدم على عصيانه، وقد
أفردني بجميل إحسانه.

ثم أخبر سبحانه عن جذب مغناطيس الهم بعضها بعضاً من سر حقيقة العشق الإلهي
والروحاني والإنساني والطبيعي والفطري والجوهري، التي معادنها من عالم الربوبية أفعالاً
وصفاتاً وذاتاً بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِمْ وَهَمَّ بِهَا﴾، خالص الحقيقة في هذا المعنى في تلك
الهمتين، إن همة زليخا سبقت على همة يوسف عليه السلام، وحسن يوسف عليه السلام سبق بجذب قلب
زليخا وهمتها إلى معدنه؛ لأنَّ عشق زليخا وحسن يوسف صفتان صادرتان من المعدنين
الأزليين، وهما صفة جمال القدم ومحبة الأزل، فلما هاجت همة زليخا بعد انجذاب قلبها إلى
معدن عشق يوسف عليه السلام هاجت أيضاً همة يوسف عليه السلام إلى أهلية عشقها وحسنها وهمتها،
فصارت الهمتان بعضها من بعض، فهاجت همة الجواهر إلى الجوهر، والفطرة إلى الفطرة،

(١) هي أبواب أركان الشريعة يعني إذا فتحت الدنيا على القلب أبواب شهواتها وحفظها غلقت عليه
أبواب الشريعة التي تدخل منها أنوار الرحمة والهداية ونفحات اللطاف والعناية، تفسير حقي (٦/
ص ٧٨).

والطبيعة إلى الطبيعة، والإنسانية إلى الإنسانية، والروحاني إلى الروحاني، والإلهي إلى الإلهي، فصارت جميعها بوصف الهمتين متحيرة، حتى صار شخصهما، وسوادهما، وخيالهما، وعقلهما، وقلبهما، وروحهما، وسرهما واحداً في واحد.

كما قال الشاعر:

وَالْعَيْنِ كَالْغُصْنَيْنِ شَقَّهُمَا الْهَوَىٰ فَرُوحَاهُمَا رُوحٌ وَقَلْبَاهُمَا قَلْبٌ

فكيف نتهم الهمتين، وأصل الجوهر نور الإرادة، وأصل الفطرة فعل الإرادة، وأصل الطبيعة مباشرة القدرة؛ لكن الصورة وأصل الإنسان وجود معجون القهر الروحاني مباشرة اللطف، وإلهي تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، فترقى الهمة من أصل الجوهر إلى نور الإرادة، ومن أصل الفطرة إلى فعل الإرادة، ومن أصل الطبيعة مباشرة القدرة، ومن أصل الإنساني إلى وجود معجون القهر، وذلك سر النفس الأمارة، ومن أصل الروحاني إلى مباشرة اللطف، ومن أصل إلهي إلى تجلي الجمال، وظهور الذات في الصفات، وظهور الصفات في الأفعال، ففي عين الجمع أصل العشقين، والهمتين من معنى تجلي الذات والصفات والأفعال، فإذا علمت ذلك فترى شخصهما شخصاً، وروحهما روحاً، وقلبهما قلباً، وهمتتهما همة، وسرهما سرّاً، وكلهما كلاً، وذلك الكل صدر من الكل، وذلك الكل علة العلل، ومعلل الأشياء ومكون الكون أصل الأصول، فمن يدم وغرائب حقيقة قدس المعرفة في الإشارة، إشارة منه بدأت، وإليه تعود بيني وبينك، أينا زعني، فأدفع بلطفك أنني من البين يا صاحب الهمة، إذا تجلى من فعله لفعله بوصف الفعل صار العشق مع الشهوة، وإذا تجلت الصفة بالصفة بوصف الصفة صار العشق مع شهوة الروحاني بلا شهوة الإنساني، وإذا تجلى الذات للذات بوصف الذات صار العشق بوصف العشق الأزلي المقدس عن حركات أسرار جميع الشهوات؛ لأن عشقه أزلي بلا علة، فأول همة حركة الفعل إلى الفعل، وهناك موضع الامتحان والفتنة المخالفة الأمر، وأوسط الهمة تجلي الصفة إلى الصفة، فهناك مقام الالتباس، ونهايتها تجلي الذات للذات، وهناك مقام القدس والطهارة من الامتحان، فإذا كان يوسف عليه السلام في بدايتها ووسطها كان في محل العتاب، فإذا تجلت الذات للذات سلبه أنوار الذات من المقامين، ولولا ذلك ل بقي في بحر الامتحان وعتاب الرحمن.

تصديق ذلك قوله سبحانه: ﴿لَوْلَا أَن رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَيَصْرِفَ عَنْهُ

السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾، ظهور البرهان ليوسف عليه السلام ظهور صرف ذات القديم المنزه عن علة الحلول، ومباشرة الحدوث، وذلك الظهور يوجب أفراد القدم عن الحدوث، وصرف التجريد والتوحيد والتفريد والخروج من محل الالتباس.

وقوله كذلك: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾: إن وضع سمات الفحش والسوء على أسرار تآلف الأرواح والأشباح وحركات بعضها إلى بعض بنعت المحبة والألفة والمودة والهوى والشهوة، إنها عالم الامتحان والأمر والتكليف والعبودية ومخالفة الأمر سوء وفحشاء من حيث العلم والعقل، وفي الحقيقة ليس هناك علة الفحش والسوء؛ لأنها مواضع المقادير الأزلية.

وأيضاً: إذا بقي العارف في الترقى والوسائط والالتباس عن توحيد الصرف بقي في الحجاب عن رؤية كنه القدم وقدر الأزل، وذلك الاحتجاب سوء وفحشاء، وأي سوء وفحش أعظم من الوقفة في بعض الطريق والانقطاع عن الوصول إلى الكل وأصل الأصل، وإذا كانت معالي هيئته العلية علت على جميع المقامات وبلغت إلى رؤية الذات والصفات بنعت الفناء والبقاء، ذكر سبحانه امتنانه عليه بعد وصفه بتقديس إخلاصه.

وقال: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ أي: من أهل الكمال من الموحدين والنبين والمرسلين.

قال ابن عطاء: همّت به همّ شهوة، وهمّ بها همّ موعظة بزجرها عما همّت به، وقال: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ قال: واعظاً من قلبه، وهو واعظاً لله في قنب كل عبد.

وقال أيضاً: همّت به وهمّ بها، احتالت زليخا أن تري نفسها ليوسف، فحجب الله نفسها عن يوسف بالبرهان العالي والحق الظاهر، حتى لم يشهد في وقت ذلك غير الحق، وقال: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ أي: نظر إليها لولا ما صدّه عن ذلك من حجاب البرهان.

وقال الجنيد: يحرك طبع البشرية من يوسف عليه السلام، ولم يعاونه طبع العادة، والعبد في تحريك الخلقة فيه غير مذموم، وفي هيجان الشهوة مذموم، وفي مقاربة المعصية ملوم، وذكر الله تعالى عن يوسف عليه السلام همّه على طريق المحمّدة لا على طريق المذمة.

وقال ابن عطاء: قالت زليخا ليوسف عليه السلام: اصبر عليّ ساعة حتى أعود إليك، فقال: ما تفعلي؟ فقالت: أغطي وجه الصنم؛ فإني أستحيي منه، فتذكّر يوسف عند ذلك اطلاع ربه عليه، فهرب منها، فذلك البرهان.

قال أيضاً: السوء الخواطر الرؤية، والفحشاء بالأركان.

قال محمد بن الفضل: السوء بالتفكر، والفحشاء بالمباشرة.

قال أبو عثمان: لنصرف عنه سوء الهم وفحشاء الواقعة.

قال الجنيد: أول ما يبدأ من الإخلاص في أحوال الأولياء خلوص من سرائرهم وهمهم وإرادتهم، ثم خلوص أفعالهم، فمن لم يخلص سره لا ينال الصفاء في فعله، فلما رأى ما رأى

يوسف عليه السلام لم يبق في نفسه من شهوة الإنساني أثر من استيلاء أنوار التوحيد، وفرّ من موضع الخطر.

قال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾: لما بدأ ليوسف أوائل سطوات الأزل وأنوار كشف تجلي الأبد لم يحتمل أوائلها؛ وعجل سرّه في أول بديهة التوحيد، فرّ من أماكن الخطر، ولو صبر حتى غاص في بحر الوجدانية لم يحتاج إلى الفرار إلى الباب، وإن تمكن في رؤية الحق وبرهانه وسكن ونظر إلى زليخا بنظر التوحيد لتذوب زليخا بنظره إليها، والتقديس من شهواتها؛ لأن حقيقة التوحيد إذا غلبت نادى إلى فناء ما دون الله، وتأثر في كل ناظر إلى صاحبها بالأبقى فيه أثر للشهوة الإنسانية، ولما لم يكن كذلك ما أثر في زليخا حتى عدت خلفه إلى الباب وقَدَّتْ قَمِيصَهُ، ولو كان يوسف مستغرقاً في أواخر التوحيد لاحتقرت زليخا، وما قدرت أن تعدو خلفه، وتمزّق قميصه، كان يوسف في أوائل التوحيد، وزليخا في أواخر العشق، فلم يؤثر التوحيد في العشق، وتخريقها ثوب يوسف من غلبة عشق الإنساني على عشق الروحاني، ولما خرقت قميصه من عشق الإنساني، صار تخريق القميص برهاناً ليوسف عليه السلام شاهداً على صدقه.

قال بعضهم: لو فرّ إلى الله والتجأ إليه لكفى، لكنه لما هرب منها وفرّ بنفسه أكمل نفسه محل التهمة حتى قالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾، فلما نصّب الله البرهان وطرد الشيطان فدخل عليها زوج زليخا ورأى حالهما العيان.

قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾: أضاف اسم السيد إلى زليخا؛ لأن الله سيد يوسف عليه السلام حقيقة؛ لأنه كان حرّاً بالتوحيد وحرّاً بالتفريد، وكذا على ظاهر الشريعة، وما أطيب العشق إلى أن يؤول إلى الشفاعة فإن عيش العاشق في الملامة أطيب.

قيل في قوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾: لم تقل: سيدهما؛ لأن يوسف عليه السلام كان في الحقيقة حرّاً، ولم يكن العزيز له سيّداً، فلما أفشى سر العشق بينهما وأطلع زوجها على سرها نفت عن نفسها الحرام؛ لأنها علمت أن لو بيّن جرمها عند زوجها لقتلها وأوقعت من حلاوة ومحبة يوسف والنظر إلى وجهه، كذلك أوقعت الحرام على يوسف عليه السلام:

لحبّك أحببتُ البقاء لمهجتي فإن طال أن أعرضت عني بقاؤها
ولعلمها بأن يوسف عليه السلام لم يبق في الضر والبؤس والمؤاخذه، ولا يقدر أحد أن يؤذيه، ومن يقدر أن يضره ووجهه سالب القلوب وجالب الأرواح، أغاب العالم بعينه، سبى الأرواح والأشباح بحسنه وجماله. وتسبى العالمين بمقلتيها
لها في طرفها لحظات سحر ثمّيت بها ونجّيت من تريد

وتسبي العالمين بمقلتيها

وتعللت في كلامها حيث قالت: ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ أَوْ عَذَابُ الْإِيمِ﴾^(١)، ذكرت حديث السجن، ثم ذكرت العذاب الأليم نفيًا للتهمة عن نفسها؛ حتى لا يعرف زوجها شأنها وعلتها وحيلتها.

وأيضًا ذكر السجن والتأديب والتعذيب لثلاثين بشارت بشيء آخر أو يوهم بقتل يوسف عليه السلام، كانت زليخا متمكنة في عشق يوسف عليه السلام، فتصرفت في حالها بنعت الاستقامة، ولو كانت في فوز عشقها ما أوقعت الجرم على يوسف عليه السلام؛ لأن المهتدي لم يعرف في بدايته ما للأشياء ولم يبال بها، فحكم بحكم الوقت، ولم يبال بقتل نفسه وقوف معشوقه عنه، حتى أن لو كان الجرم لمعشوقه لأوقع على نفسه.

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾^(٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾^(٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾^(٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٨) يَصْنَعِي السِّجْنَ رَبَّاتٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَمْرًا أَمْرُ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾^(٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَشْهُوَاءَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ لِلَّهِ أَمْرًا لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٠) يَصْنَعِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبُّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(١١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ

(١) قال ابن عجيبة: قالته إيهامًا أنها فرت منه؛ تبرئة لساحتها عند زوجها، وإغراء له عليه؛ انتقامًا لنفسها لما امتنع منها.

رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا أَضْغَثَ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ ﴿١٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿١٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلَّهُمْ يَتَعَلَّمُونَ ﴿١٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُّوه فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَحْصِنُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصِّدِّيقِينَ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أُمِينٌ ﴿٢٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِمَّا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٢٧﴾

قال ابن عطاء: لم تستغرق هي في محبتها بعد، فلم تخبر بالصدق، وأثرت نفسه على نفسها، فلما استغرقت هي في المحبة وهامت، أخبرت بالحق وقالت الصدق، وأثرت نفسه على نفسها، فقالت: ﴿الْقَن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ﴾، ولما وضعت زليخا الجرم على يوسف عليه السلام ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، كان الكرم والرضا يقتضيان السكوت عن جوابها حتى لا يفتضحان، ويكون إلى التسليم وترك التدبير أقرب في التوحيد أفضل، حيث أهل الطرق يرون الأشياء على رؤية مقادير الأزلية؛ لكن أعلمهم مكان طهارة النبوة وقدس الرسالة وبيان الحجة؛ لذلك نطق الصبي في المهد، وتشهد بصدقه إظهاراً لمعجزته وطهارته عما لا يليق بالأنبياء، ولطيف الإشارة فيه أنها ادّعت محبة يوسف عليه السلام، وتبرأت منها عند نزول

البلاء، فأراد يوسف عليه السلام أن يلزم عليها ملامة المحبة، فإن الملامة شعار المحبين، فمن لم يكن ملومًا في العشق لم يكن متحققًا في العشق، أراد يوسف عليه السلام كونه عاشقًا جلدًا ليزيد عشقًا على عشقها؛ لأن الملامة للعاشق زيادة ذكر المعشوق، فإذا استقامت تزيد حرقه العشاق والهيجان، هم إلى رؤية المعشوق والخروج من موضع التهمة، ودفعها دأب المعشوقين أيضًا لزيادة عشق العاشقين، فلما بان جرمها بالبرهان الواضح قال زوجها: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، أراد بالكيد هاهنا التجشم والغنج والدلال وتقليب طرفهن، وكشف ذوائهن، وخضاب أطراف بنائهن، ولطافة حركاتهن، وإلقائهن التفاح والسفرجل إلى معشوقتهن، وتزيين لباسهن، ولطافة كلامهن، وحيث يحتكن بهذه الرعونات على من له لطافة وظرافة ورقة طبع، وأهلية للعشق، فأين إبليس منهن؟ وهو هناك أجيرهن، عظم الله كيدهن، وأضعف كيد الشيطان بقوله: ﴿إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾: سبب ضعف كيد الشيطان هاهنا أنه قبيح الصورة، شنيع المنظر، لا يقدر على الرجال إلا بالوسوسة، وهناك بحسنهن حوليات الشهوات يجرون بها الجبال.

وقال عليه السلام: «ما تركتُ من بعدي فتنة أضرت على الرجال من النساء»^(١).

وقوله عليه السلام: «النساء حبائل الشيطان»^(٢) أي: أعظم معاملة إبليس النساء بالرجال، أطلق حبال ذكرهن من ألف فرسخ يقيد بها أعناق الرجال، ولولا هن نجساء المعلون من وساوس الخلق، فإن أعظم الفتنة في العالم النساء.

أيضًا: سُمِّيَ كيدهن عظيمًا، وذلك الكيد قيدهن الرجال بلطائف ما ذكرنا من شمائلهن، وذلك من أصل وهوان حسنهن وجههن وظرافتهن من حُسن فعل الله في وجوههن، وذلك الفعل مرآة تجلي حسن الأزل؛ لذلك سماه عظيمًا، وهذا إشارة لا يعرفها إلا صاحب واقعة، وأين الأبله والغبي والبليد من فهم هذا المعنى؟!

قال بعض الحكماء: أنا أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان؛ لأن الله يقول: ﴿إِنْ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وقال للنساء: ﴿إِنْ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

وقال الشبلي: ﴿إِنْ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾: على من لم يصحبه من ربه توفيق الرعاية، فأما من كان بعين الحق كيف يلحقه كيد كائد، فلما فشي الخبر وكثرت الملامة، وسمعت نساء البلد هاجت سرهن؛ لأن أزواجهن كانت متآلفة بروح زليخا، وهن جميعًا مع روح يوسف عليه السلام.

(١) رواه البخاري (١٩٥٩/٥)، ومسلم (٢٠٩٧/٤).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٠٦/٧).

فتقاضى سرهن حقائق الخبر، وتفتيش الأمر ليدقن ما ذاقته زليخا فاحتلن، وقلن ذكر ملامتها بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ ذكرهن للملامة اشتهاهن رؤية يوسف عليه السلام، وحكمن بحكم الفراسة أن حب يوسف عليه السلام بلغ حبة قلبها وصورة شغاف القلب سجف لطيف رفيق، وبراءة عالم الكشافة، وبعده عالم اللطافة الأول مقام النفس والهوى والوسوس، والآخر مقام العقل والروح والملك، ومقام الكشافة مقام شهوة الإنساني، ومقام اللطافة مقام شهوة الروحاني، وليس في الروحاني علة الهوى والنفس والشيطان، فإذا وصل الحب إلى منظر الروح واتصل بروح الروح بلغ إلى عالم الرحاني، فإذا تمكن الحب هناك تخلص من الوسائط، وصار حب الله، فكل حبة وصلت إلى هنا فقد وصلت شغاف القلب، واتصلت بمحبة الله، كأنهن أردن محبة يوسف عليه السلام، وصلت في قلبها إلى محبة الله، وهناك استغرق الحب؛ حيث بقيت الأشباح في سورة الوسائط بمحبتها، وبقيت الأرواح في مشاهدة الحق لا للأرواح قرار، ولا للأشباح قرار، وهذا وصفهن زليخا بهذه الصفة بقوله: ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في غيوبة من استغرق الحب، وتمكين العشق بحيث لا تخاف من الملامة، ولا تلتفت إلى السلامة، ويمكن أن إشارتهن إلى ضلالها إلى أنها أرادت من يوسف عليه السلام وحبه أن يكون يوسف من غاية حبها صورة وروحاً اتحاداً، فهن في منزل العقل والعلم يقين من مباشرة الجمال، وعلموا أن ذلك مستحيل من حيث العقل، لا من حيث العشق ومباشرة الحال.

قال الجنيد: وسُئِلَ: ما علامة المحبة؟ قال: ذكر الله في كتابه: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾. قال: ألا يرى جفاء الحبيب له جفاء، بل يرى جفاء الحبيب له وفاء.

قال سمنون: الشغاف في المحبة امتلاء القلب منه حتى لا يكون لشيء غيره فيه مكان. قال الشبلي: الشغاف نهاية العشق.

وقال بعضهم: الشغاف في المحبة حال الخمود؛ حيث لا عبارة عما به ولا إخبار، كما قال الله: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾. وقال السري: أذهلها حبه حتى لم تكن تعرف سواه، ولم يكن للملامة عليه من الغير أثر، وذلك صدق المحبة.

وقال جعفر: الشغاف مثل الغيم أظلم قلبه عن التفكير في غيره، والانشغال بسواه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: أي في وجدٍ ظاهر، ومحبة بينة، وشوق مزعج.

سُئِلَ جعفر بن محمد عن العشق؟ فقال: ضلال. ثم قرأ: ﴿لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

قال: معناه في عشق ظاهر.

وقال بعضهم: في غلبة من العشق ضلّ فيه عقلها وبصيرتها، فلم يبق عليها محل الكتمان من غلبة الشوق، فلما وصلها خبر ملامة النسوة، واحتياهن في طلبهن رؤية معشوقها بلطف المكر، أرادت أن تلقيهن في بحر البلاء الذي لا ينجو منه أحد.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: دعتهن إلى بيتها، فاجتمع في بيتها أعيان نساء مصر اللواتي صويجبات الجمال وزينة، وكشفن وجوههن وزينتهن ليغلبن على زليخا ويسلبن يوسف عليه السلام منها، فعلمت زليخا ضعفهن عن حمل أوائل رؤية يوسف عليه السلام وحسنه، وجماله، ولطفه، ومنظره، واحتالت في إلقاءهن في المحبة بقوله: ﴿وَأَعْتَدْتُ لهنَّ مُتَكِنًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾: أجلستهن في أطيب المجالس، وأشرف المناظر، على خوان^(١) فيه ألوان الطعام والفواكه، وأعطت كل واحدة أترجا وسكينا، وقالت: كلن وقطعن الأترج، وأرادت بذلك الحيلة عليهن، حتى شغلن بالطعام والكلام عن رؤية يوسف عليه السلام ليخرج عليهن بالبدية عن غير مرعد ولا استئذان، حتى يستغرقن في بحر الهيبة والبهتة عند رؤيته.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنِ﴾: ألبست يوسف عليه السلام قميصا منظوما بالدر والياقوت، ووضعت على رأسها تاجا مكلأ باللآلئ، وألبست ساقيه وذراعيه سوارا أو خلخالاً، ووضعت على يده صفحتين حتى لا يستر وجهه؛ لأنه كان إذا رأى امرأة يغطي وجهه، فعلمت شأنه بذلك فخرج عليهن بدية فصرن هائيات، تائهات، حائرات، مفتونات من رؤية يوسف عليه السلام، ذاهبات في حسنة وجماله وعشقه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أُكْبِرَتْهُ﴾: عظمته بعظمة الله، وهبنا منه لما رأين في وجهه نور هيبة الله، فذهلن في وجه يوسف عليه السلام، فسقطن عن التمكين والعقل، وفعلن أفعالا مجهولة، بقوله سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وذلك من استغراقهن في عظمة الله وجلاله، وإن الله سبحانه ما أراهن من وجه يوسف ما أراه لزليخا، فأوقعهن في نور العظمة والكبرياء، وجلال تجليه منه هن، وأرى نور حسنه وجماله لزليخا من وجه يوسف عليه السلام فبقيت في العشق، ورعونته، ونظافته، وبقيت في العظمة والجلال، لذلك قطعن أيديهن، ولم يشعرن بذلك، ولو رأت زليخا ما رأين ما استقامت في حالها وما راودته عن نفسه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾: رأينه على صفة الملائكة المقدسين

(١) كلمة فارسية بمعنى: مائدة.

عن أن يوهم أحدًا لهم بالشهوة، أي: ليس هذا من أن يوهم أحدًا بالشهوة؛ فإنه مقدّس من عالمنا؛ لأنّ عليه كسوة الملائكة من سواطع النور والبرهان الإلهي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي إلى السماء، فرأيت يوسف عليه السلام، فقلت: يا جبريل عليه السلام مَنْ هذا؟ قال: هذا يوسف عليه السلام، قالوا: وكيف رأيته يا رسول الله؟ قال: كالقمر ليلة البدر»^(١).

وعن أبي فروة قال: كان يوسف عليه السلام إذا سار في أزقة مصر يُرى تلالؤ وجهه على الجدران، كما يُرى نور الشمس والماء على الجدران.

قال وهب: بلغني أن تسعًا من الأربعين متن في ذلك المجلس وجدًا من يوسف عليه السلام.
يا صاحب العقل افهم؛ إن صويحبات يوسف عليه السلام لما رأين يوسف رأين كسوة الربوبية على محل العبودية، فوقعن من رؤيته فيما وقعت الملائكة من رؤية آدم حين سجدت له.
ولذلك قرئ في بعض القراءات: «ما هذا إلا ملك كريم»، وهامنا مقام التباس العارفين ومشاهدة المحبين، ولا قدح فيه؛ لأنهم مقدسون عن علة التشبه والحلول، تعالى الله عن المشابهة بالأرواح والأشباح.

وليس ما قال حسين بن منصور في هذا المقام إشارة إلى التشبيه؛ لأنه فني في التوحيد، أنشد وقال:

سبحان من أظهر ناسوته سر سنا لاهوته الثاقب، ثم بدا لخلقة ظاهرًا في صورة الأكل والشارب، ثم بدا لخلقه من خلقه بأنوار برهان قدرته وسنا شواهد لطفه صبغه، ويمكن أن زليخا كانت محل التمكين، وهنّ في محل التلوين؛ لذلك استقامت في رؤيته، ولم يحل أيضًا مما رأين من يوسف عليه السلام من النور والعظمة، لكن غلب عليها مقام مشاهدة الحسن والجمال، لبقائها في مكان الابتلاء ارتفعت عنهن في رؤية يوسف عليه السلام الشهوة والبشرية؛ لغلبة أنوار العظمة والهيبة، فلا جرم ما شعرن آلام قطع أيديهن، ولو قرض نملة زليخا لشعرت بذلك؛ لأنها في لطافة العشق؛ وما أطاقت من لطف حالها أن تحمل ألما غير ألم العشق، وهذا كمال في أنس المعشوق، ولا يعلم ذلك إلا ذو عشق كامل.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكِمًا﴾: أجلستهن مجالس وطئه ليكون أبين لحركتهن في مشاهدة يوسف عليه السلام، وأسقط للملامة والتغير عنها، وأظهر لما يبدو عليهن من لقاء يوسف عليه السلام.

وقال بعضهم في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾: شاهدن حسنًا خاليًا عن مواضع

(١) رواه الطبري في التفسير (١٥/١٣).

الشهوة، مؤيداً بعصمة النبوة فأكبرنه.

وقال جعفر: سر هيبة النبوة عليهن مواضع إرادتهن منه، فأكبرنه.

قال أبو سعيد الخزاز: المأخوذ في حال المشاهدة غائباً عن حسنه، بائناً عن نفسه، لا يحس بما جرى عليه.

قال الله: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْتَهُ فَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

قال ابن عطاء: دهشن في يوسف عليه السلام، وتحيرن حتى قطعن أيديهن، فهذه غلبة مشاهدة مخلوق لمخلوق، فكيف بمن يأخذه مشاهدة من الحق، فلم ينكر عليه تغيير صفاته عليه، أو ينطق في الوقت على حد الغلبة بمرأى كغيرة.

وقبل في قوله: ﴿أَكْبَرْتَهُ﴾: لأنه كان مؤيداً بالعصمة، فشغلتهن هيبة العصمة، فلم تنظر إحداهن إليه نظر شهوة.

وقال سهل: ما هذا إلا ملكاً في أخلاقه، بشراً في صورته.

قال محمد بن علي: ما هذا باطلاً أن يدعى إلى المباشرة بل مثله يُكرَّم، ويُتَزَّه عن مواضع الشبهة والاعتراضات لكرم أخلاقه، ولطف شئائه.

قيل: إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غداء؛ إلا النظر إلى وجه يوسف، كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشبعوا، ويزول عنهم الجوع، فلما رأت شأن النسوة وفناءهن عن عقولهن، صبرت حتى مر يوسف عليهن وأفقن، وشممت بهن: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾: أرادت أن يذقن ما ذاق من حب يوسف عليه السلام، ويخرجن من ملامتها؛ لأن من لم يعرف طعم المحبة عزل أهلها:

فانظري واقظني لي تـري حرقاً من لم يزد طرفاً منها فقد
ولا نظر أهل الملامة نظر سرك، حيث كانوا محجوبين عن رؤية سبق المقادير، وإن
العشق خارج عن حدود الاكتساب.

خليلي إني قلت بالعدل مرة ومنذ علاني الحب مذهبي الجبر
وأنشد الحسين:

ما لامني فيك أحبابي وأعدائي إلا بجهلهم من عظم بلوائي
تركك للناس دنياهم ودينهم شغلي بحبك يا ديني ودنيائي
أشعلت في كبدي نارين: واحدة بين الضلوع وأخرى بين أحشائي

ولا هممت بشرب الماء من عطشي إلا رأيتُ خيالاً منك في المائي
النار أبردُ من ثلجٍ على كبدِي والسيف ألينُ بي من هجر مولائي
قال النصر آبادي: طلب العذر في العشق من نقصان العشق، وإنما العشق الحقيقي ما
غلب على صاحبه وألهاه عن الاشتغال إلا بمحبوبه.
وقال بعضهم: لمتني فيه بغيتني لصرعتني.
وأنشد:

وكنْتُ إذا ما حدَّثَ الناسَ بالهوى ضحكْتُ وهم يبكون من حَسراتِ
فصرتُ إلى ما قِيلَ هذا مُتَمِّمٌ تلقيتهم بالسُّنُوحِ والعَبَرَاتِ
فلما رأت زليخا عذر النسوة أرادت أن تعرفهن طهارة يوسف عليه السلام فقالت: ﴿وَلَقَدْ
رَأَوْتُهُ رَءً عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ﴾ أي: هو مقدّسٌ عن جميع التهم، وباطنه أحسن من ظاهره؛
لأنَّ باطنه مطهر عن دنس الشهوة، وعلة البشرية، ومراودة النسوة والفحشاء، معصوم بأنوار
النبوة والرسالة، وأرادت بذلك أن يرينه أكبر مما يرينه، ثم قالت: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ
لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾: خوف يوسف عليه السلام من البلاء، وكيف يخاف من يكون في
رؤية المبلي، مؤيداً بعناية أزلية، معصوماً عن معصية، وقولها في ذلك من استغراقها في الحب
والعشق.

وقال بعضهم: ما كان يلحق يوسف عليه السلام من السجن والمحبة، إنما كان من ترادف
البلاء على زليخا، وهيجان المحبة به.
فربما كان نصيب يوسف عليه السلام من أطراف بلائه شيئاً بالسجن والهَم، وغير ذلك وهذا
من تمام المحبة وشدة البلاء:

أن أشارك المحبوب محبة في بلائه وأنشدت ليلي صاحبة مجنون
لم يكن المجنون في حاله إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى وإنني قد قدمتُ كثنائنا
فلما رأى يوسف عليه السلام تملقهن ومكرهن واحتياهن في دعائهن يوسف عليه السلام إلى طاعة
زليخا التجأ إلى الله، وتضرع بين يديه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: يا رب البلاء أحبُّ إليَّ من لذة الوقت،
وشهوة النفس التي تحتجيني عنك، وعن شهوة الروحاني، ورؤية آثار الربوبية.
وأيضاً: السجن أحبُّ إليَّ؛ لأن في السجن مقام الأُنس، والخلوة، والمناجات، والمداناة،

والمشاهدات، والمواصلات، وإني أختار رضاك وأوثر مرادك على حظ نفسي.
وفيه إشارة لطيفة: أي: السجن أحبُّ إليَّ إذا كنت محبوسًا لزليخا حتى يزيد عشقها على عشقها، ويكون عشقها عشقًا روحانيًا، وعشقًا رحانيًا، وتحترق بنيران عشقها علل الإنسانية، وشهوة البشرية، وإلا تصرف عني بعصمتك القديمة كيدهن في إظهار حسنهن أو جمالهن، وزينتهن عليَّ، وتميل نفسي إليهن، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(١): من المؤثرين حظوظ أنفسهم على حظ مشاهدتك وقربتك.

وأيضًا: من الجاهلين بأنفسهم.
وأيضًا: من الجاهلين بقدرتك على عقوبة الأسرار وضرب الحجاب بينها وبين الأنوار.
قال الواسطي: منعك إياي عنهن بنزع القدرة عني أحبُّ إلى مما يدعونني إليه من طلب الحظوظ.

قال بعضهم: توهم يوسف عليه السلام أن السجن ينجيه من الفتنة، فأوقعه في الفتنة الكبرى، حتى قال لصاحب السجن: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

قال ابن عطاء: السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني من الزنا، فالاختيار أفسد عليه أمره لعلمه لو ترك الاختيار لكان معصومًا من غير امتحان بالسجن، كما كان معصومًا في وقت المراودة.

وقال الجنيد: لما جاء بالافتقار لا بالمسألة في صرف كيد الباغين عنه، وأشفق من دخول الصبوة عليه التي لا مدفع إلا بتأييد العصمة، فأسعده الإجابة، ومنع كيد الشيطان وتسلمته، وأخرجه من البلاء بقبول حسن ما تقدم من الوعيد.

قيل: إن يدخل فيه ويمثل هذا يتعزى أهل المعرفة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾: أي: ممن يعفو عمن ظلمه.

وأيضًا: أي: من المشاهدين الملكوت، والمكاشفين لهم أنوار الجبروت.

وأيضًا: أي: من العالمين بحل مشكلات الغيوب، وعجائب القلوب.

وأيضًا: من العارفين ب دقائق الأحوال، وحقائق الإجمال.

قال ابن عطاء: من المائلين إلى الفقراء بالإحسان إليهم، والقعود معهم والأنس بهم.

وقال أبو بكر بن طاهر: إنا نراك من المحسنين، لا ترد عذر معتذر.

وقال بعضهم: إنا نراك من المحسنين إلى من أساء إليك، وهو من شرائط الإيمان.

(١) أي: من السفهاء بارتكاب ما يدعونني إليه، فإن الحكيم لا يفعل ما هو قبيح. أو من الذين لا يعملون بما يعلمون، فإنهم جهال، وكلامه هذا: تضرع إلى الله تعالى، واستغاثة به. البحر المديد (٣/١٠٦).

وقال بعضهم: أي: العالمين بعلم الرؤيا.

وقال أبو بكر الورّاق: الراجعين إلى الله في النوائب والمحن.

وقال يوسف بن الحسين: التاركين حظك لحظوظ إخوانك.

وقال الجنيد: العارفين حقائق الأمور.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: أخبر سبحانه عن

كمال التوحيد يوسف عليه السلام، وتمكينه أسوة بآبائه من الأنبياء والرسل.

ومعنى قوله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي﴾ أي: أسألك طريق ما سلكوا إلى الله شوقاً إلى

وصاله، وعشقاً لجماله بأسرار نورانيه، وأرواح ملكوتية، وقلوب ربانية، ونيات صادقة،

وأنفاس مقدسة، ونفوس طاهرة، وحقول عالمة بأحكام إلهامه، وأسرار خطابه، وأعلام

ربوبيته، وآثار عبوديته.

انظر كيف أحسن الأدب؛ حيث ذكر الخليل عليه السلام أولاً، وذكر إسحاق عليه السلام ثانياً، ثم ذكر

يعقوب عليه السلام؛ احتراماً وإكراماً لهم: أي: اتبعت الخليل عليه السلام في الخلّة، والمحبة، والحلم،

والسخاء، وإكرام الضيف، والرضا بالمقدور، والتسليم في الأمر، والحرقة، والهيجان والبكاء،

والتلوة، وإفراد القدم عن الحدوث، حيث قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]،

والصدق واليقين، وطلب مشاهدة الحق في الآيات، وهو مقلّم الالتباس، بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي

كَيْفَ تُخَيِّ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والإسلام، والانقياد، والخليفة السهلة، واتبعت ملة

إسحاق عليه السلام؛ حيث ألقى نفسه لأمر الله، وذبحه على باب ربوبيته، وقربان النفس عند سراق

مجده، والانقياد عند أمر أبيه؛ حيث فعل بأمر الله ما فعل، واتبعت ملة يعقوب عليه السلام بالصبر

الجميل، والحزن الطويل، والبكاء على الدوام، وتحمل البلاء على التمرمد.

وافهم أن المتابعة وصف الخاصين من المريدين، ومن لم يتأدب بآداب أهل الطريقة

والحقيقة لم يبلغ إلى درجات القوم.

ثم بيّن سبحانه قول يوسف عليه السلام أن ملة آبائه إفراد القدم عن الحدوث، وتجريد

التوحيد، وتطهير الإدراك عن الإشراك بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾:

أي: لا ألفت في طريق محبته إلى غيره.

ثم بين أن ذلك خارج عن اكتساب البشر، بل متعلق بسابق اختيار الله لهم واصطفائيته

هم في الأزل بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾: أي: ما ذكرت من شئائهم، وما وهبني

الله من علم الغيب والحسن، والجمال من فضل الله على وعلى آبائي، ﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾: أي:

نحن فضل الله على الناس؛ حيث أظهر شمائل جلاله منا.

﴿وَلَيْكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾: لا يشكرون الله فيما أظهر لهم منا من دين الحقيقة، وأنوار الأزلية، وحسنه الأبدي.

قال أبو عثمان: إصلاح القلب والسر بمتابعة الصالحين، واعتقاد تعظيم الأبرار من جميع العباد.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

قال أبو عثمان المغربي: أسلم الطرق من الاغترار طريق الاقتداء والتقليد؛ لأنها طريق الأئمة الصالحين.

قال الله: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

وقال الواسطي: رؤية الفضل حسن، ورؤية الفضل أحسن، ورؤية الفضل حسن، والفناء عن رؤيته أحسن.

وقال أبو علي الجوزجاني: أحسن الناس حالاً من رأى نفسه تحت ظل الفضل والمنّة والنعمة، لا تحت ظل عمله وسعيه.

ثم إن يوسف عليه السلام عرّف أهل السجن مكانته في التوحيد والرسالة، ودعاهم إلى ملة آبائه بقوله: ﴿يَتَصَنِّجِي السِّجْنَ ءَأَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أعلمهم أن العدد والانقسام صفة الحدّثان؛ لا صفة الرحمن، وإنّ الرحمن واحدٌ منزّه عن الانقسام، وإذا كان منزّهاً عن العلة، يكون وصفه في ربوبيته القهر على عباده وخلقه؛ بأنه جعلهم تحت إمرته وعبادته، عاجزين عن العناد عن خدمته.

ثم بيّن أن معرفة الواحد القهار وعبادته، والإعراض عن الأغيار دينه المستقيم بقوله: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُقِيمُ وَلَيْكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعرفون أن الحادث لا يكون قديماً، وأن القديم لا شريك له في عبودية عباده وربوبية أزليته في نصب أعلام آياته وشواهد مملكته.

قال أبو عثمان المغربي: قد يكشف للإنسان حال غيره، ويستر عليه حال نفسه.

ألا ترى إلى يوسف عليه السلام قال لصاحب السجن: ﴿ءَأَرْيَاكَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ﴾، ثم قال في ثاني الحال: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

وحكي: أن رجلاً قال للفضيل بن عياض: عظمي، فقال: أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار؟

قوله تعالى: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾: إِنَّ الله سبحانه وصف مكان امتحان صديقه يوسف عليه السلام؛ حيث أغان قلبه عين قهر نكرته حتى وقع في بحر النكرة، وامتنع عنه بوصف المعرفة، فلما احتجب عن مطالعة جلال القدم بامتناع القدم بقي في رسم الطبيعة، وعالم الصورة فسلك سبيل الأسباب، وكان ذلك أقل من لمحة، فلما طلعت على قلبه أنوار انقدم، وأدركه فيض الكرم على مكان الامتحان، وعرف كيد الشيطان، فرجع عن ذكر الإنسان إلى ساحة الرحمن: وإذا أراد الله بالعبد العارف زيادة معرفته وقربته أوقعه لحظة في الغفلة عن الذكر، ثم بدا لقلبه نور التجلي، فيندم عن نسيانه ويسرع قلبه في طلب مزيد عرفانه، فيكون أقوى في طلب الحق من الأول، كانت غفلته عن الذكر تورث زيادة الذكر، ومن كان أقرب إلى الله فهو أخذته في زلته أسرع، وبلاؤه أوفر.

ألا ترى كيف جازاه بغفلة لحظة لبثه في السجن بضع سنين، ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، وإن الله سبحانه أراد من لبث يوسف عليه السلام في السجن كمال تربيته في الخلوة، وبلوغه إلى أخص درجة الأنس بالله، وزيادة القوة في الوجد، وتمكينه في الصحو، ألا ترى إلى النبي ﷺ كيف تحنث في غار حراء، وآنسه في الخلوة في أوائل النبوة.

ويحتمل أن قوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: عرفني له طريقي مع الله حتى يعرفني أني رسول الله، ويطيعني في طاعة الله، وينجو بذلك من عذابه، ويصل إلى ثوابه، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويوحد الله سبحانه، ويخلص من كيد الشيطان، ومن تابعه من الإنسان.

وقوله: ﴿فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾: إن يوسف عليه السلام لم يعلم وقت إيمان الملك، ولم يأت وقت دخوله في الإسلام: ﴿فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ في سابق حكمه على تقدير وقت إيمان الملك، فلبث في السجن إلى وقت إيمان الملك، فنسيان يوسف عليه السلام احتجابه عن النظر إلى مقادير السابق، والله أعلم وأحكم.

قال الواسطي: احذروا أصول النفوس؛ لتلا يكشف لكم عن مواضع العجز، ألا ترى يوسف عليه السلام كيف قال: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(١).

(١) قال التستري (١/ ٢٣٥): حكى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن، فقال له جبريل: يا طاهر ابن طاهر، إن الله تعالى أكرمني بك وبآبائك، وهو يقول لك: يا يوسف، أما استحييت مني حيث استشفعت إلى غيري، فوعزتي لألبثك بضع سنين قال: يا جبريل، هو عني راض؟ قال: نعم، قال: إذن لا أبالي.

وقال بعضهم: اذكرني عند ربك ليعلم أنه ليس إليه من الضر والنفع شيء، وإنه مدبر، وإن الأمور كلها إلى الله؛ لئلا يعتمد على غير الله، ولا يسكن إلى أحد سواه، يدل عليه قوله: ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، حين قال لصاحبه: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

وقال النصرآبادي: قدّم على ذكره ذكر الذي ذكر عنده، فأنساه الشيطان ذكر ربه حين قال لصاحبه في السجن: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

وقال بعضهم: أخذ الأنبياء بمثاقيل الذر لمكانتهم عنده، وتجاوز عن سائر الخلق لقلة مبالاته بهم في إضعاف ما أتوا به من سوء الأدب.

ألا تراه كيف يقول ليوسف عليه السلام بقوله: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وجرى على سري أن الشيطان أنساه ذكر ربه؛ لا ربه أنساه الذكر، ولا أنساه المذكور، وكيف أنساه المذكور وشره مشاهد وجوده في جميع أنفاسه، فذكره هاهنا محل التوكل والرضا، وليس من سقط عن درجة التوكل، سقط عن رؤية الله، فإنَّ التوكل من أسباب المقامات، والعارف يسري في الحالات، وليس أنه محجوبٌ عن حقيقة التوكل؛ فإنَّ حقيقة التوكل العلم بوحداية الله، وغلبة قهره على كل ذرة، وحاشا الأنبياء محجوبون عن ذلك أبداً.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾: سماه الصديق في دعواه علم الغيب، ومكاشفته، وعلم بأنبائه العجيبة، صادق في مكاشفة الذي استقام الصديقية فيه، وذلك تتابع أنوار الإيقان والعرفان بعد كشف أنوار التجلّي في قلبه، ووصف هذا استواء الحال، واستقامة الأعمال.

قال أبو حفص: الصديق الذي لا يتغير عليه باطن أمره من ظاهره.

قال بعضهم: الصديق هو الصادق قولاً وفعلاً وعزماً وزينةً وعقداً.

وقال بعضهم: الصديق الذي لا يخالف قوله فعله، ولا حاله عمله.

قال ابن الفرحي: الصديق كأبي بكر رضي الله عنه الذي يبذل الكونين في رؤية الحق؛ لما قال النبي

ﷺ: «ما أبقيت لنفسك؟ قال الله ورسوله»^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾:

أخبر الله سبحانه أن يوسف عليه السلام لما دُعي من السجن لم يبادر سريعاً إلى الخروج حتى يفحص شأن النسوة، وزليخا حين قالت لسيدها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا؟﴾ بقوله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾.

(١) رواه البيهقي في الشعب (١٠٦/٢).

انظر كيف كان أدبه عليه السلام حيث لم يذكر زليخا، وذكر النسوة، وغرضه في ذلك زليخا، ولكن أخرج نفسه من محل التهمة باللفظ والرمز فيه، كأنه قال للرسول: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ في وجهي، واستغراقهن في حبي، كأنه تكلم من ألم سره من آلام سرهن، وفيه ما فيه من لطائف الإشارات، وغرضه من تفحص إثبات الحجة على قومه، وبيان طهارته من علة الزنا حتى لا يشوش اعتقادهم في شأن نبوته ورسالته؛ لأنه ينظر إلى الخلق وجاههم، فإنه كان في محل التمكين من التوكل والرضا؛ فقله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: مظنة هذه المعاني لم أخنه في غيبته بنظر السوء إلى أهله.

وأيضاً: لم أخنه في غيب خاطري بميل سري إلى غير الله، وكيف أحزن، وهو تعالى لا يهدي الخائن إلى مراده؛ لأن من خان لا يظفر بما يريد، ولا يهدي من طبعه الخيانة إلى محبته ومعرفته ومشاهدته.

قال ابن عطاء: لم أخونه فيما يتمني من الأهل والمال.

وقال سهل: لم أنقص له عهداً ولم أكشف له سراً.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: بيان الشكر لما عصمت الله،

ولما قال: إِنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ عارضه لسان الحق في السر فيما هم بقوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِمْ وَهَمَّ بِهَا﴾.

وقال أهل التفسير: لما قال يوسف عليه السلام هذه المقالة قال له جبريل عليه السلام: ولا حين همت بها؛ فلما سمع يوسف عليه السلام أصوات الغيب بتغيير سره أدرك ما فاتته من غيبته عن مراعاته النفس، ولزم لسانها بالدعاوي واعتذر بقوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾، مقالة الأولى من يوسف عليه السلام خبر عن بدايته في وقوعه في البلاء، وهناك جبلة النبوة المقدسة عن التهمة، وما جرت في البين هو لطيفة الله من قهره وامتحانه، وغلبه قدره السابق على رسوم الأمر، وما ذكر في العذر خبر من تلك اللطيفة.

وافهم: إن سرّ قوله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾، إن هذه النفس ليست لشيطان، ولا قلب، ولا ملك، ولا عقل، ولا شيء له عين يتبين لأحد، فبعضهم يسمي النفس الهوى، وبعضهم يسمي النفس الطبيعة والبشرية، وميلها إلى الشهوة يسمي النفس، وهذه الأقوال هي صورة رسوم العلم وحقيقتها، والله أعلم.

إنما هي وجود قهر القدم يظهر فغلبته في الفعل، ويجرك طباع الإنسانية المستعدة المخلوقة لقبول ما يصدر من القهريات مما يؤول أواخره إلى سخط الله، وامتحانه، وحجابه،

فالقوم حكموا بما صدر من القهر أنه نفس، وأنا أرجع إلى الأصل؛ لأنَّ القهر صفةٌ دائمةٌ أزليةٌ محرّكةٌ طباع البشر إلى طلب الشهوات، ولا يطيق أحدٌ أن يخرج من تحته إلا بلطف الله بقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾؛ لأنَّه صفةٌ غالبيةٌ على جميع الذرات، وهو صفة الله سبحانه، وهو نفس النفس؛ لأنَّ ذاته تعالى موصوفٌ بصفة القهر، وإنَّ قهره حار جميع الحدثان تحت غلبته، ومن يدَّعي أن يبعد نفسه من سلطان قهره بقوله: ﴿وَمَا أُبْرِي نَفْسِي﴾: أي: ما أبرئ نفسي من غلبه قهر الله عليها، وأنها مقهورة بين يديه.

وأيضاً: ما أبرئ نفس النفس عن القهر والغلبة، فإن نفس النفس أمارةٌ إلى ما يقتضي القهر، وما يقتضي القهر يقتضي الامتحان، وما يقتضي الامتحان يقتضي الملامة في رسوم العلم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾: أي: إلا من عصمه الحق بلطفه عن قهره، وأشار بهذا إلى وجوده حين عصمت بلطفه عن قهره.

وقوله: ﴿وَمَا أُبْرِي نَفْسِي﴾: إثبات ما جرى من الهمة: أي: ﴿وَمَا أُبْرِي نَفْسِي﴾ من الهمة التي همت بها، وهذا محل من عرف سرَّ القهر، وسرَّ الخطاب، وسرَّ الامتحان، وسرَّ النفس، وغلبة الربوبية بقوله ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»^(١).

ولما عرف حقائق النفس ﷺ استعاذ منها إلى الأصل، وقال: «أعوذُ برضاك من سخطك، وأعوذُ بمعافاتك من عقوبتك»^(٢)، وأعلمنا ﷺ أنه تعالى نفس النفوس بقوله: «أعوذُ بك منك»^(٣).

ومن أراد أن تبرأ نفسه فقد نازع الربوبية، فإنَّ النفس أصل القدر السابق على ما جرى من البلاء والامتحان.

ألا ترى إلى قول الواسطي كيف قال: من لام نفسه؛ فقد أشرك.

وقال أيضاً: رؤية التقصير من النفس شرك؛ لأن من لاحظ نفساً من نفسه؛ فقد جحد الأزلية للحق، ومن لام نفسه في شيء من أموره فقد أشرك؛ لأنَّه أضاف إلى نفسه ما لم يكن منه قط.

قال ابن عطاء: وما أبرئ نفسي بنفسي إنما أبرئ نفسي بربي.

قال أبو حفص: مَنْ لم يتهم نفسه على دوام الأوقات، ولم يخالفها في جميع الأحوال، ولم

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٠٨/١٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

يجرها إلى مكروهاها ومخالفتها في سائر أيامه كان مغرورًا، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، وكيف يصح لعاقل رضي نفسه، والكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يقول: ﴿وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ﴾: تحملك على الطاعة وتضممر فيها شرًا.

وقال سهل: خلق الله النفس وجعل طبعها الجهل، وجعل الهوى أقرب الأشياء منها، وجعل الهوى الباب الذي منه هلاك الخلق.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ﴾: هي نفس الروح، والروح هو نفس الجسد.

وقال سهل: النفس الأمارة هي الشهوة، والنفس المطمئنة هي نفس المعرفة.

وقال أبو حفص: النفس ظلمة كلها، وسراجها سرها، ونور سراجها التوفيق، فمن لم يصحبه توفيق في سره من ربه كانت ظلمة كلها.

وقال سهل: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوْءِ﴾ موضع الطبع، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ موضع العصمة.

وقال الواسطي: النفس ظلمة، وسراجها سرها، فمن يكن له فهم في ظلمة أبدًا.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ﴾: بيان العذر لما قصّر في أمر الله، فاستوجب واستحق بعذره العفو والغفران، فلما ثبت الحجة والسلطان، وظهر قدسه وطهارته من علل الشيطان طمع الملك في أن يراه ويعظمه بقوله: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤَنِّبُنِيْ مِنْ أَنْتَخِلَصْتُهُ لِنَفْسِيْ﴾ أي: أستخلصه لموعظة نفسي ليعرفني طريق نجاة نفسي من عذاب الله. وأيضا: أستخلصه بخالص محبتي له ليعرف خالص محبة الله، وخصائص صفة ربوبيته.

وأیضا: أستخلصه لنفسي حتى أفش عنده ما في نفسي من أسراري.

قال ابن عطاء: كيف يستخلصه لنفسه وقد استخلصه الحق من قبل فهو لديه من المخلصين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾: أخبره عما في ضمائره من أسرار الغيب، وما في غيب الغيب، وما يتعلق، وما في حياة القلوب، وما كان من وصف الله وصف الطريق إليه بلسان فصيح، ووجه صبيح الذي يبرز نور الحق منه للعالمين: ﴿قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أي: أنت بما تخبر من الحق وأسراره متمكن أمين فيما أودع الله في سرّك من النبوة والرسالة

والولاية؛ حيث يشهد بصدقك جمالك وجلالك، فإن معنى الباطن يظهر من ظاهرك، أنت عندنا ذا مكانة وذا أمانة، فاحكم بنا ما شئت، فإني لا أؤثر على أمرك شيئاً.

قال بعضهم: أي شاهد صدق يخبر عن صدق، فغلبه عز الصدق، ورؤية صديقه، فقال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾.

وقال الشبلي: فلما كلمه أخبر يوسف عليه السلام عما في قلبه من كوامن سره، فقال: إنك متمكن في نفسك أمين؛ حيث اطلعت على الأسرار، فلما رأى الملك آيات الله في بلاد الله وعباده آمن بيوسف عليه السلام أجله وأكرمه وأعزه، واختاره على جميع الخلق، فعلم يوسف عليه السلام أن ما عرفه الملك في جنب ما لم يعرفه منه أقل القليل، فأظهر ما وهبه الله له من علمه بالله وبطريقه، وحفظ حدره في شريعته وشفقته على خلقه، فقال: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾: أخبر الله يوسف عليه السلام الملك أيضاً عن مقام تمكينه، وقدرته بالتصرف في الملك الدنيا؛ ألا يتحجب في تصرفها عن مشاهدة الله وملك الآخرة، وليس كل من ينصرف في الدنيا متمكن إلا من كان على وصف يوسف عليه السلام، ووصف يوسف عليه السلام حفظ الأنفاس بالذكر، وحفظ القلب بالفكر، حفظ أنفاسه عن الوسواس، وحفظ قلبه وفكره عن ذكر غير الله، عليم بذات الله وصفاته وآياته وعبادته.

وأيضاً: إني حفيظ بنور تفرس نبوتي ما يقع من أمور المقادير عليهم بعلم الله ما يجري في القلوب من الغيوب، وخزائن الأرض في الإشارة قلوب الرياضين من الأولياء والصديقين.

قال الواسطي: مدح النفس قبيح في الشاهد إلا في وقت الإذن فيه، وله حين وأوان، ألا ترى يوسف عليه السلام كيف قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

وقال بعضهم: خزائن الأرض رجالها.

فقال: اجعلني عليهم أميناً، فإني حفيظ لما يظهره، مكشوف لي ما يضمرونه، وكذلك الأنبياء صلوات الله عليهم.

وقال أبو سعيد الخزاز: إن لله عبادة يدخل عليهم الخلل، ولولا ذاك فسدوا وتعطلوا، وذاك أنهم بلغوا من العلم غاية صاروا إلى علم المجهول الذي لم ينصه كتاب، ولا جاء به خبر، لكن العقلاء العارفون يحتجبون له من الكتاب والسنة، وذلك بحسن استنباطهم،

(١) لأن الحفظ والعلم كان محتاجاً إليهما إما الحفظ، فلأجل ما في خزانة الملك وإما العلم فلمعرفة ضبط الدخل والخروج، تفسير حقي (١٠ / ١٣٩).

وفهمهم، وهو كقول يوسف: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾.

ثم بيّن سبحانه تمكين يوسف عليه السلام ومكانته واستقلاله بنفسه في مقام الرسالة والنبوة بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾: الإشارة فيه ملك بحسنه وجماله ولطفه وكماله أرض قلوب الخلق محبة وهيبة، تجلس محبته حيث شاءت في صميم فؤاد الناس، بقوله: ﴿يَتَّبِعُوا مِنهَا هَيْثُ يَشَاءُ﴾، أضاف مكانة يوسف عليه السلام إلى نفسه، لا إلى سبب من أسباب الحدثان، وذلك إشارة إلى سبق العناية له بالرسالة، وكسائه كسوة جماله وجلاله.

ثم بيّن أن ذلك رحمته الأزلية التي خص بها من يشاء من عباده: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ﴾: رحمته كشف مشاهدته للأنبياء الأولياء، وتعريف نفسه بكشف الصفات لهم إياهم حتى عرفوه به، وسهل عليهم طريق عرفانه حيث رفع بينه وبينهم علل المجاهدات والرياضات.

وذلك منه عظمة، ورحمة كافية إذ كشف عِزَّةَ السَّرْمَدِيَّةِ للآدميين، وما مال بأنهم لا يستحقون شهودهم مشاهدته، وأنى لهم مع حدوديتهم البقاء مع القديم الأزلي الأبدي، ويتلاشى الأكوان والحدثان في الأول بديهة سطوات عزته وظهور مجد جلاله، ولكن تجاوز عنهم وعن حدوديتهم برحمته، وأراهم ما لم يكن لغيرهم من المكرويين والروحانيين؛ لأنه تعالى اختارهم في الأزل لنفسه ولوصاله، وكشف جماله، ووضع أسرارهم في قلوبهم، أي: بلوغ يوسف عليه السلام إلى هذه المراتب السنية الرفيعة، ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ بعنايتنا وكرمنا.

هذا مكان العناية التي انقطع عندها الأسباب، ثم بيّن أنه مع جلاله ولطفه لا يضيع أجر العاملين الذين سلكوا سبيل الأعمال؛ فيصلوا إلى درجة الأحوال بقوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أجر أهل الإحسان كشف الجمال مشاهدة الرحمن، وإحسانهم طلب طلوع صبح الأزل من مشارق الأبد بعيون الأرواح، ودوران بصائر الأسرار. ألا ترى إلى قوله عليه السلام في جوابه السائل عن الإحسان، قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك»^(١).

فإحسان يوسف عليه السلام مراقبة الله في بلائه، وذلك الإحسان والمراقبة من عصمة الله ورحمته؛ لأن العصمة مقرونة بالاصطفائية، وكيف كان معصوماً من لم يسبق له الاصطفائية في الأزل، وأيضاً إحسان يوسف عليه السلام العفو والكرم للخاطئين، وتعريف الله بوصفه وصفاته إلى عباده ليحبوه ويطيعوه، وأيضاً إحسان يوسف عليه السلام كشف جماله لأهل البلاء والقحط حتى

(١) رواه البخاري (٤٤٠٤)، ومسلم (٩).

عاشوا بالنظر إلى وجهه.

قال الواسطي في قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾: مَنْ لم يفصل بين أول هذه الآية وآخرها التبت عليه آيات القرآن، وأشكلت أوله للعلماء وآخره للجهال به.
 ألا ترى إلى قوله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فبرحمته استوجب اسم الإحسان، وبرحمته عرف الهداية والبيان، وبرحمته أشار إلى غوامض القرآن، قال الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾.

وقال ابن عطاء: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ بفضلنا يهدي من يشاء إلى سبيل المعرفة.
 وقال بعضهم: المحسن من يرى جميع ما يجري عليه من الإحسان منه من الحق عليه.
 ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿١٧﴾ قَالُوا سَتَرُوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانَا نَحْمَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ نكرة الإخوة كانت في رؤية يوسف عليه السلام من سبب اختفاء تجلي الحق عن عيونهم في وجه يوسف؛ فلا يرونه ولا يرون ذلك النور والتجلي، كما رأوه قبل الجناية، فغطى الله عيونهم بنكرة الجفاء عن رؤية تلك الأنوار، فلما لم يروا ذلك جهلوه.

قال بعضهم: جهلوه لما تقدم من جفوتهم له؛ فأحوجهم الله إليه.

وقال الأستاذ: يقال: لما جفوه صار جفاؤهم حجاباً بينهم وبين معرفتهم إياه، كذلك المعاصي بخطابه وزلته يقع غيره على وجه معرفته.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي: يوسف عليه السلام في قلب يعقوب عليه السلام بعض التفاته إلى الوسائط، وأراد أن يصل الشيخ إلى أفراد القدم عن الحدوث بشرط تجريد سره عن الحدثان في جمال الرحمن من شفقتة على يعقوب عليه السلام لتخرجه بالتلطف عن الكون حتى لا يبقى في ساحة الكبرياء خيار الحدوث؛ فتلطف في سلب بنيامين عنه.

وذلك من علمه بغيره الله سبحانه على يعقوب عليه السلام حيث رفع محبوبه من بينه؛ فخاف

عليه أن يهلك بنيامين بين يديه ويزيد داؤه على دائه، ولولا ذلك لما قال: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾ بأن ليس من دأب الفتیان طلب العرض بالإحسان، والإشارة فيه أن من لم يأت في طريق محبة الله بالوفاء على عهد المعرفة ضاقت عليه طرق وصاله.

قال بعضهم: من خالف مراد سيده فيه ضيق الله عليه رزقه وحرمه مقام القربة بحال وأصل ذلك قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ﴾ الآية.

وقال الأستاذ: المحبة لما كان غيور ليعقوب عليه السلام ليسلي عن يوسف عليه السلام برؤية بنيامين أبت المحبة إلا أن يظهر سلطانها بالكمال؛ فغارت على بنيامين أن ينظر إليه يعقوب عليه السلام بعين يوسف عليه السلام.

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنْتُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا ءَامَنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَزْهَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَزْهَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ رأى يعقوب عليه السلام في مرآة البلاء أن بنيامين يعتزل عنه بغير اختياره؛ فرجع من الأسباب إلى مسبب الأسباب، وطلب منه الحفظ والعناية والرعاية لا من الخلق، والإشارة في قوله: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ أي: من حفظه أن يرد عليه يوسف عليه السلام من بنيامين، أي: هو تعالى يحفظهما جميعاً، وذلك قوله: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾، ومعنى قوله: ﴿وَهُوَ أَزْهَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ برحمته أن يشفني ربح يوسف عليه السلام، ويقر عيني بالنظر إلى وجهه، ثم بعد ذلك يتجاوز عن التفاني في محبته إلى غيره ويريني جماله وجلاله تعالى.

قال بعضهم: قال يعقوب عليه السلام: جربت حفظكم في واحد حين قلتم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ اعتمدت عليكم في يوسف عليه السلام، ولم أرجع فيه وفي حفظه إلى الله؛ فلقيت فيه ما لقيت، وإني في هذا أرجع إلى ربي ألا أعتمد حفظكم له ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا﴾ لما استحفظه ربه رد عليه الأول والثاني.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ ۖ بِضَئَعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَئَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ قيل: متاعهم ظاهر الكرم، ورد إليهم باطناً لثلا يشق عليهم أثقال المنة ما وجدوا ليوسف عليه السلام لمتاعهم في خزائنه موضعاً لا يليق إلا بالفقراء والمساكين؛ فرد إليهم لثلا يزاحم بغناه على الفقراء

بالمؤاكلة معهم، وأنى يفعل الغني ببال الفقراء لم ير نفسه أهلاً في ملكه أن يأكل طعام الفقراء، وفيه ما فيه من الإشارة إلى أن ما وجد الأولون والآخرين من معرفة الله وتوحيده ومحبه وعبوديته في جنب ما يجدون منه يوم الكشف الأعظم أقل من كل شيء؛ فيرد بكبريائه ما يليق بالحدثان على الحدثان، لأنه تعالى بقدمه وجلاله منزّه عن أن يدركه أحد من خلقه، وأن يطلع على أسرار ذاته وصفاته أحد من عباده يرد متاع العبودية على الخلق؛ لأنها لا يليق بربوبيته فيغنيهم بما له عما لهم.

ألا ترى إلى قوله الطه: «لن ينج أحد منكم عمله»، قالوا: يا رسول الله، ولا أنت؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل»^(١).

قال بعضهم: إن أعمال الخلق كلها مردودة عليهم؛ فإنهم إنما عملوها بأنفسهم، قال تعالى: «وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ» وأن الذي يلحقهم من الكرامات من جهة التفضل لا من جهة الجزاء.

«قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ آلِهَةٍ لَتَأْتُنِي بِيَمٍ إِلَّا أَنْ يُخَاطَبَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» ٣٥ وقال يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ٣٦ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضْنَهَا وَإِنَّهُ لَفُزِعِلْمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٧».

قوله تعالى: «فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» رأى يعقوب عليه السلام نية بنيه صادقة في شأن بنيامين بأنهم يتحفظونه، ويأتون به إلى يعقوب عليه السلام، ورأى يعقوب عليه السلام بنور النبوة ما يقع في المستقبل؛ فتعرف عجزهم عن دفع القدر؛ فقال الله: «عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» أي: ليس على مرادي ومرادكم بل يفعل كما يريد، وهو قادر بحفظه وإرجاعه إليّ.

قال بعضهم: ما اعتمد منهم الميثاق لما سبق منهم إليه قبل ذلك؛ فعلم أن موثيقهم وحفظهم معلولة فقال: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا»، وقال: «اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ» هو الذي يحفظ قلوبكم، ولا يحلكم إلى آراءكم وأهوائكم، ثم عرفهم أسباب العلم والعقل، واستعمالها لتوقعه أن تتجاوز الأقدار عنهم بناقض من الحق، من قدر سبق الأقدار.

(١) رواه البخاري (٢٨١٦)، ومسلم (٥٣٤٩).

ألا ترى إلى قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط﴾ يراقب من إثبات القدر ومحوه؛ فقال الله تعالى: ﴿يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ خاف من عين غيرة القدم على مقدور القدم؛ فينتظر عليه سبق الرضا على السخط بقوله سبحانه: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

فاستدرك بعد استعمال العلم صرف التوحيد؛ فقال: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ^ط﴾ أي: تدبيري وعلمي وعقلي وحذري لا تدفع سابق القدر؛ فأرضى بها هو كائن منه تصديق ذلك قوله: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ ما يريد يكون كما أراد، ثم برئ من حوله وقوته بقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وحقيقة التوكل رفع التدبير عند رؤية التقدير.

وفي الآية إشارة كان سر يعقوب عليه السلام أشار إلى بنيه أي: إذا عزمتم بقلوبكم وأرواحكم وعقولكم وأسراركم سلوك سبيل الحق لا تدخلوا فيه بسبيل واحد بل ادخلوا عليه بسبيل الصفات لتعرفوا حقائقها وتعرفوا بحقائقها عين الذات؛ فإن من عرفه بصفة واحدة لم يعرفه بما استحقه من أوصاف القدم وصفات الأزل.

قال جعفر في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾: نسي يعقوب عليه السلام اعتماده على العصبة والقوة، وأن القضاء يغلب التدبير بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾، ثم استدرك عن قريب وساعده التوفيق، وقال: ﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. قال ابن عطاء: كيف يرد عن غيره من لا يرد عن نفسه، وكيف يقوم بكفاية الغير من هو عاجز عن سياسته.

وقال الحسين: صدق التوكل استعمال السبب مع ترك الاختيار قال الله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ...﴾ الآية. وقال الواسطي: التوكل الصبر بطوارق المحن.

قال الأستاذ في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ﴾ يحتمل أن يكون أراد بتفريقهم في الدخول لعل واحداً منهم يقع بصره على يوسف عليه السلام إن لم يره الآخر قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ بين الله سبحانه أن ما أوصى يعقوب عليه السلام لبنيه قهر نظر نوري أبصر به كينونة القدر؛ فاستقبله به لا بنفسه، وكان عالماً بما رأى بأمور استعمال الشريعة والغفل

واسترسال نفسه إلى الحق بنعت الافتقاد والعجز في قدراته وتقديره، وصفه بأنه ذو علم وأن علمه غير مكتسب ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ كان علمه لدنيا بلا واسطة علمه بنفسه كما وصف الخضر عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾.

والعلم اللدني على نوعين الأول: ظاهر الغيب، والثاني: باطن الغيب؛ فظاهر الغيب علم دقائق المعاملات والمقامات والحالات والكرامات والفراسات، وهامنا للعقل والقلب مجال وباطن الغيب على أربعة أقسام:

الأول: علم باطن الأفعال وذلك حكمة المعرفة.

والثاني: علم الصفات وذلك المعرفة الخاصة.

والثالث: علم الذات وذلك التوحيد والتجريد والتفريد.

والرابع: علم أسرار القدم وذلك علم الفناء والبقاء.

وهناك تبرز أنوار الأقدار للأسرار فعند علم بطون الأفعال، وكشف الصفات للروح مجال، وعند علم الذات للسر مجال، وعند علم أسرار القدم لسر السر مجال، أما تولد علم دقائق المعاملات؛ فالصفاء والرقعة، وأما ما تولد علم المقامات؛ فصحة الإرادة ولذة المحبة، وأما تولد علم الحالات؛ فالشوق والعشق، وأما تولد علم الكرامات والفراسات؛ فطمأنينة النفس الأمانة بالذكر وسكون القلب بنور اليقين، وأما تولد علم بطون الأفعال؛ فالخيرة في القدر ومباشرة لطائف الألفة، وأما تولد علم الصفات؛ فالإنس والجن بالجمال والوله في الجلال، وأما تولد علم الذات؛ فالمحو في الأزل والصحو في الأبد، وأما تولد علم أسرار القدم؛ فالوقوف على العلم المجهول والحكمة المجهولة، ويقتضيان ذلك حالتين حالة السكر، وحالة الصحو؛ فالسكر يقتضي لذلك العالم إفشاء السر بلسان العلم المجهول، وذلك غلبة نطق الأزلية والصحو يقتضي الخرس والكتمان عن إفشاء السر، وجميع ما ذكرنا يتعلق بشيئين بالمكاشفة والمشاهدة؛ فإذا بدا للعالم العارف لوائح أرائل الكشوف ولوامع الشهود في المشهود يقف سره على موارد الصفات، وسر سره على موارد الذات؛ فيعرف السر من كل صفة طريقاً خاصاً من الحق إلى الحق، ويذوق طعماً منها غير طعم صفة أخرى في رؤيتها، ويعرف سر السر من رؤية الذات طريقاً من الذات إلى الذات، وذوقاً خاصاً خارجاً عن ذوق الصفات؛ فبقي العالم العارف مع معلومه ومعروفه بخلق الربوبية حتى صار رباناً صمدانياً جلالياً جمالياً أبدياً، قال الله: ﴿كُونُوا رَبَّيِّنِينَ﴾

قال بعضهم: العلوم خمسة علم يصلح لكسب الدنيا، وعلم يصلح لخدمة السلاطين، وعلم يصلح لكسبه الرياء والزينة، وعلم يصلح للعبادة والمجاهدة، وعلم يصلح لكسب

الحرية والانقطاع، وهو أجل العلوم.

وقال يوسف بن الحسين: أجل العلوم ما أخذها العبد من الحق بغير واسطة لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ لكن فيها اغترارات وأخطار.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَهِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِبرَةُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْتُمْ بِهِ لِنُفْسِكَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوا فَمَا جزؤُهُ؟ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿قَالُوا جزؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جزؤُهُ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ خاف يوسف عليه السلام بنيامين من معرفته على قلقه وشوقه إلى يوسف عليه السلام لو أن يعرف يوسف عليه السلام بغتة لهلك؛ فأواه إليه ليعرفه الحال بالتدريج حتى يحتمل أنقال السرور برؤية يوسف عليه السلام، وأيضاً رأى وحشة حيث بقي وحيداً بلا يوسف عليه السلام بين الإخوة فأنسه بقربه؛ وذلك من احتمال بنيامين عذاب الفراق وألم البعد، ولو كانوا كبنيامين لأواهم إليه جميعاً، ولكن الكشف والمشاهدة على قدر ألم المحبة والشوق.

قال الأستاذ: حديث المحبة أقسام اشتاق يعقوب عليه السلام إلى لقاء يوسف عليه السلام؛ فبقي في الأحزان سنين كثيرة، واشتاق يوسف عليه السلام إلى بنيامين؛ فرزق رؤيته في أوجز مدة، هكذا الأمر، فمنهم مرفوق به، ومنهم صاحب بلاء.

ويقال: لئن سجت عين يعقوب بمفارقة بنيامين، فلقد قرَّ عين يوسف بلقائه؛ كذا الأمر لا يغرب الشمس عن قوم إلا تطلع على آخرين؛ فلما ذاق يوسف وبنيامين طعم الوصال بدوام الوصال، وتلطف في أمر بقاءه عنده بما حكى الله سبحانه عنه بقوله: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ﴿٦٦﴾ إن الله سبحانه بفضله ولطفه أجرى على يوسف بعض ما أجرى على إخوته في أخذ بنيامين، ونسب السرقة إليهم جميعاً ليتخفف على الإخوة أثقال الجفوة السالفة منهم على يوسف مادام نسبهم إلى السرقة.

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل يوسف شريكاً مع إخوته في إبلائهم إياهم، حيث أخذ بنيامين عنه، ونسبه إلى السرقة ليكونوا جميعاً في الجرم سواء، ويحتمل أن من كرمه فعل ذلك

لثلاثا ينجلوا فيه بين يديه حيث جعل نفسه معهم شريكاً فيما جرى عليهم وطاب قلب بنيامين برؤية يوسف ووصاله؛ فاحتمل الملامة، وكيف لا يحتمل ذلك وبلاء العالم محموداً بملامة رؤية المعشوق، وكيف يؤثر الملامة؛ فيمن كان في وصال محبوبه.

أَجِدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةً حُبًّا لِذِكْرِكَ فَلْيَلْمَنِي الْيَوْمَ

وفي الآية إشارة لذيفة أن من اصطفاه الله في الأزل بمحبته ومعرفته ومشاهدته، حيث خاطب الأرواح والأشباح، وضع في محمله ضاع ملامة الثقليين.

ألا ترى إلى ما فعل آدم صفيه ﷺ اصطفاه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾ ثم عرض الملامة؛ فحملة بقوله: ﴿فَأَبَيَّتْ أَنْ تَحْمِلَنَّا وَأَشْفَقْنَ مِنَّا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ﴾ ثم هيج شهوته إلى حبة الخنطة حتى أكلها، ونادى عليه بلسان الأزلي: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ﴾ ذلك من غاية حبه له حتى صرفه عن الكون وما فيه ومن فيه إليه، ولولا أن كشف جماله لا يحتمل بلاء الملامة كما فعل يوسف ﷺ ببنيامين آواه إليه وكشف جماله له وخاطبه، ثم نادى عليه بالسرقة لبقية معه، والإشارة في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا الْعِبرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ أي: سرقتم أمانة المعرفة، وحقائق الأخوة بيني وبينكم حين فعلتم ما فعلتم بأبيكم وأخيك.

قال جعفر في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ أضمر يوسف في أمره مناديه إياهم بالسرقة ما كان منهم في قصته مع أبيهم أن فعلكم الذي فعلتم مع أبيكم يشبه فعل السارق. وقيل: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ لعاقون لأبيكم في أمر أخيك؛ حيث أخذتموه منه وختتموه فيه.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: من سرق قلبه عن ربه، نوذي يوم القيامة: ويا سارق، وكل سارق عليه القطع، ومن لم يكن للوصال أهلاً؛ فكل إحسانه ذنوب. قال الأستاذ: احتمل بنيامين ما قيل فيه من السرقة بعد ما بقي مع يوسف.

ويقال: ما نسب إليه من سوء الأفعال هان غلبه في جنب ما وجد من الوصال.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه. وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ قالوا يتأبأ العزير إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه. إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾. قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ إن الله سبحانه إذا خص نبياً أو ولياً بالبسه

صفاته بتدرج الحال، ففي كل حالة له كسائه نورًا من صفته، فمن جملة صفته كيد الأزل ومكر الأبد؛ فكيدي علم كيده قلب يوسف حتى كاد برؤية كيد الله الأزلي؛ فعرفه تعالى أسرار لطيف صنائعه وعظيم حقائق أفعاله وقدرته؛ فمعنى كدنا ليوسف عليه السلام عرفناه مصالح أمور النبوة والولاية بتأثير كشف الذات والصفات.

قال ابن عطاء: أبليناه بأنواع البلاء حتى أوصلناه إلى محل العز والشرف.

وقال جعفر: أظهرنا عليه بركات آباء الصادقين بما عصمناه به في وقت الهم.

وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَتَيْنِ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ بين سبحانه أن مالم يوسف عليه السلام وفعل من الألوهية ورؤية كشف مشاهدة الأزل يختص بدرجة كشف جماله أهل محبته وشوقه، ويرفع درجات عارفيه وموحيديه بحيث عرفهم ذاته وصفاته يرفع درجة الموحدين والعارفين من مقام العبودية إلى مقام الربوبية، بأن يكسيهم أنوار جوده ووجوده؛ ليعلموا من رؤية كل صفة علمًا فوق علم، ومن رؤية الذات علمًا فوق علم الصفات، كما أن ذاته وصفاته لا نهاية لهما، فأيضًا عنومهما لا نهاية لهما؛ فيشرب أطيار أرواح القدسية من بحر قدس قدمه زلال حيوته وعلومه الأزلية الأبدية على مقادير حواصلها؛ فيأتي كل واحد منها من تلك البحار بغريب علم صفاته وجواهر حكم بحار ذاته.

قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِثْقَلَهُمْ﴾ فعلم المريد فوق علم المبتدئ، وعلم المحب فوق علم المريد، وعلم العارف فوق علم المحب، وعلم الموحّد فوق علم العارف، ووراء علومهم علم المجهول لا يأتي به إلا الفاني في ذاته الباقي في صفاته.

قيل في قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَتَيْنِ مَنْ نَشَاءُ﴾ بالعلم والاستقامة، وقيل: بالمكاشفة والمشاهدة، وقيل: بالفِراسة الصادقة، وقيل: بالمعرفة والتوحيد، وقيل: بإجابة الدعاء، وقيل: بمعرفة مكائيد النفس، وقيل: بالعصمة والتوفيق.

وقال الجنيد: بإسقاط الكونين عنه، ورفعته عن الالتفات إلى المقام والأحوال ليكون خالصًا بالعلة.

وقال الحسين: فضيلة أرباب الحقائق إسقاط العظيمنتين، ومحو الملكوت في الحالتين، وإبطال الخيرين، ونفي الشركة في الوقتين الأزل والأبد، والتفرد بالحق بنفي ما سواه، ورؤية الحق والسماع منه، وذلك قوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَتَيْنِ مَنْ نَشَاءُ﴾.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوق كل ذي معرفة عارف إلى أن ينتهي المعرفة إلى المعروف؛ فيسقط الأوصاف ويبقى حقًا محضًا.

وقيل: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ لأن علوم الخلق محدودات معلومات إلى أن

يبلغ العلم إلى عالم السر والخفيات.

وقال ابن الفرجي: العلوم تتقارب على مقدار الطبائع والتعليم إلى أن ترى مَنْ يتلقف العلم من الحق ورزق العلم اللدني؛ فذلك الذي لا عالم فوقه من الخلق.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ فنسبوا السرقة إلى يوسف عليه السلام لكن فرق بين السرقة والسراق؛ فسرق بعضهم قماشة الظاهر ويوسف عليه السلام سرق بنرجس عينه المخمور به وورد خده المصبوغ بصبغ الله قلوب العالمين، لكن شتان بين سارق وسارق صدقوا في نسبة يوسف عليه السلام إلى السرقة، ولكن لم يعرفوا مسروقه لباب الفؤاد بالمحبة وصميم الأسرار بالشوق والعشق والألفة. أنشد الشبلي:

لَهَا فِي طَرْفِهَا لَحَظَاتٌ سَحَرٌ تُمِيتُ بِهَا وَتُحْيِي مَنْ تُرِيدُ
وَتَسْبِي الْعَالَمِينَ بِمَقْلَتِهَا كَأَنَّ الْعَالَمِينَ لَهَا عَبِيدُ

مفهوم خطاب الآية بقوله: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ من قبل أن بقايا النفوس باقية في قلوبهم في حقد الطبيعة بما بدت من أفواههم ظاهر، وانظر إلى تمكن يوسف عليه السلام وأناته، حيث لا يجازيهم، ولا يظهر عليهم الجواب مع علمه بأنه مأخوذ بجزاء قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَسَرِقُونَ﴾، وهكذا شأن المعصومين عن الجرائم يؤذيه الله عند كل فلة من ألسنتهم، ومن حكمة الله سبحانه أنه أعزا يوسف عليه السلام إلى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَسَرِقُونَ﴾ حتى يكون شريكاً لهم فيما بدا منهم له.

وقال الأستاذ: كان بنيامين بريء مما رمي به من السرقة؛ فأنطقهم الله حتى رموا يوسف عليه السلام بالسرقة واحداً بواحد ليعلم العالمون أن الجزاء واجب.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا ظَلَمْنَا مَوْتَ ۖ فَلَمَّا اسْتَيْقَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۖ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۖ وَسُئِلَ الْفَرِيَّةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِمَرُ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ﴾ إشارة الآية من الحق سبحانه ألا نتخذ بمحبته واصطفائيته ومعرفته وخلته وعشقه وشوقه، إلا من أودع

روحه في بدء الأمر أمانته من ودائع أسرار ملكوته وجبروته في غيب الأزل، وأيضاً أي نحن لا نفشي أسرارنا إلا لمن كان في قلبه استعداد قبول معرفتنا، وأيضاً لا يختار لكشف جمالي إلا من كان قلبه في شوق إلى وصالي.

قال بعض الخراسانيين: الإشارة فيه: إنا لا نأخذ من عبادنا أشد أخذاً ممن ادعى فينا أو أخبر عنا بما لم يكن له الإخبار عنه، إلا من مدَّ يده إلى ما لنا وادعاه لنفسه.

وقال أبر عثمان: لا نتخذ من عبادنا ولياً إلا من ائتمناه على ودائعنا؛ فحفظها ولم يخن فيها، ولطيفة الواقعة مثل الحبيب إن الحبيب، ومكر الحبيب للحبيب حتى لا يفارق الحبيب عن الحبيب يتعلل بكل علة حتى يسلب حبيبه، وهيهات من مفارق بين الحبيين في محل الوصال فقال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أن تأخذ مكان حبيبي بديلاً، فليس في مذهب المحبة أخذ بديل الحبيب، وفي معناه أنشدوا:

أبى القلبُ إلا حُبَّ ليلي وبغضت إلي نساء ما هنَّ ذُنُوبُ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ آتَيْنَاكَ سَرَقًا﴾ انظر كيف فعل بإسرائيل عليه السلام سلب منه فاكهتي قلبه، ثم نادى عليهما بالبيع والسرقة والفرقة والعزلة ليزيد عليه بلاؤه في محبته قالوا: ﴿إِنَّ آتَيْنَاكَ سَرَقًا﴾ نسبوه إلى سرقة الصاع، ونادى لسان القدر على أن بنيامين سرق يوسف عليه السلام من بينهم وهموا فيما نسبوا إليه، وسبب ذلك أنهم كانوا في زمان البلاء، ومن كان في زمان بلائه يعرف طريق المخرج، وكل الفعل يكون عليه لاله.

قال جعفر: كيف يجوز هذه اللفظة على نبي ابن نبي، وهذا من مشكلات القرآن، ومثله في قضية داود عليه السلام ﴿خَصَمَانٍ بَغَى بَعْضُنَا﴾، وما كان خصمين وما بغيا، صدق الصادق جعفر عليه السلام: إن في القرآن كثيراً من هذه المتشابهات والمشكلات، ولا يعلم تأويلها إلا الله، والراسخون في العلم، ومما علموا من هاهنا أن الله سبحانه تكلم بالحقيقة والأمثال والعبر والمجاز والخبر والقصص على وفق الواقعة؛ فأخبر من حيث الظاهر عن قصتهم بما قالوا وفعلوا وفي الحقيقة حق ما قال؛ لأن الواقعة لا تخلو من إشارة إلى شيء حقيقي كسرقة يوسف عليه السلام بملاحة وجهه قلوب الخلق، وقولهم في ذلك صدق.

وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ حقيقة؛ لأنهم سرقوا الأمانة والعهد من بينهم وبين أبيهم، وقولهم: ﴿إِنَّ آتَيْنَاكَ سَرَقًا﴾ صدق أسرار يوسف عليه السلام الذي سمع منه في الخلوة والوصال عنهم، حيث ما أخبرهم ذلك السر ووضع الصاع في متاعه كان بتقريره؛ فكلام الله صدق أخبر عن حقيقة وظاهرها مجاز وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾

بالظاهر ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أي: عما بين ابنك من الأسرار التي جرت بينهما في الخلوة والوصال، وتصديق الجميع جواب يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أخبر يعقوب عليه السلام عن حقيقة الأمر بالرضا والإشارة، أي ليس كما يظنون ليس السرقة سرقة الصاع، وما هذا فعل الأنبياء، ولكن سرقة ما سرق من أسرار يوسف عليه السلام عنكم، وخبره من رؤيته مكان الغيب بنور النبوة في القلب، وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إشارة إلى أنه قال: أنا أرى يوسف عليه السلام وبنيامين في مجالس الأنس، وأنا أصبر حتى أوصلها الله إلي، ومعنى الصبر الجميل هاهنا ترك إفشاء السر، وابتلاع هيجان الفرح حتى لا ينكشف سر القدر، ولا ينهتك ستر الربوبية، وهذا من وصف تمكين الأنبياء علم إن بدا هذا الأمر خبراً، وأن الوصال ورجوع الأحبة إلى الأحباء، وانقطاع زمان البلاء دنا وصال الحبيب، واقتربا واطربا للوصال واطربا وتصديق ما ذكرنا.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ^{٤٦} عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ^{٤٧} وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُ عَلَيَّ يُوسُفَ وَأَبِصْتُ عَنْثَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ^{٤٨} قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ^{٤٩} قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ^{٥٠} يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْكُفْرُونَ ^{٥١} فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّنَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ^{٥٢} قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ^{٥٣} قَالُوا أَوْنِكَ لَأَنْتَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ^{٥٤} قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ^{٥٥} قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ^{٥٦}.

قوله تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ هذه الترجية من رؤية الوصال بعين اليقين قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ معناه أي: علم ما علمت، وحكم بحكمته على فرقتي حتى يمضي بقية الفراق، وأيضاً الصبر الجميل، هاهنا احتمال البلاء على البلاء برؤية المبقى بوصف إسقاط معارضة السر والشكوى، وأيضاً الصبر الجميل الجلادة في تجرع مرارة

كثوس شراب البلاء على وصف التداني حتى لا يغلب عليه بحر البلية؛ فيغرقه ويلقيه إلى بحر الشكوى، صبرت على بعض الأذى خوف كله، ودافعت عن نفسي؛ فغرت وجرعتها المكروه حتى تدربت، ولو جملة جرعتها لاشمأزت، وأيضًا الصبر الجميل ما يكون بالله قاله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

قال الجنيد: الصبر الجميل أن يجعل ابتداءه وانتهاه لا يتبدئ فيه بتحير، ولا يقطعه بدعوى بل يمضي في جميع أوقاته على رؤية من إكرامه الصبر.

قال بعضهم: الصبر الجميل الذي ليس فيه إظهار الشكوى، ولا إحساس بلوى، ولما ثقل عليه أوقات البلاء ضاق صدره من معايشرة الخلق، وأقبل على الله، وشكا منه عليه بقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَأسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾ أسفه كان على رب يوسف ﷺ لأنه رأى من يوسف ﷺ جمال رب يوسف ﷺ بواسطة يوسف ﷺ؛ فلما غاب عنه وفقده تغلل كتمانًا على الحقيقة، وقال: ﴿يَتَأسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾، وهذا كحال الخليل ﷺ حين اشتاق إلى ربه فتعلل بقوله: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وأراد بذلك رؤية المحيي، ومثل هذا احتيال العاشقين تولى عنهم إذ لم يرى ما يرى في يوسف ﷺ عنهم، وقال: يا أسفى على مرآة الله في بلاد الله تذكر أيام بالوصال، وظهور أنوار الجمال، وتأسف بالفراق والانفصال بعد الاتصال.

سَقَى اللَّهُ أَيَّامَنَا وَلِبَالِيَا مَضَتْ فَجَرَتْ مِنْ ذِكْرِهِنْ دَمُوعُ
فِيَاهِلْ هَلْ مِنْ الدَّهْرِ أَوْبَةٌ وَهَلْ لِي إِلَى أَرْضِ الْحَبِيبِ رَجُوعُ
﴿وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ علق ذهاب البصر إلى الحزن، وذهابه كان من فقدان ذلك الجمال بكى حتى ذهب بصره بالألا يرى غير حبيبه.

لَمَّا تَبَيَّنْتُ أَنِّي لَسْتُ أَبْصِرْكُمْ غَمَضْتُ عَيْنِي فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ
ولما رأى سبحانه دعوى يعقوب بالصبر الجميل زاد حمل بلائه على بلائه حتى ضاق صدره عن حمل وارد قهر القدم، وخرج بعجز البشرية، وقال: ﴿يَتَأسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾؛ لأنه تعالى غيور ولا يذر أحدًا من التمكين إلا ناقصًا عن موازات طوارق أقدار الأزل.
ألا ترى إلى قول من قال: من صبر اجتوى، ومن شكر ابتدئ، ومن ذكر افترى، ما أعجز الحدثان في ظل نور عظمة الرحمن.

قال الجنيد: في قوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم لما لم يجد من عندهم الفرح ولم يوفيههم مشتكي لشكواه، وقال: ﴿يَتَأسَفُ عَلَى يَوْسُفَ﴾ فلم يترك في هذا النفس الوجد له نفسًا حتى أوحى إليه أتاسي على غيرنا، أين ذلك الصبر الجميل الذي وعدتنا من نفسك،

أتأسى وقد أخذنا منك واحداً، وأبقينا لك عشرًا، فأنت مع هذا تظهر الشكوى، وتقول صبر جميل.

وقال ابن عطاء: بكاء يعقوب عليه السلام وتأسفه لفقد الألفة، وذلك أنه لما لقي يوسف عليه السلام زاد في البكاء، فقال: يا أبت، تبكي عند الفراق، وعند التلاقي، قال: ذلك بكاء حرقة الفراق، وهذا بكاء الدهشة.

وقال أبو سعيد القرشي: أرحى الله إلى يعقوب عليه السلام: يا يعقوب تدأسف على غيري، وعزتي لأخذن عينيك، ولا أردهما عليك حتى تنساه.
وقال: التأسف على الغاية تضييع وقت ثان.

ثم وصف يعقوب عليه السلام بشدة حزنه وذهاب بصره، فقال: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الحكمة في ذهاب بصر يعقوب عليه السلام وبقاء بصر آدم عليه السلام وداود عليه السلام أن بكاء يعقوب عليه السلام بكاء الحزن معجون بألم الفراق، وذلك من واقعة فقدان تجلي جمال الحق من مرآة وجه يوسف عليه السلام.

وكان يعقوب عليه السلام في خصائص العشق من الله سبحانه، وكان يغذيه من مقام العشق لطائف الالتباس، فلما فقد ذلك الوسطة فقد مطالعة جمال الحق بعظم شأن الفراق، وبعد يوم التلاق، وذهب نور البصر مع المبصر حتى لا ينظر به إلى شيء دونه.

وبكاء آدم عليه السلام وداود عليه السلام بكاء الندم من مقام البداية والتوبة، ومقام الندم لم يكن قويا حزنه وحرقته، ولو كانا في مقام العشق كما كان يعقوب عليه السلام لذاب وجودهما، وأنى مقام التوبة والندم من مقام العشق والالتباس الذي من عوالي درجات المعرفة، وشأنها شأن أقواء المعرفة أعني العشق والالتباس، ألا ترى إلى يونس عليه السلام وشعيب عليه السلام كيف ذهب بصرهما في شوق الله، وكانا لا يبيكان من الندم، بل يبيكان من الشوق إلى جمال الله؛ فذهب بصرهما لذلك.

وفي الحديث المروي: «إِنَّ شَعِيْبًا كَانَ بَكَى حَتَّى عَمِيَ، فَرَدَّ اللَّهُ بَصْرَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى عَمِيَ فَرَدَّ اللَّهُ بَصْرَهُ عَلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنْ كَانَ هَذَا الْبُكَاءُ لِأَجْلِ الْجَنَّةِ؛ فَقَدْ أَبْحَثَهَا لَكَ، وَإِنْ كَانَ لِأَجْلِ النَّارِ؛ فَقَدْ أَجْرَتِكَ عَنْهَا، فَقَالَ: لَا، بَلْ شَوْقًا إِلَيْكَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ لِأَجْلِ ذَلِكَ أَخْدَمْتُكَ نَبِيًّا وَكَلِمِي عَشْرَ سَنِينَ»^(١).

وهكذا حال يونس عليه السلام في الشوق؛ فعرض الجنة عليه، وأمنه من النار، فقال: بعزتك لو كان بيني وبينك بحر من النار أخوض فيها حتى أصل إليك، وأيضًا كل بكاء يكون من الحزن والغم والخوف يضر بعين صاحبه، وكل بكاء يكون من الشوق والمحبة لا يضر بعين

(١) ذكره القشيري في «الرسالة القشيرية» (١/١٤٩).

صاحبه بل يزيد نورها، ويمكن أن ذهاب بصره غيرة الله عليه حين بكى لغيره، وإن كان واسطة بينه وبينه.

وقال سبحانه: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ وما قال: عُميت عيناه حجب عيني يعقوب عليه السلام عن النظر إلى العالم حتى لا ينظر إلى غير الله؛ فرجع نور بصره إلى بصيرته؛ فيرى بذلك جمال الله سبحانه، لأجل ذلك قال: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾.

وتصديق ذلك ما قاله الشيخ أبو علي الدقاق -رحمة الله عليه: لم يكن في الحقيقة عمى، وإنما كان ذلك حجاباً عن رؤية غير يوسف عليه السلام.

سُئل أبو سعيد القرشي: لِمَ لَمْ تذهب عين آدم عليه السلام وداود عليه السلام من طول بكائهما، وذهبت عين يعقوب عليه السلام؟ قال: لأن بكاءهما كان من خوف الله، وبكاء يعقوب عليه السلام كان من فقد ولده، فحفظا وعوقب.

وقال أيضاً: بكاء الأحران يعمي، وبكاء الشوق يجلي البصر، قال الله تعالى: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾، وقال أيضاً: الكظيم الممتلئ من الغم.

وقال ابن عطاء: أراد أن يبكي على يوسف عليه السلام فتغرغرت عيناه؛ فأراد أن يرسلها فوجد لذة البكاء؛ فكظمها وردّها في عينيه فايضتا.

ولي لطيفة عجيبة وذلك أن كل نظير من جهة عشق الإنساني؛ فداؤه وتعذيبه أشد من داء محبة الله وتعذيبه؛ لأن في محبة الإنسان كثافة وشدة؛ لأنه منزل الابتلاء والعذاب، وفي محبة الله وعشقه لطفًا وحلاوة ربانية لا يكون بإزائها راحة الجنان، ولذلك هناك البلاء أطيب، والمحبة أعذب، فلما كان يعقوب عليه السلام في أشد المحبة وعظم المحبة تجلّد في كظمها، ولذا قال: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ لأن هناك مكان الشكوى وشناعة، ولولا أن كظم لفشى حاله أكثر مما فشى في العالم، وصفه بالتمكين في تحمل البلاء، ومن كثرة كظمه الحزن والتأوه احترق مسلك نور الباصرة من مكان الروح الناطقة؛ لأن نور الباصرة تجري من نور روح الناطقة في أضيق طريق من شريان الدماغ، فلما احترق السبيل انسد باب الباصرة، وابيضت عيناه من احتجابها عن أنوار الروح، فلما رآوه حين جدد عليه ذكر يوسف عليه السلام والأسف عليه وهم محجوبون من نور الفراسة في ذلك الوقت من استنشاق ريح يوسف عليه السلام أنكروا على أبيه في ذكر يوسف عليه السلام بقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ لم تعلموا أن العاشق لا يزال ذاكرًا لمعشوقه، وكيف يسكن المحب عن ذكر محبوبه، وهو مستغرق بجميع وجوده في ذكر محبوبه.

فَإِنْ تَمَنَعُوا اللَّيْلَ وَحُسْنَ حَدِيثِهَا فَلَمْ تَمْنَعُوا عَنِّي الْبُكَاءَ وَالْقَوَافِيَا

خوفه بالهلاك والخرص، وكيف يفرع العاشق من هلاكه في عشق محبوبه وهلاكه وحياته؟

قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وكيف كان يسكن عن ذكر يوسف عليه السلام، وفي بصر سره ينظر إلى شاهد خيال يوسف؟

غَابَ فِي قَلْبِي لَهُ شَاهِدٌ يُولِغُ إِضْمَارِي بِذِكْرِهِ
مَثَلْتُ الْفَكْرَةَ لِي وَجْهَهُ حَتَّى كَأَنِّي أَرَاهُ

قال أبو سعيد القرشي: لا تزال تذكر يوسف عليه السلام، فمتى تذكر رب يوسف عليه السلام؟
وقال أيضًا: كل مشتاق لا يزال يذكر أنيسه وحبيبه حتى يغيره الناس على ذلك، فإما يموت، وإما يصل إلى قرية.

فلذلك قوله: ﴿تَفْتَرُوا تَذْكُرُ يَوْسُفَ﴾ قيل: أطيب الأشياء في الهوى الهلاك في حكم الهوى، فكيف يخوف بالهلاك من كان أحب الأشياء إليه الهلاك، فما سمع ملامتهم ولم يرههم أهلاً لدائه وحمل موارد الحق عليه أعرض عنهم.

وقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أن ما أجد من امتحان الله عليّ وعظيم بلائه، وما أرى فيها من لطائف صنعه وكشوف غرائب وجوده وأنوار وجوده لا البسط إلا في بساط الحق، ولا أحمل ذلك إلا على الحق؛ فإنه يحمل هذه الأثقال التي لو تحمل على السماوات والأرضين والجبال والبحار لتضمحل وجودها تحت سلطان قهرها، وكيف أذكرها لكم وأنتم محجوبون عن ذلك، وتصديق ذلك ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كان بث يعقوب عليه السلام وحزنه من الله، وكذا شكواه؛ فقال: أشكو منه إليه، وأفرق حزني بين يديه؛ لأن ما منه لا يرجع إلا إليه، ما أطيب شكوى المحب إلى حبيبه؛ لأن الحبيب يعلم مداواة حبيبه لا غير، إلى الله أشكو ما لقيت من الهجر وكثرة البلوى، ومن قلة الصبر، ومن حرق بين الجوانح والحشا كحجم العضاء، لا بل أحرّ من الجمر.

قال سهل بن عبد الله: لم يكن حزن يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام إنما كان مكاشفًا لما وجد من قلبه شدة الوجد على مفارقة يوسف عليه السلام، قال: كيف يكون وجد فراق الحق على مفارقة يوسف عليه السلام، قال: كيف يكون وجد فراق الحق وقد عمل بي مفارقة يوسف عليه السلام كل هذا فشكا وبث وحزن وما وقع لي من قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: أنا لا أشكو إلى غيره، فإني أعلم غيرته على أحبائه وأهل معرفته، إذا شكا إلى أحد إلى غيره يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين، وأنتم لا تعلمون ذلك، وأيضًا أعلم من الله أن من صبر في

بلائه يجازيه بلقائه الذي لا حجاب فيه، ولا عذاب ولا حساب، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَوِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وأيضاً أعلم من الله حقائق المكاشفات والمشاهدات والقربات ودقائق علومه الغيبية، ومن كان بهذه الصفة لا يضع حمل مطاياه إلا في فناء عطاياه حتى يفعل ما يشاء. قيل في المثل: عطاياه لا تحمل إلا مطاياه.

وأنشد ذو النون في هذا المعنى:

إذا ارتحل الكرام إليك يوماً ليتمسوك حالاً بعد حالٍ

فإن رحالنا خطت رضاه بحكمك عن حلول وارتحالٍ

فشتنا كيف شئت ولا تكلنا إلى تدبـيرنا ذي المعـالي

ويمكن أنه كان عليه السلام بشيراً إلى الله سبحانه يوصل إليه يوسف عليه السلام، وبنيامين عن قريب فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وتصديق ذلك ما قاله سبحانه عقيب الآية بقوله: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسُّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ معناه علمي بالله علم حقيقة، وعلمكم به علم استدلال، وقال أيضاً: أعلم من الله إجابة دعوات المضطرين. وقال بعضهم: أعلم من رحمته على عباده ما لا تعلمون.

قيل: لما شكنا إلى الله وجد السلوة من الله.

ويقال: كان يعقوب عليه السلام متحملاً بنفسه وقلبه مستريحاً محمولاً بسرّه وروحه؛ لأنه علم من الله سبحانه صدق حاله فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في معناه والشك اليقين إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة تمنيت أن أشكو إليه فيسمع.

ومعنى قوله: ﴿فَتَحَسُّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أنه كان يرى بعين سرّه، وقدم صفائح قدس الغيب، منقوشاً بذكر الوصال ورؤية ذلك الجمان، ووصل إلى مقام روحه روح نسيم يوسف عليه السلام؛ فحكم حكماً كاملاً فقال: تحسسوا من يوسف عليه السلام بخواطركم الربانية والإحساس والروحانية حتى تجدونه، وأيضاً تحسسوا بجميع وجودكم وقلوبكم لا بنفوسكم الأتارة، وأيضاً انقطعوا من جميع الأشياء في طلبه، فإن متفرق المهمة لا يظفر بمأموله.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ لا تقنطوا من كرمه ورحمته في إرجاع يوسف عليه السلام وبنيامين إليّ، وأيضاً تحسسوا من يوسف عليه السلام، ولا تيأسوا من روح الله؛ فإنه لا يبيدكم في

الخجالة بين يديه؛ فإنه يعفو عنكم، وفيه إشارة تعليم عزة قدرته أي: لا تيأسوا من قدرة الله؛ فإنه قادر بأن يوصل يوسف عليه السلام إلينا بأقل من طرفة عين، ولو كان فانيًا، وإن مَنْ لم يؤمن بذلك مبعدة من الله بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، وإنهم إن الإيأس في مقام الإيمان من صفات النفس الأمارة، والإيأس في صفات المعرفة من صفات القلب، وذلك قنوطه من وصوله إلى مطالعة حقائق القدم، وذلك من غلبة التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث، وتحت ذلك الإيأس بحار من حسن الرجاء بالوصال، والبقاء في البقاء، وبعد الفناء في الفناء، وعن رؤية سرمدية القدر.

وقال الجنيد: يحقق رجاء الراجين عند تواتر المحن، وترادف المصائب؛ لأن الله يقول: ﴿لَا تَأْيِسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾، والنبى ﷺ يقول: «أفضل العباد انتظار الفرج»^(١).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْضُرَّ وَجَعْنَا بِضْعَةً مُزْجَنَةً﴾ أما قوله: يا أيها العزيز أي: أيها المتلبس بأنوار الربوبية التي كسبت في الأزل ظاهرًا وباطنًا، أيها الممتنع من أن يراك أحد بالشهوة، وأيها الغالب على سلب قلوب الخلائق بالجمال والجلال مسنا وأهلنا ضر فراقك، وبعد وصالك نحن في ضر جنايتنا محجوبون عن جمالك وأبوك وأهالك في ضر البعاد عن رؤيتك ووصالك، وأنشد:

كفى حزنًا بالواله الصَّبُّ أن يرى منازل مَنْ يهوى معطلة قفرا

﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْضُرَّ﴾ من تضرير الله إيانا في حقك وعتابه فيما فعلنا، وأيضًا مسنا ضر الخجالة بين يديك، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بِضْعَةً مُزْجَنَةً﴾ بعذر من جنايتنا ما لا يليق بما فعلنا بك بكيل عفوك، وتصديق علينا بالتجاوز عما فعلنا؛ فإن الله يجزي المتصدقين بأنه يعافيك عما هممت به، وبأن يكرمك أحسن الإكرام من لطيف الإنعام، وما أحسن افتقار الفقراء أو المبتدئين عند أكابر القوم، وتواضعهم بين أيديهم، وتسميتهم بأسماء التعظيم، كما فعل بنو إسرائيل عند يوسف عليه السلام بآءوا بذكر المقاسات والفقر حين رأوا بساطًا بسيطًا عن ملكه وسلطانه.

ثم ذكروا قلة بضاعتهم حين شاهدوا هيبة يوسف عليه السلام ومهابته وجلال قدره، فلما انبسط إليهم انبسطوا إليه، وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فلما طالعوا أن بضاعتهم لا يليق بمثل بساطه تبسطوا، وقالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾؛ فإن ما معنى لا يليق بعرض بيعك

(١) رواه الترمذي (٥٦٥/٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣/٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥/٢٣٠).

وشراك؛ فإن جزاؤك عليه بلا علة وحديث البضاعة والفقر علة طلب الوصال ورؤية الجمال والغرض الكلي: ذلك لأنهم مأمورون بطلب يوسف عليه السلام، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَتَحَسُّسُوا مِنْ يُوسُفَ﴾ عرضهم رؤيته ومشاهدته.
وأنشد في معناه:

وما الفقرُ مِنْ أرضِ العَشيرةِ سَاقِنًا ولكننا جئنا بـلقياك نـسعدُ

هذا يكون من قبل المخلوق، فكيف يكون إذا دخلوا عشاق جمال القدم في بساط الكرم؟ أي: قالوا ما قال إخوة يوسف عليه السلام: مَسَّنَا وَأَهْلَكَ الضَّرَّ، مَسَّنَا مِنْ ضَرِّ فِرَاقِكَ، والبعد من وصالك ما لا يحتملها الصنم الصلاب.

خليلي ما ألقاه في الحبِّ عن ندم على صخرة يتعلق بها الصحن
ويقولون: جئنا ببضاعة مزجاة من أعمال مغلولة، وأفعال مغشوشة نفسانية حدثانية، ومعرفة قليلة عاجزة عن إدراك ذرة من أنوار عظمتك، وكل هذا لا يليق بعزتك وجلال صمديتك، ﴿فَأَوْفِ لَنَا﴾ كيل قريبك ووصالك من بحار فضلك وجودك، وتصدق علينا أعطنا من نعم مشاهدتك التي لا تعطيتها أحداً إلا بتفضلك بغير الأعواض بقولك: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

قيل في هذه الآية: تعليم آداب الدعاء، والرجوع إلى الأكابر، ومخاطبة السادات؛ فَمَنْ لم يرجع إلى باب سيده بالذلة والافتقار وتذليل النفس وتصغير ما يبدو منها، ويرى أن ما من بيده إليه على طريق الصدقة والفضل لا على طريق الاستحقاق كان مبتعداً مطروداً.

قال أبو سعيد القرشي في قوله: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَكْنَا الضَّرَّ﴾: أي: مَسَّنَا الضَّرَّ في ارتكاب المعاصي، وبما اجتمع علينا من الجنايات والمخالفات، ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّنَةٍ﴾ بأنفس قاصرة عن الخلاصة، وأعمال لا تصلح لبساط المشاهدة والنشر، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: فوفِّ علينا بما لم نزل بعد فيه من فضلك وإحسانك، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ اجعلنا منك بمحل الفقراء إليك الذين يستوجبون الصدقة منك تفضلاً، وإن لم يكن منهم فالحقنا بهم.

وقال سهل في قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾: أي: أيها المغلوب في نفسه كما قال: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أي: غلبني.

ويقال: استلطفوا بقولهم: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَكْنَا الضَّرَّ﴾ بعد ذلك حديث قلة بضاعتهم، ويقال: لما طالعوا فقرهم نطقوا بقدرهم فقالوا: ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّنَةٍ﴾، ولما شاهدوا قدر

يوسف عليه السلام سألوا على قدره، وقالوا: ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فلما ذكروا حديث الصدقة ترحم عليهم يوسف عليه السلام وهاج سره إلى إظهار الحال، وحيث رأى عجزهم وتواضعهم لم يبق له قرار حتى كشف الحال بقوله: ﴿عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ليس غرضه تعييرهم، بل غرضه تقريبتهم؛ فعاتبهم وذكر صنائعهم به وبأخيه تعريفاً منه إياهم بأنه يوسف عليه السلام لئلا يبقى لهم شك، ويعرفوه حق المعرفة ووضع عن لهم بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ أي: ما جرت في زمان الجهل والشباب لا تعير به، وتمكن أن سر تلك النفس الأمانة باح في البين؛ ليوقفهم في محل الخجالة، ثم أدركه الله حتى بين غدرهم بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾، وهذا كقول بعضهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ في باب العتاب أعظم من كل عقوبة كان يعاقبهم بها، حيث أخجلهم مكافحة.

ويقال: لما خجلوا بهذا العتاب لم يرض يوسف عليه السلام حتى بسط عذرهم؛ فقال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ فلما ذكر الإشارة أوقع الله في أسرارهم أن المخاطب هو يوسف عليه السلام فقالوا: ﴿قَالُوا أَوْنِكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ فلما عرفوه خاطبوه بخطاب المودة لا بخطاب التكلف قالوا: ﴿قَالُوا أَوْنِكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ فأجابهم أيضاً بخطاب المودة تعريفاً وتواصلاً وتراضاً فقال: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾، وأنشدوا:

إِذَا صَفَّتِ الْمَوَدَّةُ بَيْنَ قَوْمٍ ودَامَ وَلَاؤُهُمْ سَمُجَّ الثَّنَاءِ
ويمكن أنهم لما عرفوه سقط عنهم الهيبة وهاجت لهم الحمية، وما تكلموا بانبساط الأول من حيث القرابية، وقوله: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ لإظهار صدق الحال، ويمكن أن يشير إلى تعييرهم حيث قال: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾، وما قال: أنا أخوكم أي الأخوة الصحيحة ما لم يكن فيها جفاء، ويقال: هوّن عليهم حال بديهة الخجلة، حيث قال: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ فكأنه شغلهم بقوله: ﴿وَهَذَا أَخِي﴾، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى﴾؛ فإنه سبحانه شغل موسى عليه السلام بسماع قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، وفي مطالعة العصا في غير ما كوشف به من قوله: ﴿إِنِّي - أَنَا اللَّهُ﴾.

ثم رجع يوسف عليه السلام من تعريفه إلى الله، حيث قال: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: قد تفضل علينا بما وقانا مما وقعتم فيه، وأيضاً قد مَنَّ الله علينا بالوصال بعد الفراق، وأيضاً قد مَنَّ الله علينا بالمعرفة والمحبة والرسالة، وعلم الغيب، والبراهين الساطعة، والحسن والجمال الظاهر، والمكاشفة والمشاهدة الباطنة.

ثم بيّن أنه تعالى إذا أراد أن يكرم عبداً ألهمه الصبر في بلائه والتقوى في عبادته بقوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ أي: مَنْ يتق في الخلوة عن متابعة الشهوة والوقوع في النهمة وصبر عن انقياد هوى النفس بعد جريان الهمة.

قال ابن عطاء: مَنْ يتق ارتكاب المحارم، ويصبر على أداء الفرائض؛ فإن الله لا يضيع سعي من أحسن في هذين المقامين، واعتمد على الله، ولم يعتمد سعيه ولا علمه.

ولما رجع يوسف عليه السلام إلى ذكره تفضل الله عليه وعلى أخيه، وذكر توحيد أوقعهم الله ذلك إلى رؤية توحيد الله بقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ رجعوا إلى الله في أول مقالته، وذكروا فضله عليه، ثم أتوا إلى مذمة أنفسهم أي: آثر الله علينا بالخلق والخلق والحسن والجمال والملك والشرف والمكاشفة والعلم ﴿وَأِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ أي: جاهلين بجاهك.

قال بعضهم: اختارك وقدمك علينا بحسن التوفيق والعصمة، وترك المكافأة على الإشارة ﴿وَأِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾ لمسيئين إليك، فلما سمع يوسف عليه السلام اعتذارهم أرجع نفسه ونفوسهم إلى مقادير السابق، ثم استعمل الكرم والظرافة في الخلق بقوله: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: هذا يوم الوصال وكشف الجمال، يرفع العذاب، لا يوم التعيير والتثريب، وفي هذه الحالة إشارة إلى أن الأولين والآخرين إذا دخلوا في سابقة الكبرياء وسكت لهم السنة العذر، ييسط الله سبحانه أوراق الأقدار والتي جرت في سبق السابق بما كان، وما سيكون وتحمل أعمالهم جميعاً على مطية القدر، ويرثهم عن الجرائم، ويقول: من أفضاله وكرمه: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ فإن أفعالهم جرت بمقاديري، وكيف كنتم تدفعون مقاديري كأنه تعالى يضع العذر على القدر، ويغفر لهم جميعاً بقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ بيّن الجرم وغلب العفو والكرم على العتاب والمؤاخذه.

قال جعفر عليه السلام: لا عيب عليكم فيما عملتم، لأنكم كنتم مجبورين عليه، وذلك في سابق القضاء عليكم.

قال أبو عثمان: ليس لمن أذنب أن يعاتب مذنباً، وكيف أعيبكم، وقد سبق مني الهم والاختيار للسجن، وقولي: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وكيف ألومكم فيما عملتم وأنسى ما عملت؟

قال شاه الكرمان رحمة الله عليه: من نظر إلى الخلق بعين الحق سلم من مخالفاتهم، ومن نظر إليهم بعينه أفنى أيامه في مخاصماتهم، ألا ترى إلى يوسف عليه السلام لما علم مجاري القضاء كيف

عذر إخوته، وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

قال أبو بكر: اعتذروا إليه، وأقروا بالجناية بقولهم: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَطِيئِينَ﴾، قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾، وهذا من شرط الكرم أن يعفو إذا قدر، ويقبل عذر من اعتذر. وقال الأستاذ: أسرع يوسف عليه السلام التجاوز عنهم، ووعد يعقوب عليه السلام لهم بالاستغفار بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾؛ لأنه كان أشد حبا لهم فعاتبهم، وأما يوسف عليه السلام فلم يرههم أهلاً للعتاب، فتجاوز عنهم على الوهلة. ويقال: ما أصابهم في الحال من الخجلة قام مقام كل عقوبة عليه السلام، ولهذا قيل في المثل: «كفى للمقصر حياء يوم اللقاء».

ولما فرغ يوسف عليه السلام من كشف حاله مع إخوته ووصاله معهم، رتب شغل وصال يعقوب عليه السلام، ومن كرمه وجلاله أعطى وصاله أولاً للخاطئين، ثم للعاشقين؛ لأن الخاطئ ضعيف لا يحتمل البلاء، والعاشق قوي يحتمل البلاء؛ لأن يعقوب عليه السلام يرى يوسف عليه السلام كل وقت بعين سره، فاحتمل بلاءه بذلك.

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٢٠٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٢٠٤﴾.

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الحكمة في إرسال القميص أنه علم أن يعقوب عليه السلام لا يحتمل الوصال الكل بالبديهة؛ فجعل وصاله بالتدريج لتلا يهلك في أول الملاقاة من فرح الوجدان، فأرسل القميص ليقويه بريجه وطيب روحه، ولأن عيني يعقوب عليه السلام ابيضتا لم تكونا عمياوين إنما ضعف نورهما؛ فأرسل القميص لذهاب بياضهما؛ فإنه لو يشم يوسف عليه السلام بعينه احترق بقية نورهما من فورة الهيجان، فخاف على عينيه، وأيضاً إن قميص يوسف عليه السلام كان من نسج الجنة؛ فرأى يوسف عليه السلام غير الحق فأرسل القميص إليه ليشم أولاً رائحة بساط القرب، وأيضاً كان قميص يوسف عليه السلام علامة بينه وبين أبيه، فأشار إليه بالقميص، أي: إذا كان بالقميص السلامة من حرق الذنب فأنا أيضاً بالسلامة.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر عليه السلام قال: كان المراد في القميص أنه أتاه أهم من قبل القميص بقوله: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ فأحب أن يدخل السرور من جهته التي دخل أهم به عليه.

ويقال: كان العمى في العين؛ فأمر بإلقاء القميص عليه ليجد الشفاء من العمى.
ويقال: لما كان البكاء بالعين التي في الوجه كان الشفاء في اللقاء للعين التي في الوجه،
وفي معناه أنشدوا:

وَمَابَاتٍ مَطْوِيًّا عَلَى أَرْحِيَّةٍ بِعَقَبِ النَّوَى إِلَّا فَتَى بَاتٍ مُغْرَمًا
وقوله تعالى: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كان كرم يوسف عليه السلام يقتضي أن
يذهب إلى أبيه ولا يستحضره؛ ولكن أبى نازع العشق إلا أن يزيد البلاء على العاشق، ومن
يرى معشوقاً في الكونين رحيماً بعاشقه؛ فإن انتضى الظاهر الأدب غلب العشق على الرسوم
حتى يزيد عشقه على عشقه، وشوقه على شوقه، ويرى يوسف عليه السلام فتوته؛ فأثر أجر السعي
على أبيه، كان سخيّاً بدينه لا بدنياً، وذلك من عزة أبيه عنده، وشارك الأهل؛ لأنهم أيضاً
قاسوا أيضاً مقاساة الفراق أراد أن يشتركوا في الفرح.

ويقال: علم يوسف عليه السلام أن يعقوب عليه السلام لا يطيق القيام بكفاية أمر يوسف عليه السلام
فاستحضره إبقاء على حاله لا إذلاً بقدره، وما عليه من إجلاله.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لما خرج من
مصر هبت ريح الصبا على القميص، وجاءت إلى يعقوب عليه السلام وهبت على وجهه، ونشقت
ريح يوسف عليه السلام فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ وجد ريح يوسف عليه السلام من مسافة ثلاثين
فرسخاً؛ لأنه كان في كل أنفاسه، مستنشقاً لريح يوسف عليه السلام، وهكذا شأن كل عاشق
يتعرضون لنفحات ريح وصال الأزل، ويستنشقون نسائم ورد مشاهدة الأبد، بقلوب
حاضرة، وعيون باكية في الخلوات والصحاري والفلوات كأنهم ينشدون هذين البيتين كل
وقت شوقاً إلى تلك المعادن:

أَبَا جَبَلِي نَعْمَانَ بِاللهِ خَلِيًّا طَرِيقَ الصَّبَا يَخْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا
فَإِنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمَتْ عَلَى نَفْسٍ مَهْمُومٍ تَجَلَّتْ هُمُومُهَا
ولذلك قال رسول الله ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لنفحات
الرحمن»^(١)، ما أطيب حال المحبين حيث راقبوا روائح كشف الصفات من معدن الذات،
وطلبتهم عرائس القدم في قميص الالتباس كأنهم ينشدون من غاية الشوق إلى تلك المعاهد
هذين البيتين:

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/ ١٨٠)، و«المعجم الكبير» (١٩/ ٢٣٣)، وذكره المناوي في
«فيض القدير» (٢/ ٤٦٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٢٦٩).

سَلَامٌ عَلَىٰ تِلْكَ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا شَرِيعَةٌ وَرَدِي أَوْ مَهَبٌ شِمَالِي
 فَقَدْ صَرَتْ أَرْضِي مِنْ سِوَاكِ أَرْضَهَا بِخَلْبٍ بِرَقٍ أَوْ بَطِيفٍ خِيَالٍ
 فديت لهذه القضية الحسنة الإلهية، ما أحسن شمائلها، وما أطيب لطائفها، وما أنور
 روائها، انظر كيف أخبر سبحانه من حسن أحوال العاشقين والمعشوقين، قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ
 عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ علم يوسف عليه السلام مواساة ريح الصبا، وأودعه ريمه حتى أسرع
 البشير في إيصال الخبر إلى يعقوب عليه السلام شوقاً منه إلى وصال يعقوب عليه السلام.
 أذكر في هذا المعنى آيات لطيفة:

نسيم الصبا بلغ سلامي إليهم وأرفق بفضلك بالهبوب عليهم
 وقل لهم إني وإن كنت نازحاً فروحي وقلبي حاضران لديهم
 نسيم الصبا إن جئت أرض أحبتي فخصهم مني بكل سلام
 وبلغهم أتى رهين صباية وأن غرامي فوق كل غرام
 ومعنى قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ علم أن من لم يكن في بلاء المعشوق لم يستشق ريح
 المعشوق؛ فريب المخبر بما كوشف له.

قال جعفر: يقال: إن ريح الصبا سأل الله، فقال: خصني بأن أبشره بابه، فأذن الله له في
 ذلك فكان يعقوب عليه السلام ساجداً رفع رأسه، وقال: ﴿إِنِّي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ فقال له
 أولاده: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي: محبتك القديمة، وكان الريح ممزوجة بالعناية
 والشفقة والرحمة والأخبار بزوال المحنة، وكذلك المؤمن المتحقق يجد نسيم الإيمان في قلبه،
 وروح المعرفة من العناية التي سبقت له من الله في سره.

قال الأستاذ: كان أمر يوسف عليه السلام وحديثه على يعقوب عليه السلام مشكلاً، فلما زالت المحنة
 تغيرت بكل وجه الحالة.

قيل: كان من يوسف عليه السلام على يعقوب عليه السلام أقل من مرحلة حيث القوه في الحب؛
 فاستتر عليه خبره، وحاله ولما زال البلاء وجد ريمه، وبينهما مسافة ثمانين فرسخاً من مصر إلى
 كنعان.

ويقال: لا يعرف ريح الأحباب إلا الأحباب، فأما على الأجانب فهذا حديث مشكل
 أن يكون الإنسان ريح.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ تفرس فيهم أنهم يبسطون لسان الملامة،
 فنبتهم على ترك الملامة؛ فلم ينجح فيهم قوله، فزادوا في الملامة بأن قرنوا كلاً منهم بالقسم

وقالوا: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ لم يحتشموا أباهم، ولم يراعوا حقه في المخاطبة، فوصفوه بالضلال في المحبة.

ويقال: إن يعقوب عليه السلام قد يعرف من الرياح نسيم يوسف عليه السلام، وخبر يوسف عليه السلام كثيراً حتى جاء الأذان للرياح، وهذا سنة الأحباب مساءلة الديار ومخاطبة الأطلال. وفي معناه أنشدوا:

وَإِنِّي لَأَسْتَهْدِي الرِّيحَ سَلَامَكُمْ إِذَا أَقْبَلَتْ مِنْ نَحْوِكُمْ بِهُبٍ
وَأَسْأَلُهَا حَمْلَ السَّلَامِ إِلَيْكُمْ فَإِنْ هِيَ يَوْمًا بَلَّغَتْ فَأَجِيبِي
﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ
فَارْتَدَّ بِصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَتَأَبَّأْنَا
أَسْتَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
ءَامِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أي: أنت غائب بترك في وادي العظمة، وبروحك هائم في فقاد الأزلية، وب عقلك تائه في شوامخ القدرة، وب قلبك مستغرق في بحار الشوق والعشق والمحبة؛ فترى من كل ناحية جمال معشوقك، وتستنشق من جميع الرياح نسيم محبوبك، وأنت واله لا يعتبر قولك بهذا، فأنت تخبر بخبر العاشقين وهيجان المحبين.

قال جعفر: سئل بعضهم: ما العشق؟ قال: ضلال، ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

ثم أظهر أنه برهان صدقه وصفاته بالمعجزة الظاهرة بقوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا﴾ الإشارة فيه أن العاشق الهائم المنتظر لقاء الحق سبحانه، وذهب عنه من طول البكاء يجيء إليه بشير تجليه؛ فيلقي على وجهه عهد أنسه ورد قدسه، فيفتح عنه بنسيم شمال وصاله، فإذا يرى الحق بالحق لما وصل قميص الحبيب إلى وجه المحب رجع إليه نور عينه؛ لأنه وجد لذة نفحة الحق من قميص يوسف عليه السلام محل تجلي الحق، وقلبه مهب شمال جلاله، وجد منه ريح جنان قدسه باسمين أنسه، ومحال أن من وصل إليه شمال جلاله يبقى علة غيرة الفراق، وظلمة العمر؛ لأن نسيمه طيب أسقام العاشقين، وآلام المحبين، ألا ترى إلى قول القائل:

ألا يا نسيمَ الريحِ مالكَ كلِّها تقربتَ منا زادَ نشركَ طيبًا
أظنَّ سليمي أخبرتَ بسقامنا فأعطتكَ رياها فجئتَ طيبًا
وحكمة إلقاء القميص على الوجه أن قميص الحبيب لم يكن له موضع إلا وجه
العاشق؛ لذلك قال: ﴿فَالْقُوَّةُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾، وفي موضع يضع العشاق تراب قدام
المعشوقين على عيونهم؛ كيف لا يضعون قميص الأحباب على وجوههم؟
وفي الحديث المروي: إن النبي ﷺ إذا رأى وردًا أو باكورة قبلها، ووضعها على عينيه،
وقال: «هذا حديث عهد بربيه»^(١).

قال النهرجوري: ألقى على وجهه نور الرضا؛ فارتد يبصر مواقع القضاء.
وقال بعضهم: لما جاء البشير من الله بالصلح منه في بكائه، والتأسف على غيره ورد
يوسف عليه السلام إليه.
وقال سفيان: لما جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام قال له يعقوب عليه السلام: على أي دين تركت
يوسف عليه السلام؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة.

ولما عاينوا معجزة أبيهم: وعرفوا مواضع الخطأ في فراستهم اعتذروا بقوله: ﴿قَالُوا
يَتَابَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ أي: استغفر لنا ما قصرنا في واجب حقوقك،
وما بدا منا من إعلام عقوقك، وقلة معرفتنا بنور فراستك، وما يتول عواقب أمور يوسف
عليه السلام من شرف المنازلات والمقامات والنبوات والرسالات، وأيضًا استغفر لنا تضييع أوقاتنا
في متابعة هوائنا، واحتجابنا من رؤية ذنبنا، وما أطيب حال الندامة؛ لأن منها يتولد أنوار
الكرامة.

قال بعضهم: أزل عنا اسم العقوق بإظهار الرضا عنا.
قال بعضهم: استغفر لنا ذنوبنا إليك وإلى يوسف عليه السلام.
وقال بعضهم: في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾: جاهلين بأن الله يحفظ أوليائه في المحن.
قوله تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إن يعقوب
عليه السلام كان عالمًا بالله وأخلاقه العظيمة، وبصفاته المنزلة، وبالأوقات التي هو تعالى يقبل توبة
المذنبين، ويغفر ذنوب الخاطئين، ويستجيب دعوة المضطرين، وهو وقت تضرع مسك
نفحات شمال وصلته في أرواح المقربين، وفؤاد الصادقين، وقلوب العارفين، وأسرار
الموحدين، وعقول المحبين، ونفوس المريدين، وهم يعرفون منه مكان قبول التوبة، واستجابة

(١) رواه البيهقي في «الدعوات الكبرى» (٢/ ١٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢/ ٣١) بنحوه.

الدعوة، وعلامتها اقشعرار جلودهم، ووجل قلوبهم، واضطراب صدورهم، وفوران عبراتهم، وهيجان أسرارهم، ووقوع نور التجلي في صميم أفئدتهم، وطيران أرواحهم في رياض الملكوت، وأنوار الجبروت، وهي ترى نسيم صبح الوصال بنعت الرضا عند منازل الشناء، وكشف نقاب النقاب، وأكثر ذلك وقت الأسحار عند تجافي جنوب الأبرار عن مضاجعهم، وانتباههم بركضات عساكر التجلي، وعرائس التدلي حين ينزل بجلاله من هواء القدم إلى عروش البقاء تعالى الله عما أشار إليه أهل الخيال.

قيل في التفسير: آخر على السحر من ليلة الجمعة.

قال ابن عطاء: إن يعقوب عليه السلام قال: ارجعوا على يوسف عليه السلام، واسألوه أن يجعلكم في حل، ثم أستغفر لكم إن الذنب بينكم وبينه.

قال بعضهم: سوف أسأل ربي أن يأذن لي في الاستغفار لكم لئلا يكون مردوداً فيه، كما ردّ نوح عليه السلام في ولده بقوله: ﴿لَيْسَ مِنِّي أَهْلِيكَ﴾.

قال الأستاذ: وعدهم الاستغفار؛ لأنه لم يتفرغ من استبشاره إلى استغفاره.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ﴾ آوى إليه أبويه؛ لأنها ذاقا طعم مرارة الفراق؛ فخصهما من بينهم بوصاله وتدانيه يوم التلاقي، هناك يتبين تباين منازل الصديقين في المحبة، ومراتب المحبين في الوصلة.

قال الأستاذ: اشتركوا في الدخول، ولكن تباينوا في الإيواء؛ فانفرد الأبوان به لبعدهما من الجفاء، كذلك غدا إذا وصلوا إلى الغفران يشتركون فيه، وفي وجود الجنان؛ ولكن يتباينون في بساطة القرية؛ فيخص به أصل الصفاء دون من اتصف اليوم بالالتواء، ولما بان حالهما في الإيواء ظهر قدرهما في بساط المؤانسة، ومجلس القرية بقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

قال ابن عطاء: رفع من محلهم بمقدار حزنهم كان عليه وأسفهم، ولم يرفع من أخوته لسرورهم بإتلافه وكذبهم عليه بأنه ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ﴾.

قال محمد بن علي: من دفع من مريد فوق ما يستحقه أفسد عليه بذلك إرادته؛ لأن بعض الصحابة ذكر عن النبي ﷺ قال: «أمرنا أن ننزل الناس منازلهم»^(١).

ورفع يوسف عليه السلام أبويه على العرش، ولم يرفع إخوته، أنزل كل واحد منهم حيث يستحق من منزلته.

(١) رواه مسلم (٦/١)، وأبو داود (٢٦١/٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٢/٧).

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَتَأَتَّبِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٧٦﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٩﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ صحت هاهنا بيان المكاشفة، وأوائل المشاهدة التي جرت ذكرها بقوله: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ لما بان سطوع أنوار عزة الله على الصديق العزيز علا هيئته عليهم، وعاینوا ما عاينت الملائكة في آدم عليه السلام؛ فخرّوا له سجداً بغير اختيارهم؛ لأنه كان كعبة الله التي فيه آيات بينات أنوار مشاهداته وسنا تجليه، وظهور جلاله من لباس قدرته مقام إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦] رأى ذلك في آيات ملكوت السماء، ورأوا ذلك في آيات ملكوت الأرض، لو رأى الملك وأهل مصر فيه ما رأى يعقوب عليه السلام وبنوه لخرّوا له سجداً كما قال القائل:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكَّعَا وَسُجُودَا

فلما افترنت المكاشفة بالمعينة، قال تعالى ﴿وَقَالَ يَتَأَتَّبِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ﴾ أظهر على يعقوب عليه السلام كمال علمه بتأويل أحاديث المكاشفات، والآيات المنامات، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ أي: بيانا بينا ليس فيه معارضة النفس.

ثم أثنى على الله سبحانه لما أولاه من نعمه الرفيعة، وكراماته الساطعة بقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ أي: أخرجني من سجن بلاء النفس وخطوات الشيطان، وأيضاً أطلقني من أسرار الإرادة والمجاهدة والرياضة والامتحان إلى سعة بساط الرضوان والمعرفة والمشاهدة والإيقان، ذكر السجن لأن هناك موضع التهمة، أي: أخرجني بكونه من سجن التهمة بأن أظهر طهارتي من الذلة، وأيضاً بدأ بذكر السجن وما جرى لأجله لئلا يحزن قلوب إخوته، وهذا من شرائط كرم المكرمين، أسقط خجلهم حين أظهر ما جرى عليه من الهمة، وطول لبثه في السجن من التفاته إلى غير الله من وقت امتحان، ثم ذكر منازلهم، وما فضل على أبويه وإخوته بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ أي: من بوادي

الفراق إلى منازل الوصال جاء بكم من منازل التفرقة إلى عين الجمع، ومن محل التلوين إلى محل التمكين، ثم رفع بكرمه الجرم عن إخوته واستعمل الأدب حين لم يذكر ذكر القدر تنزيها لقدر الله وقدره من مباشرة العلة بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ أي: ليس من طبائع الأولياء حركات الأعداء، إنما كان شيئاً طارئاً بغير اختيارنا، أغرى الشيطان بالنزغات بيننا لزيادة درجتنا، وصفاء مودتنا.

ثم وصف الله سبحانه باللطف والرحمة والعلم والحكمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ لطيف حيث جعلني لطيفاً في حسن وجهي، عليم بنيتي في عفو أخوتي وتبول عذرهم، وأيضاً عليم بخلق صورتي، حكيم حيث خصني بحكمة النبوة والرسالة.

قال السيد جعفر الصادق عليه السلام: قال يوسف عليه السلام: ﴿أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ ولم يقل أخرجني من الحب وهو أصعب. قال: لأنه لم يرد مواجهة إخوته بأنكم جفوتوني وألقيتموني في الحب بعد أن قال تعالى: ﴿لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

وقال ابن عطاء: الحكمة أن السجن كان اختياره بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، والحب موضع اضطرار ولم يكن له فيه شيء، وفي الاختيار أفاق شكرانه حين خلصه من فتنة اختياره لنفسه، وعلم أن ما اختياره الحق كان فيه الخيرة، وخاف من اختياره لنفسه لما نجاه الله من ذلك شكره.

وقال الواسطي: قد أحسن بي إذ أخرجني من السجن بعد أن عمدت فيه سواء بقوله لصاحب السجن: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾.

وقال جعفر عليه السلام: في قوله ربي لطيف لما يشاء أوقف عباده تحت مشيئته، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم، وإن شاء قربهم، وإن شاء بعدهم، فيكون المشيئة والقدرة له لا لغيره، ثم أظهر لطفه بعباده الذين خصهم بفضله بالمحبة والمعرفة.

وقال الأستاذ: ذكر حديث السجن دون البئر لطول مدة السجن، وقلة مدة البئر.

وقال في قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ إشارة إلى أنه كما سر برؤية إخوته وإن كانوا أهل الجفاء؛ لأن الأخوة سبقت الحفرة، ثم رجع إلى الحق بالكلية ووصف بما نال من كرمه بقوله: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ من ملك النبوة والعلم بحقائق المخاطبة، وأيضاً أعطيتني من ملكك ملك الربوبية حيث ألبيتني شواهد

جودك وأنوار جودك حتى أملك بحسني وجمال قلوب العالمين، وأيضاً آتيتني من ملك شاهدتك وعلمتني من حقائق معرفتك.

ثم وصف الله سبحانه بالقدرة القديمة والعظمة الأزلية بقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وبين مكانته في قربه وساحة كبريائه بقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ حيث كشف جمالك لي في الدنيا، وعرفتني صفاتك، وتكشف أيضاً نقاب عزتك لي من وجهك الكريم في الآخرة، ثم حاج شوقه إلى جمال الأزل، ورأى تمام نعمة الله عليه فقال تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ أي: توفي حين أخرجتني من رؤية الحدثان، وتدير الأكوان وما سوي من العرفان والإيقان مما يبدوا إلى من كشف قدمك وجلال أبدك وأنوار ألوهيتك، غيبتني مني فيك حتى لا أبقى أنا فيك وتبقى لي، وألحقني بمن كان حاله بهذه الصفة.

قال سهل: في قوله توفي مسلماً فيه ثلاثة أشياء، سؤال ضرورة، وإظهار فقر، واكتساب فرض.

وقال أيضاً: أمتني فإنما مسلم إليك أمرك، مفوض إليك شافي، لا يكون لي إلى نفسي رجوع بحال ولا تدبير في سبب من الأسباب.

قال الدينوري: وألحقني بالصالحين مَنْ أصلحتهم مجالستك وحضرتك، وأسقطت عنهم سمات الخلق، وأزلت عنهم رعونات الطبع.

قال أبو سعيد القرشي في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ قال: هذا كلام مشتاق لم أجانس إلا بالله.

وقال الأستاذ: قدم الثناء على الدعاء كذلك صفة أهل الولاء، ثم قال: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أقول بقطع الأسرار عن الأغيار.

قال الأستاذ في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ علم أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، فسأل الوفاة.

ويقال: من أمارات الاشتياق تمني الموت على بساط العوافي مثل يوسف عليه السلام ألقي في الحب وحبس في السجن فلم يقل توفي مسلماً.

ولما تم له الملك واستقام له الأمر ولقي الأخوة سُجداً له، ولقي أبويه معه على العرش، قال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ فعلم أنه يشاق إلى لقائه.

ثم بين سبحانه أن هذه القصص العجيبة والأنباء الغريبة الأزلية على لسان النبي ﷺ

الأمي أمراً سماوي عرفه الله بالوحي الصادق والكلام الناطق بقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ لتخبر العاشقين والمحبين والمؤمنين لتسلي بها ألم فؤادهم وتعرفهم بها الصبر في بلاته، والشكر في آلائه، والشوق إلى لقائه.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(١٠٠)
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠١﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٢﴾.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ أخبر سبحانه أنه جماله وقدرته ألبس أنوار قدرته وهيبته على آيات السموات والأرض، وجعل كل ذرة من العرش إلى الثرى مرآة يتجلى منها لذوي البصائر من العارفين، وذوي العقول من الموحدين، ولا يريها إلا لمن كان له بصير منور بنور الإيقان والعرفان، وأعلمنا أن أهل الجهل والغباء محتجبون عنها حيث يرون ظاهرها ولا يرون حقائقها، وأيضاً آيات السموات شواهد الملكوت وآيات الأرض سلاسل بيداء الجبروت من العارفين والمحبين.

قال ابن عطاء: نظروا إليها بأعينهم ولم يلاحظوها بأبصارهم، فلا يكشف الأبصار لهم.

وقال: بعضهم لعلمهم من مواضع المكرمات والآيات من الله، وإلا تكاد على مَنْ ظهر ذلك عليهم، ثم شدد الأمر سبحانه ودقق على المجهور في أمر التوحيد وإفراد القدم على الحدوث بقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ وصف الكل في التوحيد بالإشارة إلى غيره في مقاماتهم، وذلك وصف من نظر إلى الوسائط والشواهد في معرفته وما بدأ من لطيف صنائعه بأهل معرفته حتى بلغ الشرك إلى نهاية أن مَنْ أحب الله تعالى لذوق قلبه من مشاهدته؛ فإنه مشرك في حقيقة التوحيد؛ لأن من أحب حقيقة التوحيد حبه لربوبيته ولوجوده لا بجموده، وَمَنْ نظر في رؤية الحق إلى نفسه أو إلى غيره من العرش إلى الثرى لم يكن موحدًا محققًا، وهذا مذهب الجمهور من العارفين.

قال الواسطي: إلا وهم مشركون في ملاحظة الخواطر والحركات.

وقال بعضهم: إلا وهم مشركون في رؤية التقصير عن نفسه والملازمة عليها.

قال الواسطي: رؤية التقصير من النفس شرك؛ لأن من لاحظ نفساً من نفسه، فقد جحد الأزلية للحق، ومن لام نفسه في شيء من أموره فقد أشرك.

قال الحسين: المقال منوط بالعلل، والأفعال مقرونة بالشرك، والحق بائناً لجميع ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۚ أَفَلَمْ يَسْمُرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٩﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ أي: معرفة الله ومحبته، وبذل الروح في طريقة، وانقياد النفس بوصف خنوعها لأمره طريقة، ادعوا من سبقت له الحسنى نبعث العناية في الأزل إلى مشاهدة الله ومحبته وبذل الوجود له، وهذه الدعوة مني على بصيرة ويقين وصدق وذوق وكشف وبيان من الله الذي لا معارضة فيه للنفس والشيطان، وهكذا من اتبعني بوصف المحبة، وطلب المشاهدة والرضوان في الوصال، وكشف الجمال على بيان من معرفتهم، وبيقين بلا شبهة ولا شك ولا تردد.

ثم وصف نفسه بلسان تنبيه وأمره أنه منزّه من كل خيال وعلل بقوله: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ﴾ أي: هو منزّه عن إدراك الخليقة ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ما أنا من الملتفتين إلى غير يوسف عليه السلام المحبة وطلب الربوبية منه تعالى عن كل خاطر إلا يشوب فيه شوب الحدثان؛ لأن من كان في حيز الحدثان فتوحيدة يليق بقدر الحدثان لا يقر قدم الرحمن.

قال ابن عطاء: أدعوكم إلى من تعودتم منه الفضل والأفضال والبر والنوال على دوام الأحوال، وهو الله الذي لم يزل ولا يزال جلّ وتعالى.

قال القرشي: من دعي الخلق إلى الله يحتاج أن يكون له صولة وقبول، ويكون هذه الآلات مندرجة في دعوته، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا﴾ ففرق بين من دعي إلى الله وبين من دعي إلى سبيل الله.

وقال بعضهم: الداعي إلى الله وبين من دعي إلى سبيل الله.

وقال بعضهم: الداعي إلى الله يدعوا الخلق إليه به لا يكون لنفسه فيه حظ، والداعي إلى سبيل الله يدعوهم بنفسه إليه؛ لذلك كثرت الإجابة إلى سبيله لمشاكله الطبع، وقل من يجيب الداعي إلى الحق؛ لأن فيه مفارقة الطبع والنفس.

وقال الراسطي في قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عمل الفوادح على بصيرة، فلا سموا ولا نموا له في حقيقته؛ فإن الناس كلهم مفاليس من صحة البصيرة والنخيرة، ولو

لقيت الأنبياء بهاتين الخصلتين لأفلسنهم أجمعين، وإني بالبصيرة والعالم كلهم مرتبطون تحت الجناح بها يقومون إليها يؤمرون، والأصل بصورة قاطعة، ونخيرة فائقة لضعف البصائر أطلق من أطلق الشئ من الملاء الأعلى كمن أبصر البحر أخرسه ذكره، فكيف إذا تجاذبته الأمواج وأخذته اللجج، وحقيقة بصيرة الناس هو مشاهدة رؤية الشيء، وهو قوله: ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ إذ بالله صحت البصائر، والبصيرة أعلى من النور؛ لأنه لا يصح البصيرة لأحد وهو تحرق رق ملك وما دام للشواهد والأعراض عليه أثر كانت بصيرته واهية. قال بعضهم: الدعاء من البصيرة، والنفاق من ضعف النخيرة.

وقال: البصيرة من لباس الأرواح ليس لها من الأجسام حظ.

وقال الواسطي: على بصيرة أيقن أنه ليس إليه من الهداية شيء، وقوله: ﴿أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعَنِي﴾ على ذلك، وعلمهم بالتفويض، والتسليم إمرتهم، ﴿وَسُبِّحْنَ اللَّهَ﴾ أنزه الحق عن أن يروم أحد السبيل إليه إلا به ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ادعى لنفسي مع الحق شامل الكل لمن له الكل.

وقال ابن عطاء: البصيرة أحرقت المعلوم والموعظة المحجوبة بظلم الأطماع، أما علمت أنه لا يصح بصيرة لأحد وهو تحت رق الملك وأدام الشواهد والأعراض عليه أثر كانت بصيرته واهية، والبصيرة إذا صحت سلم صاحبها من كل آفة.

وقال ابن عطاء: الفرق بين البصيرة والسكينة أن البصيرة مكشوفة، والسكينة مستورة.

ويقال: البصيرة أن يطلع شموس العرفان؛ فيندرج فيها أنوار العقول.

ولي هاهنا دقيقة فيها مشابهة كلام الكبراء في هذه الآية أدق مما ذكرت من الأول، أي: قل يا محمد هذه التي رأيت مني من سنن الإلهية التي اختار لي في الأزل هي الشريعة، ووراء الشريعة الطريقة، ووراء الطريقة الحقيقة، ووراء الحقيقة حقيقة الحقيقة، وهي البصيرة وتلك البصيرة إشراق جمال القدم لبصر الروح المطمئنة الساكنة بالله، الطائفة في الله، الهائمة لله التي طارت من قفص العدم في أنوار القدرة، ولا يسكن من طيرانها في أنوار الكبرياء والبقاء إلى الأبد، فموضع البصيرة إدراك نظر تلك الروح، وموضع الإدراك بصر الروح، فتلك البصيرة نور كشف صفات الحق المتصل على السرمدية بذلك الأمور، ويزيد ذلك النور حتى يضمحل فيه ذلك الإدراك، ويغلب سطواته حتى ينطمس تلك العين في ذلك النور، فلا يبقى هناك إلا نور الحق، وكيف يبقى الحدث في القدرة وعز السرمدية بسطواتها، يذهب آثار الحدثين في أوائل ظهور العرفان، أي في هذه حالتي وسبيلي مع الله، وأنا لا أدعوكم إلى هذه فإنها قاصرة

مضمحلة من الحق في الحق بل أدعوكم إلى الله حتى تعرفونه أنكم لا تعرفونه ولا تبصرونه بالحقيقة، فإنه أعز من أن يدرك بالأبصار والبصيرة، وهكذا من سلك سبيلي فأنا يفني في حقيقتي، يعلم أن إدراكه بالحقيقة محال، وسبحان الله هو منزّه عن إدراك المدركين - وإن كان نبياً مرسلًا، وملكًا مقربًا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إنهم يظنون أنه تعالى مدركهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُخِجَ مِنْ نُشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ١١٠ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ أخبر سبحانه من سته القائمة، ومشيتته الثابتة القديمة التي أجراها على أهل العناية من الأنبياء والمرسلين والعارفين والمحبين؛ حيث حبسهم في أسجان انتظار كشوف الغيب حتى بلغ قلوبهم إلى محل القنوط من وضوح جلاله وبرهان شمالكه وقدس عظمته، وخافوا من سوابق قهرياته وتنزيه ربوبيته عن كون الخلق وعدمه، فلما ذابت قلوبهم، واضمحلت أسرارهم، ومنيت عقولهم، وتحيرت أشباحهم، تطلع بكرمه من مشارق أسرارهم شمس أنور ذاته، وأنوار أقمار صفاته، حتى لا يبقى من ظلمة الالتباس وغبار الوسواس أثر، وهذا حتى قوله سبحانه: ﴿وَزَيَّنَّا الْقُرْآنَ لِلْعَرَبِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ١١٢. **نَصْرُنَا** خافوا على الغير لا على أنفسهم لئلا يهلكوا، فإنهم في رؤية مشاهدة القدم بأسراره نبعت السرمدية، هذا معنى الانتظار واضطرابهم وشوقهم إلى وضوح الأنوار.

لا من الشك في خصوصية الولاية وسبق العناية في النبوة والرسالة، وفي القراءة قرئ ﴿قَدْ كُذِّبُوا﴾ بالتخفيف؛ فعذرهم أنهم استغرقوا في قلزم^(١) الأزلية، وغابوا تحت بحار الديمومية، ولم يروا الحق من كمال استغراقهم في الحق، فلما لم يروه ناداهم بلسان عبرة قهر القديم، أين أنتم؟ غبتم عنه وعن الحقيقة، فيطلع أنوار الحقيقة عليهم، ويأخذ لطفها عن شبكات امتحان القهر، وهذا دأب^(٢) الحق مع الأولياء حتى لا يسكنوا إلى ما وجدوا منه، بل يفنوا به من كل ماله.

يقال: حكم الله بأنه لا يفتح للمريدين شيئًا من الأحوال إلا بعد بأسهم منها.

وقال: وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، فكما أنه ينزل المطر بعد

(١) الْقَلْزَمَةُ: ابتلاع الشيء، وبه سُمِّيَ الْبَحْرُ قَلْزَمًا.

(٢) في المخطوط: أداب.

الإيأس؛ فكَذَلِكَ يَفْتَحُ الْأَحْوالَ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْهَا، وَالرِّضَا بِالْإِفْلَاسِ عَنْهَا.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: لزوم الأحوال من العارفين والمحبين والصادقين والمتقين والصابرين والعاشقين؛ لأن فيها من مقلوبات أهل الولاية ما يليق بشأنهم من الفراق والوصال والبلاء والامتحان والعشق والمحبة، وتحمل الجفاء والمكاشفة والبراهين الساطعة، اقتداء بهم وطلباً لما وصل إليهم من الدرجات الرفيعة والمقامات الشريفة.

قال جعفر الصادق عليه السلام: أولى الأسرار مع الله.

قال ابن عطاء: عبرة لمن اعتبر وموعظة لمن اتعظ في أن النفس ليس هي بمحل أمن ولا اعتماد عليها.

قال الأستاذ: منها للملوك في بسط العدل كما بسط يوسف عليه السلام وفي المن على الرغبة والإحسان إليهم كما فعل يوسف عليه السلام لما ملكهم أعتقهم كلهم، ومن العبرة في قصصهم لأرباب التقوى أن يوسف عليه السلام ما ترك هواه رقى الله إلى ما دقاه، ومن ذلك العبرة لأهل التقوى في اتباع الهوى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لما تبعت هواها لقيت ما لقيت من الضرر والفقر، ومن ذلك العبرة للمماليك في حفظ حرمة السادة كيوسف عليه السلام لما حفظ حرمة في زليخا ملك منك بالعزيز وصارت زليخا امرأته حلالاً، ومن ذلك العفو عند القدرة كيوسف عليه السلام حيث تجاوز عن إخوته، ومنها ثمرة الصبر كيعقوب عليه السلام لما صبر على مقاسات حزنه، ظفر يوماً بلقاء يوسف عليه السلام، إلى غير ذلك من الإشارات في قصة يوسف عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه بيان جميع المقامات والمعاملات والمكاشفات والمشاهدات والآيات والكرامات والمنجيات والمهلكات ولطائف الإشارات إلى علوم اللدنية، والأسرار العجيبة، وهدى أي هادياً لمن له استعداد هذه الواقعات في طريق الله، وما يبدوا منه نعم مشاهدته، وكرائم ألطافه ورحمة، أي: هادياً لقلوب المحزونين، وباكورة لفؤاد المحبين، وشمومة لأرواح العارفين، الذين يؤمنون بالله لا بأنفسهم، يعرفون ربه لا بما منه، فإن ما منه محل الامتحان، وهو تعالى بجلاله معادن العرفان، والله أعلم.



سورة الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْعَمْرُ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَبِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لُبَّهَا عَلَىٰ بَعْضِ الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ * وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَيْنَا لِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾.

﴿العر﴾ إن الله سبحانه تجلي من فعله الخاص لفعله العام؛ فأجاد من بين الفعلين حروفاً جعلها صادق أسرار الصفات والذات، وأخبار الغيب، وغيب الغيب؛ فوضع في الألف سر الألوهية لنفسه، وسر الأنانية لصفوة توحيده، ووضع في اللام سر أزليته لنفسه، وسر لطفه وفي ظهوره بوصف الأزل لأهل التباسه من أهل عشقه وشوقه، ووضع في الميم سر محبته في هواء أزليته لطلب ألوهيته، ووضع في الراء أنور ربوبيته، وجعلها مرآة لعبوديته عبادة؛ فيرون منها لطائف صفاته وروح ملكوت قدسه؛ فلما انحسرت الأرواح من طلب الألوهية وجعلت إلى معادن أنوار الربوبية، وسكنت جمادات من مرآة حرف الراء من رحمته الكافية ورأفة الشافية من كل شيء دون الله؛ فالألف صندوق الألوهية لا يفتح إلا لأهل الأنانية في التوحيد، واللام صندوق نور الأزلية والجمال ولا يفتح إلا لأهل الوله في شوقه، والميم صندوق محبته الأزلية ولا يفتح إلا لأهل محبته؛ فالراء صندوق نور ربوبيته ولا يفتح إلا لسلاك عبوديته الذين مرادهم منه نفسه لا غير.

قال الشبلي: ما من حرف من الحروف إلا وهو يسبح الله بلسان ويذكره بلغة بكل لسان منها حروف، ولكل حرف لسان وهو سر الله في خلقه الذي يقع زوائد المفهوم وزيادة الأذكار.

وقال الحارث المحاسبي: إن الله لما خلق الأحرف دعاها إلى الطاعة؛ فأجابت على حسب ما حلاها الخطاب والبسها، وكانت الحروف كلها على صورة الألف إلا أن ألف بقيت على صورته وحليتها التي بها ابتدأت، ثم من سنة الله سبحانه أن وضع ما تكلم به من الأسرار في لباس الحروف على رأس كل صورة، وأشار بما عقيها من القول إليها وإلى أسرار

ما فيها بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: ما أشرنا في الحروف أسرار الكتاب وعلامات الخطاب، ولم يكن معوجاً معلولاً بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ أي: بيان وصدق واضح لمن له أهلية سر الكتاب، ولا يفهم ما فيها من الأسرار ذو فترة غافل، وذو غباوة جاهل بقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يعرفون حقائقها، ثم وصف نفسه سبحانه بالقدرة القديمة من الصفات وبالحكمة الأزلية من الأفعال بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ خاطب العموم بخطاب العام، أي: أنا رافع السماء بلا علة من العلل، ونفي العمد إذا كان معلولاً، وخاطب الخواص بخطاب الخاص، أي: دفعها بغير عمد يرونها بالأبصار؛ ولكن رفعها بعمد ترونها بالبصائر حيث ينكشف بوصف تجليها لها، وتلك العمد القدرة القديمة الأزلية الباقية، وهي الصفات قامت الأكوان والحدثان بها، ورؤية الصفة حيث تجلت حق كما أن رؤية الذات حق، ثم بين أن قدرته شملت الملك الأعظم بقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ ^(١) وأيضاً خلق سموات الأرواح بغير عمد بانتهى للخلق؛ لأنها مخزونة بسلاسل أنوار الأزل إلى عالم القدم والبقاء، ثم استوي أنوار تجليه على عرش القلوب.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ شمس المعرفة، وقمر العلم، أجراها بين سموات الأرواح عروش القلب تزيينا لملكة كواشفها ومعارفها، يجريان في عالم العقول بأنوار المشاهدة من رؤية الذات، وكشف الصفات تطلع في سماء الأرواح شمس الذات وفي عروش القلوب أقمار الصفات لانتظام أمور الربوبية وتفصيل حقائق العبودية بقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ يدبر أمر هموم المحبة ويفصل آيات المعرفة لوقوع أنوار اليقين وحقائق التمكين بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءُ رَبَّكُمْ تَوَقُّنُونَ﴾ أي: بهذه الأنوار تعينون تلك الأسرار، ويرون بقلوبكم مشاهدة الملك الغفار.

قال ابن عطاء: يدبر الأمر بالقضاء السابق، ويفصل الآيات بالأحكام الظاهرة لعلكم تتيقنون أن الله يجري عليكم هذه الأحوال ولا بد لكم من الرجوع إليه، ثم وصف سبحانه عجائب الملك والملكوت، وحكمة الغالبة في مصنوعاته بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ

(١) أي تَوَحَّدَ بجلال الكبرياء بوصف الملكوت وملوكنا إذا أرادوا التجلي والظهور للحشم والرعية برزوا لهم على سرير ملكهم في ألوان مشاهدهم فأخبر الحق - سبحانه - بما يقرب من فهم الخلق ما ألقى إليهم من هذه الجملة: استوى على العرش، ومعناه اتصافه بعز الصمدية وجلال الأحدية، وانفراده بنعت الجبروت وعلاء الربوبية، تقدس الجبار عن الأقطار، والمعبود عن الحدود، تفسير الفشيرى (٣/ ١٩١).

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴿١﴾ بسط أراضي قلوب أوليائه ببسط نور المحبة، وجعل فيها رواسي المعرفة؛ لئلا يتزلزل بغلبات هيجان المواجهيد، وأجرى فيها أنهار علوم الحقائق، وأنبت فيها أنواع أزهار الحكم وأشجار الفطن، وأثمرها بثمرات المقامات والحالات بقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ ثَمَرٌ﴾، وقرن بكل مقام حالا بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ﴾ ثم يمد عليها أطلال المشاهدة، ويطلع عليها شمس العناية بدوام الكفاية بقوله: ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ﴾ ثم وصفها ووصف أصحاب هذه القلوب الذين هم رواسي الأرضين، وأنفاسهم أعمدة السماوات، ورؤيتهم مشكاة أنوار الآيات إنهم علامات شمائله وسرج مشكاة قدرته لأهل التفكير في الإرادة والتذكر في المحبة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قال بعضهم: هو الذي بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه وسادة من عبده فإليهم الملجأ وبهم الغياث، فمن ضرب في الأرض بقصدهم فاز ونجا، ومن كان سعيه لغيرهم خاب.

قال الجريري: كان في جوار الجنيد إنسان مصاب في خربة، فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة، فلما رجعنا بقدم خطوات وعلا موضعاً علياً من الأرض واستقبلني بوجهه، وقال: يا أبا محمد تراني أرجع إلى تلك الخربة، وقد فقدت ذلك السيد ثم أنشد بقوله:

وَأَسْفَى مَنْ فَرَّقَ قَوْمٍ	هُمْ الْمَصَابِيحُ وَالْحَصُونُ
وَالْأَسَدُ وَالْمِزْنُ وَالرَّوَّاسِي	وَالْخَيْرُ وَالْأَمْنُ وَالسُّكُونُ
لَمْ تَنْغِيرْ لَنَا اللَّيَالِي	حَتَّى طَوَّقَهُمُ الْمَنُونُ
فَكُلُّ جَمْرٍ لَنَا قَلْبٌ	وَكُلُّ مَاءٍ لَنَا عَيْونُ

قال بعضهم: الفكرة تصفية القلوب لموارد الفوائد.

قال أبو عثمان: الفكرة استرواح القلب من وساوس التدبير.

ثم وصف أراضي القلوب وما فيها من أشكال العيوب بقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ قلوب المحبين متجاورات لقلوب المشتاقين، وقلوب المشتاقين متجاورات قلوب العاشقين، وقلوب العاشقين متجاورات قلوب الواهين، وقلوب الواهين متجاورات قلوب الهائمين، وقلوب الهائمين متجاورات قلوب العارفين، وقلوب العارفين متجاورات قلوب الموحدين، وفي أرض قلوب العارفين قطع متجاورات قطع النفوس الأمارة متجاورات بعضها بعضاً، وقطع العقول متجاورات بعضها بعضاً، وقطع الأرواح

متجاورات بعضها بعضاً، وقطع الأسرار متجاورات بعضها بعضاً؛ فقطع النفوس مألحة ملحها الهوى، وقطع العقول عذبة بعذب العلم، وقطع الأرواح طيبة بطيب المعرفة، وقطع الأسرار لطيفة بلطف الأنوار متقاربة بعضها بعضاً؛ فقطعة النفوس تنبت شوك الشهوات، وقطعة العقول تنبت نورة العلوم، وقطعة الأرواح تنبت زهر المعارف، وقطعة الأسرار تنبت كواشف الأنوار ﴿وَجَنَّتْ مِّنْ أَغْتَسِرَ﴾ العشق يسكر منها الأرواح، وفيها زرع دقائق المعرفة تأكل من حبها العقول؛ فترى بها أنواع المعاملات، وفيها يحيل الإيثار ثمرها الإيقان يأكل منها أطياف الأسرار.

قال الله تعالى: ﴿صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ إيمان مع يقين وعرفان من غير علة الاستدلال، ورؤية الآيات سقي هذه البساتين من زلال قاموس الكبرياء لقوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ أصل سقيها من عيون الإلهية بوصف تجليها، وهو واحد منزّه عن الأكوان والتغاير لسقيها من سواقي الصفات في جداول الأفعال، فلما وصل مياه التجلي، وأنوار الصفة إلى عالم الفعل، يورث كل صفة الفعل نوعاً من هذه الأشجار والأزهار، ففرع الفعل يتلون بألوان الأحوال، وإن كان أصل منزّها عن العلل وتغاير الحدّثان، وبعض المقام أشرف من بعض لقوله: ﴿وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ ورد المعرفة أنور من نرجس المحبة، ونرجس المحبة من ياسمين الإرادة، وثمر المشاهدة أطيب من ثمرة المراقبة، وهذه الإشارات من الله سبحانه لا يعرفها إلا العالمون بالله بعقول صافية من الأكدار، وقلوب حاضرة مشغولة بالله عن الأغيار لقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فالعقل ربّ الربوبية في مواطن الفطنة والفطرة يزم بها الحق قلوب الخلق ويمجّرها إلى العبودية لوجدان المعرفة والقربة؛ فَمَنْ وافق حاله مع الله في معرفته حال واحد من أوليائه؛ فهما من أصل واحد من غير تباين وتفرق.

كما روى جابر عن النبي ﷺ قال لعليّ عليه السلام: «الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة»، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ...﴾ حتى بلغ: ﴿...يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾.

وقال الحسن البصري: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة فسطحها وبطحها؛ فصارت الأرض قطعاً متجاورة؛ فينزل عليها الماء من السماء فيخرج هذه زهرتها وثمرتها وشجرها، ويخرج نباتها ويحي موتاه، ويخرج هذه شجرها وملحها وخبثها وكلتاها يسقى بماء واحد؛ فلو كان الماء ملحاً، قيل: إنما هذه من قبل الماء

كذلك الناس خلقوا من آدم ﷺ فتنزل عليهم من السماء تذكرة؛ فترق قلوبهم فتخشع وتخضع، وتقسوا قلوب وتلهوا وتسهوا وتجفوا.

عن الجنيد قال: خلق الله الخلق وأظهر آثارها وأحيى منبتها متحرقة إلى كل فج عميق وبلد سحيق، وجعلها قطعاً متجاورات، قيعاناً متقاربات، وألواناً متشابهات، جميعها في النظر وفرقها في المواطن؛ فسقاها بماء واحد وفضل بعضها على بعض في الأكل؛ فجّل ربنا - عز وجل - من قادر قاهر، جعل ذلك سبيلاً إلى معرفته ودلالة لربوبيته.

قال الواسطي في قوله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ لم يتلون الإرادات، وتلون المرادات كما تلونت الأشجار والثمار، ولم يتلون المياه التي سبقت الأشياء المختلفات، كذلك العلم بالأشياء لا يتلون، وتتلون المعلومات؛ فمن قال: كيف فهو؟ لضيق القدرة عنده وعلى تكوين الحداثات لعللة إثبات الربوبية وامتدادها، ولئلا يسبق إلى الأوهام شيئاً من الكون بغير إرادته، فأراد الموت والحياة والظلمة والضياء - لم يتلون الإرادة، كذلك ما أراد من الكفر والإيمان، قال الله: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ الآية.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «العاقل من عقل عن الله أمره»^(١).

وقال الواسطي: العقل ما عقلك عن المجازي.

ثم بين سبحانه إنها وصف من ذكر آلائه ونعمائه وصنوعاته ومصنوعاته لا ينفع بمن لا سعادة سابقة له مساعدته، ولا يفتح له عين غير العقل، بحيث يعجب المخاطب الكريم إنكارهم بقوله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ﴾ من غاية استغراقه في بحر الكمال التوحيد، وغلبة صدق الرسالة ﷺ يعجب بمن لا يعرفه بالصدق في رسالته، حيث أطلع من جماله وشمائله شمس آيات القدم ونور قمر الكرم، وأي شيء أعجب من ذلك أن من له عقل ونظر لا يبصر فيه شواهد الملكوت وأنوار الجبروت، إذ الجهادات نطق بصدق رسالته؛ فتسلاه الحق سبحانه بقوله: ﴿فَعَجَبٌ﴾ أي: عجب من ذلك العجب أن من يظهر في نفسه آيات الله في كل لمحة أنف مرة ولم يرها بعين البصيرة ويموت ويحيى في كل ساعة ألف مرة، ولا يعرف وجوده من عدم، ولا عدمه من وجوده؛ فإن عند كل نفسين للإنسان موتاً وحياة فعند صعود النفس له موت، وعند دخول النفس في جوفه من طريق الحس حياة؛ ولكن ليس من الحق عجب؛ فإنه تعالى يضل به من يشاء ويهدي من يشاء؛ فإذا ذهب العجب إذ ليس شيء منه عجب.

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٧٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤/ ١٦٦).

قال الجنيد: ذهب العجب بقوة سلطان العجب كل العجب من العجب ألا تعجب، قال الله: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾.

قال الحكيم الترمذي: ليس العجب من العجب ممن يتعجب من العجب إذ لا عجب. ﴿وَتَسْتَغْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٦﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَغْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ وصف الحق أهل الدعاوي حين تعجلوا بالمجاهدات والرياضات، واستقبلهم بآليات الطريقة قبل ذوقهم شرف الأحوال، ووصلهم إلى طعم المواجيد البديهية من الحق بلا علة الاكتساب، وبروز لمعات الغيب في أسرارهم التي يتولد منه صدق الإرادات في المعاملات، وذلك لأنهم جميعاً حيث أهل الكرامات فتمنوا جاههم عند الخلق ولا ينعقد لهم صدق النية في طريقهم؛ فلا يفتح الله عليهم إلا طريق الهوى والنفس والشهوات وحب الجاه والمال، وعاقبهم الله بسقوطهم عن قلوب الخلق كما فعل سبحانه بأهل الرياء والسمعة بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾.

وقال جعفر في قوله: ﴿وَتَسْتَغْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي: بالعقوبة قبل العافية، ثم بين أن من سبق لهم العناية من المريدين يسامحه بلطفه، حيث نزل قهر قدمه في مهوات طبيعته بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ ظلمهم مخالفة عقائدهم واتباعهم هواهم بعد معرفتهم أفات النفوس.

قال بعضهم: إن ربك ليستر على أودائه ما أظهرها من المخالفات من ظلمهم أنفسهم باتباع هواها والسعي في موافقة رضاها.

قال أبو عثمان: إنما يرجوا المغفرة من الله من يرتكب الذنوب على خطر وخوف وحذر لا من يفتخر فيها من غير مبالاة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: أنت منذر المريدين من عقوبة الحجاب، ومنذر المحبين من مواراة العتاب، ومنذر العارفين من صولة الإجلال والخيال والحياء في مشاهدة الكمال، ولهؤلاء لكل واحد منهم هو بجلاله تعالى معرفة له طريقة إليه، ويوفقه بما اختار له في الأزل، أي: أنت منذر مخبر عنا ونحن نهديهم إلينا، لأنك شفيع الجنابة

لا شريك القدرة، وأيضاً لكل قوم لكل طائفة من أهل المعرفة شيخ يعرفهم طريق الحق، ولا بأس بأنه فعل الله، وفعله ميراث صفته، وصفته قائمة بذاته، كأنه هو من حيث عين الجمع، ألا ترى إلى قوله لصفية **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَيْكِنِ اللَّهُ رَمَى﴾**.

قال ابن عطاء: إنما أنت مخبر عنا بصدق ما أكرمناك به عن القرب والزلف.

قال بعضهم: إنما أنت قائم بنا داع إلينا، فالسعيد من أطاعك وقبل منك، والشقي من عصاك وأعرض عنك.

قوله تعالى: **﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾** وصف إحاطة علمه القديم في القدم على كمية كل مقدور قبل ظهوره من العدم، فاستوى علمه القديم بمقادير يومًا أوجدها بعد عدمها؛ بحيث لا ينقص مثقال ذرة، إذا لا نقص في عز ربوبيته وإحاطته بمقدوراته، اصطفى سلاك مسالك معرفته، ومحبه بمقدار اختياره الأزلي قبل اصطفايتهم، فكلهم يسلكون بمقادير المعرفة السابقة والاصطفائية، وأصل الحقيقة من قوله تعالى: **﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾** أي: بقدر، وعزوا بشرف، إذ الكل منه يبدوا، وقدرها من قدره، وشرفها من شرفه، وأيضاً أي كل شيء عنده لفظات بيد قدرته، ولها حد ومقدار؛ لأن من أوصاف الحدين الحدود والنقصان، أي كل شيء محدود مقدور لإجلال قدر القدم.

قال الحسين: كل ربط بحده، وأوقف معرفته، فلا يجاوز قدره إلا من يعدو طوره.

قال بعضهم: كل شيء بوزن ومقدار، ومن لم يزن نفسه ولم يطالع أنفاسه فهو في حيز الغافلين، ومن لم يعرف مقداره وقدر عظيم النعمة عنده أعجب بنفسه، أو بما يبدو منها.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ **﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾** إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ **﴿﴾**.

قوله تعالى: **﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾** هذا تصديق ما ذكرنا في قوله: **﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾** لأنه كان عالماً قبل كون المقدور الغيبي، وعالماً بعد كون المقدور حين يبدو في عالم الملك والشهادة، وأيضاً عالم ما أسرار العارفين من عجائب كشوف أنوار عزته، والرقاب فؤادهم من الاشتياق إلى جماله، وعالم بشهادة شهودهم في حضرته بوصف الزفرات والتأوه والعبرات، الكبير من أن يدركه الأبصار، المتعالي تعالى كبرياؤه من أن يبقى عند سلطان كبريائه آثار الأغيار بقوله: **﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا**

وَجْهَهُ ﴿١﴾.

قال ابن عطاء: العالم على الحقيقة من يكون الشاهد والغائب عنده سواء بالعلم، لا بأن يستدل، والعالم على الحقيقة هو الحق - جل وعلا - الكبير في ذاته المتعال في صفاته.

قال جعفر: كبر في قلوب العارفين محله، فصغر عندهم كل ما سواه تعالى، إن تقرب إليه إلا بصرف كرمه، ثم وصف إحاطته على كل الضمائر وغيب الخواطر وما يجري على الظواهر بقوله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِآلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أي: من كتم دقائق حقائق المعرفة وأسرار لطائف الحكمة في قلبه، ولم يتلفظها بلسانه من تمكينه، وزيادة معرفته ومن جهر به بأن يتكلم من رأس سكرة هيجانه، ويخبر بغيب ما غاب من المريدين، ويشاهد خلوة الليالي؛ حيث ينكشف أنوار النزول لنظار الملكوت، وطلاب أنوار الجبروت، أو يستر حاله في ليل الملامة؛ إذ يظهر ما وجد في الخلوة في النهار منه الأبرار، ويخفي كلام المعارف في شرب الأسرار عن نظر الأغيار، فإنه تعالى لا يخفي عليه فرط خاثر المتكلم، وهدوء سره من هيجان التلوين، أو اختفاؤه بنعت الصدق والإخلاص، وظهوره بوصف غلبة الوجد والحال؛ فيقبل منه ما بدا منه، ويزيد عليه إنعامه وإكرامه، فإنه تعالى حافظ أوليائه، حيث حازهم في حيز حفظه ورعايته وأنوار بهائه، حتى يكون مستغرقاً في نوره، محفوظاً بعيون الطافه، بقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

قال النصر آبادي في قوله: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ﴾ ما أودعنا فيه من لطائف برنا، وكتبه إشفاقاً عليه، وأظهره ونادي عليه سروراً به، ومحبة له، فإنها جميعاً من أهل الأمانة في محل الحقيقة، أما المعقبات من بين يديه ومن خلفه، فالإشارة إليها أن أنوار اصطفايته الأزلية معقبات من خلفه، وأنوار العناية الأبدية معقبات من بين يديه، تحيطه وتحفظه جميعاً من أمر الله، أي من امتحانه في زمان العبودية، وذلك قهره الذي يطارق العبد العارف كل وقت غيراً منه عليه، فيكسره عساكر حسن عناية القديم، وجنود أنوار لطائف الاصطفائية، حتى لا

(١) أي كل شيء من الأشياء الموجودة في العين هالك من حيث تعينه الخاص إلا الوجه الذي يلي الحق؛ وهو أحد وجهي الحقيقة الكونية التي هو الإطلاق على ما ذهب إليه أهل التفسير والتأويل، وعلى هذا يدور سرُّ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ وكل من العرش والشرع مقلوب الآخر، فكما أن الرحمة العامة مستوية على العرش المجيد العظيم؛ فكذا الأمر التكليفي الشامل مستوية على الشرع الشريف، وعمله في الحقيقة هو الإنسان الذي هو الكرسي؛ لأن كلاً من الأمر والنهي إنما ظهر في العرش إجمالاً، ثم في الكرسي تفصيلاً، والروح.

يضربه القهر، ويكون محروسًا باللطف، وذلك قوله سبحانه: ﴿تَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(١) وتصديق ذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

فسوابق رحمته تحفظه من غضبه.

قال بعضهم: المحفوظ بالأسباب محفوظ بالمسبب، وأمره، فالعلماء رأوا السبب، والعارفون رأوا المسبب، قال الله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾.

قال ابن عطاء: الأسباب تحفظك من أمره، فإذا جاء القضاء خلى بينك وبينه، كيف يكون محفوظًا من هو محفوظ من حافظه، والمحفوظ على الحقيقة من هو محفوظ بالحافظة لا محفوظ من الحافظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(٢) الله سبحانه المشيئة السابقة والامتحان، فأما أمر المشيئة قائم بإرادته لا يتغير من شتان المشقة، ولم يكن ذلك ملحقًا بالأسباب، وأمر الامتحان ملحق بأسباب العبودية، ويكون العبد معانًا بالقدرة القديمة من المشيئة السابقة عليه، وأمور بالتصرف فيه، فإذا تحرك فيه سر القدر بتغير الحال فتغير ما به بقوة القدرة، فيغير الحق سبحانه عليه ما يغير بنفسه من جهة القدرة وقوته مجازاة، وكيف يكون العبد في القدرتين والمشيئتين قادرًا بشيء؟ إنما ذكر الحق سبحانه على غرف الأسباب لإدراك فهم الخلق ونظام العبودية، فإذا ادعى المريد فوق حاله بما ادعى، يغير عليه ما أعطاه ويشد عليه موارد القربة، ويبقى في الامتحان والفرقة.

قال جعفر الصادق: لا يوفقهم لتغيير أسرارهم، ولا يغير عليهم ولو وفقهم لتغيير الأسرار ومشاهدة الباري لذلوا وافتقروا، فقالوا به النجاة.

وقال النصر آبادي: لكل قوم تغيير وتبديل؛ ولكن لا يناقش العوام في التغيير والتبديل، مثل ما يناقش عليه أهل الصفة.

قال بعضهم: غيروا ألسنتهم عن حقائق ذكره فغير قلوبهم عن لطائف بره، وغيروا أنفسهم عن معاني العبودية، فغير قلوبهم عن دلائل الربوبية.

قال الواسطي: حذرهم ما أنزل بهم أن يغيرهم نعمة الله على أنفسهم، وذلك من خذلان الله لهم، فيزيد الله عليهم التغيير، كما قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

وقال بعضهم: إن الله لا يحرم عبده نعمة إلا إذا قصر في شكره أو نسوه.

(١) سبق تخريجه.

ولي قول آخر: إن القوم لما امتحنوا وبقوا في امتحانهم ولم يلجثوا إلى الحق نعت بالتضرع والتواضع والافتقار ولم يغيروا موضع تقصيرهم في دعوتهم في الامتحان؛ فأهملهم الله وألقاهم فيما هم فيه ولو خضعوا له أزال عنهم العلة والامتحان وأعوذهم النعمة مكان البلاء.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾. نبه سر الآية أن جمهور السالكين لا ينجون من محل امتحانه؛ فالزم عليهم نعت القهر، كما ألزم عليهم نعت اللطف، ولا ينفك عنهم نعت القهر ماداموا في العبودية كما لا ينفك عنهم نعت اللطف، وذلك تربية منه لهم، ولا ينفك عنهم وإن تضرعوا وخصوا أو سألوا زوال ذلك، لكن يسهل عليهم جريان أقدار القهر فهو المجري عليهم وهو المستهل عليهم وذلك قوله: ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾.

قال القاسم: إذا أراد الله هلاك قوم حسن في أمنيهم وأراد الهلاك حتى يمشون إليها بأرجلهم وتديبرهم وهو الذي أتى بهم.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۖ وَتُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾. بين سبحانه هزما مقامات المريدين والمتوسطين حيث ذكر البرق والخوف والطمع، وأين العارفون من مقام الخوف والرجاء وهم في قنوط النكرة وأمن المعرفة، وأين هم من مقام البرق وهم محترقون في بروق شمس مشاهدة القدم والأزل، هذا حال سلاك الطريقة إذا سافروا في بيداء المحبة والشوق وهم عطاش في سراب الحيرة؛ فيتلطف بهم تعالى وينشئ شمال الشفقة وسحاب الألفة ويريمهم برق تجلي المشاهدة ويمطر عليهم وابل أوصال من مزن الجمال؛ فيخافون من فواته تارة، ويطمعون بقاءه تارة، وأيضا هو الذي يري المحبين برق المكاشفة، ويكشف لهم نور المشاهدة وينشئ للعارفين سحاب العظمة الثقال بأنوار الهيبة، ويمطر عليهم طوفان بحر الأزل والآباد؛ فيفنيهم لطوارق العظمة، ويحيهم بقاء حياة ألوهية فسقر الإرادة تحت سحاب المنة، وكشف برق المشاهدة وخوف الفرقة وطمع الوصلة.

كما أنشد الشبلي:

أظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمًا سَحَابَةٌ أَضَاءَتْ لَنَا بَقَا وَأَبْطَأَ رَشَاشُهَا
فَلَا غَيْمُهَا يُجْلِي قَيْئَاسَ طَامِعٍ وَلَا غَيْثُهَا يَأْتِي فَيَرْوِي عِطَاشُهَا

ثم وصف سبحانه أهل كمال ببدء توحيده الذين قاموا عليه بشرط الفناء من مشاهدة قدمه، ورؤية بقاءه بالوجد والأحوال والزفرات والعبرات والفناء والبقاء بقوله: ﴿وَتُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ الرعد هاهنا شهقات الصديقين من الوجد والهيجان في بحار العظمة من وقوع أنوار تنزيه القدم في قلوبهم؛ فرعد شهقاتهم لسان الربوبية تقدر ساحة كبريائه عن غار حوادث الحدثن والملائكة أرواح العارفين وهي فانية من إجلال عظمتها، ناطق ينطق أزليته بوصف ديموميته، وإذا أشرق شوامخ القدم والبقاء من طلوع شمس الذات والصفات؛ فيقع صواعق الكبرياء على أهل التجريد والتفريد، فيفنيهم عن الحدثن وتحرقهم عن نفوسهم؛ هكذا يفعل بهم سطوات القدوسية وسبحات الألوهية غيره على مشاهدة القدم.

قال ابن البرقي: في هذه الآية يريكم أنوار محبته فمن خائف في استتارة وطامع في تجليه.

وقال أبو علي الثقفي: ورود الأحوال على الأسرار كالبروق لا يمكن بل تلوح، فإذا لاح فربما أزعج من خائف خوفه وربما حرك من محب حبه.

قال أبو بكر بن طاهر: خوفًا من اعتراض الكدورة في صفا المعرفة، وطمعًا في الملازمة في إخلاص المعاملة.

وقال أبو يعقوب الأبهري: خوفًا من القطع والافتراق، وطمعًا في القرب والاستباق.

وقال بعضهم: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه.

قال ابن عطاء: خوفًا للمسافر، وطمعًا للمقيم.

قال ابن الزنجاني: الوعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم.

وقال الأستاذ: كما يريهم البرق في الظاهر؛ فيردددهم بين خوف وطمع، خوفًا من احتباس المطر، وطمعًا في محبته، وخوفًا للمسافر في مجيء المطر، وطمعًا للمقيم في مجيئه، كذلك يريهم البرق في أسرارهم بما يبدو فيها من اللوائح ثم اللوامع ثم الطوالع ثم كالبرق في الضياء، وهذه أنوار المحاضرة ثم أنوار المكاشفة إلى المشاهدة، ثم إلى الوجود ثم من قام الوجود إلى كمال الخمود.

ويقال: البروق من حيث البرهان، ثم يزيد فيصير كأقمار البيان، ثم يصير إلى نهار الفرقان؛ فإن طلعت شمس التوحيد فلا خفاء بعده ولا استئثار ولا غروب لتلك الشمس.

كما قيل: هي الشمس إلا أن الشمس غيبة، وهذا الذي يفنيه ليس يغيب.

ويقال: يبدو لهم أنوار الوصل؛ فتخافون أن يجن عليهم ليالي الفرقة.

قيل: ما تجلوا فرحة الوصال من أن يعقبه رجة الفراق.

كما قيل:

أَيَّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِي بِوَصَالٍ لَمْ تَرْعَنِي ثَلَاثَةً بِصُدُودٍ
وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ إذا أنشئت السحابة في السماء
أظلم في الوقت الجو، لكن يعقبه بعد ذلك ضحك الرياض، وما لم يبك السحاب لا يضحك
الرياض.

كما قيل:

غمامة في السماء تبكي والأرض من تحتها عروس
كذلك تنشئ في القلب سحابة الطلب؛ فيحصل للقلب تردد الخاطر، ثم يلوح وجه
التحقيق فيضحك الروح بفنون أنوار الأنس وصنوف أزهار القرب.
وقال في قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾: قد يكون في
القلب حنين وأنين وزفير وشهيق والملائكة، إذا حصل لهم على قلوب المريدين خصوصاً
اطلاع يكون وما لأجلهم لاسيما إذا أوقع لواحد منهم فترة، والفترات في هذه الطريقة
الصواعق التي نصيب بها من يشاء، وما قيل ما كان أوليت من وصلنا إلا سراجاً لاح ثم
انطفئ.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ
كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ دعوته الحق مناداته في الأزل، نبعت محبته وشوقه إلى
أرواح المحبين والعارفين؛ فاستجاب بإجابته المحبة والشوق إليه، وأيضاً له دعوة الحق على
لسان الصديقين يدعون بها المسترشدين إلى مشاهدة جماله، حين وصفوا جلاله وجماله ليبدو
في قلوبهم آثار محبته، وهذه الدعوة سالمة من معينة الهلاك، وما سواها من الدعوة؛ فهو دعوة
صاحب النفس والجهل مَنْ رأى الرياء والسمعة لا يفضي إلا إلى الاحتجاب والعمى عن
طريق الصواب.

قال الله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: وما دعاء المرابين من أصحاب
النفوس والهوى إلا في ضلال عن طريق الحق والإخلاص.

قال ابن عطاء: أصدق الدعاوي دعاوي الحق؛ فَمَنْ أجاب داعي الحق بلغه إلى الحق ومَنْ أجاب داعي النفس رمي به إلى الهلاك.

قال بعضهم: داعي الحق من يدعو بالحق إلى الحق.

وقال جعفر: من دعي نفسه فاني نفسه داعي، وهو الكفر والضلال، وذلك محل الخيانة والإسقاط من درجات من أهل الأمانة؛ فإن الدواعي يختلف داعي الحق وداعي إلى الحق وداعي إلى طريق الحق، كل هؤلاء دعاة يدعون الخلق إلى هذه الطريق لا بأنفسهم؛ فهذه طرق الحق وداعي يدعو بنفسه، فإلى أي شيء دعي فهو ضلال.

وقال الأستاذ: دواعي الحق صارخة في القلوب من حيث البرهان؛ فتدعو العبد بلسان الخواطر، فَمَنْ استمع إليها بسمع التفهم استجاب ببيان العلم، وفي مقابلتها دواعي الشيطان، وهي موبقة للعبد تتزين المعاصي؛ فَمَنْ أصغى إليها بسمع الغفلة استجاب بصوت الغي ومعها دواعي النفس، وهي قائدة العبد بزمام الحظوظ، ومَنْ ركن إليها ولا حظها وقع في هوان الحجاب، ومن الدواعي دواعي الحق بلا واسطة ملك ولا بدلالة عقل ولا بإشارة علم؛ فَمَنْ اسمعه الحق ذلك استجاب لا محالة بالله لله.

وقال في قوله: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ هو اجس النفس ودواعيها تدعوا إلى ما في الطريقة شرك، وذلك شهود شيء منك وحسبان أمر وتعريج في أوطان الفرق، والعمى عن حقائق عين الجمع.

وقد وقع لي في زمان الصبا من هذا القبيل في دواعي الحق كلمات مسطورة، وذلك بما تفحصت أسرار الخواطر؛ فوجدت دواعي اللطف والقهر من الحضرة على سبعة أنواع، دعوة الحق خاصة بلا واسطة، ودعوة لمسة الملك، ودعوة الروح، ودعوة العقل، ودعوة القلب، ومن قبيل قهره دعوة النفس والشيطان.

والآن أتم عشرة الثلاثة الزيادة، اثنان من قبيل اللطف، والواحد من قبيل القهر، الاثنان لسان السر ولسان أسرار السر، والواحد لسان الفطرة الطبيعة، وأما دواعي القهريات وأولها دواعي الشيطان وعلامتها النزع، وهيجان النفس، والطبيعة واحتراق الصدر، وغمة في القلب غبار في عين الروح، وخفة في النفس، وانجذاب في الطبيعة إلى طلب حظوظ الشهوات، وأكثر ما يلقي الوسواس ما يفضي إلى الكفر والكبائر؛ فَمَنْ أجابت تزندق وهلك في أودية التشبيه والتعطيل والأهواء المختلفة، والثاني هو اجس النفس الأمانة تدعو النفس والشيطان صاحبها بلسان العلم إلى مهالك الرياء والسمعة.

وقيل: مَنْ يعرف ذلك المكر والخديعة؛ فَمَنْ أجابها صار مرتها بالبطالة والكسالة

والقساوة، ويكون محجوبًا عن حسن الإرادة والصحة، والثالث داعي الفطرة الطبيعة وذلك سر عجيب هو تحرك الفطرة المخمرة باستعداد قبول الشهوة الخفية التي في مكان غيب القلب، وهو يكون بعد أن يحركها سر القهر إلى طلب ما خلق لها من لذائذ ميلها وحركتها إلى ما يقوي به من الصفات البشرية والشهوة، وذلك الشهوة الحقيقية التي أضمرت الفطرة الطبيعة.

وتلك ما استغاث منها النبي ﷺ وقال: «أخوف ما أخاف عليكم الشهوة الخفية من أجابها بعد حركتها دعوتها صار محجوبًا عن روح الذكر وأنوار الفكر»^(١).

والسبعة التي من دواعي اللطف، أولها: دواعي القلب وهو أمر منه لصاحبه بترك الاشتغال لتزكية الأعمال ووقوع صفاء الأذكار لوجدن طمأنينته ولذة اليقين، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ فَمَنْ أجابها بنعت المراقبة وتقديس الخواطر يذوق طعم صفاء العبارة ويمجد روح الملكوت ونفحة الجبروت.

والثاني: داعي العقل وهو أن يدعو صاحبه إلى تزكية النفس ومجاهدتها ورياضتها وفنون الطاعات والخلوات؛ فَمَنْ أجابه وصل إلى أنوار المراقبات والمحاضرات.

والثالث: داعي الروح وهو أن يدعو صاحبها إلى الخوض في تفكير الغيوب، وطلب أسرارها، وطلب رؤية أنوار الملكوت، واستماع أصوات الجبروت، وطلب كشف هلال المشاهدة في المحاضرة وسقي شراب المحبة بكثوس الشوق؛ فَمَنْ أجابها بنعت خروجها من أوصاف البشرية وتحليه بالمحلية الروحانية وإسقاط علل الإنسانية يجد حلاوة بروق التجلي من مرآة الإيقان والعرفان.

والرابع: داعي الملك وهو الهامة بأمر الله سبحانه يلهمه بعلم يفرق به بين الحق والباطل من خطوات اللطيفة والقهرية وما يثول عاقبته متابعة الكتاب والسنة؛ فَمَنْ أجابه يقع في بحر الحكمة ويستخرج منها جواهر علوم الإلهية.

والخامس: لسان داعي السر وهو أن يدعو إلى تجديد الهمة من الأكوان والحدثين؛ فَمَنْ أجابه يصل إلى كشف مشاهدة الرحمن، ويرى بنور تجليه عجائب أسرار المعرفة في خزائن الربوبية.

والسادس: داعي السر وهو لسان النور يناديه من وراء غيب الغيب إلى أفراد القدم عن الحدوث والانخلاع من الوجود، والانسلاخ من جلد العبودية، والإيقان بصفات الربوبية؛ فَمَنْ يصل إلى مطالعة مشارق أنوار التجلي الصفات والذات.

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (١/١٦) بنحوه.

والسابع: داعي الحق بنفسه بلا واسطة هو ثلث مراتب، المرتبة الأولى: مناداته بلسان الأفعال الخاصة ودعاؤه به إلى مشاهدة الصفات في الفعل وهو مقام مشاهدة الالتباس؛ فَمَنْ أجابه يقع في بحر العشق الذي يعرفه بأمواج اللطف حيث يدعو بلطائف الالتباس ولا يبقيه فيه بل يخرج به إلى معادن الصرف ويريه بعض أحكام الصفة لأعلى حد الكمال.

المرتبة الثانية: داعي الصفات وذلك يدعو إلى النظر إلى طلوع أقمار الصفات من مشارق الذات ليدقه من كل صفة ذوقاً، ويستعين من عين كل صفة شراً ليكون كاملاً في حل موارد أنوار الذات؛ فَمَنْ أجابه يقع في نور السماء والنعمت فيطير بجنحي.

وذلك كلام الصوف المقرون خطابه بكشف الحقيقة من عين الذات يدعو إلى الفناء في كنه القدم وأزلية الذات وأبديته؛ فَمَنْ أجاب سره وسر سره إلى ذلك يقع في بحر طوابع شمس، القدم وقدم القدم وأعمار الأبد وأبد الأبد، وينكشف له العين وعين العين، وعجب العجب وغيب غيب الذات؛ فيصير متصفاً بالذات والصفات بعد فنائه في الذات، والصفات بنطقه بعد ذلك نطق الأزل وسمعه سمع الأزل وعينه عين الأزل ويده يد القدرة بقوله: بعد خروج هذا العبد من رسوم العبودية إلى جلال الربوبية كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً؛ فيؤيده عودة وجلال وجوده إلى معرفة نفسه بنفسه، ثم يعرف نفس العبد للعبد، فيعرف الحق بالحق ويعرف نفسه بالحق بعد نسيان نفسه في الحق هذا معنى قوله: مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه، ثم وصف نفسه تعالى بإذعان الوجود بنعت التلاشي بين يدي كبريائه.

بقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ يسجد له أهل الملكوت بعد أن شاهدوا عظمتهم وخوفهم وإجلاله، ويسجد له الآدميون والجن بعد أن شاهدوا أنوار ربوبيته، فمنهم من سجد طوعاً لما كشف له من أنوار جماله تعالى؛ فيسجد ويخضع محبة وشوقاً وعشقاً ومعرفة وتوحيداً، ومنهم من سجد له كرهاً في مقام المجاهدة وتكليف العبودية والمتابعة كرهاً لما لم يكشف له دواعي العشق والمحبة والشوق من الحق ومن اللطف معاينة أن العشاق والمحبين يسجدون طوعاً لأنهم في محل العبودية من العشق والمحبة، وأن أهل الكمال من العارفين والموحدين يسجدون له كرهاً لأنه في مقام شهود الربوبية، وهم في الحالين هناك في كرههم في السجود إحداهما أن بعضهم عاين عين القدم وجلال الأزل والأبد، ولا يرون سجود الحدثان يليق بعزة الرحمن بل يرون الحدثين متلاشين في أول بديهة سطوة جلاله، وأن الخلق والخلقة من خدمته وهو بعزته أعز من أن يقرب إليه أحداً بسجوده له.

والثاني: أن بعضهم شربوا في بحار الأزلية شربات الإنصاف والاتحاد، ولكن لم يكونوا

كاملين في مقام الانفراد والاتحاد بالربوبية؛ فيسجدون له كرهاً، فإن العبودية شرك في الربوبية ومن كمل منهم لا يكون حاله حال العبودية بل حال الربوبية من استغراقه في أحديته، وليس هناك للعبودية أثر، وسكران التوحيد ينسلخ عنده علة الحدثين؛ فالعبودية على من هو سكران غائب، بل فإن عن الوجود في الوجود، وأيضاً الإنسان علم الصغير بالصورة، وعالم الكبير المعنى فصورته من أعلاها السماوات، ومن أسفلها الأرض، ومن في السماوات والأرض الروح والعقل والقلب والنفس وجنودهم؛ فيسجد الأرواح طوعاً عند كشف الجمال روحاً وأنساً، وتسجد القلوب طوعاً عند كشف الجلال إجلالاً وتعظيماً، ويسجد العقل طوعاً عند كشف الآلاء وأنوار الأفعال ذكراً وفكراً واعتباراً، وتسجد النفوس كرهاً عند كشف أنوار الجبرية والقهارية خوفاً وخشية، وذلك لأنها خلقت أبده بما فيها من نظر القهر ونكرته، ويسجد ظلال الأرواح والقلوب، وهي الأسرار الممكنة التي جعلها الله مرآته بحقائق العرفان؛ فيسجد الأسرار التي هي ظلالها عند طلوع شمس الألوهية من مشرق الأزلية، وغروبها في مغرب الأبدية، وتوحيد أو فناء في بقائه، واضمحلالاً في قدم، وتسجد ظلال النفوس، وهي هواها، راغمت عند طلوع شمس القهريات كرهاً لكره النفوس استسلاماً وانقياد على جناب الربوبية.

قال الجنيد: العارف طوعاً، والمعرض كرهاً.

وقال: إذا نزلت به المصائب ذل، وإذا جاء به الرخاء بل.

قيل: السجود على قسمين، ساجد بنفسه، وساجد بقلبه؛ فسجود النفس معهود، وسجود القلب من حيث الوجود، وفرق بين من يكون بنفسه ساجداً، وبين من يكون بقلبه واجداً فأغرمهم من جمع بين الوصفين فيكون ساجداً بنفسه وواجداً بقلبه.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي: لا تستوي المظلموس عين قلبه عن شهود مشاهدة القدم ورؤية أنوار الأزل بمن يبصر بصر روحه بنور الحق جمال الحق على نعت السرمدية بلا غواشي الطبيعة ومعارضة الخليقة، ولا يستوي ارتفاع ظلمة دخان النفوس في معارك العبودية بسطوع أنوار الأرواح إلى صفائح القدس، ينعت بنفسها في مجالس الأنس، وأيضاً من يبصر بنور الحق جمال الحق على نعت

رَإِبِيًّا ﴿ شَبَّهَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ الْمَاءَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأُودِيَةِ بِهَا نَزَلَ مِنْ مِيَاهِ بَحَارِ أَنْوَارِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ وَأَفْعَالِهِ إِلَى قُلُوبِ الْمُوَحِّدِينَ وَالْعَارِفِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُكَاشِفِينَ وَالْمُشَاهِدِينَ وَالْعَاشِقِينَ وَالْمُشْتَاقِينَ وَالْمُحِبِّينَ وَالْمُوقِنِينَ وَالْمُخْلِصِينَ وَالْمُتَعَبِّدِينَ وَالْمُرِيدِينَ، وَكَمَا يَحْتَلِ الْأُودِيَةُ بِضَعْفِهَا، وَقُوتَهَا وَضَيْقُهَا، وَبَسْطُهَا مَاءَ الْمَطَرِ، فَكَذَلِكَ تَلِكُ الْقُلُوبُ تَحْتَمِلُ مِيَاهَ أَنْوَارِ قَامُوسِ الْكِبْرِيَاءِ مِنَ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَوْصَافِ وَالنَّعَوَاتِ وَالْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِقَدْرِ حَوَاصِلِهَا، وَأَقْدَارِ اسْتِعْدَادِهَا مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَكَمَا أَنَّ قَطْرَاتِ الْأَمْطَارِ يَكُونُ فِي الْأُودِيَةِ سَيْلًا؛ فَتَحْمِلُ الْمَسِيلَ زَبْدًا وَحِثَالَةً؛ وَمَا يَكُونُ مَانِعًا مِنْ جَرِيَانِ السَّيْلِ فِي الْأُودِيَةِ؛ فَكَذَلِكَ يَكُونُ تَوَاتُرُ أَنْوَارِ تَجَلِّيِ الْحَقِّ يَكُونُ سَيْلَ الْمَعَارِفِ وَالْكُوَاشِفِ؛ فَتَسِيلُ مِنْ جَدَاوِلِ الْقُلُوبِ أَنْهَارُ الْعُيُوبِ، فَتَحْتَمِلُ مِنْ أَوْصَافِ الْبَشَرِيَّةِ، وَمَا دُونَ الْحَقِّ الَّذِي يَمْنَعُ الْقُلُوبَ مِنْ رُوءِ الْغُيُوبِ؛ فَيَذْهَبُ بِهِ عَنْ صَحَارِي الْقُلُوبِ وَقِيَعَانِهَا الَّتِي هِيَ أَصْدَافُهُمُ الْعَالِيَةُ فِي طَلَبِ جَوَاهِرِ الْحُكْمِ مِنْ بَحَارِ الْمَشَاهِدَةِ، فَتَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ صَافِيَةً مُقَدَّسَةً مِنْ زَبَدِ الرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ وَالشُّكِّ وَالشَّرْكِ وَالنِّفَاقِ وَالْخَوَاطِرِ الْمَذْمُومَةِ، فَيَبْقَى الْقُلُوبُ فِي بَحْرِ الْمَشَاهِدَةِ سَابِحَةً فِي نُورِ الْأَزْلِ وَالْأَبَدِ بِلا عِلَاقَةٍ، وَمَانِعٍ مِنَ الْعَرْشِ إِلَى الثَّرَى، وَذَلِكَ مِنْ بَرَكَةِ تَجَلِّيِ مَشَاهِدَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ الَّتِي بَدَتْ مِنَ الْحَقِّ بِلا وَاسِطَةٍ وَلا سَبَبٍ، كَمَا أَنَّ الْمَطَرَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بِلا سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْخَلْقِ، وَلا بَعْلَةَ طَلِبِهِمْ بَلْ مَحْضُ فَيَاضِ الْقَدِيمِ الْأَزْلِيِّ عَلَى الَّذِي ارْتَضَى بِرِضَاةِ مَنْ أَهْلُ رِضْوَانِهِ فِي الْأَزْلِ؛ فَمِيَاهُ تَلِكِ الْبَحَارِ فِي أُودِيَةِ تَلِكِ الْقُلُوبِ، بَعْضُهَا مِنْ بَحْرِ الذَّاتِ، وَبَعْضُهَا مِنْ بَحْرِ الصِّفَاتِ، وَبَعْضُهَا مِنْ بَحْرِ الْأَسْمَاءِ، وَبَعْضُهَا مِنْ بَحْرِ الْأَوْصَافِ، وَبَعْضُهَا مِنْ بَحْرِ النَّعَوَاتِ، وَبَعْضُهَا مِنْ بَحْرِ الْأَفْعَالِ، فَالَّذِي مِنْ بَحْرِ الذَّاتِ يَجْرِي فِي أُودِيَةِ قُلُوبِ الْمُوَحِّدِينَ وَالْعَارِفِينَ وَالْمُنْفَرِدِينَ وَالْمُتَجَرِّدِينَ، وَيَذْهَبُ بِهَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ أَوْصَافِ الْخَدِثَةِ، وَيَنْبِتُ أَوْرَاقَ وَرْدِ الرِّبَوِيَّةِ مِنْ هُنَاكَ يَدْعُونَ الْإِتِّحَادَ، وَيَرْهَوْنُ فِي الْإِنْبِسَاطِ.

وَأَمَّا الَّذِي مِنْ بَحْرِ الصِّفَاتِ؛ فَيَجْرِي عَلَى قُلُوبِ الْعَاشِقِينَ وَالْمُحِبِّينَ وَالْمُشْتَاقِينَ، وَيَذْهَبُ مِنْهَا أَوْصَافُ النُّفُوسِيَّةِ، وَحِثَالَةُ الطَّبِيعَةِ، وَيَنْبِتُ فِيهَا نَرَجِسُ الْأَنْسِ وَيَاسْمِينُ الْقُدْسِ، وَمِنْ هُنَاكَ يَدْعُونَ السُّكْرَ وَالْهِيجَانَ وَالْمُوَاجِيدَ.

وَأَمَّا الَّذِي مِنْ بَحْرِ الْأَوْصَافِ وَالنَّعَوَاتِ؛ فَيَجْرِي عَلَى أُودِيَةِ قُلُوبِ الْمُوقِنِينَ وَالْمُشَاهِدِينَ وَالْمُكَاشِفِينَ، وَيَذْهَبُ مِنْهَا غِبَارُ الْخَطَرَاتِ وَزَبَدُ الْهَوَاجِسَاتِ، وَيَنْبِتُ فِيهَا رِيَاحِينُ الدَّقَائِقِ وَالْحَقَائِقِ.

وَأَمَّا الَّذِي مِنْ بَحْرِ الْأَسْمَاءِ؛ فَيَجْرِي عَلَى أُودِيَةِ قُلُوبِ الْمُخْلِصِينَ وَالْمُتَعَبِّدِينَ، وَيَذْهَبُ مِنْهَا وَسْوَاسُ الشَّيْطَانِ وَالْمِيلُ إِلَى الْخَدِثِينَ، وَيَنْبِتُ فِيهَا زَهْرُ الْحِكْمَةِ وَالْفِطْنَةِ.

وأما الذي من بحر الأفعال؛ فيجري على أودية قلوب المريدين، ويذهب منها زبد الشهوات، وينبت فيها شقائق المعاملات وعبر المراقبات؛ فسبحان الذي خص كل قلب من قلوب هؤلاء بمورد من موارد الطافه، ومشرب من مشارب أعطافه.

قال الواسطي: خلق الله ذرة صافية فلاحظها بعين الجمال فذابت حياء منه، فسألت، فقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ فصفاء القلوب من وصول ذلك الماء إليه وجمال الأسرار من نزول ماء ذلك المشرب.

وقال ابن عطاء: ﴿أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً....﴾ الآية.

فقال: هذا مثل ضربه الله للعبد، وهو أنه إذا سال السيل في الأودية لا يبقى في الأودية نجاسة إلا كنسها وذهب بها، كذلك إذا سال النور الذي قسم الله للعبد في نفسه لا يبقى فيه غفلة ولا ظلمة.

﴿أَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ يعني: قسمة النور، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾: في القلوب الأنوار على ما قسم له في الأزل.

﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْزَعُ عَنْ حَيْثُ شَفَاغِهِ﴾^(١) فتلك النور يصير القلب منوراً، فلا يبقى فيه جفوة، و﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَنَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ يذهب البواطيل، ويبقى الحقائق.

وقال بعضهم: أنزل الله تعالى من السماء أنواع الكرامات؛ فأخذ كل قلب بحظه ونصيبه فكل قلب كان مؤيداً بنور التوفيق أضاء فيه سراج التوحيد، وكل قلب أيد بنور التوحيد أضاء فيه سراج المعرفة، وكل قلب زين بنور المعرفة أضاء فيه أنوار المعرفة، وكل قلب قيّد بنور المحبة أضاء فيه لهيب الشوق، وكل قلب عمر بلهيب الشوق أضاء فيه أنس القرب، كذلك القلوب ينقلب من حالة إلى حالة حتى تستغرق في أنوار المشاهدة، وأخذ كل قلب بحظه ونصيبه إلى أن تبدو الأنوار على الشواهد من فضل نور السر.

ثم إن الله سبحانه ضرب مثلاً آخر في تقديس أسرار معاملات العارفين بقوله: ﴿وَمِمَّا

(١) كذلك العلم النافع تحيا به النفوس بعد الموت بالجهل والشك، وتحيا به الأرواح بعد موتها بالغفلة والحجاب، وتمتلئ به القلوب على قدر وسعها وسعتها، وعلى قدر ما قسم لهم من علم اليقين، أو عين اليقين، أو حق اليقين، وتتطهر به النفوس من البدع وسائر المعاصي، ومثل العمل الخالص الذي تصفى من الرياء والعجب وسائر العلل، بالحديد المصفى من خبثه؛ لتصنع منه السيوف والآلات، أو النحاس المصفى لتصنع منه الأواني، وغيرها مما ينفع به الناس، ومثل الحال الصافي من العلل بالذهب المصفى أو الفضة، إذا صفت وذهب خبثها؛ ليصنع بها الحلي والحلل؛ ليتزين بها أهلها. البحر المديد (١٦١/٣).

يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ شَبَّهَ أَعْمَالَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ وما يفتح بمفاتيحها من الغيب بجواهر الأرض من الذهب والفضة وغيرها إذا أذينا لا نتأذيها الحلي، ويَبَيِّنُ أن لها زبد مثل أن لها زبد، ومثل زبد السيل في ذوبانها؛ فيذهب زبدها بعد إذابتها سريعاً من غلبة النيران، ويمكث في البوتقة أصلها الصافي؛ فكذلك أعمال الظاهر والباطن فيدخل في بوتقة الإخلاص التي تحتها نيران المحبة؛ فيذهب ماء الحظوظ ونظر الأغيار، ويبقى ما هو خالص لله، وكذلك الخواطر فخاطر الحق يبقى في القلب وخاطر الباطن يطير ولا يبقى؛ لأن خاطر الحق من أثقال إلهام الحق؛ فيمكث في القلب خاطر الوسواس هذيان لا أصل له؛ فيفنى سريعاً من غلبة أنوار المعرفة والمحبة.

قال ابن عطاء: ما كان من الأحوال صدقاً ثبت في القلوب بركتها، وما كان غير ذلك فلإنها لا تبقى فيه خيراً.

قال الشبلي: احتملت القلوب من الزوائد على مقدار ما فتح الله عليها من أنواع بره. وقال بعضهم: القلوب أوعية وفيها أودية؛ فقلب يسيل فيه ماء التوبة، وقلب يسيل فيه ماء الرحمة، وقلب يسيل فيه ماء الخوف، وقلب يسيل فيه ماء الرجاء، وقلب يسيل فيه ماء المعرفة، وقلب يسيل فيه ماء الأنس، وكل ماء من هذه المياه ينبت في القلب نوعاً القربة والقرب من الله عز وجل، وبعد هذه القلوب قلوب قاسية حرمة التوفيق؛ فهي في ميادين الشقاق يخبطه إلى أن يبلغها الله مقام الأشقياء.

ولي إشارة أخرى: أن الله سبحانه أوقد نيران المحبة في صميم الأرواح من تأثير تجلي جماله؛ فلما حميت الأرواح من حرق المواجيد تؤثر حرارتها في القلوب، فتلقي القلوب ما فيها من أنواع الشهوات، ثم هاج فطرتها السليمة إلى طلب الحق ومشاهدة؛ فيتعرف من شدة التهاب نيران المحبة والشوق، ويصعد عرفها من قارورة عرق الكواشف والمعارف إلى الأدمغة؛ فيسيل ذلك العرق على أودية العيون وصحاري الوجوه؛ فما أطيب ذلك العرق ويا لها من طيبه ولذته.

كما قيل: كل جمرة فمن أنفاسهم قدحت، وكل داء فمن عين لهم جاري. ويقال: إن الأنوار إذ تلالأت في القلوب نفت الآثار الظلمة؛ فنور اليقين يفني ظلمة الشك، ونور العلم يفني قمة الجهل، ونور المعرفة يمحو أثر النكرة، ونور المشاهد يفني آثار البشرية، وأنوار الجمع يفني آثار التفرقة، وعند أنوار الحقائق يتلاشى آثار الحظوظ، وأنوار طلوع الشمس من حيث العرفان تفني صدفة الليل من حيث حسابان تأثير الأغيار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابُ﴾ أشار سبحانه إلى قلوب أوليائه الذين يسمعون بأسماع أرواحهم وقلوبهم وعقولهم وأسرارهم كلام الحق سبحانه من الحق بلا واسطة؛ فيعرفون مكان نزول القرآن على سيد المرسلين، وإمام المتقين -صلوات الله عليه من الله سبحانه بمكان سماعهم كلام الحق من الحق، ويعلمون صدقه في رسالته بما شاهدوه من براهين صفات القدم، ليسوا بمقلدين من حيث طباعهم وإيمانهم الفطري، إنما هو صفة أهل الظاهر من أهل التقليد الذين ساءهم العوام بانتسابهم إلى العمى، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا أهل النهى من العارفين بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰئِكَ الْأَلْبَابُ﴾.

قال الشبلي: من استدل عليك بربه ليس كمن يستدل بك على ربه، وليس من تحقق بما أنزل إليك من جهة الحق كمن يحققه من جهتك وليس من شاهد جيء أن الأشياء في الأزل كمن شاهده في وقت ظهوره.

وقال الأستاذ: أي: لا يستوي البصير والضرير، والقبول بالوصلة، والمودة بالحجة، والمؤهل للتقريب والمعرف للتعذيب.

ثم وصف العلماء بالله القائمون بشرط الوفاء مع عهد الأزل بقوله: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ عهد الله مع الصديقين ما عاهد أرواحهم في مشاهدة الأزلية، حيث عشقها بجمال وجهه فوقوا ميثاق العشق بالعشق، والعجب كيف يطيق العاشق أن ينقض عهد معشوقه، وعشقه صار روحه، ومن يطيق أن يفارق روحه، ففأؤهم معه لزومهم على جناب عزته بنعت الفناء في عبوديته.

قال بعضهم: الموفون بعهدهم القائمون له على شروط العبودية من اتباع الأمر والنهي.

قال ابن عطاء: لا ينقضون الميثاق الأول في وقت يلي أنه لا رب لهم غيره فلا يخافون غيره ولا يرجون سواه ولا يسكنون إلا إليه، ثم ناد سبحانه في وصفهم بوصولهم مراده منهم في طاعته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أي: الذين يصلون بأسرارهم مشاهدته وقربته، ويخشونه به حيث وقعوا بقلوبهم في بحر إجلاله، ويخافون من عتابه ودقائقه معهم في تغيير إياهم في حركات ضمائرهم، بأن يميل إلى غيره.

وقال ابن عطاء: الذين يديمون على شكر النعمة ومعرفته منه المنعم لدوام النعمة إليهم

وإيصالها لهم.

قال بعضهم: هم المتجاوبون في ذات الله.

قال الواسطي: الخشية منه حقيقة الخوف منه ومن غيره، قال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾.

وقال بعضهم: الخشية مراقبة القلب ألا يطالع في حال من أحواله غير الحق فيمقته.

قال ابن عطاء: الخشية سراج القلب، والخوف آداب النفس.

وسئل أبو العباس بن عطاء عن الفرق بين الخوف والخشية، قال: الخشية من السقوط عن الدرجات الزلف، والخوف من الحرق بدركات المقت.

وقال بعضهم: الخشية أرق، والخوف أصلب.

وقال الأستاذ: الوفاء بالعهد باستدامة العرفان وبشرائط الإحسان، والتقوى من ارتكاب العصيان، ولي خاطر في الفرق بين الخشية والخوف، أن الخشية مكان العلم والمعرفة بالله بنعت إجلال جلاله وثمرته الحياء، والخوف مكان محبته المقرونة بعبوديته، وثمرته الوفاء بعهد المحبة بنعت اضطراب خاطر من حزن فراقه.

ثم زاد الله وصف القوم بالصبر في بلائه لأجل لقائه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ صبروا عما دون الله بالله لله، ولكشف نقابه، والنظر إلى وجهه، وأيضاً صبروا في الله فيما ورد عليهم من أثقال موارد أسرارهم كتماناً بها العظم إحاطة أنوار أزليته على قلوبهم طمعاً لوصولهم: أي: إدراك كل الكل.

قال أبو عثمان: صبروا عن المناهي أجمع لا لخوف النار بل بسبب النهي وحرمة عظمة الله.

وقال بعضهم: هذا مقام المريدين أمروا أن يصبروا على أرادتهم وعلى ما يلحقهم من الميثاق، ولا يطلبوا الرفاهية، ولا يرجعوا إليها، ويكون ذلك ابتغاء الحقيقة بصحيح الآراء.

ثم زاد في وصفهم بإقامة الصلاة وإنفاق أموالهم بقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ راقبوا الله وشاهدوه بتفديس الأنفاس، ويذلون وجودهم ظاهراً وباطناً لله وفي الله.

ثم زاد وصفهم بقوله: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بحسنة مشاهدته ولذة محبته ولذيق شوقه سيئة معارضة النفس ومتابعة الهوى.

قال الأستاذ: يعاشرون الناس بحسن الخلق؛ فيذلون الإنصاف ولا يطلبون

الانتصاب إن غلبهم أحد بالجفاء قابلوه بالوفاء، وإن أذنب عليهم قوم اعتذروا عنهم، وإن مرضوا عادوا غيرهم.

كما قيل: إذا مرضنا أتيناكم نفوركم وتذنبون؛ فتأتاكم ونعتذر.

ثم وصف امتنانه عليهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقَى الدَّارِ ۖ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ الجنات بالتفاوت الجنة مع العموم بساتين الملكوت، وجنة الخصوص معاينة ذات الجبروت؛ فإذا جلسوا على كراسي جنة الملكوت يزورهم أخوانهم من الملائكة ويهتفهم بما فازوا وما ظفروا بقوله: ﴿وَالْمَلَكُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ أي: من كل أبواب الأهلية بينهم وبين الملائكة في مقام المعرفة والمحبة، قال تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: سلامة دوام الوصال وبركة أنوار جماله الحق عليكم ولكم إلى الأبد بلا انقطاع ولا هم أبداً بما صبرتم في طول الشوق إلى جماله، ونظركم في بلائه.

وقال بعضهم: سلام عليكم بما صبرتم معناه عما لنا.

ثم وصف الله أضدادهم بخروجهم من مكان عبوديته في اتباعهم هواهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ ميثاقه معهم لم يكن مع شرط التوفيق ولر ساعدهم في العهد نور العناية لا يقدرُونَ على نقض العهد؛ لأن الموفق بالتوفيق يكون محفوظاً بعين رعايته عن كل خطر.

وقال أبو القاسم الحكيم: نقض العهد هو السكون إلى غير سكون إليه، والفرح بغير مفروح به، ثم وصفهم بحب الدنيا والفرح بحياتها بقوله: ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ لا يكون الفرح بالدنيا إلا لمن كان معزولاً عن الفرح بمشاهدة الله، ومن كان فرحه بالله كيف يفرح بما دون الله، وإن كان الجنة فإذا لم يفرح بالآخرة فكيف يفرح بالدنيا، والدنيا عند الآخرة كقطرة دم عند بحر الزلال.

قال الواسطي: الدنيا مدرة ولك منها غبرة، ومن أسترته غبرة فهو أقل مستحقاً، ومن ملكه جناح بعوضة أو أقل منه فلذلك قدرة.

وقال أيضاً: لا تدعو الدنيا تفرقكم في بحارها وغرقوها في بحر التوحيد حتى لا يجدوا منها شيئاً.

وقال بعضهم: أخبر الله أن الدنيا في الآخرة متاع، والآخرة أقل خطر في جنب الحقيقة من خطر الدنيا في الآخرة.

وقال أبو عثمان: هَوْن الدنيا وحَقَرها في أعينهم لثلاث يشق عليهم تركها بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ قطع أسباب إضلال أهل الضلال وعلّق الهداية برجوع الراجعين إليه.

قال: يضل من يشاء في الأزل ويرشدهم طريق الإنابة إليه يضلهم عن مشاهدة جماله، ويهدي العارفين إلى مشاهدة وصله.

قال بعضهم: يضل مَنْ قام بنفسه واعتمد عليها مَنْ سبيل رشده ويهدي إلى سبيل رشده مَنْ رجع إليه في جميع أموره، وتبرأ من حوله وقوته.

وقال جعفر: يضل عن إدراكه ووجوده من قصده بنفسه، ويوصل إلى حقائقه من طلبه به، ثم وصف الذين أنابوا به إليه حيث أبصروا ما برز من وجه نبيه ﷺ من أنوار الرسالة، وأيقنوا حقائقه ولم يحتاجوا إلى آية أخرى كطلاب البرهن من رسول الرحمن بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ بَيَّنَّ سبحانه أن ذكر المؤمنين مقرون بإيمانهم؛ فأمنوا بالغيب من حيث الاعتقاد بالغيب بما وهبه الله من نور الإيمان وطمأنينة قلوبهم بذكر الله، والله تعالى غيَّبهم آمنوا به ولم يكونوا مطمئنين بإيمانهم بالله لكن مطمئنين بذكر الله فإيمانهم غيب أيضاً، وذكرهم غيب ولو شاهدوه مشاهدة كشف صار غيَّبهم طمأنينة قلوبهم به، وسقط عنهم الذكر؛ فأما ما دام لم يصلوا إلى مشاهدة المذكور فاقترنت طمأنينة قلوبهم بذاكره، وذكره للمؤمنين على معنيين، ذكر الظاهر على ضربين، ذكرهما اللسان، وذكرهم الآذان، وذلك عند سماعهم ذكر الله، وهذا الذكر الذي من طريق اللسان والسمع يزيد طمأنينتهم من حيث التربية والتواجد وذكر الباطن، وذلك على حزبين أيضاً، ذكر قلوبهم قدرا الله وجلاله، وذلك من قوله: رؤية آلاء الله ونعمائه، وتفكر في آياته وصنائه، وذلك كسب القلوب، وما لم يكن من الذكر مكتسباً؛ فذكر الله قلوب أصفياه، وذلك يتعلق بواردات غيب أنوار وجوده حيث انكشف لها وهو ذكر خالص إلهي بلا علة ولا سبب وخالص طمأنينتها به وما سواه من الذكر؛ فهو مغلول قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أو بذكره في نفسه إياهم وذكرهم له بعد ذكره لهم، فإذا كان الذكر يأتي من محل الإيمان فيتولد منه الرهبة والرغبة والوجل والخوف والقلق والرجاء وحسن الظن.

وأما إذا كان ذكر الإيمان يكون من محل الإيقان أي: الذين أيقنوا مشاهدة الله ولقائه فهم ذاكرون الله بنور إيقانهم في وجوده ونور الإيقان أشرق من نور الإيمان؛ فنور الإيمان كصبح الأول ونور الإيقان كصبح الثاني، فأهل اليقين في طمأنينة قلوبهم بذكر الله في رؤية أنوار لوائح الحضرة ولوامع نور الإلهية، فذكر قلوبهم بقدر وضع تلك اللوامع، فإذا ذكرهم

الله بكشف أنوار حضرته لهم تطمئن قلوبهم بذكره بعد طمأنينتهم بذكرهم؛ فيتولد من ذكرهم الصدق والإخلاص والتسليم والرضا والتوكل وخالص العبودية، وإذا كان معنى آمنوا شاهدوا الله يكون طمأنينة قلوبهم هاهنا بالله وكشف وجوده، وذلك مثل ذهاب الصبح برؤية طلوع الشمس.

فالأول: من الإيثار علم اليقين.

والثاني: من الإيقان عين اليقين.

والثالث: من مشاهدة الرحمن حق اليقين، وفي مقام المشاهدة زال الذكر والذكر باستيلاء أنوار عظمة المذكور، وهنا ليس مقام الطمأنينة بل مقام فناء القلوب والأرواح والعقول والعلوم والفهوم والأفكار والأذكار في عظمة الملك الجبار، ويتولد من هذا المحبة والوله والشوق والعشق والمعرفة والأنس والتوحيد والتجريد والتفريد والفناء والبقاء، ومعنى قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وذكر القلوب يعني بالله تطمئن الأرواح. ومحل الذكر أربعة أشياء، وذكر القلوب من رؤية الآيات، وذكر العقول من رؤية الأفعال في الصناعات، وذكر الأرواح من رؤية أنوار الصفات، وذكر الأسرار من رؤية سبحات الذات، وها هنا الذكر متصير؛ لأن الذكر غير متناه، فإذا رأى العارف مشاهدة صرف ذاتية فرديته على قدر وجوده، وحاشا أنه محيط بالديمومية والأزلية، فما كان غير مكشوف له فهو مذكور وهو ذاكرة، وإن كان في مشاهدته فهذا الذكر في مشاهدة المذكور، وهذا ذكر عجب ما عرفت طريقاً في المعرفة أدق من هذا، ولا أعرف أحداً يشير إلى هذا المقام إلا قليلاً من كبراء القوم.

ولذلك قال سبحانه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: إذا رأوه وأرادوا زيادة كشف الذات والصفات، وعلموا أنهم لم يروه بقدره، ولو رأوه بقدره فنوا فيه فيما لم يروه تطمئن القلوب لرجاء وصولهم إليه، وذلك الزيادة متصور، وإن لم يتصور الإحاطة، وأيضاً معنى قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ ذكر الله لهم في الأزل بحسن اصطفايتهم بولايته ومعرفته؛ فبقيت لهم تلك الطمأنينة إلى الأبد.

قيل: القلوب على أربعة أنحاء، وقلوب العامة اطمأنت بذكر الله تسبيحه حمده والثناء عليه لرؤية النعمة والعافية، وقلوب الخاصة اطمأنت بذكر الله، وذلك في أخلاقهم وتوكلهم وشكرهم وصبرهم فسكنوا إليه، وقلوب العلماء اطمأنت بالصفات، والأسامي والنعوت، فهم ملاحظون ما يظهر بها، ومنها على الدهور.

وأما الموحدون كالغرقى لا تطمئن قلوبهم بحال كيف تطمئن بذكر من حملوه أم كيف

تطمئن بذكر من لم يؤمنهم بل خوفهم وحذرهم.

قال الحسين: من ذكره الحق تحير في أزاله اطمأن إليه في أبده.

وقال النهرجوري: قلوب الأولياء مواضع المطالع، وهي لا تحرك ولا تنزعج بل تطمئن خوفاً من أن يرد عليه مفاجأة مطالعة فتجده مترسماً بسوء الأدب.

وقال الواسطي: هذه على أربعة ضروب:

فالأول: للعامة لأنها إذا ذكرته ودعته اطمأنت إلى ذكرها له فحفظها منه الإجابة للدعوات.

والثاني: إطاعته وصدقته ورضيت عنه فهم مربوطون في أماكن الزيادات اطمأنت قلوبهم إلى ذلك فكانوا ممزوجين الملاحظة بشواهدهم ومقصودي الطبائع برؤية طاعتهم.

والثالث: أهل الخصوص الذين عرفوا الأسماء والصفات، وعرفوا ما خاطبهم الله به؛ فاطمأنت قلوبهم بذكره لها ألا بذكرها له وبرضاه عنها لا رضاها عنه.

والرابعة: خصوص الخصوص، وهم الذين كشف لهم عن ذاته وعلمهم علم صفاته؛ فأدرج لهم الصفات في الذات، وأراهم أن ما تعرف إلى الخلق بأقذارهم وعلمهم أخطارهم؛ فعلموا أن سرائرهم لا يقدر أن تطمئن إليه ولا يسكن إليه، ومن كانت الأشياء في سره كذلك إلى ماذا يسكن ويطمئن؟ فلا يجد قلبه طمأنينة لقدر المكان إليه، كلما عادت الزيادة عليه رآها حجاباً لا يستطيع بالبر والنعم؛ لأنها حجاب مستور وهباء منشور، فإن عزمت الدخول في هذا المقام؛ فاحتسب نفسك وأعظم الله أجرك.

وقال الأستاذ: قوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله في الذكر وجدوا سلوتهم وبالذكر وصلوا إلى صفوتهم، وقوم اطمأنت قلوبهم بذكر الله لهم؛ فذكرهم الله بلطفه، وأثبت الطمأنينة في قلوبهم على وجه التخصيص لهم.

ويقال: إذا ذكروا أن الله ذكرهم استروحت قلوبهم واستبشرت واستأنست أسرارهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ تقريراً لها على ما نالت بالله من الحياة. قال بعضهم: قلوب أهل المعرفة لا تطمئن إلا بالله ولا يسكن إلا إليه؛ لأنها محل نظره قيل اطمأنت إليه لأنها لم تجد دونه موضع أنسه وراحته.

وقال الروذباري: اطمأنت إليه؛ لأنه جللها بالنور وشحنها بالأنس والسرور؛ فاطمأنت إليه ثم أنه سبحانه لم يقنع بذكر الإيمان منهم حتى قرنه بالعمل الصالح بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَقَابٍ﴾ أي: أبصروا بعيون أسرارهم أنوار آزال الآزال، وآباد الآباد وبها وصل إليهم من نور الأحذية أيقنوا ما لم يصل

إليهم منه بما وجدوا منه، ثم اختاروه بما فيه أعمالهم بشرط فنائهم في أوليته وآخريته، وذلك عملهم الصالح فأخبر من جزائهم.

وقال: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَقَابٍ﴾ أي: شجر القدم وذات القديم جل ثناؤه لهم، وأغصان الصفات الأزلية الأبدية بشرط الكشف والمشاهدة مأوى أسرارهم وصل شجر الذات بوصف التجلي أكناف أرواحهم، وهناك حسن مأب قلوبهم، وأيضا أي: طوبى لمن هذا حاله مع الله وحسن رجوعه منه إليه، وطوبى لمن كان عروس الأزل شاهد مجلسه طوبى لأعين قوم أنت بينهم فهن في نعمة من وجهك الحسن.

قال الجريري: طوبى لمن طاب قلبه مع الله لحظة من عمره، ورجع بقلبه إلى ربه في وقت من أوقات.

وقال الشبلي: طوبى لمن غاب عن حضرته، وحضر في غيبته وأصبح وأمسى مراعيًا لسريته.

وقال الجنيد: طاب أوقات العارفين بمعرفتهم لذلك قال النبي ﷺ: «وطيب القلب من النعيم»^(١).

قال ابن عطاء: في قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ صدقوا ما ضمنت لهم من الرزق والعمل الصالح ما كان بريئا من الشرك والرياء والعجب.

قال الأستاذ: طابت أوقاتهم؛ فطابت أنفاسهم.

ويقال: طوبى لمن قال أحق طوبى له، ويقال: طوبى لهم في الحال، ولهم حسن المآب في المال.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ لما لم ير الحق سبحانه أهلاً لرؤية وحدانيته، وإدراك حقائق توحيده من الخلق إلا سيد المرسلين صلوات الله عليه اختاره بالرسالة وإنشاء سر التوحيد؛ فأمره أن ينزله بلسان الحقيقة.

وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أثبت ربوبيته حيث رباه بنور ذاته وصفاته، ونفى غيره ولا غيره بالحقيقة دخل في بحر النفي، بقوله: ﴿لَا﴾ ووصل إلى جواهر وجود القدم والهووية فدار بسره بين دائرة هو واضمحل عن كينونية وجوده؛ فتحرك سر طلب الأصل فيه،

وعرف أنه لا يدركه بنفسه؛ فاستعان بالأزل في معرفة الأزل، واستعاذ به فقال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ فلما عجز لكل عن حمل هذه المعاني، وحمل السيد حمل جميعهم بالله صار من العالم غرض الكل، لذلك قال: «لولاك لما خلقت الكون»^(١)، ولما قام مقام الكل فهو تعالى لم يبال بالكل، وهذه كما قيل:

وكننت ذخراً فكاري لوقت فكان الوقت وقتك والسلام

وكننت أطالب الدنيا لحر فأنت الحر وانقطع الكلام

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لَئِنَّ اللَّهَ الْآمِرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِسْ بِالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٠١﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلِ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿١٠٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُظْهِرُ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿١٠٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقِرٍ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِسْ بِالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ عاتب المؤمنين بهذا القول أي: العتبى لهم بأن يطردوا من رؤية ربهم إلى معادن الأرواح ليعرفوا أهل الاصطفائية ممن دونهم من أهل الحجاب، ولا يطيعون إلى إيمانهم؛ فإن سرَّ التقدير حريٌّ يمنعهم من مطالعة جماله.

قال الراسطي: هو على ما يقدر من تصحيح حكمه وأحكام قبضته، ولا يبدل القول لديه.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ هو تعالى قائم على كل نفس قدر قوتها حمل أثقال ربوبيته، وأنوار عظمتة وتربية جوده وحفظه وعنايته؛ فمن نفس قام عليه بفعله، ومن نفس قام عليه بصفته من حيث كشف الصفة لها وكشف نور الفعل لها، ومن نفس قام عليها بالذات من حيث كشف سبحات الذات لها؛ فإن كسبت النفس عبوديته؛ فهي في مشاهدة أنوار فعله، وإن كسبت النفس محبته؛ فهي في رؤية أنوار صفاته،

(١) ذكره علي انقاري في «المصنوع» (١/ ١٥٠)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢١٤) بنحوه.

وإن كسبت معرفته وتوحيده في رؤية سحاب أنوار ذاته؛ فإن قصرت للنفس الأول في عبوديته بالتفاتاً إلى حظها أخذها الحق بعقوبة المجاهدة، وإن قصرت النفس الثاني في محبته بأنها استلذت محبته، ووقفت باللذة عنه أخذها الحق بأن وقعها في بحر النكرة، لكن الأخذ هاهنا الزيادة معرفتها لأنه سبحانه مشفق على النفس العارفة، وهو تعالى أخذ هذه النفوس قائم بنعت حفظ أنفاسها في طلبها الحق.

قال الجنيد: بالله قامت الأشياء، وبه فئيت، وبتجليه حسنت المحاسن وباستنارته قبحت وسمحت.

قال محمد بن الفضل: لا تغفل عمن لا ينفك عنك وراقبه، وكن حذراً.

قال الله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَابِئُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ثم بين سبحانه أن من لم يعرف المحيط بكل شيء القائم على كل نفس ممن دونه من الحدثان، إن ذلك من قهره عليه وتزيين كفره في عينه بقوله: ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ زين الله مكرهم بمكره فيهم في الأزل في عيونهم حتى راوه مستحسنًا وهو من أقبح القبائح؛ لأنه موضع هلاكهم وصددهم عن معرفته وحسن مشاهدته، وكيف يخلصون بمكرهم من مكره ويعرف مساوي مكرهم بعد أن زين الله مكرهم لهم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِ ۖ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۖ

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أي: صفة الجنة التي وعد المتقون، وهو جنة مشاهدة الذات تجري من تحتها أنهار الصفات، ثمره ثمر أشجار الصفات والذات للمتجربين عن الحدثان دائم بأنهم يعينونها بلا حجاب، ويعيشون في ظلال تجليها بلا غصة ولا حجاب، تلك منازل أهل الأشواق إلى رؤية الملك الخلاق المتبرئين من الشرك والنفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ مادام في حيز الحدوثية، وإن رأى ما رأى عليه من أنوار الربوبية ووفق عليه بالألا يلتفت إلى ما بدا في نفسه

من أنوار الربوبية، ويستقيم في حال العبودية؛ فإن الربوبية في العبودية مكر الحقيقة، ومن نظر من العبودية إلى الربوبية في نفسه فقد أشرك؛ لأنه مخدوع بالله عن الله.

سئل أبو حفص عن العبودية، قال: ترك كل مالك، وملازمة ما أمرت به.

وقال أبو عثمان: العبودية اتباع الأمر على مشاهدة الأمر.

وقال ابن عطاء والجنيد: لا يرقى أحد من درجات التوحيد حق يحكم فيما بينه وبين الله أوائل البدايات، وأوائل البدايات هي الفروض الواجبة، والأوامر الزكية، ومطايا الفضل، وعزائم الأمر، فمن أحكم على نفسه هذا من الله عليه بما بعده.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: بينا حكم عربيا يا عربي، وذلك الحكم ما حكمنا في الأزل بأنك خير البرية، وأعطيناك استعداد قبول تخلقك بخلقنا واتصافك بصفاتنا، فإذا اتصفت بصفتنا رأيتنا بنا وخرجت في مشاهدتنا من الالتفات إلى غيرنا من العرش إلى الثرى؛ فوصفناك في كتابنا بقولنا: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ فتجريد توحيدك حكم عربي بيناه منك لأمتك؛ ليتصفوا بصفتك ويتخلقوا بخلقك، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ حيث تخلقت بخلقنا.

قال بعضهم: أحكام العرب السخاء والشجاعة، وهما من عرى الإيمان.

قال الحسين بن الفضل: في هذه الآية تصحيح حكم القيافة؛ لأنه لا حكم ينفرده العرب إلا حكم القيافة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٢٤٦﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٢٤٧﴾ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٢٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ وصف سبحانه تمكين نبيه ﷺ في رسالته، كما وصف الرسل بالتمكين؛ حيث لا يغيره صفات البشرية عن أسرار ما وجد من الله من حقائق القرية والمحبة، بل الأزواج والذرية كانت له ﷺ معينة في بحر سكره، ولولا قسمته أبحر نسبته متعلقة من تحت سفينة نبوته في بحر محبته ومعرفته، لطارت تلك السفينة بصرصر رياح الأزل في هواء الأبد، ولبقى الحدثان بلا عروس الرحمن، ولم يظفر أحد بحقائق الإيمان.

ألا ترى كيف قال ﷺ من رأس سكره: «كلميني يا حميراء»^(١)، وذلك لأن الله أراد بقاءه بين الخلق ليرحمهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ولا يعذبهم ببركته.

قال الله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ وأعلم الجاهل بهذه الآية أنه إذا شرف ولياً وصديقاً بولايته ومعرفته، لم يضر به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسط الدنيا له قدحاً في ولايته.

قال محمد بن الفضل: جعلنا لهم أزواجاً وذرية، فلم يشغلهم ذلك عن القيام بأداء الرسالة ونصيحة الأمة وإظهار شرائع الدين.

ويقال: أن من اشتغل بالله فكثرة العيال وتراكم الاشتغال لا يؤثر في حاله ولا يضره ذلك من وجه.

ثم يتبين سبحانه أن آيته ومعجزته وكرامته خارج عن تصرف الخلق وتعللهم، وإن كان نبياً أو صديقاً أو ملكاً، بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِقَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حسم أطماع المريدين عن طلب الكرامات بالمجاهدات، ومنهم من التمسها عن المشايخ، ثم يتبين سبحانه أن أوان ذلك بأجل معلوم في وقت معروف، بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكل مقام ومرتبة من مراتب العارفين لها زمان عند الله سبحانه، لا ينالها أحد قبل بلوغه إلى ذلك الوقت إلا بعد أن يكون مصطفى في الأزل بالدرجات والكرامات.

ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وأيضا لكل كشف من صفاته وذاته وقت في مراد الله من أوليائه، وذلك الكشف من العيون الصفات والذات لا يكون للعارف إلا ويكون في قلبه شأن محو صفة من البشرية، وإثبات صفة من العبودية وزيادة نور في إيمانه وعرفانه بالربوبية، أيضا لكل مقدر في الأزل في قضية مراد الله من الربوبية والعبودية والنعمة البلية وقت معلوم في علم الله لا يأتي إلا في وقته.

قال جعفر الصادق في قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ للرؤية وقت.

وقال ابن عطاء: لكل بيان ولكل لسان عبارة، ولكل عبارة طريقة، ولكل طريقة أهل، فمن لم يميز بين هذه الأحوال فليس له أن يتكلم بالعرف والحقائق، وعلم هذه الطائفة ومفهوم الإشارة إخبار الحق عن الصفتين الأزليين، وهما الإرادة والعلم، أي: إرادة في إنفاذ القضاء علم في ذاته في كيفية وقوع ما أراد وقوعه من أمور الربوبية؛ فالكتاب علم ذاته يثبت إرادته في علمه ما يشاء، يمحو ما يشاء من القضاء والقدر، فبقي الكتاب كما كان في الأزل،

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/٣٥٧)، وابن عجيبة في البحر (٢/٣٢٢)، وحقي (١١/٩٣).

وبقيت الإرادة كما كانت في الأزل ويتغير أحكام المقضيات والمقدورات للعباد بالعلم والإرادات، بقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ يمحو بإرادته القديمة من نفوس المريدين صفات البشرية ويثبت في قلوبهم صفات الروحانية، ويمحو من قلوب المحبين معارضة الامتحان، ويثبت في أرواحهم حقيقة نور الإيقان، ويمحو عن أسرار العارفين أوصاف العبودية، ويثبت فيها أوصاف الربوبية، وأيضاً يمحو عن ألواح العقول صورة الأفكار، ويثبت فيها نور الأذكار، ويمحو عن أوراق القلوب علوم الحدثان، ويثبت فيها لذنات علم العرفان، وأيضاً ويمحو عن أرواح الصديقين أعلام المرسومات المكتبات، ويثبت فيها نواتر الإلهيات في حقائق المراقبات، وأيضاً يمحو عن عيون العقول شواهد الآيات، ويربها أنوار الصفات، وأيضاً يخفي في القلوب آثار الصفات، ويبدئ لعيونها أنوار الذات، وأيضاً يمحو بفضله خاطر الوسواسية والهواجسية عن قلوبهم الخاصة، ويثبت فيها خواطر حقائق المعرفة، وإذا كان أسرار أهل التوحيد في بحر التجريد بنعت التفريد سائحة فيغرقها الحق في بحار نكرات القدم تارة، تبجيرها وفنائها ويغرقها في بحار معرفة الأزلية ببقائها مع الحق ومشاهداته، فالفناء حق القدم يغلب على البقاء، والبقاء حق الأبد فيغلب على الفناء، وذلك من بدء نور الذات في الصفات، وبدء نور الصفات في الذات، لتلك الأسرار والصفات والذات أصل تلك الغرائب والعجائب بقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أم الكتاب المقدورات في الأفعال والصفات، وأم الكتاب الصفات والذات؛ لأن الكل منه بدأ وإليه يعود، فما كان في كتاب الأفعال من القديريات يمحوه ويثبت، وما كان في الذات والصفات منزّه عن المحو والإثبات، فكل متبدل؛ فمن أم الكتاب يتبدل من المقدورات، وكل محو ينهي، فمن أم الكتاب ينهي.

قال الواسطي: منهم من جذبهم الحق ومحاهم عن نفوسهم بنفسه، فقال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، فمن فني عن الحق بالحق قيام الحق بالحق فني عن الربوبية فضلاً عن العبودية.

وقيل: يمحو الله ما يشاء من شواهد حتى لا يكون على سره غير ربه، ويثبت من يشاء في ظلمات شاهده حتى يكون غائباً أبداً عن ربه.

وقال ابن عطاء: يمحوا الله ما يشاء عن رسوم الشواهد والأعراض، وكل ما يورد على سره من عظمتة وحرمتة وهبته ولذعات أنواره، فمن أثبتته فقد أحضره، ومن محاه فقد غيبه والحاضر مرجوعه لا يعدوه، والغائب لا مرجوع له، يعدوه أو لا يعدوه.

قال الواسطي: يمحوهم عن شاهد الحق ويثبتهم في شواهدهم، ويمحوهم عن

شواهدهم ويثبتهم في شواهد الحق، يمحوا اسم نفوسهم عن نفوسهم، ويثبتهم برسمه.
قال ذو النون: العامة في قبض العبودية إلى أبد الآبد، ومنهم من هو أرفع منهم درجة
غلبت عليهم مشاهدة الربوبية، ومنهم من هو أرفع منهم درجة جذبهم الحق، ومحاهم عن
نفوسهم، وأثبتهم عنده، لذلك قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾.
وقال سهل: يمحوا الله ما يشاء ويثبت الأسباب، وعنده أم الكتاب القضاء المبرم الذي
لا زيادة فيه ولا نقصان.

وقال ابن عطاء: يمحوا الله أوصافهم ويثبت بأسرارهم؛ لأنها موضع المشاهدة.
وقال الشبلي: يمحوا ما يشاء من شهود العبودية وأوصافها، ويثبت ما يشاء من شهود
الربوبية ودلائلها.
وقال بعضهم: يمحوا الله ما يشاء يكشف عن قلوب أهل محبته أحزان الشوق إليه،
ويثبت بتجليه لها السرور والفرح.

قال جعفر: الكتاب الذي قدر فيه الشقاوة والسعادة لا يزداد فيه ولا ينقص، ﴿وَمَا يُبَدِّلُ
الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

ويقال: يمحوا العارفين بكشف جلالهم، ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله.
وقال الأستاذ: المشية لا تتعلق إلا بالحدوث والمحو، والإثبات لا يكون إلا من
أوصاف الحدوث، وصفات الحق سبحانه من كلامه وعلمه لا تدخل تحت المحو والإثبات،
وإنما يكون المحو والإثبات من صفات فعله، وقيل يمحوا الله عن قلوب مريديه هم
الإرادات، ويرتقي بهم إلى أعلى الدرجات.
قال الواسطي: يمحوا ما يشاء عن رسمه ما أثبتته في رسمه، ويمحو ما يشاء عن رسمه،
وهم الأولياء وخاصة.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ
وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، وظاهر الآية
معروف بفتح الأمصار لأهل الإسلام، ولكن فيه إشارة عجيبة أنه تعالى إذا أراد بجلاله أن
يزور عارفاً من عرفائه ومحباً من أحبائه تجلى من ذاته وصفاته له؛ فيقع آثار تجليه بنعت العظمة
والكبرياء على الأرض فتروي الأرض من هبة جلاله حتى تصير كخردله، وذلك من غيبة
من الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ يا ليت للعاشقين لو يرون ذلك

لطاروا من الفرح به.

كما قيل: لو علمنا أن الزيادة حق لغرسنا الطريق بالياسمين، وأيضاً ينقصها من أطرافها؛ لأن أوليائه وأوتاده في أطراف الأرض، فإذا قبضهم نقص أطراف الأرض بقبضهم عنها.

ألا ترى إلى قوله **الرعد: ٢٤**: «في آخر الزمان لا يبقى صاحب موافق إلا في أطراف الأرض، وكل واحد منهم في كل يوم أجر مائتي شهيد، وإذا أراد خراب الأرض أوى أولياؤه إليه، منها ليهلك أهلها بعدهم؛ لأن دعاءهم وبركتهم أثبت أهل الأرض في عوافي ذلك من غيرة الله، ولا مدفع لغيرته»^(١) بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحْكِمُ لَأَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

قال محمد بن علي: تخرب الأرضين بذهاب أهل الولاية من بينهم؛ فلا يكون لهم مرجع على ولي في نوائبهم ومحنتهم ويتواتر عليهم المحن والنائبات، فلا يكون فيهم من يكشف الله عنهم بدعائه فتخرب.

وقال أبو عثمان: هم الذين ينصحون عباد الله، ويحملونهم على طاعة الله، فإذا ماتوا مات بموتهم مَنْ يصحبهم.

وقال أبو بكر الشاشي: شيء يسبغ عليهم الرزق، ويرفع عنهم البركة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿لَأَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ أحكام الحق ماضية على عباده فيما ساء وسر ونفع وضر، فلا ناقض لما أبرم ولا مضل لمن هدى.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ في كلام أهل المعرفة بموت الأولياء.

ويقال: هو ذهاب أهل المعرفة حتى إذا جاء مسترشد في طريق الله لم يجد من يهديه إلى الله.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ ۝٢٥﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ كل قصاره انتهى؛ لأنه سقط في عكره ومكره قائم على كل مُسكر وله فعل لا بكل قوم مكر؛ فمكره بالمريدين أن يزين لهم أعمال الطاعات ويجعلهم مسرورين بها، ومكره بالمحبين سكونهم إلى راحت مواجيدهم؛ فيجعلهم مستلذذين بها فيصيروا محجوبين عما راؤوها من مكاشفات جمال الحق، ومكره بالعارفين أن يوقفهم على

(١) ذكر نحوه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٣٤٨)، وعزاه للطبراني.

ما وجدوا، حتى ظنوا أنهم واصلون إلى الكل، ومكره بالموحدين أن يفرقهم في بحر البقاء، ومشاهدة الأبدية ولا يطوق عليهم سطوات عزه القدم التي توجب الفناء في النكرة، والفناء في نكرة النكرة، ومن ثم في بحر النكرة؛ فمكره أياسه من الرجوع إلى البقاء المذكور، والكل في مكره، ومكرهم من مكره، ومكره وراء مكرهم يحتالون أن يخرجوا من مكره بمكرهم، ولا يخرجون من مكره إلا بمكره.

قال الحسين: لا مكر بين من مكر الحق بعباده حيث أوهمهم أن لهم سبيلاً إليه بحال، وللحدث اقتران مع القديم في وقت، والحق بائن وصفاته بائنة إن ذكروا فبأنفسهم، وإن شكروا فلأنفسهم، وإن أطاعوا فلنجاة أنفسهم، ليس للحق منهم شيء بحال؛ لأنه الغني القهار.

قال ابن عطاء: المكر حقيقة ما مكر بهم الحق حتى توهموا أنه يمكرون ولم يعرفوا أنهم مكر بهم، حيث سهل عليهم سبيل المكر.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(١)

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ في الآية إشارة عجيبة، أي: لو يطالبون شهيد بيني وبينكم بصدق رسالتي؛ فانظروا فلاني موضع شهود جمال الحق، فإن ترونني بعين الحقيقة ترون جلاله وجماله وبهاءه في مرآة وجهي؛ فشهود تجليه شاهدي، وأيضاً شاهدي من هذا حاله من الأولياء والصديقين، ومن عنده ينكشف علم ذاته وصفاته وتصديق ذلك إشارته ﷺ بقوله:

«من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني فقد عرف الحق»^(٢).

وأيضاً ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ يعني: علم إشارات الله من أزله في كتابه، يعني لطائف الحروف المتشابهة المشيرة إلى دقائق أسرارهِ وملكوته وحقائق جبروته، أي من علم الكتاب ولهم سر الخطاب بلا واسطة من حيث الكشف والإلهام والمشاهدة والكلام، متحققاً في هذه مشاهدته وشاهدته وشاهد آيات رسله نائب أنبيائه وسفير الحق إلى خلقه، له لسان العجائب من علوم الإلهية وغرائب حقائق الربوبية، وله لسان الخصوص من المعرفة والتوحيد، وله لسان خصوصية الخصوصية من بيان النعوت والأسماء والأوصاف والصفات وأبناء الغيب، وغيب الغيب والفراغات الصادقة، والآيات الواضحة.

(١) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٢٦٧)، وأحمد في مسنده (٥٥/٣) بنحوه.

قال **﴿الْحَمْدُ﴾** في وصفهم: «إِنَّ فِي أَمْتِي مُحَدِّثِينَ مَكَلِّمِينَ، وَإِنَّ عَمْرَ مِنْهُمْ»^(١).

وله لسان العموم في علم المقامات من الصدق والإخلاء، والفرق بين الإلهام والوسواس والرياضات والمجاهدات وبيان عيوب النفس ومداوماتها، وهو لسان الحق في العالم إذا نطق نطق الحق؛ لأن الحق نطق به.

قال سهل: الكتاب عزيز، وعلم الكتاب أعز، والعمل بعلمه عزيز، والإخلاص في العمل أعز، والإخلاص عزيز، والمجاهدة في الإخلاص أعز، والمجاهدة عزيزة، والموافقة في المشاهدة أعز، والموافقة عزيزة، والأنس في الموافقة أعز، والأنس عزيز، وأدب محل الأنس أعز.



سورة إبراهيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٣ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِمْ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٤﴾

﴿الر﴾ في الألف ثلاثة أحرف ألف ولام وفاء، والإشارة فيها إلى ألفته لقلوب أوليائه، واللام لام الولاية، كأنه أليف أوليائه، والراء إشارة إلى رحمة السابقة في اصطفايته، كأنه قال بالآلف إنا، وباللام الأزل، أي أنا في الأزل رحمة أوليائي واصطفيتهم لرؤية جمالي وراحة وصالي لهذه الصفات التي سبقت في اصطفايته واصطفائيته أمرك وأخبرتكم ومحبة أمتك، وما أخبرت بإشارة ﴿الر﴾.

﴿كِتَبَ﴾ إن هذا كتاب مجتبي، ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ لتعلم فضيلتك وفضيلة أمتك، ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ إذا عرفناهم سبق عنايتي لهم نخرجهم بنور

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (١٣ / ١٧٤)، وابن عجيبة في «البحر المديد» (٢ / ٧١).

كلامي وأخباري عن كرمي ورحمتي عليهم عن ظلمات طبيعتهم، وغواشي غفلتهم إلى سعة فضاء كرمي ونور بسطي وانبساطي، وأيضاً تخرجهم من ظلمات الظنون إلى نور اليقين، وأيضاً من ظلمات العدم إلى أنوار القدم، ومن ظلمات النفس الأتمة إلى نور المشاهدة، ومن ظلمات المجاهدة إلى نور المكاشفة، ومن ظلمات رؤية غيري إلى نور رؤية قربي.

قال جعفر في قوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾^(١): عهد خصصت به فيه بيان سالف الأمم ونجاة أمتك، أنزلناه إليك لنخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات البدعة إلى أنوار السنة، ومن ظلمات النفوس إلى أنوار القلوب.

قال أبو بكر بن طاهر: من ظلمات الظن إلى أنوار الحقيقة.

قال أبو حفص: الظلمة رؤية الفعل والنور رؤية الفضل.

قال الأستاذ: من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات التفرقة إلى أنوار الجمع، ثم إخراج الهداية من علة الكسب بقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ثم بيّن ذلك النور بأن هذا ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهو طريق العبودية الذي اصطفاه الحق لعرفان الربوبية على قدرهم لا على قدره؛ فإنه عزيز ممتنع عن مطالعة الحدث حقائق قدمه، وهو محمود في أفعاله وذاته وصفاته بالسنة أحبائه بما أنالهم عبوديته وهداهم إلى ربوبيته.

ثم وصف نفسه بالألوهية التي بدأ منه الكل وإليه يرجع الكل، وما كان وما سيكون، وما هو حاضر من الملك والملكوت في تصرفه وتدبيره، يهدي فيه ويهدي به، وبما فيه من دلائل صنعه وربوبيته عافيه إلى مشاهدة جلاله وعظيم كبريائه بقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه إشارة إلى أحبائه أي أن الكون وما فيه لي من أراد ذلك؛ فليسأل مني لا من غيري، ومن أرادني فلا يلتفت إلى مالي.

قال الواسطي: الكون كله له، فمن طلب الكون فإنه المكون، ومن طلب الحق وحده سخر له الكون بما فيه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ وصف الله المرائين الذين

(١) قال الأستاذ: أقسم بهذه الحروف: إِنَّهُ لَكِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ به من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الشك إلى نور اليقين، ومن ظلمات التدبير إلى فضاء شهود التقدير، ومن ظلمات الابتداء إلى نور الاتباع، ومن ظلمات دعاوى النفس إلى نور معارف القلب، ومن ظلمات التفرقة إلى نور الجمع بإذن ربهم وإرادته ومشيتته، وسابق حكمه وقضائه إلى صراط رحمته، وهو نهج التوحيد وشواهد التفريد، تفسير القشيري (٤/ ٢٤).

يؤثرون جاه الدنيا ورياستها على طلب الولاية وشرفها، ويصدون المريدين عن طريق القاصدين إلى الله ويصرفون وجوههم إليهم ﴿أَوَلَيْكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ في ظلمات القهر ولا مخرج لهم منها أبدا.

قال أبو علي الجوزجاني: مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا حَرَّمَ عَلَيْهِ طَرِيقَ الْآخِرَةِ، وَمَنْ طَلَبَ الْآخِرَةَ حَرَّمَ عَلَيْهِ طَرِيقَ نَجَاتِهِ، وَمَنْ طَلَبَ طَرِيقَ النِّجَاةِ حَرَّمَ عَلَيْهِ الْوُصُولَ إِلَى التَّفَضُّلِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لكل نبي وصديق اصطلاح في كلام المعرفة، وطريق المحبة مع قومهم فيعرفهم طريق الحق باصطلاحهم الذي يعرفه قومه وأصحابه تسهيلا لسلوكهم وتيسيرا لإدراكهم ولو تكلموا بلسان الحق والحقيقة لم يعرفوا ذلك فهلكوا؛ فيفتح تلك الحقائق لمن يشاء من المريدين، ويحجب من يشاء منهم عنها غيره عليها بقوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ.

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ فيه إشارة أن أيام القدم وأيام البقاء، أيام القدم أولية الأولية المتزّهة عن دهر الدهار، والزمن الآثار، كان في كان قبل كان وكما كان فيما كان الآن؛ فعشق بنفسه على نفسه، وكان عروس نفسه ولم يكن في كان إلا كان؛ فمضى على كان أيام قدم كان بلا عشق ملهوف، ولا محب معروف، ولا حيران سكران، ولا عارف مكاشف، ولا مؤنس مستأنس يتمتعون بجمال القدم في القدم فيا ويلتا من وصال فائت منا، وجمال غائب عنا تذكرت أياما ودهرا صالحا؛ فبكيت حزنا فهاجت حزني.

وأما أيام البقاء آخريّة الآخريّة بلا مرور الحدّثان ولا علة الأكوان والأزمان بقاء سرمدي وجمال أحدي ووصال أبدي ويبقى لشهود عشاقه ومطالعة جمال أهل أشواقه كأنه قال ذكرهم أيام القدم ليفنوا حسرة على ما فات عنهم.

على ما فات أبكي من حياتي	وأيام مضت في النزهات
وذكرهم أيام البقاء ليبقوا	من فرح وجد إنها أبدا
دنا وصال الحبيب واقتربا	وأطربا للوصال وأطربا

وأيضًا أي: ذكرهم أيام وصال الأرواح في عالم الأفراح، حيث كشفت قناع الربوبية عن جلال وجد الصمدية لها حتى عشقت بجمالي وبقيت في وصالي وذات طعم محبتي من بحر قربتي ما أطيبها، وما ألذها حين كلمتها بعزیز خطابي، وعرفتهم حقائق جمالي، فقلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] من غاية محبتي وشوقي لها، قالوا: بلى من شوقي ومحبتي أين تلك الأرواح حيث باعدت من مزار الوصال، وأيام الكشف والجمال؛ ليذكروا زمان الصفاء ولطائف الوفاء؛ ليزيدوا شوقًا على شوق، وعشقًا على عشق.

وكانت بالعراق لنا ليالي سلبناهن من ريب الزمان
جعلنا من تاريخ الليالي وعنوان المسرة والأمان
وأيضًا ذكرهم سرور مشاهدتي وخوفهم عن مقاطعتي؛ فإن شأنهما عظيم وخطرها
جسيم.

نهايات راحت النفوس وصالها
وغايات لذات العيون لقاءها
واشوقاه إلى تلك الأيام الصافية عنكدورة البشرية
واشواقاه إلى أيام كشف النقاب بلا علة العتاب
كان لي مشرب بصفو برؤيتكم
فكدرته بدم الأيام حين صفا

ثم يئن سبحانه أن فوت أيام القدم رزية عظيمة لكل صبار في الفراق، وإن رجاء وصول أيام البقاء سرور عظيم لكل شكور أنعام المشاهدة والمعرفة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

قال بعض المشايخ: ذكرهم بأيام الله وهي ما سبق لأرواحهم من الصفوة وتعريفه التوحيد قبل حلولها في الأشباح.

سقيًا لها ولطيبها ولحسنها وبهائها أيام لم يلح النوى بين العصا ولحافها
ويقال: ذكرهم الله بأيام الله هي أيام التي كان العبد فيها في كتم العدم، والحق يقول بفعله الأزلي عبادي ولم يكن للعبد عين ولا أثر ولا للمخلوق منه خبر، حين لا وفاق بعد ولا شقاق ولا وفاء ولا جفاء ولا جهد للسابقين ولا عناء ولا ورد للمقتصدين ولا بكاء ولا ذنب للظالمين ولا التواء، كان متعلق العلم، متناول القدرة، مقصورا الحكم على الإرادة، ولا علم له ولا اختيار ولا زلة ولا أوزار، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور.

قال الأستاذ: الصابر غريق المحن لكنه راضي بحكمه، لذيد العيش بسرّه، وإن كان مستوجباً لرحمته عن خلقه، والشكور غريق المنن، لكنه محجوب بشهود النعم عن استغراقه في ظهور حقه، بل هذا واقف مع صبره، وهذا واقف مع شكره، وكل ملازم بحده وقدره، والله غالب على أمره مقدس في نفسه متعزز بجلال قدسه.

قال أبو الحسن الوراق: في هذا الآية فتح عليهم سبيل الشكر لثلاث تغيروا بالنعم.

وقال: عرفهم أن الوقوف مع النعمة يقطع عن المنعم.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(١) وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَنَا اللَّهُ لَغَنِي حَمِيدٌ ﴿٢﴾ الْفَرِيَاءُ تَكْفُرُ نَبِؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ علق زيادة نعمه عليهم بزيادة شكرهم، ولا علة لفضله وكرمه، ولا تعلق لفيضه بكسب عباده وشكرهم وصبرهم، بل شكرهم وصبرهم من توفيقه لهم، أن من عرف عجزه عن شكري لأزيدن معرفته بي، ولعجزه عن إدراك حقيقة معرفتي، وحقيقة شكري يكون عبداً شاكراً.

وهذا القول الحسين حين قال: إني عجزت عن موضع شكرك فأشكرك فأشكر عني؛ فإنه الشكر لا غير.

وهذا اعتراف داود عليه السلام فقال: إلهي لكل شكرٍ شكر، لأنه يكون بتوفيقك؛ فعجزت عن شكرك فقال سبحانه: «الآن شكرتني يا داود»^(٢) أيضاً لئن شكرتم اصطفايتي لكم بمعرفتي في الأزل، وتعرفون حقيقتها لأزيدنكم بكشف مشاهدتي لكم حتى تعابنونني وتبصرونني بعيون المعرفة، والقلوب الخالصة، والأرواح العاشقة، والعقول المتميزة في جلالي.

قال حمدون: شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيلاً.

قال بعضهم: مَنْ شَكَرَ النِّعْمَةَ زَادَهُ مِنْ أَنْعُمِهِ، وَمَنْ شَكَرَ الْمُنْعَمَ زَادَهُ مَعْرِفَةٌ بِهِ وَمَحَبَّةٌ لَهُ.

وقال ابن عطاء: لئن شكرتم هدايتي لأزيدنكم خدمتي، ولئن شكرتم خدمتي لأزيدنكم مشاهدتي، ولئن شكرتم مشاهدتي لأزيدنكم ولايتي، ولئن شكرتم ولايتي

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (٩/٣٤٣)، وابن كثير في «التفسير» (٣/٥٣٠).

لأزيدنكم رؤيتي.

وسئل ابن عطاء عن قوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ قال: إذا وردت الأشياء إلى مصادرها من غير حضور منك لها فقد تم الشكر.

وقال الجوزجاني: لئن شكرتم الإسلام لأزيدنكم الإيمان، ولئن شكرتم الإيمان لأزيدنكم الإحسان، ولئن شكرتم الإحسان لأزيدنكم المعرفة، ولئن شكرتم المعرفة لأزيدنكم الوصلة، ولئن شكرتم الوصلة لأزيدنكم القرب، ولئن شكرتم القرب لأزيدنكم الأنس.

وقيل: إني خلقتكم لأزيدنكم الأنس بعد الوحشة، والقرب بعد البعد، والحضور بعد الغيبة.

قال الواسطي: ذكر الزيادة حجبهم عن الحقيقة، ثم كشفت الحقيقة لأقوام متواجدين، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ﴾ [الكهف: ٢٨] (بالغداة والعشي يريدون وجهه)، لا الزيادة، وفضله ولاحتته وبره، بل الحصول مع الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ويقال: لئن شكرتم وجود الطافي لأزيدنكم شهود أوصافي.

ثم بين سبحانه استغناؤه عن شكر الشاكرين، وصبر الصابرين، وإيمان المؤمنين، وكفران الكافرين، بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَلَنْ غَنِيَّ اللَّهُ لَغْنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وصف تنزيهه وغناه وحده وفيه إشارة، أي مادام أنا مستغن عن الأكوان والحدثان، فلا أبالي بغفرائهم وإن أدخلهم جميعا في بحار رحمتي، فلاني حميد حمدت نفسي قبل وجود خلقي؛ لاني علمت عجز خلقي عن حمدي.

قال أبو صالح الغني على الحقيقة: مَنْ لَمْ يَزَلْ غَنِيًّا وَلَا يَزَالْ غَنِيًّا، ما زاده إيجاد الخلق غنى، بل خلقهم على حد الافتقار، وهو الغني الحميد.

وقال الواسطي: ليس الإيمان بمقرب إلى الحق، ولا الكفر بمبعد عنه، ولكن جرى ما جرى به الأمر في الأزل بالسعادة والشقاء، فظاهر الكفر والإيمان أعلام لا حقائق، والحقائق القضاء الذي سبق الدهور والأزمان.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ علم الحق سبحانه أن العين للحدث يرى بها القدم صدقا؛ فنصب أعلام قدرته لتراه عين الحدث بواسطة القدرة، فقال: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فطرها بقدرته وإبداعها بعزته، وألبسها أنوار جلاله وهيبته، يدعوكم من نفوسكم إلى رؤية جماله في آياته، فتنظروا إليها بأبصار فأذن وقلوب حاضرة.

ثم رقاهم إلى أعلى الدرجات من رؤية أنواره وقدرته في خلقه إلى مشاهدة عيان ذاته؛ وذلك قوله: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ وقع الغفران على النظر منهم إليه بواسطة آياته. وأي ذنب أعظم من طلبه بواسطة من الكون، حار الوجود في وجوده، وغاب وجوده في وجوده، فضلاً عما أوجده في الوجود، وأيضا يدعوكم إلى معرفته؛ لتعرفوا بمعرفته نفوسكم وذنوبكم، وإذا وقعت المعرفة عنكم ارتفعت ذنوب تقصيركم في طاعته، وإدراك عزته.

قال النوري في هذه الآية قال: دعا الخلق بنفسه إلى نفسه، وذكر من أسمائه فاطرا؛ لثلاث يتعلقوا بشيء من الأكوان.

وقال: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إن أردتم ما فيها فهو عندي، وإن أردتموني فلا تلتفتون إليهما وارجعوا منهما إليّ.

وقال بعضهم: ما دعا الله أحدا إليه ولا الأنبياء، وإنما دعا من دعا لحظوظهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ أَلَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ أَلَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ووقعت التسوية على السواد والخيال، ولكن يختار برسالته ونبوته وولايته مَنْ يشاء من عباده الذين سبقت لهم حسن العناية في الأزل بما وهب لهم من خلع استعداد معرفته، وقبول عبوديته، ورقية مشاهدته، الأول تعريف التواضع، والآخر تشريف الحقائق.

قال أبو عثمان: مَنْ الله على خواص عباده ما فات الإحصاء والعد، فأول منة له عليهم التوحيد، ثم المعرفة، ثم أن بعث فيهم الرسل، ثم أن سباهم عباده، ثم له عليهم في كل نفس نعمة عرفوها أو لم يعرفوها.

وقال سهل: يَمَنَّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ بِتِلَاوَةِ كَلَامِهِ وَالْفَهْمِ فِيهِ.
وقال الأستاذ: ما نحن إلا أمثالكم، والفرق بيننا أنه مَنْ عَلَيْنَا بِتَعْرِيفِهِ وَاسْتِخْلَصْنَا
أَفْرَدْنَا بِهِ مِنْ تَشْرِيفِهِ.

﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (١٧) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا
أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أخبر الله سبحانه عن
الرسول اعترافهم في آخر الآية الماضية بالعجز عن التصرف في مملكته إلا بإذنه، وعن براءتهم
عن حولهم وقوتهم في ظهور المعجزة وبين اعترافهم، أيضاً بعجزهم في تحمل إيذاء قومهم
ورجوعهم إليه.

وقال: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ بعد أن عرفنا نفسه وأنوار ذاته وصفاته بأنه
مُعِين أوليائه وناصر أصفياه، توكلنا عليه لمعرفتنا به وما خصنا من لطائف وجوده
ومشاهدته، وقد هدانا سبلنا، أضاف السبل إليهم ولبس السبل لهم ولكن السبل له.
قالوا: ذلك انبساطاً أي مهتد لأرواحنا سبلاً إلى نفسه، ومعرفة شأنه؛ فإذا سلطنا تلك
السبل ورأيناه وراء السبل، وعرفنا ذاته وصفاته نتوكل عليه به لا بنا.

قيل للحسين ما التوكل عندك قال: الحمدود تحت الموارد، وقال: سماعهم الأصم في
قوله: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ وقد هدينا سبلنا، قال: ما لنا لا نشق بالله وقد أعطانا
الإسلام والهدى.

وقال أبو العباس وابن عطاء: التوكل على التجارب خدعة، والتصديق على مطاهرة
الوجود لبسته.

قال الأستاذ: ما لنا ألا نتوكل على الله وقد وقانا من تكليف البرهان إلى وجود روح
البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان وكفانا من مهمات الشأن.

﴿وَلَنَسْكَنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (١٩)
وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٠﴾ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿٢١﴾
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ
وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٢٢﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي
يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ

أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٦﴾ وَتَرْزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدً يَتَخَفَتُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَالَفَ مَقَامِي وَخَالَفَ وَعِيدِي﴾^(١) إذا أخرج الأمر جل جلاله على وفق مراد العارف، جعل ذلك منه عليهم، ثم طلب منهم شكر المنّة بوصف الطالعة والمتابعة، وزجرهم عن عصيانه، وخوفهم عن وعيد قرآنه، وعظيم مقامه عليهم بوصف الإحاطة على وجودهم وأسرارهم وضمائرهم لثلا يزول منهم بالغفلة عنه، ومقامه بالتفاوت؛ فمقامه على المریدين بالزجر والتهديد، ومقامه على المحبين بالهبة والتعظيم، ومقامه على العارفين بالإجلال والحياء، ومقامه على الموحدين بغلبات سطوات الكبرياء على قلوبهم، ومقامه على أهل الأنس والشوق والعشق على نعت كشف مشاهدة جماله وجلاله.

وها هنا الخوف من مقامه ووعيد مفارقتة، ووداعه منظر قلوب المستأنسين حتى تكون خاليه عن كشف مشاهدته، وأدق الإشارة فيه أن مقامه القدم في القدم، والبقاء في البقاء، وذلك المقام معدن الألوهية، ومنبع السرمدية، والخوف من ذلك الهبة والإجلال، وهذا المقام مقام الربوبية في الربوبية؛ لأن الحدث يتلاشى في بوادي سطوة عزته تعالى الله عن كل علة حدثانية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ خلق الكون بحق إرادته القديمة، والمشئة السابقة التي سبقت بكون الكون في الأزل، وأيضاً علم الكون حقاً في الأزل؛ فأظهر الكون بحق العلم والإرادة والمشيئة إظهار الحق حقيقة، ولحقوق ربوبيته وعرفانه من أهل عبوديته كأنه خاطب لرؤية تلك الحقائق ثم ارتقى من رؤية الحقيقة إلى رؤية عين الحقيقة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾ ثم نزل من الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الأفعال، وقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ فرؤية أنوار فعله للعقول، ورؤية أنوار صفاته للقلوب، ورؤية أنوار ذاته للأرواح، ورؤية أنوار عين الحقيقة للأسرار.

(١) أي: قيامه للحساب بين يدي في القيامة، أو قيامي على عبادي، وحفظي لأعمالهم، وإطلاعي على سرهم وعلايتهم، أو خاف عظمة ذاتي وجلالي، (وخاف وعيد) أي: وعيدي بالعذاب، أو عذابي الموعود للكفار. البحر المديد (٣/١٩٢).

وقال سهل: خلق الأشياء كلها بقدرته وزينها بعمله وأحكمها بحكمه؛ فالناظر من الخلق إلى الخالق يتبين له من الخلق عجائب الخليفة، والناظر من الخالق إلى الخلق يكشف له عن آثار قدرته وأنوار حكمته وبدائع صنعه.

وقال بعضهم: خلق السموات عالية على الأرضين مرتفعة عليها، وجعل عمارة الأرضين من بركات السماء وما يصل إليه منه، كذلك خلق النفوس وجعل القلوب أميراً عليها، وجعل نجاة النفوس وراحتها فيما يصل إليها من بركات القلوب؛ فمن طهر قلبه لاستطلاع المشاهدة أتته الفوائد، والزوائد من الحق في جميع الأوقات.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوَّأَ أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّاتٌ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوَّأَ أَنْفُسُكُمْ﴾ أخبر الحق عن كمال شرك إبليس حيث نسي الله نبعث إسقاط قدرة كل قادر غيره في مقام المؤاخذه بقوله: ﴿فَلَا تَلْمُزُونِي وَلَوْ مَوَّأَ أَنْفُسُكُمْ﴾ فسقوط النظر عن نفسه مع رؤية الغير في البين شرك، ولو كان في مقام على حد تحقيق التوحيد ما لام أحد ولا نفسه وما رأي في البين غير الله.

ألا ترى إلى قول الواسطي: مَنْ لَامَ نَفْسَهُ فَقَدْ أَشْرَكَ، ومقام الملامة مقام المريد لا مواء أنفسهم بميلها إلى هواها، وتكاسلها عن عبادة خالقها، وذلك الملامة من طريق المعرفة والتوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأن هناك تسقط الوسائط وتندرس الرسوم، وتنطمس طرق الأسباب.

قال محمد بن حامد: النفس محل كل لائمة فمن لم يلتم نفسه على الدوام ورضي عنها في حال من الأحوال فقد أهلكها.

قوله تعالى: ﴿تَحِيَّاتٌ فِيهَا سَلَامٌ﴾ السلام اسم من ألطف أسمائه، كأنه محل التحية؛ فأهل الجنة من العارفين يدعونه بهذا الاسم لوجدانهم مشاهدته بنعت العوافي من المجاب، فإذا أرادوا تحية بعضهم على بعض فيشرون بعضهم بعضاً سلام، أي هذا هو مشاهدة السلام، كأنهم في مشاهدته ليشير بعضهم على بعض إلى جماله وجلاله، وإذا حيوا بهذه التحية

فحيا الله بأحسن من تحيتهم بأنه حياهم بخطابه وسلمهم بكلامه؛ فكل من رآه فإن الحق سبحانه يسلم عليه بالبديهة قبل ثنائه عليه بقوله سلام قولاً من رب رحيم تجديد العهد الأول حين رآوه بالأرواح وسمعوا كلامه وسلامه بإذن الأسرار في ميثاق الأنوار، وما أطيب هذا السلام من السلام لأهل السلام.

أشاروا بتسليم فمجددنا بأنفس تسيل من الأفاق والسَّم أدمع
وقال بعضهم: تحيات الجنة وسلامها على ضروباً، فأهل الصفوة والقربة تحيتهم من ربهم وسلامتهم منه على قوله سلام قولاً من رب رحيم، ولأهل الطاعات والدرجات تحية الملائكة وسلامهم قال الله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْآمِثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أشار سبحانه إلى كلمة القديمة التي تكلم بها في اصطفايته أهل معرفته طلبت كلمته، وهي أطيب الطيبات باصطفائيته أهل الولاية، وتلك الكلمة القديمة شجرة الصفات أصلها ثابت في القدم وفروعها في سماء البقاء، وتلك الشجرة منزهة عن ثغائر الحداث وعن التبديل بطوارق القهريات، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ مياه تلك الشجرة من بحار حسن العناية الأزلية والإرادة القديم، تؤتي أكلها ثمرات تجليها بالأرواح المحبين والعارفين والموحدين كل حين تفيض فيض أنوارها على أفئدة الصديقين وعقول المقربين؛ فأكل تلك الشجرة ثمرات تجلي جميع الصفات والذات تربى بها قلوب الأولياء والصديقين، فثمرة مشاهدة الذات يورث لقلوب الموحدين التوحيد والتغريد والغناء والبقاء والصحو والمحو والحياة والوله، وثمرات الصفات يورث لفكر العارفين على قدر تجليها؛ فكل صفة يورث لها حقيقة من تلك الصفة؛ فميراث صفة العظمة الهيبة والخواف والإجلال، وميراث الكبرياء والبهتة والخجل والحياء، وميراث الجلال الخشية والخضوع، وميراث الجمال المحبة والشوق والعش، وميراث العلم المعرفة بالعلوم الدنية، وميراث القدرة الكرامات، وميراث نور السمع استماع أصوات هواتف الغيب، وميراث نور البصر الفراسات الصادقة ورؤية الغيب وغيب الغيب، وميراث نور الخطاب والكلام والاطلاع على الأسرار والوله والهيمنان في الأنس والمناجاة، وميراث الحياة وحياة القلب بالرب وحياة العقل بنور القلب وحياة الروح بروح الوصال، وميراث رؤية القدم والبقاء الزفرات والعبرات والمواجيد

والصعقات، وميراث رؤية أنوار الحكمة يبطون الأفعاليات ودقائق المقامات وحقائق المقامات وإدراك نور شواهد الآيات في كل ذرة في مرآتي الأفاق، وميراث ثمرة الإرادة صدق العبودية وإخلاص المحبة ويسهل له جميع المرادات مادام متصفًا بالإرادة، ومَنْ أكل ثمراً من ثمار تلك الشجرة يحيى بحياة الأبدية، ويبقى في أنوار الأزلية لا يطرأ عليه بعد ذلك طوارق الفناء، وأيضاً الكلمة الطيبة كلمة ألهمت في قلوب أحبائه، تلك الكلمة شجرة المعرفة أصلها ثابت في أرض القلوب وفرعها في سماء الأرواح ومياه تلك الشجرة من بحر كشف المشاهدة، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها من أنواع المقامات والحالات والكشوفات والكرامات والفراشات وحركتها في بستان الوصلة من جائحات الوسواس والهواجس، وأيضاً تلك الشجرة الطيبة كلمة التوحيد التي غرسها الحق في أرض بساتين الأرواح وأصلها هناك ثابت بالتوفيق، وفرعها في سماء القرب، وسقاها من سواقي العناية يرويها المعرفة وأغصانها المحبة، وأوراقها الشوق، وثمرها العشق، وحارسها الرعاية، ومزرعها الكفاية، ونهارها الأنس تؤتي أكلها كل حين في جميع الإفقاس من لطائف العبودية، وعرفان أنوار الربوبية ساكن ظلها العقول، وظلها من ظلال الجمال، وهذه الثمرات في أواني كمالها مرفوعة على خوان المشاهدة والقربة، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾.

قال ابن عطاء: الكلمة الطيبة قوله: «لا إله إلا الله»، على التحقيق، والشجرة الطيبة هي التي تظهر أسرار الموحدين عن دنس الأطماع بالثقة بالله، والانقطاع إليه عما سواه. قال محمد بن علي: الشجرة الطيبة الإيمان أثبتها الله في قلوب أوليائه، وجعل أرضها التوفيق، وسماءها العناية، وماءها الرعاية، وأغصانها الكفاية، وأوراقها الولاية، وثمارها الوصلة، وظلها الأنس؛ فأصلها ثابت في قلب الولي، وفرعها في السماء ثابتة بالمريد من عند الجبار؛ فالأصل يربي الفرع بدوام الإشفاق والمراقبة، والفرع يهدي إلى الأصل ما يجتنبه من محل المشاهدة والقرب، هكذا أبدا قلب المؤمن وفؤاده.

قال أبو سعيد الخراز: خزائن الله في السماء الغيوم، وخزائنه في الأرض القلوب؛ لأن الله خلق قلب المؤمن بيت خزائنه، ثم أرسل ريحاً فهبت فيه فكنسته من الكفر والشرك والنفاق، ثم أنشأ سحابة فأمطرت فيه، ثم أنبت شجراً، فأثمرت الرضا والمحبة والشكر والصفوة والإخلاص والطاعة وهو قوله: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾^(١)
يُثْبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ

الظَّالِمِينَ^٤ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٥﴾ أَلَيْمَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٦﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَنفَسُ الْقَرَارُ ﴿٧﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِركُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٨﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ إذا نطق القهر القديم على لسان النفس الأمارة التي هي الشجرة الخبيثة نطق لسانها بالهواجسات التي تورث كلمات الوسواسية الشيطانية، وتلك الكلمات أصل جميع الأهواء المختلفة التي ما لها ظلمة البعد، وغى الشهوات، وخيال النزعات، وتلك الشجرة الخبيثة غرسها في قهر الطبيعة أبدى القهرية، وتسقيها مياه الضلالات، وعروقها أصل النفاق، وساقها أصل الكفر، وأغصانها الأهواء المختلفة، وأوراقها الأوهام والظنون الفاسد، وثمارها الشك والشرك والكسل والبخل والبطر والنشاط والخيال والمحال والكذب والزور والبهتان والغيبة والنميمة والحرص والحسد والشهوة والشحناء والبغضاء والغضب، وجميع المساوئ النفسانية والشيطانية، وفي كل أوان وأوقات وأنفاس تعطي ثمارها، والصادق المحب الموافق يقصدان بقلعها وبقطعها من أصلها بفأس التوحيد والمعرفة والمحبة، وإذا كان مؤيد أسهل الله عليه قطعها من أصلها؛ لأنها عارضة عارية لامتحان القلب الذي هو منظر نور تجلي الحق وتيسر قطعها، لأنها ليست ثابتة بالحقيقة كشجر الإيمان والتوحيد قال تعالى: ﴿اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾.

قال محمد بن علي الترمذي: الشجر الخبيثة اللسان، ما لم يقطعها المؤمن بسيف الخوف فإنها تثمر أبداً الكلمات الخبيثة.

وقال بعضهم: الشجرة الخبيثة النفاق، وهي التي لا تقرر قراراً حتى تهوي بصاحبها في النار.

قال ابن عطاء: الشجرة الخبيثة الغيبة والبهتان، وهما يفتحان على الإنسان باب الكذب

(١) قال القشيري: (٤/ ٤٤): والشجرة الخبيثة هي الشرك اجْتُثَّتْ من فوق الأرض؛ لأن الكفر متناقض متضاد، ليس له أصل صحيح، ولا برهان موجب، ولا دليل كاشف، ولا علة مقتضية، وإنما شبهة وأباطيل وضلال، تقتضي وساوس وتسويلات ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شبهة واهية وأصول فاسدة.

والفجور.

وقال جعفر: الشجرة الخبيثة الشهوات، وأرضها النفوس، وماؤها الأمل، وأوراقها الكسل، وثمارها المعاصي، وغاياتها النار، ثم وصف امتنانه على أهل التوحيد بتسديد إيمانهم وتثبيت توحيدهم وتحقيق معرفتهم واستقامة أحوالهم بتوليته ورعايته لهم في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ القول الثابت قول الحق جل جلاله في الأزل حيث حكم في نفسه بتوحيد الموحدين، ومعرفة العارفين، ومحبة المحبين، وإيقان الموقنين، وإيمان المؤمنين، وسلام المسلمين، وقوله منزّه عن التبدل والتغير والاضطراب؛ فقوله الحق الباقي بوصف الأزل إلى الأبد، وإذا اصطفاهم بذلك القول لا يزيله عوارض البشريات، وغلبات الشهوات، وفنون الامتحانات، لأنه قائم بالذات والصفات وهؤلاء في ظل العناية محروسون بلطفه عن قهره في الدنيا والآخرة المعرفة لا يتغير بتغير الزمان، ولا بتبدل المكان، ولا بنزول الامتحان، ولا بشغائر الملوان، ولا بشيء من الحداثان، وثباته للمؤمن العارف منه استقامته به له في طريق مراده وذلك من فريد كشوف جماله وجلاله لهم بنعت الموارد والمواجيد من بحار قربه حين هجم أنوار سبحات وجهه في أسرار قلوبهم، وفيه إشارة لطيفة أن المعشوق يقرب القلب القصة الربوبية في كل لحظة للعارف الصادق آلاف المرات في الدنيا، فإذا قال أدركته أوقعه في بحر نكرته، فإذا تحير كاد لظلمات بحر النكرة إن تغرقه تحت أسافل القهريات يدركه فيض الشفقة ويريه جماله في ظلمات النكرة وكدوره الطبيعة البشرية بالبديهة، ويخلصه من غبار الامتحان، وكذلك دابة في مواقف القيامة حتى يريه بالنكرة في المعرفة، وبالمعرفة في النكرة حتى يلبسه أنوار ربوبيته ويخلصه من مقام امتحان، فإذا صار متصفا بصفاته فاز من ضرر الامتحان، وهذا حاصل في الدنيا والآخرة لأهل المعرفة.

قال الواسطي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ على مقدار التوحيد يكون المخاوف والأمن ولم يفزع من أحد الخوف، ولا انفلت منه أحد لخطئة، وما من أحد يسعى إلا عقبى سعيه وهو الذي لا يخاف عقباها، فَمَنْ ثَبَّتْهُ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ أسقط عنه ذلك المخاوف.

وقال أيضًا: الإيثار إيمانان، إيمان حقيقة بضياء الروح، وإيمان محبة بظل الروح، لذلك استثنى من استثنى في إيمانه كيف لا يأمنه بعد وهو لا يخلف الوعد، ثم وصف كيف قهر في القدم الظالمين بإضلاله إياهم بنفس المشيئة والإرادة الأزلية بقوله: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿ اختار أهل صفوته بمحبته ومعرفته ومشاهدته، وألبسهم حلل عنايته وقربهم منه به، وبعد المبعدين وطردهم بقهره عن باب لطفه، فعل ما

شاء بأهل العناية والسعادة، ويفعل ما يشاء بأهل البعد ببعادهم عن قربه ليس عليه في إبرام حكمه نقص في ردهم وقبولهم.

قال بعضهم: الخلق كلهم مجبورون تحت القدرة، مقهورون على بساط الجبروت، ليس إليهم من أمورهم شيء، ممنوعون عما يريدون، يقضى عليهم ما يكرهون، وهذا من آثار العبودية، والله تبارك وتعالى مدبر الأمر ومنشأها أنشأها على إرادته، وأبدعها على مشيئته، لا ناقص لما أبرم، فلا هناك على الحقيقة فعله، والكون صنعه لا علة لفعله ولا بضعه.

قال الشبلي في قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إذا أكرمه بالتثبيت كشف وأعطى كمال المعرفة، ومقال الصدق والتوكل، ومحض الإخلاص، وحقائق اليقين، وكوشف عن مقامات الولاية التي لا نهاية لها، وذلك وصف من ثبته.

وقال: الصادق ثبتهم في الحياة الدنيا على الإيمان، وثبتهم في الآخرة على صدق جواب الرحمن، ثم شكى عن المغيرين نعمته عليهم بقلة الشكر في نعمته وقلة الصبر في تحته بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ نعمة الله هاهنا العقل والعلم والاستعداد، وجمال الصورة والهيئة، بدّلوا العقل بالعبادة، وبدّلوا العلم بالجهل، وبدّلوا استعداد قبول الإيمان بقبول الشرك والشك من النفس والشيطان، وبدّلوا جمال الصورة بقبح المعاصي ومباشرة الشهرة، ويا ليت تلك النعمة لو ساعدها العناية الأزلية؛ وكيف يتبدل محل العناية ولو غاص المنعم عليه في بحر الكفر والمعاصي ألف مرة.

قال أبو عثمان: أجهل الخلق بنعمة الله من استعملها في أنواع المعاصي ولم يقم بشكرها في أن يعمل بها في طاعة الله.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خلق السموات والأرواح وعرض القلوب، زين السموات بأنوار الجبروت، وزين الأرضين بأنوار الملكوت، رفع هذه السموات بأنوار الذات، وبسطه هذه الأرضين بأنوار الصفات.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ أنزل

من سماء القيومية على سماء الأرواح أمطار أنوار التجلي، وأنزل من سماء الأرواح على أرض القلوب أمطار المعرفة والتوحيد؛ فأخرج بتلك المياه من جنات القلوب ثمار المحبة والألفة والشوق والعشق رزقاً للعقول والأسرار والنفوس.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ سَخَّرَ الأرواح أن تسير في فلك قاربها في بحر الأولية والأخروية، وتسقيها بشمال همها لوجدان عجائب بحار الذات والصفات من جواهر الأسرار والأنوار؛ فيؤيدها الحق بأن يجري رياح الكرم ولطائف القدم ليوصلها به منه إليه.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْآتِهَاتِ﴾ سَخَّرَ للعقول إجراء أنهار الأفكار والأذكار والإدراك والأنوار والأسرار، أجرى الحق في أرض القلوب أنهار معرفته ومجده، يسقيها معادن نور حكمته وعروق ورد شوقه وأصول شقائق الصدق والإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآبِّينِ﴾ الشمس والقمر هاهنا نور الإيمان، ونور اليقين، ونور المعرفة، ونور التوحيد، ونور المحبة والشوق، ونور الهداية والتوفيق، وأصل ذلك شروق شمس مشاهدة الذات، وبروز قمر نور الصفات من مطالع الأرواح والقلوب؛ ليريان نبات المعارف وأشجار الكواشف، ونرجس الإيمان وورد الإيقان.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ جاء بظلمة النفس للامتحان، وجاء بنهار القلب للعرفان، جاء بليل القهر للنكرة، وجاء بنهار اللطف للمعرفة، جاء بليل الحجاب للعتاب، وجاء بنهار كشف النقاب للسرور بالمآب ربّي سواكن الأرواح والقلوب والعقول، وبالنفوس والأشباح من الأسرار والأفهام والعلوم والحكم والفطن والحقيقة والمعرفة والمحبة والصدق والإخلاص والتوكل والرضا بليل كشف ظلال الصفات، وظهور نهار سبحان الذات لیتتم نعمته من الولاية والكرامات لها التي لا نهاية ولا غاية.

قال تعالى: ﴿وَأَتَنُكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أتاكم ما سألتكم منه في معاهد الأول وعقود الست بربكم من كشف الجمال والوصول إلى وصال الذي جلاله غير محصور وكماله غير مقصور بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ عمة الله كشف صفاته وذاته لهم، وتعريفها إياهم على نعت السرمدية لا يبلغ إلى رصفها حساب الحدثان وعدد الزمان والمكان، ثم شكّي سبحانه من المنعم عليه حيث ظلم بعد هذه النعم والكرم بسكونه بما وجد وعصيانه لمزأوجد، بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وصف شكره في التوحيد حيث استغرق في بحر الديمومية واتصف بتلك الصفة، وخرج منها بدعوى الأنانية ظلم

بجهله بعين القدم، ولو أدركها الغنى عن الأنانية في عين القدم، وأي ظلم أعظم من دعوى الربوبية ومحل العبودية، ثم وصف العطش والشوق في سراب الحيرة إلى إدراك كنه الكنه، ونسي ما وجد وجهل بتنزيهه الأزلية عن مطالعة الخليقة بوصف الإحاطة؛ فتارة ظالماً من كمال استغراقه في الأزل بدعوى الأنانية، وتارة كافراً حيث نسي ما وجد وجهل بما لم يكن مدرّكاً إلا الحق سبحانه، وكفرانه غاية عطشه في الشوق إلى إدارتك الربوبية، وعلو همته في خوضه في ظلمة أصل كل أصل وعلة كل علل.

ألا ترى موسى عليه السلام إذا استغرق في بحر الأولية كيف طلب الكل بالكل، والآخر بالأول، والأول بالآخر، الصفة بالذات، والذات بالصفات، فقال موسى عليه السلام: من متى أنت يا رب هذا الإنسان، كيف يكون إنساناً حيث حمل ما لم يحمل الحدثنان، اقرأ آية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾، وأدى أمانة حمل معرفة الأولية والآخرية وكنه الكنه، وإدراك عين العين لا بنفسه ظليماً، حيث اجتري ما اجتري، وجهل لما رأى على ما لم ير.

قال تعالى في حقه: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قال الصادق: وسخر لك السماوات بالأمطار، والأرض بالنبات، والبحر بأن تتخذ سبيلاً ومتجراً، وسخر لك الشمس والقمر يدوران عليك ويوصلان إليك منافع الثمار والزروع، وسخر قلب المؤمن بمحبته ومعرفته، وحظ الله من العباد القلوب لا غير؛ لأنها موضع نظره ومستودع أمانته ومعرفة أسرارها.

قال يحيى بن معاذ في قوله: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَآ سَأَلْتُمُوهُ﴾ إن الله تعالى أعطاك أكبر ما في خزائنه وأجله وأعظمه من غير سؤال وهو التوحيد؛ فكيف يمنعك ما هو دونها من الثواب والعافية بسؤال؛ فاجتهد أيها العبد أن لا يكون سؤالك إلا منه، ولا رغبتك إلا به، ولا رجوعك إلا إليه؛ فإن الأشياء كلها له فمن شغله بغيره عنه فقد قطع عليه طريق الحقيقة، ومن شغله به جعل الأشياء كلها طلوع يديه؛ فتقلب له الأعيان ويقرب له البعد؛ فيمشي حيث أحب، ويخبر عما أراد، وهذا من مقامات العارفين.

وقال بعضهم: وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها عد نعمة من نعمه يعجز عن الإحصاء؛ فكيف إذا تتابعه النعم.

قيل: أجل النعمة استواء الخلقة، وإلهام المعرفة، والذكر من بين سائر الحيوان، ولا يطبق القيام بشكرها أحد.

وقيل: إن الإنسان لظلوم لنفسه، حيث ظن أن شكره يقابل نعمة كفار محبوب عن رؤية الفضل عليه في البدء والعافية.

وقال سهل: وإن تعدوا نعمة الله عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم لا تحصوه، بأن جعل السفير فيما

بينكم وبينه السفير الأعلى والواسطة الأدنى.

وقال ابن عطاء: أجل النعمة رؤية معرفة النعم، ورؤية التقصير في القيام بشكر المنعم. قال: أيضًا النعمة أزلية كذلك يجب أن يكون شكره أزليًا، واعلم أن لك نفسًا وروحًا وقلبًا؛ فنعمة النفس الطاعة، ونعمة الروح الخوف، ونعمة القلب اليقين، ونعمة الروح الحكمة، ونعمة المحبة الذكر، ونعمة المعرفة الألفة، والنفس في أبحر الطاعات تتنعم، والقلب في بحر النعيم ينقلب، والمعرفة في أبحر القربة وانتظار العيان بتنعم. قال: أيضًا سخر لكم الليل والنهار جعلهما ظرفًا لعبادتك ووعاء لطاعتك، وسخر لك الشمس والقمر لتستدل بهما على أوقات العبادات، وسخر قلبك لمعرفة ومحبته؛ لأن حظ الحق من العبيد قلوبهم.

قال الحسين في قوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ما لا يحصى لا يتناهى لا يصح لها شكر متناه في وقت متناه، وإنما طلبهم بالشكر ليقطعهم عن الشكر. وقال الأستاذ: ساء القلوب زينها بمصاييح العقول، وأطلع فيها شمس التوحيد هو العرفان، ومرج في القلوب يجري الخوف والرجاء، جعل بينهما برزخًا لا يبغيان لا يغلب الخوف ولا الرجاء، وسخر فلك التوفيق والعصمة وسفينة الإيواء والحفظ، وكذلك ليالي الطلب للمريدين، وليالي الطرب لأهل الانس من المحبين، وليالي الهرب للتائبين، وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند سطوع نهار اليقين.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ١٦﴾
 رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَلِإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَلِإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧﴾
 رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ١٨﴾
 رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا تُعَلِّنُ وَمَا نَحْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ١٩﴾
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ٢٠﴾
 رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ٢١﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ٢٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ مظنة الآية في حقيقة معناها البلد القلب، والقلب بلد البلدان، والعقل بلد القلب، والروح بلد العقل، السر بلد الروح والمعرفة، والمحبة بلد السر ومشاهدة المعروف، هناك بلد المعرفة والمحبة وسواكن هذه

البلاد عساكر أنوار أفعاله، وفرسان تجلي صفاته، وجنود عظام أزاله، وإبادة والنفس بلد الشهوات، وسوء النهى جنود القهريات؛ فاستعاذ به في هذا البلاد عن جنود القهر الذي معادنها النفس الأتارة، أي: اجعل هذا البلد آمناً بلطفك عن قهرك، وبالروح والقلب عن النفس، وجند شياطينها وهو أجسرها وسراق طبيعتها، واجعلها آمناً بك عنك.

كما قال: أعوذ بك منك، ثم سأل وقايته عن عبادته، وبنيه أصنام الطبيعة، والالتفات إلى الغير في طوارق البلاء، بقوله: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامَ﴾ كل ما وقف العارف عليه مما وجد من الحق فهو صنمه.

ثم قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: رؤية غيرك ومتابعة هذه الشهوات والهوى أضلت لما فيها من معجون قهرك كثيراً من المريدين والطلابين، حيث ارتبط بهم في مهوات الهلاك ووطأت الغفلات.

قال الشيخ: «النفس هي الصنم الأكبر»^(١).

ثم وصف نفسه بالإمامة في الخلقة والمعرفة والشرعية والطريقة بقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي في طريق المجاهدة والمحبة والخلقة بالموافقة في بذل الروح بين يديك؛ ﴿فَلِإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: طينته من طينتي، وقلبه من قلبي، وروحه من روحي، وسره من سري، ومشربه في المحبة والمعرفة والخلقة من مشاربي، ومن عصاني فيما يكون عصيانك ويقتضي حجابك ليس مِنِّي ولكن إنك غفور ذنوب قاصديك رحيم بمريدك، بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إشارة إلى أن كفر الكافرين، وعصيان العاصين، يستغرق في بحار رحمته وغفرانه، وإن يدخلهم في جناته لا يبالي.

والحكمة في قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ وإنه لم يقل ومن عصاك أنه كان عليه الصلوة في محل الخلقة، والخلقة توجب المحبة، والمحبة توجب المودة، والمودة توجب الشوق، والشوق يوجب العشق، والعشق محل الاتصاف والاتحاد، وعين الجمع، وجمع الجمع، فالإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ إشارة عين الجمع بعد انسلاخه من رسوم الحدوثية، كأنه قال: فمن تبعني تبعك، ومن عصاني عصاك؛ لأن في حقيقة العشق العاشق والمعشوق واحد.

ألا ترى إلى قول الحلاج - قدس الله روحه:

ها أنت أم أنا هذا إلهين في إلهين حاشاي حاشاي من إثبات اثنين

(١) ذكره الألويسي في «روح المعاني» (٩/ ٤٢٥).

وأيضاً لما قال: فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، قال أيضاً: وَمَنْ عَصَانِي مُوَافِقًا لِّلْقَوْلِ الْأَوَّلِ كَأَنَّهُ أشار أن طاعة الخليفة ومعصيتها تليق بالخليفة، وأنت منزّه من طاعتهم وعصيانهم، أي أنا من جنسهم وهم من جنسي وأنه منزّه عن المجانسة بالحدثان، وأيضاً أضاف عصيانهم إلى نفسه؛ لأن عصيان الخلق للخالق غير ممكن؛ لأن ما يبدو منهم من جميع الحركات إجابة وجودهم وسر السر، وما نعلن من حيز الإلهام والرسواس والهواجس، وأيضاً ما نخفي في أنفسنا من منازعة القدر بوصف خاطر النكرة في أمر المعيشة في صورة ما نكرة من أنفسنا من الشكوى والتغير في الغضب، وما نعلن بجلادتنا من صبر الصبر بوصف التصبر والتشكر.

قال الخواص: إنك تعلم ما نخفي من حبك، وما نعلن من شكرك.

وقال ابن عطاء: ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الأدب.

قال الحسين: ما نخفي من المحبة، وما نعلن من الوجد.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ١٧ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفِئْدَتُهُمْ هَوَاءٌ ١٨﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجْتِ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعَ الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ ذَوَالِ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ هذا من الله سبحانه محل تعظيم المراقبة والهيبة في الرعاية، والحياء في المحاضرة وللظالم من مشرب بحر جماله وجلاله وحسنه وأفضاله شربات من محبته وشوقه ومعرفته، ويخرج على بساطه بنعت العريضة والسكر ودعوى الأنانية؛ لأنه يجاوز طوره.

والإشارة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ لا يعني في الحقيقة أبصار سكارى المعرفة والتوحيد يوم الكشف الأكبر، حيث تبدوا أنوار سطوات العزة فتقضيهم عنهم بالحق وعظمته وكبريائه حتى يستغفروا في عظمته بحيث لا يقدرון الالتفات إلى غيره بقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾.

ثم زاد في وصف قلوبهم وضمحلها في عزة العظمة بقوله: ﴿وَأَفِئْدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ خالية عن العقول المدركة والأرواح الفائقة أو لأن من عزة القدم شيئاً، ولا من جلا الأبدية مدرّكاً.

ونعم ما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث يشاهد ما يجري عليهم بوصف الجبارية والعظمة؛ فإنه موضع شهوده وشهوده

للعباد أعظم من شهود العباد عنده؛ لأن العباد في محل الحضور وشهوده تعالى محل الكشف.
قال أحمد بن خضرويه: لو أذن لي بالشفاعة ما بدأت إلا بظالمي، قيل له: وكيف؟ قال:
لأنني نلت بظالمي عالم الله من والدي، قيل له: وما ذاك؟ قال: تعزية الله في قوله: ﴿وَلَا
تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾.

قال ميمون بن مهران: كفى بهذه الآية وعيدا للظالم وتعزية للمظلوم.
وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَفِيدَتْهُمْ هَوَاهُ﴾ هذه صفة قلوب أهل الحق، ألا ترى الهواء
قائم بالمشيئة، والإرادة غير قائمة بعلائق فوقها كذلك قلوب أهل الحق في هذه الآية الله ليس
في قلوبهم محل لغير الله إلا بساكن سوى الله، ومثل قلوبهم كما قال الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَعْمُرُ مَرَ
السَّحَابِ﴾ لا تلتفت إلى سواء ولا له قرار مع غير الله.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ
وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۝١٦﴾ وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ
مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ۝١٧ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو
الْإِقْدَامِ ۝١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ السكون في أوطان
الظلم من أهلية فطرة النفس الأمارة إليها، وسجيات الشهوات تميل إلى محلها من الآفات
لتزيد حظوظ هواها، ومن لم يخرج نفسه في زمان الإرادة من أجوار المدعين تعودت نفسه
عادة الظلم في الدعاوي الباطلة، ويقع عليه ما وقع على المدعين الكاذبين.

قال أبو عثمان: مجاورة الفساق وأهل المعاصي من غير ضرورة من فسق كامن،
ومعصية مستترة في القلب؛ لأن الله ذم قوما من عباده، فقال: وسكنتم في مساكن الذين
ظلموا أنفسهم ولم يعذر من مقام فيها، فقال: لم يكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها.
ويقال: إن معاشرة أهل الهوى والفسق ومجاورتهم مشاركة لهم في فعلهم، ويستقبل
فاعله ما استقبلهم.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَمَرًا لِلَّهِ وَالسَّمَوَاتُ وَتُرْزَوْنَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٩﴾ وَتَرَى
الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٢٠ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ
۝٢١ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٢٢ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ
وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ ۝٢٣﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ^ط وَتَرْزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ الإشارة في الحقيقة إلى تبدل أرض قلوب العارفين من صفات البشرية، وأوصاف النفسانية والخواطر الرديئة إلى الروحانية المقدسة لنور شهود جمال الحق وتبدل سموات الأرواح من عجز الحدوثية، وصفاتها وضعفها عن رؤية أنوار العظمة صرفاً وكفاحاً له. قال: تعديته فالأرواح والقلوب يخرج من ضيق القبض إلى محل البسط من خفقان أخوف إلى روح الرجاء، ومن رسوم العبودية إلى مشاهدة الربوبية، وبرز أهل هذه القلوب والأرواح من أماكن غيبه سكارى حيارى من شدة ولهم من جماله ديموميته في ميادين وحدانيته الأزلية خرجوا بنعت المبارزة والمفاخرة بولايته وقربته يا أخي لو رأيتم لرأيت عليهم أطراف أردية الكبرياء، متعلقون بحقوق أزار عظمة الجبار، يستغيثون بنعت الوله من فراقه في وصاله حتى لو رأيتم ما رأيت عليهم رسوم المبررات، بل رأيت عليهم سمات الألوهيات فما الناس بالناس الذين عهدتهم.

ولا الدار بالدار التي كنت أعرف ولو تريد أن ذلك أرض الظاهر
وسماء الظاهر إنها تبدل من هذه الصفات وظلمة الخليفة إلى أنها منورة ببرز أنوار جلال الحق عليها، وإنها صارت مشرق عيان الحق للخلق، وحين بدأ سطوات عزته بوصف الجبارية والقهارية بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وهنا يا أخي الوجود تحت أخيال القدم من استيلاء قهر أنوار القدم.

قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قيل: فأين الأشياء آنذاك؟ قال: عادت إلى مصابها، وقال: متى كانوا شيئاً حتى صاروا لا شيء؛ لأنهم أقل من الهباء في الهواء في جنب الحق.

وقال الواسطي: في هذه الآية ذلك لما يظهر من كشف حقائقه في بني آدم من أنبيائه وأوليائه؛ لأن الأرض والسموات لا يثبت لما يظهر على الأبدان من أنوار الحق.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ^١ أُولَئِكَ الْأَتْبَابِ﴾ هذا محل اعتبار العارفين لأنهم الناس بالحقيقة ليزيد شوقهم إلى جمال

(١) فإن قلت: هذا الإنذار داخل في البلاغ؛ فهو تكرار.

قلت: إن البلاغ إنما هو بالنسبة إلى الأحكام العملية الداخلة تحت الأوامر الإلهية، والإنذار بالنظر إلى المنكرات الداخلة تحت النواهي؛ لأن الإنذار إعلام وتخويف، ولا تخويف إلا حيث العصيان، وفعل المنهي، والمخوف به؛ هو العذاب الجسماني والروحاني، وأما الجسماني بإحراق النار الصورية، وأما الروحاني فهو بإحراق النار المعنوية؛ وهي تجلي الجلال، ومن آثاره؛ البعد والقطيعة، فكما أن أهل الجلال =

معروفهم، وخوفهم من فراقه، وإجلالهم من عظمة وجهه، منه ما لم يعلموا منه لأنهم من معرفته بالحقيقة في ظنونهم وقت أم رسومهم فإذا عاينوه عرفوه وعرفوا ساهم به وما كان من تقصيرهم في معرفته وعبوديته، وذلك حين وقعوا في بحر توحيده ورؤية وحدانيته بقوله: ﴿هُوَ إِلَهُ وَّاحِدٌ﴾ وما وصفنا من فنائهم في بقاءه، وبقائهم ببقائه، لا يتذكر فيه إلا البناء الحقيقية، وعلماء المعرفة، وعشاق المشاهدة، وأمناء خزائن المملكة.

قال جعفر في قوله: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ ولينذروا به موعظة للخلق وإنذار لهم ليجتنبوا قرناء السوء ومجالسة المخالفين؛ فإن القلوب إذا تعودت مجالسة الأضداد تُنكس وتتشكس.

قال بعضهم: كشف للخلق ما ندبوا له، وأمروا به وجعل ذلك أعذاراً إليهم وإنذاراً

لهم.



سورة الحجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ۝ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَفْخِرُونَ ۝ وَقَالُوا يَتَأْتِيَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكِ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ۝﴾.

﴿الر﴾ فهم النقد بما يرى من فلق الإلهام إخباراً كسير بصورة الألف واللام والراء،

مقربون؛ لينظروا إلى الجمال الإلهي؛ فكذا أهل الجلال مبعدون؛ ليحببون عنه كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، ثم هذا البعد اعتباري؛ لعدم ظهور آثار القرب، وإلا فالله قريب من عباده أينما كانوا، وأما هم فمنهم قرياء، ومنهم أقارب، ومنهم أباعد على طبقات مختلفة بحسب كشفهم، واحتجابهم، ودخل تحت التبليغ، والإنذار دعوة الجن، وإنذارهم أيضاً، والفرق بينهم، وبين الإنس: إن الإنس مُبَشَّرُونَ، كما أنهم منذرون، وأما الجن: فمنذرون فقط، دل عليه قوله تعالى حكاية: ﴿وَيُجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١] حيث خصَّ الإجارة بالذكر، وطوى ذكر الإدخال في الجنات.

إن الله سبحانه بيّن كالألف بحر الإثبات؛ لأنه خير عن الأولية، ألا ترى كيف قدمها على أول اسمه الله، وبيّن باللام بحر النفي؛ لأنها شقيقة لام لا، وبين بالراء بحر كشف الربوبية، وظهور أنوار الرؤية، وهذه من شرائط المعرفة، فَمَنْ لم يسبح في بحر النفي بنعت الفناء لوجدان عين الحقيقة، وحق البقاء لا يبلغ إلى بحر الربوبية، ولا يدرك لطائفها، ولا يصل إلى عيان كشف الرؤية بحقائقها، وقد انقلبت هذه الحروف من أماكنها إبهامًا، وإشارة لفهوم الفهماء، وإدراك العلوم والعلماء، ألا تراها في نص صورة الإيمان، كيف كانت أولها لا إله، ثم ذكر محل الإثبات بالألف إلا الله، ولم يذكر الزاي؛ لأن الأكثرين استغرقوا في البحرين ولم يصلوا إلى البحر الثالث، لأجل ذلك لم يذكر الراء في هذه الكلمة، وهذا سر عجيب لا يعرفه إلا أهل السر من أهل التوحيد، وهي أصل الكتاب؛ لأن الكتاب جاء مخبرًا بمجموعة عن أسرار ما بلسان صاحب الواقعة عليه السلام ألا ترى إلى قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ أي: هذه الحروف المتشابهة أصل هذا الكتاب، والكتاب تفسيرها يترجمها بما فيها في السورة بلسان القرآن، والقرآن مجمع أوصاف الربوبية، وخبر ما كان في الحروف المعجمة يخبر بلسان مُبِين يُبَيِّن عند كل عارف عالم القرآن، مبین في ذاته ليس فيه إبهام، لكن لم يخرج جلاله وجماله من الحجاب بالحروف بنعت التبيين إلا لَمَنْ كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، فَيُبَيِّن عن أسرارهِ على قدر إفهام السامعين، فالمراد يسمع من حيث التوحيد فيوله، والعارف يسمع من حيث المعرفة فيبهت، والعاشق يسمع من حيث العشق فيتيه، والمشتاق يسمع من حيث الشوق فيهم، والمحب يسمع من حيث منه؛ لأنهم من معرفته بالحقيقة في ظنونهم وقت ألم القرآن بوصفه لأهل الستر، فالأنيس يستأنس بجماله، والسكران يطير بفهم خطابه ولذة سماعه.

قال الأستاذ: بيّن للمؤمنين ما يسكن قلوبهم، وللمريدين ما يُقوي رجاءهم، وللمحبين ما يهيج اشتياقهم، وللمشتاقين ما يُنور أسرارهم، ولما عظم شأن القرآن في خبر الملكوت والجبروت لانقياد الأكوان والحدثان عند جناب الرحمن، وخضوع العارفين بنعت الفناء على جناب عز البقاء، وبلغوا بأياديهِ القدمية، ومنَّهِ الأزلية عليهم إلى مقام النظر إلى جماله وجلاله ومعينه ذاته وصفاته، وبروز أنوار جلالهم بين أطباق الأكوان، ويراها مع غرتها أهل الطغيان، ويتمنون أنهم كانوا منقادين مستسلمين كما كان أهل المعرفة والحقيقة فيه للحق منقادين بقوله: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الساقطين عن طريق الحق يودون أنهم من المريدين، ولم يكونوا من المنكرين، ولم يكونوا من المجتهدين، ولم يكونوا من الكسالى البطانين، وأن يكونوا من الراضين، ولم يكونوا من الساخطين، وأن يكونوا من المتوكلين، ولم يكونوا بتدابيرهم لأجل الرزق من المقيمين، وأن يكونوا من العالمين، ولم

يكونوا من الجاهلين، ومن الموقنين لا من الشاكين، ومن العارفين لا من المقلدين، ومن الموحدين لا من المدعين، ومن المخلصين لا من المرائين.

قال بعضهم: ربما يَوَدُّ الذين فسقوا لو كانوا مطيعين^(١).

قيل: ربما يَوَدُّ الذين كسلوا لو كانوا مجتهدين، وربما يَوَدُّ الذين غفلوا لو كانوا ذاكرين.

قال ابن الفرخ: الكفر هاهنا كفران النعمة، معناه ربما يَوَدُّ الذين جهلوا نعم الله عندهم وعليهم أن لو كانوا شاكرين عارفين برؤية الفضل والمِنَّة.

قيل: إذا صارت المعارف ضرورية احترقت نفوس أقوام عقوبة، وتقطعت قلوب آخرين حسرة.

ثم سَلَى قلب حبيبه عن إنكارهم، وطيب بخطابه فؤاده؛ فقال الله تعالى:

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وصف المنكرين بِشَرِّهِ بطونهم وشهوات فروجهم وأمل نفوسهم شبههم بالبهائم، وجعلهم أجهل منها بأملهم ومنازعتهم المقادير؛ لأن البهائم لا يكون لها أمل.

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَانُوا لِنَعْمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ فهم لا يعلمون حقائق فسادهم وجهلهم بالله، وبأوليائه بترهاتهم وطاعاتهم، وما أفدوا من أيام الطاعات بالمخالفات عند معاناة العقوبة ووقوع الحسرة.

قال أبو عثمان: أسوأ الناس حالاً من كان شغله ببطنه وفرجه وتنفيذ شهوته، حينئذ لا يلحقه أنوار العصمة، ولا يصل أبداً إلى مقام التوبة.

قال أبو سعيد القرشي: في هذه الآية من شغله تربية نفسه، وطلب مرادها، والتمتع بهذه الفانية عن الإقبال علينا، فأعرض عنهم ولا تُقْبِلْ عليهم، وذَرَهُمْ وما هم فيه، فلم يصل إلينا إلا من كان لنا، ولم يكن لسوانا عنده قدر ولا خطر.

قال سهل: أخبر الله عز وجل عن أخلاق الجاهل أن همتهم الأكل والتمتع، فأنساهم ذكر قرب الأجل، وَيَعِزُّ عليهم ما يأملون من عيشهم على هذه الجملة، فسوف يعلمون أن الذي لهم فيه هلاكهم، وذلك الذي يبعدهم عن مدائح أهل السعادة، فإن من أراد الله به الخير جعل همته فيما يقربه إليه من مقام على الطاعات، واجتناب المخالفات ومحاسبة النفس، ومن كان بهذه الحالة يلهمه ذلك عن الأكل والشرب والتمتع.

(١) اعلم أن (رُبَّ) مثقلة أو مخففة إذا دخلت على المضارع تكون للتقليل، فقال المفسرون: معنى قلة، ودأبتهم أنهم كالسكران من ورود الشدائد الكثيرة المتعاقبة، فإذا صاروا إلى أنفسهم، ورجعوا إلى عقولهم، تمنوا ذلك، وإلا كان من شأنهم أن يتمنوا ذلك في جميع أوقاتهم، لا في بعض الأحيان.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ١٠٠ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ
 ﴿١٠١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الذكر صفته، وصفته قائمة بذاته، وهو منزّه عن تغيير كل مغيرات، نزلنا القرآن في قلوب العارفين وصدور الموقنين وأسرار الموحدين وإنا له لحافظون، من مخالفتهم القرآن يحفظ قلوب الصديقين والصادقين بما حفظ قرآنه عن شكوك النفس، ومغالطة الشياطين، وحركات الضمائر بالخطرات المذمومة، وأيضا كاشفنا عن أسرارهم في قلوب أوليائي، وبما كشفنا منه لهم حافظون بحفظها في صميم أسرارهم، ويحفظ أسرارهم عن غير فهم حقيقي.

قال ابن عطاء: نحن أنزلنا هذا الذكر شفاء وبيانا وقرآنا وفرقانا؛ ليهدي به من كان موسوماً بالسعادة، منور بتقديس السر عن المخالفة، وإنا له لحافظون، وإنا نحفظه في قلوب أوليائه، ونستعمل به جوارح الخواص من عبادنا.

يقال: أخبر أنه حافظ القرآن، وإنا يحفظه بقراءته، فقلوب القراء خزائن كتابه، وهو لا يضع حفظه كتابه، فإن في تضييعهم تضييع كتابه.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ١٠٣ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٠٥﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا ۖ بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٠٦﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما أدخلنا الضلال والكفر في قلوب منكري أنبيائنا وأوليائنا الأولين، حتى كفروا بهم ولم يؤمنوا بها جاءوا به، يدخل في قلوب هؤلاء المنكرين الكفر والضلال، وتُسَدُّ أبصار قلوبهم عن رؤية حقيقة مشاهدة آياتنا، ونحجب بصائرهم عن إدراك لطائف كتابنا، وما يبدو من أنوارنا عن وجوه أوليائنا، حتى لا يذوقوا طعم لطيف الخطاب، ولا يروا إلينا طريق المآب.

قال الأستاذ: أزاع قلوبهم عن شهود الحقيقة، وسد بالحرمان عليها سلوك الطريقة.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾ ١٠٧ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٠٨﴾ إِلَّا مَنْ أَشْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ مِنْهَا مُبِينٌ ﴿١٠٩﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُورٍ ﴿١١٠﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِجَاءٍ مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿١١١﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿١١٢﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿١١٣﴾ وَإِنَّا

لَنَحْنُ نُحْيِي - وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ أخبر بجلاله وعز كبريائه عن سموات الذات، وأبراج الصفات، وأنه كشف أنوارها وأسرارها لنظار الأرواح والعقول والقلوب؛ لتسير في أبراجها بقدر قوتها من قوى السعادة والتوفيق، فكواكب الأرواح تسري في أبراج الأزليات والأبديات، ونجوم العقول تسير في أبراج أنوار العظمة والكبرياء، وسيارات القلوب تسير في برج سنا الجلال والجمال، وأقمار الأسرار وشموسها تسير في بروج سبحات الذات، فتحصيل الأرواح من أماكنها وسيرها التوحيد والتجريد والتفريد، وتحصل العقول من سيرها المعارف والكواشف، وتحصل القلوب من سيرها العشق والمحبة والشوق والخوف والرجاء والقبض والبسط والعلم والخشية والأنس والانبساط، وتحصل الأسرار من سيرها الفناء والبقاء والسكر والصحو، ولكل عارف وموحد ومحب وشائق وصادق ومخلص ومريد من كل برج من أبراج الصفات له نظر وفهم وعلم ومعرفة وكشف ومقام وعمل ونطق وإشارة وعبادة وجد وحال وأدب وأفعال وما لا يتناهى من دنيات ثمارها المشاهدات ولطائفها المكاشفات؛ لأن منابع الصفات التي منزهة عن الحدود والعلات، ومن سار في أبراج الصفات يرى منابع الصفات، وهي عيون ألوهية الذات، سبحان من عظم شأنه وتقدس أسماؤه وصفاته وذاته عن أوهام الخليقة، ومن إدراك قلوب البرية، وذلك قوله بوصف تنزيهه: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ منع كشف جمال صفاتها وجلال ذاتها عن أبصار البطالين والمدعين والمبطلين الزائغين عن الحق المقبلين على الخلق، هذا من أعالي دقائق الإشارات، وإشارة الأدنى أنه تعالى جعل في سماء الأرواح أبراج أنوار تجلي صفاته وذاته، فسيارات أنوار الصفات والذات تسير في أبراج همها، وجعل تلك الأبراج منورة مزينة بزيينة نور الصفات والذات لسكان أرض القلوب من أنظار العقول؛ لترى العقول في ترائيها أقمار الصفات وشموس الذات من حيث التجلي لا من حيث كينونة الحلول، فتستشرف على أسرار معارف جوده ووجوده، فلكل نظر منها فائدة في القلوب من المواجيد والحالات والمعاملات والمقامات، مثل الوجل والخشية والندم والرغبة والرغبة والمراقبة والمحاضرة والخطاب والشهود والوقوف بأسرار العبودية والربوبية، فنعت تلك القلوب بما رأت تلك العقول من أبراج سماء الأرواح الوجد والهيجان والهيان والوله والزفرات والعبرات، صواحبها أوتاد الأرض ونقباء الأولياء وأصفياء الحضرة شمائلهم أنوار جود الله، يظهر من وجوههم سنا وجود الله، سبحان الله، من هم وأين مأواهم؟ طوبى لهم، ثم طوبى لهم ثم بفضل جوده وحفظ تلك البروج من هواجسات النفوس ووساوسات

الشياطين.

كما قال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ثم بين سبحانه أن تلك النفوس الأمارة والشياطين الوسواسية تسترق من عالم سماء العقول والأرواح والأسرار والقلوب أسماع هواتف الغيب من صرف الخطاب والإلهام؛ لتدع بكلمة الغيب الدعاوي الباطلة؛ فأتبعها شهب طوارق القهريات، وأحرق بنيران المحبة والأشواق، ليصفّي هواء المعرفة من غبار الطبيعة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾.

وأيضاً فيه إشارة أخرى أنه تعالى يعز جوده وجدده وجلاله، جعل في سماء القلوب أبراج المقامات والحالات، ويجري فيها سيارات الهمم لطلب وجدان أهله أنوار الصفة، فترى كل همة من برج كل مقام نوراً من أنور الغيب، وسر من أسرار الغيب، حتى يستشرف على مطالع الربوبية والإلهوية في كل دورة أفلاك القلوب في هواء الهوية حين تبرز شمس أسرار الذات وأقمار الصفات وسيارات حقائق الأزل والأبد.

ألا ترى تقلب تلك الأفلاك في ممالك ملكوت الأزل، كيف وصفها حبيب الحبيب صلوات الله وسلامه عليه وعلى خلائه من الأنبياء والرسل والأصفياء بقوله: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(١).

ونظار تلك السماوات العقول القدسية والأسرار الملكوتية، ترى من كل برج نور صفته، فيورث تجليها لكل عقل مقام، وشرقاً وحالاً ووجداً وعلماً ومعرفةً، وبجلال قدمه يحفظ تلك السموات مع أبراجها من طوارق النفوس والوسواس، فإذا قصدت النفس الأمارة إلى حاشية من حواشي القلب يحترق بزفرة من زفرات القلب، وكذلك الوسواس.

قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ﴾ وما ذكرنا من تلك الحقائق من أنوار تلك البروج يظهر من وجوه الصديقين، وتلك الوجوه مطالع أنوار صفات الحق يبرز نورها من وجوههم وجباههم للناظرين من المريدين الصادقين والشائقين من المحبين، وتلك سمات الحق لا اعتبار الخلق وهدايتهم، قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾.

قال بعضهم: زين السماوات بالكواكب والبروج، وجعل فيها علامات لمن يهتدي بها في ظلمات البر والبحر، وزين القلوب بإطلاعه عليها، وأنواع الأنوار لتهدّي بتلك الأنوار إلى مقام المعرفة، وهذه المعاملات إنما يهتدي بها من كان بصيراً مفتوحاً عين فؤاده ينظر إليه نظر عيان.

(١) سبق تخريجه.

قال أبو بكر بن طاهر: كما جلّ الله في السماء بروجاً يهتدوا به في ظلمات البر والبحر وزيناتها للناظرين، كذلك جعل في القلوب بروجاً يهتدي بها العارف إلى ربه، فمن ذلك برج الخوف، وبرج الرجاء، وبرج التوكل، وبرج التفويض، وبرج التسليم، وبرج اليقين، وبرج المعرفة، وبرج المحبة، وكل برج من هذه الأبراج والبروج منها طريق إلى الله تبارك وتعالى ولا يعرفها إلا السالكون فيها والعالمون بها، وكما زين تلك البروج للناظرين، كذلك زين بروج القلب للناظرين لأنفسهم القائمين بأوامر الرب عليهم والعارفين حالهم وعملهم في كل وقت وحين.

قال الأستاذ: في السماء بروج وهي لها زينة، ثم تلك النجوم للشياطين رجوم، إذا راموا إن يسترخوا السمع، وفي القلب للمعارف والعقول نجوم، ثم هي للشياطين رجوم، فلو دنا إبليس وجنوده من قلب ولي من أوليائه أحرقت بل محقته نجوم عقله وأقمار علمه وشموس توحيده وكما أن نجوم السماء زينة للناظرين إذا لاحظوها؛ فقلوب العارفين إذا نظر إليها ملائكة السماء لهم زينة، ثم أن الله سبحانه وصف قدرته في مد الأرض وإلقائه فيها الرواسي بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ الإشارة فيه أنه تعالى بجلاله وقدره بسط قلوب الأولياء ببسط سعته وقدرته وعلمه ومدّها بأنوار تجلي جماله وجلاله، فصارت مبسوطة بوقوع نور مشاهدته عليها؛ لأنها بلد الله ومقام زيارته، هناك أشرقت الأرض بنور ربها، فكلما يتجلى لها بسطها فانبسطت وزاد في امتدادها بقدر زيادة وقوع نور التجلي عليها، فكلما ازداد نورها من الحق ازداد بسطها وامتدادها وهي مضطرة إلى زيادة بسطها وسعتها إلا أنها يوازي مشاهدة جلالة القدم الذي بلا نهاية ولا غاية، فإذا يزيد بسطها وامتدادها إلى أبد الآباد، وذلك لأن هناك عرش الرحمن وكرسيه، وهنالك ولاية الله ينزل عساكر تجليه عليها في جميع الأنفاس والأوقات ولم يكن موضع من العرش إلى الثرى بهذه الخاصة غير قلوب الأنبياء والأولياء.

لما روي سيد الأنبياء - عليه وعليهم سلام الله عن الله سبحانه - قال: ألم يسعني السماوات والأرض، ويسعني قلب عبدي المؤمن^(١).

ولا يظن أن ذلك البسط أبسط صورة القلب؛ لأن بسط القلوب بسط علومها وفهومها وعقولها، وبسط نورها وقبولها أنوار قرب الله سبحانه التي اطلعت على فطرتها وأماكن غيبها، وغيبها معادن علم الله، وفي علم الله استغرقت الأكوان والحدثان؛ فكل شيء من العرش إلى الثرى في تلك الأماكن من قلوب الصديقين أقل من خردله، وكيف لا يكون

(١) سبق تخريجه.

ذلك وهو يسع حمل الملك والملكوت، ولما تجلى لها تزلزلت من هيئته وإجلاله؛ فألقى فيها رواسي العظمة وشدها بحبال أنور الكبرياء، وربطها بأوتاد العقول وأنبت فيها بمياه بحار زلال نور غيبه من جميع نبات المعارف والكواشف والمواجيد والحالات والمقامات والآداب، وتلك الحقائق والهبات موزونة بقدر تجليه وميزان علمه، وأيضاً فيه إشارة أخرى أن رواسب الأرض أولياء الله، وكما أن الجبال والرواسي بالتفاوت في صغرها وكبرها، فكذلك الأولياء بالتفاوت في مقاماتها وأحوالهم عند الله، فالرواسي أعظم الجبال، فأعظم الأولياء الغوث والثلاثة المختارون والسبعة ثم العشرة ثم الأربعون ثم السبعون ثم الثلاثمائة وهم الأبدال والأوتاد، والسبعون النقباء، والأربعون الخلفاء، والعشرة العلماء، والسبعة العرفاء، والثلاثة أهل المكاشفة وهم الرواسي والغوث، أعني القطب مثله مثل جبل قاف والأوتاد مفرع، العامة والنقباء مفرع الأوتاد، والخلفاء مفرع النقباء، والعلماء مفرع الخلفاء، والعرفاء مفرع العلماء، وأهل المكاشفة مفرع العلماء، والقطب مفرع الكل.

قال بعضهم: مدّ الأرض بقدرته وأمسكها ظاهراً بالجبال والرواسي، وأما الرواسي على الحقيقة؛ فهو مقام أوليائه في خلقه بهم يدفع البلاء عنهم وبمكانيهم بصرف المكار، فهم الرواسي على الحقيقة لا الجبال.

قال محمد بن علي الترمذي: أن في العباد عباد هم المفرع ومن فوقهم الأوتاد ومن فوقهم الرواسي.

قال: المفرع مرجع عامة العباد، ومرجع المفرع إذا هال الأمر إلى الأوتاد^(١)، ومرجع الأوتاد، إذ يستعجل الأمر إلى الأوتاد وهم خواص الأولياء، قال الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾.

وقال سهل: مدّ الأرض ووسع رقعتها ليسير فيها الناظر بالغيرة والاعتبار؛ فيطلب فيها أماكن الأولياء وهم الرواسي الذين بهم قوام الأرض.

قال الأستاذ: نفوس العابدين أرض العبادة، وقلوب العارفين أرض المعرفة، وأرواح المشتاقين أرض المحبة والخوف والرجاء لها رواسي وكذلك الرغبة والرغبة.

وقال: كما أنبت في الأرض فنون النبات أنبت في القلوب صنوفاً من الأزهار والأقمار، فمن نور اليقين، ونور العرفان، ونور الحضور، ونور الشهود، ونور التوحيد إلى غير ذلك من

(١) الأوتاد: هم أربعة في كل زمان، الواحد منهم يحفظ الله به المشرق وولايته فيه، والآخر المغرب، والآخر الجنوب، والآخر الشمال، وحكم هؤلاء في العالم حكم الجبال في الأرض؛ فإنه بالجبال يسكن ميل الأرض.

الأنوار، ثم وصف سبحانه معاش الجمهور مما ينبت أرض القلوب من زهر المعارف والكواشف بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لِكُلِّ فِيهَا مَعِيشَ﴾ معاش الصديقين في أرض أنوار الشهود، ومعاش المحبين ظهور نور تجلي، ومعاش العارفين كشوف التدلي، ومعارف الموحدين استماع الخطاب بعد الكشف، ومعاش سكان أرض القلب من العقل والفهم والنفوس نور الإيمان والبرهان والإيقان وذلك قوله: ﴿وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ هو بجوده سبحانه رازق الأرواح ورازق العقول والنفوس.

قال الأستاذ: سبب عيش كل أحد مختلف، فعيش المريدين بيمن إقباله، وعيش العارفين بلطف جماله، وعيش الموحدين بكشف جلاله، كل مربوط بحاله، ولكل نصيب من أفضاله، والحق منزّه عن التحمل بأفعاله، ثم وصف سبحانه سعة قدرته وعلمه وملكه وملكوته وخزائن جوده بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ أي: ما من شيء في قلوب العارفين من أنوار المكاشفة والمعرفة والتوحيد والإيمان واليقين والمقامات والحالات والإلهام والخطاب إلا عندنا خزائنه، وخزائن هذه الحقائق ذاته القدسية وصفاته الأبدية، فإن كل وجد وكشف وعلم وحال ومعرفة وتوحيد مقام ومقال يتعلق بكشف الذات والصفات وكشوف أنوارها تظهر بقدر قوة القلوب مقرونة بالإرادة الأزلية بقوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وعلم الإشارة في الآية دعوة العباد إلى حقائق التوكل بوصف قطع الأسباب والأعراض عن الأغيار.

قيل: كان الجنيد إذا قرأ هذه الآية: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ قال: فآين تذهبون؟

قال بعضهم: القلوب خزائن الحق عند الخلق أودع فيها أجل شيء وهو التوحيد وزينها بالمعرفة ونورها باليقين ومجدها بالتفاني في أوصافه.

قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(١). وجعل آثار أنوار القلوب على الجوارح من التسارع إلى الطاعات، والتشاغل عن المعاصي والمخالفات، وهذا دليل لما قلت من الكرامات لذلك، قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾.

وقال حمدون: قطع أطماع عبيده عن سواه بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا

(١) سبق تخريجه.

خَزَائِنُهُ ﴿فَمَنْ رَفَعَ بَعْدَ هَذَا حَاجَتَهُ إِلَى غَيْرِهِ فَهُوَ لَجْهَلِهِ وَلُومِهِ.﴾

قال ابن عطاء: في هذه الآية النظر إلى شواهد القسم أسكنت بالنفوس عن الحكم. وقال سهل: أخص خزائن الله في الأرض قلوب أوليائه التي هي محل معرفته وغيبه ومحل نظره، فَمَنْ حفظ تلك الخزانة بالذكر الدائم والمراقبة عمّر الله قلبه بالرجوع إليه على دوام الأوقات والأعراض عما سواه.

وقال: خزائنه في الحقيقة مقدوراته وهو سبحانه قادر على كل ما هو موهوم الحدوث. ويقال: خزائنه في الأرض قلوب العارفين بالله في الخزانة جواهر من كل صنف، فحقائق العقل جواهر ومنعها في قلوب أقوام، ولطائف العلم جواهر، وبدائع المعرفة جواهر، وأسرار العارفين مواضع سره، فالنفوس خزائن توفيقه، والقلوب خزائن تحقيقه، واللسان خزائن ذكره.

ويقال: أرواح قلوب الفقراء عن تحمل المنة من الأغنياء فيما يعطوهم، وأرواح الأغنياء عن مطالبة الفقراء منهم شيئاً، فليس للفقير صرف القلب من الله إلى مخلوق، ولا افتقار منه لأحد، ولا للغني بقليل منه لأخذ ذلك الملك كله لله، والأمر بيد الله فلا قادر على الإبلاغ إلا الله.

ثم وصف الرياح اللوائح التي تحمل الأشجار ثمارها بقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ غرس في قلوب أوليائه أشجار المعرفة التي هي من بساتين غيب ملكوته وجبروته، ثم أرسل عليها رياح لطفه بكشف جماله لها؛ فتلقح بشمال جماله أشجار معرفتهم ثمار محبته وشوقه وعشقه، ثم سقاها بمطر عنايته من بحر كرمه حتى أثمرت كل غصن منها حكمة من حكمه وعلماً من علومه، وخبراً من غيبه، وسراً من أسرارهِ، وحقيقة من حقائقه بها نسائم الأنس، ونورها لطائف القدس، وزهرها من لوائح إنصاف، ووردها من لوامع الذات، وفواكهها حياة مرضي المريدين تشفيهم من داء الفراق، وتربيهم بترياق الوفاق، فكل سالك عارف عاشق محب واله سقاها الحق من مطر لطفه من بحار كبريائه شربات مفرحات الأفراح بأقداح الأرواح؛ فيصير سكران جماله من حب جلاله هائماً من شوقه إلى وصاله، فلا العاشق الشائق يسكن من سكره، ولا من سقي شرابه، ولا ينقص بحر وصاله من شرب عاشق جماله وكمال جلاله.

شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفذ الشراب ولا رويت

قال بعضهم: رياح الكرم إذا هبت على أسرار العارفين أعتقتهم من هواجس أنفسهم، ورعونات طباعهم، وفساد هواهم ومراداتهم، ويظهر في القلوب نتائج الكرم، وهي

الاعتصام بالله، والاعتماد عليه، والانقطاع عما سواه، قال الله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾
فقلوب تلقح بالبر، وقلوب تلقح بالفجور، وما روي في الأخبار قلوب الأبرار تغلي بالبر،
وقلوب الفجار تغلي بالفجور.

قال أبو عثمان: كما أن الرياح الربيع إذا هبت فتحت عروق الأشجار لحمل الماء،
فكذلك رياح العناية إذا فتحت أسماعها لقبول الموعدة ودفعها على طريق التوبة وباب الإنابة.
وقال ابن عطاء: رياح العناية تلقح الثبات على الطاعات، ورياح الكرم تلقح في
القلوب معرفتها لنعم، ورياح التوكل تلقح في النفوس الثقة بالله والاعتماد عليه، وكل ريح
تظهر في الأبدان زيادة وفي القلوب زيادة، والشفاء من حومها.
وقال الأستاذ: كما أن الرياح في الأفاق مقدمات المطر كذلك الآمال في القلوب مما
يتفرسه العبد مما يتأدى إلى قلبه من مبشرات الخواطر وتنسم النجاح في طلبه يحصل، فيستروح
القلب إليه قبل حصول المأمول من الكفاية واللطف.

ويقال: إن رياح البسط إذا هبت على قلوب العارفين ما تركت فيها للوحشة أثر.
ويقال: إذا هبت رياح القرب على قلوب العارفين عطرت بنفحات الأنس؛ فيبقون في
نسيمها على الدوام، ومما يؤيد تحقيق التوحيد آخر الآية قوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾
بين أن لطائف أنوار المشاهدة لا يتعنى بكسب العباد، ويكلفهم في المجاهدات، وإذا انكشفت
أنوارها في القلوب لم يكونوا بحابسيها؛ لأنها شعاع شمس الوجدانية وهي منزهة عن تناول
الحدوثية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾
أرواح الصديقين وقلوب الموحدين بقوله: ﴿وَلَنَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾
نحي بمشاهدتنا قلوب المنقطعين من موت الفراق، ونميت نفوس المريدين بالخوف عنا وقهر
عظمتنا عن حياة الشهوات، وأيضاً نحي الأرواح بتجلي بقائنا عن موت فنائها في مشاهدة
قدمنا، ونفنيها عن حياتها بمشاهدة البقاء برؤية قدمنا وأزلنا، نحي أسرار العارفين بجمالنا
ونميتها باحتجاب مشاهدة جلالنا عنها، ونحن الوارثون ما عليها من أحكام الربوبية وما لها
من أحكام العبودية.

قال الواسطي: نحي مَنْ نشاء بنا، ونميت من نشاء عنه.

قال بعضهم: نحي أقواماً بالطاعة ونميت أقواماً بالمعصية.

وقال البراق: نحي القلوب بنور الإيمان ونميت الأنفس باتباع الشهوات.

وقال أبو سعيد الخزاز: الحي من العباد من الحق حياته، والميت منهم من جر كأنه

بقاؤه.

وقيل: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت النفوس بالاستتار.
 وقال الجريري: كم مَنْ حي حياته موته، وميت موته حياته.
 وقال سهل: نحي أهل الصفوة بمعرفتنا والإقبال علينا، ونميت المخالفين بإنكارنا والإعراض عنا.
 وقال: أيضًا نحي النفوس السعيدة متابعة القلوب الرضية، ونميت النفوس الشقية بمتابعة الهوى والشهوات.
 وقال الأستاذ: نحي القلوب بالمشاهدة، ونميت نفوسهم بالمجاهدة.
 ويقال: نحي المريدين بذكره، ونميت الغافلين بهجره.
 ويقال: نحي قومًا بأن يلاطفهم بلطف جماله، ويميت قومًا بأن يحجبهم عن نيل أفضاله.

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْرِينَ ﴾ ١٠٠ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 خَشِرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ ١٠١ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْتُونٍ ۝ ١٠٢
 وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ۝ ١٠٣ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ
 صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْتُونٍ ۝ ١٠٤ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ ١٠٥
 فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ ١٠٦ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ ١٠٧
 قَالَ يَبْنَئُ إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ ١٠٨ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ
 صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْتُونٍ ۝ ١٠٩ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ ١١٠ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى
 يَوْمِ الدِّينِ ۝ ١١١ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ ١١٢ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ ١١٣ إِلَى يَوْمِ
 الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ ١١٤ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ١١٥
 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ۝ ١١٦ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ ١١٧ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ
 لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ ١١٨ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ١١٩ لَهَا
 سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ۝ ١٢٠ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ١٢١
 أَذْخَلُوهَا بِسَلَامٍ أَمِينٍ ۝ ١٢٢ وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ۝ ١٢٣
 لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۝ ١٢٤ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ ١٢٥
 وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝ ١٢٦ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ۝ ١٢٧ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
 فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ۝ ١٢٨ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝ ١٢٩ ۝

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَّقِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَفْزِينَ﴾ أنوار وقائع الغيب تقع في قلوب الأولياء في أوان شتى، فمن صاحب واقعة في زمان صباه كإبراهيم، ويوسف، ويحيى -عليهم السلام، ومن صاحب واقعة تقع واقعة في كمال شبابه كموسى، وداود، ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين، فمنهم المتقدمون بالوقائع، ومنهم المتأخرون بها، وأيضا إن المتقدم في عهد الأزل بالمعرفة والخطاب والشاهدة، وكشف الحجاب للأرواح الملكوتية، والمتأخر بالإيمان والإيقان بعد كون الأشباح والقلوب، وأيضا المتقدمين المجذوبين من العارفين بسلاسل جذبات المكاشفات، وهم أصحاب الوجود والحالات، والمتأخرين من أهل السلوك المقتدين بأهل الطاعات من أهل الكرامات، وأيضا المتقدمين في الأزل بالولايات والمتأخرين من أهل الطاعات، وأيضا المتقدمين بنعت المحبة والشوق إلى المشاهدة، والمتأخرين من أهل الطاعات بنعت الطلب ساكن الجنات، وأيضا المتقدمين إليه بالقلوب الواهة والأرواح العاشقة والعقول الفانية بنعت التسارع إلى طلب الجمال والجلال، والمتأخرين من أهل الرسوم بنفوسها الأتارة إلى أبواب المعصية والطاعة طلبا للحفظ والأعراض، وأيضا المتقدمين بهم إلى عالم المشاهدات، والمتأخرين بقدهم إلى الطاعات، وأيضا المتقدمين بنعت هيجان قلوبهم ووله أرواحهم إلى طلب لقائه، والمتأخرين بالطاعة إلى طلب ثوابه، ومن علم المجهول إشارته أن المتقدمين هم أهل الإرادات الذين إذا دعوا إلى الطاعة يتسارعون لخفة قلوبهم لطلب صفاء العبادات وراحة المراقبات في صفاء الأوقات، والمتأخرين هم سكارى التوحيد والمعرفة والمنحة متناقلين من أثقال برجاء كشف العظمة والكبرياء عليهم إلى رسوم الطاعة، وذلك من غلبته البسط والبساط الحق إليهم مثل بهلول، وسعدون، ومجنون^(١)، والنوري، والشبلي، والحصري، وهشام بن عبدان الشيرازي، وعلي ابن سهل البضاوي، ونظرانهم من أهل السكر والغلبات -قدست أسرارهم.

قال ابن عطاء: من القلوب همته مرتفعة عن الأدناس، والنظر إلى الأكوان، ومنها ما هي مربوطة بها مقترفة بنجاستها لا تنفك عنها طرفة عين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُتَّقِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَفْزِينَ﴾.

وقال بعضهم: عرفنا الراغبين فينا والمعرضين عنا.

وقال النهرجوري: علمنا الراغبين فينا بسرعة الإجابة إلى طاعتنا، وعلمنا الزاهدين

(١) يقصد: سمنون المحب.

فينا بالتناقل بالقيام إلى أوامرنا.

قال الأستاذ: العارفون مستقدمون بهمهم، والعابدون مستقدمون بقدمهم، والتائبون مستقدمون بندمهم، وأقوام متأخرون بقدمهم وهم العصاة، والآخرين متأخرون بهمهم وهم الراضون بخسائس الحالات.

ويقال: المستقدمون الذين يستجيبون خاطر الحق من غير تعرج عن تفكر، والمتأخرون الذي يبصرون إلى الرفض والتأويل.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْتُونٍ﴾ إن الله سبحانه كان موصوفاً في الأزل بالقهر واللفظ وللصديقين منه ما تأثير في تجليها عن القدم إلى العدم، ويتجلى بلطفه من أنوار لطفه إلى العدم، فأظهر بنور لطفه التراب والماء وجعلها أصلاً في مواليد الإنسان، وتجلى بقهره للعدم؛ فأوجد من تجليه النار، وجعلها أصل مواليد الجن والجان، فخلق من الماء والطين آدم ﷺ وذريته وجميع معاشهم من الماء والطين اللذين أصلهما من تجلي نور لطفه، وخلق الجن وإبليس من النار التي هي من تأثير قهره؛ فوق المخالفة بين الجن والإنسان، كما وقعت المخالفة بين الماء والطين والنار، فخلق الأول الماء والطين من لطفه، ثم خلق النار من قهره، فسبق الماء والطين على النار؛ لأن الماء والطين سبب الرحمة على العباد، والنار سبب عذاب العباد، لذلك قال تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»^(١).

فتبين فضل الماء والطين وتقدمهما على النار، فإذا كان الماء والطين بهذه المثابة خلق سبحانه بلطفه آدم ﷺ وذريته من الماء والطين، وخلق إبليس وذريته من النار، وإذا أراد سبحانه في الأول خلق الإنسان خلق ذريته بيضاء؛ فتجلى لها جميع صفاته وذاته، فذابت تلك الذرة من صولة تجلي ذاته وصفاته، وسارت زللاً نورانياً جلالياً جمالياً، فأثر فيها بركة تجلي ذاته وصفاته، فتلاطم بعضه بعضاً، وألقى فوق الماء زبدة من نفسه فصارت تلك الزبدة طيناً، فخلق سبحانه من تلك الزبدة الأرض، ودار ذلك الماء حول الأرض ودخل في بطنها، ثم خلق منها آدم ﷺ وكان ما خلق آدم ﷺ منها طيناً لزجاً بما فيها من ذلك، فببس الماء في نفسه بتأثير شعاع تجلي العظمة، فخلق آدم ﷺ منه لذلك قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مُسْتُونٍ﴾ فإذا أراد خلق آدم ﷺ سلط على ترابه ومائه سطوات تجلي قدمه وبقائه؛ فخرها بتجلي القدم والبقاء الذين كني عنهما باليدين بقوله: ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ يد القدم ويد البقاء أربعين صباحاً كل صبح منها أصبح كشف ألف صفة؛ فخرها أربعين صباحاً

يتجلى كشف أربعين ألف صفة من صفاته، وجعل صورة آدم ﷺ وطينته مساقط أنوار تجلي صفاته؛ فلما كملت صورته طرحها بين العرش والكرسي ثمانين ألف سنة من سني الآخرة، ورباها بأفانين كرامات تجليه، وهو سبحانه خلق روحه قبل صورته، وصورة الكون بألفي ألف عام من أعوام الآخرة.

قال ﷺ: «خلق الله الأرواح قبل الأجساد بألفي ألف عام»^(١).

وكان خلق روحه من تأثير تجلي ذاته، فأصلها أيضًا يتجلى جميع صفاته، فحبسها في حجال غيب الغيب وغيب غيب الغيب، وسترها بقباب غيبه من أعين الملائكة، ثم ألبس طينتها وصورتها لباس الغيرة؛ فنظرت الملائكة إلى صورة المعرفة من قلة معرفتهم بجلال قدرها، وأعمى الله إبليس عن رؤية ما في صورة آدم ﷺ حتى تفاخر عليها، فلما أراد سبحانه إظهار صنيعه في ملكه وملكوته وجلال صنيعه الموجود جاء بروحه التي انقذت من زنود تجلي الذات والصفات بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، وأدخلها بنفخة المنزه عن همهمة الأنفاس الحدثانية في صورته؛ فقام بإذن الله ملتبسًا نور الصفات والذات، وجلس على بساط سلك بقائه فصار مختار من بين الفريقين الجن والملائكة، أيضًا لأن الملائكة خلقت بأمر واحد وكان آدم ﷺ خلق بتجلي الذات والصفات فشتان بين آدم ﷺ وذريته، وبين الملائكة وبنيه، وبين إبليس وجنوده.

قال بعضهم: الأشباح مزدولة قيمتها؛ لأنها خرجت من تحت ذل كن، وأظهرت من الصلصال والحمأ المسنون.

قال الأستاذ: ذكرهم نسبتهم؛ لئلا يعجبوا بحالتهم.

ويقال: القيمة لهم بالتربية لا بالتربة النسب تربة ولكن التعب قربه.

ثم أخبر سبحانه الملائكة بخلق آدم ﷺ بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَنْسُونٍ﴾ إخباره لهم من خلق آدم ﷺ افتتاحه لهم أبواب خزائن ملكوت الأصغر ليرى ما في عالم الكبير وما فيه إياهم في عالم الصغير، وهو الإنسان ليشاهدوا عجائب صنعه وقدرته ويروا فيها جمال جلاله؛ لأن آدم ﷺ كان مرآة الحق في العالم مَنْ يراه يرى آثار الله فيه.

قال جعفر: امتحنهم ليحثهم على طلب الاستفهام؛ فيزدادوا علمًا بعجائب قدرته ويتلاشى عنهم نفوسهم، ثم أعلم الملائكة محل جوده ولطائف جوده في آدم ﷺ ليروا آيات

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (٩٠/١١)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٢٦١/٣)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١٢٢/١).

بهاثة وتخضعوا لجلاله بقوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^١ أعلمنا أن مزية آدم عليه السلام على الكل بتشريف تسويته ونفخه روحه فيه وإن كان شريف في الأصل فطرة طينه شرفه كان لله، ومباشرة أنوار ذاته المنزهة عن الحلول والاجتماع والافتراق؛ فيصير قبله الله في بلاده وعباده فإذا ظهر لكم فاسجدوا له عند معايتكم أنوار قدرتي وعجائب لطفي.

قال أبو عثمان: إذا خصصته بإظهار النعت عليه من خصائص الروح وبيان التسوية فدعوا مجادلتم وارجعوا إلى حد الفهر والتعبد له.

قال الواسطي: لما نفخ الروح في آدم عليه السلام جعل معرفتها معرفة الحق إياها، وعلمها علم الحق بها قصودها مرادات بابها على محابها، فلما احتجب الملائكة بالصورة الصلصالية والرسوم الشجية عن جمال روحه وما صنع الله بعزته وصمديته وجلال جميع صفاته وذاته في تسويته وصفته حين لم يشاهدوا عين الجبروت والملكوت فيه، ولم يروا صور حقائق اللاهوتية في مرآة الناسوتية، واحتجوا وجادلوا بقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾^٢ ترحم عليهم الحق سبحانه بأن رفع حجاب الغيرة عن وجه آدم عليه السلام دلالة منه لهم به إليه ليعرفوا ذلهم وغره فرأوا أنوار الأسماء والصفات وسنا سبحات الذات في وجهه، ورأوه ملتبسًا بنوره ونور نوره، وما عليه من كسورة ربوبيته؛ فتاهت قلوبهم، وفنت عقولهم من صولة جلاله، وخروا له ساجدين من شدة حبهم له وشوقهم إليه، وتضاغرت نفوسهم بين يديه وذلك قوله سبحانه: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾^٣ سجودهم لما بدا من آدم عليه السلام من نور الحق؛ فسجدوا له لا له بالحقيقة بل سجدوا للأزلي الأبدى المنزه عن إشارة الزائغين، وتهمة المبطلين، وأوهام الغالطين، ولم ير إبليس ما رأت الملائكة؛ لأنه كان من عالم القهر محجوبًا بالقهر عن رؤية جمال الحق في آدم عليه السلام بقوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَبَّى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾^٤، ولو أدركه بتلك الصفة سجد له في كل لمحة ألف مرة.

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكَّعَا وَسُجُودَا

قال بعضهم: أبصر الملائكة من آدم عليه السلام هيكله وشخصه، ولم يشاهدوا إضافة الروح إليه واختصاص الخلقة به واستقامة التسوية وتعليم الأسماء والإشراف على الغيب فنكلوا على السجود؛ فلما أظهر الحق تعالى هذه الخصائص سجدوا له وقالوا: سبحانك أنت تخص من تشاء من عبادك بخصائص الولاية، وتنعيه بنعوت الريانية، وتجريه إلى بساط القرية، وأنت الفعال لما تريد.

قال الواسطي: الفرق بين روح آدم عليه السلام وبين الأشياء كلها تسوية الخلقة وتخصيص

الإضافة، فقربت من الله وعرفته ومكنها من حكمها فغنت وغنمت، ورجعت إليه بالإشارة وقطعت عنه العبارة، وذلك كله من عجز الفخر إذ لم يلبسها ذل القهر؛ فزينها بخلقه فتخلقت بخلقه، وتأدبت بصفته فكانت به تنطق وبإشارته تعقل، وهذا تفسير قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾.

قال أبو عثمان: فتح الله أمين الملائكة بخصائص آدم عليه السلام، وأعمى عين إبليس عن ذلك فرجعت الملائكة إلى الاعتذار، وقام إبليس على منهج الاحتجاج بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾.

قال أبو الحسين: نظر الملائكة إلى الروح، وإلى ما خص الله به آدم عليه السلام من القرية والكرامة؛ فانقادوا لأمره سبحانه، وسجدوا له وأبى إبليس واستكبر؛ لأنه كان في عبادته أسوأ حالاً منه في آياته؛ فإنه ما عبد الله قط، وإنما كان يعبد نفسه وهواه، ثم غير الحق سبحانه إبليس حيث لم يسجد له مع الملائكة بقوله تعالى: ﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهٖمُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ﴾ أي: ما لك ألا تكون من المشاهدين شهودي بوصف كشف جماله وجلاله مع دعواك معرفتي وعبوديتي، فإن من لوازم المعرفة والعبودية والعلم بالربوبية عليك أن تراني بوصف الربوبية في العبودية، وأن تعرفني بأمرى ما وراء أمري من أسرار علمي، وظهوري في لباس قدرتي.

ثم أخبر عن جوابه وجرأته بالكلام في حضرة القديم، ومؤازرة كبريائه الأزلي بكبرياء نفسه بقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّتَّسُونَ﴾ غلط الملعون في دعواه بخالص العبودية والمعرفة بالوحدانية، وإفراد القدم عن الحدوث؛ لأنه ظن أن محض العبودية صورة السجود والركوع، ولم يعلم أن متابعة أمره بأوجه، هي خالص العبودية، وينبغي أن يتابع أمر معبوده، ولم يأمر بشد الزنار مثلاً، ولا يبالي بأن يشد على وسطه الزنار؛ لأن العاشق الصادق يأخذ أمر معشوقه، ولا يخالفه في جميع مراده، ولو كان مشفقاً على محبوبه بأن يخلص عبادته له، فإذا رد قوله ونازع إرادته كيف له شفقة على محبوبه يا ليت لو رأى في مكان الأمر جلال الأمر؛ فإن آدم عليه السلام كان قبلة الظاهر كالكعبة، ولا يقع السجود إلا في مشاهدة الربوبية؛ لأنه قال: هو أهله لا غير ومقام إلا من مقام الامتحان، وظن الملعون أنه مستحكم في توحيده حيث لم يسجد لغيره، وهناك لا غير لأن في حقيقة عين الجمال ما هو إلا هو، ولو كان نظره صحيحاً لم يلتفت إلى الوسائط؛ لأنه في عين الجمع الدليل والمدلول واحد من حيث الحقيقة لا من حيث الرسوم، فيبقى الملعون جاهلاً عن معرفته عين الجمع، وقد غلط أيضاً إفراده عن الحدوث؛ لأنه كان محجوباً بنظرين، نظر إلى آدم عليه السلام، ونظر إلى

نفسه؛ فأما نظره إلى آدم ﷺ قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ﴾، وأما نظره إلى نفسه قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، ولو كان صحيح القول في نظره إلى عين الوجدانية يسقط عنه رؤية الغير في البين، ظن أنه عالم بالله، وقد وصل إلى عين الحقيقة، ولم يعرف أنه ما وصل إلى أدنى المقامات، ولو كان في محل التحقيق ما أحاله الحق إلى خدمة حادث من الحدثن، عرفه أنه لم يكن أيضاً مبتدأ من أهل الإرادة في أول درجات العبودية، ولو كان صادقاً في إرادته لأكل تراب قدم آدم ﷺ؛ لأن المريد ملهوف واله بإرادته ومحبه لمقتداه، ولكن إيش ينفعه، وهو كان مريداً لا مريداً؛ لأنه كان معجباً برأيه، ناظر إلى نفسه في إرادته وعبادته، فقد حصل له الإنكار على مشايخه في زمانه، وسقط من عين الحق وعيون أصفياه إلى صهوات الرياسة والضلالة، نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهدى، ومن الرياء بعد الإخلاص.

ألا ترى كيف كان حاله إلى الأبد إذا لم يعرف مكان القرب من مكان البعد، وكيف يهيم ويعمه في وادي الطرد واللعن بقوله: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ رجعت بأحجار القهر من مكان اللطف إلى معدنه؛ لأنه كان فيه عارية قد قصد باللعنة إلى يوم الدين، وكان في الأزل ملعوناً.

أراد بقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أن اللعن لعنان، لعن قديم، ولعن جديد؛ فإبليس كان موصوفاً بهما، اللعن القديم سبق إرادة الحق لإبعاده عن رحمته وذلك لا يتغير أبداً؛ لأن القديم هو الباقي، وتلك الإرادة قائمة به، واللعن الجديد زيادة القهر حيث أعطى زمام العصاة إلى يده حتى يفعل بهم ما يشاء بإذن الله، واستكباره عن طاعته؛ وارتكاب معصيته، وإغواء عباده هو اللعن الجديد الذي هو زيادة البعد؛ فذلك منقطعة يوم الدين حيث ارتفعت العبادة والمعصية؛ فيكون موصوفاً بها كان موصوفاً في علم القديم إلى الأبد، ليت لو كان رجلاً من الرجال، ويطلب الحق في أودية قهره ليرى أشياء من عجائب الربوبية ما يرى الرجال في معادن اللطف، ولكن كيف أقول وإنه ليس من دواب الإصطبل عجبت من تحنثه وجهده كيف يمشي خلف بنيات وصيات وجهيلات، ويفعل كما يفعلون من خساسة طبعه وكثرة جهلة ويستأنس بكل مستوحش، ويستوحش من كل مستأنس، وليس هذا من أوصاف الرجال.

قال الواسطي: اللعنة التي لم تزل تستحقه مني، وإن كانت الأوقات جرت عليك بزيئة السعادة.

ولما سقط من أصله بحسده وعداوة أولياء الله زاد حسده واستنظر بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ

فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٧﴾ أراد بذلك إيداءهم، وإلقاء نيران ضلاله إلى عباد الله، وظن من جهله بالله أنه يسبق القدر المعلوم حتى لا يموت كما يموت الخلق، فرد عليه الحق بقوله: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ أي: تموت كما يموت الخلق بالنفخة الأولى، وأراد الملعون أن يتشفى على آدم عليه السلام وذريته بعد موتهم، ويسخر منهم بما فيه من الحسد عليهم؛ فالتقى الله سبحانه رغام الحسرة على أنفه.

قال: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، ثم ذهب الملعون إلى طلب الحيلة في إغواء بني آدم، وخرج بالجرأة في المخاطبة في الحضرة بما أخبر الحق عند قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ ادعى الملعون اتصافه بصفة قهر المقدم؛ حيث قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك دعوى الاتصاف بالقدرة في عالم القهر، أي بما ألبستني من لباس قهرك وإغوائك إياي، لأغوينهم لا بقدرة نفسي تكلم من التوحيد بغير اختياره، وعلم أن اللطف من الحق سبحانه ورحمته سابقتان على قهره وغضبه، فاستدرك واستثنى أهل اللطف والرضوان الذي اصطفاهم الله بولايته، وطهر أسرارهم عن دنس الرياء والشرك بباء بحر إخلاصه وتوحيده.

فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ وبئنه رآهم خارجين من تحت أديان قهر القدم إلى ساحة كبرياء لطف الأبد، وذلك ما قال عقيب الآية: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ أي: أنهم ملتبسون بأنوار قدسي، المجالسون معي في مجالس أنسي، اخترتهم لنفسي، وهم مواطن سري، وهم سكان أماكن غيبي، ألبستهم أنوار صفاتي، وسنا بهاء ذاتي في بحار عبوديتي مستغرقة، وقلوبهم في بحار شوقي ومحبتني مستغرقة، وأرواحهم في هواء هويتي هائمة، وأسرارهم في أودية أسراري تائهة، أوتيتهم بي إلى من قهري، تقدر أن تسلط عليهم، وإن كان معك راية قهري، وإنهم في ساحة لطفي معصومون من قهري؛ فإن سلطتك يكون على تبعك من الغاوين بـإغوائي إياهم، وقهري عليهم، وافهم يا غافل أن الله وصف المخلصين من عبادي بأنهم معصومون من شر إبليس بنور إخلاصهم، وذلك النور نور التوحيد، ونور التوحيد من كشف نور الموحد ينكشف حين زند الملعون مقدحة الوسواس في صدورهم لوقوع نيران الرياء والشرك فيغلب نوره على ناره فيذهب النار، وبقي فيهم النور، وانقطع سلطنة الملعون عنهم؛ لأنهم بعين رعاية الأزل محفوظون عن الخطرات.

قال رجل ليحيى بن معاذ: بماذا كرم الله عباده المخلصين؟ قال: بالإيمان بالغيب

والمشاهدة.

قال ذو النون: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملون، والعاملون كلهم مغترين إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.
وقال النصر آبادي: المخلص على خطر من إخلاصه؛ لأنه بياها، والمخلص جاوز حد الخطر؛ لأنه لا به^(١).

وقال بعضهم في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: الذي أوصلتهم إلى قربي من غير كلفة ولا سابقة، وأفنيتهم عن أوصافهم، وزيتهم بأقلها وصفاتي عليهم، فهم مع الخلق بالهياكل، ومعهم بالأرواح والسرائر، لا عليهم من الخلق أثر، ولا لهم مما هم فيه خبر، أولئك هم عبادي حقاً، ليس لهم مطلب سواي، ولا مرجع إلا إليّ هم هم، بل أنا هم، بل أنا أنا، ولا هم هم، ولا صفة لهم، ولا أخبار عنهم، لفنائهم عنهم وبقائهم لي.
وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر الصادق -عليهم السلام- في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: ٦٣] قال: جملة الخلق من جهة الخلقة، لا من جهة المعرفة، وعبادي تخصيص في العبودية والمعرفة.

قال ابن عطاء: المخلص من أخلص من رؤية نفسه ومشاهدة أفعاله واستقام مع الله تعالى في كل أحواله، فلا يتقدم إلا بأمره، ولا يتأخر إلا بحكمه.
وقال جعفر: من الله بهذه الآية أن ليس للشيطان على عباده المخلصين سبيل، والمخلصين درجات من قبل المجاهدات والمشاهدات، فمن أخلص في عمله فهو مخلص، ومن أخلص بقلبه فهو مخلص، ومن أخلص سريره وعلايته لله فهو مخلص، ومن أخلص روحه نال الاستقامة بالله، والوصول إلى قربته.

(١) الحاصل: إن عباد الله منهم المخلصون بكسر اللام؛ وهم الصادقون؛ بمعنى إنهم تخلّصوا عن شوائب النفسانية في أعمالهم وأحوالهم، وهم على خطر في الجملة لبقاء شيء من نفوسهم، ومنهم المخلصون بالفتح؛ وهم الصديقون؛ بمعنى أنهم تخلّصوا عن شوائب الغيرية، كما تخلّصوا عن شوائب النفسانية، فهم قاننون عن نفوسهم، باقون بربهم لا يد للشيطان عليهم أصلاً؛ لأن الشيطان إنما يخدم النفس؛ لأنها الأصل في الفساد، فإذا كانت حركات عن صفاتها الرذيلة؛ عزل الشيطان نفسه عن تلك النفس المطمئنة؛ لأن النور والظلمة لا يجتمعان.

ولقد غلب عاصم على غيره من القراء في قراءة الفتح، والله درّه معرفة، فإن المستثنى من العباد؛ إنما هو هم لا غيرهم، وإن كان غيرهم أيضاً ممن يتذكّر ويُبصر؛ لكن أين المخلط من غيره، فإنه ما دامت بقيّة من النفس؛ فصاحبها غير محفوظ بالكلية، وقد عُرف بين الأولياء إن الكَمَل محفوظون؛ بل معصومون إلا أن العصمة تُقال في الأنبياء، والحفظ في الأولياء فرقاً بين المقامين.

وقال الأستاذ: من أشهده الحق حقائق التوحيد، ورأى العالم مصرفاً في قبضة التقدير، لم يكن يهباً للأغيار، ومتى يكون للغير عليه تسلط.
في معناه أنشد الحسين بن منصور - قدس الله سره:

جُحودِي لَكَ تَقْدِيسٌ وَعَقْلِي فَيْكَ تَهْوِيسٌ
وَمَمْلُوكِي أَدَمُ إِلَّاكَ وَمَنْ فِي الْبَيْنِ إِبْلِيسُ

ثم إن الله سبحانه وصف تلك العباد الذين هم معصومون من شرِّ إبليس بالتقوى، وذكر منازلهم في جنات العلا وعيون الأسنى، وسلامته من البلوى، بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ أَدْخُلُوهَا﴾ بِسَلَامٍ ءَامِينَ أي أن الذين يغضون أبصارهم عن الأكوان والحدثان في جمال الرحمن هم في جنات مشاهدات الذات وعيون الصفات يشربون من سواقيها شرابات المحبة، ورواق المعرفة، يقول حبيبهم: «ادخلوا بساتين القدم والبقاء بسلامة من الانقطاع، والأمن من الفراق»^(١).

قال بعضهم: مَنْ اتقى الشرك فهو في بساتين وأنهار، وَمَنْ اتقى الله فهو في حظيرة القدس عند ملك مقتدر.

وقال الواسطي: مَنْ اتقى العوض جعل ثوابه عليه ما يرجو ويأمله، وَمَنْ اتقى العوض فالحق عوض له من كل ثواب.

وقال الأستاذ: المتقي مَنْ وقاه الله بتفضل الأمن، اتقى بتكلفة لا بل يبقى بتكلفة، لا بعد أن وقاه الحق بتفضله، فهم اليوم في جنات ولها درجات، بعضها أرفع من بعض، كما أنهم غداً في جنات، ولها درجات بعضها فوق بعض، فدرجة قوم حلاوة الخدمة واللذة الطاعة ولقوم البسط والراحة، والآخرين الرجاء والرغبة، والآخرين الأنس والقربة، ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مِشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، ولزم كل فريق منهم اليوم مذهبهم.

قال الأستاذ في قوله: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾: معناه يقال لهم: ادخلوها، وأجل ذلك، ولم يقل مَنْ الذي يقول لهم: ادخلوها؟ فقوم يقول لهم الملك: ادخلوها.

ويقال: يحتمل أنهم لا يدخلونها بقول الملك حتى يقول الحق لهم: ادخلوها كما قالوا:

فَلَا الْبَسُّ النُّعْمَى وَغَيْرُكَ مُلَيْسٌ وَلَا أَقْبَلُ الدُّنْيَا وَغَيْرُكَ وَاهِبٌ

ثم إن الله سبحانه زاد وصف المتقين، أنهم مقدسون من غل النفساني وغش الشيطاني

(١) لم أقف عليه.

بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَبِلِينَ﴾ بَيَّنَّ في هذه الآية أن قلوب الصديقين والمتقين مقدسة من علل الإنسانية والشیطانية؛ لأنها مقدسة بقدس جمال الرحمن؛ ولأنها متقلبة بين إصبعين من أصابع الرحمن، ولا يدخل فيها علة الحدثان.

الأرواح كانت مستغرقة في لجج بحار الوجدانية والأسرار، هائمة في قدم الأزلية ما جرت عليها أوصاف الترابية، وما أشرف عليها غبار وساوس الشيطانية، وما طوى عليها في قدم الأزلية ما جرت عليها أوصاف الترابية، وما أشرف عليها وساوس الشيطانية، وما طرأ عليها قتام هواجس النفسانية، لكن لما أراد الحق سبحانه امتحانها خلق الأشباح، وجعل منها أوديتها الشهوات، وأنبت فيها نبات الأخلاق الذميمة، والفطرة السليمة، وجعل القلوب أماكن الأرواح، وجعل الأرواح أماكن العقول، وجعل العقول أماكن الأسرار، وجعل الأسرار أماكن لطائف معرفته وحكمته، وجعلها أصداف جواهر تجلي جماله وجلاله، ثم وضع الجميع في مواضع الفطرة من الأشباح، فلما سكنت هذه الجنود في الأشباح، وتواترت عليها أنوار تجلي الحق، تطهرت الصدور بمساكنها من علل الإنسانية، وانسدت عليها أبواب الشيطانية، فلم يبق فيها علل الأخلاق، ولا يدخل فيها بعد ذلك غبار الوسواس فإذا بعد ذلك صاروا متقين، الذين وصفهم الله بنزع الغل عن صدورهم، قيل: دخولها في الجنان نزع علة الغل والغش بنفسه عن صدورهم، ثم بكرمه أدخلهم في جنان مشاهدته، وأجلسهم على كراسي قربته ينظرون بعضهم إلى وجوه بعض بالمودة والمحبة والشوق إلى لقائه، يرى سيماء نور الألوهية بعضهم من وجوه بعض، ولو بقى الغل في صدورهم على باب الجنة ما أسوأ حالهم إذا بقى قلوبهم في غواشي الغل، الله لا نظن، فإنه لك بجلال قدره دفع عن صدورهم هذه العلة قبل دخول أرواحهم في أجسادهم، وكيف يكون موضع المضافات والمودة والأنفة الإلهية مغشوشة بغل الطبيعة، والغل والغش من أوصاف أهل النفوس، لا صفة المتحابين في الله، لا ترى كيف وصفهم بالآخرة، ولا يبعد من قدرة الله وحكمته أن يدخل الغل في صدور ولي من أوليائه، ابتلاءً وامتحاناً؛ ليشغل بدفعه وتطهير سره عن ذلك، واستعاذته بالحق من وسواسه، ويصل إلى معالي الدرجات باستنكاره على نفسه، ومحاربه مع شيطانه، ولا يكون ذلك من منقصة في ولايته.

ألا ترى إلى قول أسد الله علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- كيف قال في هذه: أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم.

قال أبو حفص: كيف يبقى الغل في قلوب اتلفت بالله، واتفقت على محبته، واجتمعت على مودته، وأنست بذكره، إن تلك القلوب صافية من هواجس النفس، وظلمات الطبائع،

بل كحلت بنور التوفيق، فصارت إخواناً.

قال الأستاذ: أمر الخليل عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها، فقال تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦]، وأمر جبريل عليه السلام حتى غسل قلب المصطفى ﷺ، وطهره وتولى نفسه تطهير قلوب العاصين، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ لا تقديماً لهم على الأنبياء - عليهم السلام، ولكن رقاً بهم، وقد يصنع الله للضعيف ما يتعجب منه القوي، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهر عيوبهم، فتولى ذلك بنفسه رفقاً.

ويقال قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾، ولم يقل: ما في قلوبهم من غل؛ لأن القلوب في القبضة يقلبها، وفي الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(١).

ثم إن الله تعالى نفى عنهم النصب والمشقة في جواره بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ آواهم إلى أنوار بقائه، ومشاهدة جماله، وحرسهم بها عن قهر سلطان الكبرياء الذي لو هجم عليهم سطوة من سطواته يفنيهم عن اللذة، وما هم فيه من الجنان كلها؛ لأن الحادث إذا قُرِنَ بالقديم يزول من عظمتة فيه بأقل من لمحة، ولولا استتارهم بأستار نور البقاء هلكوا في جلال الأزل، كأنه تعالى حفظهم به عنه، وأيضاً لولا تفضله ورفقه بهم؛ حيث أراهم جماله بوصف اللذة؛ ليفنون في بوادي عزته وهيبه عظمتة، ومعنى قوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لأن هناك ليس مكان الامتحان والتربية، وقد صار في زمان الغضب بوصف الرضا، ويصير الغيرة مرتفعة من بين العاشق والمعشوق.

قال النصر آبادي: أي نصيب يلحق في المجاورة لمن غفل عن الله تعالى، وأما من انتبه فأى راحة للحدث في جنب القدم، هل هو إلا تعذيب واستهلاك؟ ثم رجع إلى المقامات، وعمل الامتحانات، ورعب المريدين بنيل الدرجات، وهدد السالكين بنصب الحجاب، وتعذيبهم بالعتاب، بقوله: ﴿بَيْتِي عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يغفر جنابة خطرات قلوب العارفين بعد إدراكهم مواضع خطرهما، وتداركهم بالندم على تضييع الأوقات، وعمارته أسرارهم بأنواع الذكر وصفاء المناجاة يرحمهم بأن يوصلهم إلى أعلى مراتبهم من المكاشفات، والمشاهدات، وعذاب فراقه، واحتجابه أليم لمن عرفه، ثم يستأنس بغيره، وإن كان واسطة ملبحة، ويمكن أنه تعالى أخبر عن تلك الأسرار التي ذكرناها في قوله: ﴿لَا

يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ» غفر لهم علل الحدوثية، ورحمهم بأنه ألبسهم لباس الربوبية حتى بقوا به معه من غير زوال، وأن عذابه هناك لو أطلق عنانه يحرق الجمهور بنيران سر كبريائه وحقيقة أوليته، أخبر عن تلك الصفتين ما أخبر عن مباشرة صفة القهر، بل أخبر عن استغراقهم في بحر رحمة مشاهدته وغيوبتهم في حجال وصلته؛ فإنه الغفران الحقيقي.

قال سبحانه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ وانحسم باب القهر بقوله: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾، وأيضاً أخبر عن الوصفين من أوصاف المغفرة والرحمة، وهما في الحقيقة صفتان قديمتان باقيتان، وأن عذابه صفة فعله، وإذا قورن الفعل بالصفة لزال الفعل في الصفة، فإذا مقام الرجاء أقوى من مقام الخوف؛ لأن الرجاء من شقائق الإنس، والبسط وهو باق أبداً مع العبد؛ لأنه من تأثير تلك الصفة، وزال الخوف؛ لأن في جواره لا يبقى الخوف، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بزوال العذاب، وغيبة الفعل في الصفة.

قال ابن عطاء: أقم عبادي بين الخوف والرجاء ليصح لهم سبيل الاستقامة في الإيمان؛ فإن من غلب عليه رجاؤه عطّله، ومن غلب عليه خوفه أقنطه.

قال الجنيد في هذه الآية: النبأ سابق إليهم في الدنيا باجتماعهم في الآخرة، فلذلك لا يشكون ولا يضعفون، ويطبقون حمل البلاء فهم في سعة من العيش في كل حال، كل ذلك لسعة علمهم بالله، وسكونهم إلى مواعيده فحملوا الحقوق، وما خفي عليهم شيء مما خفي على غيرهم، وهم مشرفون بالله على ما له منهم، وما لهم عنده.

وقال ابن عطاء: إن الله تعالى وصف نفسه بالفضل والعدل، ولا يوصل فضله إلى عبد إلا أنجاه من كل بلية وهم، ولا وضع عدله على أحد إلا أهلكه، وأوصل عدله إلى إبليس مع طول عبادته التي توهم أنها تنجيه، وتقربه إلى ربه، فأبعده بعدله، وأخزاه إلى أبد الأبد؛ وأوصل فضله إلى السحرة، وهم يقولون لفرعون: بعزتك، فردهم عما هم فيه بفضله إلى محل السعداء، فتلاشى كفرهم ومعصيتهم.

﴿قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمِ تَبَشِّرُونِ﴾ ١١٠ ﴿قَالُوا بَشِّرْكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْفَٰئِطِينَ﴾ ١١١ ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ ١١٢ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ١١٣ ﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ ثَجَرٍ مِنَّا﴾ ١١٤ ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١١٥ ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ قَدْ زَنَّا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ١١٦ ﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ١١٧ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ١١٨ ﴿قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ١١٩ ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ١٢٠ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ

أَدْبَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٥١﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٥٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ ثم إن الله سبحانه إذا أغلق باب الفراسة على الأنبياء والصدّيقين لا يرون مرقومات المقدرات، ولا يعلمون بحقائق المغيبات.

ألا ترى كيف غاب حديث رؤية روح إسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام عن الخليل عليه السلام حتى قنط من نفسه أن يكون ذلك في كبره، ولو رأى ذلك في سرّ القدر لم يقل: ﴿أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾، ولم يكن شاكاً في قدرة الله، ولكن لم ير هناك في ذلك الوقت ما عند الله من مكنون سره، وأيضاً كان في كبر سنه هائماً في أودية الخلّة، مستغرقاً بوصف الشوق في بحار المحبة، مستأنساً بجمال المشاهدة، مستوحشاً من أحكام الحدوثية، فقال: أي وقت لتربية الولد، وإني كنت على جناح سفر الوصلة، وتصديق ذلك قوله: ﴿فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ أي: بأي شيء تبشرون، وإني غائب في الحق.

وأصل النكتة في هذا: إن الخليل رأى في سطور مقدرات الغيب بنور النبوة اسم إسحاق عليه السلام ويعقوب عليه السلام، ورأى بروحه روحهما، فقال: أبشّرتموني على أن وصل إليّ الكبر، وبلغني الحق إلى درجة الشيخوخة، ولا يخفى مثل ذلك عليّ، ﴿فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾، وإني أرى بنور نبوتي ما لا ترون بنور الملكية.

قال الجوزجاني: أيام الكبر أيام القنوط من الدنيا وما فيها، والإقبال على الآخرة، وما عند الله.

ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام لم يقبل بشرى الولد من الملائكة عند الكبر، فقال: ﴿أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ إلى أن ذكروا أن البشري له من الله فزال عنه القنوط لعلمه بقدرة الله على ما يشاء^(١).

(١) في قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ يُشير إلى لوط: الروح، وأهله: قواه، فإن المؤمن يستأنس بالمؤمن، والجنس إلى الجنس يميل، والليل إشارة إلى ليل الجلال المقتضي للفناء المنتهى إلى الجمال المستلزم للبقاء، وفيه إن الأرض تُطوى في الليل، كما ورد: «عليكم بالدلجة» فإن الأرض تُطوى في الليل، والدلجة: السير في الليل، ومن ذلك كان عبادات العباد في الليل أكثر، وكانوا يستحلونها لما

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٦) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٧﴾ فَجَعَلْنَا
عَلَيْهَا سَائِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٩﴾
وَإِنَّهَا لَيْسَبِيلُ مِصْرٍ ﴿٨٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَّالِمِينَ ﴿٨٢﴾
فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لِبِلَامٍ مَّيْمِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٤﴾
وَءَاتَيْنَاهُمُ الْآيَاتِ بَيِّنَاتٍ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٥﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٦﴾
﴿٨٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُضْجِينَ ﴿٨٨﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: بحياة روحك التي أوجدتها
من العدم بتجلي القدم، وعمرها في مشاهدتي بعد كون وجودها، وأيضا أي بأعمار أنوارك
المصطفوية في علم غيبي، حيث لم يكن الدهر الدهار، ولا الفلك الدوار، وهي كانت تزورني
في سرادق كبريائي، ولا تحصى زمانها؛ لأن زمانها بلا زمان ومكان، أوجدتها بقدرتي وكميتها
بقدرتي في أماكن قدرتي، أي: لعمر أنوارك التي تعرف مني نور صفاتي، وتذكر مشاهدة ذاتي،
فنعم تلك الأعمار أي: بعمرك في ديوان ربوبيتي، ومنازل قربتي، وحسن مشاهدتي من زمان
معراجك ووصالك معي، وأيضا أي: بعمرك الذي يبقى في جمال مشاهدتي أبداً، وأيضا أي
بعمرك الذي ما هجم عليه طوارق الغضب ولا قوارع العطب، وأيضا أي: بحياتك التي
كونتها لك من تجلي حياتي فيك، وتلك الحياة من روح روعي التي نفختها في أريك آدم عليه السلام
كانت روح آدم الذي نفخها الحق في آدم بحياتك التي عاش آدم، ومن دونه بها، إنهم من
حياتك، ورؤيتها في حجاب الضلال، وسكر العمى.

قال بعضهم: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بعمارة شرك بمشاهدتنا، وقطعك عن جميع المكونات.
وقال النوري: أي: بحياتك التي خصصت بها من بين الخلق، فحيوا بالآرواح،
وحيث بي، فبقاؤك متصل ببقائي؛ لأنك باق بي.
وقال جعفر: أي: بحياتك يا محمد، إن الكل في سكرة الغفلة وحجاب البعد إلا من
كنت وسيلته ودليله إلينا.

يُورثهم النسيم الرحمان في الأسحار، والنفخ الروحاني في طلب الأوقات من اللذات والنشاط.
وفيه أن الأهل: وهي المخدرات ينبغي أن يكون خروجهم من البيت لحاجة ضرورية في وقت الظلمة؛
لأنه أستر هن، وأهل الحرمین الشريفین يعملون بهذا إلى الآن، فإن نساءهم المستورات لا يخرجن
بالنهار البتة؛ بل بعد المغرب، أو في وقت الشافعي حتى أن العروس تُزفُّ إلى بيت زوجها بعد المغرب
حين ينقطع الأقدام من السكك، والأسواق.

وقال القرشي: أقسم الله بحياة محمد ﷺ فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾؛ لأن حياته كانت به، وهو في قبضة الحق؛ وبساط القرب، وشرف الانبساط، ومقام الإنفاق، فأقسم بحياته، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: بحياة مثلك يكون القسم؛ لأن الكل زاغوا وما زغت، وطفروا وما طغيت، وسألوا وما سألت، حتى بدأنك بالإجابة قبل السؤال، فحياتك هي التي بها حياة الخلق قبلك، وبها حياة الخلق بعدك، فإنك حيٌّ بحياتنا غير مباين عنا بحال.

وقال الخراز: وصفه لخلقه، ثم ستره ببره عن خلقه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ رهن الحق سبحانه الفراسة برؤية الآيات والشواهد، كما قال في موضع آخر: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]، و﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وهذه أوصاف البدايات في الفراسة، حيث يحتاج إلى النظر إلى العلامات، وأصل الفراسة إصابة نظر الروح إلى مقدرات الغيبية بلا علامة ولا علة ولا سبب، بل يتعلق هذه الفراسة بانكشاف ما يبدو من الغيب بنور الغيب، وسر المقدور، وخفيات الضمائر، ومكنونات السرائر لأبصار الأرواح الناطقة بالحق، المسامعة أصوات أنباء الغيبية، الشاهدة مشاهدة الحق، فترى بالحق بعد أن تكون موصوفة بصفة الحق ما للحق، فكيف يخفى شيء عمَّن ينظر بالحق ويبصره؛ لأنه تعالى سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به من جهة الاتصاف، والاتحاد بالنعوت الأزلية.

وافهم أن الفراسة على عشرة مراتب: فبعض الفراسة يحصل بعين الظاهر ورؤيتها إلى منقلبات الآيات والأفعال في عالم الصورة، وهي تصرف الحق مكان الآيات إعلامًا من مكنون ما سترها من أعين الخلق، وهذا تفرس بصرية ظاهرية مقرونة بعلم العقل والقلب والروح والنفس والسر وسر السر.

والثاني: ما يسمع آذان العارفين حركات المعالم، وما ينطق الحق وملائكته بالسنة الخلق والخليقة، وذلك يسمع الظاهر، وتلك الفراسة تتعلق بالأسماع الظاهرة، وما يسمع أيضًا بأسماع البواطن وقواها.

والثالث من الفراسة: ما يبدو في صورة المتفرس من أشكال تصرف الحق وإنطاقه، وجوده له حتى ينطق جميع شعيرات بدنه من حيث التصرف والتغير بالسنة مختلفة، فيرى ويسمع من ظاهر نفسه ما يدل على وقوع الأمور الغيبية، وذلك أيضًا يتعلق بالرؤية والسمع وحركة الفطرة في الباطن، وإيصالها بأجزاء الظاهر.

والرابع: ما يحصل بحواس الباطن حيث وجدت بلطفها علامات أوائل المغيبات باللائحة الواضحة.

والخامس: ما يحصل من النفس الأمانة بما يبدو فيها من التمني والاهتزاز، وذلك سر عجيب؛ لأن الله إذا أراد فتح باب الغيب ألقى في النفس الأمانة آثار بواديه، إما محبوباً فتتمنى، وإما مكروهاً فتفزع، ولا يعرف ذلك إلا رباني الصفة.

والسادس: ما يحصل للقلب سمعياً بالإلهام، وإما فعلياً كوجدانه برد الواقعة، وإما كشفياً يبصر ويعلم.

والسابع: ما يحصل للعقل، وذلك ما يقع من أثقال برجاء الوحي الغيبي عليه، فيعلم من وجود الرحي إلهامه ما سيقع من تصرف الحق، وذلك أيضاً يحصل له سمعياً وبصرياً.

والثامن: ما يحصل للروح؛ لأنها تراه من تصرف الحق فيها، وما يبدو في غيبه يبصر الخاص، وما يسمع من الحق بالواسطة وغير الواسطة.

والتاسع: ما يحصل لعين السر وسمع السر، ترى تصرف الصفة، ويبصر علامة كون الحالة في نور الصفة.

والعاشر: ما يحصل في سر السر، وهو ظهور عرائس أقدار الغيبية ملتبسات بأشكال إلهية ربانية روحانية، فيبصر تصرف الذات في صفات، ويسمع الصفات بوصف الحدث والخطاب من الذات بلا واسطة، وهناك منتهى الكشف والفراصة الحقيقية التي حذرها الخلق النبي ﷺ بقوله: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ؛ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ»^(١).

فإذا وجب الخوف من فِرَاسَةِ مَنْ يَرَى بِنُورِ الْحَقِّ؛ فكيف لا يجب الخوف من فِرَاسَةِ مَنْ يَرَى بِالْحَقِّ لَا بِالْغَيْرِ؟!

قال الواسطي: السرائر متألهة بحظوظها، مصروفة عن أوقاتها، صدقها في تحركها، أظهر عليها من صدقها في تعبدتها، تظهر من السرائر أبداً قهراً، ما يوقفك عليها عفواً، فيشرف المتفرس عليها في أوقاتها؛ فيعرفها، قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال: هم المتصفحون المتفرسون.

وقال بعضهم في قوله: ﴿لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾، قال: هم المتفرسون، وهم على ثلاثة أوجه بالنظر والسمع والعقل، وأجل من هذا حال الكشف والمشاهدة لمن أوتيهما، فيكون فراسته غائباً وحاضراً صحيحة.

وقال بعضهم: المتوسمون هم المتفرسون على السرائر، فإذا أردت أن تعرف بواطنهم في الحقيقة، فانظر إلى تصاريف أخلاقهم، ومواقيت إشجابهم.

(١) رواه الترمذي (٢٩٨/٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٣١٢/٣)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (١٦٠/٢).

وقال محمد بن الحنفيف: الفراسة مقسومة على ثلاثة أوجه:

الأول: إصابة المكنون من الأوقات المستكن في النفوس من الأحوال المستخفية من حل عوام الخلق، وذلك مخصوص به الرسل لما كان للنبي ﷺ في عبد بن زمعة حين قال: «إن أمرها ليتن، لولا حكم الله».

والثاني: تجلي ما استودع الحق في النفوس من الأحكام المخفية على الخلق المتفرد به الحق، وكشف ذلك لأهل التخصيص من الصديقين والأولياء بعد الأنبياء، كما قال أبو بكر الصديق لعائشة - رضي الله عنهما: «إنما هما أخوك وأختاك»^(١).

والثالث: ذكر اطلاع القلوب عندما انكشف له من الغيب البعيد، وهذا مقرون بالإلهام، كما قال عمر بن الخطاب: «يا سارية، الجبل الجبل»^(٢).

سئل الجنيد عن الفراسة؛ فقال: آيات الربانية تظهر في سماء العارفين، فتتطق ألسنتهم بذلك، فتصادف الحق.

وقال الحسين حين سُئل عن الفراسة؛ فقال: حق نظر عن أحد نظرًا إياه، فخير عن حقيقة ما هو إياه بإياه.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ۝ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُلْ إِنِّي - أَنَا الْغَظِيرُ الْمُنِيرُ ۝ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ۝ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الصَّفْحُ الجميل ما يكون برؤية تقدير الأزل بنعت شهوده مقدور الغيب بوصف السرور في مباشرة الأمر، والنشاط بالرجوع إلى الحق، وسابق أمره ومشيتته فيما جرى عليه بالواسطة من الغير، فإذا كان كذلك سقط الملامة بسقوط الوسائط، وحصل الرحمة على المجرم المجبور بأمر التقدير.

ألا ترى كيف أشار بتمام الآية إلى سرٍّ ما سبق من التقدير الأزلي بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ أي: ما هجم عليك من إيذاء قومك هو مخلوق الخلائق، وتقديره في تربيتك، وإبلاغك إلى مقام أولى العزم، وهو عليم بما قدَّر، وبما يكون من اتصافك بخلقه العظيم، وإن

(١) ذكره الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٢/ ٥١٤).

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٥١٤).

كان لفظه الخلاق متعلقًا بمعنى الإيجاد والتقدير، وأيضًا فيه إيهاء من معنى الخلق والتخلق كأنه داعي حبيبه إلى التخلق بخلقه في العفو والكرم، ثم واساه بأنه عليم بما قلبه من الشفقة على دينه، وأيضًا الصفح الجميل مواساة المذنب يرفع الخجل عنه، ومداواة موضع آلام الندم في قلبه.

روى عمرو بن دينار عن محمد بن الحنفية عن علي -رضوان الله عليهم- في قوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، قال: هو الرضا بلا عتاب. وقال بعضهم: صَفَحَ لا توبيح فيه، ولا حقد بعده، والرجوع من الأمر إلى ما كان قبل ملابسة المخالفة.

ثم إن الله سبحانه وصف امتنانه عليه بما أعطاه من علوم الألوهية وأسرار الربوبية ليزيد رغبته في الصفح والعفو والكرم، ومواساة عباده، وتحمل إيدائهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ فيه بيان التخلق والاتصاف بصفاته القديمة، وأخلاقه الكريمة. أي: ألبسناك أنوار سبع الصفات من صفاتنا؛ لتتصف بها، وتتخلق بخلقها، فتكون ربانيًا، ألوهيًا، جبروتيًا، ملكوتيًا، جلاليًا، جماليًا، نوريًا، قدسيًا، أوليًا، آخريًا، رحانيًا، رحيميًا، ذاتيًا، صفاتيًا، والسبع المثاني سبع بحار الصفات القديمة، فغسله فيها، وألبسه من أنوارها كسوة الربوبية حتى تكون مرآة الله في بلاد الله وعباده، فسقاه من بحر علمه شرابات، ومن بحر قدرته، ومن بحر سمعه، ومن بحر بصره، ومن بحر كلامه، ومن بحر إرادته، ومن بحر حياته، فصار عالمًا بعلمه، قادرًا بقدرته، سميعًا بسمعه، بصيرًا ببصره، متكلمًا بكلامه، مريدًا بإرادته، حيًا بحياته، فعلم بعلمه علم ما كان وما سيكون، ويقلب الأعيان في السموات والأرض بقدرته، ويسمع حركات الخواطر بسمعه، ويرى ما في الضمائر وببصره، ويتكلم بحقائق الربوبية والعبودية بكلامه، ويكون ما أراد بإرادته ويحيي القلوب الميتة والأبدان الفانية بحياته، ولكل صفة منها ثانيها من جمهور الصفات الخاصة على إزاء كل صفة منها صفة، حتى يكون مثاني، ومنها القدم، والبقاء، والجلال، والجمال، والرؤية، والصمدية، والربوبية، فالصفات الأولى مع هذه الصفات السبع المثاني، فكان من مشاهدة القدم والاتصاف به صار بنعت التجريد عن الحدثان، ومن مشاهدة البقاء والاتصاف به، صار متمكنًا في محل الصحو، ومن مشاهدة الجلال والاتصاف به صار في محل الهيبة مهيبًا في السماوات والأرض، ومن مشاهدة الجمال والاتصاف به صار عاشقًا بوجه القدم، وصار مرآة جمال الحق في العالم، ومن مشاهدة رؤيته، والاتصاف بها، صار شائقًا محبًا مستغرقًا في بحر الأزل، وصار معشوقًا لقلوب الخليفة، ومن مشاهدة الصمدية واتصافه بها، صار صمدانيًا

مشربه من الصمدية، وطعامه من المشاهدة، بقوله: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(١)، وكان لا يراه أحد إلا سكن جوعه من تأثير صمدانيته، ومن مشاهدة الربوبية والاتصاف بها، صار متصرفاً في ممالك الحق وعباده وبلاده.

ألا تري كيف أجابته الشجرة حتى أتت عنده من البعد، وسترته لقضاء حاجته، وكيف انشق القمر بإشارته، وصار بذلك مسجوداً للحجر والشجر، فقد أعطاه الله أنوار هذه السبع المثاني من الصفات القديمة، وزاد بأنه أعطاه القرآن العظيم الذي أخبره خير جميع أسماؤه، ونعوته، وصفاته، وما لم يصل إليه جميع الصفات؛ لأن صفاته تعالى غير متناهية، فعرفه القرآن أوصاف الذات والصفات جميعاً، وعظم القرآن من عظم متكلمه، وهو بذاته تعالى تكلم بقرآن عظمت من حيث عظمة الذات وعظمت، إن تحت كل حرف من حروفه بحرًا من علوم الأزلية الأبدية، وأيضًا لكل صفة من صفاته ثاني من عينية الذات، فالصفة ثاني الذات، والذات ثاني الصفات، ليس من جهة الافتراق والاجتماع هو واحد من جميع الوجوه، وهو منزّه عن كل تفرقة وجمع، كأنه قال: أتيناك معاني الذات والصفات، وجئت عرفتها بعد أن عرفك تعالى بجلاله وعزته، أي: كسيناك نور ذاتنا وصفاتنا، لذلك قال ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني فقد عرف الحق»^(٢).

والقرآن العظيم علمك أنباء الربوبية، وعرفك حقائق الإلهية، وأعلمك علوم الغيبية وأحكام العبودية، وأدق الإشارة أن السبع المثاني هي تلك الصفات القائمة، وتأثيرها من جهة الاتصاف بها في قلب النبي ﷺ كأنه توانى بالسبع الصفات القائمة بالذات؛ لأنه العالم والقادر والسميع والبصير والمتكلم والمريد والحي، وهذه الصفات من النبي ﷺ مواليد تلك الصفات القائمة الأزلية المنزهة من العلة وتأثيرها.

ألا ترى إلى ما حكى عن الله ﷻ في حق المحبين، قال الله: «إذا أحبيته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»^(٣)، ولذلك قال ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»^(٤)،^(٥).

ويمكن أنه تعالى قد أشار أيضًا إلى صفته العامة وصفته الخاصة مثل التشابهات، أي: عرفناك صفتي الخاصة والعامة، وعرفناك بالقرآن العظيم معاني الصفات العامة والخاصة فصرت عاشقًا محبًا مشتاقًا من رؤية الصفات الخاصة المتشابهة؛ لأنها معدن الجمال والجلال،

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٥)، ومسلم (٢٢٦٧)، وأحمد في مسنده (٥٥ / ٣) بنحوه.

(٣) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٥٨ / ٢)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣١٩ / ١٨).

(٤) رواه البخاري (٣١٤٨)، وابن حبان (٣٣ / ١٤)، والحاكم في «المستدرک» (٩٣ / ١).

(٥) هي الصورة الحقيقية المعنوية المدلول عليها بالصفات السبع المرتبة.

وصرت متفردًا من رؤية صرف الألوهية بواسطة الصفات العامة عن الأكوان والحدثان، وظاهر الآية أتيناك سبعة من المعاني أربعة عشر خُلُقًا من أخلاقه، مثل: الرحمة والشفقة والعفو والصفح والكرم والظرافة واللطافة والحسن والجمال والهيبة والحياء والسخاء والوفاء والولاية والنبوة والرسالة، هذا كما روى علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر -عليهم الصلاة والسلام- في هذه الآية، قال: أكرمناك، وأنزلنا إليك، وأرسلناك، وأهمنناك، وهديناك، وسلطناك، ثم أكرمناك بسبع كرامات؛ أولها: الهدى، والثاني: النبوة، والثالث: الرحمة، والرابع: الشفقة، والخامس: المودة والألفة، والسادس: النعيم، والسابع: السكينة والقرآن العظيم، وفيهما اسم الله الأعظم.

ولما بيّن امتنانه عليه، وعرفه مكان النعمة السرمدية له، صغر الكون وما فيه في عينيه بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: لا تنظر يا صاحب هذه المعاني العظيمة الربانية إلى زينة أصناف أهل الدنيا من الغافلين عنا، فإنها فانية لا يليق بنعمتك، وهذا إشارة إلى سرّ الفطرة النفسانية المجبورة بالشهوة الخفية، أي: ينبغي ألا يميل نفسك إلى شيء غيرنا، فإنه موضع خطر المخلصين؛ لأنه محل امتحاننا لا تمدن عينك إلى طلب جمالنا في غيرنا من أوصاف الروحانيات، فإن حقيقة المشاهدة ما تكون خالية من الوسائط، أي: لا تكن كالخليل، حيث قال: ﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ لكن اقتد بآخر مقامه؛ حيث قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فبدايته في قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مقام العشق، وآخر مقامه أفراد القدم عن الحدوث، فأول مقامك آخر مقام الخليل فغض ^{الغضب} بصره عن الوجود، لذلك وصفه بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾. وفي الحديث المروي أنه ^{عليه السلام} كان إذا رأى أموال أهل الدنيا من الإبل، والغنم، وغيرهما، يغطي عينيه بكفه، ويقول: بهذا أمر ربي.

ثم زاد التأكيد برفع الهمّة عن الغير بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ ثم أمر باستعمال خلقه للمقبلين إلى الله، المتابعين حبيبه بنعت المحبة والإيمان واليقين، بقوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ جناح همتك ارتفعت من الكونين، ووصلت إلى قاب قوسين؛ لأنها أجنحة ألوهية ربانية قيومية، أي: اخفض جناح الربوبية التي اتصفت بها لأهل العبودية حتى يطيروا بجناح نبوتك إلى معادن رسالتك، ويجدون بمتابعتك وهمتك المقامات الشريفة، والولايات الرفيعة، ومع ذلك لا تتكلم من حيث أنت، فأنت من حيث أنا، ولكن تكلم معهم من حيث أنت في مقام العبودية، بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا الْغَايَةُ الْمُنِيرُ﴾ لست من قبل الربوبية

بشيء لكن أنا بشر مثلكم يوحى إليّ، فمن جهة الوحي أنذركم من عظيم جلاله، وقهر كبريائه، وأحذركم من ألم فراقه، أنا النذير منه مبين، حيث ألبسني شاهد ملكه، وعز جلاله وأنوار بهائه مبين من حيث ظهر معجزتي لكم وأنتم معاينوها.

قال بعضهم: في قوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ غار الحق على حبيبه أن يستحسن من الكون شيئاً أو ينظره طرفه؛ فإن ذلك متعة لا حاصل له عند الحق، وأراد منه أن يكون أوقاته مصروفة إليه، وأيامه موقوفة عليه؛ وأنفاسه له حسيبة عنده؛ فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا﴾^(١) لذلك وقع في المحل الأعلى، فما زاع ولا طغى.

قال يوسف بن الحسين أذن الله في قوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ لنبيه ﷺ أن يخبر عن نفسه بأنه السفير الأجل، والعلم الظاهر، والبيان الشافي، قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْفَعْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْبَلُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَصْدَغَ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾.

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْفَعْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْبَلُونَ لا يحتاج الحق إلى السؤال عما عمل أهل معرفته، لكن يعرفهم مكان الخطوات، واعوجاج الهمم، وميلان الطبيعة، ودقائق النفس والشيطان، حتى يكونوا مذابين من حيائه في بحر الخجل من صولة العظمة، وأيضاً أراد أن يواسيهم بما قاسوا من آلام المشقة والمجاهدة، كيف يخلصون من مكان الامتحان، فيقول: كيف أنتم عبادي في معاملتي، ومن أجرتي، ومشقة امتحاني، حتى يقولوا بلسان الاضطرار والشوق إلى لقائه ومقاساتهم داء الفراق هذا البيت:

عندك لا تسأل عن حاله جل بأعدائك ما حل به

قال الواسطي: يطالب الأنبياء والأولياء بمثاقيل الذر لسمو رتبهم ولا بطالب العامة بذلك، لبعدهم عن مصادر السر.

قال الواسطي: غفلة العامة من المسئول عنها أهل الحقائق من حركات الأطراف، وخطرات القلب، وهو اجس السر.

(١) فضل الرؤية فيما لا يحتاج إليه معلول كفضل الكلام، والذي له عند الله منزّل وقدرٌ فَلِلْحَقِّ عَلَى جَمِيعِ أَحْوَالِهِ غَبْرَةٌ، إِذْ لَا يَرْضَى مِنْهُ أَنْ يَبْذُلَ شَيْئاً مِنْ حَرَكَاتِهِ وَسُكُنَاتِهِ وَجَمِيعِ حَالَاتِهِ فِيمَا لَيْسَ لِلَّهِ - سُبْحَانَهُ - فِيهِ رِضَاءٌ، تَفْسِيرُ الْقَشِيرِيِّ (٦٤ / ٥).

قال الجنيد: لتسألن أهل الحقائق عن تصحيح ما أظهروا للناس من الدعاوي وتحقيقها، وبلغني أن بعض المشايخ قال لبعض المريدين: إياك وهذه الدعاوي فإن الله سائلك عنها.

فقال المريد: لو علمت أن الله يكلمني في القيامة ويسألني عن هذا، لما كان مني في طول عمري إلا هذا، وأنا ممن يصلح لمخاطبة الحق، وللوقوف بين يديه، وسقط فئات.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ واسى الحق حبيبه بما سمع من أعدائه، وقال: أنت بمرأى منا يضيق صدرك من لطافتك بما يقول الجاهلون بنا في حقنا بما لا يليق بتزييننا فترة، أنت صفتنا مكان مقالتهم فينا، فإن مثلك ينزهنا لا غير، وكن من الساجدين حتى ترانا بوصف ما علمت منا، وتخرج من ضيق الصدر في مشاهدة جمالنا، فإذا كنت تعابنا يسقط عنك ضيق صدرك من جهة مقالتهم.

وقال الواسطي: تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فينا من الضد والند والشريك، فسبح بحمد ربك لا تضيق به صدرا، فأنا في الأزل نزهنا صفاتنا عما أحدثوه من هذه الألفاظ.

قال بعضهم: يضيق صدرك بما يقولون إذا رجعت إليهم، وسمعت منهم، أرجع إلى مشاهدتنا، فإنه وطن الحق، ولا يضيق صدرك.

قال الواسطي: هذا تعزية للمحسودين من العلماء، فقال: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون بجهلهم وحسدهم فيكم، ثم أمرهم بلزوم طاعته بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

قال الأستاذ: ولقد نعلم أنك يضيق صدرك ولم يقل قلبك؛ لأنه كان في محل المشهود ولا راحة للمؤمن دون لقاء الله، ولا يكون مع اللقاء وحشة، ثم أمر حبيبه بخالص العبودية عن كدر الخليفة بقوله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ اليقين هاهنا مشاهدة الصرف، أي: إذا بلغت مقام التوحيد به، وحقيقة الرؤية، ومشاهدة مشاهدة الأزل، وغبت في بحر الأبدية، سقط عنك في تلك الحال، تظاهر الرسوم حتى تفيق عن تلك الحالة.

قال في مقام المشاهدة: الاشتغال بالعبادة ترك الأدب، وما أردنا بهذا التفسير خلع ربك العبودية عن أعناق أهل المعرفة، لكن أردنا أن العارف إذا عاين الحق يكون مجذوبا بشوق

الحق إليه إلى جماله، وهناك هو عروس الحق ومحبوه، لا يجوز أن يشتغل برسم من الرسوم، بل الاشتغال بحكم الوقت عين العبودية، أي عبودية أعظم من متابعة أمر المحبوب، لكن ما دام قادرا أن يكون مصححا لظاهر رسوم العبادة، ولم يكن سكرانا غائبا يلزم عليه حفظ الأوقات في العبودية إلى الممات، وهذا من شعار أهل التمكين.

قال الواسطي: لا يلاحظ غيره في الأوقات حتى يأتيك اليقين، فيتحقق عندك أنك لا تحس بغير الحق، ولا ترى إلا الحق، ولا يجاذبك إلا الحق.

وقال فارس: حتى تتيقن أنك لست تعبد حق عبادته.

وقال أيضا: من نظر إلى معبوده سقط عن عبادته، ومن نظر إلى عبادته سقط عن

معبوده.

وقال الحسين: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، أي: إنك تستيقن بأنك لا

تعبد ولا يعبد أحد حق العبودية ابتداء وانتهاء، فتستوجب بها لا بد من مكافأته.

قال ابن عطاء أن الله حكم على أصفياه وأحبائه وأخلائه أن لا يخرجهم من الدنيا إلا

وطوق العبودية في أعناقهم، لباس الخدمة عليهم، ولذا قال لحبيه ﷺ من بين بريته:

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

قال الحسين بن عبد الله: بصدق التوحيد خرج عن رسوم التقليد، وأبان عن شرف

التفريد، فصار علمه جهلا وعرفانه نكرة.

وقال الحسين: العبودية كلها شريعة، والربوبية كلها حقيقة.

قال الأستاذ: قف على بساط العبودية معتنقا للخدمة إلى أن تجلس إلى بساط القربة،

وتطالب بأداب الوصلة، ويقلل النوم شرائط العبودية إلى أن ترقى، بل تلقى بصفات الحرية.

سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ

بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ٢﴾ خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ

خَصِيمٌ مُبِينٌ ٤﴾ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ٥﴾.

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الإشارة في إتيان الأمر الإلهي أنه تعالى كان قديما

موصوفًا بالإرادة القديمة، والعلم القديم وفي الإرادة، والعلم كان كون العالم والعالمين فتقاضى سر الإرادة كون الوجود، فكَوَّن الحق الكون بأمره القديم الذي كان في نفسه، فوقع الأمر منه بغير زمان ومكان، فصدر الكون من الأمر بما كان في إرادته وعلمه، فكَوَّن ذلك أبد الآبدين بغير سؤال من الغير، ولا انتظار، ولا تعجيل، فإن الأمر قائم به، وللأمر معلق به وجفَّ القلم بما هو كائن، فإذا سقط السؤال والعجلة إذ هما صفتا جاهل بالله وبأمره، ولو كان الأمر يأتي بمراد الحدثان لكان نقصًا في الوحدانية، لذلك نزه نفسه عن ذلك النقص بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يا أيها الفاهم الأمر منه، صفته قديمة أبدية، وهو تعالى قائم قديم بجميع ذاته وصفاته، ظهر حيث ما غاب، ظهر لنفسه بنفسه من الأزل إلى الأبد، فما معنى الإتيان الأمر والأمر قد أتى في القدم من القدم، ولكن ظهر بالإرادة للقدم ولكون وجود الحدث فالاستعجال لمعنى غير قائم، فأمره قائم قبل وجود العالم، وإشارة المعرفة أن العارف الصادق العاشق الشائق أبدًا يستعجل إتيان المقامات والواردات، وكشوف المشاهدات، من كمال شوقهم إلى لقائه كأنه قال سبحانه أن هذه تتعلق باختصاصه، وقد أتى هذه الخاصية بغير سبب ولا علة، كان في الأزل مشتاقًا إليكم قد خصكم بولاية قبل وجودكم فما معنى الاستعجال.

قال بعضهم: هل رأيتم أمرًا من الأمور إلا بأمره، وهل رأيتم وحدًا وفقدًا إلا به، لا تتعجلوا بطلب الفرج، فإن النصر مع الصبر.

قال النصر آبادي: أوامر الحق شتى بالعبادات أمر على الظاهر من الرسم، وأمر على الباطن من دوام المراعاة، وأمر على القلب بدوام الراتب، وأمر على السر بملازمة المشاهدة وأمر على الروح بلزوم الحضرة، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ .

قال الأستاذ: أصحاب التوحيد لا يستقبلون شيئًا باختيارهم؛ لأنه سقط منهم الإرادات والمطالبات، فهم خامدون تحت جريان تصارييف الأقدار، فليس لهم إيثار ولا اختيار، ومن خاصيته لأوليائه إلقاء الهام في قلوبهم بواسطة الملائكة بقوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ مقامات الوحي فنون، فبعضها وحي الذات، وبعضها وحي الصفات، وبعضها وحي الفعل، ومنه لمات الملك، وما يأتي به من الوحي يكون على مراتب أرباب القلوب، فوحي في مقام العبودية، ووحي في قرآن الحق من الباطل، وتخويف من الفراق، أو بشارة لنيل الوصال وتعريف لأسرار عيوب النفس، ومداولتها، ودفع مكائد الشيطان، ورد وسواسه، وتربية العقل بالتفكير، وتربية القلب بالذكر، ولتصفية السر بنور الفراسة، أو خبر من الغيب الكائن من وقوع المقدرات ما يخفي في الضمائر

والسرائر، أو خبر عن وقوع كشف عالم الملكوت، أو خبر عن اختصاص الربانية من لمعان أنوار الذات والصفات، فالملائكة يخبرون أرباب القلوب من أسرار ما وصفنا ومخاطبتهم مع القلوب، ألا ترى كيف قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ ﴿٣٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ﴾ وأما وحي الصفات يكون بأنواع على مراتب الصفات تخاطب الأرواح على قدر سيرها في عالمها، وأما وحي الذات يكون مع الأسرار، وهناك يتزلزل الصفات، ويتغير الأفعال، تضمحل الرسوم، وتسقط الوسائط يحدث في السر بالسر للسر ويظهر للسر ما في السر.

قال ﴿٣٨﴾: «إِنَّ فِي أَمْتِي مُحَدِّثِينَ مُكَلِّمِينَ، وَإِنَّ عَمْرًا مِنْهُمْ»^(١).

فالمحدثون الذين يتحدث معهم الملائكة والمكلمون الذين يكلمهم الله، يجوز أن يحدثهم الله، وبيان قوله سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ الرُّوحَ الْأَمِينُ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الروح الوحي الإلهي سَمَاهُ بِالرُّوحِ؛ لأنه كلامه صدر من ذاته، وهو حياة قلوب الصديقين من المكلمين والمحدثين، وهو سبب حياة قلوب المؤمنين، يحييهم بعلمه من موت الجهالة، بخبر الأولياء من وحيه ما يهذب قلوب السامعين، وهو توحيده، ووصف عظمته، وكبريائه، ليستقط عنهم الخيال، ولينزل عن قلوبهم المحال بقوله: ﴿أَنْ أُنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ خَوْفُوا الخلق من الخواطر الرديئة الممزوجة بالنظر إلى غيري، وخوفوهم من عظم جلالي، ونعوتي الشاملة على كل أسرار وأخطار.

قال بعضهم: من أنذر وحذر فقد قام بمقام الأنبياء، ربما يأتي أمره بالبلاء، وربما يأتي أمره بالرحمة، فالصبر في الأوقات والرضا بأمر الله، وذلك لكل أبواب حفيظ، يحفظ أوقاته، ولا يضيع أيامه.

قال ابن عطاء: المحدث من العباد من يكلمه الملك في سره، ويطلعه على خصائص الوجود، ويفتح لروحه طريقاً إلى الأشراف على الموت.

قال الله: ﴿يُنَزِّلُ الرُّوحَ الْأَمِينُ مِنْ أَمْرِهِ﴾.

قال الأستاذ: في قوله: ينزل الملائكة بالروح على الأنبياء بالوحي والرسالة، وعلى أسرار باب التوحيد، وهم المحدثون، فالتعريف للأولياء من حيث الإلهام والخواطر، وإنزال الملائكة على قلوبهم، غير مسدود؛ ولكنهم لا يؤمرون أن يتكلموا بذلك، ولا يحملون رسالة إلى الخلق.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٣٩﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَاءٍ

لَمْ تَكُونُوا بَلِيغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾.

قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: هي زيتكم بالظاهر، وللعارفين في سرجها وإراحتها جمال، وهو جمال الصفة الإلهية يظهر في محل بنعت عين الجمع لأبصارهم، فيزيد من رؤية ذلك الجمال محبتهم في شوقهم إلى الله سبحانه، والأرواح، والقلوب، والأسرار، رغبة في عالم الملكوت ورياض الجبروت، ولأربابها رؤية جمال الحق في قلبها إلى معارج الغيب ودرجات القرب حين صعدت بأجنحة المحبة إلى سرادق المملكة، وحين نزلت بأوقار المعرفة، وهي مطايا الملكوت تحمل أثقال أشواق المحبين إلى حضرة الجبروت، وتأتي برواحل أسرار الصفات إلى ميادين العبودية، بقوله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِيغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ إذا أراد سبحانه أن يفتح أبواب الغيوب لأهل القلوب يرسل على قلوبهم حوامل أنوار العناية، فتحمل القلوب بقوة فيض المشاهدة إلى عالم الغيب، وتراها أسرار عجائب الملك والملكوت، وهم أصحاب الجذب والواردات بلغوا بالجلالات إلى بلاد المشاهدات، ولو كانوا أهل السلوك لا يبلغون إليها إلا بلزوم المراقبات والمقامات.

قال الله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلِيغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ لا بالسير في المقامات، ولزوم الطاعات، ودليل الجدية والعطف، بغير العلة^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فالمجذوب محمول الله بمطية فضله إلى بلد مشاهدته، فمن محمول بنور فعله، ومن محمول بنور صفته، ومن محمول بنور ذاته، فمن حمله بنور فعله يكون بلده مقام الخوف والرجاء، ومحلته صدق اليقين، وداره مربع الشهود، ومن حمله بنور صفته، فبلده مقام المعرفة، ومحلته صفو الخلّة، وداره المودة، ومن حمله بنور ذاته، فبلده التوحيد، ومحلته الفناء، وداره البقاء.

قال بعضهم: يدوم المحمول على بساط الرفاهية، والحامل في مفاوز المشقة، فمن حمله فقد كفى، ومن أهمل فقد ضيق عليه، لذلك قال: لم يكونوا بالغية بأنفسكم وتدبيركم إلا بشق الأنفس، وربما يهون على من يشاء من عبده حتى لا يصلية في سيره تعب، ولا نصب كذلك سير العارفين من سير الزاهدين.

قال ابن عطاء: تضعف الأنفس عن حمل تلك المشاق، وتقوي القلوب على ذلك حتى

(١) جمع ثقل بفتح الثاء والقاف وهو متاع المسافر وحشمه أي تحمل أمتعتكم وأحمالكم.

لا يلحقه كراهية بعد، إلى أن علم إلى أين مقصده، وبأمر من قام وقصد.
وقال الجنيد: في هذه الآية دليل على أن مراد البلوغ إلى مقصده يجب أن يكون أقل أمره، وقصده الجهد والاجتهاد؛ ليصل بركة ذلك إلى مقصوده.

قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ سبحانه خير الإفهام والعقول عن حصر أفعال وبدائع صنعه؛ لأنها قاصرة بفتورها عن إدراك لطائف فعل وعجائب قدرته ما يصدر من غيبه من الآلاء والنعماء، أي: إذا عجزتم عن إدراك الخلق فكيف لا تعجزون عن إدراك الخالق وهو قادر أن يخلق على أداير نملة ألف ألف عرش، وألف ألف كرسي، وألف ألف عالم، يخلق بساتين الروحانية في قلوب الأطيوار والوحوش والبهائم، وهم بها يعيشون، ويمحون، ويسرحون، ويخلق في قلوب الجن جنان الرحمة، ونيران العذاب، ويخلق في قلوب الملائكة بحار التسبيح والتهليل، ويخلق في قلوب عقلاء المجانين عيون الحكيم والمحبة والشوق والمناجاة، ويخلق لعشاق حضرته من العارفين من صور الروحانية عالما في عالم، ويتجلى بجوده وجلاله منها لهم، ولا يعرفها إلا شائق عاشق واقف بأسرار الربوبية.

روى الضحاك عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال: يريدان عن يمين العرش نهرا من نور، مثل السماوات السبع، والأرضين السبع، والبحار السبع، يدخله جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل، فيزداد نورا إلى نوره، وجمالا إلى جماله، وعظما إلى عظمه، ثم يتفضل فيخرج الله من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ألف ملك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور، وفي الكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليه، إلى أن تقوم الساعة.

قال بعضهم: علمك الحق الوقوف عندما لا يدركه عقلك من آثار الصنع، وفنون العلوم لا تقابله بالإنكار، فإنه خَلَقَ ما لا يعلمه أنت ولا يعلمه أحد من خلقه إلا من علمه الحق، ألا ترى يقول: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال: القسم مقدر عليكم من أفعالكم ما لا تعلمون إلا في وقت مباشرته، وهو عالم به؛ لأنه الذر قدر وقضى.

وقال الواسطي: يخلق فيكم من الأفعال ما لا تعلمون إنها لكم أم عليكم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٠ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ١١ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ١٢ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِئِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: على الله الطريق المستقيم أن يعرفه من اصطفاه في الأزل بمحبته، والإيمان به، والإيقان في معرفته بربوبيته، أي: على الله الهداية، لا على غيره من العرش إلى الثرى، أي: أنه لا شريك له في ألوهيته بأن يجد أحد سبيلا إليه بغير إرادته ومشيته، أو يأخذ طريقاً من طرق معرفته بسبب من الأسباب أو علة من العلل.

﴿وَمِنْهَا جَايِرٌ﴾ أي: من السبيل مائل عن طريق الصواب، وهو طريق قهره، أجلس شيخ الضلالة على رأس وادي الطغيان، فمن طرده عن طريق المستقيم سُلِّطَ عليه الملعون حتى يغويه في أودية الشهوات، وقرى الظلمات، وأن الضلالة والهدى يتعلقان بقهره ولطفه، ولو أراد أن يميز الكل في حيز الرحمة لكان كما أراد، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء، تصديق ذلك قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْنَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال الواسطي: على الله أن يهدي إلى قصد السبيل، ومن السبيل ما هو جائر، والله سبب الجائر، والسبيل القصد، والسلوك على أنوار اليقين، والجائر في السبيل على سبيل التوهم والدعاوى.

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وَعَلَّمَتْ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٥﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لما أشرقت أرض القلوب بأنوار عظمة الآزال والآباد، وسنن سبحات الذات والصفات، وتزلزلت واهتزت وكادت أن ترتفع في هواء الهوية، فألقى الحق سبحانه رواسي علومه الغيبية، ومعارفه السرمدية، حتى لا تطير بأشباحها وأرواحها، وأرباب هذه القلوب رواسي الأكوان والحدثان، ولولا لهم لطار الأكوان في الغيب، وغيب الغيب، ثم وصف أرض

القلوب كيف أجرى فيها أنهار المعرفة والمكاشفة والمحبة والشوق والعشق والحكمة والفطنة، وأوضح فيها سبلاً للأرواح، والعقول والأسرار، منها إلى الحق، وتلك السبل بلا نهاية؛ لأن الطرق إلى الله غير متناهية؛ لأنه تعالى غير متناهٍ، فبعض سبلها للعقول إلى أنوار الآيات، وبعض سبلها للأرواح إلى أنوار الصفات، وبعض سبلها للأسرار إلى أنوار الذات، وأن الله سبحانه يظهر بجلاله وجماله في تلك السبل؛ لإسراره القلوب كشفًا عيانًا، ولولا ذلك الكشف والظهور لم يهتد الأرواح والعقول والأسرار إليه.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تهتدون به إليه، ثم زاد تسبب العرفان بأن يريهم علامات مشاهدته من لوائح كشف الملكوت وأنجم الجبروت.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكُم بآيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ العلامات في الظاهر أنوار الأفعال للعموم، وأخص العلامات في عالم الأولياء والنجوم وأهل المعارف الذين يسبحون في أفلاك الديمومية أرواحهم وقلوبهم وأسرارهم، من اقتدى بهم يهتدي إلى مقصوده. ألا ترى إلى قوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(١).

ما أنور علامات سمات القدوسية في وجوه الصديقين، وما أزهى نجوم أرواحهم متقلبات في أشباحهم، لطلب معادن القدس رياض الأنس، من نظر إلى وجوههم بالحقيقة يرى أنوار الحق من وجوههم وقلوبهم.

قال المالكي: طريق الهداية أعلام، فمن استدل بالأعلام بلغ إلى محل الهدى، وكشف عن معدن النجوم، ومن استدل بنجوم المعرفة، مر في طريق الهداية، كان عالماً بمسراها وصل إلى غاية المنتهى من الطريق، ولا دليل على الحق سواه، ولا علامة يخبر عنه، فهو الدليل على نفسه، ليس لأحد إليه سبيل، ولا لخلق عليه دليل، فمن وصل إليه فيه وصل، ومن انقطع عنه فبسوابق لقائه عليه انقطع.

ثم إنه سبحانه جعل ما وصف من نعمة بلا نهاية، بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ نعمة سوابق نعم عنايته، وهي أزلية أبدية والحوادث عن حصرها قاصرة ونعمة المعرفة في قلوب العارفين، وله نعمة التوحيد في قلوب الموحدين، وله نعمة المحبة في قلوب المحبين، وله نعمة الشوق في قلوب المشتاقين، وله نعمة الأنس في قلوب المستأنسين، وله نعمة الإرادة في قلوب المرئدين، وله نعمة الإيمان في قلوب المؤمنين، وله نعمة الإسلام في قلوب

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (٣/٦٢)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/١٤٧)، والمناوي في «فيض القدير» (٤/٤٣٢)، وابن حجر في «لسان الميزان» (٢/١٣٧).

المسلمين، وكل نعمة من هذه النعم معدن أصل الذات والصفات، يزيد بزيادة كشفها، فبأي لسان يعد نعمته، والخليقة عاجزة عن شكر قطرة ماء زلاله، فكيف لا يعجز عن شكر نعمة مشاهدته القديمة، لكن رحمته وغفرانه شكر نفسه لعلمه بضعف عباده عن حمل شكره، لذلك قال في آخر الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال ابن عطاء: إن لك نفساً وقلباً وروحاً وعقلاً ومحبةً ومعرفةً ودينًا ودنياً وطاعةً ومعصيةً وابتداءً وانتهاءً وحيناً ووصلاً وفصلاً ووصلاً، فنعمة النفس الطاعات والإحسان، والنفس فيهما تتنعم، ونعمة الروح الخوف والرجاء، وهو فيهما يتنعم، ونعمة القلب اليقين والإيمان، وهو فيها يتقلب، ونعمة العقل الحكمة والبيان، وهو فيها يتقلب، ونعمة المعرفة الذكر والقرآن، وهو فيها يتقلب، ونعمة المحبة الألفة والمواصلة والأمر من الهجران وهو فيها يتقلب، وهذا تفسير قوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ١٦٠ ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ١٦١ ﴿لَا جَرَمَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ١٦٢ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٦٣ ﴿لِيُحْمَلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ١٦٤ ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٦٥ ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيَنْ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ١٦٦ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ١٦٧ ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ١٦٨.

قوله تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ من أمانة الحق بموت الحرمان عن حياة العرفان، كيف يحيى بحياة لا موت فيها، فالجاهلون في غمرات هوة الجهالة، والعارفين في حياة المشاهدة، أماتهم حيث طردهم عن أبواب لطفه، فهم يعمهون في ظلمات القهر وما يشعرون سبل الحياة وطريق النجاة، فمثالهم مثل الأصنام التي لا أرواح فيها، ولا استعداد لها لقبول الحياة، فكذلك أهل الجهل به ليس لهم استعداد قبول حياة المعرفة

وروح المحبة، لذلك أكد في حق الأصنام بعد قوله: ﴿أَمْوَتْ﴾ بقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ قطع الحياة الأصلية عنها، وقطع عنها أيضا استعداد قبول الحياة؛ لأنها جمادات؛ فالمنكرون كذلك أموات القلوب عن معرفة العارفين، وغير مستعدين لعرفانهم، والعلم بأحوالهم، فسلاطين المعرفة أحياء بأرواح معرفته، والمحبون أحياء بأرواح محبته، والموقنون أحياء بأنوار مشاهدته، والصدّيقون أحياء بأنوار لقائه، والمقربون أحياء بأنوار صفاته، والموحدون أحياء بأنوار ذاته، وأهل ستر الغيب أحياء بحياته القديمة، والجمهور من وصل القدم في بحر نكرة، مستغرقون لا يموتون فيها بالحقيقة من سكون أرواح معرفته في أسرارهم، وأحاطت أرواح بقاءه على أرواحهم، ولا يحبّون فيها بالحقيقة لصولة سطوات عظمتة الأزليات عليهم، وإذا أبصرتهم بالحقيقة فعن إدراك كنه القدم أموات غير أحياء، إذ لا سبيل للحدث في القدم بنعت إدراكه، لكن هم في حسابان من حلاوة أوقاتهم في إدراكه، وما يشعرون أنهم لا يدركون أبداً، لكن إذا طلع صبح الوجدانية عليهم، وياشرهم أنوار شمس الذات، وأقمار الصفات، يقومون به معه بوصف الحياة الباقية، والعلم بفروع الربوبية، ولكن لا يعرفون أيا ن يعيشون في هذه المنازل، كأنّ الأوقات هناك وقت واحد بنعت تسمد السرمدية والأزلية سبحانه وتعالى.

قال الجنيد: من كان بين مفرقي فناء فهو فان، ومن كان بين طرفي عدم، فهو معدوم، وإلهي هو الذي لم يزل ولا زال.

قال بعضهم: أموات عن وصول الحق غير أحياء وما يشعرون، وإنّما يشعر بذلك من كُشِفَ له عن محل الحياة بالحق.

وقال الحسين: الحياة هي أنسام، فحياة بكلماته، وحياة بأمره، وحياة بقربه، وحياة بنظره، وحياة بقدرته، وحياة هي الموت، وهي الحركات المذمومة، وهو قوله جل وعز: ﴿أَمْوَتْ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

وقال سهل: خلق الله الخلق ثم أحياهم باسم الحياة، ثم أماتهم بجهلهم بأنفسهم، فمن حي العلو فهو الحي وإلا فهم موتى بجهلهم.

وقال الواسطي: الميت من غفل عن مشاهدة المّان، والحي من كان حيّ بالحي الذي لا يموت.

وقال أبو عمرو الزجاجي: كيف تحيون وأنتم لم ترو أحياء.

وقال النصر آبادي: أهل الجنة أموات ولا يشعرون؛ لاشتغالهم بغير الحق، وأهل الحضرة أحياء؛ لأنهم في مشاهدة الحق.

قال الله: ﴿أَمْوَتْ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّفَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغْيَانَ فَمِئْتُهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِئْتُهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أي: للذين رفعوا أرواحهم وقلوبهم وعرضوها في الحضرة لبذلها وفدائها لعروس المشاهدة، وأحسنوا عبودية خالقهم، وشاهدوه مشاهدة إيقان وعرفان في دار الامتحان حسنة مشاهدة الرحمن في وقت كشوف أنوار جماله في أوقات المواجيد والواردات، وهم في دار الآخرة عيان في عيان، وبيان في بيان، بلا فترة ولا فتور، ولا حجاب ولا عتاب، ولنعم دار هؤلاء المتفردين عن الأكوان والحدثان دار مشاهدة الرحمن.

ثم وصف مقاماتهم السنية ودرجاتهم الرفيعة في مقاعد صدق المشاهدة بقوله تعالى: ﴿ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ بساتين مقام الجلال والجمال، ويجري فيها أنهار زوائد المنن وهم من مشاهدة جلاله وجماله ما يشاءون عن حلاوة الخطاب والوصال، وهذا جزاء قوم انفردوا بالحق عما دون الحق.

قال أبو عثمان: في قوله ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ أي: أحسنوا في ابتداء أحوالهم الرجوع إلى محل المحسنين.

قال يوسف بن الحسين: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ آداب الخدمة واستعملوها للرفعة إلى محل الأولياء، وهو غاية الحسن.

قال الأستاذ: إن في الدنيا مشاهدة، وفي الآخرة معاينة، ثم وصف لهؤلاء المحسنين المتقين بطيب قلوبهم وأرواحهم عند خروجهم من الدنيا، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ في الدنيا بطيب نفحات مسك تجليه وتدليه وفي الآخرة بطيب مشاهدته ووصاله، أيضا طيبين بطيب محبته، طيبين بطيب معرفته، طابت نفوسهم في خدمة مولاهم، وطابت قلوبهم في محبة سيدهم، وطابت أرواحهم بطيب مشاهدة ربهم، وطابت أسرارهم بطيب الأنوار، هؤلاء مقدسون من شوب الحدثان، وإشراك الأصنام، تقدست نفوسهم من لوث الطبعات، وتقدست قلوبهم من لطمح الشهوات، وتقدست أرواحهم من الوقوف في الآيات، وتقدست أسرارهم من علائق الكرامات، طابوا بطيب المناجاة، واستأنسوا بأنس المداناة، وسكروا بوجوه المشاهدات، وصلحوا في مجالس أنوار الصفات، وطاروا بأجنحة الشوق والمحبة في أنوار الذات، طيب الله قلوبهم؛ حيث جعلها متصفة بأنوار شهوده عليها، فطابت الوجوه بوجودهم، وفاحت فارات مسك محبتهم في الآفاق، فما أطيب ذلك الطيب إذا تنفسوا من غلبات الشوق إلى جماله، واستنشاقهم طيب وصاله، هبت عليها ريح الشمال وحملت أنفاسهم، ودارت حول الكونين، فطابت الأكوان والحدثان من طيب أنفاسهم، لأنها رياض جمال الحق، وموضع أنفاس الرحمن.

ألا ترى كيف قال سيد أهل الأنفاس عليه السلام: «إني أجد نفس الرحمن من قِبَل اليمن»^(١).

وقال: «إن لربكم في أيام دهركم لنفحات، ألا فتعرضوا لنفحات الرحمن»^(٢).

عرائس جود المشاهدة هناك تتبختر، فتطيب بطيها تلك الأنفاس الربانية، فطابت السماوات والأرض وأهلها بطيها، كما قيل:

تضوع مسكًا بطن نعيان إن مشيت به زينب في نسوة عطرات

قيل: أي طيبة أبدانهم وأرواحهم بملازمة الخدمة وترك الشهوات.

وقال أيضًا: أي: لم يتدنسوا من الدنيا وخبثها بشيء.

قال أبو حفص: ضياء الأبدان بمواصلة الخدمة، وضياء الأرواح بالاستقامة.

قال الأستاذ: طيبين تفيض أرواحهم طيبة ببذلها نفوسهم.

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾^(٣)
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/١٢٩)، والمجلوني في «كشف الخفاء» (٢/٢٥١).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٣/١٨٠)، و«المعجم الكبير» (١٩/٢٣٣)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/٤٦٣)، والمجلوني في «كشف الخفاء» (١/٢٦٩).

النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَاهَرُوا لِنَبِيِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ بين سبحانه جلال كرم حبيبه، وشفقته على خلقه، محبةً لدينه، ونظامًا لعبوديته، ثم فإن لا يضيق صدرك لأجل من أغويته في الأزل عن طريقك، فإنك لا تهديه، فإن من طرده سابقة إرادته الأزلية، يقدر الحدثنان حسم باب الطرد عليه، فإن العبودية من خلقه يتعلق بتخصيص من خصه بمعرفته، وألبسه لباس عبوديته، ومن ألبسه لباس قهره فأنت لا تقدر أن تنزع ذلك عنه، فإن جريان أمر القدم لا يدفعه إلا القدم، وإنما بعثت الرسل لبيان الشريعة، ووضوح الطريقة لأشركتهم في الهداية.

قال الواسطي: السعادة والشقاوة والهدى والضلالة جرت في الأزل بما لا تبديل فيها، ولا تحويل وإنما يظهر في الأوقات رسماً على الأجسام، والهيكل لا صنع فيها لأحد، وليس يقدر عليها خلق، بل هي إرادة جرت في الأزل بعلم سابق قصرت عنه أيدي الأنبياء وإلى الأولياء بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ وتصديق ما ذكرنا، وما أشار إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي: لا يكون كون الأشياء إلا بتكويننا إياها، إما في الإيجاد، وإما في الهداية، وبيان هذه الآية إن لذاته تعالى صفات قديمة أزلية، منها الإرادة والمشية، وهما سابقتان قبل كل سابق؛ لأنها قديمتان جرتا لكون الكون وما فيه، لا أن تكونا تحدثان في الحق؛ لأنه منزعه عن البدء الذي خلا عنه الإرادة والمشية في سابق العلم.

إنما أراد الله الأشياء في القدم وعلمه كان مقرونا بإرادته، وكان الوجود موجوداً في علمه مريدًا لإرادته، وكان قادرًا بقدرته القديمة بإيجاد الكون بمحض الإرادة ومعلوم العلم، ولكن لو أوجد لكان معاً معاً، ولوجدان الحدثنان رتبة القدم آخرها بغير علة، ولا لوقت من الأوقات، أراد حدوث الحدث وإحداثه فعلم وجوده، وبعد أن كان معدوماً فأوجد بتمام الصفة حتى يكون على حد الكمال؛ لأنه تعالى خلق الأشياء بمباشرة نور ذاته وجميع صفاته، فالقول منه صفة من صفاته، فقال للمعدوم: كن بتكويننا إياك حتى يكون ذلك المعدوم

موجودًا بكمال جميع الصفات، إذ لو كان خاليًا عن الأمر والكلام كان ناقصًا، مع أنه تعالى قادر يخلق الأشياء على حد الكمال. سئل بعضهم ما كان يكفي الإرادة والمشئة حتى أظهر قول ﴿كُنْ﴾.

قال: خفية الإرادة والمشئة، فأظهر الأكوان في المعلوم، وأظهر لفظة: ﴿كُنْ﴾؛ فأخرج الأكوان إلى الوجود.

قال الواسطي: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ إنه على قدر المعارف إشارة إلى القدرة، وأما الحقيقة فليس للحق مكن، كما أنه ليس له موجود، إذ لم يكن له معدوم، فإذا كانت الأشياء بذاته ظهرت، وبه وجدت لا بصفاته فلم يزل، كما لا يزال إلى أنه لم يكن، أظهر بعضهم لبعض ظهور الأشياء بذاته لا بصفاته.

﴿بِالْيَقِينِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ١٢ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ١٣ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ١٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ أخفى الله سبحانه مكنون أسرار كتابه كما كانت بالحقيقة إلا على نبيه؛ لأنه كان بتلك الحقائق مخاطبًا، وكان بها مأمونًا؛ لبيئتها لأمناء المعرفة وأصفياء الحقيقة، الذين لهم استعداد قبول الحقائق، ولهم أسماع الأهلية الحاضرة لشهود الغيب، وسماع الأنباء العجيبة ليتفكروا فيها بعقول كاملة، ويستخرجوا جواهر علومها بأسرار ظاهرة، وهم عالية، وخواطر مشرقة، وإدراكات منيرة، وهم لا يضيعونها بأن يقولوا عند غير أهلها فيسقطوا عن درجة الأمانة، وأنشد ما ذكرنا:

من سارروه فأبدى السر مشتهراً لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وجاء بنوه فلم يسعد بقربهم وأبدلوه مكان الأنس إباحشا
لا يصطفون مذيعة بعض سرهم حاشا ودادهم من ذاكم حاشا

قال ابن عطاء: قطع عقول الخلق عن فهم كتابه، والإشراف عليه والنبين منه إلا عقل النبي ﷺ، فإنه قال له: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾، وإن فيه أحكام الخلق والخطاب معك، وأنت صاحب البيان لهم بما أنزل عليك، فإنهم في مقامات الوحشة، وأنت في محل الحضور ومحل الائتمان، فبيان الكتاب ما تبينه، وآداب الشريعة ما ترسمه؛ لأنك الأمين في جميع الأحوال؛ ولا يؤتمن على أسرار الحق إلا الأمناء من العبيد.

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ ۞ خَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ بين الله سبحانه جهالة المتكبرين والمستكبرين عن خدمته بأنهم لا يرون ظلالهم بالغدو والآصال، كيف يسجد لخالقهم ولو كانوا على محل العقل والإيمان والمعرفة لتنبيهوا وتعرفوا مكان جهلهم بالله وبعبوديته، فإن جميع الموجودات حتى الجمادات تسجد لصانعها من جهة وقوع نور العظمة عليها، فهي داخرة صاغرة في أنوار تجلي عظمتها لها، كما قال عليه السلام: «إذا تجلى الحق لشيء خضع له»^(١).

وفيه بيان أن كل موضع في نفس الأمانة الشيطانية، هناك استكبارًا وتكبرًا من عرف الحق بالحق بعد ما رأى الحق بالحق.

قال بعضهم: ما خلق الله شيئًا من الجماد والحيوان ينازع صانعه وخالقه إلا الإنسان، فإنه أبدًا يدعي لنفسه ما ليس من قدرة وعلم، ويثبت على الوجدانية والفردانية بادعاء الأهل والولد جل وعز، وتكبر في الإذعان والخضوع، لذلك قال الله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۚ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَإِنِّي فَآرِهَبُونَ ۝﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۖ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ۝﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۚ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ۝﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾ وَتَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۚ تَاللَّهِ لَتُسْفَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ۝﴾ وَتَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۝﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِمَ ۚ أَيُمَسِّكُهُ عَلَىٰ هُونٍ ۚ أَمْرِيْدُسُهُ فِي التُّرَابِ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۚ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٦٧/٤)، وأبو داود (١١٧٧)، والنسائي (١٤١١٣)، وابن ماجه (١٢٦٢).

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥٦﴾
وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ
لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٥٧﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ
الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ۚ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ فَلِئِذَا
فَارَّهَبُونِ ﴾ بَيَّنَّ أَنَّ مَنْ أَقْبَلَ عَلَى شَيْءٍ دُونَهُ بِوصف المحبة والاختيار على الله، فهو في حيز
الثنوية، حيث اتخذ إلهه هواه ومن ذاق من برح الوحداية ذوقاً سقط عنه علائق الكونين،
ويكون متفرداً بفردانيته، موحداً بوحدانيته.

قال أبو عثمان: هناك ربك أن تتخذ إلهين أو تتخذ معه شريك، فاتخذت آلهة وأدعيت
شركا، كيف يصبح لك مع ذلك التوحيد وأنت تعبد نفسك وهواك وطبعك ومرادك، وتعبد
الخلق فأتى تصل إلى محل العبودية.

﴿وَإِنْ لَّكَرَّمِ الْإِنْسَانُ لَعِبْرَةً ۖ نَسِيتُكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ۚ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا
سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦١﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا
وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ مَخْرُجُ
مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٤﴾
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكُنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ
اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ لَّكَرَّمِ الْإِنْسَانُ لَعِبْرَةً ۖ نَسِيتُكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ۚ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ
لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ الخطاب للعارفين الذين يشربون ألبان المحبة من بين بطون
الأفعاليات ما يحصل بين فرث ودم من الآيات، من لطائف الصفات، تشرب منها القلوب
والأرواح والأسرار على قدر مزاجها من القرب، وأيضاً تشرب الأرواح ما يحصل في العقول
الصافية من بين النفس والقلب من زلال بحر المشاهدة، فهناك منازل اعتبار المعبرين.

قال أبو بكر الوراق: العبرة في الأنعام وتسخيرها لأربابها، وطاعتها لهم، وتمردك على

ربك وخلافك له في كل شيء، وما يتعلق بها ذكرنا من حقائق الإشارات قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ أي: مما يتخذ الأرواح والأسرار من ثمرات نخيل القلوب، وأعنان العقول شراب المحبة المُسَكِّرة صميمها، وشراب الأنس المتخذ من صفاء أنوار الذكر الذي هو رزق حسنٌ لتربية وجودها، وذلك الشراب والسكر من تأثير مياه تجلي الجمال والجلال، وصفاءهما من صفو الوصال، فإذا شربتهما صارت سكرانة من شوق الحق مستأنسة بوجه الحق سبحانه، وفي هذه الإشارات اعتبار ومعرفة ألباء الحقيقة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

قال الأستاذ: الرزق الحسن ما كان حلالاً.

ويقال: هو ما أتاك من حيث لا تحتسب، بين سبحانه مواضع الحقيقة لأهل المعرفة في منازل وحيه واختصاصه مما خلق به وأكرمه بذلك بقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رُبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ صرح بيان الحق موضع خاصية وحيه عن النحل وأمثالها مما فيه الحياة، فإنه تعالى أعطى من فيض فعله، ونور صفته، ورحمة ذاته كل ذي روح روحاً يعيش بها، ويكون مستعداً لقبول وحيه بها، ومنها يعرف صانعه وخالقه، ويعرف مكان رزقه، ويعبد الخالق بما يفعل من عبوديته وربوبيته بقدرة قوته في تلقف الإلهام منه بلا واسطة، فهو تعالى ألهم الجمهور بنفسه؛ لأنهم موضع أسرارهم لا يطلع عليها جميع العقلاء، ويقدر نور الإلهام يتولد منهم حقائق الأشياء الغيبية المقدرة في علمه، وذلك الوحي إلهام، والإلهام على مراتب الفعل والصفات، فمن كان مشربه من إلهام الأفعال فصنوف مواليده على قدر الأفعال، ومن كان مشربه من إلهام الصفات، فمواليده أصفى وأنور.

ألا ترى إلى النحل كيف يكون ثمرتها عسل لطيف شفاء كل عليل؛ لأن إلهامه تختص بالصفة دون الفعل، فأمرها بأكل الطيبات من كل ثمرات خوالص الأشجار والأنوار، واتخاذها طيبات المساكن من الجبال والأشجار، فعلى قدر صفاء ثمرة الأشجار ولطفها وزيتها يكون العسل، فكل ثمرة أصفى مما تأكل منها عسله أصفى، فأوحي الحق نحل الأرواح أن تتخذ أماكنها من جبال أنوار الذات، وأشجار أنوار الصفات، وأنوار عرش الأفعال، ولا تسكن غيرها من مواضع الحدثان حتى لا تتعَوَّد علاتها، ولا يلتصق عليها غبارها.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «الأرواح في يمين الرحمن، والقلوب بين إصبعين من أصابع

الرحمن، يقلبها كيف يشاء»^(١) يقلّب بحر القلوب والأرواح والأسرار والعقول في جبال أنوار الذات، وأشجار أنوار الصفات، وعروش أنوار الأفعال، ويكملها بغرائب خطابه بأكل ثمار أنوار الصفات والذات والأفعال، بقوله: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من ثمرات تلك الأشجار الصفاتية، ونور بهار أنوار الذاتية، وأزهار أنوار الأفعالية، ثم أمره لسلوك سبيل الآزال والآباد والقدم والبقاء بنعوت الفناء بقوله: ﴿فَاسْأَلِيكَ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ لتعرف في طيرانها وسيرانها ثمار أشجار غيبه، وتأكل رياحين أنسه، وتطير في صحاري قدسه، وتعرف جلال وجوده تعالى الله عن كل علة، فإذا تم دورها في بساتين العيوب ﴿مَخْرُجٌ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ شراب معرفته بقدم جلال وعز بقائه، وأنوار ذاته، فاختلف ألوانه باختلاف رؤيتها أنوار كل صفة، فعلى قدر رؤية الصفات يكون ألوانها، فمن لون المحبة، ومن لون العشق، ومن لون الأنس، ومن لون الفكر، ومن لون القبض والبسط، ومن لون الخوف والرجاء، ومن لون البسط والانبساط في هذه المقامات شفاء لكل مريض المحبة، وسقيم الألفة، وملدوغ الشوق، وسليم المعرفة، ومن شأن ذلك العسل لون نوري من بهاء الله وطعم حلاوة من حلاوة وصلة الله، فإذا حصل ذلك العسل من مشاهدة الله في حواصل تلك النحل، يحصل من ذلك العسل الذي صدر من تجلي الربوبية لها شمع العبودية، فإذا قهر عليه نيران المحبة تميز بين الربوبية والعبودية، فيصير عسل الربوبية موضع ذوق مقام الأنس، كقوله ﷻ: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(٢)؛ فمن شرب قطرة منه بنعت الجذب، ومتابعته بنعت المحبة، يشفيه من كل سقم من علل الشهوات النفسانية، ولسقم الشيطانية ويصير مربى صحيحاً بأنوار الربوبية، فحالاته شراب الوصال يليق بالمخمورين بخمار الإرادة؛ ويكون شمع أوصاف العبودية الخالصة بسرجه من نور كواشفه ومعارفه، فيضيء لكل سالك طريقه، وكل سائلٍ رشده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

قال ابن عطاء: ألهمها ودّها على الموضع، وعلمها كيف يضع ما في بطنها، لا يضعها إلا على حجر صان أو خشب نظيف، لا يخلطه طين ولا تراب، ثم قال تعالى: ﴿كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من الذي جعلته رزقك، ثم أمره بالتواضع، فقال تعالى: ﴿فَاسْأَلِيكَ سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾، ثم قال: ﴿مَخْرُجٌ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ للنفوس لا للقلوب، فمن

(١) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن حبان (١٨٤/٣)، والحاكم في «المستدرک» (٣١٧/٢).

(٢) رواه أحمد (٣٧٧/٢)، والترمذي (١٤٨/٣)، وأبو داود (١٥/٢).

أراد صلاح قلبه فليعرف موارد ما يرد على قلبه في الأوقات، ويحل قلبه في جميع الأحوال، وما يبدو في قلبه في كل زمان، ثم ليلزم مع ذلك التواضع والخلوة، فهذا غذاء القلب، وذلك غذاء النفس، وغذاء الروح أعز وهو مشاهدة الحق والسماع منه، وترك الالتفات إلى المكونات بحال.

وقال ابن عطاء: جعل ما يخرج من النحل شيئين ممزوجين لا يصفيهما إلا النار، فإذا أصفاهما النار، صار عسلاً وشمعاً، فالعسل هو غذاء الخلق وشفائهم، والشمع للحق لا غير، كذلك إذا خاص العقد عما خلص له عمله، وما خالطه برياء وشرك فلا يصبح إلا للنار. وقال أبو بكر الوراق: النحلة لما اتبعت الأمر وسلكت سبيلها على ما أمره به، جعل لها شفاء للناس، كذلك المؤمن إذا اتبع الأمر وحفظ السر وأقبل على ربه، جعل رؤيته وكلامه ومجالسته شفاءً للخلق، ومن نظر إليه اعتبر، ومن سمع كلامه اتعظ، ومن جالسه سعد.

ويقال: إن الله سبحانه أجرى سنته أن يخفي كل شيء عزيز في شيء حقير، جعل الإبريسم في الدود، وهو أصغر الحيوانات وأضعفها، والعسل في النحل وهي أضعف الطيور، وجعل الدر في الصدف، وهو أوحش حيوان من حيوانات البحر، كذلك أودع الذهب والفضة والفيروز في الحجر، وكذلك أودع المعرفة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفيهم من يعصى، وفيهم من يخطئ^(١).

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ تَجْحَدُونَ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَفْذَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ

(١) في قوله: ﴿لَكِنِّي لَا يَغْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْنًا﴾ نكر العلم والشيء؛ إشارة إلى أن العارف بالله إذا وصل إلى الله؛ كان علمه علماً واحداً هو علمه بالله تعالى فهو أجل العلوم كما أن الله تعالى أجل المعلومات؛ يعني أن أجل العلوم هو ما تعلق بأجل المعلومات، وأما ما عاده عما تعلق بغير الله تعالى فدونه فظهر أن علم التصوف أجل العلوم ولأنه باحث عن ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله من طريق الكشف لا من طريق العقل كما عليه أهل الحكمة البحتية ونحوهم وكذا العلوم الكشفية إذا لم تكن سفلية متعلقة بالأكوان بل كانت علوية متعلقة بما ذكر من ذات الله، وأسمائه وصفاته وأفعاله وهي عين العلوم التي تُذكر في كتب التصوف؛ لكنها من قبيل العين والأذواق، وما في كتب التصوف فرموز، وإشارات، ورسوم وإنما نُكر الشيء؛ لأن الأشياء أيضاً في الحقيقة شيء واحد، والوجود والعالم من جوهر واحد فإذا اتحد العلم بالأشياء ولما لم يكن الأشياء ذاتية أصلية باقية على حالها وإنما خلقت كتلون زوال وشواهد اضمحلَّت عند حصول الفناء فكان علم الفاني في الله العلم بالله لا العلم بالأشياء والأشياء.

يُؤْمِنُونَ وَيَبْتَغِي اللَّهَ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ • ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْتَمًا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ الْبَيْتَ يَخْتَارُ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ الأرزاق منقسمة على أهل سلوك المعارف، الأرزاق لبعضهم طاعات، وبعضهم إرادات، وبعضهم مقامات، وبعضهم حالات، وبعضهم مكاشفات، وبعضهم مشاهدات، وبعضهم معرفة، وبعضهم محبة؛ وبعضهم توحيد، وبعضهم تفريد، فزرقي الأشباح بالحقيقة العبودية، وزرقي الأرواح بالحقيقة رؤية أنوار الربوبية، وزرقي العقول الأفكار، وزرقي القلوب الأذكار، وكلهم مشفقون على أرزاقهم، غوثان إلى قوتهم من الحقائق، عطشان إلى مشاربهم بعد سقيهم بحار القربة والمشاهدة، لا يطيقون رؤية غيرهم من المريدين أن يكونوا معهم في الشراب والطعم غيرة على أحوالهم.

قال تعالى: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾

قال إبراهيم الخواص: منهم من جعل رزقه في الطلب، ومنهم من جعل رزقه في القناعة، ومنهم من جعل رزقه في التوكل، ومنهم من جعل رزقه في الكفاية، ومنهم من جعل رزقه في المشاهدة، كما قال النبي ﷺ: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(١).

وقال الفضيل: أجل ما رزق الإنسان معرفة تدله على ربه، وعقله يدلّه على رشده، ثم بين سبحانه حلاوة ذلك الرزق، وطيبه، وطهارته، بقوله: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أجل طيبات الرزق مشاهدته ولقائه؛ لأنها هي الرزق بالحقيقة الذي يعيش به الأرواح في المعرفة، والأشباح في العبودية، والعقول بالتفكير، والقلوب بالتذكر، والأسرار بإدراك علم الربوبية، وذلك الرزق أطيب الطيبات، وهو بالحقيقة طيب؛ لأنه قديم أزلي منزّه عن علل الحدثان، وما دونه غير طيب بالحقيقة؛ لأنه معلول، والمعلول كيف يكون طيباً وصورة الرزق الطيب ما

يوافق حال العارف، لا يحجبه عن صفاء الوقت حين صدر من الغيب.

قال المحاسبي: هو الفيء والغنيمة.

وقال أحمد بن علي الحواري: الطيبات المباحات في البوادي.

وقال ابن الجلاء: ما يفتح لك من غير طلب ولا استشراف، ثم نزه نفسه بها أولاه من رزق مشاهدة، ومعرفة قُدس وجلال وافر ذو جود، وجوده من مشابهة الحدثان، وأمر العبادات ينزهوه عن التشبيه والتصوير والأضداد، بقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ يَبْنِ قُدس القدم، وأفرده عن شواهد الالتباس في مقام المحبة والعشق والشوق؛ حيث دارت الأهمية في طلب الحق في رؤية الكون، وظهوره في لباس أفعاله ليعرف العارفون مقام أفراد القدم عن الحدوث، ويدركوا بفهم الفهم تنزيه الصفة عن الفعل، وقُدس الذات عن الأوهام والإشارات والعبادات، وضرب الأمثال بحقيقة ذاته، فإنه قائم بنفسه ممتنع بذاته بالحقيقة عن درك الخليفة، فكل مثل حقيقي يقع بالحقيقة، فإذا تراه يقع على غير ذاته وصفاته، فإنه منزّه عن أن يدخل جلاله تحت العبارات والإشارات، أو يباشر أنوار ذاته وصفاته لباس الحدوثية، فالشاهدون يشهدون على أنفسهم بالحقيقة، وهو تعالى يعرف حقيقة ذاته، والخلق منعزلون عن إدراك أنوار صفاته وحقائق ذاته، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لكن يجوز ضرب المثل في طريق معرفته ومحبته والسير في عالم ربوبيته، وتسهلاً للسلوك، وتيسيراً للعلم والإدراك، ومن لطيف الإشارات أنه تعالى أعلم المحبين والعارفين الذين هم في مقام مشاهدته بنعت الالتباس أنهم إذا افرقت أوقات حالاتهم، وانصرم أنوار وارداتهم، وغابت أنوار شهود الحق عنهم، وبقوا في محل الاشتياق إليه ألا ينشئوا من أنفسهم ميخايل الصورية والأمثال الحديثة لما وجدوا منه ليتذكروا بها زمان الوصلة لئلا يقفوا في محض التشبيه، ويغلطوا ويعلموا مثل الحق من أمثالهم، كأن قال: لا تضربوا لما تجدون الأمثال، فإنكم لا تقدرون ذلك؛ ولكن أنا أضرب الأمثال لما ترون مني بالحقيقة، مثلاً تدركونني بلباسه وأنا قادر بذلك، ولستم بذلك قادرين، قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ألا ترى إلى قوله في ضرب مثله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: إذا كان المثل الأعلى يجوز أن يضرب به كأنه قال: فلا تضربوا لله الأمثال للتشبيه؛ ولكن اضربوا الأمثال للدلالة عليه، والأمثال تصوير ما في الغائب معنوياً، لا صورياً.

قال ابن عطاء: لا تضربوا لله الأمثال في ذاته وماهيته؛ لأن الذات لا يمكن تعقله

بحال.

قال الواسطي: الأشياء كلها أقل من الهباء في الهواء، كيف تظهر في الذات.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ في ذاته وكيفيته؛ لأنه ليس كمثله شيء، وأما صفاته التي أظهرها للخلق كسوة لهم إبقاء وعزاً، وقال: لا تضربوا لله الأمثال في صفاته وذاته؛ لأن الصمدية تمتنع عن الوقوف على ماهية ذاته وكيفية صفاته.

وقال: إنها ضرب الأمثال وأكثر فيها من المقال جذباً للسرائر، وأن تفنى عن حضورها فيما أسند إليها، ثم إن الله سبحانه ضرب مثل عبدين المسك والمنفق بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ آرِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ إنَّ العبد المملوك لنفسه أسير في يدها عاجز لا يقدر أن يميته ويرضى بموتها صانعه، ولا يقدر على أن يملك قلبه، ويرى ما فيه من عجائب الذكر ولطائف الفكر، وكيف ينفق وخزائنه قلبه، وهو لا يقدر على خزائنه؛ لأنَّ قلبه مسلوب النفس، والشيطان، والعبد الموفق الذي هو مرزوق رزق معرفة الله وحكمته وإلهامه ورشده وتوفيقه وأرزاقاً حسنة من مشاهدته وجماله، فهو ينفق نفسه ووجوده وماله لله، ولأوليائه، وينفق لطائف حكمته على طلاب الله، كيف هذان العبدان يستويان في العبودية ومعرفة الربوبية، فعند الجهال يستويان؛ بل إنهم يقبلون من يليق بمذهبهم من أهل الجهل والبخل والغباوة.

لذلك قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يعرفون العارف من الجاهل، والصادق من المرائي، حمد نفسه تعالى بأن الجهال لا يعرفون مقادير أهل قربه، ولو عرفوهم لشغلوهم عنه، فإذا بقوا أهل الحق مع الحق بلا شغل ولا شاغل.

ألا ترى إلى قوله ﷺ: «يأتي على الناس زمان يكون المنكر معروفاً والمعروف منكراً»^(١).

ومن إشارة اعتبار المثليين ينبغي أن العبد يكون مملوك لله طوعاً، ولا ينظر إلى شيء من وجوده وأعماله، فإنه مفلس عاجز عن القدرة بين يدي الله، وهذا صفة أهل المعرفة.

قال بعضهم: أخبر الله عن العبد وصفته فقال: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ فمن رجع إلى شيء من علمه وحاله وعمله؛ فإنه المتبرئ من العبودية، وهو في منازعة الربوبية، والعبودية هي التجلي مما سوى معبوده، يرى الأشياء به ويرى نفسه له.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٨٦/١٣) بنحوه.

شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاءَ وَتَبَعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ وصف نفسه سبحانه هاهنا بالعلم الأزلي والقدرة الأزلية، فما العلم الأزلي عِلْمٌ عِلْمُ كَوْنِ الْكَوْنِ، وما فيه وما يبدو من قدرته وحكمته فيه، فإقلاعه من أصله غير ثَقِيلٍ عليه؛ لأنه قام به قائم بقدرته، يفعل به ما يشاء إيجادا وإعداما قبل أن يتصل الكاف بالنون، وإذا كان غيب السموات والأرض له لا لغيره، لا يكشفه إلا لمن أحبه من أوليائه، ولا يستره إلا على أعدائه، فمن أشرفه على غيبه، فهو أيضا غيب كأنه يرى غيب الغيب، وأي غيب أشرف من خزانة الله في قلوب أصفياه من لآلئ حكمه، وعجائب علومه، وغرائب عرفانه.

قال النهرجوري: الحق ستر غيبه في خلقه، وستر أوليائه في عبادته، فلا يشرف على عبادته إلا خواص أوليائه، ولا يشرف على أوليائه إلا الصديقين من عبادته، والإشراف على الغيب عزيز، والإشراف على الأولياء أعز، فلما استأثر نفسه بعلم الغيب عزل الجمهور عن رؤيته وعلمه والموقوف به، فقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أخبر تعالى أنه أخرج الكل من بطون الأقدار، وأرحام العدم، وأصلاّب المشيئة، على نعت الجهل به والإشراف على ذاته وصفاته بنعت

المعرفة، لا يعلمون شيئاً من أحكام الربوبية، وأمور العبودية، والعلم بأوصاف الأزل، فألبسكم أسماغاً من نور سمعه، وكساكم أبصاراً من نور بصره، وأودع في قلوبكم علوم غيبه، بأن حلاها بحلية فطرة الإسلام والإيمان والإيقان، فتسمعون بسمعه كلامه، وتبصرون ببصره جماله، وتعقلون بنوره ذاته وصفاته ونعوته وأسمائه، وتشرب أرواحكم من سواقي قلوبكم شراب محبته وشوقه وعشقه، حين ترد أنوار المواجيد عليها من بحار كشف وحدانيته وسرمديته ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعرفون بأنه لا يشكره غيره.

قال الواسطي: لا تفهمون شيئاً مما أخذت عليكم من الميثاق في وقت بلى.

قال بعضهم: لا تعلمون شيئاً مما قضيت لكم وعليكم من الشقاوة والسعادة، ثم جعل للسعداء من عباده السمع لسمع بها لطائف ذكره، والأبصار ليصير بها عجائب صنعه، والأفئدة ليكون عارفاً بصانعه ومخترعه، وهذه الأعضاء والحواس هي الموجبة للشكر، فالشاعر من رأى منة الله عليه في سلامة هذه الحواس، والكافر من يرى أنه يؤدي به شكر شيء من نعم الله عليه بشيء من أحواله.

قال أبو عثمان المغربي: جعل لكم السمع لتسمعوا به خطاب الأمر والنهي، والأبصار لتبصروا بها عجائب القدرة، والأفئدة لتعرفوا بها آثار موارد الحق عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلكم تبصرون دوام نعمي عليكم، فترجعوا إلى بابي، ثم يبين قدرته سبحانه في إمساك أطياف الأرواح في هواء الملكوت وأنوار سماء الجبروت حين ترفرفت بأجنحة العرفان، والإيقان على سرادق مجده، وبساط كبريائه، مسخرات بأنوار جذبه، ما يمسكهن إلا الله بكشف جماله لها، أمسكها به عن قهر سلطان سبحات جلاله حتى لا تفنى في بهائه بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ طير الهموم في سماء الأزل ممسكة رياش طلبها بحبال أنوار الأبدية عن الوقوع على غير مواقع مشاهدة الوصلة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لعلامات لألباء الحقيقة وإدلاء الطريقة وأهل الإرادة في المعرفة، قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ يعني ظلال أوليائه ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران، ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان؛ لأنهم ظلال الله في أرضه لقوله ﷻ: «السلطان ظل الله في الأرض ياوي إليه كل مظلوم»^(١).

(١) رواه البيهقي في «الكبرى» (٨/١٦٢)، و«شعب الإيمان» (٦/١٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/٤٩٢).

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا﴾ أكنان الجبال قلوب أكابر المعرفة، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة يسكنون فيها المنقطعون إلى الله ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ جعل للعارفين سرايل روح الإنس لئلا يحترقوا بنيران القدس ﴿وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ سرايل المعرفة وأسلحة المحبة؛ لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين، ثم زاد نعمته ومثته عليهم بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ نعمته ووقايته ورعايته، وقاهم من هجرانه، ورعاهم بلطفه عن قهره ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْلِمُونَ﴾ تنقادون لأمره في العبودية، وتتواضعون لربوبيته.

قال الأستاذ: جعل إيواء لأوليائه في ظل عنايته مثوى وقرارًا، وألبسهم في سرائرهم لباسًا يكفيهم به الشر والضر، فمن لباس العصمة يحميهم به عن مخالفته، ومن صدر التوفيق يحملهم به على ملازمة عبادته، ومن خلة الرصلة يؤهلهم بها القربة، وصحبته ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ إتمام النعمة أن يكون عاقبتهم مختومة بالحسنى، ويكفيهم أمور الدين والدنيا، ويصونهم عن اتباع الهوى، ويسددهم حتى يؤثروا ما يوجب لهم من الله الرضا.

قال بعضهم: تمام النعمة أن يرزق العبد الرضا بمجاري القضاء.

قال ابن عطاء: إتمام النعمة هو الانقطاع عن النعمة بالسكون إلى المنعم.

قال حمدون: تمام النعمة في الدنيا المعرفة، وفي الآخرة الرؤيا.

قال أبو محمد الجريري: تمام النعمة حفظ القلب من الشرك الخفي، وسلامة النفس من الرياء والسمعة.

ثم وصف المخالفين بالطريقة المثلث بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يعرفون أولياء الله بالبراهين الساطعة والآيات الواضحة والفراسات الصادقة؛ ولكن لم يعرفهم بحقيقة المعرفة من حيث التوفيق والسعادة، وينكرونها حسدًا وبغيًا وعدوانًا وظلمًا وطلبًا للرياسة والجاه: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يسترون ولاية أوليائه، وآيات أصفياه، وفي الآية تريبخ علماء السوء وقراء المداهين، الذين وضعوا شبكة الرياء والسمعة ليصطادوا بها الجهال، ويوبخوا عندهم أحباء الله؛ لينصرفوا وجوه الناس إليهم، يخونون الله، والله لا يهدي كيد الخائنين، يعلمون الحق وينكرونها، وأي شقي أشقى ممن رأى منهم ألف كرامة صادقة، ثم يسترون بها وبإنكارها رئاسة الدنيا من العامة.

قال بعضهم: يتقلبون في نعمة ولا يوفقون لشكرها.

قال النصر آبادي: معرفة النعمة حسن، ومعرفة المنعم أحسن، ومعرفة النعمة ربها يتولد منه الأذكار، ومعرفة المنعم لا يتولد منه إلا صحة الاستقامة.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَٰؤُلَاءِ وَتَزَلَّاتُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَنُشْرِي لِلْمُسْلِمِينَ﴾ *
 إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَسَتْ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْتَلُواكُمُ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتُسَفَّلَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَا تَقْسُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَٰؤُلَاءِ﴾ إِنَّ اللَّهَ سبحانه خلق الأمم وجعل فيهم الأولياء والأكابر والأنبياء، فجعل الرسل شهداء على الأنبياء، وجعل الأنبياء شهداء على الأولياء يشهدون عند الخلق بولايتهم وصدق محبتهم، وإخلاص توحيدهم، وجعل نبينا ﷺ شاهداً صادقاً يشهد بولاية أولياء أمته، وأصفياه خواص أهل نحلته، فزال بذلك الإبهام والعلل؛ لأنه كان ﷺ بين شواهدهم وحقائق أعمالهم في ما أنزل الله عليه بلسان كتابه وواضح آياته قال الله سبحانه: ﴿وَتَزَلَّاتُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مبيناً لكل حق وباطل، يفرق بين الصديقين الغالطين، وهو كتابه المكنون وخطابه المصون، بخير غمما كان وما يكون من كل حد وكل علم، وأناج سبيل الحقيقة، وأوضح طريق المعرفة، وهو سراج الله في العالم، يخرج بنوره كل طالب صادق من ظلمات الأوهام، وشكوك القتام، وهو خطاب الحبيب إلى الحبيب، وذوقه مع الحبيب، وسره معجون في الحبيب، وغرائبه مكشوفة له، وعجائبه مصونة في قلبه، لا يعرفها غيره بالحقيقة، فمن تابعه وصل إليه بحظ وافر، وأصل حاضر.

قال أبو علي الجوزجاني: الخلق شهداء بعضهم على بعض، وأمة محمد ﷺ هم شهود

الأنبياء على جميع الأمم، ومحمد ﷺ هو المزكي المقبول، فمن قدّمه فهو المقدم، ومن أخره فهو المؤخر ومن تعلق به نجا، ومن تخلف عنه هلك، قال الله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.

وقال الواسطي: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وإنما خوطبت به دون غيرك، لأنك أهل المخاطبة، وخوطبوا جميعًا تبعًا لك فبين لهم مرادنا فيما خوطبوا به، فإن إليك البيان.

وقال أبو عثمان المغربي: في الكتاب تبيان كل شيء، ومحمد ﷺ هو المبين لتبيان الكتاب، ثم وصف كتابه بعد وصفه بأنه مبين علوم جميع صفاته وأسمائه ونعوته وذاته بأنه مع أنه تبيان طريق معارفه وكواشفه هادٍ للمسترشدين طريق معرفة وجدانيته وفردانيته، ورحمة على أحبائه بأن يخاطبهم به من حيث داء محبته في قلوبهم يسمعهم خطابه وأناجيله الذي فيه أنباء غرائب لطفه بأوليائه، وعجائب صنعه بأحبائه وأصفيائه؛ ليستأنسوا بخطابه وسماعه، ويتواجدوا بلذة كلامه، وذلك نعمة تامة ورحمة كافة عليهم وعلى جمهور سلاك الطريقة وقصّاد الإرادة، وبشرى لكل مقبل إليه، واقف عليه، ومنقاد بين يديه، بنعت الخضوع والتسليم، يشرهم برضوانه الأكبر ووصاله الأوفر لهؤلاء المخاطبون بهذه الحقائق، يؤكدهم الله الأمر عليهم بأن يعدلوا بين خلقه ويواسيهم بإحسانه، ورفقهم لهم برحمة، وينهاهم عن مباشرة حظوظهم، والحسد على إخوانهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. إن الله سبحانه دعا العباد إلى الاتصاف بصفته، منها العدل والإحسان والشفقة والرحمة والقدس والطهارة عما لا يليق به، فهو العادل والمحسن والرحمن والرحيم غير ظالم جائز، وهو منزّه عن جميع العلل، فمن كسي أنوار هذه الصفات بنعت الذوق والمباشرة، وحلّاه بزيبتها يخرج عادلاً محسناً، رءوفاً رحيماً، طاهراً مطهراً، صادقاً مصدقاً، ولياً، حبيباً محبوباً، مريداً مراداً، مراعيً محفوظاً، يعدل بنفسه فيدفعها عن الشرك والشك ورؤية الغير وطلب العوض في العبودية، ويأخذ منها الاتصاف بينها وبين عباد الله ألا يرى عيب غيرها، بل يرى عيبها في جميع الأوقات، وينصف بين عباد الله، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعبد الله بوصف الرؤية وشهود غيبه، ويراعي ذوي القرابة في المعرفة والمحبة من المريدين الصادقين، ويرحم الجهال من المسلمين وينهى نفسه عن مباشرة فواحش دعاوى الأنانية، ومباشرة الهوى والشهوة، ويدفعها عن الظلم باستكباره عن العبودية، ويأمرها بإذعانها عند تراب أقدام أولياء الله؛ ليكون مطمئناً في عبودية الحق ذاكرة لسلطان ربوبيته، وقهر جبروته وملكوته، وإحاطته بكل ذرة وفناء الخليفة.

قال الساري: ليس من العدل المقابلات بالمجاهدات، والعدل رؤية المنة منه قديماً

وحديثاً، والإحسان أن الاستقامة بشرط الوفاء إلى الأبد، لذلك قال: استقيموا ولن تحصوا. وقال بعضهم: العدل والإحسان ما استطاعها آدمي قط؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾ وكيف تستطيع أن تعدل بينك وبين الله في استيفاء نعمه وتضييع وعظه وحكمه، وليس من العدل أن تفر عن طاعة من لا يفر عن برك والإحسان هو الاستقامة إلى الموت، وهو «أن تعبد الله كأنك تراه»^(١) كالمروي عن النبي ﷺ وقال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا»^(٢).

أخبر أنه لا يقدر أحد أن يعدل بين خلقه، فكيف يعدل بينه وبين ربه والفحشاء الاستهانة بالشرعية، والمنكر الإصرار على الذنوب، والبغي ظلم العباد، وظلمه على نفسه أظلم.

قال الواسطي: العدل ألا يوافق العبد غير ربه، ولا يطالع غير حده، والإحسان ألا يرى حسناً إلا من الله، وإيتاء ذي القربى، فلا قريب أقرب إليك ممن أنت له وبه وإليه، وأفحش الفحشاء إضافة الأشياء إلى غيره ملكاً وإيجاداً، وأنكر المنكر رؤية الأشياء من غير الله ولغير الله، وأقبح البغي تلوين النعوت ورؤيتها بالعلل لعلكم تذكرون، تعرفون فضله عليكم بالموعظة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: عسى أن تذكروا نعمه عليكم.

ومن جملة ما يتعلق بالعدل والإحسان، الوفاء بعهد الله في عبوديته بقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ هذا العهد عهد الأرواح مع الله حين خرجت من العدم بمحبة القدم والعبودية لربوبيته، خالصاً من إثثار الشيء عليه من العرش إلى الثرى، عهد الله معها أنه تعالى آواها على نعت الديمومية إلى مشاهدة الأبدية، وعهدها مع الله خروجها مما لا يليق بالعبودية، فحقيقة الوفاء بالعهد من الطرفين يتعلق بعناية الله ورعايته وكل الاجتهاد من العباد يبدو منها، فإن وقع النقص على عهدنا من غيره السابقة في الأزل، وتغير عهدنا بحيث تتغير صفاتنا من حال الاستقامة إلى حال الفترة، فلم يقع النقص، والنقص في عهد الله؛ لأنه منزّه عن التغيرات الحدثانية، وهو ذورحة واسعة يفني بعنده ولا علة عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾.

قال النصر آبادي: أنت متردد بين صفتين، صفة الحق وصفتك، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾.

(١) رواه البخاري: (٤٤٠٤)، ومسلم (٩).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢١٣٤٤)، وابن ماجه (٣٢٦/١)، والدارمي (١٧٤/١).

وقال: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنْ رَبِّ اللَّهِ﴾ إلى أيها نظرت فإنك الأخرى، ثم العهود مختلفة، وفي الأقوال عهود، وفي الأفعال عهود، وفي الأحوال عهود، والصدق مطلوب منك في جميع ذلك، وعلى العوام عهود، وعلى الخواص عهود، وعلى خواص الخواص عهود، فالعهد على العوام لزوم الظواهر، والعهد على الخواص حفظ السرائر، والعهد على خواص الخواص التجلي من الكل لمن له الكل.

وقال: من حمل الحمد بنفسه وحوله نقضه في أول قدم ومن حمله بالحق حفظ عليه عهده ومواريقه.

وقال الراسطي: تقدمت العهود في الميثاق الأول، فمن أقام على وفاء الميثاق فتح له طريق الحقائق وقتاً بعد وقت، ومن خان في الميثاق بقي مع وقته وأغلق دونه مسالك رشده.

وقد وقع لي نكتة هاهنا من قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ إن كان العهد واليمين وقعا من جانب العباد في الأزل تحقق لهم الاختيار في الوفاء بالعهد والأيمان، وإن وقعا من الحق صرفاً، وعهد العباد وأيمانهم من نتائجهما وفرعهما، فقد سقط عنه الاختيار المنزه عن عوارضات التلوين، وتغير الزمان والمكان.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أخبر سبحانه أن كل وارد يرد على قلوبهم من موارد القرب الإلهية يجري ولا يثبت، ويبقى لهم أصل الأصل، وهو مشاهدة جلاله وعزته، وأيضاً ما عندكم من المعارف ينفذ في سبحات جماله المعروف، وما في عنديته من أنوار الذات والصفات التي يبدو منها جميع المعارف باقية للعارفين المحبين، فإنَّ بنقص المعارف لا ينقص الكواشف، وإنَّه بنقص الأعمال لا ينقص الأحوال.

ثم أخبر أنه يجازي المحبوسين في قيود إسرائ بلاء محبته، وامتحان شوقه، وبلاء عشقه بمشاهدته، وكشف جماله لهم بأحسن ما يرجون منه، فإن رجاءهم على قدر همهم، وهمهم على قدر نياتهم، ونياتهم على قدر قصودهم، وهي كلها معلولة مقصورة وأجر جماله ووصاله غير محسوب من حيث وجود الخلق والخلقة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَوِّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال بعضهم: ما منكم من الطاعات فإنها فانية، وما مني إليكم من جزاء أعمالكم فهو

باق على الدوام، وأنى يقابل ما يفنى بما يبقى.

وقال ابن عطاء: أوصافكم فانية وأحوالكم بائية، فلا تدعو منها شيئاً وما من الحق إليكم باق، فالعبد من كان فانيّاً من أوصافه باقياً بما لله عنده، وهو تفسير قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.

وقال جعفر الكليني: ما عندكم ينفد يعني الأفعال من الفرائض والنوافل، وما عند الله باق من أوصافه ونعوته؛ لأن الحديث يفنى والقديم يبقى.

قال أبو عثمان: جزاء الصبر هو أن يعطي الله العبد الرضا، فمن تحقق بالصبر ولزم طريقة الصابرين فإن الله يشبهه على أحسن ثواب عاجلاً وآجلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ويقال: ما عنكم من معارفكم ومحابكم آثار متعاقبة وصفات متناوبة أعيانها غير ثابتة، وإن كانت أحكامها غير باطلة، والذي يتصف بالحق به من رحمته بكم ومحبته لكم وثنائه عليكم، فصفت أزلية، ونعوت سرمدية.

ويقال: ما عندكم من اشتياقكم إلى لقائنا، فيعرض الزوال وقبول الانقضاء، وما وصفنا به نفسنا بما ورد به الآثار إلا طال، شوق الأبرار إلى لقائي، وإنّا إلى لقائهم لأشد شوقاً وذلك إقبال لا يتناهى وإفضال لا يفنى.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧) ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٨).

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ معنى الآية أن العمل الصالح ثلاثة أشياء: التبرؤ من الكون وما فيه بنعت تصاغره في عين من يرى القدم، وبذل الوجود لتصاريف الربوبية بنعت الرضا واللذة في البلاء، ورفع النظر عن الجزاء، والأعواض بكل حال، وهو مؤمن أي موقن مشاهد في حاله وعلمه قبول الحق وإقباله إليه بوصف الرضا عنه، وأيضاً هو مشاهد ما وعده الله له من أحكام الغيب بنور البصيرة، وأيضاً وهو مخلص عن النظر إلى غير الله، وهو مؤمن بما يقول هاتف الغيب في قلبه، وأيضاً هو مؤمن بأن وجوده وطاعته لا يليق بحضرة القدم، من كان هكذا يلبس الحق سره وروحه وقلبه وعقله بركة حياته الأزلية، فيحييه بحياته، ويريه بهاء جماله، ويصيره مستأنساً

بوصله، معافاً من فضله، فيكون ملبساً في ظاهره وباطنه بلباس لطفه، محروساً من قهره برعايته، فمقامه مقام العافية خارجاً من امتحان البلاء، وهذا جزاء من أقبل عليه له لا لنفسه ولا لغيره، فيبقى عيشه مع الحق بلا كدورة ولا فترة، وفي جميع أنفاسه مشاهدة مكاشف خارج من نعوت التغيرات النفسانية بحوادث الشهوات وخطوات الشيطان، ما أطيب حاله وما أحلى شأنه وما ألد حاله، طوبى له ثم طوبى له.

روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الحياة الطيبة هي القناعة»^(١).

وقال السوسي: الحياة الطيبة عيش الفقراء الصبر، وقيل: عيش الفقراء الرضا.

وقال الجريري: هو العيش مع الله، والفهم عن الله.

وقال ابن عطاء: إسقاط الكونين عن سره حتى يبقى مع ربه.

وقال أيضاً: روح اليقين، وصدق نية القلب.

قال سهل: ذلك قلب بقى مع الله بلا رؤية الكون.

وقال جعفر: يعيش مع الخلق بالنفس، وقلبه معلق بمشاهدة الله.

وقال أيضاً: قلب مع الصفاء، وروح مع اللقاء، وبدن مع الوفاء.

وقيل: حياة القلب مع الله بحسن المعرفة وتجريد الهمة.

قال الصادق: القناعة والرضا.

وقال أيضاً: إذا كان قلبه في محبة الله، ولسانه في ذكر الله، وجوارحه في خدمته، فذلك

حياة طيبة.

وقال أيضاً: إذا اجتمع له خمس مقام وهو عيش السرمدية، وحياة الأبدية، وصدق

العبودية، وقرب الصمدية، وملك الأزلية فذلك حياة طيبة.

وقال الواسطي: هو الرضا بالميسور، والصبر على كربة المقدور، فما طابت حياة أحد

إلا بالرضا بما قدر الله وقضى.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: العمل الصالح لا يكون من غير المؤمن.

فمعناه عمل صالحاً في الحال وهو مؤمن في المال؛ لأن صفاء الحال لا ينفع إلا مع وفاء

المال، فإن الأمور بخواتيمها.

ويقال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: مصدق بأن نجاته بفضل الله، لا بعمله الصالح.

ويقال: الحياة الطيبة هو نسيم القرب.

ويقال: الحياة الطيبة ما يكون مع المحبوب، وفي معناه قالوا:

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٤/ ٢٧٥).

نحن في أكمل بالسرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور
 غبت ما نحن فيه يا أهل ودي إنكم غيب ونحن حضور
 ويقال: الحياة الطيبة الأولياء ألا يتركه لهم سؤالاً إلا حقيقه، ولا مأمولاً إلا صدقه،
 وأما الخواص فالحياة الطيبة لهم ألا يكون لهم حاجة ولا سؤال ولا أرب ولا مطالبة، وكم بين
 من له مراد فيرتفع، وبين من لا إرادة له فلا يريد شيئاً، الأولون قائمون بشرط العبودية،
 والآخرون معتقون بشرط الحرية.

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إِنَّمَا
 سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً
 مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾
 بين سبحانه أن الشيطان لا يغلب بالكفر والضلال على من اختارهم الله في الأزل بالإيمان
 والمعرفة، وبصفاته، وبأسمائه، وبنعوته بنعت نفي الأنداد والأضداد عن عبوديته، والإيقان في
 وجوده، والإذعان عند تصرفه، والتوكل عليه في امتحانه وبلائه، ولا تسلط له عليهم؛ لأنهم
 في رعاية الحق وعنايته لا يقدر أن يوسوسهم للتردد في الإيمان؛ ولكن يوسوسهم من جهة
 الشهوات الدنيوية، فإذا صبح أنوار شمس جلاله على وجوههم وقلوبهم وأرواحهم، يحترق
 الشيطان عند إلقائه إليهم حتى أفاقوا، فإذا أفاقوا يقصد إليهم أيضاً بالوسواس، فإذا استعانوا
 بالله من شره، وأووا إليه بالتوكل، احتبس الملعون في مكانه، يذوب كما يذوب الملح في الماء.

قال أبو حفص: من أراد ألا يكون للشيطان عليه سبيل، فليصحح إيمانه، وليصحح
 بالإيمان بالتوكل عليه، والإيمان هو ألا يرجع في السراء والضراء إلا إليه، ولا يرضى بسواه
 عوضاً عنه، والتوكل هو الثقة بمضمون الرزق كثقتك بمعلومك، وهذا تفسير قوله: ﴿إِنَّهُ
 لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾.

قال النصر آبادي: من صحح نسبه مع الحق لا تؤثر بعد ذلك عليه منازعة طبع، ولا
 وسوسة شيطان، ثم بين أن سلطانه على من: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ معنى
 سلطان الشيطان الحيل والمكر والخديعة والوسواس، لا أن يطبق أن يضل أحداً من خلق الله
 بغير إذن الله؛ لأنه تعالى يضل نفسه ويهدي نفسه؛ وليس له شريك فيها، إذ هو منفرد
 بالوحدانية الأزلية وتسلطه إنما على من أضله الله في الأزل، وتسلطه أغراه، وزيادة الوسوسة
 لمن تابعه وتابع هواه، وأما للمسلمين والمؤمنين فمن جهته مراد النفس؛ لا للكفر والضلالة؛

لأنه يغويهم إلى زيادة المعصية.

قال بعضهم: من اتبع هواه فقد تولى الشيطان، ومن ركن إلى الدنيا فقد اتبعه، ومن أحب الرئاسة فقد اتبعه، ومن خالف ظاهر العلم فقد تولاه، ومن خان المسلمين فقد جعل للشيطان عليه سبيلاً، ومن ركب شيئاً من المخالفات ظاهراً وباطناً فقد أهلك نفسه، ومن تولى الشيطان فقد تبرأ من الحق.

﴿قُلْ تَزَلَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١٥) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ لَوْلَا غَمَضُوكَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَزَلَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إذا لم يكن الأعداء من قبيل أهل المعرفة بخطاب الله صار بحجتهم الإنكار عليه، لبعد مكانها من معرفة الله وشهوده، ووجوده، وما صدر منه، من كلامه العزيز رَدَّهم الله بقوله: ﴿قُلْ تَزَلَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ يعني أن الله سبحانه كلَّم في الأزل، فأوحى جبرائيل عليه السلام وأمره أن يوحى حبيبه أمر حبيبه أن يبلغه إلى المؤمنين الذين عرفوا الله بالأرواح حين أخذها الحق بميثاقه وكلمها بكلامه حين قالوا: بلى، ليثبتوا في معرفة الله بخطاب الله، ويستقيموا في طاعتهم، ثم وصف كتابه بأنه معرف جميع صفاته وذاته لأهله، ومبشر لهم بوصال حبيبه بقوله: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ وأن الله سبحانه إذا أراد أن يتكلم، يتكلم بنفسه مع نفسه، كما يليق بجلاله، بلا همهمة، ولا صوت، ولا شيء من صفة الحدثان، ثم يلبس كلامه قوة من قوته، وجلالة من جلاله، وعظمة من عظمتة، فيسمع جبرائيل على ما يليق بقوته، يسمع كلامه بقوة قدسية مستعارة من قدس الله، ولولا ذلك لذاب بسماحه أهل الملكوت، ثم إن جبرائيل احتمل ذلك، ونزل به إلى النبي ﷺ فألبس الحق ذلك القوة والجلال قلب نبيه فسمعه بتلك القوة، ثم يفيض تلك القوة في جميع وجوده، فتقل عليه فحفظه الله بحفظه حتى بقي

تحت أثقال برجاء وحيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥] وهو الملقى، وهو الحامل، ولولا قوته الأزلية بإعانتته، لطاش في أول سماع يسمع من كلامه وروح القدس مع جميع الأرواح المقدسة من فيض تجلي قدس جلاله، فكلها تكون قدسية، فأى روح قدسه عليها أكثر، فهو أظهر في قدسها لا يلتصق بها الملل والحوادث.

قال الواسطي: الأرواح ليس لها نوم ولا لذة ولا موت ولا حياة، بل هي جوهرة لطيفة للطفه، فسمي روحًا، أو للطف جبرائيل، سمي روح القدس.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ إِنَّ الله وصف المريدين الصادقين حين هاجروا من حظوظ أنفسهم بعد ذوقهم طعم معصية الله، وبعد وقوعهم في محل امتحانه، فلما خرجوا من تحت مراد النفس والهوى، وجعلوهما منكوسين، وباشروا عبودية الله، وجاهدوا في محاربة الشيطان حين دعاهم إلى منازل الفترة، وصبروا على ترك الهوى في متابعة الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ﴾ لما جرى عليهم في سالف الأيام من الذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم أي بأن يحفظهم من المراجعة إلى حظوظ النفس، ومرادها وأنه تعالى يذيقهم طعم الأُنس بحيث لا يطيقون أن يفترخوا من طاعته لمحة.

قال سهل: هاجروا قرناء السوء بعد أن ظهر لهم منهم الفتنة في صحبتهم، ثم جاهدوا أنفسهم على ملازمة أهل الخير، ثم صبروا معهم على ذلك، ولم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من بدء الأحوال.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَلَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهْمَ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ الأنفس بالتفاوت، فنفس تجادل عن معصيتها، ونفس تجادل عن طاعتها، ونفس تجادل عن خوفها من النار، ونفس تجادل عن طمعها في الجنة، وهؤلاء الأنفس مشغولة بمجادلتها عن مشاهدة خالقها والشوق إلى لقائه، والنفس المنبسطة العاشقة الهائمة ينسبط إلى ربها، وتدل عليه دلال عاشق على معشوقه، وشائق على مشوقه، وتقول في مجادلتها وانبساطها: إلهي فعلت بي ما فعلت في الدنيا، ابتليتني ببلايا محبتك، وعظائم الشوق إليك، وحبستني في دار الامتحان مع أعدائي،

فأين عدلك وإنصافك؟! أما آن وقت حصول المراد، فتكشف لي جلال سرمديتك حتى أنظر إليك بك أبداً، فكل نفس ليس هذا دأبها فهي محجوبة بمجادلتها، محجوبة بعملها في الدنيا والآخرة، وهو تعالى يعطي كل ذي فضل فضله، ويعطي مأمول كل نفس بقدر طاعتها، وهو منزّه عن النسيان والظلم والضلّال، فيجازي الكل بإحسانه، فإنه لا ينقص من ملكه مثقال ذرة، وأن يدخل الكل في جواره، ويربهم جماله.

قال بعض الخراسانيين: ذهب وقت الخلق في الدنيا اشتغالا بنفوسهم في الدنيا تجادل عنها، وفي الآخرة تجادل عنها، فمتى يتفرغ إلى معرفة الحق^(١).

وقال الأستاذ: المؤمن لا نفس له، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]؛ فأنفسهم اشتراها الحق منهم، ثم أودعها عندهم، فليس لهم فيها حق، وإنما يراعون فيها أمر الحق سبحانه.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١﴾
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢﴾ فَكُلُوا مِنْمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ ﴿٣﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ يَتَّبِعُ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ القرية المطمئنة: قلب العارف الصادق المطمئن بذكر الله، بل الله طمأنينته حين شاهده، بكشف جماله وجلاله له، أمر بلطف الله عن قهر الله، وبرعايته عن طوارق الوسواس

(١) والمعنى اذكر يا محمد ويا كل من يصلح للخطاب يوم يأتي كل إنسان يجادل ويخاصم عن ذاته يسعى في خلاصه بالاعتذار كقولهم هؤلاء أضلونا وما كنا مشركين لا يهمه شأن غيره فيقول نفسي نفسي وذلك حين زفرت جهنم زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه حتى خليل الرحمن عليه السلام وقال رب نفسي أي أريد نجاة نفسي. تفسير حقي (٧/ ١١٢).

وشوارق الهواجس، يأتي عليه رزق المعرفة والمحبة، ويرد الأنس والمشاهدة من كشف الذات وجميع الصفات رزق أرغد؛ بحيث لا كدر فيه ولا كدورة عليه من قتام الهجران، وظلمة الحرمان، فإذا أراد الحق سبحانه إتمام النعمة عليه، رفع عنه الخطأ والنسيان، والظن والحسبان، حتى لا يشتغل إلا بمراعاة أسرارهِ، وبمداركة لطائف أنوارهِ، وإذا أراد به الامتحان وضعوا عليه النسيان، وأغلق عليه أبواب فتوح المشاهدة حتى يذوق طعم وبال الهجران، ويسقط في ورطة الحرمان، ويكون خائفًا بعد أن يكون آمنًا، وفائزًا بعد أن يكون ساكنًا، بقوله: ﴿فَكَفَّرْتَ بِالنِّعَمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

قال الأستاذ: فراغ القلب عن الشهوات نعمة عظيمة، إذا كفر عبد هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى، وأنجز في قياد الشهوات شوش الله عليه نعمة قلبه، وسلبه ما كان يجده من صفاء وقته، فإن طوارق النفس أوجب غروب شوارق القلب.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٠) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١﴾ شَاكِرًا لِنِعْمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ أي: باشرُوا مراد الهوى بجهلهم على صفات ربهم الأعلى من قهر ولطف، ثم تابوا من بعد ما رأوا مكائد الشيطان، وعيوب النفس، وعرفوا موضع خطأهم، وندموا على ما فات عنهم من أوقات سنية، وحالات شريفة، وأصلحوا ما أفسدوا بالورع التام، والزهد على الدوام، والندم على فوت الأيام، وغفلتهم في المنام، يوفقهم بالاستقامة في طاعته، وبقائهم بنعمتها في رعايتها، لذلك قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال سهل: ما عصى الله أحدًا إلا بجهل، ورُبَّ جهل أورث علمًا، وانعلم مفتاح التوبة، وفي الصلاح صحة التوبة، من لم يصلح في توبته عن قريب يفسد عليه توبته؛ لأن الله يقول: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ آدَمَ الثَّانِي،

خلقه الله على رؤية جمال جميع صفاته، واستيلاء أنوار ذاته في إيجاده على كونه، فتجلى بقدمه من حيث الذات، وبالبقاء من حيث الصفات، ومن الأسماء والنعوت برسم الأفعال لروحه وقلبه وعقله وسره، فصار موجودًا بوجوده، مشكاة لأنواره، نورًا من تجليه متخلقًا بخُلُقِه، موجودًا بلطفه، مقدسًا بقدسه، خليلًا بخلته، حبيبًا بمحبته، صفيًا باصطفائيته، ملكًا بملكه، بصيرًا ببصره، سميعًا بسمعه، متكلمًا بكلامه، عينًا من عيون الحق في العالم، وشقائقًا من منابت لطف آدم ما اجتمع في كل، اجتمع في وجوده، مطيعًا في عبوديته، حرًا في حنيفيته، غير مائل من جمال الحق إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَكُّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وَلَيْسَ اللهُ بِمُستَنَكِرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

ثم زاد وصفه بمعرفة منعمه ونعمه لاجتبايئيته بخلته، وتعريفه إياه طريق محبتهم بقوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ أَجْتَبَنَهُ وَهَدَنَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ شاكرًا لأنعمه حيث بذل نفسه لأمره ولمراده، وأسلم نفسه في ذبح ابنه، والصبر في بلائه، والرضا بقضائه، اجتباؤه في الأزل بالخلقة، وهذا إلى المعرفة، وكمله بكمال الاستقامة، والقانت الذي سكن قلبه مع الله في مقام الأنس الحنيف الذي قلبه مربوط بنعت القدس.

قال بعضهم: أمة أي: معلمًا للخير، عاملاً به.

وقيل: القانت الذي لا يفتر عن الذكر، والحنيف الذي لا يشوب شيئًا من أعماله بشرك.

وقيل في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَكُّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: لم يك يرى المنع والعطاء والضر والنفع إلا من موضع واحد.

قال الواسطي في قوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾: قابلاً لقضائه وقسمته قبول رضا لا قبول كراهية.

قال أبو عثمان: الشاكر لنعمه ألا يرى شكره إلا ابتداء نعمة من الله عليه؛ حيث أهله لشكره، واجتباؤه من بين خلقه، وكتب عليه الهداية إلى صراط مستقيم، عالمًا أن الهداية سبقت له من الله ابتداء فضل لا باكتساب وجهه وكذ.

قيل: القنوت القيام بالحق على الدوام والحنيف المستقيم في الدين، ثم وصف كرامته عليه وشرفه بقوله: ﴿وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آتيناه في الدنيا حسنة النبوة، والرسالة، والخلقة، والمحبة، والمعرفة، وإنه في الآخرة لمن الشاهدين لقائه أبدًا بلا حجاب، فإنه بوصف ما ذكرنا يصلح لقربه وجواز وصاله أبدًا.

قال بعضهم: آتيناه في الدنيا المعرفة حتى صلح في الآخرة لبساط المجاورة.

قال بعضهم: أصلح الله قلوب المؤمنين للمعاملة، وأصلح قلوب الأنبياء والأولياء للمجاورة والمطالعة.

وقال الواسطي: هي الخلطة لا غيرها تولى الأنبياء بخلقه خلقهم على ذلك جذباً منهم إليه.

قال الأستاذ: آتينا في الدنيا حسنة حتى كان لنا بالكلية، ولم يكن لغيرنا، ثم جعله إماماً لنبينا محمد ﷺ وأمته بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ملة إبراهيم الخلطة والمحبة والرضا والتسليم والسخاء والوفاء والكرم، أوحى إلى رسوله بمتابعته، إذ اختاره بما اختار خليله وأجل وأفضل بدايته متابعة الخليل، ونهايته انفراده في تجريد التوحيد عن غير الحق بالحق، ويقتضي هذا التأدب بآداب المشايخ، والتواضع للأكابر، كما قال الدينوري: أمر الله نبيه ﷺ باتباع الخليل لئلا يأنف أحدٌ من الاتباع، وملة إبراهيم كانت سخاء، والخلق الحسن، فزاد عليه النبي ﷺ حتى جاد بالكونين عوضاً عن الخلق؛ ف قيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ومن جملة ما أمره الله باستعمال الخلق.

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِ لَهُمُ بِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِمْ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلُوقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي: خاطب الجمهور بلسان الشريعة لا بلسان الحقيقة، فإن تكلمت معهم بالحقيقة طاشت العقول فيها، وبقيت الخلق بلا فهم، ولا علم، والموعظة الحسنة التي لاحظ للنفس فيها، ويكون على قدر عقول الخلق وطاقتهم.

قال بعضهم: خاطب كلاً على قدره، والموعظة الحسنة فيها ترغيب وترهيب.

سئل بعضهم: لم قدم الله الحكمة؟ فقال: لأن الحكمة إصابة القول باللسان وإصابة الفكرة بالجنان، وإصابة الحركة بالأركان، إن تكلم، تكلم بحكمة، وإن تفكر، تفكر بحكمة، وإن تحرك، تحرك بحكمة.

وقال جعفر: الدعاء بالحكمة أن تدعو من الله إلى الله، بالله، والموعظة الحسنة أن ترى

الخلق في أمر القدرة، فتشكر من أجاب، وتعذر من أبى وفي قوله: ﴿وَجَدِلْهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الجدال الحسن أن تدلهم إلى الله بالله، تعرف ذاته وصفاته، بما وجدت من كرمه ولطفه، شفقة ورحمة على خلقه.

قال بعضهم: هي التي فيها من حظوظ النفس شيء، ولا يرى أنه الممتنع من قبول الموعدة، فيغضب عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فلا ينجح فيه قولك ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ الموفقين الذين شرحت صدورهم لقبول ما أتيت به.

قال سهل: السبيل الذي أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو إليه، هو الإيمان بالله، فإنه طريق ممدود من الدنيا إلى الآخرة.

وزاد تعالى تأكيداً باستعمال الكرم والخلق، والعفو والصبر، بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ ولين صبرتم لهو ختم للصابرين دفع الانتقام لحظ النفوس، وأجاز الانتقام له لا لغيره، والصبر في المكارة، والامتحان منتهى مقام المجتهدين، الأول يتعلق بمقام المبتدئين، وانصبر يتعلق بمقام الراضين، والمريد منغمس في أنوار الشريعة، والعارف مستغرق في بحر الربوبية، الأدب شعار المريدين، والرضا مقام المختارين.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ﴾: ولم تعاقبوا لها خير للصابرين التاركين العقوبة، التي أباح العلم فعلها بالأدب الذي يتبعه بالأمر، ويلزمه بالترغيب، أنه خير للصابرين، ثم بين سبحانه أن ذلك الصبر الذي هو خير للصابرين لا يكون إلا بالله بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: صبرك في بلائه لا يكون إلا بكشف جماله لك، وأيضاً أي: ما صبرك إلا بعد تخلقك بصبره، وأيضاً ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: الله عوض صبرك، وأيضاً صبرك بالله، لا بنفسك، فإن بلاءه لا يحتمله إلا هو.

وقال الواسطي في هذه الآية: أخبر بأنه هو الذي تولاهم بحجبهم عند المعاينة في الحضرة عن الحضرة، وهم ثلاث طوائف عند اللقاء، طائفة تسرمدت بقيومية دوامه وأزليته، فلم تجر عند اللقاء عليها آفة باتصال أنوار السرمدية بأنوار الأبدية، وطائفة لقيته في زيته، وحسن نظره واختياره، فغمزهم في نعمته وحجبهم بكرامته، فهي متلذذة بنعمة محجوبة عن حقيقته، وطائفة يثبت شواهد طاعاتها وزهداها؛ فقال لهم مرحباً بمقدمكم فحجبهم في نفس ما خاطبهم.

وقال ابن عطاء: يأمره ويبرئه.

وقال جعفر: أمر الله أنبياءه بالصبر، وجعل الحظ الأعلى منه للنبي ﷺ، حيث جعل أمر

صبره بالله لا بنفسه؛ فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ .

قال النوري: في هذه الآية هو الصبر على الله بالله.

قال الأستاذ: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ تكليف، و﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تعريف.

ويقال: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ تعنيف، و﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تخفيف، ﴿وَأَصْبِرْ﴾ أمر بالعبودية، ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إخبار عن حق الربوبية، ثم أخبر سبحانه ألا تنظره إلا إلى سوابق التقدير، حتى لا تحزن على موارد التدبير، بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: انظر إلى مرادنا منهم، ولا تنظر إلى مرادك منهم، فإن أمر الربوبية سابق على أمر العبودية.

قال ابن عطاء: كان النبي ﷺ لم يكن يضيق بهم صدرًا، ولكن الله تعالى حذره ما هو موهوم في البشرية، وإن كان هو منزها عنه.

قال الأستاذ: طالع التقدير فيما لا تجعله حظرا عندنا، لا ينبغي أن يوجب أثرا فيك، ومن أسقطنا قدره فاستصغر قدره وأمره، ثم تسلى قلب نبيه ﷺ بأنه تعالى مع مُتَّقٍ صادق شاهد محسن بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي: مع الذين عظموا الله برؤية عظمتهم، وأجلوه بإجلاله، وتبرؤا به عن غيره، وهم في حال الإحسان في جمال مشاهدته، هائمون في بهاء وجهه، وأنوار قدسه، فهو معهم من حيث لا هم، أفناهم به عن وجودهم، ثم أبقى نفسه لهم بعد فنائهم عنه فيه له.

قال عمشاد الدينوري: رأيت ملكا من الملائكة يقول لي: كل من كان مع الله فهو هالك، إلا رجل قلت: ومن هو، قال: من كان الله معه، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

قال بعضهم: من اتقى الله في أفعاله أحسن الله إليه في أحواله.

وعن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: التقوى مع الله، والإحسان إلى خلق الله.

قال الواسطي: التقوى: كيف اتقى؟ وماذا يتقى؟ ولماذا يتقى؟

وقال الأستاذ: ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ رؤية البصيرة من غيره والذين هم أصحاب التبرؤ من الحول والقوة، والمحسن الذي يعبد الله كأنه يراه، وهو حال المشاهدة.



سورة بني إسرائيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾: في هذه الآية أربع إشارات: إشارة التقديس، وإشارة الغيرة، وإشارة الغيب، وإشارة السر، فأما إشارة التقديس فقوله: ﴿سُبْحَنَ﴾ أي: منزلة عن إشارة الجهات والأماكن في الفوقية، وما يتوهم إليه الخلق أنه إذا وصل عبده إلى وراء الوراثة إنه كان في مكان، أي: لا تتوهموا برفع عبده إلى ملكوت السماوات إنه رفع إلى مكان، أو هو في مكان، فإن الأكوان والمكان أقل من خردلة في وادي قدرته.

لا ترى إلى قوله ^(١): «الكون في يمين الرحمن أقل من خردلة»^(١)، فالعندية والفوقية منزلة عن أوهام المشبهة؛ حيث توهموا أنه أسري به إلى المكان، أي: سبحان من تقدس هذه التهمة.

وأما إشارة الغيرة فقوله: ﴿الَّذِي﴾، ولم يذكر من اسم الظاهر مثل الله والرحمن؛ لأنه غار بنفسه أن يراه أحد سوى عبده، وما سمى النبي باسمه الظاهر أيضًا غيرة عليه، فرفع الاسمين من بين؛ لئلا يطلع عليهما من العرش إلى الثرى.

وأما إشارة الغيب قوله: ﴿أَسْرَى﴾: سرًا على ما بين العبد والرب، وقوله: ﴿لَيْلًا﴾ محل السر والنجوى، فبان من التقديس أفراد القدم عن الحدوث، وسقوط الاكتساب عن محل التفضل، وكون الاختصاص له من البرية، وطهارة القدم عن إحاطة الحدث به، وبقاء العزة بوصفه عن محمدة العارفين وعرفان الموحدين، وبان عن اسم المبهمة حقائق المحبة، وامتناع الصمدية عن إدراك الخليفة، وبان من إشارة الغيب ظهور أنوار الربوبية وسطوع أنوار علم المجهول، وبان من إشارة السر خطاب التشابهات، وغوامض علوم المشكلات، والإشارة إلى وقائع أشراط الساعة أسرى بعبده من محل الإرادة إلى محل المحبة، ومن محل المحبة إلى محل المعرفة، ومن محل المعرفة إلى محل التوحيد، ومن محل التوحيد إلى محل التفريد، ومن محل التفريد إلى محل الفناء، ومن محل الفناء إلى محل البقاء، ومن محل البقاء إلى محل

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٣/ ٣١٥).

الاتصاف، ومن محل الاتصاف إلى محل الاتحاد، فلم يبق منه شيء من رسوم الحدوثية من استيلاء القدم على الحدث، فدنا منه ثم تدلى عنه، ثم فني فيه، فكان بين فناءه قاب قوسين، قوس الأزل وقوس الأبد، فبين القوسين غاب في الغيبة، فبقي غيبه، فاستوى أو أدنى فأزال بالغيرة غيب غيبه، كأنه كان في فناء الفناء، والفناء عن فناء الفناء، فبقي اسمه مع اسم الإشارة بقوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ أي: هو مع مكانته في مقام الاتحاد على وصف العبودية، وسبحان الذي سبحان عن أن يكون محلاً للحوادث، أو امتزجت اللاهوتية بالناسوتية، قوله سبحانه كان أزلياً سرمدياً، كان سبحانه قبل إيجاد العبد والتعبد عن القريب والبعيد هو هو بذاته وصفاته له، لغيره امتنع عن القرب والبعد من جهة الخليفة بحال من الأحوال أبد الأبدين، أسرى من رؤية فعله وآياته إلى رؤية صفاته، ومن رؤية صفاته إلى رؤية ذاته، وأشهده مشاهدة جماله فرأى الحق بالحق، وصار هناك موصوفاً بوصف الحق، فكان صورته روحه، وروحه عقله، وعقله قلبه، وقلبه سره، فرأى الحق بجميع وجوده؛ لأن وجوده صار بجميعه عيناً من عيون الحق، فرأى الحق بجميع العيون، وسمع خطابه بجميع الأسماع، وعرف الحق بجميع القلوب؛ حتى فنيت عيونه وأسماعه وقلوبه وأرواحه وعقله في الحق، فنظر الحق إلى الحق لأجله نيابة عنه؛ لأن عيون الحدوثية فنيت في عيون الحق، وعيون الحق رجعت إلى الحق، فرأى الحق الحق، وعرف الحق الحق، وسمع الحق من الحق رحمةً منه إليه، وتلطفاً به؛ لأنه يسمع ويرى.

ألا ترى إلى آخر الآية قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾: سمع كلامه من نفسه، وأبصر نفسه بنفسه، كان في الأزل سميعاً بصيراً، لكن هاهنا يسمع ويبصر بسمع عبده وبصر عبده.

قال الواسطي: نزّه نفسه أن يكون لأحد في تسيير نبيه ﷺ حركة أو خطوة، فيكون شريكاً في الإسرائ والتسرية.

وقال أبو يزيد: نزّهه عما أبدى، ولا تعرفه بما أخفى.

وقال ابن عطاء: طهر مكان القربة وموقف الدنو عن أن يكون فيه تأثير لمخلوق بحال، فسرى بنفسه، وسرى بروحه، وسرى بسرّه، فلا السر علم ما فيه الروح، ولا الروح علم ما يشاهده السر، ولا النفس عندها شيء من خبرها وما هما فيه، وكل واقف مع حده، مشاهداً للحق، متلقفاً عنه بلا واسطة ولا بقاء بشرية، بل تحقق بعبده فحققه وأقامه؛ حيث لا مقام، وخاطبه وأوحى إليه ما أوحى جل ربنا وتعالى.

وقال: جاء رجل إلى جعفر بن محمد، وقال: صف لي المعراج. فقال: كيف أصف لك

مقامًا لم يسمع فيه جبرائيل مع عظيم محله.

وسبب بداية المعراج الذهاب إلى المسجد الأقصى؛ لأن هناك الآيات الكبرى من بركة أنوار تجليه لأرواح الأنبياء وأشباههم، وهناك بقربه طور سيناء، وطور زيتا، والمصيصة، ومقام إبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام في تلك الجبال مواضع كشوف الحق لذلك قال: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾: علامات شواهد مشاهدتنا؛ حتى يتعود برؤية شهودنا في الآيات، وليقوى برؤيتها؛ حتى يطيق أن يرى آيات عظام الملكوت، وسبب عروجه إلى الملكوت؛ ليرى جمال الجبروت في أنوارها؛ لأنه سأل عن الحق رؤية ظهور صفاته في مرآة آياته بقوله: أرنا الأشياء كما هي، فأراه الحق ما سأل بقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾: هو يريه وهو قادرٌ بذلك، وهو منزَّهٌ عن الحلول في الآيات.

ألا ترى إلى أول الآية كيف قال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي﴾، والحكمة في ذلك أنه إذا قوي في رؤية الصفات في الملكوت الأعلى والملكوت السفلي يطيق أن يرى صرف ذاته بلا حجاب، ولا حساب، ولا قتام، ولا ضباب، ولا علة، ولا آيات، ولا شواهد، بل يراه به لا بشيء ولا بياها.

قال بعضهم: قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وقال لمحمد ﷺ: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾، فغمض عينه عن الآيات شغلاً منه بالحق، ولم يلتفت إلى شيء من الآيات والكرامات فقيل له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، حيث لم يشغلك ما لنا عنا.

ويقال: أرسله الحق سبحانه ليتعلم منه أهل الأرض العبادة، ثم رقاها إلى السماء؛ ليتعلم الملائكة منه أدب العبادة، قال الله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] ما التفت يميناً، ولا شمالاً ما طمع في مقام، ولا في إكرام، وتحرز عن كل طلب وإرب.

قال الأستاذ في قوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾: كان تعريفاً بالآيات، ثم تعريفاً بالصفات، ثم كشفاً بالذات.

﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوكُمْ كَبِيرًا﴾ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: عبدًا من حيث العبودية، ومحبًا من حيث المعرفة، وعاشقًا من حيث الحرية، ومنفردًا بالأنس من حيث الغيرة.

ألا ترى كيف قال: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِبَارًا﴾ [نوح: ٢٦]: شكورًا من حيث أن يرى المنعم بالمنعم لا بالنعمة بنعت العجز عن أداء حق نعمة جلاله وكشف جماله، كأنه تعالى علم نبيه ﷺ مقام معرفة أبيه نوح عليه السلام، كيف كان معرفته بالله؛ حيث احتمل بلاءه به، وشكر في موضع الصبر، كأنه علمه الشكر في مقام البلاء؛ لأن العارف لا يتم؛ حتى يعرف الحق في رؤية البلاء ورؤية النعمة، فيأخذ من مقام البلاء الصبر المقرون بالرضا، ومن مقام النعمة الشكر المقرون بالصفاء والوفاء والسخاء والتقى، وإن كان متحلًا بهاتين الحلتين صار مزينًا بجميع زينة العبودية؛ لذلك قال: ﴿عَبْدًا شَكُورًا﴾^(١).

قال الجنيد في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾: العبودية هي: ترك هذين الشيئين: السكون إلى اللذة، والاعتماد على الحركة، فإذا فقد عنك هذان فقد أدبت حق العبودية، يستعظم قليل فضلنا عنده، ويستصغر كثير خدمته لنا، ليس له إلى غيرنا التفات، ولا يشغله تواتر النعم عليه عن المنعم بحال.

وقال أيضًا: قائلًا بالحق، ناطقًا به، قابلاً له، مقبلاً عليه.

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَفْهُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۗ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۚ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ۚ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۚ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾: حكى الله سبحانه عن العباد بأنهم يعملون بالأعواض لحظ نفوسهم، لا لحقيقة العبودية التي وجبت عليهم في الأزل، لحق الربوبية التي هي مستحقة لها، فمن عمل للنجاة عمل لنفسه، ومن عمل للثواب فقد عمل لنفسه، ومن عمل لحظ المحبة وكذا الأنس فقد عمل لنفسه، ومن عمل لغير هذه العلل وقام على شرط العبودية بنعت إسقاط رؤية الأعواض وكل علة على وصف الخجل والحياء والفناء فقد عمل لله، ولكن أعماله راجعة إليه بسبيين: أحدهما أن عبودية الخليقة لا تليق

(١) وفي التاويلات النجمية يشير إلى شكر داود الروح وسليمان القلب من آله السر والخطى والنفس والبدن فإن هؤلاء كلهم من مولدات الروح قال اعملوا...

بالأزلية، والآخر أنه منزلة عن عبودية الخلق وعصيانهم؛ لأنه قائم بنفسه، ليس له أنس بطاعة المطيعين، ولا وحشة بمعصية العاصين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وفيه نكتة عجيبة، أي: إن شاهدتم مشاهدتي شاهدتم لحظوظ أنفسكم لا لحق شهودي، وإن شاهدتم مشاهدتي كما ينبغي وفنيت مشاهدتكم فنيت في مشاهدتكم في مشاهدتي؛ لأن سطوات العظمة مهلك كل شاهد من شهوده.

قال أبو سليمان الداراني: العَمَل في الدنيا يعملون على وجوه، كل فيه يطلب حظه، فجاهل عمل على الغفلة، وعامل عمل على العادة، ومتوكل عمل على الفراغة، وزاهد عمل على الحلاوة، وخائف عمل على الرهبة، وصديق عمل على المحبة، وعَمَل الله أقل من القليل. قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ ۖ وَإِنْ عُدتُمْ عُدنَا﴾: ذكر الرجاء، وقدم الرحمة، وتكلم من نفس التريية، كأنه تعالى دعاهم إلى مقام الرجاء من مقام الخوف، ومن رؤية الوحشة إلى رؤية تربية الرب، ومن رؤية العذاب إلى رؤية الرحمة، أي: أنا أستعمل كرمي القديم على كل حال إن تطيعون وإن تعصون على عواقب الأمور، لأن وصفي غالب على كل وصف، وأنا غالب على أمري، ثم أنبت الأكساب القائمة بالمشيئة بقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُمْ عُدنَا﴾: إن عدتم إلى عالم القهريات عدنا معكم، فتنجيكم منها، فإن سوابق الكرم والرحمة غالبية على الغضب، كما قال: «سبقت رحمتي غضبي»^(١)، وإن عدتم إلى عالم اللطف عدنا معكم إلى عالم اللطف، فأريكم جلالي في لباس لطفي، وإن عدتم إلى المعصية عدتم إلى معادلکم التي خليقتها الجهل والعصيان عدنا إلى ما كنا في الأزل من اللطف والكرم؛ لأن اللطف والكرم من نهارير القدم، وإن عدتم إلى الهجران عدنا إلى الوصال، وإن عدتم إلى المجاهدة عدنا إلى كشف المشاهدة، وإن عدتم إلى النكرة عدنا إلى المعرفة.

قال ابن عطاء: يتعطف عليكم، فيخرجكم من ظلمات المعاصي إلى أنوار الطاعات، فمن طلب الرحمة من غير الله فهو في طلبه مخطئ.

وقال سهل: إن عدتم إلى المعصية عدنا إلى المغفرة، وإن عدتم إلى الإعراض عنا عدنا إلى الإقبال عليكم، وإن عدتم إلى الفرار منا عدنا إلى أخذ الطرق عليكم، لترجعوا إلينا.

وقال الوراق: إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى التيسير والقبول.

قال الأستاذ: إن استقمتم في التوبة عدنا في إدامة الفضل والثوبة.

وقيل: إن عدتم إلى الخطأ عدنا إلى الوفاء، ثم بيّن سبحانه أن الفراق يعرف العارفين أصوب الطرق وأقومها في مسالكهم إلى الله بقوله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي: أن القرآن يعرف أهله بنوره أصوب الطريق إلى الله، وتلك الطريقة طريق طاعته التي في سلوكها لسالكها مقام كشف وصاله وظهور جماله، وأنه يهدي للطريقة انصائية في نفسه من حقائقه بأن يرشدهم بظاهره إلى معاني باطنه، ومن معاني باطنه إلى نور حقيقته، ومن نور حقيقته إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى الذات، فالقرآن أسماء ونعوت وأوصاف وصفات، يعرف للعارف الصادق عيون الذات والصفات والأسماء والنعوت والأوصاف وهي أقوم الطريقة؛ لأن العوام يسلكون إليه بأوصافهم، وأهل القرآن يسلكون إليه بصفاته.

إِذَا نَحْنُ أَدْلَجْنَا وَأَنْتَ أَمَامَنَا كَفَى لَطَائِنًا بِرِيَّاكَ هَادِيًا
ويبشر أهله من الذين يتبعونه بمراد الحق أن لهم أجر المشاهدة وكشفها بلا حجاب أبداً.

قال ابن عطاء: القرآن دليل، ولا يدال إلا على الحق، فمن اتبعه قاده إلى الحق، ومن أعرض عنه قاده، الجهل إلى الهلاك.

وقال أبو عثمان في كتابه إلى محمد بن الفضل: من تمسك بالقرآن وفق للزوم الاستقامة؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

﴿وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۚ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَنَاهُ تَفْصِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾: من لم يبلغ أعالي درجات القوم لم يعرف مقامات الدعاء، ومن لم يعرف مقام الدعاء ففي كل وقت يستعمل سوء الأدب؛ لأنه في رسوم الصورة يسأل شيئاً بجهله، وهو سبب خطره قرب مراد لا ينجح له المقصود؛ لأنه عجول لا يصبر حتى يبلغ، ويعرف ما يليق بحاله فيسأل.

قال سهل: أسلم الدعوات الذكر وترك الاختيار في السؤال والدعاء؛ لأن في الذكر الكفاية، وربما يدعو الإنسان، ويسأل ما فيه هلاكه، وهو لا يشعر.

ألا ترى الله يقول: ﴿وَيَذَعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ والذاكر على الدوام التارك للاختيار في الدعاء والسؤال، مبذول له أفضل الرغائب، وساقط عنه آيات السؤال

والاختيار.

قال النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ: من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيه أفضل ما أعطي السائلين»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ۚ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾: الليل والنهار هاهنا مقام المجاهدة والمجاهدة، فالمجاهدة ليل العارفين، والمجاهدة نهار الصديقين، ففي مقام المجاهدة كشف شمس الذات آية نهار المجاهدة، وكشف قمر الصفات آية ليل المجاهدة، فأهل المجاهدة في رؤية شمس الذات، وأهل المجاهدة من الصادقين في رؤية أقمار الصفات؛ لأنهم في ضعف الأحوال من حمل وارد العظمة، ولولا غيبة أنوار الذات عنهم لهلكوا في أول سطوتها، ولو كان إتيان أحدهما كالآخر لهلك العارفون لبقائهم في مشاهدة الذات صرفاً على السرمدية، ولم يصلوا إلى معادن الصفات.

كما قال سبحانه: ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وفضل الحق هاهنا معرفة الصفات، والعيش في مشاهدة الذات، والوقوف على مقامات الدنوى، وأوقات الحالات، بقوله سبحانه: ﴿وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ أي: لتعلموا في محاق أقمار الكواشف، وزيادة كمالاتها بفيض نور الأولية والأخروية أعداد زمان الوصال والفراق، وحساب المقامات والحالات، وتقعوا في دور أدهار الأزال والآباد، وتعرفوا منازل سيارات الأرواح وحركاتها في أبراج أفلاك الوجدانية والفردانية بقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلًا﴾، وهاهنا منازل انقطعت الأوهام في مداركها، وذهب الحسبان عند شوارق أنوارها، وانصرفت العقول عن قلب أسرارها، وفنيت القلوب في حقائق أنوارها، كان لسان القدر ينطق بنطق الأبد على لسان عندليب سكران مورديات ورد العشق شطاح فارس روزبهان البقلى، هذه الأسرار المباركة الممتنعة عرائسها بحجب الغيرة عن غيره أو غير مثله.

واستشهد بيت النوري في هذا المعنى:

لَا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وَدَادِكَ مَنْزِلًا يَتَحِيرُ الْأَلْبَابُ عِنْدَ نَزْوِلِهِ

قال بعضهم: جعلنا الليل والنهار طرفين لإقامة العبودية، جعل أحدهم خلقاً عن الآخر وخليفة عنه، فمن أنفق أوقاته في أناء ليله بما هو مستعبد به فهو زمرة الموفقين، ومن أمهل ساعاته ولم يطالب نفسه، ولم يراع أوقاته مع كل خاطر أو نفس فإنه من المخذولين.

قال الله: ﴿لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في تصحيح العبودية وإخلاص العمل والمعونة

(١) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» (١/١٠٩).

على ذلك من الله ﷻ.

ثم إن الله سبحانه أخبر عن سوابق أحوال الواردين إلى مناهل العبودية والربوبية بقوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، اختار بعضاً في الأزل بالإرادات، واختار بعضاً بالمعاملات، وبعضاً بالحالات، وبعضاً بالمشاهدات، وبعضاً بالمكاشفات، وبعضاً بالمعرفة، وبعضاً بالمحبة، وبعضاً بالشوق، وبعضاً بالرغائب، وبعضاً بالعزائم، وفي كل مقام طائر أحد من السالكين وسمته ألزمته نعوت الربوبية على عنق العبودية، يخرج من مربع عهد الأزل بهذه السمات، ويخرج إلى معاهد الأبد لا يتغير بتلون الملون، ولا بظهور الآيات والبرهان، ولا بطوارق الطاعات والعصيان.

﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وَخَرَجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿٧﴾ أَقْرَأُ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٨﴾ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿٩﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٠﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١١﴾.

قال تعالى: ﴿وَخَرَجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾، فما بدت للأرواح من معالم الرد والقبول بيد، ولصاحبه غداً في الحضرة، فيرى أوله موافقاً للآخر والآخر للأول لا ينقص السوابق من الأواخر، ولا ترتد الأواخر على السوابق.

قال تعالى: ﴿أَقْرَأُ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ هذا مقام الستر والغيرة على أحبائه؛ حتى لا يطلع عليهم الأغيار من الملائكة والجن والإنس، بل هو من مقامات النجوى وسرائر تخفى، وحقائق البلوى، وعجائبات الشكوى.

قال النصر آبادي: ألزمت نفسك أحوالاً، وألزمت أحوالاً، وما ألزمته أشد مما ألزمت نفسك.

قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ من سعادة وشقاوة، ومنهم من ألزم الصبر على مقام المشاهدة، ومنهم من ألزم التمسك بالأدب على بساط القرب، وهذا أشد وأشد.

قال بعضهم: كتاباً تكتبه على نفسك في أيامك وساعاتك، وكتاب يكتب عليك في الأزل، ولا يخالف هذا ذاك ولا ذاك هذا.

قال بعضهم: الكتاب الذي يخرج إليك هو كتاب لسانك قلمه، وريقك مداده وأعضاؤك ومفاصلك قرطاسه، أنت كنت المملي على حفظتك ما زيد فيه ولا نقص منه، ومتى أنكرت من ذلك شيئاً يكون الشاهد فيه منك عليك، قال الله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾.

وقال يحيى بن معاذ: اقرأ كتابك؛ فإنك كنت المملي له.

وقال بعض السلف: محاسبة الأبرار في الدنيا، ومحاسبة الفجار في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾: إذا أراد الله سبحانه خراب الدنيا يأخذ أوليائه منها، ويُبقي أعداءه فيها، فإذا ذهب منها الصديقون الذي يندفع العذاب بدعائهم وتدفع البلايا ببركاتهم يسقط عليهم بعد ذلك قوله الحق بالغضب وهلاكهم، وأيضاً إذا أراد الله أن يخرب قلب المريد سلط عليه عساكر هوى نفسه، وجنود شياطينه؛ حتى يدوروا في أرض القلب، ويخربوها بسنابك خيول الشهوات، وآفات الطبعيات والخطرات، نعوذ بالله منها.

قال بعضهم: أهلكنا خيارها، وأبقينا شرارها.

وقال أبو عثمان: إذا أخرج الله أمر المعاصي من القلوب فإنه يخاف على الخلق إذ ذاك الهلاك^(١).

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (٢) كُلًّا نُمِيتُ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ

(١) المراد من تدمير القرية: تدمير أهلها؛ لأن تدميرهم تابع لتدميرها؛ ألا ترى أن الله أمر جبريل بقلب قري قوم لوط، فقلبها، وهم فيها؛ فهلك، وهلكوا جميعاً، وكذا أصحاب القرية المذكورة في سورة يس، وأطلق التدمير؛ لكون كل منها مدثرة مخصوصة حسبما اقتضتها أعمال أهلها؛ كالطوفان بالنسبة إلى قوم نوح، وكالقلب بالنسبة إلى قوم لوط، وكالريح بالنسبة إلى قوم هود، وخصّ المترفين: أي المنعمين؛ لأن الفقراء تبع لهم، والناس على دين ملوكهم، والسماك يتغير من الرأس كما هو المشهور، فإذا عصى رؤساء القوم؛ لا يبقى لهم، ولأتباعهم حرمة أصلاً على أن الاتباع إن كانوا عصاة أيضاً؛ فهم أسوة لهم في الهلاك، والأسرى الهلاك إليهم بحكم الجوار، وبحكم المداينة، أو السكوت عن الحق، وفيه إشارة إلى قرية القلب ومترفوها هي: أشراف الأعضاء، والقوى؛ كالسمع والبصر، والقلب، فإن الجسد تابع لها، فإن صلحت؛ صلح الجسد، وإن هلك؛ هلك؛ وهذا هو الهلاك المعنوي، والفساد الحقيقي.

رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿١٠﴾

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾: من مال إلى الدنيا أراد حظ الأدنى؛ كأنه استعجل لطلب العاجلة عن الآجلة من خسة طبعه ودناءة همته؛ وذلك من قلة معرفته بزوالها وبلائها والعذاب والحساب من أجلها، فعجل الله بعض مراده له في الدنيا لحرمانه عن الآخرة والدرجات العلى، ولم يكن مظفرًا بمراده أيضًا من مأموله؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾.

قال الواسطي: في ترك الدنيا مشاهدة الآخرة، وفي مشاهدة الآخرة رفض الدنيا، كما أن في مشاهدة التأيد زوال عزة النفس، وفي مطالعة صفات الحق سقوط صفات العبد.

ثم وصف مريد الآخرة بعد تركه للدنيا ولذاتها بأن سعيه مشكور وعمله مبرور بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾، فجعل هاهنا شرطين في إرادة الآخرة: شرط السعي، وشرط الإيمان أي: ينبغي له أن يكون سعيه على نعت مشاهدة الآخرة، ورؤية الغيب واليقين الصادق؛ حتى يكون سعيه مقرونًا برؤية ما وعد الله له من الدرجات الرفيعة والمقامات الشريفة؛ حتى يكون عمله وسعيه على وصف حظ القلب والروح.

وأيضًا معنى قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ عارف بالله وبصفاته؛ عالم بعمله لله، لا يعمل إلا بالعلم، ولا يسعى إلا بالشوق إلى الله وإلى جواره والبقاء في المشاهدة، والسعي المشكور أن ينكشف لصاحبه مشاهدة الحق في سعيه نقدًا في الدنيا، فإن تأثير القبول ظهور أوائل الكرامات، وبروز لطائف أنوار المشاهدات.

قال القاسم: شرط الإرادة بحسن السعاية؛ لأن لكل طائفة إرادة الآخرة وسعيها، وهو الذي يسعى على الاستقامة وما توجه عليه الشريعة، وشرط السعي بالاستقامة، وشرط الاستقامة بالإيمان؛ لأن كل من أراد الآخرة وقصد قصدها فليستقم عليها، رُبَّ قاصِدٍ مستقيمٍ في الظاهر خلعة الإيمان عارية عنده، وكم من ساعٍ حسن السعي غير مقبولٍ فيه سعيه.

وقال بعضهم: السعي في الدنيا بالأبدان، والسعي إلى الآخرة بالقلوب، والسعي إلى الله بالهمم.

وقال أبو حفص: السعي المشكور ما لم يكن مشوبًا برياء ولا سمعة ولا رؤية نفسٍ ولا طلب ثوابٍ، بل يكون خالصًا لوجهه لا يشاركه في ذلك شيءٌ سواه، فذلك السعي المشكور،

ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّ سَاعِي الدُّنْيَا وَسَاعِي الْآخِرَةِ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى جِزَاءٍ سَعِيهِ بِقَدْرِ هِمَّتِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَتُّوْلًا وَهَتُّوْلًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾: وصف عدله سبحانه وتعالى ألا يخيب رجاء كل مؤمن؛ لأن عطاءه غير ممنوع، فجازى الكل بقدر الحمم، فعطاء الدنيا حظ النفوس، وعطاء الآخرة حظ القلوب.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر بن محمد -عليهم السلام-: عطايا الدنيا غفلة من الله، وعطايا الآخرة القربة من الله.

ثُمَّ بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ تَفَاضُلَ الْفَرِيقَيْنِ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: فَضَّلَ الْعَابِدِينَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا بِالطَّاعَاتِ، وَفَضَّلَ الْعَارِفِينَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا بِالْمَعَارِفِ وَالْمَشَاهِدَاتِ، فَالْعِبَادُ فِي الْآخِرَةِ فِي دَرَجَاتٍ الْجَنَانِ مُتَفَاوِتُونَ، وَالْعَارِفُونَ فِي دَرَجَاتٍ وَصَالِ الرَّحْمَنِ مُتَفَاوِتُونَ.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾^(١) تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا^(٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَنًا إِمَّا يَنْتَفِنِ عِنْدَكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْرًا وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا^(٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا^(٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا^(٥) وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا^(٦) إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا^(٧) وَإِذَا مَا تُعْرِضُنَّ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا^(٨)﴾.

قال تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾: صفو الوصال التفات بلا عتاب حصول المراد بلا حساب.

قال ابن عطاء: من تولاه الله بضرب من العناية وتوالت أعماله كلها لله فله فضل الولاية على من دونه.

قال الله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾: فالفضيلة تقع فيما بين الخلق والخلق، لا تكبر عنده الطاعات، ولا تغضبه المخالفات.

قال الواسطي: ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بالمعرفة والإخلاص والتوكل.

وقال في قوله: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾: بدرجات السوابق يصل العبد إلى

الدرجات العلى، وأعظم درجة في الآخرة التخطي إلى بساط القرب ومشاهدة أعلى وأجل.
 قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَنًا﴾: وجب في الأزل للربوبية القديمة العبودية على نعت تجريدها عن رؤية غير الله؛ لأنه كان تعالى في الأزل موصوفًا بالربوبية والأحدية، وحق العبودية لغيره مستحيل بالحقيقة؛ لأن عبودية الحدث للحدث على نعت المجاز، ولا تقع العبودية الخالصة إلا للأزلي الأبدى، والعبودية أفراد القدم عن الحدوث بنعت الإذعان لتصرفه والخضوع بنعت الفناء لعزته، وحديث الوالدين بالإحسان؛ لأنها فعله الخاص، وحرمة فعله في إيجاد خلقه من حرمة صفته، وحرمة صفته كحرمة ذاته، والإحسان للوالدين احترامهما وإجلالهما باحترام الله وإجلاله، وأشياخ الطريقة وآباء أهل الإرادة والإحسان لهم متابعة أمرهم لمحبة الله.

قال بعضهم: العبودية قطع الأرباب وخلع الأسباب، والرجوع إلى الحق بالحقيقة.
 قال أبو عثمان المغربي: من تحقق في العبودية ظهر سره لمشاهدة الغيوب، وأجابته القدرة إلى كل ما يريد.

قوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾: بها في نفوسكم من إجلال الله وتعظيم كبريائه، وشهود النعمة على بساط قربه، ورؤية العقل مشاهدًا أنوار آياته، ومشاهدة الروح ضياء صبح صفاته، وسكون السر بنعت الأنس إلى عظيم سبحات ذاته، ونية بذل الوجود لرضاه والصبر والتمكين في قضائه أن يكونوا صالحين مصلحين للخطرات النفسانية بالأنفاس الروحانية، وتقديس الخليفة بقدس المعرفة، والفرار منه إليه بنعت الفناء فيه، وذلك قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّيِينَ﴾: راجعين منه إليه بنعت الخجل بين يديه وطلب مزيد القربة منه؛ فإنه غفور لمن أتى إليه بنعت التضرع والبكاء والخشوع والتواضع في جلال قدره وعظيم كبريائه.

وفيه نكتة: أن سبحانه ذكر النفوس لا القلوب ولا الأرواح ولا الأسرار ولا العقول، أي: هو أعلم بما في نفوسكم من شرها وسجيتها المائلة إلى الاستكبار والإنكار، والفرار من الطاعة، وهواها إلى المعصية، لذلك قال: إن تكونوا صالحين مائلين عن متابعتها راجعين منها إلى الله.

﴿غَفُورًا﴾ أي: غفورًا لمن أتى إليه بتلك الصفة بنعت الندم على ما سلف من الذنوب طلبًا لمشاهدة الغيوب.

قال ابن عطاء: فيها إيمان لها أو ليس فيها إيمان، إيمان جحود أو إيمان قبول، إيمان تقليد أو إيمان حقيقة ومشاهدة.

قال سهل: أي الذنوب من رجع إليه من عبده غافراً ولهم راحاً.

قال أبو عثمان: الأوب الدعاء.

قال بعضهم: الأواب المتبرئ من حوله وقوته، المعتمد على الله في كل نازلة.

ثم ذكر سبحانه بعد بر انوالدين بر أقباء المعرفة بالحقيقة بعد ما في الآية من رسوم الظواهر، ومساكين المريدين، وأبناء السبيل بقوله: ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، حقوق هؤلاء تربيتهم في الطريقة بذكر الحقائق من المعاملات والأحوال والمعارف والكواشف والعلوم الغيبية لهم، فذوو القربى إخوان المعرفة الذين وصلوا معالي المقامات، والمسكين المريد الصادق الذي سكنه لطف الله عن طلب غير الله، وابن السبيل المحب الصادق، فحق العارف نشر الأسرار، وحق المسكين ذكر الأنوار، وحق المحب ذكر شمائل المحبوب، زيادة لتمكين العارفين، وشوق المحيين، ورغبة المريدين.

وأيضاً: ذو القربى الروح، والمسكين العقل، وابن السبيل القلب، فحق الروح السماع الطيب، والجمال الحسن والطيب والريحان، وحق العقل الفكر والتفكر، وحق القلب الذكر والتذكر.

وأيضاً: حق الروح الفراغة، وحق العقل الطاعة، وحق القلب الاستئناس بالخلوة لطلب المشاهدة، والروح ذو القربى؛ لأنه كان في بدء الأول في القربة والمشاهدة قبل خلق الخلق، والمسكين العقل؛ لأنه فقير من إدراك حقيقة الوجدانية، والقلب ابن السبيل؛ لأنه ينقلب في سبيل الصفات لطلب عرفان الذات.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۚ إِن رَّبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ نَزْقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِن قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيراً ۝ وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ الإشارة في الحقيقة أنه تعالى أدب حبيبه في القبض والبسط والمنع والعطاء، أن القبض والبسط أن يكونا على وفاق الأمر في الخاطرة لا على صورة الرسوم من حيث الظاهر، فربما يقبض من رسم وهو غير مأمور به، وربما يبسط وهو غير مأمور به، فالعارف الصادق خازن الله في أرضه، يقبض ويبسط لأمره فيه، إشارة أن العارف الصادق أحق ما حضر من غيره إذا كان محتاجاً

كانه في سفر الأزل والأبد، ولو أعطي مركبه للبت بلجة عن سير ألف عام، وغيره ليس يساويه في مقام العبودية والمجاهدة: فهو أولى، وهذا كلام ليس من قبيل السخاء والبخل، وليس من سجية الأنبياء والصدّيقين؛ فإن مذهبهم الإيثار والبذل، وما أشرنا إليه حقيقة حكمة المعرفة.

ألا ترى إلى قوله سبحانه كيف أدب حبيبه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ نفسك بالندم محسورًا منقطعًا عن السير في عالمك. وفيه إشارة أخرى، أي: لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك بألا تنشر عند السالكين فضائل المعرفة وحقائق القربة، ولا تبسطها بأن تذكر شيئًا لا يحتملون فيهلكون. قال أبو سعيد القرشي: أراد الله ﷻ من نبيه ﷺ بهذه الأمة ألا يكون قائمًا بشرف البسط والسخاء، ولا قائمًا بنقض المنع والإمساك، وأن يكون قائمًا به في جميع الأحوال. قال بعضهم: لا تبخل بما ليس لك، ولا تمن بالعطاء، فإن الملك لنا على الحقيقة، وأنت القاسم تقسم فيهم حقوقهم، قال النبي ﷺ: «الله يعطي وأنا قاسم»^(١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(٢) وأوفوا الكيل إذا كلمتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلًا^(٣) ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا^(٤) ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا^(٥) كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها^(٦) ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهم ملوما مذخورا^(٧) أفأصفرنكم ربكم بالبين واتخذ من الملائكة إنسا إنكم لتقولون قولا عظيما^(٨) ولقد صرفنا في هذا القرءان ليدذكروا وما يزيدهم إلا نفورا^(٩) قل لو كان معه إله كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلا^(١٠) سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا^(١١) تسبح له السموات والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا^(١٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾: العهد عهد الأزل وقع بين كينونة الأرواح في عالم الأفراح، قبل كون الأشباح بينهما، وبين الحق العهد صدر من الحق

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٢١٦/٦)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (١٤/١).

معها بالآلا يشتغل بغير الله أبداً.

قال: أوفوا بمعاهد الأول؛ فإن ذلك مستوّل عند كل نفس، ومطالب عند كل حركة، فعهد المحب المحبة، وعهد العارف المعرفة، وعهد الموحّد التوحيد، وعهد المريد الإرادة، ولكل عهد رعاية، فعهد المريد بذل الوجود، وعهد المحب الصبر في المفقود، وعهد العارف تبرؤ الهمة عن الدارين، وعهد الموحّد أفراد القدم عن الحدوث والفناء في بقاء الحق.

قال حمدون القصّار: مَنْ ضيع عهود الله عنده فهو لآداب شريعته أضيع؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾.

وقال يحيى بن معاذ: لربك عليك عهدٌ ظاهراً وباطناً، فعهدٌ على الأسرار ألا يشاهد سواه، وعهدٌ على الروح ألا يفارق مقام القربة، وعهدٌ على القلب ألا يفارق الخوف، وعهدٌ على النفس في أداء الفرائض، وعهدٌ على الجوارح في ملازمة الأدب، وترك ركوب المخالفات، والله يقول: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾.

ثم ذكر سبحانه بعد العهد الوفاء في صدق الأعمال والأقوال بقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الإشارة فيه إلى أشباح المعرفة ألا ينقصوا ما عندهم من ذخائر العلوم على المريدين بما يوافق حالهم، وألا يملأوا من نصيحتهم وتأديبهم، ثم يحذر أوساطهم أن يزنوا دعواهم بالقسطاس المستقيم من المعاملات؛ حتى لا تكون دعواهم خالية عن الأعمال والكيل الوافي، الإخلاص والقسطاس المستقيم الصدق من كان في وزن الأعمال وكيل الأحوال مخلصاً صادقاً يعطيه الله لطائف كرمه وجوده ما لا يحصى عددها، ويصف له جميع الخلائق؛ لأنه منصف ينصف مع الله.

قال بعضهم: أوف الكيل؛ فإن وزنك موزونٌ وكيلك مكيلٌ، إن وفيت وُقِّ لك، وإن نقصت نقص عنك^(١).

ثم أدب نبيه ﷺ بالآلا يحكم بما لم ينكشف له بالحقيقة بقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ العارف معاتبٌ مأخوذٌ من حيث الظاهر والباطن، فالظاهر المعاملات، والباطن الحالات، مُطالبٌ بالصدق فيها، لم

(١) قال ابن عجيبة: أمر بالعدل في الميزان المعنوي، وهو وزن الخواطر بالقسطاس الشرعي، فكل خاطر يخطر بالقلب يريد أن يفعله أو يتكلم به، لا يخرج به، حتى يزنه بميزان الشرع، فإن كان فيه نفع أخرجه كما كان، أو غيره، وإن كان فيه ضررٌ بادَرَ إلى محوه من قلبه، قبل أن يصيرهما أو عزمًا، فيعسر رده. البحر المديد (٤/٣٤٩).

يذكر اللسان مع الحواس الأخرى ظاهراً، ولكن في قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تخبر من شيء، لا تعلم بقلبك، ولا ترى بعينيك، ولا تسمع بأذنك، فإنهن مسئولات جميعاً، اللسان مسئول بالدعوى، والعين مسئولة بالنظر بغير الاعتبار، والسمع مسئولة عما تسمع من غير ما ينفع به، والفؤاد مسئول عما يجري عليه من غير ذكر الله.

قال الواسطي: لا تخبر عنا إلا على طريق الحرمة، ولا تتجاوز فيه محل الإذن.

وقال أبو سعيد الخزاز: مَنْ استقرت المعرفة في قلبه فإنه لا يبصر في الدارين سواها، ولا يسمع إلا منه، ولا يشغل إلا به.

وقال الفارسي: قال بعض الحكماء: اطلبوا من العلم حالكم، ومن حالكم يومكم، ومن يومكم ساعتكم، ومن ساعتكم قلوبكم، ومن ذركم مرادكم، ومن مرادكم بغيتكم، حتى تكونوا من الصديقين، واطلبوا في كل هذه الأشياء خطراتكم، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾.

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾: إن الله سبحانه أوجد الخلق بقدرته القديمة الأزلية، والمشيتة السابقة، والإرادة القائمة بذاته وعلمه وحكمته، فخرج الكون من العدم بما ظهر عليها من صفات القدم، فباشر أنوار قدرته الوجود، فأثرت قدرته ومباشرتها في الأشياء الأرواح الحضرتية، والعقول الربانية، والألسنة الجبارية، والمعرفة الأبدية، ورفع الحجاب من بينها وبين معدن القدرة ومصادر الفعل، فشاهدت الأشياء مصادرها، فاهتزت أرواحها بنعت عشقها إلى معدنها، وبكلمة ألسنتها، وتقديس خالقها، وتقديس بارئها وتسبيح صانعها، وذلك من حياة فائضة شائعة من تواتير الحياة الأزلية، فالكل في حياتها قائمة بتلك الحياة مُسَبَّحَةٌ لصانعها بتلك الألسنة، وذلك من استيلاء غواشي أنوار القدرة، وسبحات العظمة عليها؛ فالسماوات تسبح له بلسان العظمة، والأرض تسبح له بلسان القدرة، ومن فيهن يسبح له من ذوات الأرواح، والحياة بالسنة الصفات، والأفعال على قدر مراتبهم، وجميع الأشياء تسبح له بالناميات والجملادات بالظاهر من قول أهل الرسوم لا من قول أهل المعرفة؛ يسبح له بلسان الأوصاف والأسماء والنعوت، والعارفون من بينهم يسبحون له بالألسنة الذاتية؛ لأنهم في شروق شمس الآزال، وأنوار طلوع أقمار الآباد، ولكن لا يعرف تسبيح الجميع إلا من تجلَّى الحق لسره وروحه وعقله وقلبه وصورته بجميع الذات والصفات، وللأشياء السنة روحانية ملكوتية يسبح الحق بها بلغات غيبية، وإشارات أزلية، لا يسمعها إلا أهل شهور الغيب الذين ينطقون بالحق، ويعقلون بالحق، ويعرفون الحق بالحق، وينظرون بالحق إلى الحق، وتصديق ما ذكرنا في تسبيح

الجمادات ما روى أنس بن مالك قال: «كنا عند رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من حصي يسبحن في يد رسول الله ﷺ حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في يد أبي بكر حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في يد عمر فسبحن حتى سمعنا التسبيح، ثم جعلهن في أيدينا فما سبحن في أيدينا»^(١).

والدليل على صدق هذا الحديث قوله تعالى: ﴿يَجِبَالُ أَوِي مَعَهُ﴾ [سبا: ١٠] أي: سبّحي معه، ومعروف أن الجبال سبحن بتسبيح داود عليه السلام.

وعن جعفر بن محمد عن أبيه -عليهما السلام- قال: «مرض رسول الله ﷺ، فأتاه جبريل عليه السلام بطبق فيه رمان وعنب، فأكل النبي ﷺ فسبح، ثم دخل الحسن والحسين فتناولوا منه فسبح العنب والرمان، ثم دخل عليٌّ فتناول منه فسبح أيضاً، ثم دخل رجلٌ من أصحابه فتناول فلم يسبح، فقال جبريل: إني يأكل هذا نبيٌّ أو وصيٌّ أو ولد نبيٍّ»^(٢).

وأصدق التصديق قوله سبحانه في آخر الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ من حلمه وغفرانه عرف المخلوقات كلها نفسه بالصفات القديمة الأزلية الأبدية، ولولا حلمه وغفرانه ما كان الكون، ولم يكن له لسان يذكره، ولكن بكرمه ورحمته وهب الكل من سلطانه وبرهانه لساناً يسبح بحمده، وحده شاملٌ على كل ذرة، وثناؤه في لسان كل ذرة، سبحان الغني المحسن وهب عطاءه العميم والكريم القديم بغير استحقاق من الكون ولا يبالي.

قال أبو عثمان المغربي: المكونات كلها يسبحن الله باختلاف اللغات، ولكن لا يسمع تسبيحها، ولا يفقه عنها ذلك إلا العلماء الربانيون، الذين فتحت أسماع قلوبهم.

﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ لقلة النظر والفكر في ملكوت الأشياء، وعدم الإصغاء إليهم، وإنما يفقه ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾: لا يعاجلكم بترك التسبيح في طلب، كما لا تكبر وإظهار خواصكم، فإن من خواصكم تفقه تسبيحهم وتوحيده كما وحدوه.

﴿غَفُورًا﴾: يغفر لكم غفلتكم وإهمالكم.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ لَعَلَّكَ تُبْقِىَ وَتُحْيِىَ﴾^(١) وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على آذانهم أنفورا^(٢) نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذا هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً^(٣) أنظر كيف ضربوا لك

(١) رواه ابن الجوزي في «العلل» (١/٢٠٧).

(٢) لم أقف عليه.

الْأَمْثَالِ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٦﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿١٧﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ معنى الآية: إذا قرأت القرآن جعلنا بين فهم الكتاب وشرفك المذكور في القرآن مع معاني حقائقه، وبين قلوبهم وعقولهم وأرواحهم حجابًا من غيرتنا، حتى لا يرون بأبصار أسرارهم عرائس الصفات، ولا يسمعون بأذان قلوبهم لطائف حكم الخطاب، وإذا كان عليه السلام قرأ القرآن صار منورًا بنور الصفات، موشحًا بتجليها، مزينًا بحقائقها من حيث كان شربه من سواقي الصفات، وحظّه من مشاهدات الذات، وإذا بلغ إلى ذلك المقامات في قراءته وتلاوته وحسن صورته غار الحق عليه أن ينظر إلى وجهه أحد غيره، ولو رآه أحد بهذا الوصف طاش عقله وطار روحه من هبة الله، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ وإذا استترت بأستار كلامنا صرت مستورًا عن أعين المبطلين، ومحصنًا عن تناول المغضبين والمنكرين، ورُبَّ صادقٍ قرأ من العدو إلى ستر القرآن، فكان مستورًا من جميع الضرر مثل أنه يقول: بسم الله، فيكون مستورًا عن أعين الخلق، وهذا وصف الأخفياء الأتقياء.

قال بعضهم: مَنْ تَحَصَّنَ بِالْحَصَنِ فَهُوَ فِي أَحْسَنِ حَصْنٍ، وَمَنْ تَحَصَّنَ بِكِتَابِهِ فَهُوَ فِي أَحْسَنِ حَصْنٍ، والمضيق لوقته مَنْ تَحَصَّنَ بِعِلْمِهِ أَوْ بِنَفْسِهِ أَوْ بِجَنَسِهِ؛ فيكون هلاكه من موضع أمانه.

وكان أبو يزيد إذا قرأ هذه الآية قال لأصحابه: تدرّون ما ذلك الحجاب؟ هو حجاب الغيرة، قال النبي ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ»^(١).

وتصديق ما ذكرنا في حقيقة الآيتين قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾: إذا ذكر الحق بصفات الحق بنعت الوحدة وإفراد قدمه عن الكون بحيث انفرد الحبيب بفردانية الحبيب، وتوحد بوحدانيتها، واتصف بصفته، وشاهد إفراد ذاته، صار وجوده وحدانيًا ربانيًا ألوهيًا جبروتيًا ملكوتيًا، يزول كل ما قورن به من

(١) رواه البخاري (٤/١٦٩٦)، ومسلم (٤/٢١١٤).

الحدثان، ويفارق منه كل شيطان وسُلطان.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَاسْأَلْهُ يُخْرِجُكَ مِنَ الْغَبْطِ﴾^(١) :
لقصور نظرهم عن إدراك الروحانيات، وقصر همتهم على الجسمانيات، ﴿حِجَابًا مُّسْتَوْرًا﴾ من
الجهل وعمى القلب، فلا يرون حقيقة القارئ وإلا آمنوا، وإنما لا يبصرونك؛ لأنهم لا
يحسبونك إلا هذه الصورة البشرية، لكونهم بدنيين منغمسين في بحر الهولي، محجوبين
بالغواشي الطبيعية، وملابس الصفات النفسانية عن الحق وصفاته وأفعاله؛ إذ لو عرفوا الحق
لعرفوك، ولو عرفوا صفاته لعرفوا كلامه، ولم تكن على قلوبهم أكنة من الغشاوات الطبيعية،
والهيئات البدنية ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾، ولو عرفوا أفعاله لعلموا القراءة، ولم يكن في آذانهم قرء؛
لرسوخ أوساخ التعليقات، ﴿وَلَوْ أَنَّ عَلَى الْأَرْضِ مِائَةَ مِثْقَالٍ مِنْ ذَرَّةٍ مِنْ حَبِّ خَبَثٍ يَرَىٰهُ أَحَدٌ فَأَعْلَاهُ أَكْثَرُ مِنْهَا﴾^(٢) لتشتت أهواؤهم، وتفرقت همهم
في عبادة متعبداتهم من أصنام الجسمانيات، والشهوات، فلا يناسب بواطنهم معنى الوحدة
لتألفها بالكثرة، واحتجابها بها.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣) وَقُلْ
لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّا الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ
عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُزْهِقْكُمْ أَوْ يُنَوِّدْكُمْ أَوْ يُبَدِّلْ مَكَانَكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
وَكِيلًا ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى
بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ
الصُّبُرِ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ
أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿وَأَنْ مِّنْ
قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي
الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا
ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ
أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّهَاءَ الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي
الْقُرْآنِ وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ
عَلَىٰ لِهِنَّ أُخْرَيْنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَخَبِيرُكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ
مِنْهُمْ فَلَانَ جَهَنَّمَ جَزَاءً مِّمَّنْ جَزَاءً مُّؤَفَّورًا ﴿

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ إذا وصل العارفون إلى مشاهدة الحق حين فارقوا من الدنيا وغابوا في جماله وجلاله واستغرقوا في بحار أوليته يناديهم الحق يوم العرض الأكبر: «يا أحبائي وعرفائي وأصفيائي وأوليائي احضروا ساعة مواقف رؤية صنائعي وأفعالي في يوم الحشر، وانظروا آثار ربوبيتي في خلقي»^(١)، فيستجيبوا بلسان الثناء والحمد له وعليه بما وجدوا منه من لطائف قربه ولذائذ جماله وجلاله شبه السكارى، ويقولون: بعزتك وجلال مجدك وكبرياتك ما رأيناك لمحة، اتركنا من مشاهدتك حتى نراك لحظة، وربما عاشوا في جماله ألف سنة، واستقلوا ذلك لعظيم حلاوة وصله، ولذائذ عيشهم في قوله: لم يعرفوا مرور الزمان، وانقلاب الملوان، لذلك قال سبحانه: ﴿وَتَضُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الحق ما أطيب ذلك العيش حيث نسوا مرور أعمال الوصال.

ألا ترى إلى قول القائل:

شهورٌ ينقضينَ وما شمرنا بأنـصافٍ لهـنَّ ولا سرار

وفيه نكتة أخرى: أن العارفين محبوسون في الدنيا، فإذا دعاهم فيستجيبون داعي الحق بحمده، ويقولون: الحمد لله الذي خلّصنا من حبس الهجران، ومكان الحرمان، وجوار الشيطان، وورطات الطغيان، وعلة الزمان والمكان، ومصاحبة الحداث، كأنهم يجيبون داعي الحق مكان الجواب بلبك بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤].

وفيه إشارة: أن الجمهور في ظنون وحسبان من أمر المشيئة وجريان الأقدار، ووقوع الرضا والسخط، فإذا دعاهم الحق إليه ورأوه بوصف الرضا وزوال الخطر هيجتهم رؤيته إلى الحمد والثناء عليه؛ حيث يقع الأمر بخلاف ظنونهم فيه؛ لأن أمر العاشق عند المعشوق أسهل ممّا يظن العاشق، وسبب جوابهم بالحمد أيضًا لا بالتنزيه والتقديس، أو كل ذكر من وصف صفاته؛ لأن جميع ذلك يتعلق بالمعرفة، وهم كانوا في ذلك مقصرين؛ حيث لم يذكروه بالحقيقة، ولم يعرفوه بالحقيقة، ولم يعبدوه بالحقيقة، فلما رأوا جميع الحقائق فانية عند كشف مجد جلاله يقولون في جواب مناداة الحق: الحمد لله بما حمد نفسه في الأزل، حيث امتنع بجلاله عن معرفة كل عارف، وذكر كل ذاك، وبأنه ليس للحدثان إلى معرفته طريق، كان حمدهم ذهابهم عن رؤية أعمالهم وحالاتهم ومعارفهم وعلومهم بالله، فشكروه به؛ لأنهم ما نالوا من مواهبه السنية بغير علة الحديثية.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تتعلق إرادته ببعثكم، فتبعثون في

(١) لم أقف عليه.

أقرب من طرفة عين، حامدين له بحياتكم وعلمكم وقدرتكم وإرادتكم حدًا، واصفين له بالكمال بإظهار هذه الكمالات، ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: في القبور والمضاجع لذهولكم عن ذلك الزمان، كما يجيء في قصة أصحاب الكهف، أو في الحياة الأولى، لاستقصارك إياها بالنسبة إلى الحياة الآخرة، فيتناول اللفظ القيامات الثلاث، إلا أن الآية السابقة ترجح الصغرى.

قال بعضهم: مَنْ أسمع الحق الدعوة وفقه للجواب، وَمَنْ لم يسمعه الدعوة كيف يجب مَنْ لم يسمع!

وقال الجنيد في قوله: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾: يقولون: الحمد لله الذي جعلنا من أهل دعوته.

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُزْحَمِكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ علمه سبحانه كان أزليًا قبل وجود المعلومات، خارجًا عن جميع العلل، اختار في علمه بعلمه وإرادته جواهر أرواح المقربين والعارفين من بين البرية بشرف قبول معرفته واستعداد حمل أمانته، وجعلها في أماكن غيب طائفة في مزار قدمه، وأراها منازل العبودية والامتحان من فيض قهره ولطفه، فحبسها بعضًا في مقام المشاهدة، وحبسها بعضًا في مواقف الوصلة، وحبسها بعضًا في منازل الدنو والقربة، وهو كان عالمًا بشوق الشائقين إليه، وداء المحيين لديه، واستئناس المستأنسين به، واستغراق العارفين في بحار عظمتهم، وحيرة الموحدين في ميادين أزليته، فيرحم بعضهم برؤية حسن الجمال، حتى بقوا معه بنعت عيش السرمدية، ويعذب بعضهم بأن يفنيهم فيه من تسلط سطوات العظمة عليهم حتى لا يدركوا في محل الفناء فيض البقاء، وذلك من غيرته على نفسه، فرحمته على العارفين كشف ووصال بلا حجاب، وعذابه عليهم غلبة النكرة على قلوبهم، وهذا دأبه مع أهل ولايته أبدًا، وحديث سبق العناية؛ حيث اختار أهل وداده بمعرفته، خلصهم من عذاب فرقته، وإذا أراد طرد الغافلين شغلهم بغيره عن الإقبال عليه ورؤيته ورحمته.

قال انقاسم: سبق علمه في الخلق بالرحمة والعذاب، ولا مبدل لما أراد، وقد وسم الخلق بسمة الرحمة والعذاب، ويرجع إلى منتهاه بما قد جرى له في مبتداه.

وقال الأستاذ: سدَّ على كل أحد طريق معرفته بنفسه ليعلق كل قلبه بربه، فجعل العواقب على أربابها مشتبهة، فقال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ قدَّم حديث الرحمة على حديث العذاب، فقال: ﴿إِن يَشَأْ يُزْحَمِكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، وفي ذلك ترجيح للأمل أن يقوى. تصديق ما ذكرنا في حقيقة الآية وتفضيل مقاماتهم بعضًا على بعض قوله سبحانه:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ يَبْنِي سُبْحَانَهُ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَا أُعْطِيَ مَلَائِكَتُهُ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ مَقَامِ الْخَوْفِ وَالْعِبَادَةِ، وَاخْتَارَ لَهُمْ شَرَفَ الْقُرْبَةِ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ وَالْعِبَادَةِ وَالْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا هُوَ أُعْطِيَ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَالطَّرِيقَةِ وَالْحَقِيقَةِ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي مَرَامِ السُّلُوكِ، وَأُعْطِيَ الشَّرِيعَةَ لِلْعُمُومِ، وَالطَّرِيقَةَ لِلْخُصُوصِ، وَالْحَقِيقَةَ لِلْخُصُوصِ الْخُصُوصِ، فَلَمَّا تَمَّ نَظْمُ الْوَلَايَةِ رَفَى الْأَمْرَ إِلَىٰ دَرَجَاتِ النَّبَوَةِ، فَأُعْطِيَ الْمُرْسَلِينَ خَبْرَ غَيْبِ الْغَيْبِ، وَأُعْطِيَ النَّبِيِّينَ خَبْرَ الْغَيْبِ، وَكُشِفَ جَمِيعُ مَرَاتِبِ الْقُرْبَةِ، وَأُدَارَهُمْ فِي مَلَكُوتِهِ بِالْهَمَمِ، وَسِيرَهُمْ فِي مِيَادِينِ جَبْرُوتِهِ بِالْأَرْوَاحِ وَالْأَسْرَارِ، وَفَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الدُّنُو وَدُنُو الدُّنُو، وَالتَّجَلِّيِ وَالتَّدْلِيِ وَالْكَلَامِ وَالْخُطَابِ وَالْمَعَارِفِ وَالْكُوَاشِفِ، فَبَعْضُهُمْ أَهْلُ رُؤْيَا الْقَدَمِ وَخَبْرِهِ، وَبَعْضُهُمْ أَهْلُ رُؤْيَا الْبَقَاءِ وَخَبْرِهِ، وَبَعْضُهُمْ أَهْلُ رُؤْيَا الصِّفَاتِ وَعِلْمِهَا، وَبَعْضُهُمْ أَهْلُ رُؤْيَا الْذَاتِ وَمَعْرِفَتِهِ، فَهَؤُلَاءِ أَهْلُ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فَأَهْلُ الْقَدَمِ أَهْلُ الْأَوَّلِ، وَأَهْلُ الْبَقَاءِ أَهْلُ الْآخِرِ، وَأَهْلُ الصِّفَاتِ أَهْلُ الظَّاهِرِ، وَأَهْلُ الْذَاتِ أَهْلُ الْبَاطِنِ، فَاصْطَفَىٰ آدَمَ ﷺ بِعِلْمِ الْأَسْمَاءِ وَالنَّعَوَاتِ، وَمُبَاشَرَةِ الصِّفَةِ، وَتَجَلِّيِ الْذَاتِ، فَصَارَ فِي مَحَلِّ عَيْنِ الْجَمْعِ، لِقَوْلِهِ ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ ﷺ عَلَىٰ صُورَتِهِ»^(١)، وَاصْطَفَىٰ نُوحًا ﷺ بِالسُّلْطَانَةِ وَالْمُعْجِزَةِ وَإِجَابَةِ الدَّعْوَةِ، وَاصْطَفَىٰ الْخَلِيلَ ﷺ بِالْحُلَّةِ وَالسَّمَاعِ وَمَقَامِ الْإِلْتِبَاسِ؛ حَيْثُ قَالَ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]، وَإِفْرَادِ الْقَدَمِ عَنِ الْحُدُوثِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، وَاصْطَفَىٰ مُوسَىٰ ﷺ بِالْخُطَابِ الْأَصْلِيِّ وَسَمَاعِ الْكَلَامِ الْأَزْلِيِّ وَالتَّجَلِّيِ، وَاصْطَفَىٰ عِيسَى ﷺ بِدَرَجَةِ الْقُدُسِ، وَجَعَلَهُ رُوحَ الْقُدُسِ مِنْ كَلِمَتِهِ الْعَلِيَّةِ الْأَزْلِيَّةِ، وَاصْطَفَىٰ دَاوُدَ ﷺ بِالزُّبُورِ، وَالَّذِي فِيهِ بِنَاءُ الْذَاتِ وَالصِّفَاتِ، وَأَعْطَاهُ مَقَامَ الْعَشْقِ وَحَسَنَ الصَّوْتِ الَّذِي مِنْ مَزَامِيرِ الصِّفَاتِ وَأَلْحَانِ بِلَابِلِ الْقَدَمِ، وَاصْطَفَىٰ سُلَيْمَانَ ﷺ بِالْمُلْكِ وَالتَّمَكُّنِ، وَاصْطَفَىٰ يُوسُفَ ﷺ بِكِسْوَةِ حَسَنِ جَمَالِهِ الَّذِي أَشْرَقَ فِي وَجْهِهِ مِنْ طُلُوعِ صَبْحِ الصِّفَةِ فِي عَالَمِ الْفِعْلِ، وَاصْطَفَىٰ مُحَمَّدًا ﷺ بِجَمِيعِ مَا أُعْطَاهُ إِيَّاهُمْ، وَخَصَّهُ بِالْمَعْرَاجِ، وَالدِّينِ، وَالتَّجَلِّيِ، وَالتَّدْلِيِ، وَالْمَحَبَّةِ الْكُبْرَى، وَالْمَجْلِسِ الْأَعْلَى، وَالْمَقَامِ الْأَدْنَى؛ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَرُمِيَ بِقَوْسِ الْأَزْلِ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ إِلَى الْجُمْهُورِ، وَرُمِيَ مِنْ قَوْسِ الْأَبَدِ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ لَهُ، فَبَقِيَ بَيْنَ الْقَوْسَيْنِ بَعْدَ ذَهَابِ الْكُونَيْنِ، فَصَارَ هَدْنًا بِقَوْسِ قَابِ قَوْسَيْنِ؛ لِأَنَّ هُنَاكَ لَا يَلِيقُ إِلَّا

(١) رواه البخاري (٢٢٩٩/٥)، ومسلم (٢٠١٧/٤).

صاحب الرفيق الأعلى، والمخير عن مقام الأدنى، المذكور اسمه بعلة محمد سيد الورى ﷺ بعدد ذرات ما بين العرش إلى الثرى.

قال محمد بن الفضل: تفضيل الأنبياء بالخصائص كالخلة والكلام والمعراج وغير ذلك، فضل البعض منهم على بعض، وفضل محمدًا ﷺ على الجميع، ألا تراه يقول: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(١)، كيف أفتخر بهذا وأنا بائن منهم بحالي، وأقف مع الله بحسن الأدب؟ لو كنت مفتخرًا لافتخرت بالحق والقرب والدنو منه، فلما لم أفتخر بمحل الدنو والقرب كيف أفتخر بسادة الأجناس.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ» ردَّ الله بهذه الآية رغام التغير على أنوف المبطلين، الذين يشيرون إلى غيره بالعبودية من الملائكة والأنبياء، مثل عيسى ﷺ وعزير وبعض من مؤمني الجن، وهؤلاء الذين يشير إليهم الظلمة بأنهم معبودون، فإنهم على باب كبرياء الأول يعجزون تحت أنوار عظمتهم، حتى يصيروا في حد الفناء من عظمة الله وجلاله، يطلبون وسيلة قربة من الله تشفعهم عنده؛ لأنهم يخافون من سلطان قهره، ويطمعون في كشف جماله بقوله: «وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ»، وأخص الوسيلة كرمه القديم وإحسانه العميم، ثم بعد ذلك أقرب الوسيلة إليه من كان معرفته به أكثر، وخوفه منه أوفر، ومقام الوسيلة مقام الشفاعة، وتلك خاصة لمحمد ﷺ وهي المقام المحمود، وكل شفاعة منه تتشعب إلى غيره، وهو أقرب الوسائل إلى الله، كان الكل يجعلونه وسيلة إلى الله الأنبياء والملائكة وغيرهم.

ووصف الله طلاب هذه الوسيلة بالخوف والرجاء، والخوف صدر من أنوار عظمتهم، والرجاء صدر من أنوار جماله، فالصادق يطير إلى الحق بجناح نور الجمال والجلال، وهما وسيلتاها منه له إليه يقربانه من الله، فينظر إلى الجلال فيفنى، وينظر إلى الجمال فيبقى، وبهما نظام العبودية، وعرفان الربوبية.

قال سهل: الرجاء والخوف زمامان على الإنسان، فإذا استويا دامت له أحواله، وإذا رجح أحدهما بطل الآخر.

ألا ترى إلى النبي ﷺ يقول: «لو وُزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا»^(٢).

قال بعضهم: رجاء الرحمة هو طلب الوصول إلى الرحيم، وخوف العذاب هو الاستعاذة من قطعه، فلا عذاب أشد من ذلك، ما سهل رجاء الرحمة في الظاهر الجنة، وفي

(١) رواه ابن ماجه (٢/١٤٤٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٢/١٢) بنحوه.

الحقيقة حسن المعرفة بالله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ الكرامات للنفوس على مرتبتين: الأولى: لها لطمأنتها في إيمانها بالله، والأخرى: لها لامتناعها عن معصية الله، رؤية آيات العظمة للنفس تخويف، وللعقل تحذير، وللقلب خشية، وللروح ترويح واستئناس، وللسر إجلال وتعظيم، وللسر معرفة وتوحيد ويقين، وشاهده الذات بعد الصفة.

قال الحارث المحاسبي: الآيات التي يظهرها الله في عباده رحمة على السابقين، وتنبيه للمقتصدين، وتخويف للعاصين.

سئل أحمد بن حنبل عن هذه الآيات: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾؟ قال: موعظة وتحذير، والآيات هي الشباب والكهولة والشيبة، وتقلب الأحوال بك لعلك تتغير بحال أو تتعظ في وقت.

﴿وَأَسْتَفْزِرُ مَنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ نَحْيُكَ وَرَجْلُكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِذُّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ١٠٠ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ ١٠١ ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَعْتَبَرُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ١٠٢ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ ١٠٣ ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ١٠٤ ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِمِ تَبِعًا﴾ ١٠٥ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ١٠٦.

﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ إلى آخره تمكن الشيطان من إغواء العباد على أقسام؛ لأن الاستعدادات متفاوتة، فمن كان ضعيف الاستعداد استفزه أي: استخفه بصوته يكفيه، وموسه وهمس بل هاجسه، وله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ﴾ إشارة الحقيقة مع العارف إذا وقع في بحر الديمومية والأزلية، واستغرق في طوفان الأولية، وفني في سطوات الألوهية، تبرأ مما له من الكرامات، والولايات، والفراسات، والمقامات، والحالات، والمكاشفات، والمعارف، ودعاوي الاتحاد والاتصاف، ويلتجئ منه إليه، فلما خرج من تلك الأحوال الرفيعة إلى مقاماته الشريفة رجع إلى رؤية الأحوال والمقامات، فيدعي ما كان مدعيًا

من معرفة الإلوهية، وهكذا حال من خرج من عنده الأسد إذا كان في أجمة، لكن تفحص حاله عند الأسد.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْنَاكَ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ وإذا رجعنا إلى حال العبودية فإن صدق المعرفة هناك الاستقامة فيها، والتساوي في رؤية النعماء والبلوى.

قال ابن عطاء: ليس بخالص لله من لا يكون في حاله الرجاء مع الله كحال الشدة، ومن يلتجئ إلى غيره في أحوال الشدائد، وهو من العبيد السوء الذي لا يقوّمه إلا الأدب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ كرامته سابقة على كون الخلق جميعاً؛ لأنها من صفاته واختياره ومشيتته الأولية؛ أوجد الخلق برحمته، وخلق آدم وذريته بكرامته الخلق كلهم في حيز الكرامة الرحمة للعموم والكرامة للخصوص، خلق الكل آدم وذريته وخلق آدم وذريته لنفسه؛ لذلك قال: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] جعل آدم عليه السلام خليفته، وجعل ذريته خلفاء أبيهم، الملائكة والجن في خدمتهم، والأمر والنهي والخطاب معهم، والكتاب الذي أنزل إليهم، والجنة والنار والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم وجميع الآيات خلق لهم، والخلق كلهم طفيل لهم.

ألا ترى يقول لحبيبه ﷺ: «لولاك لما خلقت الكون»^(١).

ومن «بَنِي آدَمَ» بالنطق والتمييز، والعقل والمعرفة.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يسّرنا لهم أسباب المعاش، والمعاد بالسير في طلبها فيها، وتحصيلها.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: المركبات التي لم ترزق غيرهم من المخلوقات.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ أي: ماعدا الذوات المقدسة من الملائكة الأعلى.

وأما أفضلية بعض الناس كالأنبياء على الملائكة المقربين فليست من جهة كونهم بني آدم، فإنهم من تلك الحيثية لا يتجاوزن مقام العقل؛ بل من جهة السر المودعة فيهم المشار إليه بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وهو ما أعد لذلك البعض من المعرفة الإلهية التامة بواسطة الجمعية التي فيه أي: مقام الوحدة، وحيث لا ليس هو بهذا

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢٢٧/٥) بنحوه.

الاعتبار من بني آدم.

كما قيل:

فقال من أنت قلت أنت فلي فيه معنى شاهد يابوني
بل هو عين المكرم المعروف كما قيل:
رَأَيْتُ رَبِّي بِعَيْنِ رَبِّي فقال من أنت قلت أنت

وقد فني ابن آدم في هذا المقام، وما بقي منه شيء، وإلا فما للتراب ورب الأرباب.
أو: ولقد كرمنا بني آدم بالتقريب ومعرفة التوحيد، وحملناهم في بر عالم الأجساد،
وبحر عالم الأرواح بتيسيره فيها لتركيبه منهما، وإرقائه عنهما في طلب الكمال، ورزقناهم من
طيبات العلوم والمعارف، وفضلناهم على الجمل الغفير ممن خلقنا أي: جميع المخلوقات على أن
تكون من البيان، والمبالغة في تعظيمه بوصف المفضل عليهم بالكثرة، وتنكير الوصف
وتقديمه على الموصوف أي: كثير وأي كثير وهو جميع مخلوقاتنا؛ لدلالة من على العموم.
﴿تَفْصِيلًا﴾ تَامًّا بَيْنًا.

ولهم كرامة الظاهر، وهي تسوية خلقهم، وظرافة صورتهم، وحسن فطرتهم، وجمال
وجوههم؛ حيث خلق فيها السمع والأبصار والألسنة واستواء القامة، وحسن المشي
والبطش، واستماع الكلام والتكلم باللسان، والرؤية بالبصر، وجميع ذلك ميراث فطرة آدم
التي صدرت من حسن اصطناع صفته الذي قال: «خلقت بيدي»^(١).

فنور وجوههم من معدن نور صفته، فأنوار الصفات نورت آدم ﷺ وذريته، فيكونون
من حيث الصفات والهيئات والحسن والجمال متصفين متخلقين بالصفات؛ لذلك قال ﷺ:
«خلق الله آدم على صورته»^(٢) من حيث التخلق لا من حيث التشبه.

ولهم كرامة الباطن، وهي العقل والقلب والروح والنفس والسر، وفي هذه الجنود
خزائن ربوبيته، فالنفس مع جنود قهره، والعقل مع جنود لطفه، والقلب مع جنود تجلي
صفاته، والروح مع جنود تجلي ذاته، والسر مستغرق في علوم أسرارهِ، فالكل مكرمة بكشوف
الصفات ممن له استعداد رؤية الصفات، ومن له استعداد رؤية الذات فهو في مشاهدة الذات؛
فبكرامته عرّف العقول آياته، وعرّف النفوس عبوديته، وعرّف القلوب صفاته، وعرّف
الأرواح جلال ذاته، وعرّف الأسرار وعلوم أسرارهِ، فأعطى العارفين من سمعه أسماعًا،
ومن بصره أبصارًا، ومن كلامه خطابًا، ومن علمه قلوبًا، ومن سره أسرارًا، ومن أنوار صفاته

(١) رواه البخاري (٢٦٩٥/٦).

(٢) تقدم تخريجه.

أرواحًا، ومن أنوار أفعاله عقولاً، فخلقهم بخلقه، ووصفهم بوصفه، فمن حيث الاتصاف متصفون، ومن حيث الاتحاد متحدون، ومن حيث العبودية هم في الربوبية يطرون بأجنحة الأزلية في ظلال حيزوم القدم مع الحق إلى أبد الأبد، فأى كرامة أشرف مما ذكرت يا كريم بن الكريم، يا آدم بن آدم، يا عارف القلب تعرف من أنت يفنى الناسوت في اللاهوت، ويبقى اللاهوت للناسوت وخاطب اللاهوت مع اللاهوت، العارفون ينظرون إليك من مجالس سراق مجد الكبرياء، ويفرحون بك في عالم البقاء، طيب الله وقتك من أين أنت وأين مأواك، من حيث لا يعرفونك الكل، ثم إن الله سبحانه أسقط العلل والأسباب من مواضع تفضيلهم من حيث كرمهم قبله بكرامته ومحبه السابقة لهم، ثم بين عقب كرامته بأنه بعزه وجلاله جعلهم في بر الصفات بمراكب عناياته، وفي بحر اللذات بسفن محبه وكفاياته.

قال: ﴿وَحَمَلْنَهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أدارهم في براري النعوت والصفات بأنوارها، وأجراهم في بحار الذات بسفن أنوارها، فاستفادوا من براري الصفات معادن المعارف، واستفادوا من بحار الذات أصداف جواهر الكواشف، حملهم في بر العبودية بمراكب المعرفة، وحملهم في بحر الربوبية بمراكب المحبة، وحملهم في بر المجاهدات بمراكب الشريعة، وحملهم في بحر المشاهدات بمراكب الحقيقة، ثم رزق أسرارهم موائد العلوم الغيبية، ورزق أرواحهم فيض الوصلة، ورزق قلوبهم لطائف القربة، ورزق عقولهم حقائق الحكمة، ورزق أشباحهم فيض عناصر فعله عن متابعة عنصر الخليفة بتواثر مياه قدرته، وظلال ليالي رحمته، وأنوار شمس كفايته، وصفاء أقمار كلاءته، فهم على خوان الرحمانية وموائد الكرامة.

قال: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ثم قربهم منه من البرية، وكساهم حلل المغفرة، وجمعهم في دار الوصلة، وأدار الكون له بالخدمة قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ابتدأهم بالبر قبل الطاعات، بالإجابة قبل الدعاء، وبالعطاء قبل السؤال، كفاهم الكل من حوائجهم؛ ليكونوا لمن له الكل وببده كفاية الكل.

سئل ذو النون في قوله: ﴿كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾؟ قال: بحسن الصوت.

وقال الجنيد: بالفهم عن الله.

وقيل: بالخلق، وقيل: بتقويم الخلقة واستواء القامة.

وقال الواسطي: بأن سخرنا لهم الكون وما فيه؛ لئلا يكونوا في تسخير شيء، ويتفرغوا إلى عبادة ربهم.

وقال جعفر: بالمعرفة.

وقال بعضهم: معنى البر النفس، ومعنى البحر القلب، فمن حمله في النفس فقد أكرمه بنور التدبير، ومن حمله في القلب فقد أكرمه بنور التأيد، فمن لم يكن له نور التأيد وكان له نور التدبير يكون هلاكه عن قريب.

وقال الواسطي: البر ما أظهر من النعوت، والبحر ما استتر من الحقائق.

وقال: في مشاهدة أبده قسمت الوقتين الفصل والوصل، وهو البر والبحر.

وقال أبو عثمان: الرزق الطيب هو الحلال.

وقال: فضّلناهم بالمعرفة على جميع الخلائق.

وقال أبو حفص: بأن بصرناهم عيوب أنفسهم.

وقال الجنيد: بإصابة الفراسة.

قال السيارى: فضّلنا العلماء على الجهال بالعلم بالله وأحكامه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِسمِهِمْ فَمَنْ أُوِّتِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدِيْمَةِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَمَرَةً وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَاسٍ بِإِسمِهِمْ﴾ إمام كل عارف، مقامه مع الله من حيث الأحوال والخطاب والقربة والوصال والمعارف والكواشف والعلوم والحكم، فيدعو المحبين إلى منازل المحبة، ويدعو المشتاقين إلى منازل الشوق، ويدعو العاشقين إلى منازل العشق، ويدعو العارفين إلى منازل المعرفة، ويدعو الموحدين إلى منازل التوحيد، وأيضا يدعو المريدين بأسماء مشايخهم، ويدعوهم إلى منازلهم.

قال ابن عطاء: يوصل كل مريد إلى مراده وكل محب إلى محبوبه، وكل مدّع إلى دعواه، وكل متمنٍ إلى ما كان يتمنى، ثم هو سبحانه بيّن أن من لم يعرفه في الدنيا لا يعرفه في الآخرة، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَدِيْمَةِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾: من سمع في الدنيا ذكره ولم يره بنعت ظهور الصفات في الآيات لن يراه بوصف كشف الذات، ومن عمي عن معرفة العبودية في الدنيا، فهو في الآخرة أعمى عن معرفة الربوبية، ومن عمي في الدنيا عن معرفة الأولياء فهو في الآخرة أعمى عن رؤية منازلهم عند

الله، وهناك هم أضلُّ سبيلاً؛ لأن أرباءه في أكناف غيبه ولا يراهم غيرهم.

قال الجنيذ: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ عن مشاهدة الفضل ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عن مشاهدة الذات.

وقال أيضاً: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ عن مشاهدة بره ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عن رؤية وصال قربه.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا﴾ إلى آخره أي: نحضر ﴿كُلَّ﴾ طائفة من الأمم مع شاهدهم الذي يحضرهم، ويتوجهون إليه من المال، ويعرفونه سواء كان في صورة نبي آمنوا به، كما ذكر في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، أو إمام اقتدوا به، أو دين أو كتاب، أو شئت على أن تكون الباء بمعنى مع أو ننسبهم إلى إمامهم، وندعوهم باسمه لكونه هو الغالب عليهم، وعلى أمرهم المستعلي محبتهم إياه على سائر محباتهم.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينًا﴾ أي: من جهة العقل الذي هو أقوى جانيه، وبعث في صورة السعداء.

﴿فَأُولَئِكَ يَقرءونَ كِتَابَهُمْ﴾^(١) دون غيرهم؛ لاستعدادهم للقراءة والفهم؛ لأن الذي أوتي كتابه بشماله أي: من جهة النفس التي هي أضعف جانيه لا يقدر على قراءة كتابه، وإن كان مقراً بذهاب عقله وفراط حيرته.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا ينقصون من صور أعمالهم، وكمالاتهم وأخلاقهم شيئاً قليلاً.

﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ عن الاهتداء إلى الحق.

﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ كذلك.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مما هنا؛ لأن له في هذه الحياة آلات وأدوات وأسباباً يمكنه الاهتداء بها، وهو في مقام الكسب باقي الاستعداد إن كان ولم يبق هناك شيء من ذلك.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلخ هو من باب التلوينات التي تحدث لأرباب القلوب؛ إذ النقصان الموجب للعذاب يقابل الكمال الموجب للذة، فكلما كان الاستعداد أتم والإدراك أقوى كانت المرتبة في الكمال والسعادة اللذة أقوى، فكذا ما يقابله من النقص والشقاوة أبعد.

(١) أي: قراءة ظاهرة سرورين ويتفعمون بها فيه من الحسنات ولم يذكر الأشقياء وإن كانوا يقرأون كتبهم أيضاً لأنهم إذا قرأوا ما فيها لم فصحوها به خوفاً وحياءاً وليس لهم شيء من الحسنات يتفعمون به.

وأسفل، والألم أشد.

﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ٧٦ ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ٧٧ ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٧٨ ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ٧٩ ﴿

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ إِنَّ الله سبحانه خلق روح نبيه لما خلقها قبل كون الكون، فأدارها في بسط ملك الأزل والأبد، فعلم من رؤية الصفات علوم غيب الغيب، وعرف علم المجهول الذي صدر من لطفيات الأزل وقهريات الأزل، وعلم في علم العلم أن طريق القهر واللفظ متاهما وصول عين الذات، ولم ير الفراق في أصل القدم بينهما، فلما عرف الطريقين الواضحين من القدم إلى القدم إلى أبد الأبد بنعت غير تغاير الصفة، وعلم بعد أن كان في محل الرسالة حقيقة طريق الوصول إلى الحق بهما، ولم ير الكفار مستعدين لطريق اللطف، ووصلهم إلى الحق به كاد بسر سره من علمه بعلم المجهول أن يدعوهم بتلك الطريقة إلى الحق؛ لأن المسالك غير معتبرة، إنما الاعتبار بالوصول فلما علم الحق سبحانه أنه يكاد أن يفشي سر سره المكنون في غيب غيبه نهاه عن ذلك؛ لئلا يتتهك ستر الربوبية، ولا تضحل أحكام العبودية بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ أن كدت تميل إلى دعوتهم بطريق المجهول إلى الحق، وذلك حركة سر سر نفس النفس التي غواص قاموس بحر انقهریات، ولا تخف: وقل: يا عارف، فإن النبي ﷺ كان في علم ما كان مع تلك النفس التي هي لباس قهر الربوبية، ولا يجوز للعارف الصادق أن يكون خاليًا عنها؛ لأنه يسلك إلى الحق بسر القهر وسر اللطف، ومن لم يسلك إليه بهذين الطريقين لم يكن كاملاً في معرفته، فالعتاب من جهة تحرك سلسلة تلك الأسرار: وهو بجلاله محركها تعريفاً وامتحاناً، التعريف حق العارف، والمعرفة حق المعروف، يعصمهم الله من هتك تلك الأسرار للأغيار.

قال الحسين: خلق الله الخلق على علم منه بهم، وهو علم العلم، وجعل النبي ﷺ أعظم الخلق خلقاً، وأقربهم زلفى، فجعله الداعي إليه والمبين عنه به يصلون إلى الله ظاهراً وباطناً وعاجلاً وآجلاً، فثبت الملك بالعلم، وثبت العلم بالنبي، وثبت النبي ﷺ به، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ بنا.

وقال عمرو بن عثمان المكي: قال ﴿لَقَدْ كِدْتَ﴾ وهو الشيء بين الشئين، وهو الخروج من ذا إلى ذا، ولم يخرج من ذا، ولم يدخل في ذا، وكان واقفاً بأمر عظيم، وشأن

عجيب، وعلم غريب، وهو نزاهة نفسه، وعظيم علمه بربه، فبلغ هذا الخطاب به من الخوف والوجل من ربه؛ حتى كاد أن يساوي خوف الواقعين للمخالفة، وهذا الفرق بين الخواص والعوام أنهم يخافون في الهمة ما لا يخافه العوام في الواقعة.

وقال ابن عطاء: عاتب الأنبياء بعد مباشرة الزلاّت، وعاتب نبينا ﷺ قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتباهًا وتحفظًا لشرائط المحبة، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إذ أدلكت الشمس من قهر الجبارية، فسجد في دلوكلها لأنوار عظمة الجبار في تلك الساعة، فأمره بسجوده والقيام بين يديه موافقة للشمس في سجودها لخالقها عند كشف عظمتها، فإن ذلك الوقت وقت خاصة لكشف العظمة، وهكذا في وقت العصر، فكأنها في وقت دلوكلها في الركوع، وفي وقت العصر في السجود إلى وقت غروبها، فإذا غربت وجاءت غسق الليل، ثم هناك غلبة سطوات العظمة، فيسجد له الليل، وتدور النجوم في سجودها إلى وقت الفجر، فإذا طلع الفجر سجد له عمود الصبح الذي لم يكن من الليل والنهار، وفي ذلك الوقت طلوع صبح الجمال والجلال، وهناك يسجدون له الأرواح والأجسام لغلبة روح قدسه وأنسه عليها، وهناك شهود الحق بوصف صفاته.

ألا ترى كيف قال: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ الشاهد ذاته، والمشهود صفاته، وهذه الأوقات تدل على الإخبار بحفظ الأوقات على السرمدية، وحضور القلب في مشاهد الغيوب.

قال بعضهم: القيام في بعض الأسحار مشهودة من صاحبه، وشاهدة عليه.

وقال الأستاذ: الصلاة بالبدن مؤقتة، والمواصلات بالسر والقلب مرمدة، فإذا فرغ من حفظ أوقات الليل والنهار على حبيبه بيديه المكاشفات الصفاتية حفظ أيضًا وقت كشوف جلال ذاته له بقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا

مَحْمُودًا﴿ المقصود من تهجد الليل: كشف جمال ذاته للمصلين في جوف الليل، وذلك المقام المحمود.

و﴿عَسَى﴾ ها هنا مقام الرجاء ينكشف أنوار جلال ذاته لقلوب العارفين العاشقين في أجواف الليل التي هناك تُسَكَّب عبراتهم، وتُصَعَّق زفراتهم، يرونه به لا بتهجدهم، هيجهم إلى مقامات الأنس لكشف القدس، فإذا بعثوا هنالك ينسون أنفسهم ويتضرعون بين يديه فيكون عليه، ويسألون عنه رحمة الكافية الكافة.

قال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَضْحَكُ فِي وَجْهِهِ الْمَصْلِينَ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»^(١).

قال الأستاذ: المقام المحمود هو المجالسة في حال الشهود.

ويقال: هو الشفاعة لأهل الكبائر.

ثم علمه دعاء الوسيلة منه إليه بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾ أي: أدخلني في بحر قدمك بنعت الفناء والتجريد عن غيرك وصدق المحبة؛ لأن هناك مدخل الصدق؛ حيث لا يبقى مني شيء غيرك، وأخرجني بحر الفناء بنعت البقاء حتى أكون باقياً معك في مشاهداتك، فإن هناك مخرج صدق؛ حيث لا يبقى معي غيرك، وأبسنني من أنوار سلطان عزتك قميص الاستقامة؛ حتى لا أكون فانياً نيك، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾.

وأيضاً: أدخلني مدخل صدق العبودية، وأخرجني مخرج صدق الربوبية، واجعل لي من لدنك قوة الاتصاف والاتحاد من سلطان كبريائك.

قال سهل: أدخلني في تبليغ الرسالة مدخل صدق ألا يكون لي ميلٌ إلى أحدٍ، ولا أقصر في حدود التبليغ، وشروط وأخرجني من ذلك على السلامة وطلب رضاك منه والموافقة، ﴿وَأَجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيْرًا﴾ زيتني بزينة جبروتك ليكون الغالب على سلطان الحق لا سلطان الهوى.

قال جعفر بن محمد عليهما السلام: أدخلني فيها على حدِّ الرضا، وأخرجني عنها وأنت عني راضٍ.

وقال أيضاً: طلب التولية أن يكون هو المتولي، أي: أدخلني ميدان معرفتك، وأخرجني من مشاهدة المعرفة إلى مشاهدة الذات.

وقال النواسطي: قال المعلّى في شرفه يعني: محمداً ﷺ ﴿أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥٥) بنحوه.

﴿وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ﴾، فأظهر محمد ﷺ من نفسه صدق اللجوء بصدق الفاقة بين يديه، وبصدق اللجوء تزينت الأسرار.

وقال فارس: السلطان هاهنا سلطان على نفسه بقمع هواه، فيلزم جميعها بشاهد الهيبة، فيهلك نفسه بسلطان الوجدانية، وينصر على عدوه بحسن نظر الله له في معاونته، وحمله عن رؤية هواه.

وقال سهل: لساناً ينطلق عنك، ولا ينطلق عن غيرك، فأجاب الله دعوته، وقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ٣].

وقال جعفر عليه السلام: حقيقة الفاقة صدق استقامة المدخل فاقة العبودية، والمخرج سعة الربوبية.

وقال الأستاذ: إدخال الصدق أن يكون دخوله في الأشياء بالله لا لغيره، وإخراج الصدق أن يكون خروجه عن الأشياء بالله لا لغيره.

﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ حتى لا ألحظ دخولي ولا خروجي، فلما استقام النبي ﷺ في جميع المعاني أمره الحق أن يخبر الخلق بأن الحق قد ظهر ظهوراً لا شكوك فيه، وارتفع الإبهام والظلام.

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ الحق هو الحق جل وعز، والباطل الكون، والحق العلم، والباطل الجهل، والحق المعرفة، والباطل النفس والهوى، والحق ما بدا من نور تجلي الحق وإلهامه، والباطل هواجس النفس ووساوس الشيطان، فإذا بدت أنوار سلطان بداهة المكاشفة تنمحي آثار النفس وإلقاء العدو.

وقال فارس: الحق ما يملك على سبيل الحقيقة، والباطل ما يشق عليك أمرك، ويفرق عليك وقتك.

ويقال: الحق من الخواطر ما دُعي إلى الله، والباطل ما دُعي إلى غير الله، ومن الحق ما جاء.

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ اعلم أن الصلاة على خمسة أقسام: صلاة المواصلة والمناغة في مقام الخفاء، وصلاة الشهود في مقام الروح، وصلاة المناجات في مقام السر، وصلاة الحضور في مقام القلب، وصلاة المطاوعة والانقياد في مقام النفس، فذلوك الشمس هو علامة زوال شمس الوحدة عن الاستواء على وجود العبد بالفناء والمحض، فإنه لا صلاة في حالة الاستواء؛ إذ الصلاة عمل يستدعى وجوداً، وفي هذه الحالة لا وجود للعبد حتى يصلى كما ذكر في تأويل قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

ألا ترى الشارع ﷺ كيف نهى عن الصلاة وقت الاستواء، فإما عند الزوال إذا حدث ظل وجود العبد سواء عند الاحتجاب بالخلق حالة الفرق قبل الجمع، وعند البقاء حالة الفرق بعد الجمع، فالصلاة واجبة.

﴿إِلَى غَسَقٍ﴾ ليل النفس، ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ فجر القلب، فأول الصلاة والطفها صلاة المواصلة والمناغاة، وأفضلها وأشرفها صلاة الشهود للروح المشار إليها بصلاة العصر، كما فسرت الصلاة الوسطى أي: الفضلى في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] بها، وأرجاها وأخفاها صلاة السر بالمناجاة أول وقت الاحتجاب بظهور القلب؛ لسرعة انقضاء وقتها؛ ولهذا استحب التخفيف في صلاة المغرب في القراءة وغيرها؛ لكونها علامة لها، وأزجر الصلاة للشيطان وأوفرها تنوير الباطن الإنسان صلاة الحضور للقلب المومناً إليها بقرآن الفجر، فإنها في وقت تجليات أنوار الصفات، ونزول المكاشفات، ولهذا استحب التكثّر في جماعة صلاة الصبح، وأكد استحباب الجماعة فيها خاصة وتطويل القراءة.

وقال تعالى: ﴿إِنْ قُرْءَانُ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي: محضوراً بحضور ملائكة الليل والنهار، إشارة إلى نزول صفات القلب وأنوارها، وذهاب صفات النفس وزوالها، وأشدّها تشبهاً للنفس وتطويغاً لها صلاة النفس للطمأنينة والثبات؛ ولهذا سن فيما جعل آية لها من صلاة العشاء السكوت بعدها حتى النوم إلا بذكر الله، وحيث أمكن للشيطان سبيل إلى الوسوسة استحب فيما جعل علامة لها الجهر كصلاة النفس والقلب والسر للزجر، ولا مدخل في مقام الروح والخفاء فأمر بالإخفات.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي: خصص بعض الليل بالتهجد.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: زيادة على ما فرض خاصة بك؛ لكونه علامة مقام النفس، فيجب تخصيص بزياد الطاعة لزيادة احتياج هذا المقام إلى الصلاة بالنسبة إلى سائر المقامات، فيقتدي بك السالكون من أمتك في تطويج نفوسهم، ويقوي تمكّنك في مقام الاستقامة، كما قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١).

﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أي: في مقام يجب على الكل حمده، وهو مقام ختم الولاية بظهور المهدي، فإن خاتم النبوة في مقام محمود أي: الوجود الممكن.

﴿كَانَ﴾ فانياً في الأصل لا شيئاً ثابتاً، طراً عليه الفناء ففني، بل الفاني فاني في

(١) رواه البخاري (١/٣٨٠)، ومسلم (٤/٢١٧١).

الأزل، والباقي باقٍ لم يزل، وإنما احتجبنا بتوهم فاسد باطل فكشف.

﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ العقل القرآني الجامع بالتدرج نجوم تفاصيل العقل الفرقاني نجمًا، فنجماً على الوجود الحقاني على حسب ظهور الصفات أي: نفصل ما في ذاتك مجملًا مكنونًا تفصيلًا بارزًا ظاهرًا عليك؛ ليكون ﴿شِفَاءً﴾ لأمراض قلوب المستعدين المؤمنين بالغيب من أمتك، كالجهل والشك والنفاق وعمى القلب والغل والحقْد والحسد وأمثالها، فنزكيهم.

﴿وَرَحْمَةً﴾ تفيدهم الكمالات، والفضائل، وتحليهم المعارف.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ الناقصين استعدادهم بالردائل والحجب الظلمانية، الباخسين حظوظهم من الكمال بالهيئات البدنية والصفات النفسانية.

﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ بزيادة ظهور أنفسهم بصفات كالإنكار والعناد والمكابرة واللجاج والرياء والنفاق، منضمة إلى ما لهم من الشك والجهل والعمى والغمة.

قوله سبحانه: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) القرآن خطابه مع أحبائه المرضى من سقم محبته، ومن داء شوقه، ومن رجاء عشقه، ومن أثقال معرفته، وعظم توحيده، فالقرآن شفاء كل مريض منه، ولكل واحد منهم شفاؤه من حيث داءه، فخطاب التشوق شفاء شوق الشائقين، وخطاب المحبة شفاء محبة المحبين، وخطاب المعرفة شفاء جرح قلوب العارفين، وخطاب التوحيد شفاء آلام جراحة أرواح الموحدين، فيسقيهم مفرح الصفات من تسنيم عيون تجلي الذات، فيصححهم من لوعة الفراق بفنون الترياق، وهو رحمة للمؤمنين من حيث الظواهر؛ لأجل المعاملات، ورحمة خاصة للعارفين من حيث الحالات.

قال الأستاذ: القرآن شفاء من داء الجهل للعلماء، وشفاء من داء الشك للمؤمنين، وشفاء من داء النكرة للعارفين، وشفاء من لواعج الاشتياق للمحبين، وشفاء من داء القنوط للمريدين والقاصدين.

(١) قدّم الشفاء؛ لأنه إشارة إلى سورة الفاتحة، والآيات المتعلقة بالأدعية، ولذا قيّد بكونه شفاء للمؤمن؛ فإن غير المؤمن لا يجده شفاء بحسب اعتقاده، وإن كان هو في نفس الأمر شفاء، كما أن التوحيد حاصل في نفس الأمر سواء عرفوه أم لا، وإنما الكلام في كلمته، والاعتقاد له، فمن لم يتكلم بكلمته، ولم يعتقده؛ لم يكن التوحيد حاصلًا بالنسبة إليه: أي بالفعل كمن عنده غسل، وهو ينكر حلاوته؛ لغلبة الإصفرار على مزاجه، أو كان الضرب ينكر نور الشمس، وهو ظاهر.

وأنشدوا:

وكتابك حولي لا يفارق مضجعي وفيها شفاء للذي أنا كاتمٌ
﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَقَابُحًا بَيْنَهُ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ۖ قُلْ
كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ۖ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَقَابُحًا بَيْنَهُ﴾ استنشق منه رائحة الاتحاد، فإنه لما أنعم على العارف بأن جعله متصفاً بصفاته استبشر بروح الأنس، ومباشرة نور القدس، ورأى الحق بالحق في نفس فعله، وهو فعله، ادعى من سكر الحال الأنائية، وأعرض عن مقام العبودية في حال الوجد بغير تكلف البشرية، ورعونات النفس، فإذا رآه الله بتلك الصفة أمسك تلك اللطيفة عنه بالتدريج؛ حتى صيره محجوباً عن تلك الحالة، فيصير آيساً من رجعته إلى مقامه خجلاً عن دعواه.

قال الواسطي: أعرض بالنعمة عن المنعم، والنعمة العظمى الهداية والإيمان والمعرفة والولاية، والعبد لا ينفك من رؤية ذلك من نفسه، وهذا هو الإعراض عن المنعم بأن يستحلي بطاعته، ويتلذذ بها أو يسكن إليها أو يختص بها من النار.

وقال الأستاذ: إذا أزلنا عنه موجبات الخوف، وأرخينا له حبل الإمهال، وهياً له أسباب الرفاهية اعتراه مغاليط النسيان، واستهوته دواعي العصيان، فأعرض عن الشكر، وتباعد عن بساط الوفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ الفطرة مختلفة على اختلاف المقامات، ففطرة العارفين خلقت لمقامات المعرفة، وفطرة الموحدين فطرت لمقامات التوحيد، وفطرة المحبين فطرت لمقامات المحبة، وفطرة المتوسطين من أهل الإيمان والإيقان فطرت لفطرة المعاملات والشرائع والدين، وفطرة أهل المشاهدة فطرت على شهود الصفات وتجلي الذات، فكلٌّ من هؤلاء يعمل على العبودية لزيادة عرفان الربوبية على شاكلة فطرته، فيبدو منه مزيد قرباته ومداناته ومكاشفاته ومشاهداته، وكل من أسرع شوقه إلى الله وفناء في الله فهو أقرب منه، قال تعالى: ﴿فَرِيكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾.

قال ابن عطاء: يعمل على ما في سره؛ لأن النبي ﷺ قال: «اعملوا؛ فكلٌ ميسرٌ لما خلق له»^(١).

قال جعفر: كلٌّ يُظهر مكنون ما أودع فيه من الخير والشر.

(١) رواه البخاري (٤/١٨٩١)، ومسلم (٤/٢٠٤٠).

قال الأستاذ: ما تحب الضمائر يلوح على السرائر، فمن صفا عن الكدورة جوهره لا يفوح منها إلا نشر مناقبه، ومن طبع على الكدورة طينته فلا يعبق بمن يحوم حوله إلا ريح مسالبه.

يقال: حب الغبراء لا ينبت غصن العود.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بنعمة ظاهرة ﴿أَعْرَضَ﴾؛ لوقوفه مع النفس والبدن، وكون القوى البدنية متناهية، لا تتدبر الأمور الغير المتناهية الممكنة الوقوع من سبب النعمة، وردّها عند عدمها وسائر الغير، ولا يرى إلا العاجل وتكبره لاستعلاء نفسه على القلب وظهوره بأنانيته وتفر عنه.

﴿وَنَقًا﴾ أي: بعد عن الحق في جانب النفس، وطوى جنبه معرضًا، وكذا في جانب الشر إذا يش؛ لاحتجابه عن القادر قدرته، ولو نظر بعين البصيرة شاهد قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين، ويتيقن في الحالة الأولى أن الشكر رباط النعم، وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم فشكر وصبر، وعلم أن المنعم قدر فلم يعرض عند النعمة بطرًا وشرًا خائفًا زوالها غير غافل عن المنعم، ولم ييأس عند النعمة جزعًا وضجرًا راجيًا كشفها مراعيًا لجانب المبلى.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ أي: خليقته وملكته الغالبة عليه من مقامه، فمن كان مقامه النفس، وشاكلته مقتضى طباعها عمل ما ذكرنا من الأعراض واليأس، ومن كان مقامه القلب، وشاكلته السجية الفاضلة عمل بمقتضاها الشكر والصبر.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾: من العاملين، عامل الخير مقتضى سجية القلب، وعامل الشر بمقتضى طبيعة النفس فيجازهما بحسب أعمالهما.

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٥٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا^(٥٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا^(٥٧) قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا^(٥٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا^(٥٩) وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى تَنْفُجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا^(٦٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْسَ فَتَنْفُجِرَ أَلَا تَنْهَرُ خَلْقَهَا تَنْفَجِيرًا^(٦١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا^(٦٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا^(٦٣) وَمَا

مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٣٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُمَشُّونَ مُطَمِّئِينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٣٩﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٤٠﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمَبًا وَنُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٤١﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَسْتَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ إِنَّ اللَّهَ سبحانه أبهم علم الروح في ظاهر رسوم العلم، وبينها لأهل المكاشفة من الأنبياء والأولياء، بأنه أراهم الروح بأوصافها في المكاشفة، وذلك سره عندهم، وهم يكتُمونه لقلّة إدراك أفهام الخلق، ولا يعلمون ماهية وجودها وكيفية خلقها قط، لأن الله قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، ولا يطلع على ماهيتها إلا صانعها، وكيف يعلم الخلق ماهيتها وهي كانت معدومة، كونها الحق سبحانه بعد أن ظهر صفاته وذاته بنعت التجلي والكشف عيانًا بلا حجاب العدم، فأوجد الروح بقدرته القائمة، وإرادته الأزلية حين شاهد الصفات الذات، وشاهد الذات الصفات، وشاهد كل صفة كل صفة، وشاهد الصفات الفعل، وشاهد الفعل العدم، فباشر الموجود المعدوم، فظهر الروح من تحت مباشرة القدم العدم، موجودة بوجود الذات والصفات، وشهودها بنعت الظهور، كاملة جامعة متخلقة بخلق الحق، متصفة بصفاته، فبلغت إلى محل يحیی بفيض مباشرة فعله جميع الكون، ففي كل موضع يقع عكسه يحیی بحياة تامة كاملة لا موت فيها، ومن خاصتها أنها تميل إلى كل حسن ومستحسن وكل صوت طيب، وكل رائحة طيبة لحسن جوهرها وروح وجودها، ظاهرها غيب الله، وباطنها سر الله، مصورة بصورة آدم، وخلق الله آدم على صورتها، فإذا أراد الله خلق آدم أحضر روحه فصور صورته بصورة الروح؛ لذلك قال عليه السلام إشارة وإيهامًا: «خلق الله آدم على صورته»^(١)؛ لذلك قال: على صورته؛ لأن الروح مؤنثة سماعية.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١) أي: ليس من عالم الخلق؛ حتى يمكن تعريفه للظاهرين البدينين الذين لا يتجاوزون إدراكهم عن الحس والمحسوس بالتشبيه ببعض ما شعروا به والتوصيف، بل من عالم الأمر أي: الإبداع الذي هو عالم الذوات المجردة عن الهيولي والجواهر المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين، فلا يمكنكم إدراكه أيها المحجوبون بالكون؛ لقصور إدراككم، وعملكم عنه.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو علم المحسوسات، وذلك شيء نزر حقير بالنسبة إلى علوم الله تعالى المناسبة لاستعدادهم وإدراكهم كتفجير العيون من الأرض، وجنة النخيل والأعناب وإسقاط السماء عليهم كسفًا والرقى فيها والإتيان بالملائكة، وسائر الممتنعات المتخيلة، وأجيبوا بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: ما أمكن نزول الملائكة مع كونهم نفوسًا مجردة على الهيئة الملكية في الأرض، بل لو نزلت لم ينزلوا إلا متجسدين كما قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، وإلا لم يمكنكم إدراكهم، فبقيتم على إنكاركم، وإذا كانوا مجسدين ما صدقتم كونهم ملائكة، فشأنكم الإنكار على الحاليين، بل على أي حال كان كإنكار الخفاش ضوء الشمس.

(١) تعريف له: بأنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق؛ كنه لما تعلّق بعالم الخلق؛ واشتبه على الخلق أنه ما هو، ولم يعرفوا أنه هو الأمر الإبداعي الذي لم يكن له تعلّق بالأشياء المنفوخ هو فيها؛ لكمال تجرّده في نفسه؛ لأنه العقل المحض إلا تعلّق التدبير والتصرف، وهو المراد بالظهور في قول: مَنْ قَالَ: سبحان مَنْ أظهر الأشياء؛ وهو عينها؛ ولذا لم يقل: سبحان مَنْ خلق الأشياء؛ وهو عينها، ومن ثمّ زلت فيه بعض الأقدام، وقال ما قال من أسوء الكلام، ثم إن هذا التعلّق لا ينقطع أبدًا من الأشياء؛ لأن التجليات لا تنقلب العدم البتة، وإن دارت في الأطوار المختلفة مثلاً: إن الروح متعلّق بالإنسان مادام حيًّا، فإذا مات؛ تعلّق بعناصره إلى أن ينشئه الله ثانيًا، وإنما تمنّى الكافر أن يكون ترابًا؛ لأن التراب أبعد عن الحضرة من حيث إنه من عالم القوة والإنسان أقرب منها من حيث إنه من عالم الفعل، ولا شك أن العذاب على مَنْ كذب وتولى لا على مَنْ أعطاه الله خلقه فهدي فافهم جدًّا، ثم إنه ﷺ إنما توقّف في الجواب، وانتظر الوحي الإلهي مع أن علمه حاضر عنده، وهو مرثي له ملكوت السماوات والأرض، كما أن الجواب عن أمر الله أقوى من الجواب عن أمر نفسه؛ لأن الوجه الخاص تابع للوجه العام؛ فاقضى الأدب الإلهي ألا يتكلّم إلا بالحق من كل الوجوه؛ فظهر من هذا التقرير سرُّ قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهو أنهم لو كانوا أوتوا من العلم كثيرًا؛ لما احتاجوا إلى السؤال عن أمر الروح؛ فعلم أنهم جاهلون به لاحتجابهم بالغواشي البشرية أنه ﷺ عالم به لأنه أقوى روحًا من عيسى ﷺ؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي أن عيسى روح مبتدأ من روح محمد ﷺ بل من الروح الأمين؛ لأنه هو النافع، ومن ثم كان الحضرة النبوية جدًّا للحضرة العيسوية، فاعرف جدًّا.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بمقتضى العناية الأزلية في الفطرة الأولى بنوره.

﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ خاصة دون غيره.

﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ بمنع ذلك النور عنه.

﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ﴾ أنصاراً يهدونه.

﴿مِنْ دُونِهِ﴾ ويحفظونه من قهره.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: ناكسي الرؤوس؛ لانجذابهم إلى الجهة السفلية، أو على وجوداتهم وذاتهم التي كانوا عليها في الدنيا كقوله: كما تعيشون تموتون، أو كما تموتون تبعثون؛ إذ الوجه يعبر به عن الذات الموجودة مع جميع عوارضها ولوازمها أي: على الحالة الأولى من غير زيادة ونقصان.

﴿عُمَيًّا﴾ عن الهدى كما كانوا في الحياة الأولى.

﴿وَبَنَكُمَا﴾ عن قول الحق لعدم إدراكهم المعنى المراد بالنطق؛ إذ ليسوا ذوي قلوب يفهم بها ويفقهه فكيف التعبير عما لم يفهم؟.

﴿وَصُمًّا﴾ عن سماع المعقول؛ لعدم الفهم.

أيضاً: فلا يؤثر فيهم موجب الهداية لا من جهة الفهم من الله تعالى بالإلهام، ولا من طريق السمع من كلام الناس، ولا من طريق البصر بالاعتبار.

﴿كُلَّمَا حَبَّتْ ذُرَّتُهُمْ سَعِيرًا﴾ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا

حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦]، بل أبلغ منه ذلك بسبب احتجاجهم عن صفاتنا خصوصاً قدرتنا على البعث وإنكارهم له أنكروا، وما استدلوا بخلق السماوات والأرض على القدرة.

قال ابن عباس: الروح خلق من خلق الله، صورها على صورة بني آدم، وما نزل من السماء تلك إلا ومعه واحد من الروح.

وقال أبو صالح: الروح كهيئة الإنسان، وليست بإنسان.

قال مجاهد: الأرواح على صورة بني آدم، لهم أيدي وأرجل ورؤوس، يأكلون الطعام وليسوا بملائكة.

وما ذكرنا فهو أقل من قليل القليل، الذي قال سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

قَلِيلًا﴾.

قال بعضهم: الروح شعاع الحقيقة، تختلف أثارها في الأجساد.
وقال بعضهم: الروح لطيفة تسري من الله ﷻ إلى أماكن معروفة، لا يعبر عنه بأكثر من موجودها بـ"يجاد غيره".

وقال الواسطي: لما خلق الله أرواح الأكابر رذها بمعرفته بها، فأسقط عنها معرفتها به، وأسدى إليها علمه بها، فأسقط عنها ما علمت منه، فمعرفتها معرفة الحق إياها، وعلمها علم الحق بها، فصورها بوجه إياها على محابها.

قيل: الروح لم تخرج من الكون؛ لأنها لو أخرجت من الكون لكان عليها الذل، فقيل: من أي شيء أخرجت؟ من بين جماله وقدس جلاله بملاحظة الإشارة، وغشاها بجماله ورداها بحسنه، واستمالها بسلامه، وحياتها بكلامه، فهي معتقة من ذل ﴿كُنْ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وسئل أبو سعيد الخزاز: عن الروح مخلوقة هي؟ قال: نعم، ولولا ذاك لما أقرت بالربوبية حين قالت: بلى، والروح هي التي أوقعت على البدن اسم الحياة، وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل متعطلاً لا حجة عليه ولا له.

سئل الواسطي عن الأرواح: أين كان مكانها حين أظهرها؟ فقال: إن الأرواح خلقها وقبضها قبل الأجساد، أين كانت صار ما عاين عياناً؛ لأن الدنيا والآخرة عند الأرواح سواء.
﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ ١٥٠ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَنَسِيَ نَاسٍ مِنْهَا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَأَذِّنَ لَهُ مِنْهَا لَئِيْلًا إِنَّهُ كَنُزُّورٌ ١٥١ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يُسُودُنِي مُوسَى مَسْحُورًا ١٥٢ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَاحِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُثَبَّرًا ١٥٣ فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِيزَهُمْ مِنْ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ١٥٤ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٥٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أخبر سبحانه عن سجية النفس الأمانة الإنسانية أنها خلقت بخيلة حريصة على الدنيا، وجمعها ومنعها لعميها عن رؤية الآخرة وبقائها، وعن معرفة الدنيا وفنائها، وهذه النفس إذا قورنت بالروح الصادقة العاشقة، والعقل القدسي، والقلب الملكوتي، والسر الجبروتي تذوب عن خلقها وتزول عن بخلها، وصارت ساكنة عن الحرص، سخية بالبدن، وهذه نفس الأولياء، ونفس الأنبياء خلقت سخية غير حريصة، ونفس العامة

بقيت على حال الفطرة إلا نادراً، فإن الله سبحانه يخلق في الأحنين كافراً سخيّاً ومؤمناً بخيلاً.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ﴾ لوقوفكم مع صفات نفوسكم التي من لوازمها الشح الجبلي؛ لكون إدراكها مقصوراً على ما يدرك بالحس من الأمور المادية المحصورة، واحتجابها عن البركات الغير المتناهية والرحمة الواسعة الغير المنقطعة التي لا تدرك إلا عند اكتحال البصيرة بنور الهداية، فتخشى نفادها وانقطاعها.

قال حمدون: أخبر الله عن حقيقة طباع الخلق، فقال: لو ملكتم ما أملكه من فنون الرحمة وخزائن الخير لغلب عليكم سوء طباعكم في الشح والبخل.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ﴾ الآيات التسع: ملاحظة عينه، وحسن وجهه، وحل لسانه، وشرح صدره، وهيبته من الله قد علاه، وانبساطه، وغر بدنه، واستجابة الدعوة بقوله: ﴿رَبَّنَا أَطْمِئِنَّ عَلَىٰ أَمْوَالِنَا﴾ [يونس: ٨٨]، والشرعية المجموعة.

وأيضاً: فلق البحر، وانقلاب عصاه، ويده البيضاء، ومقام التجلي، وسماع كلام الصرف، وغلبة الشوق عليه، والمن والسلوى، وانفجار الحجر بالماء، وإحراق الذهب بالكيماء.

قال جعفر عليه السلام: من الآيات التي خصّه الله بها الاصطناع، وإلقاء المحبة عليه، والكلام والثبات في محل الخطاب، والحفظ في اليم، واليد البيضاء، وعطاء الألواح.

وقال ابن عطاء: من الآيات حمل قوة الخطاب في المشاهدة، والمراجعة في طلب الرؤية، وهذه من أعظم الآيات.

﴿وَيَا لِحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٦٠﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ﴿١٦١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَا لِحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ﴾ أي: بحق الربوبية على العبودية أنزلنا القرآن على قلوب الصديقين والمقربين؛ ليعرفهم ذاتنا وصفاتنا الأزلية الأبدية، ويدور أسرارهم في عالم الغيوب لترى أسرارنا، وخزائن ملكنا، وعجائب قدرتنا في جميع الذرات؛ لأن القرآن مفاتيح الذات والصفات، وخزائن الملك والملكوت، وبحق العبودية نزل القرآن ليعرفهم منازلنا ومقاماتها من الصدق والإخلاص وجميع المعاملات؛ لتسري على بحارها الأرواح القدسية، والقلوب الروحانية، والعقول الصافية، والأبدان المقدسة، لعرفان مكان الخضوع والفناء في الحق.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ لأهله، وحامله بحسن القبول واليقين والمعرفة

والتمكين.

﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن تقاعد عن أمره، ولم يعرف مكانه.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي: ما أنزلنا القرآن إلا بعد زوال بشرية النبي ﷺ بالكلية في مقام الفناء، وانتفاء الحدثان عن وجه القدم، وانقشاع ظلمة الإمكان عن سبحات الوجه الواجب الباقي بالفرق الثاني؛ ليكون له محل وجودي، فما كان إنزاله إلا ظهور أحكام التفاصيل من عين الجمع وجدوه مطابقاً لما اعتقدوه، فإن الاعتقاد والحق لا يكون إلا واحداً.

قال جعفر عليه السلام: الحق أنزل على قلوب خواصه من مكنون فوائده، وعجائب بره، ولطائف صنعه، ما نور بهم أسرارهم، وطهر بها قلوبهم، وزين بها جوارحهم، وبالحق نزل عليهم هذه اللطائف.

وقال ابن عطاء: مبشراً لمن أقبل عليك، ونذيراً لمن أعرض عنك.

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِمِةٍ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أراد بـ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أوتوا المعرفة، وأوتوا الأرواح الناطقة بالحق العارفة بالحق، العالمة على الحق، في بدء أمرها قبل الكون، ومن قبل ظهور الشرائع والعبودية، سامعة للحق من الحق بلا واسطة ولا حجاب، ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بعد كونهم في الأشباح تكون معرجة من محبة الله، متحركة بشوق الله، مستروحة بلذة خطاب الله، عارفة بمراده، خاضعة لأمره، إذا سمعوا كلام الحق استلذوا محبته في قلوبهم، فيهيجهم إلى بذل الوجود والخضوع بين يدي جبروته، فلا حيلة لهم إلا وضع وجوههم على التراب خنوعاً لجبروته، ومعرفةً بعظم ملكوته، ويذكرون الله وينزهونه ويقدسونه عن الأضداد والأنداد، وعن الشرك والشريك في ملك ربوبيته، وذلك قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا﴾.

ثم زاد في وصفهم بالخوف عنه وإجلال جلاله بنعت البكاء والخشية بقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ بكاءً من شوقه إلى جماله، وحباً للقاءه، وتعظيماً لعظمته، ما أطيب هذا البكاء، وما ألد هذا الخشوع، بكاءً من شوقه إليه، يبكون من فقدان في الوجدان، ومن الوجدان في فقدان، ومن الحضور في الغيبة، ومن الغيبة إلى الحضور، والسرور بالشهود، وحسن الإقبال عليه، وخوف إعراضه عنهم.

وأنشدوا في هذا المعنى:

يا هلال السماء كطرف كليل فإذا ما بدا أضواء طرفيه
كنت أبكي علي منه فلما أن تولى بكيت منه عليه

﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾: باللين والانقياد لحكمه لتأثرهم به، وحسن تلقيهم لقبوله.
قال سهل: لا يؤثر عليه سماع القرآن، فإن العبد إذا سمع القرآن خضع سره لسماعه،
وأنا قلبه بالبراهين الصادقة، وزين جوارحه بالتذلل والانقياد.

وقال أبو يعقوب السوسي: البكاء على أنواع، بكاء من الله، وهو أن يبكي شفقة لما
جرى عليه من الحق في الأزل من السعادة والشقاوة، وبكاء على الله، وهو أن يبكي حسرة
وتحسراً على ما يفوته من الحق ومن حظه منه، وبكاء لله، وهو البكاء عند ذكره وقربه ووعده
ووعيده، وبكاء بالله، وهو يبكي بلا حظ منه في بكائه.

وقال القاسم: البكاء على وجوه، بكاء الجهال على ما جهلوا، وبكاء العلماء على ما
قصروا، وبكاء الصالحين مخافة القوت، وبكاء الأئمة مخافة السبق، وبكاء الفرسان من أرباب
القلوب للهية والخشية وتواتر الأنوار، ولا بكاء للموحددين.

وقال الأستاذ: السماع مؤثر في قلوب قوم، محير لأسرار آخرين، فتأثير السماع في قلوب
العلماء بالتبصير، وتأثير السماع في أسماع الموحدين بالتحجير، فيبصر العلماء بصحة الاستدلال،
ويحير الموحدين في شهود الجمال والجلال.

﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا
بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٨﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا
تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ إن الله سبحانه دعا عباده إلى معرفة
الاسمين الخاصين، اللذين فيها أسرار جميع الأسماء والصفات والذات والنعوت والأفعال،
فالله اسمه، وهو اسم عين جمع الجمع، والرحمن اسم عين الجمع، فالرحمن مندرج تحت اسم
الله؛ لأنه عين الكل، وإذا قلت الله ذكرت عين الكل، فالقول خبر، والخبر أثر، والأثر ذكر،
والذكر فكر، والفكر وقوع نور العقل، ونور العقل مقرون بنور الصفة، ونور الصفة مقرون
بنور الذات، فإذا سميته ذكرته، وإذا ذكرته فليت الصورة في فعله بنعت الخشوع، وإذا فليت
الصورة ذكره العقل، ففني العقل في الاسم والنعت، وإذا فني العقل ذكره القلب بالصفة

والوصف، وفني القلب في الصفة، وإذا فني القلب ذكره الروح بالذات، ففنت الروح في القدم، وإذا فنت الروح ذكره السر بباطن العلم، ففي السر في الغيب، وذكره سر السر في غيب غيبه، فلم يبق في البين رسم ولا اسم ولا وصف من حيث العبودية، وبقي الاسم، والمسمى واحد في واحد.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ﴾ بالفناء في الذات الجامعة لجميع الصفات.

﴿أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ بالفناء في الصفة التي هي أم الصفات.

﴿أَيُّهَا مَا﴾ طلبت من هذين المقامين لست هناك بموجود، ولا لك بقية ولا اسم ولا عين ولا أثر؛ إذ الرحمن لا يصلح اسمًا لغير تلك الذات، ولا يمكن ثبوت تلك الصفة أي: الرحمة الرحمانية لغيرها، فلا يلزم وجود البقية بخلاف سائر الأسماء والصفات.

﴿فَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ كلها في هذين المقامين لا لك.

﴿وَلَا تَجْهَن﴾ في صلاة الشهود بإظهار صفة الصلاة عن نفسك، فيؤذن بالطغيان ظهور الأنانية.

﴿وَلَا تُخَافُ بِهِمَا﴾ غاية الإخفات، فيؤذن بالانطماس في محل الفناء دون الرجوع إلى مقام البقاء، فلا يمكن لأحد الاقتداء بك.

﴿وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ يدل على الاستقامة ولزوم سيرة العدالة في عالم الكثرة، وملازمة الصراط المستقيم بالحق^(١).

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فإذا كان العبد في قوله: «الله» هكذا أو في قوله: «الرحمن» هكذا فهو مصدر صفة القدم والبقاء، وهو مصدر القدرة والحياة، فإذا قال: «الله» يفنى الكل، وإذا قال: «الرحمن» يبقى الكل، من حيث الاتصاف والاتحاد، فالاتصاف بالرحمانية يكون، والاتحاد بالألوهية يكون.

قال الحسين: ما دعا الله أحد قط إلا إيمانًا، فأما دعوة حقيقة فلا.

قال الواسطي: أسماؤه لا تدخل تحت الحصر، وذاته ليس بمشار إليه، ولا بموصوف بصفة حقيقية، إلا بصفة المدح والحق، وهو الخارج عن الأوهام والأفهام، فأنتى له النعوت والصفات!

(١) أي: طريقًا وسطًا بين الإيمان والكف، ولا واسط، إذ الحق لا يختلف، فإن الإيمان بالله إنما يتم برسله وتصديقهم فيما بلغوا عنه، تفصيلًا وإجمالًا، فالكافر ببعض الكافر بالكل في الضلال. انظر: البحر المديد (٢/ ١٠).

وقال الأستاذ: من عظيم نعمته سبحانه على أوليائه تنزيههم بأساريهم في رياض ذكره بتعداد أسماء الحسنى، فينقلبون من روضة إلى روضة، ومن مأنس إلى مأنس.
ويقال: الأغنياء ترددهم في بساتينهم وتنزههم في منابت رياحينهم، والفقراء تنزههم في مشاهدة تسبيحهم، يسترحون إلى ما يلوح لأسرارهم من كشوفات جماله وجلاله.
﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: أظهر الكمالات الإلهية والصفات الرحمانية التي لا تكون إلا للذات الأحدية.

﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ أي: لم تكن علة الوجود من جنسه؛ لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه، ممكناً بالذات، معدوماً بالحقيقة، فكيف يكون من جنس الموجود حقاً الواجب بذاته من جميع الوجوه؟

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ رُءُوسٌ﴾ من يساويه في قوة القهر والمملكة من الشريك في الملك؛ وإلا لكانا مشتركين في الوجود والحقيقة، فامتياز كل واحد منهما عن الآخر لا بد وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبية، فلزم تركيبها فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين.

وأيضاً: فإن لم يستقلا بالتأثير لم يكن أحدهما إلهاً، وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه، فلا شريك له.

وإن استقلا جميعاً لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد إن فعلاً معاً وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر رضي بفعله أو لم يرض.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ أي: لم يكن له ناصر علة كان أو جزء علة تقويه وتنصره من ذلة الانفعال والعدم، وإلا لم يكن إلهاً واجباً بل ممكناً؛ لتكون حبيباً قائماً به لا بنفسك.

﴿وَكَبِيرَةٌ﴾ من أن يتقيد بصفة دون أخرى، وصورة غير أخرى، أو يلحقه شيء من هذه النقائص، فينحصر في وجود خاص، تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

﴿تَكْبِيرًا﴾ لا يقدر قدره، ولا يعرف كنهه، لامتناع وجود شيء غيره يفضل عليه وينسب إليه، بل كل ما يتصور ويعقل، ولا تكبر غيره بهذا التكبير.

ثم إن الله سبحانه أمر حبيبه وصفيه ﷺ بأن يحمده؛ لأنه كان أهل المدح والحمد بالحقيقة لا غير، أمره بحمده بأن أخبره عن تنزيه قدمه عن إشارة كل مبتدئ إلى ابتدائه؛ لأن ابتداءه منزّه عن كل ابتداء، فإن ابتداء قدمه هو القدم، وقدم القدم منزّه عن حصر الزمن، وقدم قدمه مع تنزيهه عن العدد، وعلة الابتداء لم يكن محلاً للحوادث بقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ

وَلَدًّا، بدأ الكل من حواشي حرفية النون وكافه، فكافه ونونه منزّه عن أن يكون محلاً لحمل الحدثان، وأخذه من حيث المباشرة بدء حين القدر جاء بأمر القدم، فظهر الكون من نيران الكاف والنون، حيث أظهرها من العدم للقدم، فإذا قطع الخيال والأوهام عن درك الأوليّة، روح الأسرار بأحدثه عن كل ضد وند، بأن يزول عزته عن تعالي الأضداد عليه، ففزع أسرار الموحدين عن نقائص الفناء، ودخولها في بقائه لقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ فإذا أفرد نفسه عن النقائص والنكائد وعلل الحوادث فردانية حقيقية منزّهة عن أوهام المشيرين إليه بعلل الخيال والوهم والعدد والمدد، أمره بأن يكبره ويعظمه من كل خاطر ممزوج بالتشبيه والتعطيل بقوة ظهور كبريائه في قلبه لا من حيث العلم والصورة بقوله: ﴿وَكَبِيرَةٌ تَعْظِمُهُ﴾ تعالي الله، وتعالى كبريائه عن أن يكون في ملكه متكبراً، وفي ساحة جلاله متعظم.

قال ابن عطاء: عظم منته وإحسانه في قلبك بعلمك بتقصيرك في شكره.
وقال بعضهم: اعلم أنك لا تطيق أن تكبره الآية، فاستغث به ليدل قلبك على مواقف التعظيم.

سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا يُّدِيرُ
بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا
ۖ مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ۖ وَيُذِيرُ الَّذِينَ قَالَُوا لَنُتَّخِذَ اللَّهَ وَلَدًا ۚ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ
وَلَا لِأَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ حمد نفسه سبحانه
في الأزل، وكان موصوفاً بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له حمداً يكافئ كتابه الذي أنزل على
عبد، ولو وكل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه؛ لذهب بحمده عن وجود الكون، ولم يطق
أن يحمل وارد حمده بحكمة واستحقاق حمده.

فشكر نفسه لما منَّ على عبده؛ ليسهل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا
يحتمل إلا القديم، شرف على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وسماه عبده، وأي: تكرمة أكرم
من هذا، ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفنى أول سطوات عظمته الكون كان مسألة تعليم

لعبادة أي: احمدا الله الذي عرف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه، وقبول وحيه قوة رؤيته من يعبر عنه بلسان غير معوج، وغير مفهوم ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي من يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا متصف بصفاته، فالحمد واجب على الجمهور؛ حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه.

قال ابن عطاء: أضاف الكل بالكلية إلى نفسه، وقال على عبده أي: على عبده المخلص، وحقيقة العبد الذي لا ملك له.

وقال أيضًا: الكتاب منشورٌ ظاهر فيه أسرار باطنه.

﴿عِوَجًا﴾ أي: زيغًا وميلًا إلى الغير، كما قال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] أي: لم ير الغير في شهوده.

﴿قِيَمًا﴾ اجعله قِيَمًا يعني: مستقيمًا كما أمر بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]

والمعنى: جعله موحدًا فانيًا فيه غير محتجب في شهوده بالغير ولا بنفسه، لكونها غير أيضًا ممكنًا مستقيمًا حال البقاء.

كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

أو جعله قِيَمًا بأمر العباد وهدايتهم إذ التكميل يترتب على الكمال؛ لأنه ﷻ لما فرغ من تقويم نفسه وتركيتها أقيمت نفوس أمته مقام نفسه، فأمر بتقويمها وتركيتها، ولهذا المعنى سمي إبراهيم - صلوات الله عليه - أمة.

وهذه القيمة أي: القيمة بهداية الناس داخلية في الاستقامة الأمور هربها في الحقيقة؛ ﴿لِيُنذِرَ﴾ متعلق بعامل قِيَمًا أي: له قِيَمًا بأمر العباد؛ لينذر ﴿بِأَسَا شَدِيدًا﴾ وحذف المفعول الأول للتعميم؛ لأن أحدًا لا يخلو من بأس مؤمن كان أو كافر.

كما قال تعالى: ﴿انذر الصديقين بأنهم غيور، وبشر اللذين بأنهم غفور﴾^(١)، إذ البأس عبارة عن قهره، ولذلك عظمه بالتنكير أي: بأسًا يليق بعظمته وعزته ووصفه بالشدة، وخصصه بقوله: ﴿مِنْ لَدُنْهِ﴾ والقهر قسمان: قهر محض ظاهره وباطنه قهر كالمختص بالمحجوبين بالشرك، وقسم ظاهره قهر وباطنه لطف وكذا اللطف.

كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: سبحان من اشتدت نقمته على أعدائه في سعة نعمته،

(١) لم أقف عليه هكذا، وقد ثبت في أحاديث عدة بنحوه.

واتسعت رحمته لأوليائه في شدة نعمته، ومن القسم الثاني: القهر المخصوص بالموحدين من أهل الفناء أطلق الإنذار لكل تنبيهاً ثم فصل اللطف والقهر مقيدتين بحسب الصفات والاستحقاقات.

فقال: **﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾** أي: الموحدين لكونهم في مقابلة انشركين الذين قالوا: اتخذ الله ولداً، **﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾** أي: الباقيات من الخيرات والفضائل؛ لأن الأجر الحسن: هو من جنة الآثار والأفعال التي تستحق بالأعمال.

واعلم أن الإنذار والتبشير اللذين هما من باب التكميل اللازم؛ لكونه قيمياً عليهم كلاهما أثر ونتيجة عن صفتي القهر واللطف الإلهيين اللذين محل استعداد قبولهما من نفس العبد الغضب والشهوة، فإن العبد ما استعد لقبولهما إلا بصفتي: الغضب والشهوة وفنائتهما، كما لم يستعد لفضيلتي الشجاعة والعفة إلا بوجودهما، فلما انتفتا قامت مقامهما؛ لأن كلاً منهما ظل لواحدة من بينك يزول بحصولها، فعند ارتواء القلب منهما، وكمال التخلق بهما حدث عن القهر الإنذار عند استحقاقية المحل بالكفر والشرك، وعن اللطف التبشير باستحقاقية الإيمان والعمل الصالح؛ إذ الإفاضة لا تكون إلا عند استحقاق المحل.

قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾** العمل الصالح: التبري من الوجود بوجود الحق، والأجر الحسن مشاهدة الحق بلا حجاب أبداً.

قال بعضهم: العمل الصالح ما أريد به وجه الله لا غير، والأجر الحسن لا يحجب عن لقاء سيده تعالى: **﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾** ومن لم يجد مقام مشاهدته، ولم يعرف ذاته وصفاته بنعت رؤيته وخطابه، ويشير إليه بكلمة المعرفة فقد عظم ذلك عند الله؛ لأنه افتري على الله كذباً يا ليت لو خلص من عاينه، وأخبر عنه من هذه الورطة؛ لأن من عاينه وأخبر عنه، فقد أخبر عن غيره، وخبره وقع موقع تلك الكلمة التي كبرت، تخرج من أفواههم؛ ألا ترى إلى تمام الآية: كيف شكا عن الكل فقال: **﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾** ولذلك قال الواسطي: من ذكر افتري.

وقال ابن عطاء: أكبر الدعاوى من ادعى في الله، وأشار إلى الله، أو يكلم عن الله أو دخل في ميادين الانبساط، فإن ذلك كله من صفات الكذابين.

قال الله: **﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾** ولتحقق به لا يظهر شيئاً من أحوال بحال.

وقال الأستاذ: من تكلم بهذا اللسان قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: ما لهم بهذا القول من علم بل إنما يصدر عن جهل مفرط وتقليد للأباء لا عن علم ويقين ويؤيده قوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي: ما أكبرها كلمة ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ليس في قلوبهم من معناه شيء؛ لأنه مستحيل بالقرآن، استشعر ببقية من نفسه وتوجس بنقصان حالة فعلاه الوجد، وعزم على قهر النفس بالكلية طلباً للغاية، وكان ذلك من فرط شفقتهم عليهم، وكمال أدبه مع الله حيث أحال عدم إيمانهم على ضعف حاله على عدم استعدادهم؛ ولذلك سلاه بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ أي: لا تحزن عليهم فإنه لا عليك أن يهلكوا جميعاً إنا نخرج جميع الأسباب من العدم إلى الوجود للابتلاء، ثم نفيها ولا حيف ولا نقص، أو إنا جعلنا من على أرض البدن من النفس ولذاتها وشهواتها وقوى صفاتها وإدراكاتها ودواعيها ﴿زِينَةً لَهَا﴾؛ ليظهر أيهم أقهر لها وأعصى لهاها في رضاي، وأقدر على مخالفتها لموافقتي.

﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ﴾ أخبر سبحانه عن محبة حبيبه نظام طريق محبته وعبودية عبادته له، وشدة حرصه واهتمامه على الخلق، ومن غلبه ذلك غاص في بحر الأولية، وسابق العناية لطلب فسخ إبرام القدر المقدر لا بنفسه، وذلك من علمه بتنزيه جلاله؛ حتى لو أراد أن يبدل جميع أقداره لقدر، ولو يغفر لجميع الكفار لقدر، ولا نقص على برهانه وسلطانه، فأعلمه الحق أن هذا رسم أسرار الربوبية، ولا تقدر أن تهتك تلك الأسرار؛ لأنه غيور على سره وغيبه.

قال بعضهم: لا تشغل شرك بمخالفتهم فما عليك إلا البلاغ، والهدى منا لمن نشاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ إن الله سبحانه جعل في الأرض آيات السفلية من كل ما أظهر فيها من: الأنهار والأشجار والجبال والبحار والمعادن والنبات والرياحين، وألبسها قميص أنوار صفاته، وجعلها مرآة للعارفين؛ لينظروا فيها، ويرون فيها أنوار جلاله وجماله، وأي زينة لها أعظم من نور بهائه وضياء صنائعه، ويمتحن بذلك

المحتجب بمحل الزينة، والمنفرد برؤية الصفات.

وذلك قوله: ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. العمل هاهنا ترك صورة الزينة والمزين والاشتغال بالمزين؛ بأن آثار جماله مبين من كل ذرة فمن نظر إلى ذلك رأى الأشياء بالحقيقة.

لذلك قال ﷺ: «اللَّهُمَّ ارِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ» ^(١) وأيضًا: زينة الأرض أولياء الله والخلق ممتحنون بهم؛ حتى من يعرف حقوقهم فحسن العمل النظر إليهم بالحرمة.

قال ابن عطاء: أحسن إعراضًا عنها وتركًا لها.

وقال سهل: أحسن توكلًا علينا فيها.

وقال أيضًا: حسن العمل الاستقامة عليها بالسنة.

وقال القاسم: زينة الأرض: الأنبياء والأولياء والعلماء الربانيون والأوتاد.

وقيل: أهل المعرفة بالله والمحبة له المشتاقون إليه هم: زينة الأرض ونجومها وأقمارها وشموسها.

وقال الجنيد: أهل الفهم عن الله هم الذين جعلوا ما على الأرض من زيتها عبرة لهم؛ لئلا يتشاغلوا بشيء من الزينة، ولا يعملوا بشيء من الزينة، ويعملون لمن زين هذه الزينة.

قوله: ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ﴾ أعلى همة وأطرب نفسًا في الإعراض عما لا يبقى بالاشتغال بالباقي.

وقال الواسطي: أيهم أفزع قلبًا وأصفى قصدًا.

يقال: العباد بهم زينة الدنيا، وأهل المعرفة بهم زينة الجنة.

ويقال: زينة الأرض تكون الأولياء، وهم أمان في الأرض.

ويقال: إذا تلالاً أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرق حمى الآفاق بحياتهم.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أصدقهم نية، وأخلصهم طوية.

ثم إن الله سبحانه لما آوى أوليائه إلى حضرته القديمة، بقي ما على الأرض من زينة ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يابسًا وأرضًا فقرًا لا نبات فيها؛ ليتعطل الحدثان، ويبقى الرحمن بقوله: ﴿وَأَنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أي: تغرب شمس أنوار الصفات في مغارب الأفعال، فلا يبقى في مرآة الفعل أثر من نور الصفة؛ لأن نور الصفة رجع إلى معدنه من الذات وظهوره؛ لأجل سلب قلوب الصديقين من الأولياء إلى تلك المعاهد، فإذا بلغوا إلى مأواهم ذهب معهم أنوار الصفات.

(١) ذكره ابن عادل في تفسير اللباب (٧/٣).

قال الواسطي: في هذه الآية الكون في قبضة الحق، وهو هباء في جنب القدرة.

قال الله: ﴿وَأِنَّا لَجَنِعُلُونَ مَا عَلَيْنَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

﴿وَأِنَّا لَجَنِعُلُونَ﴾ بتجلينا وتجلي صفاتنا ﴿مَا عَلَيْنَا﴾ من صفاتها هامة كأرض ملساء

لا نبات فيها أي: نفيها وصفاتها بالموت الحقيقي وبالموت الطبيعي ولا نبالي.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ ذكر

سبحانه من بسط قدرته، وعظيم آياته، وعجائب شأنه أي: إيش معجب من أصحاب

الكهف والرقيم من لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنين وزيادة فلانهم في مراقدة أنسنا، وبساتين

قدسنا، غائبون فينا عن غيرنا، فإن في سعة قدرتنا، إنا نحن لو نشق وردة من بساتين غيبتنا

لمشام العالمين، يهيمون في البوادي والقفار أبداً، وما أظهرنا فيك من الآيات الكبرى أعجب

من حالهم ألف مرة، وليس في عالم القدرة القديمة عجز عن إيجاد كل موهوم ومعدوم.

قال الحسين: أصحاب الكهف في ظل المعرفة الأصلية لا يزايلهم بحال؛ لذلك خفي

على الخلق آثارهم.

وقال ابن عطاء: سلبهم عنهم وأخذهم منهم، وحال بينهم وبين الأغيار، وألجأهم إلى

غار الأنس، وآواهم، وآمنهم ثم أفناهم عنهم، وغيبهم من إرادتهم ومعابنتهم، فتاهوا في

الحضرة والهيئ؛ لذلك قال الله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾، بل:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾.

أي: إذا شاهدت هذا الإنشاء والإفناء، فليس حال أصحاب الكهف آية عجيبة من

آياتنا، بل هذه أعجب.

وقال الجنيد: لا تتعجب منهم فشأنك أعجب من شأنهم، حيث أسري بك في ليلة من

المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبلغ بك سدرة المنتهى، وكنت للقربى كقاب قوسين أو

أدنى، ثم رددت عند انقضاء الليلة إلى مضجعك.

وقال بعضهم: أصحاب الكهف كالنومي لا علم لهم بوقت، ولا زمان ولا معرفة

بمحل، ولا مكان، أحياء موتى صرعى مفيقون، نومي متبهون، لا إليهم سبيل، ولا لهم إلى

غيرهم طريق، ورددت عليهم خلع الهيبة، وأظلمهم بنور التعظيم، وأحدثت بهم حجب

العظمة، واستناروا بنور العرش الكريم؛ لذلك قال الله تعالى لنيه ﷺ: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ

لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾.

وقال الأستاذ: مكثوا في الكهف مدة، فأضافهم إلى مستقرهم، فقال أصحاب الكهف:

وللنفوس محال، وللقلوب مقار، وللهم مجال، وحيثما يعتكف القلب، فهناك يطلب أبدًا صاحبه.

واعلم أن أصحاب الكهف هم السبعة الكمل القائمون بأمر الحق دائماً الذين يقوم بهم العالم، ولا يخلو عنهم الزمان على عد الكواكب السبعة السيارة وطبقها، فكما سخرها الله تعالى في تدبير نظام علم الصورة، كما أشار إليه بقوله: ﴿فَالسَّيِّقَتِ سَبْقًا﴾ ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٤، ٥] على بعض التفاسير.

وكل نظام عالم المعنى، وتكميل نظام الصورة إلى سبعة أنفس من السابقين كل ينتسب بحسب الوجود الصوري إلى واحد منهم، والقطب هو المنتسب إلى الشمس، والكهف هو باطن البدن، والرقيم ظاهره الذي انتقص بصور الحواس والأعضاء، إن فسر باللوح الذي رقت فيه أسماؤهم والعالم الجسماني، إن جعل اسم الوادي الذي فيه الجبل والكهف والنفس الحيوانية، إن جعل اسم الكلب والعالم العلوي، إن جعل اسم قريتهم، على اختلاف الأقوال في التفاسير.

ومنهم الأنبياء السبعة المشهورون المبعوثون بحسب القرون والأدوار، وإن كان كل نبي منهم على ذكر وهم: آدم وإدريس ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ؛ لأنه السابع المخصوص بمعجزة انشقاق القمر أي: انفلاقه عنه لظهوره في دورة ختم النبوة، وكمل به الدين الإلهي. كما أشار إليه بقوله: «إن الزمان قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض»^(١) إذ المتأخر بالزمان والظهور أي الوجود الحسي هو الحائز لصفات الكل، وكما لا تتم كالإنسان بالنسبة إلى سائر الحيوانات.

ولهذا قال: «كان بنيان النبوة قد تم، وبقي منه موضع لبنة واحدة، فكنت أنا تلك اللبنة»^(٢).

وقد اتفق الحكماء المتألهة من قدماء الفرس أن مراتب العقول والأرواح على مذاهبهم في التنازل تتضاعف إشراقاتها، فكل ما تأخر في الرتبة كان حظه من إشراقات الحق وأنواره، وسبحات أشعة وجهه وإشراقات أنوار الوسائط بكل منها من مبادئها في الأزل. كما قال ﷺ: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة»^(٣) حتى انتهت الدرجات في العلو إلى الفناء والتوحيد الذاتي فهذا الاعتبار يكون محمد ﷺ عين آدم، بل عين السبعة وكذا باعتبار كونه

(١) رواه البخاري (١١٦٨/٣)، ومسلم (١٣٠٥/٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٩٠/٤).

(٣) رواه البخاري (١٢٣٨/٣)، ومسلم (١٩٥٨/٤).

جامعاً لصفاتهم.

كما قيل: إنه سئل أبو يزيد - رحمه الله عليه - أنت من السبعة؟ فقال: أنا السبعة. وباعتبار علو مرتبته ومكانته وسبقه في القدم، وارتفاع درجة كماله وفضيلته كان أقدمهم، وأوهم وأفضلهم. كما قال: «أول ما خلق الله نوري، وكنت نبياً وآدم بين الماء والطين»^(١) فهو متقدم عليهم بالرتبة والعلية والشرف والفضيلة، متأخر عنهم بالزمان، وهو عينهم باعتبار السر، والوحدة الذاتية فالحاصل أن اختلافهم وتباينهم روحاً وقلباً ونفساً لا ينافي اتحادهم في الحقيقة، وكذا افتراقهم بالأزمنة لا ينافي معيتهم في الأزل والأبد وعين الجمع.

كما قال: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ» [البقرة: ٢٥٣] مع قوله: «لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ» [آل عمران: ٨٤] ويجوز أن يكون المراد بأصحاب الكهف: روحانيات الإنسان التي تبقى بعد خراب البدن.

وقول من قال: ثلاثة إشارة إلى الروح والعقل والقلب، والكلب هي النفس الملازمة لباب الكهف، ومن قال خمسة إشارة إلى: الروح، والقلب، والعقل النظري والعقل العملي، والقوة القدسية للأنبياء التي هي انفكر لغيرهم، ومن قال: سبعة فتلك الخمسة مع السر والخفاء، والله أعلم.

«إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» أي: كهف البدن بالتعلق به «فَقَالُوا» بلسان الحال «ءَاتَيْنَا مِنْ لَدُنْكَ» أي: من خزائن رحمتك التي هي أسماؤك الحسنى «رَحْمَةً» كما لا يناسب استعدادنا ويقتضيه، «وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا» الذي نحن فيه من مفارقة العالم العلوي، والهبوط إلى العالم السفلي لاستكمال «رَشَدًا» استقامة إليك في سلوك طريقك والتوجه إلى جنابك أي: طلبوا بالاتصال البدني والتعلق بالآيات الكمال وأسبابه الكمال العلمي والعملي.

قوله تعالى: «إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ» وصف الله سبحانه أول زمرة السبعة المختارة من أصحاب الكهف، والثلاثة المختارة من أصحاب الرقيم، وهم فتیان المعرفة الذين خُلقوا بسجية الفتوة، وفتوتهم إعراضهم عن غير الله، وعن الكون جميعاً، وإقبالهم على الله بنعت

(١) روى عبد الرزاق في المصنف (١٨) عن معمر عن ابن المنكدر عن جابر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى؟ فقال: هو نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء... الحديث، وانظر: الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق (ص ٦٣)، وشرف المصطفى للخركوشي (١/ ٧٠٣)، وكشف الخفاء للمجلوني (١/ ٣١١)، والمواهب اللدنية (١/ ٧١)، ومواكب ربيع في مولد الشفيع للحلواني (ص ٢٧، ٣٣).

إيوانهم إلى كهوف وصاله، وظلال جماله، وحصون أنسه، وقصور قدسه بذلوا مهجتهم لله بلا نصب لأنفسهم، وطلبوه منه، ودخلوا في مزار قربه، ومساقط أنوار شهوده، فلما استقاموا في منازل الأنس، ومشاهدة القدس ورأوا محبوبهم بنعت الرعاية والكلاءة، هيجهم نور البسط، وسر الافتقار إلى سؤال زيادة القربات والمدانات.

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ معرفة كاملة وتوحيدًا عزيزًا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ من أمر محبتك ﴿رَشَدًا﴾ صبايتك والوصول إلى وصال قدمك الذي بلا زوال ولا امتحان، فهناك مقيل السعادة الكبرى، ومراقد المشاهدة الكبرى.

قال الأستاذ: آوهم إلى كهف بظاهرهم، وفي الباطن مهد مقيلهم في ظل إقباله وعنايته، ثم أخذهم عنهم وقام عنهم فأجرى عليهم الأحوال، وهم مصطلمون عن شواهدهم، فلما عاينوا من الكشف الأكبر، والرضوان الأعظم، استطابوا الوقت، وخافوا الفوت، والتجئوا منه إليه، فألطف عليهم الحق سبحانه، فغيبهم عن الوجود، وأخذهم بنفسه عن وجودهم بقوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِتْرًا عَدَدًا﴾ ذكر واحدًا من الإحساس وجميعها مستغرقة في أنوار وطأة هبة الجلال عليهم، لما سترهم وضرب عليهم سرادق غيرته، بقي عليهم حس الأذان، فضرب على آذانهم ستر الغيرة؛ حتى لا يحسوا أصوات الأغيار أدخلهم في قباب عصمته، وأنسهم بحسن مشاهدته، وغيبهم عنهم فيه وزال عنهم رسوم البشرية، فبقوا مع الحق بالحق ناظرًا إلى الحق بلا فترة.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أي: أنمناهم نومه الغفلة عن عالمهم وكمالهم نومة ثقيلة لا ينههم صفيير الخفير، ولا دعوى الداعي الخير في كهف البدن ﴿سِتْرًا﴾ ذوات عدد أي: كثيرة أو معدودة أي: قليلة هي مدة انغماسهم في تدبير البدن وانغمارهم في بحر الطبيعة مشغولين بها غافلين عما وراءها من عالمهم إلى أوان بلوغ الأشد الحقيقي، والموت الإرادي والطبيعي، كما قال: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»^(١).

وفيه نكتة لطيفة: لما رأوا الحق بهتوا في أنوار قدمه، وفنوا في سطوت عظمتهم، وذهبوا عن مقام سماع الخطاب لو بقي عليهم سماع الخطاب، لم يستحكموا في مقام الخطاب على حد الرضا مقام الاستلذاذ والأنس والبسط والبقاء، فأفناهم عنها لاستيفاء حظ التوحيد والفناء عنهم.

وأيضًا: صارت أسماع الظاهر إلى سماع بواطنهم، فسمعوا بأسماع القلوب والأرواح

(١) رواه الیهقي فی الزهد الكبير (٢/ ٢٠٧).

والأسرار، وما سمعوا من الحق شغل أسماع خواطرهم عن أسماع الأصوات المختلفة.
 قيل: أخذنا عنهم أسماعهم؛ حتى لا يسمعوا إلا منا، وأخذنا عنهم أبصارهم، فلا ينظروا إلا إلينا؛ حتى لا يكون لهم إلى الغير التفات، ولا للغير فيهم نصيب بحال.
 وقال ابن عطاء: أخرجنا منهم صفة البشرية، وأفنيانهم بصفات القدسية، قدسنا ظواهرهم وبواطنهم وجعلناهم أسراء في القبضة، ثم رددناهم إلى هياكلهم وصفاتهم بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾.

قال أيضًا: إن الفائدة في الضرب على الأذان، وليس للأذان في النوم شيء إنه ضرب على آذانهم، حتى لا يسمعوا الأصوات، فيتنبهوا ويكونوا من الخلق كلهم في راحة.
 قال الأستاذ: أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقتهم فيه، وحقائق ما كنا سقيناهم به من شهود الأحدية، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية، فلما استوفوا حظ شهود الغيب، ولطائف مقام السكر، وأراد أن يجعلهم من مقام الصحو لهم حظًا، رفع عنهم برجاء الهيبة، وسجوف ليالي الحشمة، وآفاقهم عن خمار السكر بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لِيَتْوَا أَمَدًا﴾ أقامهم مقام الاستقامة؛ ليعرفوا منازل القرب بنعت الصحو؛ لأن السكرى صيروا في قفار الديمومية بالخط، والوجد لا بالمعرفة، وليعرفوا مسالك الحقيقة أهل الإرادة.

قال الأستاذ: أي رددناهم إلى حال صحوهم أوصاف تميزهم، أقمنا شواهد التفرقة بعد ما محوناهم عن شواهدهم بما أقمناهم بوصف الجمع.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: نبهناهم عن نوم الغفلة بقيامهم عن مرقد البدن، ومعرفتهم بالله وبنفوسهم المجردة ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي: ليظهر علمنا في مظاهرهم أو مظاهر غيرهم من سائر الناس ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفين في مدة لبثهم، وضبط غايته الذين يعينون المدة أم يكلون علمه إلى الله، فإن الناس مختلفون في زمان الغيبة.

يقول بعضهم: يخرج أحدهم على رأس كل ألف سنة، وهو يوم عند الله؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] إلى الحق عند كل جبار هو دقيانوس وقته، كمنرود وفرعون وأبي جهل وأضرابهم ممن دان بدينهم، واستولى عليه النفس الأمارة فعبد الهوى أو ادعى لطغيانه، وتمرد أنانيته وعدوانه الربوبية من غير مبالاة عند معاتبته إياهم على ترك عبادة الصنم المجعل، كما هو عادة بعضهم أو صنم نفسه. كما قال فرعون اللعين: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ

الْأَعْلَى [النازعات : ٢٤].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدَّتْهُمْ هُدًى ۖ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ۖ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ﴾

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ وليس شيء أطيب عند الحبيب من ذكر أحبائه لأحبائه، ذكر الحبيب الأول، ما الحبيب عند الحبيب استطاب الحق ذكر قصة فتیان محبته ومعرفة حبيبه الأكبر؛ ليعرف منازل المحبين والعارفين الذين هاموا بوجوههم في بیداء شوقه وعشقه؛ ليزيد رغبته في شوقه ومعرفة أي: أنا أحقق خبر أسرارهم لك؛ لتعرفهم أين تاهوا في مفاوز القيومية، وأين استغرقوا في بحار الديمومية؟

يا حبيبي اعلم أن تلك فتیان محبتي انفردوا بي عن غيري، وهم شبان حسان الوجوه قلوبهم مُسفرة بأنوار شمس جلالی فيها، وأسرارهم مقدسة بسر أسرار قدسي، أبدانهم غائبة في مجالس أنسي آمنوا بربهم عرفوني بي، واستأنسوا بي واستوحشوا من غيري، ما أطيب حالهم معي، ما أحسن شأنهم في محبتي زدناهم نوراً من جمالي، فاهتدوا به طرق معان ذاتي وصفاتي، وذلك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نوري لا نهاية له.

وأيضاً: زدناهم مشاهدة وقرباً وصلاً ومعرفة وكمالاً ومحبة وشفاء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ الآية.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أصحاب الفتوة حيث بدلوا أنفسهم لي، ولوجدانهم حسن وصالي أبداً. يا حبيبي الفتوة: من الفتیان بالحقيقة طلب معادن المحبة، والانصراف إلى مصرف المعرفة، وإلقاء الوجود بنعت الوجد للموجود القديم جل وعز.

قال ابن عطاء: زدناهم نوراً، ومن يعرف قدر زيادة الله؛ لذلك كانت الشمس

﴿تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾ خوفاً من نورهم على نورها أن يطمسه.

وقال أيضاً في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ لتنظر إليهم بعين المشاهدة.

وقال سهل: سباهم الله فتية؛ لأنهم آمنوا بالله بلا واسطة، وقاموا إلى الله بإسقاط العلائق.

وقال فضيل: الفتوة الصفح عن عشرات الإخوان.

قال أبو عثمان: الفتوة اتباع الشرع والاهتداء بالسنن، وسعة الصدر، وحسن الخلق.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ جعلناهم أئمة المهتدين.

وقال بعضهم: سهلنا لهم طريق القرية والوصلة.

ويقال: لا يسمع قصة الأحباب أعلى وأجل مما يسمع من الأحباب.

قال عز من قائل: ﴿لَنُخْصَّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾.

وأنشد في معناه:

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَرَدَّتَنِي جُنُونًا فَرَدَّنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

ويقال: فتية؛ لأنهم قاموا بالله، وما استقروا؛ حتى وصلوا إلى الله.

وقال الأستاذ: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ لطفهم بإحضارهم، ثم كاشفهم بما زاد من أنوارهم فلقاهم أولاً بالنبين، ثم رقاهم عن ذلك إلى ما كان كاليقين، ثم زاد في وصف إيقانهم وإيمانهم، وعرفانهم ثبات قلوبهم؛ حين قاموا مقام المحبة؛ بشرط وفاء العبودية، ونفاذ أبصارهم وأسرارهم في المشاهدة والبراهين العقلية، وبلوغها إلى رؤية رب العزة بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أضاف ارتباط قلوبهم إلى نفسه؛ حيث عرفهم نفسه بنفسه بلا واسطة، فلما أدخلهم في عالم الملكوت، وأراهم سبحات عظمة الجبروت، كادت قلوبهم تفنى في أول بوادي أنوار العزة، بديهة كشف سناء الأولية فألقى عليها رواسي نوار الهيبة، وربطها على مشاهد القربة بمسامير المحبة؛ حتى استقاموا في المعرفة حين قاموا بالشوق إلى مشاهدة الوصلة، فلما عظم عليهم قهر لطيمات بحر القدم ألجأهم الحق إلى سواحل الكرم، وأشهد ما أخرج من العدم؛ حتى ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولولا خوف الزوال لهم ما غابوا عن القدم إلى مراسم العدم، ولكن قلوبهم في مواقف العدم مرتبة، وإن كانوا في مشاهدة الرسوم لهم إشارة إلى براهين.

بقوله تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوًا مِنْ دُونِهَا إِلَهًا﴾ أي: لن نرى من دونه شيئاً في البين، ولو نرى الوسائط في رؤية الوسائط ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ أي: ميلاً عن طريق أفراد القدم عن الحدوث.

قال ابن عطاء: رسمنا أسرارهم بسمة الحق فقاموا بالحق للحق ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا﴾ إظهار إرادة، ودعوة.

ثم قالوا: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ رجوعاً من صفاتهم بالكلية إلى صفاته، وحقيقة علمه ﴿لَن نَّدْعُوًا مِنْ دُونِهَا إِلَهًا﴾ لن نعتمد سواه في شيء لو قلنا غير ذلك كان شططاً يعني بعيداً من طريق الحق.

وقال جعفر: قاموا إلى الحق بالحق قيام أدب، ونادوه نداء صدق، وأظهروا له صحة الفقر ولجئوا إليه أحسن اللجاء ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ افتخاراً به وتعظيماً له فكافأهم الحق على قيامهم الإجابة عن ندائهم بأحسن جواب، وألطف خطاب، أظهر عليهم من الآيات ما يعجب منه الرسل حين قال: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ وقد استدل بعض المشايخ بهذه الآية في حركة الواجدين في وقت السماع؛ لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس حركها أنواع الأذكار، وما يرد عليها من فنون السماع. والأصل قوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ نعم هذا المعنى إذا كان القيام قياماً بالصورة، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية والربط من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين والاستدلال بها في السكون في الوجد أحسن إذا كان الربط بمعنى التسكين، والقيام بمعنى الاستقامة.

ويقال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بما أسكننا فيها من اليقين فلم تسبح فيها هواجس التخمين ولا وساوس الشياطين.

﴿هَتُولَاءِ قَوْمُنَا﴾ إشارة إلى النفس الأمارة وقواها، لأن لكل قوم إلهًا تعبده، وهو مطلوبها ومرادها والنفس تعبد الهوى كقوله: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]

وإلى أهل زمان كل من خرج منهم داعيًا إلى الله إذ كل من عكف على شيء يهواه، فقد عبده.

﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ﴾ أي: على عبادتهم وإلهيتهم وتأثيرهم ووجودهم.

﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: حجة بينة دليل على فساد التقليد، وتبكيك بأن إقامة الحجة على إلهية غير الله، وتأثيره ووجوده محال.

كما قال: ﴿أَتَجِدُ لَوْنِي فِي أَسْمَاءِ سَمِيَّتُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١] أي: أسماء بلا مسميات لكونها ليست بشيء.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِزْقًا ۝ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَنَحْسِبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَنِيسَطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْتَغُوا أَحَدَكُمْ يَورِقْكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آغْرَقْنَاهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْتَا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أخبر سبحانه عن صدقهم وإخلاصهم وفرحهم بالإيمان بالله، والنجاة عن الكفر والضلال، واجتماعهم في مقام الخلوة أي: إذا أخرجتم من أماكن النفوس والهوى، صرتم منفردين باليقين الصادق، فأووا إلى جوار كرمه وبساط قدمه ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ﴾ ذخائر لطائف علومه الغيبية، ويسيطر لكم بساط عطايا مشاهدته، وأنوار قربه ومحبه ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ أي: احتياجكم إلى وصاله ورؤية جماله ﴿مِرْفَقًا﴾ مسند الأنس، ويسقيكم شراب الزلفى من بحر القدس.

قال الأستاذ: العزلة عن غير الله يوجب الوصل بالله؛ بل لا يحصل الوصلة بالله؛ إلا بعد العزلة عن غير الله.

ثم أخبر عن زيادة تلافه بهم؛ بأن دفع عنهم نواثر العناصر التي أصلها من طبع الشمس والقمر والسيادة، ودفع عنهم حرارة الشمس وشعاعها؛ لئلا تتغير أشباحهم عن أحكام الروحانية، كأنه تعالى أدخلهم في حجلة الأنس في عالم القدس، وجعل ذلك العالم في الكهف، وهو قادر على أن يخلق ألف جنة في عين نملة، فلما سكنهم في حجر وصلته دفع عنهم تغاير الحديث، وإطلاع الخليقة عليهم من غيرته، فمن غيرته حجبهم عن الشمس الطالعة التي هي في الفلك الرابعة، فإذا حجبهم عن الشمس مع جلالته التي هي سبب نماء العالم، فانظر كيف يطلع عليهم غيرها من الخلق.

﴿وَإِذْ آغْرَقْنَاهُمْ﴾ أي: فارقتهم نفوسكم وقواها بالتجرد ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ من مراداتها وأهوائها ﴿فَأَوْتَا إِلَى الْكَهْفِ﴾ إلى البدن؛ لاستعمال الآلات البدنية في الاستكمال بالعلوم والأعمال، وانخذلوا فيه منكسرين متراضين، كأنهم ميتون بترك الحركات النفسانية والنزوات البهيمية، والسطوات السبعية أي: موتوا موتًا إراديًا.

﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ حياة حقيقية بالعلم والمعرفة ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ كما لا ينتفع به بظهور الفضائل، وطلوع أنوار التجليات، فتتلاذذون بالمشاهدات، وتمتعون بالكمالات.

كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِثًّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال ﷺ في أبي بكر: «من أراد أن ينظر مِثًّا يمشي على وجه الأرض، فلينظر أبا بكر»^(١) أي: مِثًّا عن نفسه يمشي بالله، ﴿وَإِذْ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُمْ﴾ قومكم ومعبوداتهم غير الله من مطالبهم المختلفة ومقاصدهم المتشتتة، وأهوائهم المتفتنة، وأصنامهم المتخذة ﴿فَأَوْدُوا﴾ إلى كهوف أبدانكم، وامتنعوا عن فضول الحركات والخروج في أثر الشهوات، واعكفوا على الرياضات ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ زيادة كمال وتقوية، ونصرة بالإمداد الملوكوتية والتأييدات القدسية، فيغلبكم عليهم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ﴾ دينًا وطريقًا ينتفع به، وقبولًا يهتدي بكم الخلائق ناجين، وفي الآوي إلى الكهف عند مفارقتهم سر آخر يفهم من دخول المهدي في الغار إذا خرج ونزل عيسى عليه السلام، والله أعلم.

وفي نشر الرحمة وتهيئة المرفق من أمرهم عند الآوي إلى الكهف إشارة إلى أن رحمته الكاملة في استعدادهم، إنما تنشر بالتعلق البدني والكمال بتهيئته.

قال سبحانه: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ الإشارة في الحقائق أنه أخفاهم في كهف الأسرار، وأجلسهم في متسع الأنوار، وأشدهم مشاهدة الجمال، وآواهم سناء الجمال، ووقاهم من سطوات أنوار شمس العزة والعظمة والكبرياء التي تطلع من مشرق القدم، وتغرب في مغرب الأبد؛ لئلا يحترقوا في أنوار عين الألوهية، ويفنوا في سلطان إشراق سبحات الكبرياء، ولا يطلعوا على ذخائر غيوب البقاء؛ كأنه تعالى رباهم في مشاهدته بنور جماله، وحفظهم عن قهر كنه قدمه؛ لئلا يتلاشوا في عزة جلاله، ويبقى معه بنعت الصحو والبقاء، ولولا ذلك الفضل العميم لو لم يبقوا في استعلان أنوار وحدانيته بأقل من لمحة رعاهم بنفسه عن نفسه؛ لإدراك العلم بنفسه هم في فجوة الوصال، وشمس الكبرياء، تزاور عن كهف قريهم ذات اليمين الأزل، وذات الشمال الأبد.

(١) هو من الأحاديث المشتهرة عند السادة الصوفية، وهو صحيح عند أرباب الكشف.

وهم في فجوة وصال مشاهدة الجمال والجلال، محروسون محفوظون عن قهر سلطان صرف ذات الأزلية التي يتلاشى الأكوان في أول بوادي إشراقها، وأي آية أعظم من هذه الآية أنهم في وسط نيران الكبرياء، ولا يحترقون بها فبقوا بالحق مع الحق مستأنسين بالحق للحق بنعت فقد الإحساس في مقام الاستثناس غائبين عنهم شاهدين بالله على الله.

انظر كيف كان كمال غيرة الله بهم، حيث حجبهم عنهم، ورفع الإحساس عنهم، ورفع حوادث الكون عنهم؛ ليكون الكشف أصفى، والقرب أجلى، والسر أخفى، والمشاهدة أشهى والروح أدنى، والوقت أحلى، ولا يعرف هذه الإشارة إلا العارف بالله بنعت الذوق، ويرى الله بوصف الشوق المستقيم بالله لله.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ من عرف نفسه، وأقدار أوليائه فهو عارف بالله وبأوليائه، ومن لم يكن من أهل سلوكه، كان في الأزل محروماً عن قرب، وإن خنق نفسه في المجاهدة.

قال الله: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرِيدًا﴾
مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْوَصَالِ أَهْلًا فَكُلَّ إِحْسَانِهِ ذُنُوبٌ

سبحان الله! أين غابوا تلك السبعة الغارقة في أماكن الغيب، ومشاهدة الرب هام طلابهم في بوادي المعارف والكواشف، ولم يظفروا برؤيتهم، وانحسرت الأزمان، والأكوان والحدثان عن تفقدهم، ولا تطلع عليهم من غير: 'حق عليهم هم ملوك معارف القدم؟ غابوا في مهمة الكرم.

بِأَيِّ نَوَاجِي الْأَرْضِ أَبْغِي وَصَالِكُكُمْ وَأَنْتُمْ مُلُوكُ مَا لَمُقَصِدُكُمْ نَحْوُ

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ أي: شمس الروح ﴿إِذَا طَلَعَتْ﴾ أي: ترقى بالتجرد عن غواشي الجسم، وظهرت من أفقه تميل بهم من جهة البدن، وميله ومحبه إلى الإلهام، والشيطان للوسواس ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢].

وفي الآية لطيفة، وهي أنه استعمل في الميل إلى الخير الازورار عن الكهف، وفي الميل إلى الشر قرضهم أي: قطعهم، وذلك أن الروح يوافق القلب في طريق الخير، ويأمره به ويوافق معرضاً عن جانب البدن وموافقاته، ولا يوافق في طريق الشر، بل يقطعه ويفارقه وهو منغمس في ظلمات النفس وصفاتها الحاجبة إياه عن النور، وهو إشارة إلى تلوينهم في السلوك، فإن السالك ما لم يصل إلى مقام التمكين، وبقي في التلوين قد تظهر عليه النفس

وصفاته، فيحتجب عن نور الروح، ثم يرجع ذلك أي: طلوع نور الروح واختفاؤه من آيات الله التي يستدل بها، ويتوصل منها إليه وإلى هدايته.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بإيصاله إلى مقام المشاهدة والتمكين فيها ﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ بالحقيقة لا غير ﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ يحجبه عن نور وجهه، فلا هادي له ولا مرشداً، ومن يهد الله إليهم وإلى حالهم بالحقيقة، ومن يضلله يحجبه عن حالهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾ ذلك لمعنى النور الذي كان عليهم بقوله: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ نور على نور، وبرهان على برهان، والشمس نور، ولكن إذا غلب نور أقوى منها انكسفت الشمس فكانت تزيف عن كهفهم؛ لغلبة نورهم خوفاً أن ينكسف نورها من غلبة نورهم.

وقال جعفر: يمين المرء قلبه، وشماله نفسه، والرعاية تدور عليهما، ولولا ذلك لهلك.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ ما حجب عن الله أحد إلا من أراد أن يصل إليه بحركاته وسعيه، وما وصل إليه أحد إلا من أراد أن يصل إليه بصفته تعالى.

وقال الواسطي في قوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ من جاء بأوائل الإيمان بلا علة، وبأواخره بلا علة، وهذا صفة الحق لا صفة الخلق، وظهر أن المهتدي هو البائن من جميع أوصافه، المتصف بصفات الحق ثم زاد في وصفهم لحبيبه ﷺ بأنهم غائبون بأرواحهم في أنوار القدم، وبأسرارهم في بحار الكرم، وبعقولهم في أودية الهوية، وبقلوبهم في قفار الديمومية، وبأنفسهم في أشرف سلطنة الربوبية وبأشباحهم في أماكن الموانسة، بقوله:

﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَازًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: من كمال حسنهم في الغيبة أنه نشر أنوار القربة على ظاهرهم، وأزال عنهم وحشة النومي، وأظهر عن صورتهم لطائف النعمى كانت أرواحهم كأجسادهم، وأجسادهم كأرواحهم؛ لذلك قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أجسادنا روح»^(١) كأنهم من كمال حسن وجدهم وغيبتهم فيه، والتمكين لهم غير غائبين.

وانظر كيف كانوا في لطف غيبتهم؛ حتى لا يعرف سيد المرسلين ﷺ أنهم رُقود وهذا من شواهد التمكين، ولطافة الحال لما حضروا مشاهد القرب، غابوا عن القرب بالقرب، وغابوا في القرب بالقرب، وغابوا عن قرب القرب في قرب القرب، وقعوا في أسفار الأزل ففي كل نفس لهم الترقى والنقل من مقام إلى مقام^(٢)؛ لقوله سبحانه:

(١) هو من الأحاديث التي ذكرها المصنف في كتبه، ولم نقف على من خرجه.

(٢) في الآية إشارة إلى حال الغفلة؛ فإنهم نائمون في صورة المتبئين، فمن نظر إليهم ممن هو مثلهم في الغفلة

﴿وَنُقَلِّبُھُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أغرقهم الحق سبحانه في بحار أوليته وأخرويته، وقلبهم بنفسه ذات يمين الأزل، وذات شمال الأبد، قلبهم من رؤية الأفعال إلى أنوار الأسماء، ومن أنوار الأسماء إلى أنوار النعوت والأوصاف، ومنها إلى رؤية أنوار الذات قلبهم في كل نفس من عالم صفة إلى عالم صفة، وهم معهم في سيرهم بين الصفتين، فأدار بأرواحهم إلى صحارى الأزل، وأزال الأزل، وأدار بقلوبهم في بوادي الآباد، وآباد الآباد.

وأدار بأنجم عقولهم في أفلاك حقائقه، وأدار بأسرارهم في بساتين علوم غيبه المجهولة، فقصر عليها بعد مزار أسفارهم بلطفه، ولولا ذلك لبقوا في تقلب المقامات وسير الحالات، ولكنه بلطفه وبرحمته خلصهم من التقلب في عالم الصفات، ولو تركهم مع أنفسهم لم يبلغوا أمر الأزل إلى الأبد إلى رؤية صفة بعد رؤية صفة حملهم بنفسه، وأدارهم في عالم صفاته، ثم ألقاهم في بحر وحدانيته، فصاروا مستغرقين في بحار ذات متخلصين من التقلب، ذهب بهم سيول طوفان الكبرياء إلى قاموس البقاء، فهناك قلبهم سر الأسرار تارة إلى نكرة القدم، وتارة إلى معرفة البقاء.

قال ابن عطاء: نقلبهم في حالي القبض والبسط والجمع والتفرقة جمعناهم عما تفرقوا فيه فحصلوا معنا في عين الجمع.

وقال بعضهم: نقلبهم بين حالي الفناء والبقاء، والكشف، والاحتجاب، والتجلي، والاستتار.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَنَحْسِبُهُمْ أَيَّحَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ مقيمون في حضرة كالنومي لا

عن الله تعالى يراهم متيقظين، ومن نظر إليهم من أهل المكاشفة والمشاهدة؛ يراهم نائمين، فإن الاعتبار بجال الباطن لا بحال الظاهر، وإما إلى حال أهل اليقظة، فإنهم لا إحساس لهم بما يتعلق بعالم الملك؛ لفنائهم عنه، وبقائهم بالله، والباقي بالله لا ينظر إلا إلى الله تعالى، والجاهل المحجوب يظن أنهم منغمسون في الحس، وأنهم مشتركون معه في ذلك، وليس الأمر كذلك بل فرق كثير بين من حضر مع الحق في كل حاله، وبين من غفل عنه في كل حاله، أو في بعض حاله، فمن حضر مع الحق، يشم منه رائحة المسك في صورة الدّم كدم الشهداء، ومن لم يكن كذلك، كان صورته ومضاء دماء، فالاشتراك في الدموية لا يوجب أن يكون بينهما أصلاً؛ ولذا قالوا: إن رجال الله أكثر نكاحاً من غيرهم لما أن الدم في عروقهم يستحيل نوراً: أي يرجع إلى قوته، والنور أقوى من الدم؛ لأنه من عالم البقاء، والدم من عالم الفناء، فما بينهما كما بين الدنيا والآخرة، فإذا عرفت هذا؛ فاحذر أن تقيس أهل الله في أحوالهم على غيرهم؛ فهو كقياس الغائب على الشاهد، وذلك لا يصحّ جدّاً، وقد رأيت في عصري من هو خارج عن القياس بحيث لا يعرفه إلا رب الناس، جعلنا الله وإياكم من المحققين بهم، والقائمين بنحو مطالبهم؛ إنه هو البرّ الرحيم، والزم.

علم لهم بوقت، ولا زمان، ولا معرفة محل، ولا مكان إحياء موتى صرعى يفيقون نومى متبهون لا هم إلى غيرهم طريق ولا لغيرهم إليهم سبيل، ومحل الحضور والمشاهدة، إنما هو الحمود تحت الصفات لا غير.

وقال أبو سعيد الخراز: هذا محل الفناء والبقاء، أن يكونوا فاني بالحق باقين به، لا هم كالنيام ولا كاليقظ، أوصافهم فانية عنهم، وأوصاف الحق بادية عليهم، وهو حياة تحت كشف دولة مقابلة ويقين.

وقال أيضًا: هؤلاء أئمة الواجدين ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كشف لهم حتى تبينوا جلال القدرة، وعظم الملكوت فغيبوا عن التمتع بشيء من الكون بحقيقة أحوالهم، فصاروا داهشين لا أيقاظًا ولا رقودًا.

وقال الأستاذ: هم مسلوبون عنهم مختطفون منهم، مستهلكون فيما كوشفوا به من وجود الحق.

وقال في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُھُمْ﴾ إخبار عن حسن إيوائه لهم.

ويقال: أهل التوحيد صفتهم ما قال الحق في وصف أصحاب الكهف:

﴿وَنَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ لشواهد الفرق في ظواهرهم لكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به في سرائرهم تجري عليهم أحوالهم، وهم غير مكلفين بل هم بيتون، وهم خمود عما هم به.

وفي قوله: ﴿وَنُقَلِّبُھُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وقع لي من طريان الأحوال رمز في وصف الصفات المتشابهة أضاف نقلهم إلى نفسه أي: أقلبهم بنفسه في حجر وصلتي، وهذه فيهم تلك الخاصة التي خص بها آدم بقوله: (خلقت بيدي)، فباشرهم أنوار يدي البقاء والقدم، وتقلبهم من ذات يمين الربوبية بمحض الصفة بغير التشبيه والحلول في ذات الشمال العبودية.

وذلك حين ألقاهم في قفار الأزال والآباد، ولومهم على رؤوس أودية الصفات بنعت الغيبة عن الذات، ولولا ذلك القلب الذي أرجعهم من معدن الربوبية إلى معدن العبودية؛ لتستفتهم صرصر الكبرياء في هواء عزة البقاء؛ لما أطلع عليهم الحق شمس جلاله، كادوا أن يذوبوا في رؤيتها، فقلبهم من ذات يمين الأحدية إلى ذات شمال الحدوثية؛ لبقائهم بالحق مع الحق، وإلا كيف يكون بقاء الحدث في القدم، وإذا كانوا متنغصين في مرارة التفرقة، ومباشرة الحدوثية تقلبهم من الحدثان إلى بحار العرفان فهم بين الثقلين في مقامي: الفناء والبقاء والقبض والبسط والجمع والتفرقة، وهذه من لطائف سر العارفين وتقلب أسرار الموحدين

في عالم الملكوت والجبروت، ثم أخبر سبحانه من سعة قدرته وكمال رحمته وجلال منته بأنه اختار من بين سباع البرية كلباً عارفاً، وجعله مستعداً لقبول المعرفة ممهداً لجريان أنوار محبته، ومقبلاً عليه مع أوليائه لديه بقوله: ﴿وَكَلَّبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ وضع قلب الروحاني الملكوتي في كلب، وجعل قلبه خزائنه من خزائن معارفه، وصندوقاً من صناديق جواهر سر أسرار، وحركة بسلاسل جذباته، وحبس عنايته إلى مشاهدته قربة، وعرفه طرق الربوبية وسلوك العبودية، فروحه كان روحانياً، وسره ربانياً، وشهوده روحانياً، وألبسه ما ألبس القوم؛ لذلك قرأ إلى الحق مع أوليائه من أماكن الحدثان، ويا عاقل لا تنظر إلى صورة الكلب، وغيره فإن محتمل الصفات حقائق فعله، والكلب الغير من أفعاله، والصفات والأفعال في معادنها منزّه عن التفاضل، بل إذا أضيف إلى الكون يفضل البعض على البعض من حيث العلم والحكمة، وإذا كان سبحانه اختار أحداً من خلقه بمعرفته ومحبته بحسن عنايته الأزلية لا ينظر إلى سببه، ولا إلى نسبه، ولا إلى صورته، ولا إلى رتبته بل يجري عليه بإرداته القديمة أحكام حسن عنايته فيصيره جواهر الآفاق، ويجعله لطائف الترياق، ويرفعه إلى تمام الملكوت، ويوصله إلى ميادين الجبروت.

قال الله: ﴿مَخْتَصِرٌ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٥]، فجعل الكلب معظم آياته لهم؛ حيث أنطقه بمعرفته، وكسا قلبه أسرار نوره، وأبرز له أنوار هيئته، فأضجع مقام الحرمة للرعاية بحسن الأدب بالوصيد، وبين سبحانه رتبة الإنسانية، وفضلها على الحيوانية بحيث أقامه بالوصيد، وعلى سراق الكبرياء، ووصيد مجد الجلال، وأدخلهم في فجوة الوصال سبحانه المتفضل بالكمال.

قال أبو بكر الوراق: مجالسة الصالحين ومجاورتهم يؤثر على الخلق، وإن لم يكونوا أجناساً؛ ألا ترى الله كيف ذكر أصحاب الكهف فذكر كلهم معهم لمجاورته إياهم!

ويقال: لما لزم الكلب محله ولم يجاوز حده فوضع يده على الوصيد بقي مع الأولياء كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوصلة، ثم زاد سبحانه في وصفهم عما كساهم من أنوار الجلال، وعظمته التي ترتعد من رؤيتها قلوب الصديقين، وتقشعر من صولتها جلود المقربين، وتفزع من حقائقها أرواح المرسلين بقوله: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾. إن الله سبحانه نبهنا هاهنا عن جلال قدر نبيه ﷺ بأنه تعالى ربّي روحه وعقله وقلبه وسره ونفسه في بدو الأول بنور حسن مشاهدته، وأنوار مال وجهة خاصة بلا مطالعة العظمة والكبرياء؛ لأنه كان مصطفى لمحبته مجتبي لحسن وصاله ودنو دنوه، ولطائف قرب قربه، وألبسه حلل حسن صفاته، وطيبه بطيب أنسه ونشقه ورد قدسه، وسقاه من بحر وداده

من مروق زلفته بكأس روحه، فكان عيشه مع الحق من حيث الأنس والانبساط والبسط والجمال، وكان خطابه خطاب تكرمة ومكرمة عاش في مشاهدة جماله ونيل وصاله، كان عندليب رياض الأنس، وبلبل بساتين القدس رأى الحق بعين الجمال في مرآة الجلال، ورآه بعين الجلال في مرآة الجمال، محفوظًا عن طوارق قهريات القدم، وسطوات عظمة الأزل، حاله أصفى من كدورة عيش الخائفين، وغبار أيام المجاهدين، ما وقع على سره قهر الغيرة، وما جرى على روحه سيول الفرقة، كان مرادًا معشوقًا حبيبًا محبوبًا موصولًا بالوصال معروفاً بالجمال كان من لطافته ألطف من نور العرش والكرسي، وطيبه كان أطيب من طيب الفردوس شمال جماله يهب على رياض وصال الأزل وحياة جنانه منزّه عن قهر أيدي الأجل لو رأى بالمثل نملة ملتبسة بنور هبة فعل الحق لفرغ منها من حسنه ولطافته؛ لذلك قال تعالى:

﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ﴾ يا حبيبي من حيث أنت على ما ألبستهم لباس قهر ربوبيتي وسطوات عظمتي، لوليت منهم من رؤية ما عليهم من هيتي وعظمتي، ﴿وَلَمَلِكْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾؛ لأنهم مرآة عظمتي تجلى منهم بنعت عظمتي للعالمين؛ لثلا يقربوا منهم، ويطلعوا عليهم؛ لأنهم في عين غيرتي، ولا أريد أن يطلع عليهم أحد غيري أنت يا حبيبي موضع سرى. موضع سرى، ومكان لطفي لو رأيتهم بذلك اللباس السلطاني الجباري؛ لفررت منهم، وتملأ من رؤيتهم رعبًا، كما فرّ موسى كليمي من رؤية عصاه حين قلبتها حية تسعى، وذلك من إلباسي إياها كسوة عظمتي وجلال هيتي، ففر موسى من عظمتنا، ولم يعلم من أي شيء فر ولا نقص عليك، فإنك وإن كنت مربى برؤية الحسن والجمال منا، فجميع صفات العظمة ونعوت الكبرياء، انكشفت لك في لباس الحسن والجمال، وأنت جامع الجمع.

قال جعفر: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من حيث أنت لوليت منهم فرارًا، ولو اطلعت عليهم من حيث الحق لشاهدت فيهم معاني الوجدانية والربانية.

قال ابن عطاء: لأنه وردت عليهم أنوار الحق من فنون الخلع، وأظلتهم سراق التعظيم، وأحرقت جلايب الهيبة؛ لذلك قال الله لنبيه ﷺ: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾.

وقال الحسين: لوليت منهم فرار أنفه مما هم فيه من إظهار الأحوال عليهم، وقهر الأحوال لهم مع ما شاهدته من أعظم المحل في القربات في المشاهدة، فلم يؤثر عليك بجلالة محلك.

وقال جعفر: لو اطلعت على ما بهم من آيات قدرتنا ورعايتنا لهم وتولية حفظتهم، لوليت منهم فرارًا أي: ما قدرت على مشاهدة ما بهم من هيتنا، فيكون حقيقة الفرار منا لا

منهم؛ لأن ما بدا عليهم منا.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا﴾ يا مخاطب الانفتاح أعينهم وإحساساتهم وحركاتهم الإرادية الحيوانية ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ بالحقيقة في سنة الغفل، تراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون ﴿وَنُقَلِّبُهمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أي: نصرفهم إلى جهة الخير، وطلب الفضيلة تارة وإلى جهة الشر ومقتضى الطبيعة أخرى ﴿وَكَلْبُهُم﴾ أي: نفسهم ﴿بَسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أي: ناشرة قوتها الغضبية والشهوانية ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ أي: بفناء البدن، ولم يقل وكلبهم هاجع؛ لأنها لم ترقد، بل بسطت القوتين في فناء البدن ملازمة له لا تبرح عنه والزراع الأيمن هو الغضب؛ لأنه أقوى وأشرف وأقبل لدواعي القلب في تأديبه، والأيسر هو الشهوة لضعفها وخستها.

﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على حقائقهم المجردة وأحوالهم السنية، وما أودع الله فيهم من النورية والسنا، وما ألبسهم من العز والبهاء ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ﴾ فآراً لعدم اعتقادك بالنفوس المجردة وأحوالها وعدم استعدادك لقبول كمالهم، أو لوليت منهم للفرار عنهم، وعن معاملاتهم لميلك إلى اللذات الحسية والأمور الطبيعية.

﴿وَلَمَلِكْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ من أحوالهم ورياضاتهم؛ أو لو اطلعت عليهم بعد الوصل وإلى الكمال وعلى أسرارهم ومقاماتهم في الوحدة لأعرضت عنهم، وفررت من أحوالهم وملئت منهم رغباً؛ لما ألبسهم الله من عظمتهم وكبريائهم، وأين الحدث من القدم وأنى يسع الوجود العدم.

ثم أخبر سبحانه عن ارتفاع أثقال العظمة عنهم، وإفاقتهم عن سكر المشاهدة، وحضورهم بعد الغيبة، بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ فيه إشارة أنهم في بديهة وقائع الغيب، وهم أهل البدايات في المعرفة، وهجوم غلبات الوجدان؛ لذلك هاموا في الغيب وطاشوا في القرب، ولو كانوا في محل التمكين والصحو ما غابوا عن الإحساس ورسوم المعاملات، ويكون حالهم كحال نبينا ﷺ حين دنا وثبت في التدلي، واستقام في منازل الأعلى، واستقر بين أنوار القدم والبقاء بنعت الصحو والصفاء.

وقال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١)، ولو أن ما ورد عليه من أحكام الربوبية في المشاهدة، ورد منه على جميع الأولين والآخرين لطاشت عقولهم، وطار

أرواحهم، وفنيت قلوبهم واستهلكت نفوسهم، ولكن ما أطيب زمان السكر للمريدين، والمحبين، والشائقين، والعاشقين أخذهم سكر الوصال عن المقييل والقال، وعن الاشتغال والمحال، وغيبهم في أنوار الجمال والجلال؛ حتى لم يحسوا شيئاً من الحدثان من ذوق وصال الرحمن، ما أطيب تلك الأوقات السرمدية، والأحوال المقدسة بحيث ما لهم خبر عن مرور الزمان، وحوادث الملوان.

شُهُورٌ يَنْقُضِينَ وَمَا شِغْرُنَا بِإِنْصَافٍ لَهُمْ وَلَا شِرَارُ
ما أقل زمان الوصال لعشاق الجمال والدهر عندهم في المشاهدة ساعة، وإعمار
العاملين في منازل أنسهم لمحة.
وأنشد:

صَبَاحُكَ سُكْرٌ وَالْمَسَاءُ خَمَارٌ نَعِمْتَ وَأَيَّامُ السُّرُورِ قِصَارُ
زمان القربة قليل وزمان الفرقة طويل، وذلك من غيرة العشق المجران في كمين الغيرة
مقيم وملدوغ الفراق من سم أفاعي الغيرة سليم، لا يصير الدهر؛ حتى يفرق بين العاشقين
والمعشوقين، وأنشد:

عَجَبْتُ بِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكِرَ الدَّهْرُ
كانوا لا يعرفون اليوم من الأمس، ولا يعلمون من حدة الحال القمر من الشمس:
﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.
استقاموا مقام الوصال واستلذوا لطائف الجمال وتخططوا في المقال، وما كان ذلك إلا
من خمار سكر الأحوال ذكروا أيام الوصلة في مقام الفرقة، وتعاضموا لطائف المؤانسة في
منازل الوحشة، واشتاقوا إلى معاهد المشاهدة، وأيام المدانة.
وأنشدوا:

سَلَامٌ عَلَى تِلْكَ الْمَعَاهِدِ إِنَّهَا شَرِيعَةٌ وَرِدٌ أَوْ مَهَبٌ بِشَمَالِ
لَيَالِي لَمْ تَحْصِرْ حُرُونَ قَطِيعَةً وَلَمْ يَمْشِ إِلَّا فِي سُهُولٍ وَصَالِ
فَقَدْ مَرَّتْ أَرْضِي مِنْ سَوَاكِينِ أَرْضِهَا تَجَلَّبُ بِبَرْقٍ وَبَطِيفِ خَيَالِ
قال ابن عطاء: مقام المحب مع الحبيب، وإن طال فإنه قصير عنده إذ لا يقضي من
حبيه وطراً، ولو مكث معه دوام الدهر، فإن انتهاء شوقه إليه؛ كالابتداء، فانتهاؤه فيه ابتداء،
فلما رجعوا من مقام الجذب إلى مقام السلوك، ومن مقام الروحانية إلى مقام البشرية،
واحتاجوا إلى ما يعيش به الإنسان، استعملوا حقائق الطريقة بقوله سبحانه:

﴿فَاتَّبِعُوا أَحَدَكُمْ يَورِقْكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ لما

استطابوا الخلوة فلم يخرجوا، وأمر المبعوث في طلب الرزق فتركوا السؤال، واستعملوا الكسب بقوله: ﴿فَاتَّبَعُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾، ثم أمروه باستعمال الورع؛ لأن الورع من موجبات الطريقة وحقوق الحقيقة، وهذا دأب الأئمة.

لذلك قال ذو النون: لا يطفأ نور المعرفة نور الورع، وأمروه بالمراقبة؛ حتى لا يطلع عليهم أحد، وفيه بيان أن الكسب أيضًا من التوكل؛ لأن القوم بحمد الله لم يخلوا من مقام التوكل، وفيه بيان أن أهل الوجد والحال والمكاشفة والمقال، هم أهل الغذاء المحمود اللطيف من لطف الطعام؛ لأن أرواحهم من عالم القدس، ولا يليق بهم إلا ما يليق بأهل الأنس من أكل الطيبات، وأشهى المأكولات، ولبس الناعمات.

قال جعفر بن أحمد الرازي: أوصى يوسف بن الحسين بعض أصحابه فقال: إذا حملت إلى الفقراء وأهل المعرفة شيئًا، واشتريت لهم طعامًا فليكن لطيفًا، فإن الله تعالى وصف أصحاب الكهف حين بعثوا من يشتري لهم طعامًا قالوا: ﴿وَلَيْتَلَطَّفُ﴾ وإذا اشتريت للزهاد والعباد فاشتر كل ما تجده فإنهم بعد في تذليل أنفسهم، ومنعها من الشهوات.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن^(١): سمعت أبا عثمان المغربي يقول: إرفاق المريدين بالعنف، وإرفاق العارفين باللطف.

وقال الأستاذ: تواصلوا فيما بينهم بحسن الخلق وجميل الرفق أي: ليتلطفن مع من يشتري منه شيئًا.

ويقال: من كان من أهل المعرفة لا يوافقته الخشن الملبوس، ولا النازل في الطعم من المأكول.

ويقال: أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات، فطعامهم الخشن ولباسهم كمثله والذي بلغ المعرفة لا يوافقته أكل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل مريح.

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: مثل ذلك البعث الحقيقي والإحياء المعنوي، بعثناهم ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليتباحثوا بينهم عن المعاني المودعة في استعدادهم الحقائق المكنونة في ذواتهم، فيكمل بإبرازها وإخراجها إلى الفعل، وهو أول الانتباه الذي تسميه المتصوفة اليقظة.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ مرّ تأويله النفس الرشيد السمة الفاضل السيرة النقي السريرة الكامل المكمل دون الفضولي الظاهري الخبيث النفس المتعالم المتصدر لإفادة ما ليس

(١) يعني السلمي في حقائق التأويل.

عنده ليستفيد بصحبته ويظهر كماله بمجالسته ويستبصر بعلمه فيفيدنا أو ليتلطف في أمره حتى لا يشعر بحالكم ودينكم جاهل من غير قصد.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ من أهل الظاهر المحجوبين، وسكان عالم الطبيعة المفكرين، وإن أولنا أصحاب الكهف بالقوى الروحانية فالبعوث هو الفكر والمدينة محل اجتماع القوى الروحانية والنفسانية والطبيعية، والذي هو أذكى طعامًا العقل دون الوهم والخيال والحواس؛ لأن كل مدرك له طعام والرزق هو العلم النظري على كلا التقديرين: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ من القوى النفسانية.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا﴾ أي: يغلبوا ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بحجارة الأهواء والداعي من الغضب والشهوة، وطلب اللذة فيقتلوكم بمنعكم عن كمالكم.

﴿أَوْ يُعَذِّبُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ باستيلاء الوهم وغلبة الشيطان والإمالة إلى الهوى، وعبادة الأوثان على التأويل الأول ظهور العوام، واستيلاء المقلدة والحشوية المحجوبين، وأهل الباطل انطبوعين، ورحمهم أهل الحق ودعوتهم إياهم إلى ملتهم ظاهر كما كان في زمان رسول الله ﷺ.

﴿وَكَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا﴾ أي: مثل ذلك البعث والإماتة، اطلعنا على حالهم المستعدين القابلين لهديهم ومعرفة حقائقهم ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ بصحبتهم وهدايتهم.

﴿أَنْ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ﴾ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ ﴿أي: حين يتنازع المستعدون الطالبون بينهم أمرهم في المعاد، فمنهم من يقول: إن البعث مخصوص بالأرواح المجردة دون الأجساد.

ومنهم من يقول: إنه بالأرواح والأجساد معًا، فعلموا بالاطلاع عليهم ومعرفتهم أنه بالأرواح والأجساد، وأن المعاد الجسماني حق.

فقالوا ﴿أَبْتُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ أي: فلما توفوا قالوا ذلك كالحائقات والمُشاهد والمزارات المبنية على الكمل المقربين من الأنبياء والأولياء كإبراهيم ومحمد، وعلي وسائر الأنبياء والأولياء - عليهم الصلاة والسلام - ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ من كلام أتباعهم من أمهم المقتدين بهم أي: هم أجل وأعظم شأنًا من أن يعرفهم غيرهم الموحدون الهالكون في الله المتحققون به، فهو أعلم بهم، كما قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ تَحْتَ قِبَاطِي لَا يَعْرِفُونَهُمْ غَيْرِي﴾^(١).

(١) ذكره الشيخ حقي في روح البيان (٧٩/٩).

﴿قَالَ الَّذِينَ عَلَبُوا عَلَىٰ آمُرِهِمْ﴾ من أصحابهم والذين يلون أمرهم تبركاً بهم
ويمكانهم ﴿لَنَتَّخِذَنَّهُمْ عَلَيْهِنَّ مُسْجِدًا﴾ يصلي فيه.
﴿وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَن السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ
يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ قَالَ الَّذِينَ عَلَبُوا
عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّهُمْ عَلَيْهِنَّ مُسْجِدًا ﴿١٦﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ
خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهِيرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا
﴿١٧﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿١٨﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكِرْتَلِكَ إِذَا نَسِيتَ
وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِن رَّشْدٍ أَهَذَا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ بَيَّنَّ أَن القوم بلغوا إلى مشاهدة جلال ازله، وأغرقهم
في بحار أبده، ووجدوا منها جواهر أسرار محبته، وقرب وصاله ما لا يطلع عليها أحد غير
الله، فنفى إحاطة علم الغير بهم فكانه أخبر عما عمرهم من سطوات العزة، واستيلاء قهر
الربوبية ما أفناهم أي: أنا أعلم بما هم فيه من فنائه في الوجد والموجود، أخبر عن عظيم ما
ورد عليهم من سلطان قهر مشاهدة قدمه.

قال ابن عطاء: ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ حيث أظهر عليهم عجائب صنعه، وجعلهم أحد
شواهد عزته، وجعلهم بالمحل الذي خاطب به النبي ﷺ فهم فقال: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ
لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ [الكهف: ١٨]

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: الظاهريون من أهل الكتاب والمسلمين الذين لا علم لهم بالحقائق
وقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أي: رميًا بالذي غاب عنهم يعني ظناً خالياً عن اليقين بعد قولهم:
﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ﴾ بينائه والأمرون هم الغالبون الذين قالوا:
﴿لَنَتَّخِذَنَّهُمْ عَلَيْهِنَّ مُسْجِدًا﴾ يسجد أي: ينقاد فيه جميع القوى الحيوانية والطبيعية
والنفسانية، والمأمورون هم المغلوبون الفاعلون في البدن، المبعوث فيه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ إن الله سبحانه أعلم نبيه
وأدب حبيبه في منازل العبودية ومشاهدة الربوبية بمحو الوجود عند وجود القديم الأزلي،
وأن يرى الكل قائماً بالله في مقام التوحيد مع الكل في غير الجمع باثناً عن الكل في أفراد القدم
عن الحدوث، ومحض التجريد والتفريد، وقطع حدود علوم الخليقة عما في المشيئة الأزلية

فأعلم معنيين: إثبات الكسب وسبق التقدير، وأبهم أسرار المسببة على الكل في بيان الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ .

قال بعضهم: لم يطلق لرسوله ﷺ أن يخبر عن الحق إلا بما أخبره الحق، ولم يأذن له في الإخبار عن نفسه إلا عن مشيئة ربه فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ... إلخ.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ أدبه بالتأديب الإلهي بعد ما نهاه عن المماراة والسؤال فقال: لا تقولن إلا وقت أن يشاء الله بأن يأذن لك في القول فتكون قائلاً به، وبمشيئته أولاً بمشيئته على أنه حال أي: ملتبساً بمشيئته، يعني لا تقولن لما عزمت عليه من فعل أني فاعل ذلك في الزمان المستقبل إلا ملتبساً بمشيئة الله، قائلاً: إن شاء الله أي: لا تسند الفعل إلى إرادتك بل لإرادة الله فتكون فاعلاً به وبمشيئته.

ثم بين سبحانه أن من شاهد نفسه في مشاهدة الحق حيث طوى عليه أحكام رسوم الاكتساب من جهة الأمر، ولم يسقط شهود نفسه وكسبه، فقد نسي الحق بقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فإن قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ عقيب قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ﴾ يدل على ذلك أي: إذا شاهدت نفسك فقد غبت مشاهدة ربك فاذكره أي: شاهده مشاهدة تغيبه في مشاهدة عن مشاهدتك نفسك.

وأيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ إذا كنت متصفاً متحداً بربك حين يغلب عليك سر الأنانية، فإذا ذكرت ربك في مقام الأنانية خرجت من حد الخداع والتلبيس الصادرين من مكر القدم، وإذا ذكر قدمه بان عدمه وإذا بان عدمه تلاشى الحدث في القدم، ولم يبق إلا القدم، ويتبين أمر العبودية عند الربوبية.

وأيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ إذا غبت في مشاهدة المذكور؛ حتى يتخلص من غمار الفناء في الوجدانية، ويبقى ببقاء الحق ورؤية الأبدية، فإنك إن لم تذكر ربك، ولم ترجع من رؤية المذكور إلى ذكره تفنى فيه، ولا تدرك حقائق وجوده فإن السكران الفاني لا يظفر بها يظفر الصاحي المتمكن.

وأيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ من مشاهدته، وغيب عن شهود عليك حتى فصل بالذكر إلى رؤية المذكور.

وأيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ذكرك له فإن رؤية الذكر في رؤية المذكور نسيان المذكور بالحقيقة.

وأيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الكون والحدوثية، فإن ذكره لا يكون ذكراً

حقيقياً إلا بنعت فناء ما دونه، فإذا فني الحدث في القدم صار الذكر صافياً.

وأيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ ما جدت منه، فإن الوقوف في المقامات حجاب ذكر الحقيقة.

وأيضاً: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فسك فإن في رؤيتك وجودك، وبقاء وجودك لا يكون الذكر بحقيقة الانفراد، ورسم أفراد القدم على حدوث، ثم أمره سبحانه أن يخاطب أهل السر من المعرفة بترجييه وصول أدنى الدنو وأعلى العلو بقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾. كان ﷺ أقرب الخلق من الله بنفس المعرفة والاصطفائية الأزلية، لكن كان مع محله وشرفه في حيز حقائق المعرفة، قطرة في بحر الأزلية، فأمره الحق أن يسأل منه مزيد ما فيه من طرائق حقائق عرفان الأزلية، وأقرب ما يكون فيه من وصول الوصول، فإن الحق غير متناه من جميع الوجوه.

قال ابن عطاء: إذا نسيت نفسك والخلق فاذكرني فإن الأذكار لا تمازج ذكرى.

قال الجنيد: حقيقة الذكر فناء الذاكر فيه، والذكر في مشاهدة المذكور.

قال الشبلي: ما هذا خطاب أهل الحقيقة وأنى ينسى المحق الحق فيذكره، بل يذكر حياته وكونه.

وأنشد:

لَا لَأَنِّي أَنَسَاكَ أَكْثَرُ ذِكْرَاكَ وَلَكِنْ بِذَاكَ يَجْرِي لِسَانِي

وقال الجنيد: حقيقة الذكر الفناء بالمذكور عن الذكر؛ لذلك قال الله تعالى:

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي: إذا نسيت الذكر يكون المذكور صفتك، وقد وقع لي نكتة هاهنا.

قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الذكر حق جميع الذات والصفات ولا نهاية لهما، وذكر جميعه ما واجب الحقوق على الخلق والصفات القديمة، والذات الأولى غير مذكور بذكر الحدثان، كأنه تعالى أعلم نبيه ﷺ جميع فكره ما بلغ إلى وصف ذرة من صفته، فكل وقت مع جميع ذكره في حد النسيان، حيث لا يبلغ ذكره حقائق القدم.

قال: ﴿وَأَذْكُرْ﴾ بعد ذكرك ولا تفر عن ذكرك، فإن ذكرك على السرمدية واجب أبداً؛ لأن بعد كل ذكر نسيان عن الباقي، فإذا لا ينقطع الذكر أبداً يدل على ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾.

أي: بمعرفتي معرفة المذكور بنعت مشاهدته، ورؤية ذاته وصفاته، بوصف فنائي

وفناء ذكر فيه .

قال الجنيد: إن فوق الذكر منزلة هي أقرب رشدًا من ذكره له، وهو تجديد للنعوت بذكره لك قبل أن يسبق إلى الله بذكره .

وأيضًا لي نكتة في الذكر أي: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فإنك إذا ذكرته بلسان الحديثه نسيته، وإن أردت أن تذكرني بالحقيقة التي لا نسيان فيها، ولا فترة فاتصف بصفتي ثم اذكرني بصفتي حتى يصل ذكرك إلي بالحقيقة.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ بالرجوع إليه والحضور ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ بالغفلة عند ظهور النفس بظهور صفاتها ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾.

أي: من الذكر عند التلوين، وإسناد الفعل إلى صفاته بالتمكين، والشهود الذاتي المخلص عن حجب الصفات ﴿رَشَدًا﴾ استقامة وهو التمكين في الشهود الذاتي.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ من التي تُبْتَنَى على دور القمر فتكون كل سنة شهرًا ومجموعها خمسة وعشرون سنة، وذلك وقت انتباههم وتيقظهم.

﴿وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ هي مدة الحمل، وروعت في الآية نكتة هي أنه لم يقل ثلاثمائة سنة وتسعًا أو ثلاثمائة وتسع سنين؛ لاستعمال السنة في العرف وقت نزول الوحي في دورة شمسية لا قمرية، فأجمل العدد، ثم بينه بقوله سنين فاحتمل أن يكون المميز غيرها كالشهر مثلاً، ثم بين أن المدة سنين مبهمه غير معينة، إذ لو قيل ثلاثمائة شهر، فأبدل سنين من مجموع العدد كانت العبارة صحيحة، والمراد سنين كذا عددًا أي: خمسة وعشرين ويؤيده قوله بعده.

﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وقال قتادة: هو حكاية كلام أهل كتاب من تنمة، سيقولون.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ رد عليهم، وفي مصحف عبد الله وقالوا: ﴿لَبِثُوا﴾ وذلك أن اليقين غير محقق ولا مطرد.

﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ يجوز أن تكون من لا ابتداء الغاية، والكتاب هو اللوح الأول المشتمل على كل العلوم الذي منه أوحى إلى من أوحى إليه، وأن تكون بيانًا لما أوحى والكتاب هو العقل الفرقاني وعلى التقديرين ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ التي هي أصول الدين من التوحيد والعدل وأنواعهما.

﴿وَلَنْ نَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ تميل إليه لامتناع وجود ذلك.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا

لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ
تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٩﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ
عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُ﴾ هذا تسلية لنبيه ﷺ فإنه كان ﷺ بقلبه في الملكوت، وبروحه في الجبروت، وبسره في
مشاهدة القدم، ويعقله في أنوار غيبه مشتاقاً إلى الحق، لا يصبر في الدنيا بأن يكون مع الخلق
بالصورة، وكان يريد أن يطير إلى منازل قاب قوسين كل وقت؛ لما رأى بين القوسين بغير
الكونين مشاهدة الجلال والجمال.

فقال سبحانه احبس نفسك مع هؤلاء الفقراء العاشقين بجمالي المشتاقين إلى جلالي،
الذين في جميع الأوقات يسألون عني لقاء وجهي الكريم، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة
إلى عالم وصلتي حتى يكونوا متسلين بصحبتك عن مقام الوصال، فإن في رؤيتك لهم رؤية
ذلك الجمال فتكون معهم موافقاً وسرك وعقلك وروحك وقلبك عندي فإنها مواضع تجلي
كبريائي وأسرار عزتي، ولا يطيق الكون أن يكون في جوار قلبك، فإن قلبك معادن أسرار
العلين، ومزار الكروبيين وهو عرش تجلي القدم، ومعادن عيون الكرم، ولا يليق به مصاحبة
أهل العدم.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾^(١) فإنهم ينظرون بعينك إليَّ إذا كانت عينك في طلب
مشاهدي في مرآة أفعالي من الخلق والخلقة.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ بأن يواسيك بروية الأكوان والحدثان؛ لزيادة العرفان،
فإن الوسائط في الحقيقة تورث الغفلة عنا، وهو سبحانه شغل قلوب الخلق بخلقه عن خلقه،
وحجبهم بروية الخلقة عن مشاهدة الحقيقة، فمن غافل سبب غفلته الجنة، ومن غافل سبب
غفلته خوف النار، ومن غافل سبب غفلته استكبار العبودية، ومن غافل غفلته رؤية
الأعواض، ومن غافل غفلته رؤية الكرامات، ومن غافل سبب غفلته المجاهدات، ومن

(١) أي: عين الأزل، وعين الأبد، وأثر عدم العد، وحبس النفس معهم: أي الصحبة بهم في عالم الحس؛ لأن
هذه الصحبة أثر صحبة الروح، فإن أرواح المؤمنين فائضة من نور محمد ﷺ؛ فهي كالأولاد له، ولا
شك أن الآباء والأولاد متصل بعضهم ببعض؛ فهم في صحبة واحدة في المعنى، والصورة فافهم جداً.

غافل غفلته العيش الهنيء في الدنيا.

وأدق الغفلة السكون بما وجد من الحق والوقوف مع مقام الحظ، فالكل محجوبون عن مشاهدة الأزل صرفاً أي: لا تكن مثل هؤلاء الواقفين على مقاماتهم المحجوبين بحفظهم من أحوالهم.

قال ذو النون: أمر الله تعالى الأغنياء بمخالطة الفقراء والصبر معهم والاستئناس بهم.

قال الله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(١).

وقال عمرو المكي: صحبة الصالحين والفقراء الصادقين عيش أهل الجنة، يتقلب من الرضا إلى اليقين ومن اليقين إلى الرضا.

وقال ابن عطاء: خاطب الله نبينا ﷺ وعاتبه ونبهه، وقال واصبر على من صبر علينا بنفسه وقلبه وروحه، وهم الذين لا يفارقون محال الاختصاص من الحضرة بكرة وعشيا، فحق لمن يفارق حضرته أن تصبر عليه فلا تفارق.

وسئل أبو عثمان عن الغفلة فقال: إمهال ما أمرت به ونسيان تواتر نعم الله عندك.

وقال بعضهم: الغفلة عقوبة القلب، وهو حجاب عن المنعم.

وقال سهل: الغفلة يبطل الوقت بالبطالة.

وقال الأستاذ قال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ لم يقل قلبك لأن قلبه كان مع الحق فأمره بصحبة الفقراء جهراً بجهر، واستخلص قلبه لنفسه سر السر.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ أمر بالصبر مع الله وأهله وعدم الالتفات إلى غيره، وهذا الصبر هو من باب الاستقامة والتمكين لا يكون إلا بالله ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: دائماً هم الموحدون من الفقراء.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ

(١) أسند الإغفال إلى نفسه تعالى؛ والمراد إظهار الغفلة التي تجبل الغافل عليها في الأزل، فإن الاستعدادات والأقضية التي تجري عليها ليست بمجعولة، فلا جبر من الخالق للخلق. وقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ تميم لا تباع الهوى؛ أمر قصدي أولاً، ثم أمر فعلي ثانياً؛ كالإرادة والدعاء بالنسبة إلى الذكر؛ لكن قدّم الفعل هناك؛ وهو الدعاء إشارة إلى الحكمة، وأخسر هنا إشارة إلى العلم، فتفطن لهذه المقام، والله العلام.

الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٠﴾ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أُعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهَا بِتَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٢١﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٢﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٢٣﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٢٤﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٥﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٢٦﴾ لَيْكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٢٨﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٢٩﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤها غُورًا فَلَنْ نَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٣٠﴾ وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣١﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ إن الله سبحانه علم من كتمان نبيه ﷺ سر أسرار الأزل وماله من عند الله من علومه الغريبة وأنبائه العجيبة من العلوم المجهولة ولطائف الحقيقة، وأحكام صفاته المتشابهة من شفقتة على أمته، وعلم بضعف جلهم أثقال تلك الحقائق، فأمره الحق ألا يكتُم تلك الأسرار التي إعلام فضائله وفضائل خواص أهل الولاية وأسرار الربوبية في قلوبهم ويفشيها، ولا يخاف من إيمان الخلق بها وإنكارهم عليها، فإن العاشق الصادق لا يبالي بهتك الأسرار عند الأغيار ولا يخاف لومة لائم ولا يكون في قيد إيمان الخلق وإنكارهم، فإن لذة عشقه في هتك الأسرار أصفى، والحلاوة عيشه في ذلك أشفى؛ ألا ترى إلى قول القائل:

أَلَا اسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أَمَكَّنَ الْجَهْرُ

وَبُخْ بِاسْمِ الْهَوَىٰ وَدَغْنِي مِنَ الْكُنَى فَلَا جَبْرٌ فِي اللَّذَاتِ مِنْ دُونِهَا

كانه تعالى حث نبيه ﷺ على التحديث بنعمه بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

وإشارة الظاهر أي: بين طريق الرشد عن الغي لمن تابع الرشد فلا يتبعه إلا بتوفيق الأزل في الغي ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ [يونس: ١٠٨] ، ﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ [طه: ١٢٣] إلا بسابق قدر الحق.

قال ابن عطاء: أظهر الحق للخلق سبيل الحق وطرق الحقيقة، فمن سالك فيه بالتوفيق ومعرض عنه بالخذلان.

وهذا قوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فمن شاء الحق له الهداية هداه بطريق الإيمان، ومن شاء الله له الإضلال سلك به مسلك الكفر وهو الضلال البعيد.

﴿مُحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: يزينون فيها بأنواع الحلي من حقائق التوحيد الذاتي ومعاني التجليات العينية الأحدية، إذ الذهبيات من الحلي هي العينية والفضيات هي الصفاتيات النورانيات كقوله تعالى ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ يتصفون بصفات مهيبة حسنة نظرة موجبة للسرور ﴿مِنْ سُنْدُسٍ﴾ الأحوال والمواهب؛ نكونها أطف، ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ الأخلاق والمكاسب؛ لكونها أكثف ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى﴾ أرائك الأسماء الإلهية التي هي مبادئ أفعاله لاتصافهم بأوصافه، وكون الصفة مع الذات هي الاسم المستند هو عليه في جنة الصفات والأفعال.

﴿نِعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ في مقابلة (بش الشراب رساء مرتفقا).
﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ ١١ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ١٢ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ١٣ وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ١٤ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ١٥ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ١٦

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ إن الله

سبحانه وصف الذين عملهم الصالح ،ترك ما دونه وهو بكرمه ورحمته يجازيهم به قربته ومشاهدته، ويدخلهم قباب أنسه رياض قدسه، وإلباسه إياهم أنوار جمال وجلاله فيكونون مزينين بحلي كرامته، ولباس رأفته مستندين به إليه بنعت رؤية الرضوان الأكبر، والحظ الأوفر نعم الثواب صلتته، ونعم حسن المرتفق مرتفقهم مجالس الوصال ورؤية الكمال والجلال والجمال.

قال ابن عطاء: على آرائك الأنس في رياض القدس في حجاب القرب وميادين الرحمة مستشفون على بساتين الوصلة مشاهدون مليكهم في كل حال.

قال الأستاذ: يلبسون حلل الوصلة، ويتوجون بتاج القربة، ويحلون بحلي المباشطة يتكثون على آرائك الروح يشمون رياحين الأنس، ويقيمون في حجال الزلفة، يسقون شراب المحبة.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ أخبر عن كمال حفظه أوليائه يوم القيامة عن التحير فيه، فإذا يحفظهم عن قهر سلطان ربوبيته، ويدخلهم في منازل وصلته فتلك الولاية الحققة له التي خص بها في الأزل أهل وداده وهي أرفع المنازل، وأشرف المناهل، وأحسن العواقب، وأكرم المناقب، والولاية الحق في الدنيا والآخرة هي ما صدرت من اختياره الأزلي وإرادته القديمة، وحقيقتها ألا يخذل من اصطفاها بها.

قال الواسطي: من تولاه الله بالحقيقة فهو الولي، ومن تولاه الله فيه فهو الولي.

قال ابن عطاء: الحق أسبق من حقيقة الحق، وهو يدعوك إلى حقه فإذا طلبته لنفسك يأتي عليك.

ألا ترى إلى قوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ هو خير ثوابًا وخير عقبًا ثواب للطالبين له لا لطالب الجنة، وخير أمد للمريدين.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ معناه: المحبة الدائمة غير مشوب بشوب الحداث، ولا بغبار الحرمان.

وأيضًا: المعرفة الكاملة التي صدرت من رؤية ذاته وصفاته في قلوب العارفين.

وأيضًا: الأنس بالله والإخلاص في توحيد الله، والانفراد بالله عن غير الله، وهذه المنازل باقية للعارفين، وهي صالحة لا اعوجاج لها على حد الزائد، وهي خير المنازل؛ لأنها وصف بقاء العارف مع بقاء الحق.

قال جعفر الصادق: ﴿وَالْبَقِيَّتُ الصَّلَاحُ﴾ هو تفريد التوحيد فإنه باق ببقاء الموحد.

وقال ابن عطاء: هي الأعمال الخالصة والنيات الصادقة، وكل ما أريد به وجه الله.
وقال يحيى بن معاذ: هي نصيحة الخلق.

ويقال: ما يلوح في السرائر من تجليه للعبد بالنعوت، ويفرح نشره في سماع الملكوت، ثم أخبر سبحانه عن عظيم قدره، وجلال وعظم كبريائه، وسلطانه تخويفاً لعبادة، وتبنيها لهم عن عظيم آياته بقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ إن الله سبحانه يتجلى بعظمته يوم القيامة للجبال فتقلع الجبال من أصلها، وترقص في الهواء، وتصدم بعضها بعضاً؛ حتى تمهل وتصير غباراً من خشية الله وهيبته، وبقيت الأرض باردة؛ حتى لا يكون حجاب بين أحد من الواقفين عليها.

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ﴾ أي: نذهب جبال الأعضاء بالتفتيت فتجعلها هباءً منثوراً.
قال ابن عطاء: دل بهذا على إظهار جبروته، وتمام قدرته، وعظم عزته ليتأهب العبد؛ لذلك الموقف ويصلح سريره وعلايته لخطاب ذلك المشهد وجوابه.

قال الأستاذ: موت الأبدال الذين هم الأوتاد، ومنهم القطب فجبال الأرض التي هي أوتادها لتقنع في القيامة، وتسير جبال الأرض بموت السادة إذ هم الأوتاد للعالم بالحقيقة.

﴿وَتَرَى﴾ أرض البدن ﴿بَارِزَةً﴾ لا ظاهرة مستوية مسطحة بسيطة، كما كانت لا صورة عليها، ولا تركيب فيها تراباً خالصاً ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ الضمير إما للقوى المذكورة وإما لأفراد الناس ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ غير محشور.

قوله تعالى: ﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَيْكَ صَفًّا﴾ عرف كل صنف من أهل المقامات والولايات، وكل من لله دعوى من بساط عزته بما هم فيه في أيام البلاء في دار العناء، فيشهد كل مشاهد مشهده فمن شاهد يشهد مشاهد المنة، ومن شاهد يشهد مشاهد الوصلة، ومن شاهد يشهد مشاهد الصفات ومن شاهد يشهد مشاهد الذات، فمن كان مشربه المحبة فيكون في بحر الجمال، ومن كان مشربه الهيبة فهو في بحر الجلال، ومن كان مشربه المعرفة فهو في بحر الصفات، ومن كان مشربه التوحيد فهو في بحر الذات، ومن كان مشربه الجولان في الأفعال فموضعه مقام الجوار في الجنان، ومن كان محجوباً في الدنيا عن هذه الأحوال فموضعه النيران.

قال الأستاذ: يقيم كل واحد يوم العرض في شاهد مخصوص، ويلبس كلا بما هو أهله، فمن لباس تقوى، ومن قميص هدى، ومن صدار وجد من صدره محبة، ومن لبسه شوق، ومن حله وصلة.

ويقال: يجردهم عن كل صفة إلا ما عليه فطرهم يوم القيامة فينادي المنادي على أحدهم هذا الذي أطاع واتقى، وهذا الذي عصى وطغى، وهذا الذي أتى ووجد، وهذا الذي أبى وجحد، وهذا الذي عرف فأقر، وهذا الذي خالف فأصر، وهذا الذي أنعمنا عليه فشكروا، وهذا الذي أحسنّا إليه فكفر، وهذا الذي سقيناه شرابنا ورزقناه محابنا، وشوقناه إلى لقائنا، ولقيناه خصائص مراعتنا، وهذا الذي وسمناه بحجتنا وحرمانه وجوه قربتنا، وألبسناه نطاق فراقنا، ومنعناه توفيق وفاقنا، وهذا وأخجلتنا من وقوفي وسط دراهم إذ قال لي معرضاً: من أنت يا رجل.

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ عند البعث ﴿صَفًّا﴾ أي: مصطفىين مترتين في الموافق لا يحجب بعضهم بعضاً كل في رتبة ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ أي: قلنا لهم ذلك اليوم لقد جئتمونا حفاة عراة عزلاً فرادى أي: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ بإنكاركم البعث ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ وقتاً لإنجاز ما وعدتم على ألسنة الأنبياء من البعث والنشور.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ شاهدوا الحق على وصف فطرة الأولية حيث لا أعمال، ولا أحوال، ولا نطق، ولا أقوال محتاجين إلى عين منه ينظرون بها إليه، وإلى سمع منه يسمعون بها منه، وإلى قلب يعقلون به عنه، وإلى روح يعيشون به، وهم هناك على حد الفناء عن أوصاف الخليقة مغلوبين بأسرار قهر الأزل دهشين بين يدي جبروته؛ كأنهم يخرجون من العدم عاجزين في أنوار القدم يسألون عنهم على أي شيء كنتم، وعلى أي موقف وقفته من معرفة الجلال ومحبة الجمال فيهيجهم فضله العميم وكرمه القديم إلى نطق بالجواب فيقولون: نحن ما كنا في مهاد الولاية شاريين ألبان الزلفة من ثدي القربة، ساكنين عن غبار الوحشة، والآن جئناك على لباس العبودية ملامين في دار المحبة.

قَالَتْ سَكِينَةُ مَنْ هَذَا؟ قُلْتُ لَهَا أَنَا الَّذِي أَنْتَ عَنْ أَغْزَائِهِ زَعَمُوا

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ كتاب الأعمال يوضع الزهاد والعباد، ويوضع كتاب الطاعة والمعصية للعموم، ويوضع كتاب المحبة والشوق والعشق؛ لأهل الخصوص فكم من زفرة مكتوبة، وكم من أوه مكتوب، وكم من غيرة منقوشة، وكم من حرقة معرفة، وكم من لوعة الاشتياق مشهودة، وتلك الكتب بنظائر حقائق أنوار أسرارهم مشحونة، وهي لفصائل هؤلاء المشتاقين منشورة، وأودعت الفؤاد كتاب شوق سينشر طيه يوم القرار بعرض كتبهم على الأولين والآخرين؛ حتى يعترفوا بجهلهم عن معرفتهم في الدنيا بأستار، فكم من عارف ليس كتاب، وهو من أهل السر في سر السر ما عرف ملكه ما

جرى عليه، كيف يكتبان الذي لا يعرفان ولا يرانه، فأعماله قلبية وقلبه غيبي، وغيبه أزلي لا يطلع عليه إلا الحق سبحانه.

وهذا كقوله ﷺ: «إن لله عبادًا لا يطلع عليهم ملك مقرب، ولا نبي مرسل»^(١) وهو من أهل خصوص الخصوص ظاهر الآية تخويف لمن له خاطر من الخواطر المذمومة، ونفس من أنفاسه المعدودة المعلومة المشوبة بالتفات سره إلى غير الحق.

قال أبو حفص: أشد آية في القرآن على قلبي قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ انظروا إلى المخالفات كان فيها الهلاك، ونظروا إلى الموافقات وجدوها مشوبة بالرياء والسمعة والشهوات فخوف أهل اليقظة من الموافقات أكبر من خوفهم من المخالفات؛ لأن المخالفات في مقابلة العفو والشفاعة وسوء الأدب في الموافقة أصعب وأكثر خطرًا، ولو لم يكن فيه إلا المطالبة بصدق ذلك. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: كتاب القالب المطابق لما في نفوسهم من هيئات الأعمال الراسخة فيهم، ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُسْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ لعثورهم به على ما نسوا ﴿وَيَقُولُونَ بَنَوْنَا﴾ يدعون التهلكة التي هلكوا بها من أثر العقيدة الفاسدة، والأعمال السيئة.

﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ لكون آثار حركاتهم وأعمالهم كلها باقية في نفوسهم صغيرة كانت أو كبيرة ثابتة في ألواح النفوس الفلكية، وأيضًا مضبوطة فيها، تظهر عليهم على التفصيل في نشأتهم الثانية لا محيص لهم عنها وهذا معنى قوله: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ سر معنى سجود الملائكة وإباء إبليس.

وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ كلامٌ مستأنف، كأن قائلًا قال: ما بال إبليس لم يسجد قال: كان من الجن أي: من القوى البدنية المخفية المواد؛ فلذلك فسق ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي: لا احتجابه بالمادة ولواحقها.

قال الله سبحانه: ﴿لَيْسَ لَ الصُّلْدِ قِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ • مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٩/١٠).

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾ ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَهُمْ يُكَفِّرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴾ ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا أَيُّدًا ﴾ ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴾ ﴿

قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ﴾ إن الله سبحانه عاتب من التفت إلى شيء سواه من العرش إلى الثرى، وعرف مكان الطاف ربوبيته، وفردانية ذاته وصفاته، وأعلمنا مقام تنزيه قدمه عن الأضداد والأنداد التي هي فانية تحت جبروته، وخاضعة في ميادين ملكوته القدم عن الحدوث ومن النور، وأي شيء النور والظلمة من إبليس وذريته، وإيش الأصنام والأوثان في ساحة كبريائه الأزلي الذي يفنى بسطوة من سطواته كل ما بدأ من العدم إلى الوجود، أي شناعة أشنع على من يعتمد على أحد دون عزته.

قال يحيى بن معاذ: لا يكون ولياً لله، ولا يبلغ مقام الولاية من نظر إلى شيء دون الله، أو اعتمد سواه، ولم يميز بين من يوائيه ومن يعاديه، وحال إقباله من حال إدباره.

قال الله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

قال الحسين: خاطبك الحق تعالى أحسن خطاب، ودعاك إلى نفسه الطف دعاء بقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إن الله سبحانه أخبر عن أولية ذاته، وتقدم صفاته حيث لا حيث، ولا أين ولا بين إلا رسم للحدث، ولا وسم كان بحر وجود جلاله سرمدًا دائيًا منزهاً عن نقائص الحدوثية، ولا عقل، ولا فهم، ولا علم كان في قدم عزته لا وجود لها، ولا عدم ولا رسم فلم يزل قائماً بذاته، فإذا أراد كون الخلق مشاهد صفته بنعت التجلي أخرج الكون من العدم، ولم يحتج إلى إعانة حادث في إيجاده إذا لو شاهد

الخلق عند كونه، وإيجاد الحق وجوده تكون منقصة في نظر العدم، وكيف تكون ذلك القدم منزله عن المعية مع الخلق.

فإذا كان كذلك فإيش يدرك من الحدثان وأسرار صفاته مندرجة تحت أسرار ذاته، وأسرار ذاته مخفية في أسرار صفاته للعقول بها إحاطة، وليس للقلوب بعرفانها منزلة، وليست الأرواح؛ لإدراكها خطرة، ولا للأسرار همة هي ممتنعة عنها، يشاهدها أهل البرية التي استحقاقها من سطوة عزته وفناء.

قال أبو سعيد الخراز: لقد عجزت الخليفة عن أن تدرك بعض صفات ذاتها، وتدرى كيف كنهها في أنفسها.

قال الله: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فلم يملك الله الخلقية أن تحرى علم أنفسها في أنفسها فكيف يدرك شيئاً من صفات شاهدها.

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَتْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نِسِيَا خُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنِّي نَسِيتُ غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾.

قرى الحقائق لبعضهم نفوس، وبعضهم قلوب وبعض عقول، وبعضهم أرواح، وبعضهم أسرار، وللعوم صدور، وللعوم العموم أشباح فأهل الأشباح لما لم يستعملوا الحواس؛ بما خلق الله لها من طاعته وخدمته مسخها كقوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ وأهل الصدور لما لم يراعوا أنوار الإسلام بتقليدتها عن شوب النفاق خربها الله بجند الوسواس وأهل النفوس لما لم يزكوها بصفاء المجاهدة تركها في شهواتها، وحجبها عن صفاء الذكر وأهل القلوب لما لم يراقبوا أنوار الغيوب، ولم يدفعوا عنها الخواطر المذمومة حجبها عن رؤية ملك الآخرة وأهل العقول لما لم يستعملوها بالجولان في الأفكار، ولطائف الأذكار حجبها عن غرائب الأنوار.

وأهل الأرواح لما لم يجيلوها في ميادين الملكوت؛ لطلب مشاهدة الجبروت حجبها الحق بشواغل الرسوم وأهل الأسرار، ولما لم يعرفوا حقائقها وماهيتها؛ بأنها طروق لطائف

علومه الغيبية تركها خالية عن كشوف أحكام الربوبية، وأهل الظاهر لما لم يعرفوا المنعم باشتغالهم بالنعمة أهلكتهم الله بأن شغلهم بالنعمة عن طلب المنعم.

قال أبو بكر بن طاهر: لما لم يشكروا نعم الله عندهم، ولما يقابلوا البلاء بالصبر والرضا. قال الواسطي: وكلنا هم إلى سوء تدبيرهم حين سخطوا حسن اختبارنا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ ظاهرة على ما ذكر في القصص، ولا سبيل إلى إنكار المعجزات وإما باطنه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنَةٍ ءَاتَيْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ لما أخطئوا والطريق لم يسر بالقلب فأثر عليهما النصب، وذلك بتعليم الله إياهما؛ بأن جاوزا عن الحد وسر القلب ربما عرف حكم الغيب لم يعرف ذلك القلب والعقل فيتأذى النفس من جهة الجهل به، ولو عرف القلب والنفس كما عرف السر لم يطرأ عليها أحكام التعب، ولحقو النصب لهما بأنهما في مقام المادة والامتحان، ولو كان موسى هناك محمولاً بحظ المشاهدة؛ لكان كما كان في طور لم يأكل الطعام أربعين يوماً، ولم يلحق به تعب وهذا حال أهل الأنس، والأول حال أهل الإرادة؛ ألا ترى كيف قال ﷺ:

«أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»^(١). ولما كان في طلب الوسطة احتجب عن مقام المشاهدة، وابتلى بالمجاهدة أدبه الحق بذلك؛ حتى لا يخطر بباله أنه في شيء من علوم الحقائق فإنه تعالى غيور على من يدع بالبلوغ إلى سر الأسرار؛ لأجل ذلك أخرجه إلى تعلم علم الغيب.

وقال الأستاذ: كان موسى في هذا السفر محتملاً، وكان سفر تأديب واحتمال مشقة؛ لأنه ذهب لاستكبار العلم، وجال طلب العلم، وحال التأديب وقت تحمل المشقة، ولهذا لحقه الجوع فقال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ وحين قام في بدء انتظار سماع الكلام عن الله صبر ثلاثين يوماً، ولم يلحقه جوع ولا مشقة؛ لأن ذهابه في هذا السفر إلى الله، وكان محمولاً.

فإن يقال وإذ قال: ﴿هَذَا نَصَبًا﴾ هو نصب الولادة ومشقتها ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ﴾ ما عراني ﴿إِذْ أَوْيَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ أي: النحر للارتضاع ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ لاستغنائنا عنه ﴿وَمَا أَنَسْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ أي: وما أنساني أن أذكره إلا الشيطان، على إبدال أن أذكره من الضمير؛ وذلك لأن موسى كان راقداً حين اتخذ الحوت سبيله في البحر على ما

(١) رواه أبو داود (٣٠٩/٢)، والترمذي (١٤٨/٣).

قيل، وفتى النفس يقظان، فأنسى شيطان الوهم الذي زين الشجرة لآدم، ذكر النفس الحوت لموسى؛ لكون الحال حال ذهول والسبيل المتعجب منه هو السراب المذكور.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ أي: تملص الحوت واتخاذ سبيله الذي كان عليه في جيلته ﴿مَا كُنَّا﴾ نطلبه؛ لأن هناك مجمع البحرين الذي وعد موسى عنده بوجود من هو أعلم منه، إذ الترقى إلى الكمال بمتابعة العقل القدسي لا يكون إلا في هذا المقام ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ في الترقى إلى مقام الفطرة الأولى، كما كانا أو لا يقصان ﴿قَصَصًا﴾ أي: يتبعان آثارهما عند الهبوط في الترقى إلى الكمال.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ فيه إشارة خفية إن الله سبحانه خواصًا من عبادة، وهم الذين اصطفاهم لمعرفة ما استأثر لنفسه من علوم الربوبية، وأسرار الوجدانية، وحقائق الحكمة ولطائف ملكوته وجبروته، وهم أهل الغيب وغيب الغيب والسر، وسر السر الذين غيهم الله في غيبه، وسترهم عن خلقه شفقة عليهم فيما يظهرون من سر الله، وهم العباد بالحقبة الذين بلغوا حقيقة العبودية بحيث جعل الله عبوديتهم محاذيًا لربوبيته، وإلا فالكل عباده من حيث الخليفة لكن هم العباد بالحقبة من حيث المعرفة، ولولا تلك الخاصية المحضة لما قال ﷺ: «أنا العبد، لا إله إلا الله، أنا العبد بالحقبة لا غير»^(١).

وأي تشریف أشرف لخضر عليه السلام من هذه الخاصية له سماه عبدًا، ومن بالحقبة عبده لولا رحمته الكافية التي سبقت في الأزل لعباده لما يجترئ أحد من خلقه أن يقول: أنا عبدك؛ لأنه منزّه عن أن يعبد الحداث بالحقبة.

ووجد العقل القدسي وهو عبد من عباد الله مخصوص بمزية عناية ورحمة ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي كمالاً معنويًا بالتجرد عن المواد والتقديس عن الجهات النورية المحضة التي هي آثار القرب والعندية ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ من المعارف القدسية والحقائق الكلية اللدنية بلا واسطة تعليم بشري.

وقوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ هو ظهور أداة السلوك والترقي إلى الكمال ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ لكونك غير مطلع على الأمور الغيبية والحقائق المعنوية لعدم تجرد أو احتجابك بالبدن وغواشية فلا تطبق مرافقتي.

(١) سبقت الإشارة إليه.

وهذا معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ القوة استعدادي وثباتي على الطلب ﴿وَلَا أُغْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ لتوجهي نحوك وقبولي أمرك؛ لصفائي وصدق إرادتي والمقاولات كلها بلسان الحال

﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ في سلوك طريق الكمال ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ﴾ أي: عليك بالاعتداء والمتابعة في السير بالأعمال والرياضات والأخلاق والمجاهدات، ولا تطلب الحقائق والمعاني ﴿حَتَّىٰ﴾ يأتي وقته ﴿أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: من ذلك العلم ﴿ذِكْرًا﴾ في الغيبة عند تجردك بالمعاملات القلبية والقلبية ﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ في سفينة البدن انبأ إلى حد الرياضة الصالح للعبودية إلى العالم القدسي في بحر الهيولي للسر إلى الله ﴿خَرَقَهَا﴾ أي: نقضها بالرياضة، وتقليل الطعام، وأضعف أحكامها، وأوقع الخلل في نظامها وأوهنها ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ أي: أكرمتها؛ لتغرق القوى الحيوانية والنباتية التي هم القوى البدنية واستطعامها منهم هو طلب الغذاء الروحاني منهم أي: بواسطتهم كانتزاع المعاني الكلية من مدركاتنا الجزئية، وإنما أبوا أن يضيفوها، وأن أضموها قبل ذلك؛ لأن غذاءهما حينئذ كان من فوقهم من الأنوار القدسية والتجليات الجمالية والجلالية والمعارف الإلهية والمعاني الغيبية، لا من تحت أرجلهم كما كان قبل خرق السفينة، وقتل الغلام بالرياضة والقوى والحواس، مانعة من ذلك لا ممددة بل لا تنهياً إلا بعد نعاسهم وهدوئهم.

كما قال موسى لأهله: ﴿آمَكُتُوا﴾ [طه: ١٠]، والجدار الذي ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ هو النفس المطمئنة، وإنما عبر عنها بالجدار؛ لأنها حدثت بعد قتل النفس الأمارة، وموتها بالرياضة، فصارت كالجماد غير متحركة بنفسها وإرادتها؛ ولشدة ضعفها كادت تهلك فعبر عن حالها بإرادة الانقضا، وإقامته إياها تعديلها بالكمالات الخلقية والفضائل الجميلة بنور القوة النطقية، حتى قامت الفضائل مقام صفاتها من الرذائل.

وقول موسى ﷺ ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ تلوين قلبي لا نفسي، وهو طلب الأجر والثواب باكتساب الفضائل واستعمال الرياضة؛ ولهذا أجابه بقوله: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ أي: هذا هو مفارقة مقامي ومقامك ومبايئتهما، والفرق بين حالي وحالك، فإن عمارة النفس بالرياضة والتخلق بالأخلاق الحميدة ليست لتوقع الثواب والأجر، وإلا فليست فضائل ولا كمالات؛ لأن الفضيلة هي التخلق بالأخلاق الإلهية بحيث تصدر عن صاحبها الأفعال المقصودة لذاتها لا لغرض، وما كان لغرض فهو حجاب ورذيلة لا فضيلة، والمقصود هو طرح الحجاب، وانكشاف غطاء صفات النفس والبروز إلى عالم النور؛ لتلقي

المعاني الغيبية، بل الاتصاف بالصفات الإلهية، بل التحقق بالله بعد الفناء فيه لا الثواب كما زعمت.

﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أي: لما اطمأنت النفس واستقرت القوى أمكنك قبول المعاني وتلقي الغيب، الذي نهيتك عن السؤال عنه حتى أحدث لك منه ذكرًا فسادكر لك، وأنبتك بتأويل هذه الأمور إذا استعددت لقبول المعاني والمعارف.

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ ﴾^(١) في بحر الهيولي أي: القوى البدنية من الحواس الظاهرة والقوى الطبيعية النباتية، وإنما سماها مساكين؛ لدوام سكونها وملازمتها لتراب البدن، وضعفها عن ممانعة القلب في السلوك والاستيلاء عليه كسائر القوى الحيوانية. وحكي أنهم كانوا عشرة إخوة خمسة منهم زمني، وخمسة يعملون في البحر، وذلك إشارة إلى الحواس الظاهرة والباطنة.

﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ بالرياضة؛ لثلا يأخذها ملك النفس الأمانة غصبًا، وهو الملك الذي كان وراءهم أي: قدامهم ﴿ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ بالغواشي البدنية أو القلب الذي مات، أرقت قبل الكمال باستيلاء النفس في المدنية البدن.

﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ أي: كنز المعرفة التي لا تحصل إلا بهما في مقام القلب، لا مكان اجتماع جميع الكليات والجزئيات فيه بالفعل وقت الكمال، وهو حال بلوغ الأشد واستخراج ذلك الكنز.

وقال بعض أهل الظاهر من المفسرين: كان الكنز صحفًا فيها علم.

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا ﴾ على كلا التأويلين ﴿ صَالِحًا ﴾.

وقيل: كان أبا أعلى هما، حفظهما الله له فعلى هذا لا يكون إلا روح القدس.

وقوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا ﴾ ولاية وقرأ ومشاهدة ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ معرفة كاملة، وعلما من علومه المجهولة الغيبية التي مكتومة عن كثير من الأخيار، وهو علم اللدني الخاص الذي استأثره الله لنفسه، والخواص خواصه، وذلك العلم حكم الغيب على صورة مجهولة حقائقها مقرونة بمنافع الخلق، وهذا يتعلق بعلم عالم الأفعال التي براهينها لاستحكام العبودية.

(١) أي: ضُعفاء لا يقدرّون على مدافعة الظلمة، فساهم مساكين؛ لذهم وضعفهم، ومنه قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَخْنِني مِسْكِينًا، وَأَمْتِنِني مِسْكِينًا، وَأَخْشِرْني في زُمْرَةِ الْمَسْكِينِ» فلم يُرد مسكنة الفقر، وإنما أراد التواضع والخضوع، أي: أخشِرني غنبتًا متواضعًا، غير جبار ولا متكبر.

وأخص من ذلك الوقوف على بعض سر القدر قبل وقوع واقعته، وأخص من ذلك علم الأسماء والنعوت الخاصة، وأخص من ذلك علم الصفات، وأخص من ذلك علم الذات، وعلم التشابه خاص في العلم المجهول فكل ما يتعلق هذه العلوم يكون بالمكاشفات، وظهور المغيبات وعلم القدم الذي هو وصف الحق تعالى من علم الربوبية يتعلق بالإلهام الخاص، وسماع كلام القديم بغير الواسطة، وفوق ذلك ما استأثر الحق لنفسه خاصة، وليس للخلق إليه سبيل بحال.

قال ذو النون: العلم اللدني هو الذي محكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان.
قال ابن عطاء: علم بلا واسطة للكشوف، ولا بتلقين الحروف لكنه الملقى إليه بمشاهدة الأرواح.

قال الحسين: العلم اللدني إلهام أدخل الحق الأسرار فلم يملكها انصراف.
وقال القاسم: علم الاستنباط بكلفة ووسائط، وعلم اللدني بلا كلفة ولا وسائط.
وقال الجنيد: العلم اللدني ما كان محكمًا على الأسرار من غير ظرفية ولا خلاف واقع؛ لكنه مكاشفات الأنوار عن مكنون المغيبات، وذلك يقع للعبد إذا زم جوارحه عن جميع المخالفات، وأفنى حركاته عن كل الإرادات، وكان شجاعًا بين يدي الحق؛ بلا تمن ولا مراد.
قال سهل: الإلهام ينوب عن الوحي كما قال الله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧] وكلاهما إلهام.

وقال الأستاذ: إذا سمى الله إنسانًا بأنه عبده جعله من جملة الخواص، فإذا قال: عبدي جعله من خواص الخواص.

وقال العلم اللدني: ما يحصل من طريق الإلهام دون التكلف بالطلب، ويقال: ما يعرف به الحق أوليائه مما فيه صلاح عباده.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَفِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ

تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٦٧﴾ ﴿٦٦﴾

قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾^(١) أحسن الأدب موسى عليه السلام حيث استأذن في المتابعة عرف موسى أن علم الحق لا نهاية له، فاشتاق إلى ما فوق علمه، فاستعلم مكنونه من مواضع تجليه وخاصية خطابه، وذلك الرشد الأعلى بحيث إذا علم عرف في جنبه الحق بنعت خاص دون ما علمه السيار والسباح في بحر وحدانيته، وميادين قدرة غرثانه إلى علم ألوهيته، ولا بأس، فإن ذلك العلم الذي عند الخضر لم يكن عند موسى، فأراد سبحانه أن يعرف موسى ذلك العلم السري النور الغيبي فامتن بصحبة الخضر؛ لاستقامة الطريق ونتقويم السنة في متابعة المشايخ، وليكون أسوة للمريدين والقاصدين في خدمتهم أشياخ الطريقة، وكان موسى أعلم من الخضر بما عنده من الحق، ولكن ليس عنده ما كان عند الخضر في ذلك الوقت فساعدته التوفيق، فعرف منه أبواب تلك الأسرار المكتومة، فدخل في باب علم الخضر إلى عالم العلم المجهول، وبلغ إلى مقام فيه غاب علم الخضر، وعلم جميع الخلق هناك، وهذا زيادة فضل الله على موسى.

قال فارس: إن موسى كان أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله، والخضر كان أعلم من موسى فيما وقع إلى موسى.

وقال أيضًا: إن موسى كان مبقى عليه صفته؛ ليأخذ الغير أدبه، فمن انقطع عن الرياضة كان على حسب العصمة والتمكين فيه، والخضر كان فانيًا مستهلكًا، والمستهلك لا حكم له، وموسى كان باقيا بالحق، ولا فرق بينهما؛ لأنها تكلما من معدن واحد، ثم إن الخضر تعلل، ودفع صحبة موسى عليه السلام ونسب موسى إلى قلة الصبر معه، وبقلة العلم بما عنده وهو يعلم أن موسى أكرم الخلق على الله في زمانه، وهو رجل منبسط معربد، ففزع من صحبته فدفع صحبته بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ فقرن الصبر بالعلم، وبين أن قلة الصبر من الجهل، وكان موسى صابرا عالما، ولكن من حمية في دينه وشريعته، لم يقبل ما لا يوافق الشرع، وذلك ليس قلة الصبر، ولا قلة العلم؛ إنما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحفظ لحدود الله، كان موسى مستغرقا في بحر جمال الحق وسماع كلامه المسفر منه بلا وساطة، وذلك الكلام أخبره عن سر الأسرار، وغرائب علوم الربوبية، وكان فارغا عن

(١) فصار جوابه لن من الحق ومن الخلق ليبقى موسى بلا موسى ويصفو موسى عن كل نصيب لموسى بموسى. تفسير حقي (٤/٢٦٨).

صورة رسوم علم المقادير التي يتعلق بالمنافع والمضار فعلم الشيخ شأنه؛ إنه مع حاله وسكره بوصول الحق لا يحتمل مالا يتعلق بتلك الكشوفات، ولا بأس به وإن لم يعلم ذلك العلم فإن السلطان لا يضر به إن لم يعلم علم التجارة.

قال جعفر: لن تصبر مع من هو دونك فكيف تصبر مع من هو فوقك؟
وقال بعضهم قال الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ثم لم يصبر مع الخضر بقوله: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ليعلم أنه ليس لولي أن يتفرس في نبي.
قال بعضهم: آيسه من نفسه؛ لئلا يشغل صحبته عن صحبة الحق، ولما عزم أمر طلب الزيادة في موسى ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ تأدب موسى واستثنى؛ لأنه كان عالماً بأن الصبر لا يكون إلا بالله.

قال فارس: موسى ﷺ استثنى على نفسه بقوله: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أو لم يستثن الخضر على موسى بقوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قال: لأن علم موسى في ذلك الوقت علم تكليف واستدلال، وعلم الخضر علم لدني من غيب إلى غيب، وقال: موسى كان على مقام التأديب، والخضر قائم مقام الكشف والمشاهدة لما جعل مؤدباً له، ثم علم الخضر أن موسى صغر في عينه علم من كان على وجه الأرض، ولا يلتفت من مقامه الذي هو الشهود مشهد رؤية الذات والصفات إلى ما يظهر من المقدرات في عالم الصورة التي يتعلق بمنافع الخلق من جلال شأنه عند الله، وعظيم علمه بنعت الله وصفاته فأكد الأمر: ﴿فَلِنْ أَتَّبِعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ دفع سؤاله فإن الصادق يعلم الواقعة إذا كان متحققاً، وتبين له ما يريد بصدقه وإخلاصه، ولا يحتاج إلى السؤال وحق المتابعة السكون عند تصرف الأستاذ.

قال الحصري: علم الخضر قصور علمه عن محل سؤال موسى، وإنه لجأ إليه للتأديب لا للتعليم فقال له: ﴿فَلِنْ أَتَّبِعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾ لأن علمك أعلى وأتم، وإنما أُلجئت إلى التأديب لا للتعليم في خاص حال من الأحوال.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ قال هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِيعَ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۖ ﴿٧٩﴾
قوله تعالى: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ سلكا طريق السؤال يتعلق

بتدلل النفس في الطريقة، فلما أبوا أن يضيفوهما نزلا من مقام السؤال إلى الكسب والكسب من أوصاف السالكين، والسؤال من أوصاف المجذوبين الذين لا يطيقون أن يشتغلوا بالمكاسب، ويضيعوا أنفسهم بالاشتغال بالكسب بل يسألون ما يحتاجون بلحظة، ويفرغون من ذلك بلحظة، وطريق السؤال بالحقيقة للتمكين أن يكون المستول في البين هو الله عز وجل، والسؤال سبب ضعيف، فإذا كمل الحال يسقط السؤال والكسب، وفيه بيان أن الكسب والسؤال لم يمنعا العارف من مقام الرضا والتوكل؛ لأن مع جلالة قدرهما سالا واكتسبا وكانا في محل التوكل والرضا على أحسن الأحوال.

قال الواسطي في قوله: ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾ الخضر شاهد أنوار الملك، وشاهد موسى الوسائط، وكان الخضر أخبر موسى أن السؤال من الناس هو سؤال من الله فلا تغضب عن المنع فإن المانع، والمعطى واحد، فلا تشهد الأسباب، وأشهد المسبب تشريح من هواجس النفس، ولما أقام الخضر الجدار، وترك أجر العمل.

قال موسى: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ لم يكن موسى يطمع في أجره العمل لكن وجد أهل القرية لثامًا بخلاء أراد أن يأخذ أجره العمل ويتصدق بها لأمرين شحنه لعيون البخلاء داء.

هكذا قال عليه السلام في وصف تلك القرية قال: كانت قرية اللثام، وقال: طعام البخيل داء، ويمكن أنه أراد أن يأخذ الأجرة، ويأكل منها الأنبياء فيغفر الله لأهل القرية ذنوبهم ويجعلهم أسخياء ببركتهم، وكان موسى في مقام الرفاهية والأنس، وتضر به المجاهدة، وكان الخضر بعد قد بقي في منازل، وكان موسى في بحر نيران الاشتياق، ولا يصبر عن الطعام، وهكذا حال أهل النهايات، وكان عليه السلام في بدء الأمر في مقام السماع والمشاهدة صبر عن الطعام والشراب أربعين يومًا، وكان نبينا عليه السلام من المعراج روي أنه جاع في الساعة، وذلك من صولة الحال، وكان ميل الخضر إلى ترك أجره العمل، وهذا من دأب الفتيان.

قال ابن عطاء: رؤية العمل وطلب الثواب به يبطل العمل.

ألا ترى الكلیم لما قال للخضر: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ كيف فارقه.

وقال الجنيد: إذا وردت ظلم الأطماع على القلوب حجبت النفوس عن حظوظها من بواطن الحكم، ولما انتهى علم الخضر إلى كمالاتها وعرف موسى شأنه، وحد علمه، وكاد أن يغلب على الخضر بأن يطلب منه أسرار العلوم الربانية الصفاتية الذاتية علم الخضر أنه بنفسه لا يطيق أن يجيبه، مما يدفعه فيفرغ منه فعلل بقوله: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ عرف الخضر سر موسى وآتسه بجمال الحق، وأنه ممتحن في صحبته فأراد أن يريجه من صورة العلم

والعمل، وأيضاً عرف حدثه، وخاف من جواب سؤاله الذي من عالم سرّ سر الربوبية العلية فخاف منه بأن يتناول على شيخ من شيوخ القصة، وكيف لا يفرغ منه وعلم وكزته التي ذهبت بإحدى عيني عزرائيل عليه السلام.

قال النصر آبادي: لما علم الخضر انتهاء علمه وبلوغ موسى إلى منتهى التأدب، قال: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنِكَ ﴾^(١) لئلا يسأله موسى بعده عن علم أو حال فيفضح. وقال أبو بكر بن طاهر: كان موسى ينهى الخضر عن مناكير في الظاهر، وإن كان للخضر فيه علم لكن ظاهر العلم ما كان يأمر به موسى فلما نهاه عن المعروف بقوله: ﴿ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ورده الطمع.

قال: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنِكَ ﴾.

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ قد عجبت من هذا الأمر، وأن الله سبحانه كان في الأزل عالماً بذلك قادراً على أن يخلقه مؤمناً، ولم يطبع على قلبه الكفر حتى لا يكون أبواه بسببه كافرين، لكن حكمته الأزلية جارية بغير إدراك إفهام الفهماء، وهو لا يحتاج إلى قتل الغلام بغير جرم، بل هو قادر على أن يهديه إلى طريق الحق؛ حتى لا يغشى عليه، وعلى أبويه ظلمة الكفر ﴿ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج: ١٨] و ﴿ تَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١] ظاهر الآية كأنها تنبئ أن اكتساب البشر مانع القدر، كقتل الخضر الغلام بمنح صيرورة كفر أبويه، والأمر على مما يتوهم المتوهمون فيه؛ لأن ذلك بيان وصف عين الجمع في العالم أن الخضر كان فعل الله، والغلام فعل الله، والقتل فعل الله،

(١) فالتأويل: رجوع الشيء إلى مآله، والمراد هنا: المآل والعاقبة، وهو خلاص السفينة من اليد العادية، وخلاص أبوي الغلام من شره، مع الفوز بالبدل الأحسن، واستخراج اليتيمين للكنز، وفي جعل صلة الموصول عدم استطاعته، ولم يقل: «بتأويل ما رأيت»؛ نوع تعريض به، وعناية عليه السلام. البحر المديد (٤٢٤/٣).

والأمر أمر الله، والقدر قدر الله، فمن حيث القدر يثبت، ومن حيث الفعل يمحو ما قدر يمحو الله ما يشاء مما قدر في الأزل، بقدر أسبق من ذلك القدر، وهو علم العلم، وغيب الغيب، وسر السر، وأمر الأمر ويثبت مما يشاء مما قدر الذي لم يسبق عليه قدر القدر، فهو في جميع ذلك واحد من كل الوجوه، السبب صدر من المسبب والمسبب والسبب في عين الجميع واحد.

كان نظر الخضر إلى القدر الظاهر، ونظر موسى إلى قدر القدر، كان موسى احتج على الخضر؛ بأن القدر سبق على بقاء إيمان أبيه، وإيمان المقتول معاً، وإن لم يكن القتل في البين، واحتج الخضر على موسى بأن قتل الغلام كان أيضاً مقدراً في أزل الأزال، وهو بذاته فعل الله المباشر في أمر الله، فلما علا علمه بالقدر على علم موسى.

قال: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ وأظن في ذلك أن الغلام كان حسن الوجه، وكان فيه نور من كسوة حسن الحق، فخاف الخضر على أهل الحق ومعرفة أن ينظروا إليه ويستأنسوا بما يجدون من نور الله فيه، فيقفون بالوسائط عن مشاهدة الله، فقتله بغير الله ورفع الوسائط من بينه وبين أحبائه وأنبيائه وأوليائه.

قال بعضهم: تفرس الخضر في الغلام ما تتول إليه عاقبته من الكفر، كذلك من تفرس بنور الله لا يحظى فراسته، قوله تعالى: ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا ﴾ وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ هذه الإرادات على صورتها مختلفة، وفي الحقيقة واحدة؛ لأن الإرادة بالحقيقة إرادة الله إذ الإرادات صدرت بصنوفهم عن إرادة الله فقوله: ﴿ فَأَرَدْتُ ﴾ خبر عن عين الجمع والاتحاد، وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ خبر عن الاتصاف والانبساط وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ خبر عن أفراد القدم عن الحدوث، وتلاشي الحدث وفناء الموحّد في الموحّد، وهذه الإرادة بوصفها باطن المشيئة، وباطن المشيئة غيب الصفة، وغيب الصفة سر الذات، والذات غيب جميع الغيوب، ولما تحرك من وصف الاتحاد قطعتة الغيرة من محض الاتحاد إلى عين الجمع وقطعتة الجمع إلى الاتصاف، ومن الاتصاف إلى الانبساط، ثم أغرقته بحر الألوهية، وأفتته في لججها عن كل رؤية، وعلم وإرادة فعل، وإشارة كان الحق بفصله نطق في الأول والثاني والثالث، ولم يبق في البين إلا الله.

قال ابن عطاء لما قال الخضر ﷺ: ﴿ فَأَرَدْتُ ﴾ أوحى إليه في السر من أنت؛ حتى تكون لك إرادة فقال في الثانية: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ فأوحى إليه في السر من أنت وموسى؛ حتى تكون لكمال إرادة فرجع وقال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾.

وأيضاً قال أما قوله: ﴿ فَأَرَدْتُ ﴾ كان شفقة على الخلق، وقوله: ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ رحمة، وقوله: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ رجوعاً إلى الحقيقة.

وقال الحسين في قوله: ﴿ فَأَرَدْتُ ﴾ وأردنا ربك المقام الأول استيلاء الحق، والمقام والثاني مكاملة مع العبد، والمقام الثالث رجوع إلى باطن الغلبة في الظاهر، فصار به باطن الباطن ظاهر الظاهر، وغيب الغيب عيان العيان وعيان العيان غيب الغيب، كما أن القرب من الشيء بالنفوس هو البعد فالقرب منها بما هو القرب.

قصة ذي القرنين مشهورة، وكان رومياً قريب العهد والطبيعي أن ذا القرنين في هذا الوجود هو القلب الذي ملك قرينه أي: خافقيه شرقها وغربها ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ ﴾ في الأرض البدن بالأقدار والتمكين على جميع الأموال من المعاني الكلية والجزئية، والسير إلى أي قطر شاء من الشرق والمغرب ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ إرادة من الكمالات ﴿ سَبَبًا ﴾ أي: طريقاً بتوصل به إليه ﴿ فَاتَّبَعَ ﴾ طريقاً بالتعلق البدني وتوجه إلى العالم السفلي.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي: مكان غروب شمس الروح ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي: مختلطة بالحمية وهي المادة البدنية الممتزجة من الأجسام الفاسقة، كقوله: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ [الإنسان: ٢]

﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ هم القوى النفسانية البدنية والروحانية ﴿ قُلْنَا يَنْدَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ ﴾ بالرياضة والقهر والإماتة ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ بالتعديل وإيفاء أحظ ﴿ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ بالإفراد وعدم الاستسلام والانقياد كالشهوة والغضب والوهم والتخيل ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ بالرياضة

﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ ﴾ في القيامة الصغرى ﴿ فَيُعَذِّبُهُ ﴾ بالإلقاء في نار الطبيعة ﴿ عَذَابًا نَكِرًا ﴾ أي: منكرًا أشد من عذابي، وفي القيامة الكبرى فيعذبه عذاب القهر والإفناء ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ ﴾ بالعلم والمعرفة كالعاقلتين، والفكر والحواس الظاهرة ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ بالسعي في اكتساب الفضائل والانقياد والطاعة ﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ المثوبة ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ من جنة الصفات، وتجليات أنوارها وأنهار علومها ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ أي: قولاً ذا يسر بحصول الملكات الفاضلة ﴿ ثُمَّ أَتَّبَعَ ﴾ طريقاً هي طريق الترقى والسلوك إلى الله بالتجرد والتزكي.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أي: مطلع شمس الروح ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ ﴾ هم العاقلتان والفكر والحدث والقوة القدسية ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّنْ ذُوْنهَا سِتْرًا ﴾ أي: حجاب بالنور بنورها؛ لإدراكهم المعاني الكلية ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي: أمره كما وصفنا ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ ﴾ من العلوم والمعارف ﴿ عَلَىٰ أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ لا يتجاوزن حاجزاً لا يعلونه، وذلك هو الحد الشرعي والحجاب القلبي من الحكمة العملية ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ من المعاني الكلية والجزئية الحاصلة بالتجربة، والسير في المشرق والمغرب ﴿ خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ أي: عمل وطاعة.

﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ هو الحكمة العملية والقانون الشرعي ﴿ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ من الصور العلمية وأوضاع الأعمال ﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ بالتعديل والتقدير ﴿ قَالَ ﴾ للقوى الحيوانية ﴿ أَنْفِخُوا ﴾ في هذه الصور نفخ المعاني الجزئية، والهيئات النفسانية من فضائل الأخلاق.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُهُ نَارًا ﴾ أي: علا برأسه من جملة العلوم يحتوي على بيان كيفية الأعمال ﴿ قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ والنية والقصد الذي يتوسط بين العلم والعمل، فيتحد به روح العلم وجسد العمل، كالروح الحيواني المتوسط بين الروح الإنساني والبدن، فحصل سداً أي: قاعدة وبنیان من زبر الأعمال ونفخ العلم والأخلاق، وقطر العزائم والنيات، واطمأنت به النفس وتدبرت فأمنت.

﴿ فَمَا أَصْطَنُوعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ ^(١) ويعلوه؛ لارتفاع شأنه وكونه مشتملاً على علوم وحجج لم يمكنهم دفعها والاستيلاء عليها ﴿ وَمَا أَصْطَنُوعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ لاستحكامه بالملكات والأعمال والأذكار ﴿ قَالَ هَٰذَا ﴾ السد أي: القانون ﴿ رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ على عباده يوجب أمنهم وبقاءهم ﴿ فَلِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ بالقيامة الصغرى ﴿ جَعَلُهُ دَكَّاءَ ﴾ باطلاً منهدمًا؛ لامتناع العمل به عند الموت وخراب الآلات البدنية.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ

(١) أي: يعلوه بالصعود لارتفاعه، والفاء فصيحة، أي: ففعلوا ما أمرهم به من إيتاء القطر، فأفرغوه عليه، فاختلط والتصق ببعضه ببعض، فصار جبلاً صلدًا، فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه أو يتقبوه. البحر المديد (٣/ ٤٣٥).

الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨١﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴿٨٢﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٣﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجْدَهَا تَطَلَّعَ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٨٥﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٨٦﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٨٨﴾ قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٨٩﴾ قَالَ يَٰ مَكْنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٠﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩١﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٢﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٣﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٤﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٩٥﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ أخبر سبحانه عن ذي القرنين (عليه السلام) أن أعطاه خلقه قدرته، وألبسه تمكين فعل حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله، ويحكم بحكمه ما يريد، وكان يجمع عين الجمع من حيث نور تجلي الذات والصفات والفعل فيه معنى ﴿ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ من كل ما في الملكوت السفلي له برهانا، وحكمة، وعلما، ومعرفة بالله، وسببا إلى قرب الله من أن ذلك الشيء له، كان مرآة الحق يرى فيها علوم الغيبية، وحكم القدرية، وبلغ بها إلى معادنها من أسرار الأزلية فكان مقام تدرج الترقى من عالم الفعل إلى عالم الصفة، ومن عالم الصفة إلى عالم الذات، ولو كان على محل تحقيق الكلي؛ لما أحاله الحق إلى الأسباب من الأشياء، الحدثاني التي هي وسائط الحكمة، وأخرجه من الأشياء إلى معدن الأصل، وهو دنو الدنو كما فعل بحبيبه (عليه السلام) حيث أخرجه من الحدثان وأفرده من جميع الأسباب، وبلغه إلى حقيقة الحقيقة؛ حيث شاهد الحق بالحق وفني الكل فيه، ولم يصرف طرفه إلى الغير؛ حيث لا حيث ولا غير.

وهذا وصف قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ [النجم: ٨].

وقال: ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ [النجم: ١٧].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ ﴾ جعلنا الدنيا طوع يده فإذا أراد طويت له

الأرض، وإذا أحب انقلبت له الأعيان، وإذا شاء مشى على الماء، وإذا هوى طار في الهواء، وكذا من أخلص سريرته مكناه من مملكتنا ينقلب فيها كيف يشاء، فمن كان الملك كان المملك له.

وقال جعفر: إن الله تعالى جعل لكل شيء سبباً، وجعل الأسباب معاني الوجود، فمن شهد السبب انقطع عن المسبب، ومن شهد صنع السبب امتلأ قلبه من زينة الأسباب، وإذا امتلأ قلبه من الزينة حال بينه وبين الملاحظة، وحجبه عن المشاهدة قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: من عرف الله وشاهده وبرئ عما دونه.

﴿فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾ يعني له وصل الحق أبداً جزاء لهذه المعاملات الحسنة.

وأيضاً زيادة المعرفة بجلال الله وعظمته، وتلك المعرفة الحسنى من الله .

قال ابن عطاء: من صدق الموعد، وأحسن اتباع أوامره فله جزاء الحسنى، وهو أن يرزقه الله الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والشكر على النعمة، ونزع من قلبه حب الشهوات والدنيا ووساوس النفس والشيطان.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ بالاضطراب والاختلاط أي: تركناهم يختلطون لاجتماعهم الروح مع عدم الحيلولة.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ للبعث في النشأة الثانية ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أو بالقيامة الكبرى حال الفناء، وظهور الحق جعله دكاً؛ لارتفاع العلم والحكمة هناك، وظهور معنى الحل والإباحة، بتجلي الأفعال الإلهية وانتفاء الغير وفعله ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ حيارى مختلطين شيئاً واحداً لا حراك بهم، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ بالإيجاد بالوجود الحقاني حال البقاء، فجمعناهم جمعاً في التوحيد والاستقامة والتمكين، وكونهم بالله لا بأنفسهم.

﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ أي: يوم القيامة الصغرى يتعذب المحجوبون عن الحق بأنواع العذاب والنيران، كما ذكر في سورة «الأنعام» أو في ذلك الشهود أي: ظهر لصاحب القيامة الكبرى تعذيبهم في نار جهنم.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ كانت أعينهم في غطاء

غيرته، وشقاء مشقته عن النظر إلى مرآة الكون بالحقيقة؛ حتى يروا حقيقة ماهية الأشياء التي لطائفها تذكر القلوب عجائب أنوار الذات والصفات.

﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أي: محجوبة عن آياتي وتجليات صفاتي الموجبة لذكري ﴿ لَا يَتَّبِعُونَ ﴾.

وأيضاً أعينهم في غطاء الشقاء، ولا يرون جمال القرآن الذي هو مذكر جميع الذات والصفات القديمة.

وأيضاً كانت أعينهم في علم الأزل مسدودة عن رؤيتنا.

وأيضاً وصفتنا التي مذكورة ذكرها ذكر، وصف القدم لأهل العدم بعد كونهم، وبعد غيبتهم عنا ولا يسمعون كلامنا بالحقيقة، ولا يسمع آذان قلوبهم وأرواحهم وعقولهم أصوات هواتف غيبنا.

قال ابن عطاء: أعين نفوسهم في غطاء عن نظر الاعتبار، وأعين قلوبهم في غطاء عن مشاهدة العيان في الملكوت، فإذا فتح عين قلبه بالمشاهدة فتح رأسه نظر الاعتبار وقال: لا يستطيعون سمعاً؛ لأن آذانهم مسدودة عن سماع الحق، ولم يفتح له سمع السماع كيف يسمع بظاهر سمعه، وهو تبع لسمع قلبه.

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ (١٦) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِفَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَبُطِئَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿ (١٨) ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿ (٢٠) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿ (٢١) ﴾ (٢٢).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ (١٦) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿ وصف الله أهل الرياء والسالوس والناموس الذين يجلسون في الصوامع؛ لأجل نظر الخلق، وصرف وجوه الناس، وطلب الرياسة

(١) في قوله: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴾ نفى هنا أن يكون لهم الوزن يوم القيامة، وأثبت في قوله: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ﴾ لأن المقصود من نفيه بيان ألا يكون لهم قدر عند الله كما للمؤمنين، وهو لا يناقض الوزن في الحقيقة دل عليه أنه تعالى حكم بكون الوزن حقاً: أي ثابتاً، والثبات إنما يكون بالرزانة والثقل؛ وهو لا يكون إلا للمؤمنين، فمن ثقلت موازينه؛ فله وزن عند الله ومقدار، من خفت موازينه؛ فلا قدر له عند الله تعالى؛ لأن القدر إنما هو بالاعتقاد والعمل، وقد عدمها الكفار.

والسلطنة ضل سعيهم في الدنيا والآخرة حين يفتضحون في أعين الخلق؛ لأن الله سبحانه عن صفته أن يفتضح المرائين في الدنيا، ومع ريائهم يجهلون سوء عواقبهم، ولا يعرفون أن ما هم فيه عين الشرك والضلالة، ومحسبون أن أعمالهم حسنة، وكيف يقع الحسن على أعمالهم، وهم فيها يشركون بنظرهم فيها إلى غير الله.

قال ﷺ: «أدنى الرياء شرك»^(١).

سُئل أبو بكر الوراق عن هذه الآية قال: هو الذي يبطل معروفه في الدنيا مع أهلها بالمنة، وطلب الشكر على ذلك، ويبطل طاعته بالرياء والسمعة.

ثم إن الله سبحانه وصف عقب هؤلاء المبطلين أهل الإخلاص من الصالحين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ أي: إن الذين عاينوا الحق وصبروا في الحق، وتمكنوا في إخفاء الأسرار، واستقاموا في إدارة قلبهم بوصف الهدف عند أصالة سهام الربوبية فيه كانت في الأزل لهم باختيار الحق واصطفائيته لهم بساتين فردوس جلاله وجماله ونطائف وصاله وأسرار كماله إلى أبد الآبدين لا يحتجبون عنها أبدًا؛ لأن من وصل إليه صار مستقيماً بالحق مقدساً بقدسه عن علل الحجاب، والاعوجاج والتحويل.

قال أبو بكر الوراق: من أنزل نفسه في الدنيا منزل الصادقين، أنزله الله تعالى في الآخرة منزل المقربين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ متنعمين فيها نعيم الأبد ينقلبون في مجاورته، ويفرحون بمحرضاته قد آمنوا كل مخوف، ووصلوا إلى كل محبوب، ولا يشتهون شيئاً إلا وجدوه كيف يطلبون عنه تحويلاً؟

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ إن الله سبحانه أخبر بهذه الآية أن أوهام الخليقة تقاصرت عن إدراك علومه وحكمته بالحققة، وأن أبصارها كليلة عن الإحاطة بذاته، وأن قلوبنا عاجزة عن فهم معاني صفاته في ذاته وذاته في صفاته، وأن الكون لو كان كمل بحره

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٤/ ٣٦٥).

منه بحر الأساعي لها مداد، وإن من العرش إلى ثرى كل ذرة منها ميداناً وصحارى من أقلام، وجميع الأولين والآخرين من الأزل إلى الأبد يكتبون كلمات القدمية لفنيت الكل عن حصرها، وبقيت الكلمات غير محصورة الحدثان، وكيف ذلك والحوادث منتهية، وصفات الأزلية منزهة عن نقائص الحدوثية والعدد والمدد من قبل الخليقة، فلو كان بالمثل هذه البحور والأقلام والأيدي، تكتب ما في قلب عارف في ساعة من كلام الحق وخطابه وحديثه ووحيه لنفد البحر، وينقطع الأقلام والأيدي، ولا تنتهي تلك الكلمات؛ لأنها قائمة بالصفات والذات والصفات منزهة عن تقدير المقدرين، وحسبان المتوهمين، وحساب المحاسنين.

قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ﴾ [لقمان: ٢٧].

وإشارة الحقيقة أي: لو كان بحار القلوب مملوءة من مداد الخواطر وأسرارها التي تدور في سرادق الكبرياء أقلاماً، وتستمد مدادها من بحر الأفعال؛ لنفدت عند نشر معاني علم الله في كلمة من كلمات الله؛ لأن ملك البحار فعالية والكلمات صفاتية، والأفعال متلاشية تحت أنوار الصفات، ولا تعجب أن جميع الأكوان من العرض إلى الثرى؛ لو كانت كل ذرة منها ألف بحر لا ساحل لها يكون قطرة من بحر خواطر القلوب وأسرارها سبحان المنزه عن إحاطة المخلوقات بشيء من علمه.

قال سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

قال الحسين: مقياس العدم في الوجود في معنى جوده فإما خاص الخاص من كلامه فلو كانت أبد الأبد أقلاماً ومداداً وبياضاً ما نفذ معاني كلمة من كلماته، ولا يوصف أكثر مما قد أشير إليه، وإنما يذكر الناس ما يفيدهم معاني العبودية من علم وثواب عقاب، ووعد وعيد على حسب ما يحتمل عقولهم، فأما الكمال من فائدة الكلام فللأنبياء والأصفياء والأولياء.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ إن الله سبحانه زين حبيبه بأنوار الربوبية، وجعله متصف بصفاته متخلقاً بخلقها، وكان مرآة الحق في العالم يتجلى منه للعالمين فمن كان له عين من عيون الله مكحولة بسنا ذاته ينظر بها إليه، ويرى بالحق فيه جمال الحق فكاد من عليه شوقه إلى جمال ألا يبرح لحظة من عنده، ولا يتفرغ إلى صورة العبادة فأخبر الله

سبحانه بلسانه بأنه مخلوق، وإن كان متخلقا بخلقه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أمره بأن يعرفهم أفراد القدم عن الحدوث بعد كونهم في رؤية عين الجمع فلا يرضى عنهم برؤية عين الجمع؛ بل يرضى عنهم برؤية جمع الجمع لذلك: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي: من نظر إلى غيره، وإن كان متلبسا بنوره ملبسا بسنائه فقد أشرك في التوحيد. لذلك قال عليه السلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح»^(١).

وزاد التأكيد في تقديس الأسرار عن ملاحظة الأغيار في مشاهدة الملك الغفار قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا﴾ أي: من كان من أهل مشاهدة الله، ورجاء وصوله واليقين في حقوقه إلى قربهِ فلتكن أعماله في السر والعلانية مقدسة عن نظر نفسه ورؤية أعواضها في قلبه، والتفات عقله إلى غير الله فالفرد لا ينبغي إلا للفرد، والفرد يكون بالفرد فردا فمن أفردته الحق يكون منفردا عن غيره لا بغير شيء من الحدثان. قال الأنطاكي: من خاف المقام بين يدي الله عز وجل؛ فليعمل عملا يصلح للعرض عليه، والله عجبت من أقوال مشايخي - رحمة الله عليهم - في العمل الصالح، وأين العمل الصالح، والعمل الصالح ما يصلح للقدم، وأين الحدث من القدم؛ حتى يصلح له؟ قال يحيى بن معاذ: العمل الصالح ما يصلح بأن تلقى الله به، ولا تستحي منه في ذلك. قال سهل: العمل الصالح المقيد بالسنة، ثم إن الله سبحانه بين أن ما يكون من الأعمال الصالحة خاصة لوجهة يصير خالصا عن إشارة الأغيار، وأن يخطر بقلب العامل ذكر الأشياء الحدثانية في مباشرة العمل، وأي: شرك أعظم من أن يرى لنفسه قيمة عند مباشرة العمل، فينبغي أن يتفرد بقلبه وسره وخاطره عن أن يكون له نظر إلى وجوده؛ بل يكون فانياً بحقيقة الفناء في بقاء الحق.

قال الأنطاكي: لا يراني بطاعته أحداً.

قال جعفر: لا يرى في وقت وقوفه بين يدي ربه غيره، ولا يكون في همه وهمته غيره، وعجبت من سر التوحيد؛ لأن الله سبحانه خاطب الخلق من حيث الخليفة لا من حيث الحقيقة، وأين الحدث؟ وشركه في وجود القدم حتى قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الأحدية صفة الموحّد القديم، وعبادة اسم الأحد عرف الأسماء، والصفات خارجة عن العرف، فإذا كان اسم العدد في الوجدانية معزولاً، فأين اسم وحدة الحدّثان في وحدة الحق؟ قال الله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ تَرَدَّدَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٧١).

سورة مريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيْعَصَ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبُّهُ نِدَاءً خَفِياً ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِياً ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً ۝٥﴾

﴿كَهَيْعَصَ ۝١﴾ أخبر الله سبحانه عن «كاف» كان وجوده الأزلي القديمي الأبدي كقوله تعالى «كان الله»، والإشارة فيها إلى كون وجوده قبل كون الكون، وإشارة الحقيقة بالكاف خبر عن سرّ القدم قد صابها العارفين إلى غيبيتهم في قفار الأولية والاستغراق في بحار القدمية ليعرفوا بالأولية الأولية، وأيضاً تجلّى من كينونية الأحدية التي قيل كل علة على قلوب الموحدين لتغرقهم في بحار كبريائه، ويفنيهم في أنوار كنه ذاته فأشهدهم كائنة الذات والصفات وبصّرهم بنور كبريائه، فأبصروا بعيون سره نورية مكحولة بنور كبريائه فأبصروا بها مشاهدة كنه ذاته، فذابوا فيه فأغرقتهم أنوار مشاهدة الكنه في بحر كمال الذات والصفات حتى لم يبقوا فيها، وأبقاهم نور كاف الكفاية، وبرز لهم سنا كاف حكمته الأزلية فعرفوا بها فناءهم في بقاءه وبقاءهم ببقائه فطلبوا بقاء البقاء بلا فناء ليستوفوا في البقاء حظ مشاهدة البقاء، فأنكشف هم «كاف» بحار الكرم من صفات الكريم، فأوصلهم إلى بساط قربه فظهر من عين عيون الغيب نورها الهوية وغييهم في غيب الغيب، وهداهم إلى قرب القرب، ثم هداهم إلى دنو الدنو، وهداهم إلى وصل الوصل ثم هداهم بنعت التعريف والمعرفة إلى مشاهدات الصفات، ثم إلى مشاهدات الذات فلما بهتوا في الغيب وتاهوا فيه وادي غيب الغيب، ولم يعرفوا من علم الربوبية ذرة ولم يروا من حقيقة الحقيقة شيئاً فأخذهم «يا» نداء القدم مع أصوات أجراس الوصلة فلما وصلوا وقفوا بنعت الجهل بالحقيقة على الحقيقة، فخرج أنوار عين علم القدم فعرفهم النعوت والأسامي.

ثم أعلمهم الصفات والمعاني، ومكنهم بالحق في الحق مع الحق فطلبوا من الحق ما وجد الحق لهم من عظيم عطايا فيض جلاله وجماله فبان نور «صاد» صبح صدق ظهور أسرار الحق لهم فاكسبوا بها، وصاروا عارفين بها صادقين في صدق رويتها في دعوى معرفتها ومحبتها، فما أشرنا بهذه المقالة فهو من رموز الحق في مفاتيح كنوز الذات والصفات وهي

«الكاف والهاء والياء والعين والصاد»، ففي هذه الحروف الخمسة بيان أسرار القدم والبقاء والأزل والأبد وسر الصفات والذات ولا يعرفها إلا حبيب من حبيب الحبيب مع حبيب غائب في الحبيب حاضر مع الحبيب، سكران في مشاهدته، صاح في شهوده، فيستفيد معنى المعاني من هذه المباني.

قال إبراهيم بن شيان: أما «الكاف» فالله الكافي لخلقه، و«الهاء» فالله الهادي لخلقه، و«الياء» يد الله على خلقه بالعطف والرزق والعين، فالله عالم بما يصلحهم، و«الصاد» فالله صادق وعده، قيل: «الكاف» معناه الكافي للمسائلين حوائجهم، و«الهاء» هادي الضالين، و«العين» علم معاني إشارات المتعرضين في حوائجهم، و«الياء» النداء بهذه الدعوات، و«الصاد» صادق فيها وعد للمؤمنين.

قال بعضهم: كريم بعفوه، هاد بجوده، عالم بمصالح عباده، صادق فيما أخبره.

قال الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار ومعالي، وقد وقع لي من قبيل لطائف الخطاب كافي هم العارفين في طلبهم وصله، وهادي العارفين بنفسه إلى نفسه، ثم إلى ذخائر ما في كنوز قدمه من علومه المجهولة الغيبية بنادي بلابل بساتين ورد وصّاله العارفين حتى يزيد رغبتهم في المسارعة بنعت الشوق والمحبة إلى جلال بقائه عليهم بألم فؤاد العارفين في داء فقدان قدمه، ووجدان وجود بقائه صادق بصدق مواعيد قرباته، ومداناته للعارفين، ورفع حجب الاحتشام عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بنظر البسط والانبساط لا بنظر القبض والهيبة؛ لأن هناك مقام تمتعهم بجماله وجلاله وصحبته ووصاله: وهذه الحروف عيون رحمة ذاته، وكرم صفاته بأنبيائه وأوليائه؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا﴾، وتخصيص زكريا برحمته وذكره أنه كان عقراً تعرض بنعت الفناء والعجز بجلال جبروته وعظائم ملكوته ليهب له من يرث منه علوم الحقيقة، ولطائف حكم الإلهية، فأخبر سبحانه عن تعطفه به ورحمته الكافية عليه بأنه أجاب دعوته وأعطى مأموله، وجعله إماماً للخاضعين، ومقتدى للسائلين.

قال الحريري: في هذه الحروف سبب رحمة ربك عبده زكريا.

قال ابن عطاء: ذكر اختصاص زكريا بالرحمة، وإن كانت رحمته قد وصلت إلى الأنبياء فخصّ زكريا من بينهم باللطف رحمة، وهو أن وهب له يحيى الذي لم يعص ولم يهيم بمعصية؛ فهذا هو محل اختصاصه.

ثم وصف الله سبحانه نبيه زكريا بلطائف المناجاة، وخفي الذكر في المراتبات بقوله:

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ إذ حاج سره إلى طلب الخنوع إلى الربوبية، والفناء تحت العظمة، والذهاب عن الذهاب في برجاء الهيبة في مقام المشاهدة ونجوى سره فناجى سر سره خفيًا عن سره، ونادى سره خفيًا عن روحه، ونادى روحه خفيًا عن عقله، ونادى عقله خفيًا عن قلبه، ونادى قلبه خفيًا عن نفسه، ونادى نفسه خفيًا عن صورته، ونادى لسانه بل جميع وجوده لسانًا خفيًا عن غير ربه؛ فمناجاته ونجواه أخفى عن كل خفي؛ لأنه نادى ربه بربه، وتلك المناداة ما وصف الله بالخيرية والخاصية عن جميع العبادات والأذكار والأفكار بقوله: **خير الذكر الخفي**،^(١).

قال: عن عطاء: ﴿ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ أخفى نداءه من الخلق، ومن نفسه، وأظهر النداء لمن يجيبه، ويقدر على إجابته، وفائدة إخفاء النداء من الخلق، ومن النفس لئلا يدخله تلوين. وقال بعضهم: خفي في الذكر عن الذكر، ومن ذا قيل: إذا أذهلتك العظمة خرس قلبك ولسانك عن الذكر.

قال بعضهم: أخفى سؤاله عن نفسه، وروحه فنداؤه لمن يقدر على إجابته وقضاء حاجته فسمع الحق نداءه، ووهب له يجيب كما طلبه.

ثم وصف الله سبحانه عبده زكريا بأنه جعل نفسه في مقام العجز والتواضع في سؤاله عن ربه، وهكذا حال السؤال على باب جبروت ذي الجلال، وكان في دعائه موقنًا؛ لأن قلبه شاهد مقام استنشاق نفحة الإجابة لذلك قال: ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾.

قال ابن عطاء: قام مقام معذور لما وجد في نفسه من فترة العبادة لكبر السن، فسأل الله من يعينه على عبادة ربه، وينوب عنه فيما عجز عنه من أنواع العبادة منابة؛ فقال: ﴿ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾، ورضاه لخدمتك ومستصلحة لعبادتك ثم إنه كان عليه رأى بعين سره روح ابنه في الملكوت طائفة في رياض الجبروت؛ فسأل ما رأى فقال: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ ناصرًا صديقًا نبيًا مرسلًا، يعرف حالي، ويرث مقامي، ويتخلق بخلق آبائي، ﴿ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ مرضيًا عندك بعد اتصافه بصفتك راضيًا عنك بعدما شاهد الرضوان الأكبر بنعت المتبري عن غيرك.

قال ابن عطاء: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ أي: ولدًا نتخذه وليًا يرث مني النبوة، ويرث من آل يعقوب الأخلاق، وقيل: يرثني النبوة، ويرث من آل يعقوب السخاوة

(١) رواه أحمد في مسنده (٧٢ / ١)، وابن حبان في «صحيحه» (٩١ / ٣).

والكرم والصبر على النوائب، والرضا بالمقدور.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلٍ يَعْقُوبُ ۖ وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا ۖ﴾ يَتَزَكَّرِيًّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۖ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَأَنِّي آمَرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۖ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۖ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلا تَكَلِّمُ النَّاسَ تِلْكَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۖ﴾.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا ۖ﴾: يرضى منه أخلاق الظاهر، ويرضيه عنك في الباطن.

وقال جعفر: «ورضيًّا» أي: راضيًّا بما يبدو له عليه.

قال أبو حفص: اعتذر إلى ربه في ضعفه عن القيام بالعبادة على حسب ما يريد ثم هو سبحانه بشَّره بما سرَّه، فقال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ يحيى بحياته، ومشاهدة جماله، ومعرفة كماله، نفخ نفس صبح القدم في يحيى، فيحى من موت العدم بأنوار القدم، وإذا بحياته لم يمت بموت الفرقة، وما طرأ عليه طوارئ فبهر الغيرة، وقد تخصص من بين الأنبياء والرسل وجميع الخلق من طريان الامتحان الذي يكون سبب حجاب القلوب عن الغيوب، ولذلك خصَّ اسمه وخصه بهذا الاسم المبارك بقوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ فكان في اسمه «ياءان وحاء»؛ فالياء الأولى ياء نداء الحق في الأزل نادى الحق بنفسه إلى العدم، ودعا من نفسه بنفسه وجود عبده يحيى؛ فتكون ياء نداء الأزل، وأجاب الفطرة الفعلية نداء الحق فصار قائمًا بقدرته بعد أن تجلَّى الحق من «حاء» حياته لتلك الفطرة، فصيورته بروح الحق وروح حياة الحق فنادت تلك الفطرة بعد كونها، ودعت صانعها وأقرت بربوبيته، فالياء الأول نداء الربوبية من العدم.

والياء الثاني من اسمه نداء بنعت الجواب بالعبودية من العدم فألبسه الحق بين ياءين روحًا من حاء حياة الأزلية فصار حيًّا بحياته، مقدسًا من غمرات الموت، ولا اعتبار بذهاب الصورة عن البين فإنه نقل مع نقل الروح لذلك قال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أجسادنا أرواحنا»^(١).

قال الصبيحي: سمى يحيى، وقال: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۖ﴾ افتتح اسمه

(١) لم أقف عليه.

بالياء، وختمه بالياء، وتوسط بين ياءين حاء الحنانية، فاسمه في الخط مرسوم موجه يُقرأ من أوله إلى آخره ومن آخره إلى أوله.

فياء الأول توفيق، وياء الآخر تحقيق؛ فلذلك لم يعص، ولم يهيم بمعصية؛ فقال الجنيد: سمي يحيى، ولم يكن له من قبل سمياً؛ لأن يحيى من يحيا بالطاعة والموافقة، ولا يموت بالذنوب والمخالفة، وكان هذا صفته ونعته لم يجر عليه وسم الخلاف، ولا لسان الذنب بحال، كان محمود السيرة من مبتدأ أمره إلى انتهاء؛ لذلك قال النبي ﷺ: «ما أحد من الخلق إلا أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا؛ فإنه ما أخطأ ولا همَّ»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ هذا جواب قوله تعالى: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَأَنِّي آمُرُاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ ما شك في قدرة القادر، لكن تفحص من شأن الحال حتى يقع نظر سره على تجلي القدرة وسرها لعل ينكشف له عين ذات الأزلي.

فأجابه الحق: أين أنت مما طهر في نفسك عما تطلب في خلق ابنك؟ انظر إلى وجودك بعين الحقيقة؛ حتى تراني في كونك، وتستغني عن النظر إلى غيرك، ألبست نور قدمي فعلي، وألبست نور فعلي العدم وصيرتك موجوداً بظهور وجودي بنعت قدمي بعدمك.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾: المقادير صرحت بمعانيها، وكشفت عن أوقاتها.

وقال أيضاً: أنت في حال وجودك كأنك في حال عدمك عندنا لا تحدث لنا في عدمك ووجودك حالة لم تكن لا الأشياء ثابتة في حال وجودها، ولا هي بائنة في حالة عدمها إذ وجودها وعدمها عند الحق سواء لا ثبات لشيء.

قال جعفر في قوله: ﴿رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ﴾: استقبل النعمة بالشكر قبل حلوها.

وقال الروذباري: غاية الرجاء في غاية اليأس، وهو في قصة زكريا حين قال: ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلْمٌ﴾ قوله له مثل يحيى.

﴿خُذْ عَلَى قَوْمٍ مِّنَ الْمَخْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾
يَبْتَغِي خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿٦٧﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٤٦/٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٤٤/١١) بنحوه.

وَكَانَ تَقِيًّا ﴿٦٠﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿٦١﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ
يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿٦٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَنْبَغِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ الكتاب كلام الحق الأزلي، كلف الله سبحانه يحيى عليه السلام حمل كتابه الأزلي، وأمره أن يأخذ بقوة قال: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ معاً ذكرناه في قسمة أي: خذ الكتاب الأزلي بالقوة الأزلية التي ألبيتها روحك وصورتك حين خلقتك بمباشرة قوتي الجبرية الأزلية، ولولا تلك القوة في نفسه كيف كان يأخذ الكلام القديم، والقديم لا يحتمل إلا بقوة من القدم.

أي: خذ كتابنا بنا لا بك، خذ بقوتنا لا بقوة الحديث، وأيضاً خذ كتابنا بمعرفة كتابنا، وبمعرفة تعرف معاني حقائق كتابنا، وأيضاً خذ باستعانتك بنا بأخذ كتابنا.

ثم وصف امتنانه عليه حيث ما بالى أنه لم يكن بالغاً بقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ عرفناه مكان الحقيقة في معرفة صفاتنا وذاتنا في زمان صباه؛ لأن روحه خرجت من عالم الملكوت كاملة بأنوار الجبروت، وأيضاً آتيناه الحكمة البالغة والمعرفة الشاملة والفراسة الصادقة والمحبة الشافية.

قال ابن عطاء: «الحكم» المعرفة.

وقال جعفر: التوفيق لاستعمال آداب الخدمة.

قال الحسين: كان روح يحيى معجوناً بأنوار المشاهدة، ونفسه معجونة بآداب العبودية والمجاهدة؛ لذلك قال له: ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ .

وقال يوسف بن الحسين: أوتي يحيى حكماً على الغيب، وفراسة صادقة لا يخالطها ريب ولا شك.

ثم وصف الله سبحانه صفيه يحيى بالطهارة والرحمة والتقوى بقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ أي: آتيناه رحمة من عندنا تلك الرحمة العندية أنه تعالى ألبيه كسوة من صفات رحمته، حتى جعله رحمة للمنقطعين، وشفاء لمرضى المحبين، وجعله مطهراً بأن قدسه في بحر جلاله بزالال وصاله عن غبار الامتحان وعماء العصيان، وجعله تقياً معرضاً عن غيره، مقبلاً عليه بنعت الشوق والمحبة.

قال الواسطي: ذلك الذي أوجب له الانبساط والدلال.

وقال سهل: رحمة من عندنا، وطهرة طهرناه بها من ظنون الخلق فيه، وكان تقياً معرضاً عما سوانا، مقبلاً علينا.

ثم إن الله سبحانه من شرف يحيى زكى روحه وقلبه وصورته بروح روح سلامه وخطابه بقوله: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ٢١ ﴿ سلام الأزلي على روحه حين خرجت من نور كافه ونونه الذين هما روحان من تجلي صفات الحق، وذلك السلام سلامه تجلي جماله لروح يحيى في بدء أمرها، فلما وصل بركة سلام الله مع نور جود وجوده إلى روحه؛ أحاطت بها بنعت العصمة إلى يوم خروجها من صورة؛ فلما كملت العصمة فيه جازاه الله بزيادة كشف جماله وخطابه معه وسلامه عليه حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء لثلا يكون له وحشة من خوف العاقبة، فيبقى بين سلامين، وبين مشاهدين حتى يكون وقت العرض الأكبر، فلما حان وقت وقوفه بين يديه يؤمنه بسلامه من العتاب، ويفرحه بكشف النقاب، ويؤويه إلى خير المآب؛ فالسلام الأول تربية، والسلام الثاني عصمة، والسلام الثالث وصلة ومشاهدة.

قال أبو بكر بن طاهر: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ تحية ربه له، وأمان له من كل محذور، واتصال العصمة به إلى الممات، وقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ من ثنائه على نفسه أنطقه بلسانه، وهو أغرب في العلم، وأدق في اللطف.

وقال الواسطي: سلام في طرقي حياته عماته من جريان مخالفة عليه بقوله: ﴿وَسَلَّمْ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ٢٢ ﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ٢٣ ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ٢٤ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ٢٥ ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ٢٦ ﴿.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ٢٢ ﴿ الإشارة الحقيقية هاهنا أن جوهر مريم جوهر فطرة القدس، قريبا الحق بنور الأنس ففي جميع أنفاسها مجذوبة بنعت القرب والأنس إلى معدن الأنوار الإلهية، فصارت كل وقت مراقبة لظهور شمس الجبروت من مشرق الملكوت، فاعتزلت عن الأكوان بالهمة العالية المنعوتة بنور الغيب، فأقبلت إلى مشارق شمس الذات والصفات، واستنشقت نفحات الوصال من عالم الأزل، فوصل إليها نفحة وصال الأزلية، وأشرقت عليها شمس مشاهدة القدسية، فلما شهدت مشاهدة مشرق تجلي الأزل برقت أنواره، ووصلت أسرارها إلى روحها فحملت

روحها بروح الغيب فصارت حاملة الكلمة الكبرى ونور الروح الأعلى فلما أعظم شأنها بعكس جمال تجلي الأزل عليها استترت من الخليقة، واستأنست بعروس الحقيقة، وذلك قوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ فلما خلت بذلك النور والبرهان، فبان لها نور صدر من تجلي الجلال والجمال، ووصل بنور روحها بعد أن تمثل لها بصورة عيسى، وذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

إذا فرغنا من وصف القدس اللاهوت عن الناسوت، وعجز الناسوت عن إدراك اللاهوت، وتنزيه جلال الحق عن ممازجة الخلق، وإفراد القدم عن الحدوث، وعزة جماله وكبرياء أزليته عن المماثلة والمشابهة بقول: إن إرسال الحق روحه إليها أن ذلك الروح ظهور تجلي قدس الذات في نور الصفات ونور الأفعال على صورة حسنة مرغوبة، إليها ميل كل روح بنعت الشوق إليها، وذلك روح الفعل، وروح الصفة، وروح الذات في لباس نوره على قدر عقلها، لذلك قال: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وهذا عادة ظهور الحق في بداية عشق العاشقين ليجذب بها أرواحهم، وقلوبهم إلى معدن تعريف الصفات والذات صرفاً بعد انفراد الحقيقة عن الخليقة، ومن ذلك قال الطبراني: «رأيت ربي في أحسن صورة»^(١).

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾: نوراً منا ألقيناه عليها، وخصصناها به؛ فأين الكون الذي فيه أثره، فأخرج من ضياء نتائج ذلك النور عيسى روح الله صلوات الله عليه.

روي عن أبي بن كعب رضي الله عنه: «إن ذلك البشر الممثل هو روح عيسى»^(٢).

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ (٣) فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا مَكَانًا قَصِيًّا (٤) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا (٥) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٦) وَهَزَيْتِ إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا (٧)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ جعل الله عيسى مرآة نور مشاهدته، ومشكاة نور صفاته لطلاب قربه ووصاله، فتجلى منه لأبصار عرفائه، وأهل خصائص محبته،

(١) رواه الدارمي في سننه (١٧٠ / ٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣١٧ / ١).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (٤٠٥ / ٢)، وذكره المناوي في «فيض القدير» (٤٠٥ / ٤).

وهذا رحمته على كل مريد من صعقه لا يبلغ سر روحه إلى القدم؛ فيبصر جمال القدم في مرات الحدث، وأي آية أحسن من هذه الآية ظهر الحق بعزته، وقده من التشبيه والتعطيل من وجه موسى وعيسى ومحمد - صلى الله عليهم وسلم؛ لذلك أشار النبي ﷺ بقوله: «جاء الله من سيناء، ويستعلن بساعير، وأشرق من جبال فاران»^(١).

قال أبو بكر بن طاهر: في هذه الآية علامة دالة على تصحيح الربوبية، ورحمة لمن آمن به، ولم يدع فيه ما لم يدعيه لنفسه.

قوله تعالى حكاية عنها: ﴿يَلَيَّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ تحيرت بين أمرين بين غيبتها عن رؤية سوابق التقدير في الأزل يكون عيسى آية الله في بلاد الله وعباده، وبين حياتها في رؤية جلال الحق مما زعم الكفر حيث قالوا بألوهيتها وألوهية ابنها، فأرادت أنها ما كانت ولم تكن، وتكون فانية مضمحلة من حياء خالقها وعلمها بتنزيه جلاله، وقدهس جماله عن علة المخلوقات جميعاً، وممكن أنها قالت ذلك لمعارضتها جبريل بقوله: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لِي عِلْمٌ﴾. قال ابن عطاء: لما رأت قومها قد أثموا في أمرها رجعت باللائمة على نفسها؛ فقالت: ﴿يَلَيَّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾.

وقال بعضهم: يا ليتني مت قبل أن يظهر فيهم آفة أكون أنا سببها.

وقال جعفر: يا ليتني مت قبل أن أرى لقلبي متعلقاً دون الله.

قال بعضهم: ﴿يَلَيَّتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ قبل أن يقال في ما قيل من قولهم: ثالث ثلاثة.

وقال أبو بكر بن طاهر: أي: ليتني مت في أيام كفاية التوكل قبل أن رددت إلى عناء

الطلب بقوله: ﴿وَهَزَيْتَنِي إِلَيْكَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَزَيْتَنِي إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ﴾ خاطبها الحق سبحانه بعد غلبة الحزن على قلبها عند سماع أقوال المبطلين ليسلي قلبها بأنه منزّه عن خطرات الأكوان، وعلة الحدثان، وأقوال الحرمان، وألبسها لباس أنوار قدرته، وجعلها عيناً من عيون جمعه حتى عرفت مكانتها من جوهر القدس، ومعدن روح القدس، والكلمة القائمة بعزته، فقالت الأعيان لها بأنها هزت نخلة يابسة؛ فأسقطت عنها رطباً جنيّاً.

وقال الواسطي: كانت يابسة لما حركت اهتزت واخضرت وأطلعت وسقطت.

فقال: كما أن الله تولى النخلة بما عاينت تولى عيسى في إظهاره من غير فعل.

قال ابن عطاء: لما كانت مجردة رزقت بغير حركة وكسب فلما تعلق قلبها بعيسى قال

(١) ذكره القرطبي في «التفسير» (٣/١٥٩).

لها: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ﴾.

قال أبو سعيد الخراز: لما رأت من نفسها شفقة على ولدها، خافت أن يكون ذلك يقطعها عن الله ﴿يَلْبِثَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾.

﴿فَكُلِّي وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ (١٦) فَأَنْتَ بِمِ قَوْمِهَا تَحْمِلُهُ قَالَوا يَنْمَرِيْمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا (١٧) يَتَأَخَتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْرَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (١٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالَوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا (١٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٢٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٢١)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلِّي وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي: كلي من خوان عنابتي فواكه مشاهدي، واشربي من بحار محبتي، وقرري عينا برويتي، وبأني قررة عينك قري عينك بي، وأيضًا قري عينك بما ترين من أنوار جمالي في وجه ابنك عيسى، وظهور آياتي من نفسه.

قال ابن عطاء: إنك غير مطالبة بالثياب فيما أعطيت.

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ بيّن الله سبحانه أن مريم علمت بنور الحق نطق عيسى قبل نطقه، وعرفت بإلهام الله أنه نبي مرسل؛ لأن عيسى تكلم في بطنها بتوحيد الله سبحانه، وعلمت أن براءتها من مقالة القوم في نطق ابنها، وهذا غاية حسن اليقين وسماع إلهام الحق بلا واسطة، ولما علمت شأن عيسى آمنت برسالته وعظمته عين أشارت إليه بأنه أهل مكان علم الله موضع معجزته، ولا يجوز عند الكبراء جواب السؤال؛ فهذا من كمال أدبها في حضرة عيسى، ومن هاهنا إشارة العارفين إلى كبرائهم عند حاجاتهم بفهم الحقائق.

قال ابن عطاء: فأشارت إليه في الظاهر لتعليم القوم صدقها فيما تقول فأنطق الله عيسى ببراءتها.

قيل: إن أحسن إشارات العارفين في أوقات الاضطراب حين لا تشتت الهمة على الرجوع إلى الحق.

وقال ابن عطاء: أشارت إلى الله، ولم يفهم القوم إشارتها، فأنطق الله عيسى بالبيان: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أي: أنطقني بهذا النطق الذي أشارت مريم، وأظهر ربوبيته في تكلمه.

وقال بعضهم: أشارت إلى الله بسرها، وإلى عيسى بنفسها؛ فأنطق الله عيسى ببراءتها

فيما رُميت به، وبراءة نفسه فيما يدعى فيه، ولي رمز هاهنا لما أراد سبحانه أن ينطق عيسى بكلمة التوحيد، وإقراره بالعبودية أمر أمه بالصمت؛ لأن لسان مريم لسان الظاهر لها، ولسان عيسى لسان باطنها؛ فإذا سكت ظاهرها نطق لسان باطنها بقدرة الله، وتأيده الأزلي، وهكذا شأن العارفين إذا سكتوا بالظاهر تنطق السنة أرواحهم بنطق الغيب الإلهي؛ لذلك قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: صمتًا أي: إذا كنت في رؤية الخلق، وترين في البين أحدًا لا تتكلمي بالحجة؛ فإنك لا تبلغين إلى دفع الخصماء بنطقك، وإذا سكت عن الحجة، وفوضت أمرك إليّ؛ فلاني أنطق ابنك بالحجة البالغة بالالوهية.

قال ابن عطاء: صمتًا يدل ذلك على ترك الانتصار للنفس، فقليل لها: اسكتي، ولا تتصيري؛ فإنك إن أردت أن تبرئي نفسك بحجتك لم تزدادي بذلك إلا شغلًا؛ فإن كلامك وانتصارك لنفسك مشقة عليك، وفي سكوتك إظهار ما لنا فيك من القدرة، فلزمت الصمت، فلما علم الله صدق انقطاعها إليه أنطق الله عيسى ببراءتها؛ فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أبان عن أكرم الأسباب، وأسقط دعاوى من يدعي فيه ما لا يجب: وأقر بالعبودية لله فلما سكتت مريم عن الكلام بالحجة، أنطق الله ابنها بلطف المعجزة: وأقر في المهد بالعبودية بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا.

هذا محض معجزته؛ لأنه نطق بالحق، وتفرس بنور النبوة أن قومه جاءوا بالإشارة إليه بالالوهية؛ فنفى العلة من البين حتى لا يكون لهم شبهة بأنه عبد من عبيده، وأمين من أمنائه، وإن كان عليه كسوة أنوار الربوبية؛ انظر كيف حركته في المعرفة حتى اجتألي بعبودية القديم الأزلي الذي لا يقوم بعبوديته الأكوان والمحدثان بأسرها في مقام واحد، ولير تلقى ذرة من حقوق العبودية على جميعهم لذابوا في تحت أثقالها؟

وقوله: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ أي: أنا من أهل سماع كلامه القديم، ولقائه الكريم أخبر الخلق والخلقة من الحقيقة ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ صديقًا مخبرًا عن وصاله ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ على لباس بركة جماله أي: حيث كنت، وأكون في الأرض والسماء مباركًا، وبركتي تصل إلى المؤمنين بأي قرّة عيونهم، ومن تلك البركة أذهب عنهم البلاء وبها أحبي الموتى.

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ بظاهر العبودية، والخدمة التي فيها لطائف المناجاة، وفتح أبواب المشاهدات، وزكاتي بذل وجودي له، وهذه العبودية المباركة واجبة عليّ، وعلى من اتبعني، وإن بلغنا إلى منازل الاتصاف والإنصاف والاتحاد.

وفيه إشارة: إنه وإن كان في الحضرة يخدم صانعه، ويتواضع لخالقه؛ لأن عبوديته أفخر المفاخر له.

قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال الجنيد في قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾: ليس بعبد هوى ولا عبد طمع ولا عبد شهوة. ﴿وَأَتَنَّبِيَّ الْكِتَابَ﴾ خصني بخصائص الأسرار، وجعلني نبياً مخبراً عنه خبر صدق. وقال ابن عطاء: لما علم الله في عيسى ما علم من أن يتكلم فيه من أنواع الكفر أنطقه أول ما أنطقه بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ليكون ذلك حجة على من يدعي فيه ما يدعي إذ قد شهد هو الله بالعبودية.

وقال أيضاً في قوله: ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ إنفاعاً للناس كافي الأذى.

قال الواسطي: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ عارفاً بالله داعياً إليه.

وقال الجنيد: مباركاً على من صحبني، وتبني أن أدله على الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾: أمرني بمواصلته، وطهارة السر عما دونه ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ بحياته.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُتْعْتُ حَيًّا ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ مادام أقر بالعبودية، وأخبر عن خاصية النبوة؛ كيف يكون جباراً مستنكفاً من عبادته شقياً عن رجاء وصاله؟

قال سهل: أي: جاهلاً بأحكامه، ولا متكبراً عن عبادته.

وقال ابن عطاء: الجبار الذي لا ينصح والشقي الذي لا يقبل النصيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٧) أي: عليّ السلامة يوم دخلت في الدنيا، حيث بلغت مقام الامتحان في العبودية بعد أن كنت في مقام المشاهدة، وهذا السلام دوام محل انبساط الحق عليّ بشرط العصمة والرعاية ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ سلام الأمن والرضا ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ (١٨) سلام الشرف واللقاء والفرق بين سلام الحق على يحيى وسلامه على عيسى أن سلام يحيى بلا واسطة، وسلام عيسى بواسطة وأصل الإشارة أن سلام يحيى سلام تخصيص الربوبية على العبودية، وبيان الشرف والكرم عليه من الحق، وسلام عيسى محل الانبساط ثم محل الاتصاف، ثم محل الاتحاد فإذا كان متصفاً متحدًا من حيث المعرفة والتوحيد والمحبة والشوق صار لسانه لسان الحق من حيث عين الجمع فسلامه على نفسه سلام الحق عليه على مزية ظهور الربوبية في معدن العبودية، وأرفع المقامين سلام الحق على سيد المرسلين كفاحًا في وصاله وكشف جماله، فهو سلم عليه بلسانه كان السلام مقصودًا؛ إذ جرى بلسان الحدث عليه، ولا يبلغ ذلك السلام إلى كمال رتبته لكن سلم عليه بأوصاف قدمه حتى شمل على شرفه كله.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (١٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَأْتٍ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٢٠) يَتَأْتٍ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٢١) يَتَأْتٍ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٢٢) يَتَأْتٍ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٢٣) قَالَ أَزَاغِبُ أَنْتَ عَنِّي يَا إِبْرَاهِيمُ لَبِنَ لَمْ تَدْنِهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٢٤) قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٢٥) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٢٦) فَلَمَّا آعَزَ لَهُمْ وَمَا يَعْْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٢٧) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (١٩) إن الله سبحانه حثّ حبيبه على ذكر خليله - عليهما السلام - وما جرى عليه من أحكام الخلّة من الوجد والحال والزفرة والغيرة وكسر أصنام الطبيعة، والخروج مما دون الحقيقة، وعن الصديقية في خلته، والصديق من تواتر أنوار المشاهدة، واليقين، وإحاطة نور العصمة عليه بالسرمدية.

قال ابن عطاء: الصديق القائم مع ربه على حدّ الصديق في جميع الأوقات لا يعارضه

في صدقه معارض بحال.

قال أبو سعيد الخزاز: الصديق الأخذ بأتم الحظوظ من كل مقام سني حتى يقارب من درجات الأنبياء.

وقال الجنيد: الصديق القائم مع الحق بلا واسطة.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَلِمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ هذا سلام الإعراض عن الأغيار، وتلطف الأبرار بالجهال، قال تعالى: ﴿ وَأَهْجُرُهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠].
قال أبو بكر بن طاهر: لما بد منه كلام الجهال من الدعوة إلى آلهته والوعيد على ذلك أن خالقه جعل جوابه جواب الجهال بالسلام؛ لأن الله قال: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

ثم إن الله سبحانه أخبر عن صديقية إبراهيم من تبرئه عما دون الله بقوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ العيش الهني صحبة الأبرار مع ترك مصاحبة الأشرار.
قال أبو تراب النخشي: صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار.

قوله تعالى: ﴿ وَأَذْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ تكلم من حقائق يقينه أنه عند الله على شرف كامل، وأنه مجاب الدعوة؛ فطمع في الحق ما طمع من نظره إلى علومه المجهولة الغيبية.

قال عبد العزيز المكي: كان الخليل عليه السلام يهاب به أن يدعوه ويذكره ويعظمه ألا يكون يدعوه بلسان لا يصلح لدعائه على استحياء وحشمة وخيفة وهيبة بعد معرفته بجلاله، فلما ترك صحبة المنكرين رزق الله من نفسه أنبياء بقوله: ﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ من ترك الخليقة فالله خليقته في كل مراد جعل سبحانه إسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد - صلى الله عليه وعليهم وسلم أجمعين - وموسى ويحيى وجميع الأنبياء والرسل بعده عوضاً له من أبيه آزر، كان عليه السلام ضيق الصدر من هجران أبيه عنه، وعن دينه فجعل أخلافه من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين عوضاً لأبيه؛ حتى لا يضيق صدره.

قال النواسطي: عوض الأكابر على مقدار الحدث جعل فهم التلاوة للأحكام، وجعل لهم الحقيقة للأسقام قال الله: ﴿ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ ﴾، وقال لموسى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾، ولما اعتزل محمد ﷺ الأكوان أجمع، ولم يزغ البصر في وقت النظر وما طغى قيل ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، حيث لم يزاغ غيره حلاله بصفته؛ فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ رحمه: نبوته ورسالته وقربته ومشاهدته، ولسان الصدق العلي ثناؤه عليهم، وأي لسان أعلى من لسان مدح الحق عليهم، وأنطق لسان جميع الصديقين بشنائهم إلى الأبد، وأيضا أعطاهم لسان صدق بيان جلال ذاته وصفاته للخلق.

قال ابن عطاء: أصدق الألسنة هي المعبرة عن الحق بالصواب، والذاكرة على الدوام لنعماته والناشرة لآلائه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ وَتَنذِيئُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي: اذكر ما بيني وبين كليمي من سماع الكلام ومشاهدة التجلي وشوقه ومحبه وإخلاصه في عبوديته، وإخلاصه كان في البحر عند وقوع الامتحان، قوله: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ [الشعراء: ٦٢].

قال الترمذي: المخلص على الحقيقة مثل موسى ذهب إلى الخضر ليتأدب به، ولم يسأله في شيء، فظهر له منه، وما كان يفعله حتى أوقفه على العذر فيه، وهذا من تمام إخلاصه.

ثم أخبر سبحانه عما بينه وبين كليمه من الأسرار والمناجاة بقوله: ﴿وَتَنذِيئُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ ناداه بوسائط الطور والشجرة في البداية، وقربه نجيا من رؤية جلاله، وأسمعه كلام الصرف بلا واسطة، وكان التجلي أيضا في الابتداء بواسطة الشجرة والطور، فلما قربته من بساط المجد والكبرياء أرى وجهه جل جلاله وروحه وقلبه وسره وجميع وجوده بنعت الشهود والمكاشفة، النداء بداية والنجوى نهاية، النداء مقام الشوق والنجوى مقام كشف السر.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾: جعلناه من العالمين بنا والمخبرين عنا بالصدق والحقيقة.

وقال رويم: كشفنا عن سره ما كان مغطى عليه من أنواع القرب والزلف وأذننا له في الإخبار عنا.

وقال بعضهم: نادينه للمحادثة والمكالمة والمناجاة.

وقال الأستاذ: للنجوى مزية على النداء؛ فجمع له الوصفين النداء في بدايته وقت السماع، والنجوى في نهايته فوقفه الحق، وناداه ثم قربته، ونجاه في جميع الحالتين تولاه.

ثم من كمال كرمه وهب لموسى أخاه هارون بقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ علم الحق سبحانه أن جميع الخلق لم يحتملوا ما في صدر موسى من عظيم أسرار صفاته وذاته وملكه وملكوته، فجعل هارون موضع سر موسى حتى لا يكون ذائبًا تحت أثقال تلك الأسرار، وهذا رحمة من الله عليه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾
وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿١١١﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي: اذكر ظرافة إسماعيل وشأله وموقع شرفه عندنا؛ فمن خلقه الرضا بالقضاء، والصبر في البلاء والكمال في السخاء، وصدق الوعد بنعت الوفاء.

قال الحسين: الصادق هو المتكلف في حاله يجري بين استقامة وزلة، والصديق هو المستقيم في جميع أحواله.

وقال ابن عطاء: وعد لأبيه من نفسه الصبر فوفى به في قوله: ﴿سَجِدْنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ﴾ [الصفات: ١٠٢].

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿١١٢﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿١١٣﴾ * خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿١١٤﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿١١٥﴾ جَنَّتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿١١٦﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ أي: اذكر ما كشفت لإدريس من أسرار الملكوت، وأنوار الجبروت وطيرانه في الجنان، وشهوده مشاهدة الرحمن.

قال أبو بكر الطمستاني: الصديق الذي لا يطلب طريق من غيره، ويكون له أن يطلب غيره بحقيقة الصدق.

ثم وصفهم جميعًا بأنهم منعم عليهم بالمعجزات الرفيعة، والكرامات الشريفة،

والقربات المداناة بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾.

ثم وصفهم مع ما أنعم عليهم بالخشوع والخضوع والبكاء والوجد في السجود بعد ما أعطاهم الاصطفائية والاجتباتية والمعرفة والإصابة والحكمة والمشاهدة والشوق والمحبة، انظر إلى ذكر هيجانهم وشوقهم إلى لقائه، ووجدهم بقربه، وحركاتهم في إجلاله عند نزول الآيات عليهم بقوله تعالى: ﴿إِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ (٢١) ما أطيب ذلك البكاء، وما أحلى ذلك السجود، بكائهم من رؤية عظمتهم، وسجودهم من كشف عزته، وحركاتهم من شدة شوقهم إلى معادن المشاهدات وأسرار المداناة.

أَلَا يَا صَبَا نَجِدْ مَتَى هَجَّتْ مِنْ نَجْدٍ فَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْدًا عَلَى وَجْدِي
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بَيْنَا عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ

ثم إن الله سبحانه ذكر المخالفين عقب ذكر الأنبياء والمرسلين، وذمهم بزوغانهم عن سبل أهل السعادة، واقتحامهم غيابات أهل الضلالة بقوله: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ﴾ لما استكبروا عن متابعة أهل الحق، وادعوا بالدعوى الباطلة، سقطوا عن أعين القوم، واحتجبوا بها رأوا من أنفسهم من الترهات والطامات والمزخرفات والأباطيل من الخيالات والمحالات عن لطائف الطاعات، ومقام المناجاة، وحسن المراقبات، ووقعوا في ورطات الشهوات، وصاروا أئمة الضلالات.

قال محمد بن حامد: أولئك قوم حرموا تعظيم الأنبياء والأولياء والصديقين، فحجبهم الله من معرفته، وأصابته شقاوة تلك الحال؛ فأضاعوا الصلاة التي هي محل وصلة العبد مع سيده ترسموا بها، ولم يتحققوا فيها، واتبعوا آراءهم وأهواءهم فأصابهم الخذلان حرموا بذلك السعادة، وأثر الشقاوة على العبيد هو حرمان الخدمة، وتصغير من عظم الله حرمة.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (٢٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٢٣) وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٢٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٢٥) وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ الرزق هناك حقيقة كشف مشاهدة الحق ورؤية جماله ووجدان وصاله، فكل وقت ينكشف جماله لهم، فذلك الوقت بكرتهم،

وإذا حان وقت إرخاء الحجب يرويه قبل ذلك، وهذا لعموم المريدين والمؤمنين.
فأما العارفون والمحبون والمشتاقون والموحدون فهم في منازل وصاله وكشف جماله بالسرمدية، ولا ينقطعون عنه لمحة، ولو احتجبوا لحظة لمااتوا في الجنة من فوت ذلك الحال، ولو بقي أهل الجنة في مشاهدة الحق على الدوام لذابوا من صولة سطوات جلاله وجماله.
قال أبو يزيد -قدس الله روحه: «لو احتجبت في الجنة عن لقائه لمحة أنغص العيش على أهل الجنة».

قال محمد بن عيسى الهاشمي: ردَّ الأشباح إلى قيمتها عن المطعم والمشرب بكرة وعشيًا، وتزاد الأرواح والأسرار عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]، وهو مقام لا ينزله إلا من كان ظاهر الأمانة سرًا وعلنًا.

ثم يئن سبحانه أن تلك الجنة، والمشاهدة الكريمة الأزلية لمن كان متبرئًا بهيمته عن الكونين، وبسره عن الدارين، وبعقله عن العالمين، وبحقيقته عن نفسه، وعن جميع الخلائق بقوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ الجنات هي منازل شتى جنة المحبة، وجنة المعرفة، وجنة التوحيد، وجنة رؤية أنوار الفعل، وحكم الغيب فيها، وأسرار المقادير، وجنة منها رؤية أنوار الصفات، ومشاهدة كل صفة للعارفين جنة وعيان الذات جنان، وهو أصل كل جنة، فأهل الحق في كل لحظة في جنة من هذه الجنان، وأوصافهم التبري من غير الله، فإذا خرج عن الأكوان والحدثان فأورثه الحق تلك الجنان، وحاشا أنها مقرونة باكتساب الحدث، بل اصطفاهم في الأزل بتلك الخاصية، ووقاهم من عن الامتحان والحرمان، وأعطاهم حسن وصاله، وكشف لهم من جلاله وجماله.

قال بعضهم في هذه الآية: نجعلها لم يطلبها بفضلنا لا بعمله؛ فإن الجنة ميراث سعادات الأزل لا ميراث الأعمال والعمل سمة ربما يتحقق، وربما لا يتحقق والتقوى نتيجة تلك السعادة.

قال الواسطي: إذا بلغت العقول الغاية، وبلغ بها النهاية؛ فحاصلها يرجع إلى حدث يليق بحدث، وحسبك من ذلك قوله: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ لما كان التقوى وصفك قابلك بما يليق بك، وأعلمك أنه غاية ما يليق بتقواك، ونهايتك في نجواك.

ثم إن الله سبحانه ذكر وصفه وربوبيته وسلطته وكبريائه وإحاطته بجميع الأشياء علمًا وقدرة وحكمًا وإثباتًا لحقوق الربوبية على أهل العبودية بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وصف ارتسام السماوات والأرض، وانتظام ما بينهما باصطناع قدرته، وإحاطة

علمه ثم ألزم حقه على عبده وحيبيه، وعلى جميع الخلائق من العرش إلى الثرى بعد بيانه أنه هو القادر بذلك لا غير وأمره بالصبر في عبادته، وأوضح الحجة بأن لا شريك له في ملكه ولا ضد له في سلطانه ولا ندب له في كبريائه بقوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ أي: ما تعلم إلهًا غيري ووجود ألوهية الغير مستحيل من كل الوجوه أي: اصبر معي في عبادتي ومعرفتي، واستغن بي في خدمتي ومعرفتك بي، وسل مني ما تريد، ولا تظهر حوائجك لغيري، فإن ما تريد لا يقدر بذلك أحد سواي.

قال محمد بن الفضل: هل تعلم أحدًا يجيبك في أي وقت دعوته، ويقبلك في أي أوان قصده؟

وقال الحسين بن الفضل: هل يستحق أحد أن يُسمى باسم من أسمائه على الحقيقة، وقال أهل التفسير: هل تعلم أحدًا يسمي الله إلا الله؟ ومن أوضح النكت في أسرار الحقيقة من الآية نفى الحق الربوبية عن كل متصف مستمد، وإن كانوا مستغرقين في جمال ألوهيته، وردهم إلى قيمتهم من العبودية أي: ما دامت تلك الكسوة النورية الأزلية عليكم عارية تذهب بذهاب الكشف وغيبة للمواجيد والصحو بعد السكر، ينبغي ألا تبرجوا من أصل قيمتكم؛ فإن القدم قائم بالقدم، وبقي الحدث على نعتة.

كُنْتَ أَنْتَ إِذْ غِبْتَ فِينَا بَلْ أَنَا كُنْتُ إِذَا غِبْتَ عَنَّا أَنَا وَأَنْتَ أَنْتَ
هل تعلم له سمياً بحقيقة اسم الألوهية التي أنوارها تزيل الحدثان، وتهلك جميع الأكوان بقهر سلطانها، وتصديق هذه الإشارات.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا ۚ فَوَرَبُّكَ لَنَخْشَرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُخْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۚ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ۚ ثُمَّ لَنَخْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ۚ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ۚ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۚ وَإِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ۚ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرَدًّا ۚ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ۚ﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: من أنتم، ومن أين أنتم، والعدم في العدم معدوم والقدر في القدم معروف، لو يعرف العارف أوائل كونه فني في لحظته في حياء الحق من دعوى معرفته إذ كونه في علم الأزل كعدمه بالحقيقة إذ قوامه بالحق لا بنفسه.

قال الراسطي: المقادير صرحت بمعايتها، وكشفت عن أوقاتها، فالأول: أخبر أنه مأخوذ عن شاهده، واكتسابه نفسه حين لم يكن شيئاً، والثاني: أخذوا من النطفة، والثالث: أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ذكر الطين للعبادات، وذكر النطفة للإشارات، والباقي لفقد النعوت والصفات.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ هذا القسم من وجوب حق صفة القدم، إذ نعته قهر الجبروت، فأورد الكل عليها لمباشرة ذلك فيهم ليعرفوه بجميع معاني صفاته، وذلك رحمة كافية إذ لم يعزلهم من رؤية جلال أزليته في لباس قهره، فكم كشف من الجبروت هناك، وكم مشاهدة من عين الملكوت هناك، وكم ظهور سر في دروبهم هناك أين أنت من قول سباح قاموس الكبرياء وعنقاء مغرب؛ فإن البقاء حيث قال: وضع الجبار قدمه في جهنم، هل ترى هذا القدم إلا كشف جلال القدم، وإذا كان جمال قدمه مصحوبهم، فلا بأس بالوقوف في النيران؛ فإن هناك أصل الجنان.

إِذَا نَزَلْتُ سَلَمِي بِوَادِئِهَا زُلَّالٍ وَسَلْسَالٍ وَشِيخَانِهَا وَرُدُّ

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ إذ كان وصفه في الأزل أنه عرف نفسه بجميع الصفات لكونهم عارفين، فإذا تم ذلك الكشف وصلوا بالحق مع الحق إلى جواره ووصاله الأزلي ولطفه الأبدي ولقائه السرمد الذي بغير امتحان، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ اتقوا من أليم القطيعة، وعذاب الفرقة، ومرارة المخالفة.

قال الواسطي: ما أحد إلا ويورده النار ملاحظات أفعاله ثم ينجي الله منها من أسقط عنه ذلك أو أزالها عنه بملازمة التوفيق.

وقال في قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا﴾: بالرجاء يطلب المحتوم، وبالخوف يدفع المقضي.

وقال الجنيد في قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾: ما نجا من نجا إلا بصدق اللجا.

قال الجريري: ما نجا من نجا إلا بصدق التقى.

وقال ابن عطاء: ما نجا من نجا إلا بتصحيح العهد بالوفاء.

وقال هذا العارف الفارسي العباد الرباني الشطاح الملكوتي: ما نجا من نجا إلا بالاصطفائية الأزلية، والعناية الأبدية، والرسم والوسم، والاسم عوارضات زائلة وامتحانات عاطلة.

قال جعفر الصادق: لولا مقارنة النفوس ما دخل أحد النار فلما قارنهم نفوسهم أوردتهم النار بأجمعهم فمن كان أشد إعراضاً عن خبث النفس كان أسرع نجاة من النار ألا ترى الله يقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (٦٦) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِفَاتِنَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٦٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٦٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٦٩﴾ وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٧٠﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٧١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٧٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٧٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٧٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ إذا أراد الله هداية العبد إلى محل الإيمان شرح صدره بنور الإسلام، فلما ثبت في إيمانه بنعت السنة والمتابعة عرفه منازل قربه ووصاله وحقائق العبودية فيقع في بحر الألوهية؛ فلا يجري عليه بعد ذلك طوارق الزيادة والنقصان.

قال سهل: يزيد الله الذين اهتدوا بصبرهم في إيمانهم بالله والافتداء لسنة محمد ﷺ وهو زيادة الهدى النور المبين.

قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهًا لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٧١) كل ما دون الله إذا أقبلت إليه بنعت الحاجة والافتقار فهو إلهك، وطلب العز في غير الله غير ممكن لأن الأكوان تحت فجرة ذليلة، وإذا أردت العز قبل إلى الله ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

قال بعضهم: كيف تظفر بالعز، وأنت تطلبه من محل الذل.

﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ (٧٥) وَنُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٧٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٧٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْفًا إِذَا ﴿٧٩﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿١٤٠﴾ أفهم أن المتقي من يتقى مما دون الحق ولا يتقي إلا بأن وقاه الله من طريان النفس والهوى على قلبه وأنسه بأنسه فالتقون الخارجون بنور مشاهدة الله عن ظلمات الأكوان إذا كان وقت حشرهم أركبهم الله على مراكب أنوار تقواه ودعاهم إلى مشاهدته ووصاله وأنزلهم عيون الرحمانية وأعطاهم من بحار رحمته جميع مأمولهم لذلك ذكر اسم الرحمانية أي: لم يكن هناك وحشة قطع الآمال إذا نزلوا موارد الجلال والجمال، وهذا وصف المتقين الذين هم أهل بنيات المقامات فأما العارفون فهو بنفسه يحملهم في ميادين الآزال والآباد ويبقيهم في معارج أنوار الذات والصفات، ولولا حمله إياهم كيف يقطعون براري الديمومية وقفار الأزلية والحدثان ساقطة في أودية قهر الربوبية.

وقال جعفر: المتقي الذي اتقى كل شيء سوى الله والمتقي الذي اتقى متابعة هواه فمن كان بهذا الوصف؛ فإن الله يحمله إلى حضرة المشاهدة على نجائب النور نيعرف أهل المشهد محله فيهم.

وقال أيضًا: لما لم يوافقهم صفة ولا نعتًا في الدنيا حشرهم في الآخرة إلى الله باسم الرحمانية يسوقهم سوقًا أرفق ما كان بهم وأكثر شفقة لا يعرجون إلى غيره ولا يلتفتون سواه.

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۝ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يُبْنِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ إن الله سبحانه أخبر عن عظيم افتراء الكفرة عليه لما في قلوبهم من مخائيل الشيطانية وهو اجسهم النفسانية، قالوا في حق الحق سبحانه ما يليق بالحدث لا ما يليق بالقدم فلم يقع وصف الحدث على القدم، ولم ير مقالتهم في الحق موضعًا في البرية لمكانها فقصدت السماوات والأرض والجبال؛ لأنها منصرفة عن جناب الربوبية قهراً وغيره، فنزلت على السماوات والأرض والجبال، فلم يحتمل بها السماوات والأرض والجبال من عظمها فتكاد السماوات

يتفطرن والأرض تنشق والجبال تحرق؛ لأن الكلمة خرجت من مصدر القهر ممزوجة بالغيرة، وذلك بأنهن عقلن بروج إشراق نور صفة الأزل عليهن، فكادت أن تفنى من عظم ثقل روح لطفه بروح قهره.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ كل مزين بأنوار الربوبية فهو تحته بنعت العبودية فمن شاهد أنوار الربوبية عرف محل الربوبية والعبودية فإذا فنى العبودية في الربوبية بقى الربوبية وصف المتصف بها فيرى نفسه بزيينة نور الحق فيدعى من مباشرة شكر التوحيد ونور الأزلية بدعوى الأنائية، فإذا كان يوم القيامة رجعت أنوار الربوبية إلى معدنها، وبقي الكل عرياناً منها ملبسين بذل العبودية حتى يجري عليهم طوارق غيرة الحق هذا إذا يمضي حكم الغيرة، ويدل عليه قوله: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ أي: فرداً عن دعوى الأنائية والمعرفة وبقي فرداً في حقيقة القهر عند فردانية الحق فانفرد بالحق حتى اتصف بالفردانية واتحد بالوحدانية فيرجع إلى ما كان فيه من إظهار الربوبية والألوهية فيشهد العارف مشاهد الوصلة فيحويه أنوار الدنو فيسكر بجمال الحق فيدعى هناك بلسان الأزل والأبد دعوى الأزل والأبد، ويا صادق كلهم في حجاب هاهنا عنه ماداموا في الحجاب يميلون إلى مأمول سوى الله من الثواب والنجاة من العقاب، فإذا شهدوا مشاهدة جماله سقط عنهم مراداتهم، ويخلصوا عن علة رق النفوسية، وصاروا عبيداً له محققين مخلصين في محبته ومشاهدته حيث لا يبقى إلا وجهه قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ﴾ [القصص: ٨٨].

قال جعفر في قوله: ﴿ءَاتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ فقيراً ذليلاً بأوصافه دالاً بأوصاف الحق. قال أبو بكر الوراق: ما تقرب أحد إلى ربه بشيء أزين عليه من ملازمة العبودية وإظهار الافتقار؛ لأن ملازمة العبودية تورث دوام الخدمة، وإظهار الافتقار إليه يوجب دوام الالتجاء والتضرع.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم: أنت عبد؟ قال: نعم، فقال له: عبد من؟ فأراد أن يقول عبد من فغشي عليه فلما أفاق قال: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۚ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ۚ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ۚ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم

مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحْسُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴿١٠﴾ .

قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ في هذه الآية عجيب من أن الله سبحانه قرن الود بالعمل الصالح، وذكر العمل الصالح قبل الود كان الود جزاء العمل الصالح، والإشارة فيه أن وده لهم قديم في الأزل، وبذلك الود عملوا العمل الصالح فإذا اصطفى بذلك الود وقفهم للأعمال الصالحة والأعمال الصالحة من ميراث ذلك الاصطفائية والود فإذا وقع العمل الصالح يزيد كشف ذلك الود في قلوبهم، والحق سبحانه منزّه عن الزيادة والبدء، فإذا ألبسهم نوره وكسا أسرارهم سنا وده فيكونون مزينين ظاهرًا وباطنًا، ويصيرون مرآة جمال الحق، وكل من يراهم يحبهم فالله أحبهم وهم يحبونه بمحبته، والخلق يحبونهم بمحبة الله إياهم، وما يرون من أنوار جمال الحق منهم.

قال ابن عطاء: الذين أخلصوا بسريرتهم لي، واتعبوا ظاهرهم في خدمتي سأجعل لهم وجهًا في عبادي لا يراهم أحد إلا أحبهم وأكرمهم وفي محبتهم وكرامتهم كرامتي ومحبتني.

وسئل بعضهم عن قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: يعني لذة وحلاوة في الطاعة.

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى ﴿٢﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٣﴾ .

﴿طه﴾ ذكرنا أن حروف المعجم صناديق أسرار الحق مع حبيبه ولا يطلع عليها بالحقيقة أحد غيره وكل لسان عبر عنها بقدر ما فتح في قلبه من قلبه من علوم السرية الإلهية وما قال فيه أهل الرسوم والحقائق يكفي لمسترشدي طرق الحقائق، وما وقع بغير تكلف بالبدية لهذا العارف أن الله سبحانه أخبر عن مقدم حبيبه من العدم إلى القدم بروحه فالطاء طواف روحه وطوف سره في صحاري هويته قبل القبل حين خرج روحه من نور الغيب وطار في هواء الهوية لطلب الذات السرمدي ومشاهدة الصفات الأزلية حتى وصل بالحق إلى الحق، وطار في دائرة هوية الغيب فوجد الحق بالحق وعلم من الحق بالحق ما في الحق فصار مقدسًا بقدس الحق مطهرًا بطهارة الصفة، وهو بذاته تعالى جعله معرفًا لخلقه صفاته وذاته هاديًا يهدي به عباده إليه بنعت المحبة والأسوة، كأنه قال يا طواف قفار الهوية في غيب الأزل

ويا مطهراً من الأكوان والمحدثان، يا هاديًا بنوري خلقي إلى ما وطئ أحد على بساط هويتي
أفضل منك، طويت لك تحت أقدام همتك صحارى الأزليات والأبديات حتى بلغ شرك سر
هويتي بهوائي تهوى وتلطف بلطفي هوى نجم همتك بعد ارتفاعها بي في هواء وحدانيتي
على بساط ملكي وملكوتي فطاب بطيب وصالي يا طه، لأجل ذلك قسمت به بقولي:
﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ [النجم: ١] طوبى لمن اهتدى بهديك وطاب عيش من هوى
طريقتك يا بدار أفق سماوات القدم ويا غواص قاموس الكرم طاشت العقول في إدراك
مقاماتك، وهامت القلوب في أودية محبتك، وطارت الأرواح من حقائق إشاراتك.

قال ابن عطاء في قوله ﴿طه ۝١﴾: «طا» هديت لبساط القربة والأنس.

وقال الواسطي: هو مستخرج من الطاهر الهادي أي: أنت طاهر بنا هادي إلينا.

وقال محمد بن عيسى الهاشمي: طوى عن سر محمد ﷺ الأكوان بما فيها وهدى إلى
الاشتغال بمكونها.

وقال محمد بن علي الترمذي: طوبى لمن اهتدى بك وجعلك السبيل إلينا.

وقال الأستاذ: «الطاء» إشارة إلى طهارة قلبه عن غيره، و«الهاء» إشارة إلى اهتداء قلبه
إلى الله.

ثم إن الله سبحانه تلى على نبيه وخفف عليه أثقال العبودية؛ لأنه كان تحت أثقال
سطوات الربوبية التي لا تحملها الأكوان بقوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝١﴾ قام
جميع الليل بالتهجد كأنه قال سبحانه: يا أول طا القدم على بساط حضرتنا لطلب المقام
المحمود لا تشق على نفسك لأجل زيادة الهداية؛ فإنك هديت في الأزل واصطفيناك لمشاهدتنا
وقربتنا والرسالة والمحبة لا تحتاج إلى كثرة المجاهدة، فإنك في المشاهدة أنزلنا عليك القرآن
ليعرفك أسرار ذاتنا وصفاتنا وتعرف عبادنا أسرار العبودية وأحكام المعرفة وعزة الربوبية،
أنزلنا عليك القرآن ليقرن عنانه بعنان همتك ويبلغك إلى منازلنا فتدلى فإذا وصلت إلينا
فأؤنسك بنفسي بعد أن جعلت القرآن مستأنسك؛ فإذا رأيتني رأيت ذاتي وصفاتي وسمعت
القرآن مني بلا واسطة فتعرف أن صفاتنا تضيئ الأكوان ولا تفارق الرحمن.

قال الواسطي: سُمي القرآن قرآنًا لأنه يقارن لتكلمه لا بياينه تعظيمًا لشأن القرآن كما
وصل إلينا شعاع الشمس وحرارتها ولم يباين القرص.

قال بعضهم: أنزلناه إليك لتستروح إلى كلام خالقك؛ فإن المحب يستروح إلى كلام
حبيبه ولا يلحقه فيه التعب.

وقال الأستاذ: ليس المقصود من إيجائنا إليك تعبك إنما هو استفتاح باب الوصلة

والتمهيد لبساطا القربة.

ثم بيّن سبحانه لم أنزل القرآن عليه قال: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ ﴿١﴾ معناه بالحقيقة أن أرواح أهل الخشية قد استغرقت في بحر القدم حين خرجت من العدم فعرفت منازل شهودها من مشاهدة الذات والصفات، وعلمت اصطفايتها وخاصيتها على بساط القرب وتلطف الحق بها وانبساطه معها بمحبته إياها، فلما دخلت الأشباح بقيت معها خشية العظمة وصولة الهيبة فزاد خشيتها بعلمها بالله بالوصلة والفرقة، وطرأت عليها وحشة الفراق عن معادها، فأنزل الله تعالى القرآن على حبيبه ليذكرهم أيام الوصال في مقام الفراق ليذهب عنهم الظنون والحسبان، ومعارضة النفوس وتخويف الشياطين بأنهم لا يصلون إلى تلك المناهل والموارد.

سقى الله أيامنا وليالي مضت فجرت من ذكرهن دموع
فيا هل لنا يوماً من الدهر أوبة وهل لي إلى أرض الحبيب رجوع

وأيضاً أهل الخشية هم العلماء بالله وبصفاته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، والخشية صدرت من رؤية عظمة الحق إلى قلوبهم فإذا دخلوا في منازل الامتحان بالحجاب، فأنزل الحق القرآن ليذكرهم عظام عظمة جبروته وسلطان قهر كبرياء ملكوته لئلا يتداخل أسرارهم غبار الأغيار ولا وحشة الاستكبار ولئلا يفتروا عن ملاحظة عزته وقهر كبريائه.

قال ابن عطاء: قيل له محمد أنت إمام أهل الخشية وسيدهم أنزلناه تذكرة لك لتسكن عليه وتزول به الخشية عن قلبك، فإن المحب: يأنس بكتاب حبيبه وكلامه.
وقال جعفر: أنزل الله القرآن موعظة للخائفين ورحمة للمذنبين.

وقال الأستاذ: القرآن تبصرة لذوي العقول تذكرة لأولي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون، فسألوا راحة اليقين في أجلهم وهؤلاء به يذكرون فيجدون روح أنس في عاجلهم.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿٢﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٣﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٤﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٥﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٦﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿٧﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ﴿٨﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ

طَوًى ﴿٣٧﴾ وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿٣٩﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿٤٠﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿٤١﴾ .

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ﴿٣٨﴾ ذكر سبحانه قبل هذه الآية خلق السماوات والأرض، ولم يقل أنه خلق العرش، وفيه إشارة إلى أن قوله سبحانه عن إحاطة الحدثان به ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ ﴿٣٨﴾ "يشير إلى أن عرشه جلال قدمه وأزلية ذاته وصفاته استوى بنفسه في علم العلم وغيب الغيب وهذا الاستواء قديم وهذا خبر عن تجبره وتكبره بنفسه في نفسه حين لا حين ولا حيث ولا أين ولا غير، وهكذا جميع الإحايين قبل الأكوان وبعد الأكوان وفي الأكوان إذا لأكوان والحدثان قاصرة عن حمل ذرة من كبرياء عظمتهم والأزمان مضمحلة عن حصر صفاته وأزليته وديموميته، وأيضاً إن الله سبحانه لما أراد إيجاد الكون خلق بظهور نور قدرته عالماً وسماه العرش من نور شعشعاني وجعله موضع نور العقل البسيط وجعل العقل البسيط موضع فعله الذي يصدر من القدرة ومن ذلك الفعل عالم طلوع أنوار القدم عليه فإذا تجلى بذاته لصفاته ومن صفاته لفعله، ومن فعله للعقل البسيط ومن عقل البسيط لعالم العرش فصار كل ذرة من العرش مرآة يتجلى الحق منها للعالم والعالمين فتدر قطرات ديم الفعل من فيض أنوار الصفة والذات من عالم العرش إلى العالم والعالمين على النظام والتسرمد واتسام صبح الأزلية من إشراق شمس الألوهية على عالم العرش بهذه المثابة، وانتشر بركنها في الأكوان والحدثان وهذا تحصيل علوم سر الاستواء، وبها عاقل أين العرش، وإن كان ألف ألف عرش من سطوات كبريائه التي لو برزت ذرة منها بنعت القهر في العالم لفنيت كلها قبل أن يرتد إليك طرفك فهو مستو بغير علة اعوجاج الحديثة بوصف قهر القدم على كل مخلوق والكل تحت قهر جبروته وإن كان عالم العرش أعظم ميادين تجلي استوائه هو خاص بتجلي الاستواء، والاستواء صفة خاصة لله منزّه عن إدراك الأوهام ومقاييس العقول تعالى الله عن محاسنة الحدثان وملاصقة الأكوان.

وسئل مالك بن أنس: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة.

وقال فارس: ليس على الكون من الله أثر ولا من الكون على الله أثر.

(١) مبتدأ وخبر، وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي من شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب؛ للإيدان بأن ذلك أمر بين لا خفاء فيه، غني عن الإخبار صريحاً. البحر المديد (٣/٤٩٦).

وقال ابن عطاء: الاستواء إظهار المقدرة لا مكان الذات فإذا جاوزنا من هذه المقالة فجرم العرش أعظم من كل جرم ولكن إذا استولى عليه قهر الربوبية كاد أن يذوب من صولته فأمسكه يد اللطف لتكون رفارف أرواح القدسية ويساتين عقول الملكوتية فسكن بلطف الله من الاضطراب من قهر الله، ثم صرف الحق عنه تلك الصولة لما علم ضعفه عن وارد الألوهية فطلب في ملكه وسلطانه عرشاً معنوياً روحانياً ملكوتياً رحمانياً جبروتياً، وذلك قلب العارف الصادق الذي خلقه الله من نور بهي صدر من تجلي صفة بهائه، وذلك عرش المعنى الذي من وسعه ببسط نور الأزلية فيه على مثابة من قدرة الحق أن لو كان العرش ما تحته يقع فيه يكون أقل من خردلة في فلاة، وذلك مشرق طلوع شمس الذات وقمر الصفات، فإذا غلب سلطانها عليه ظهر ضعفه تحت أثقال الألوهية فيبرز نور اللطف في قضائه فيبسطه بسطاً لا نهاية له ويصير مبسوطاً يبسط التجلي حتى يكون مستقيماً متمكناً في رؤية تجلي الحق فإذا صارت أنوار التجلي عليه بنعت الاستدامة ظهر علم سر الاستواء منه، وحاشا أن القلب حامل الذات والصفات هو بجلاله متنزه عن الورد على الحدثن لكن هو طور التجلي يحمل أثقال تجلي الحق بالحق لا بنفسه.

انظر إلى قول النبي ﷺ كيف قال حكاية عن الله ﷻ: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»^(١).

ويا عاقل كيف يحمله الحدث، وهو منزّه عن الحلول الله، الله هو منزّه أيضاً أن يكون هو محل الحوادث للقلب يحمله به؛ لأنه هو بذاته حامل القلب بالوصف والصفة. ألا ترى إلى قوله ﷻ: «القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»^(٢) هو مع الكل بالعلم والكل معه بالعلم والقدرة وهو منزّه قائم بذاته تعالى الله عن كل وهم وخاطر.

وقال ابن عطاء: استوى لكل شيء؛ فليس شيء أقرب إليه من شيء. وقال بعضهم: استوى له السماوات والأرض وما فيهن بشرط العبودية. قال الأستاذ: عرشه في السماء معلوم وعرشه في الأرض قلوب أهل التوحيد فعرش السماء مطاف الملائكة، وعرش الأرض مطاف اللطائف، فأما عرش السماء، فالرحمن عليه استوى، وعرش القلوب؛ فالرحمن عليه استوى، وعرش السماء قبلة دعاء الخلق وعرش

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/٤٩٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/١٢٩).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٤)، وابن ماجه (١/٢٣١)، وأحمد في مسنده (١٣/٣١٩)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٨٤).

الأرض محل نظر الحق فشتان بين عرش وبين عرش، ثم مع هذه الآية وعقبيها جمع الله سبحانه علومه القديمة المحيطة بالحدثان من فوق العرش إلى ما في تحت الثرى، وذلك قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ﴿١﴾ أخبر عن علمه وملكوته معاً بما فوق العرش، وما تحت الثرى وما بين العرش والثرى من أطباق السماوات، وما بينهن وأطباق الأرضيين، وما بينهن فذكره تعالى استوى على العرش إخبار عن قهر سلطانه وبنعت الاستيلاء على أعظم خلقه وعن علمه بما فوق العرش من علم الغيب غيب الغيب وما تحت العرش إلى الثرى من علومه الغيبية في بطون أفعاله، وما تحت تحت الثرى من أسرار ربوبيته أي: أن الكون استغرق في بحار علمه وقدرته وإرادته بالمثل كخردلة في البوادي، أو كحلقة في البحار والسلطان، كبرياؤه محيط بجميع ذراته فالكون كالكرة في ميادين عظمته عند صولجان قدرته، يضرب بها تلك الكرة في كل لمحة ألف مرة ويذهب بها من الأزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الأزال، والله إن من وقت ما خلق الله الكون يتحرك الكون في طلب ما يتعلق به من نور فعلمه، وما أدركه فكيف يدرك أنوار الصفة وإذا لم يكن مدرك أنوار الصفة كيف يدرك عزة الذات وأين الكون من إدراك وحدانية القديمة ولحوقه بجلال مجد ذاته، بل هو صاغر حقير في قبض جبروته لا مصرف له ينصرف إليه منه، ولا مخرج له منه فيخرج من تحت قهره بل كذرة تبين على جناح الرياح العواصف والصرصر القهار تذهب بها، ولا تعرف أين تذهب.

ألا ترى إلى قوله ﷻ: «الكون في يمين الرحمن أقل من خردلة»^(١).

ثم اعلم الخلق أن الكل له؛ فلا ينبغي العالم به أن يطمع في غيره حتى لا يشوب قلبه بالشرك الخفي، قيل له: الملك كله فمن طلب البعض من الكلى من غيره فقد أخطأ الطلب.

ثم أخبر عن عظيم جلال علمه بمكنون الأسرار وخفي الإضمار بقوله: ﴿وَإِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أفهم أن للطبيعة سرّاً والملك السر سر وللنفس سرّاً، ولذلك السر سر، وللقلب سرّاً، ولذلك السر سر، وللعقل سرّاً، ولذلك السر سرّاً، وللروح سرّاً، ولذلك السر سر، وللسر سرّاً، ولذلك السر سر، ولسر السر سرّاً، ولذلك السر سرّاً، أما سر الطبيعة إضمار الميل إلى طلب ما تقوم به من فيض العناصر، وسر ذلك السر نداء فعل الحق إلى الطبيعة بنعت جذبها إلى طلب حظها، وهو أخفى من ذلك السر.

وأما سر النفس؛ فهو حديثها الخفي الذي يصدر منها في غيب الخواطر بقلب هواها

(١) ذكره ابن عجيبة في البحر المديد (٣/ ٣١٥).

وسر ذلك السر نداء القهر إياها بنعت جذبها إلى طلب الهوى، وهو أخفى من سرها.
وأما سر القلب فهو حديثه الخفي الذي يصدر منه لطلب مزيد الصفاء من فيض الذكر، وسر ذلك السر فرع الملك باب سره بنعت تحريكه إلى طلب مزيد الذكر وذلك إلهام خفي وأخفى من سر الأول.

وأما سر العقل فهو حديثه مع القلب والروح بما يبدو له من حقائق أحكام الربوبية في الشواهد، وسر ذلك السر بحجة نور فعل الخاص الني هي داعية العقل إلى مشاهدة حقائق الأشياء، وذلك السر أخفى من سر الأول.

وأما سر الروح؛ فهو حديثها مع العقل بما يسمع من إلهام الخاص الإلهي لزيادة شوقها إلى معادنها، وسر ذلك السر ما يبدو لسر الأول من برق سنا الصفة بنعت الكشف مع تعريف أمر العبودية والربوبية، وذلك أخفى من سر الأول.

وأما سر السر؛ فهو حديثه الخفي في بطنان غيب خاطر في مشهد الملكوت مع الحق حيث يكون محتجباً عنه بنعت المتضرع لطلب مشاهدته، وسر ذلك السر وقوع كلام الحق على مجاري الصفة له في الغيب وهو يسمع ولا يبصر، وذلك أخفى من سر الأول.

وأما سر سر السر ما يكون وراء الحجاب فوق الملك والملكوت مشاهد الجبروت ومعاین الذات يرى عجائب أنواره وحقائق أسرار صفاته وذاته فيعرف منه به ويسمع منه بلا واسطة، ويقول معه يطلب منه بلسان الافتقار مزيد قرب القرب ودنو الدنو حتى يقع في بحار الألوهية فلا يرى ولا يعرف فهو أسر الأسرار، وأخفى الخفيات فالطبيعة لا تطلع على سر النفس، والنفس لا تطلع على سر القلب، والقلب لا يطلع على بعض سر العقل، والعقل لا يطلع على بعض سر الروح، والروح لا يطلع على سر السر والسر، لا يطلع على سر السر السر؛ لأنه مقام ما أخفى من السر، ولا يطلع على جميعها إلا الله سبحانه من الخلق والخلقة لا الملائكة لا المقربون ولا الأنبياء المرسلون إلا ما يكشف الحق لهم من ظاهر الأسرار قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝﴾ [الجن: ٢٦] إلا من ارتضى من رسول، وباطن هذه الأسرار لا ينكشف لأحد غير الله؛ لأنه مما استأثره لنفسه ولا يطلع عليه غيره وحاصل الحقيقة من معنى الآية أن السر ما في صفاته، وما أخفى ما في ذاته.

قال الصبيحي: السرُّ ما طالعه الحق ولا يطالعه الملك ولا الشيطان ولا يحس به النفس ولا يشاهده العقل، وهو في الإضممار لم تحوه الهمم، ولم تدبره الفطن، وهي في لباب لب القلب من حقائق المحض من خطرات الإلهام كشرر النار الكامن في الشجر الرطب حتى تمثله الإرادة والمشيئة والأحكام؛ فيتنقل في الأحوال، فهذا هو السر، وما هو أخفى فما لم تحس

ولم لطالع لا يعلمه إلا الله؛ فهو أخفى من الحقائق، فإذا ظهر معلومه أبدى علمه.
قال الواسطي: السرُّ ما خفي على العباد، والذي هو أخفى ما لم يقل له كن.

قال الجنيد: يعلم سره فيك، وأخفى سره عنك.

وقال جعفر الصادق: السرُّ موضع الإرادة، وأخفى موضع الخطرة والمشاهدة.

وقال الأستاذ: فالنفس ما تقف على ما في القلب، والقلب لا يقف على أسرار الروح، والروح لا سبيل له إلى حقائق السر، والذي هو أخفى من السر فما لا يطلع عليه إلا الحق، ويقال: الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان، ولا يكتبه الملكان، ويستأثر بعلمه الجبار، ولا يقف عليه الأغيار، ولما تفرد بنفسه بالإطلاع على السر والخفيات نفى عن ساحة كبريائه من لم يستحق للفردانية الأزلية، والعلم الشامل بأسرار الحوادث وخفيات الضمائر، ووصف نفسه بذلك.

وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فمعاني الأسماء بالحقيقة سر من حيث يعبر حقائق الصفات، وما في الذات من علوم القدمية وأسرار الأزلية وهو أخفى من سر الأسماء أخبر سبحانه حبيبه من أسرارهِ التي بينه وبين كلمه موسى وتلك الأسرار أعجب العجائب.

أما غرب الغرائب من علوم أسرارهِ وحقائق أنواره بقوله: ﴿وَهَلْ أَتٰنَكَ حَدِيثٌ مُّوسَىٰ﴾ ما أطيب ذكر قصة الكليم للحبيب خص أن الحبيب الأكبر ذكر حال الكليم للحبيب؛ لأن الحبيب يستأنس بسميه من الأحياء، لذلك قصَّ الله قصة الأنبياء لحبيبه ثم بيَّن يد وحال كلمه بقوله: ﴿إِذْ رَأٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾.

لما كَمُلَ كلم الله كَمُلَ في الإرادة ودخل في الإرادة ودخل من الإرادة إلى مقام المحبة ترك الوسيلة الصغرى وهي خدمة شعيب، ووقع في الوسيلة الكبرى، هي رؤية النار في الشجرة وتلك بداية مكاشفته وسماع خطاب الحق سبحانه، فوقعت مكاشفته قبل الخطاب وهو مقام الكبراء في المعرفة، ثم وقع بعد ذلك في بحر الخطاب، وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا أَتٰهَا نُودِيَ يٰمُوسَىٰ﴾؛ فإذا أراد الله أن يعرفه مقام رؤية الصفات في الأفعال تجلّى بجلاله لكسوة النار، ثم تجلّى من كسوة النار لكسوة الشجرة ثم تجلّى من الشجرة لموسى، وذلك مقام أسرار الالتباس الذي يجذب بالحق عشاقه إلى معادن الألوهية ليصيروا بعد ذلك موحدين؛ فرباهم في البداية في مقام العشق برؤية أنوار الصفات في الأفعال حتى لا يفتنوا بالبدئية في سطوات عظمتهم، ولو يريهم صرف عيان الذات يصيرون مضمحلين في أنوار قدسه جعل الشجرة مرآة للنار، وجعل النار مرآة للنور، وتجلّى منهما لموسى فرأى موسى نيران الكبرياء، وأنوار البقاء

من شجرة القدم فانجذب إلى قرب مغناطيس الصفات ورأى لطائف مشاهدات الذات، كأنه هو في رؤية المعاني، وظن أنه في صورة الأمانى فأناها بنعت الشوق وتحير في شأن الأمر وطلب نفسه أين هو وما علم أنه في كنف الوصلة وبساط القرية فدار حول الشجرة برسوم العلم، وهكذا حال من كوشف له حقائق الحقيقة بالبديهة؛ فلما غاب في الغيب في طلب الرب ناداه الحق وقال: أيش تطلب؟ أنا ربك، أي: ما ترى يسرك وروحك وعقلك فهو جمال ربك وإن كنت في تليس الفعل والصفة لو تريد أن تراني صرفاً، فاخلع نعليك أي: نعلي الكونين فإنك بالواد المقدس وادي الأزل المقدس عن غيار الظنون والحسبان وأنفاس النفس والشيطان، ولا ينبغي أن تأتي قدس القدم بآثار أهل العدم حتى يطوى لك وادي الآزال والآباد، وينكشف سرها لهمتك وقلبك وروحك وسرك، وأيضاً أي: اخرج أنت منك حتى تصل بي فأنا لمن لم يكن لنفسه.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾ موسى خطرات به حسه الحظوظ في أخذ نار فنال النور، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من نفسه، وقد حوله من شاهد الخط إلى شاهد الحق.

قال جعفر: قيل لموسى: كيف عرفت أن النداء هو نداء الحق؟ فقال: لأنه أفتني وشمكتني، فكان كل شعرة مني كان مخاطباً بنداء من جميع الجهات، وكأنها تعبر من نفسها بجواب، قلما أشملتني أنوار الهيبة، وأحاطت بي أنوار العزة والجبروت علمت أنه مخاطب من جهة الحق ولما كان أول الخطاب ﴿إِنِّي﴾ ثم بعده ﴿أَنَا﴾ علمت أنه ليس لأحد أن يخبر عن نفسه باللفظتين جميعاً متتابعاً إلا الحق فأدهشت، وهو كان محل الفناء، فقلت: أنت أنت الذي لم يزل ولا تزال ليس لموسى معك مقام ولا له جرأة الكلام إلا بأن تبقيه ببقائك وتنعته بنعوتك، فتكون أنت المخاطب والمخاطب جميعاً؛ فقال: لا يحمل خطابي غيري، ولا يحيني سواي أنا المتكلم، وأنا المكلم وأنت في الوسط شبح تبع بك محل الخطاب.

وقال الشبلي في قوله: ﴿فَآخَلَعْ نَعْلَيْكَ﴾: اخلع الكل منك تصل إلينا بالكلية فنكون، ولا تكون فيتحقق في عين الجمع يكون إخبارك عنا ونفعلك فعلنا.

قال ابن عطاء: ﴿فَآخَلَعْ نَعْلَيْكَ﴾^(١) أعرض بقلبك عن الكون؛ فلا تنظر إليه بعد هذا الخطاب قيل: ﴿فَآخَلَعْ نَعْلَيْكَ﴾؛ فإنك بعين موجدك.

وقال جعفر: اقطع عنك العلائق ﴿فَلِرْنِكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

(١) كما يفعل بحضرات الملوك أدباء، ولتنا لك بركتها ولتكون مهياً للإقامة غير ملتفت إلى ما وراءك من الأهل والولد، ولهذا قال أهل العبارة: النعل يدل على الولد. نظم الدرر (٥ / ٢٣٨).

وقال ابن عطاء: أي: أسقط عنك محل الفصل والوصل؛ فقد حصلت في وادي القدس، وهو الذي يظهر من الأحوال أجمع، ويردك إلى محولهما عليك.

وقال الأستاذ: فارغ قلبك عن ذكر الدارين وتجرد للحق بنعت الانفراد، أما الفرق بين قوله: ﴿إِنِّي﴾، وبين قوله: ﴿أَنَا﴾، وبين قوله: ﴿رَبِّكَ﴾، فـ﴿إِنِّي﴾ إشارة إلى أصل الذات، وـ﴿أَنَا﴾ إشارة إلى كشف الصفات، وـ﴿رَبِّكَ﴾ إلى أعيان الذات والصفات في الأفعال.

وقال بعضهم: ﴿إِنِّي﴾ إخبار، وـ﴿أَنَا﴾ إظهار، وـ﴿رَبِّكَ﴾ تذكّار.

وقيل: ﴿إِنِّي﴾ معرفة، وـ﴿أَنَا﴾ توحيد، وـ﴿رَبِّكَ﴾ إيمان.

وقيل: بقوله: ﴿إِنِّي﴾ إفناؤه، وبقوله: ﴿أَنَا﴾ إيقاؤه، وبقوله: ﴿رَبِّكَ﴾ إيواؤه.

وقيل: ﴿إِنِّي﴾ لقلبه، وـ﴿أَنَا﴾ لروحه، وـ﴿رَبِّكَ﴾ لنفسه، وقد وقع إخواني إشارة إلى امتناع ذاته عن إدراك الخليفة، وـ﴿أَنَا﴾ إبراز علوم حقيقة صفاته، وـ﴿رَبِّكَ﴾ ظهور مشاهدة تجليه الذي هو سبب تربية موسى، رباه بتجلى ربوبيته في لباس فعله.

ثم أخبر سبحانه أنه اختاره لمكان وحيه وخاصية رسالته واصطفائيته بسماع كلامه القديم حتى يكون خالصاً من جميع البريات، ويكون منفرداً في العبادات بقوله: ﴿وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (٣٠) اختاره في الأزل لمحبه والشوق إلى لقائه ومعرفة بفرديته، ويكون الحق سبحانه سميره في مناجاته، وظاهراً بوصف الربوبية، وتجلي العظمة لمشاهدته، ومراده سبحانه بقوله: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (٣١) جمع همته وحضور قلبه وسكون سره وهدوء روحه عند جريان الخطاب حتى لا ينفك منه خاطر يشتغل بغيره من العرش إلى الثرى ليكون علمه أشمل، ومعرفة أكمل وحاله أصفى ووقته أشفى ووجده أوفى؛ لأنه كان في مشاهدة عرض جلال القدم، وفي لجج بحار الكرم حيث قال سبحانه: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، قوله: ﴿إِنِّي﴾ خبر عن بطنان أولية القدم، وـ﴿أَنَا﴾ خبر عن شهور ذاته وصفاته على الأسرار والأرواح والقلوب بنعت غيبتها عنه.

وقوله: ﴿اللَّهُ﴾ ظهور ظهور الذات والصفات لشهود الأرواح والأسرار والقلوب والعقول كشفاً وعياناً وبياناً؛ فإذا أعلنه حقيقة ربوبيته استدعي منه العبودية الخالصة عن كل كدورة بشرية وخاطر شيطاني بقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ ألزم عليه حتى حق الربوبية للغير للعبودية وأي تشريف مما ألزم عليه من حقوق ألوهيته وجعله موضعها ليكون فرداً بعبوديته كما كان سبحانه فرداً له بإظهار جماله له وإسماع كلامه إياه وأراد سبحانه أن يلبسه أنوار

الربوبية في مكان عبوديته حتى يصيره متصفاً بصفاته متحدًا بمحبته مستغرقاً في جمال أوليته وآخرته ليخرج منها بوصف الأزل والأبد لا بوصف الحدث.

ثم يبين أن الصلاة إعلام عبوديته ومواقع شهود مشاهدته ولطائف حقائق ذكره ومناجاته بقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ البيان هو الذكر ومزيد الذكر وحقيقة المراد استغراقه في بحار مشاهدة المذكور؛ لأن الصلاة موضع شهود الأسرار على الأنوار وكشف الجمال للأرواح لترقيتها بنعت شكرها في عالم الأفراح.

قال الواسطي: في قوله: ﴿وَأَنَا آخِزْتُكَ﴾ المختار من جهة من هو مصطنعة ومصطنعة ومربيه على يد أعدائه والملقي محبته في قلوب عباده فلم يستطيعوا له إلا محبة، والمطلق لسانه بحر العقد والميسر له أمره فلا يعسر عليه مطلوب بحال كل هذا يقدم إليه ويمن به عليه؛ ليكون ثابتاً عند مكافحة الخطاب ومواجهة الوحي والكلام.

وقال في قوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ لا تشغل قلبك بغيري قولاً وفعلاً، ولا تكن من أبناء الأفعان والإحصاء والأعمار والدهور، وكن من أبناء الأزل والأبد مطالعاً لما سبق من الأولية، وجرى لك في الأثرية، وإن كان كلاهما واحداً.

قال ابن عطاء: إشارة إلى حقيقة الحق إذ الأزل والأبد علة في ذكر الأوقات والدهور علة.

قال الواسطي: أظهر هذا الخلق في شموخ وعلو في أنفسهم؛ فأمرهم لعل الفاقة لا لعل الاستغناء تبسماً لرؤية الاضطرار.

قال: يا موسى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ أحب أن يريه عجزه. وقال أيضاً: بالعبرانية خاطب موسى ثم وصف لمحمد ﷺ بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ هل تلونت الصفة بذلك.

قال: لو لونتها اختلاف اللغات لتلونت في اختلاف الأوامر والنواهي.

وقال ابن عطاء: في قوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ وجدني على الشهود كما عرفتني بالوجود، ودع عنك الرسوم والحدود فلا حد إلا حده ولا عبد إلا عبده.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ إقامة من غير ملاحظة مجريها ومنشئها تورث الإعجاب، وإذا قام العبد صلاته على نعت الشهود، والتحقق بأن مجريها غيره كانت الصلاة لهذا فتح باب المواصللة والوقوف في محل النجوى والتحقق بخصائص القرب والزلفى.

﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسِبُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَفَازٌ ١٨ أَخْرَىٰ ١٩ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ ٢٠ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ٢١ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ٢٢ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةٌ أُخْرَىٰ ٢٣ لِئَرْيَا مِنْ ءَايَاتِنَا أَكْثَرَ ٢٤ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ٢٥ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ٢٦ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ٢٧ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ٢٨ يَفْقَهُوا قَوْلِي ٢٩ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ٣٠ هَارُونَ أَخِي ٣١ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ٣٢ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ٣٣ كَيْ تُصَبِّحَكَ كَثِيرًا ٣٤ وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا ٣٥ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٦ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمْوَسَىٰ ٣٧ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ١٧ إن الله سبحانه كلم كليمة فطاب وقته من لذة كلامه، واختلج في سره إرادة لقاء المتكلم، وكاد يقول في بداية حاله ﴿أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فعلم الحق سبحانه سر ما في قلبه، وعلم أنه لا يطيق أن ينظر إليه كفاتحاً، وأراد ألا يحرمه من سؤله ومأموله؛ فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَىٰ﴾ ١٧، قال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، قال: ﴿أَلْقَهَا﴾؛ فلما ألقاها صارت حية ففر منها موسى، قال سبحانه: أين تفر من رؤية مأمولك؟ انظر إليها بنظر الحقيقة حتى ترى مشاهدة الذات في الصفات، ومشاهدة الصفات في الآيات؛ فحصل لموسى مشاهدة رؤية العظمة مع الخطاب الخاص، وأيضاً أراد سبحانه أن يريه الآية الكبرى حتى يتعود برويتها، ولا يفرغ منها عند تقلبها في ابتلاعها سحر السحرة، وأيضاً كان في مواجهة كلامه القديم في رؤية الجلال العظمة فكاد يذوب من صولة العظمة ورؤية الكبرياء فشغله الحق في ذلك بذكر شيء من الحدثان حتى يسكن لحظة من سكن رؤية الجلال، وألا يفني في سطوات الكمال، وأيضاً ظن موسى أنه تعالى لا يتكلم معه في شيء محقر إنما يتكلم في العظائم فأعلمه الحق موضع انبساطه إليه حتى ينبسط إليه.

ألا ترى لما وجد لذة حسن انبساط الحق كيف خرج من مقام الهيبة، وانبسط إليه بقوله: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسِبُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، قوله: ﴿عَصَايَ﴾ جواب بالانبطاط من لذة وجدان مكانته في شهود عين الحق، ولولا ذلك ما أضاف إلى نفسه في رؤية فردانية الحق، وأيضاً أراد الحق سبحانه أن يعلمه أن في عصاه كثيراً من معجزته فنبهه

عن ذلك، فلم يعرف موسى في ذلك الوقت إشارة الحق، فقال: معي عصاي، ولو لقال: هي موضع آياتك ومسقط قدرتك، وأيضاً أظهر عجزه عند سرادق كبريائه بأنه أضاف الحدث إلى الحدث، وعلم أن الحدث لا يليق إلا بالحدث ويمكن أنه رأى منها بعض الآيات؛ فذكر إنعام الله عليه في حضرته وزاد ذكر النعمة، فقال: ﴿أَتَوَكَّؤُا﴾ عليها أي: أعتمد عليها بأنها آية من آياتك ﴿وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ أستمع بما أريد منها ﴿وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَى﴾ وتلك المعجزة من مآربه فلما ارتهن من الحق بالوسائط.

قال سبحانه في غيرة الوجدانية: ﴿أَلْقِهَا﴾ جواباً لقوله: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ لئلا يسكن إلى غيره، فلما ألقاها ﴿فَأَلْقَاهَا فِإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أي: موسى عصاه متقلبة بحية عظيمة مقبلة إلى موسى بالهبة والصولة ففر منها موسى خيفة، وذلك من غيرة الله عليه سبحانه لئلا ينظر إليها، ولا يستأنس بها؛ فإنها وسيلة منه إليه، ومن بقي في رؤية الوسيلة احتجب عن رؤية الحقيقة، ويا عاقل إن فرار موسى لا من الخوف من غير الحق إنما هو خاف من عظمتها التي ظهرت من الحية؛ لأنه تعالى تجلى بعظمته من الحية لموسى، ومن يستقيم بإزاء مشاهدة عظمتها القديمة فلما علم الحق أنه تبرأ من غيره ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي: خذ عصاك، ولا تخف من غيري.

قال: ما خفت منه؛ فهو أنا لا غير.

قال فارس في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ ^(١) سمع موسى كلاماً لا يشبه كلام الخلق، فلما سمع ذلك الكلام كاد يهيم، فمرة أضاف العصا إلى نفسه، ومرة أجاب عما لا يسأل كذلك الهيمان.

وقال: لما غلبت عليه لذعات الصفات وأراد الحق إلى المخلوق ليسكن ما به؛ فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ أشغله بالإجابة عما يملكه، ولولا ذلك لتفسخ عنه ورود الخطاب عليه بغتة.

وقال أبو بكر بن طاهر في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾، وانبسط إليه في السؤال

(١) وأية نعمة أو مآرب أو منفعة تكون أعظم من أن تقول لي: وما تلك؟ ويقال قال الحق - بعد ما عدّد موسى وجوه الآيات وصنوف انتفاعه بها - وَلَئِكَ يَا مُوسَى فِيهَا أَشْيَاءُ أُخْرَى أَنْتَ غَافِلٌ عَنْهَا وَهِيَ انْقِلَابُهَا حَيَّةً، وفي ذلك لك معجزة وبرهانٌ صِدْقٍ.

ويقال جميع ما عدّد من المنافع في العصا كان من قبَلِ الله، فكيف له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه. تفسير القشيري (٤ / ٤٩٣).

ليربط على قلبه لعلمه بما يديه في شهود الكبرياء.

وقال أيضًا: أحب الله أن ينبسط موسى في الكلام كيلا يحتشم في السؤال.

وقال الجنيد في قوله: ﴿عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا﴾ عليها، فقال له: ألق كل ما يعتمد عليه قلبك أو تسكن إليه نفسك؛ فإن الكل محل العلل، فإن كل ما تسكن إليه ستهرب منه عن قليل، ألا تراه ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً﴾.

وقال الحسين: عدّ موسى منافع العصا على ربه وسكونه إليها وانتفاعه بها؛ فقال تعالى: ﴿أَلْقِهَا يَمُوسَى﴾ أي: ألق من نفسك السكون إلى منافعها وقلبها حية ليزول عنه الأنس بها ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾؛ فقال حين قطعه عنها بالفرار منها: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، وراجع إلينا.

قيل: الحكمة في انقلاب العصا بحية في وقت الكلام أنه جعل آيته معجزته، ولو ألقاها بين يدي فرعون، ولم يشاهد منها قبل ذلك ما شاهد لهرب منها كما هرب فرعون حين بدته رؤيتها.

قال فارس في قوله: ﴿هِيَ عَصَايَ﴾: ذكر كل ما فيها من وجوه المنافع لثلا يكون له معاودة إلى ذلك؛ فيستلذ بخطاب سيده وعتابه.

وقال أبو بكر الوراق في قوله: ﴿عَصَايَ﴾: جواب الذي بعده ذكر ما أنعم الله عليه بالعصا من المنافع، فكان بعد قوله «عصاي» لسان الشكر.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿عَصَايَ﴾: أضافها بالملك إلى نفسه، ولم يكن يجب له في الحقيقة أن يرى لنفسه ملكًا بين يدي الحق، فلما أضافها على نفسه، قال: ﴿أَلْقِهَا﴾ فألقها ﴿فَلِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ قال: خذها أي: خذ عصاك، ولا تهرب مما ادعيت فيه الملك لنفسك؛ فخاف وتبرأ من إضافتها ملكًا إلى نفسه فتعطف الحق عليه، فقال: خذها ولا تخف فإنها لن تضرك.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَى﴾: سرائر مغيبة عني في العصا غطيته على ذلك أو أن يكشف لي من الآيات والكرامات.

وقال جعفر: منافع شتى، وأكثر منفعة لي فيه خطابك إياي بقولك: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾.

قال سهل: ذكره موسى من العصا مآرب ومنافع؛ فأراه الله في عصاه مآرب ومنافع كانت خافية على موسى من انقلاب العصا ثعبانًا، وضربها بالحجر في انبجاس الماء وضربها

بالبحر فانفلت، وغير ذلك أراد بذلك أن علم الخلق وإن كانوا مؤيدين بالنبوة قاصر عن علم الحق في الأكوان.

قال الواسطي: في قوله: ﴿أَلْقِهَا يَنْمُوسَى﴾: اطرح عن نفسك السكون إلى العصا والاعتماد عليها، وعدّ المنافع فيها فلما ألقاها، وخلا منها سره، ﴿قَالَ خُذْهَا﴾ الآن منا على الشرط أن ترانا النافع والضار لا الأسباب.

وقال ابن عطاء: ألقها من يدك؛ فإنك أخذتها من غيرنا، فعددت فيها أسباب المنافع، وخذها منا لتكون ولي نعمتك دون غيرنا.

وقال الجنيد: كان خوف موسى خوف التسليط لا خوف الطبع.

وقال الواسطي: خوف موسى من العصا أنه شاهدها فيه أثر سخطه.

وقال أيضًا: رأى موسى على عصاه كسوة من سخط الحق، ولم يأمن من مكره.

وقال ابن أنبار في قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَنْمُوسَى﴾ قال: كلام بسط ليزول عنه روعة الهيبة.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿أَلْقِهَا يَنْمُوسَى﴾: فإنك بنعت التوحيد واقف على بساط التفريد؛ فكيف يصح لك، ومتى يسلم لك أن يكون لك معتمد تتوكل عليه أو مستند إليه تستعين بهنّ وتتفع، ولما وجد الحق كلمه مستقيماً في محبته وشوقه وتبرئه من جميع الأسباب بعد إلقائه عصاه أراه أنوار ملكه وملكوته في نفسه، وما كان في عصاه من شهود جاد أن أظهر له من يده حتى رأى من يده ما رأى من عصاه، فإن فيها العجائب أكثر والغرائب فيها أوفر؛ لأن النقل من رؤية الأشياء إلى رؤية مشهد النفس زيادة القربة؛ لأن ما يتجلى من الإنسان للإنسان أشرب مما يتجلى من الكون له.

ألا ترى سبحانه كيف ميز بين الأمرين العظيمين بقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، وذلك معنى قوله سبحانه لكلمه: ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ اضمم يدهمك عن غير شهود كبريائنا، ومشاهدة جمالنا تخرج بيضاء متصفة بنور أحديتنا مقدسة بقدسنا عن الأكوان والحدثان، فيكون بعد ذلك آيات تجلينا بظهور نور تجلي كبريائي من وجهك للعالمين، وأيضاً اضمم يدك الظاهرة إلى جيبك الذي فيه قلبك حتى تخرج بيضاء بها فيه من نور نظرنا ومشاهدتنا، وأيضاً فيه مقام الأدب أي: اضمم يدك التي تكسر بها الأرواح، وتأخذ بها رأس هارون، ووكزت بها القبطي من تلك الحركات حتى تكون موضع معجزتنا، ولي فيه واقعة كنت يوماً حضرت

الحضرة في الخلوة، فأخرجت يدي بين يدي الله سبحانه مجردة للدعاء، فنادى في هواتف الأسرار: اضمم يدك، ولا تجرها فإنها سوء الأدب في الحضرة الخاصة؛ فأخذت يدي إلى جنبي، فأريت بعد ذلك أشياء في قلبي وفي صورتي، ولا أضيّق وصفه.

قال الجنيد: اجمع عليك همتك، ولا تشتت سرك.

وقال بعضهم: اقطع مرادك عن الكونين، وكن مريدًا لنا لنكون مرادك، ثم بيّن سبحانه أن يده البيضاء أكبر آية وأعظم معجزة له ولغيره وذلك قوله: ﴿لِتُرِيَنَّ مِنْ ءَايَاتِنَا أَكْبَرَى﴾ ﴿٣٣﴾ أرى الله موسى من يد موسى له أكبر آية، وذلك أنه ألبس أنوار يد قدرته يد من موسى؛ فكان يد موسى يد قدرة الله من حيث التخلق والاتصاف، وهذا إشارة صفي بمالك الملكوت غواص بحر الجبروت، حيث حكى غن الحق سبحانه في حديث المحبة والاتصاف بقوله: «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحبته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»^(١).

فلما زينه الحق بأنوار ربوبيته أشهره على العالمين ليكون حجة عليهم، قال سبحانه: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٣٤﴾ الحكمة فيه أن موسى كان في مشاهدة قرب جلال الأزل شاهد الربوبية، وكاد يفنى في العزة فشغله الحق بالشرعية عن الفناء في الحقيقة فلما علم موسى مراد الحق منه بمكابدة الأعداء والرجوع من المشاهدة إلى المجاهدة سأل من الحق سبحانه شرح الصدر، وإطلاق اللسان، وتيسير الأمر ليطبق احتمال صحبة الاضداد ومكابدتهم، وذلك أنه كان في مشاهدة الحق لطف من الهواء، وفي خطابه أرق من ماء السماء، فطلب قوة ألوهية وتمكينًا قادرًا بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ﴿٣٥﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣٦﴾ عرف مكان مباشرة الشريعة أنها حق الله وحق الله في العبودية مقام الامتحان، وفي الامتحان حجاب عن مشاهدة الأصل، فخاف من ذلك، وسأل شرح الصدر أي: إذا كنت في عين الشريعة عن مشاهدة غيب الحقيقة اشرح صدري بنور وقائع المكاشفة حتى لا يكون محجوبًا بها عنك.

ألا ترى إلى سيد الأنبياء والأولياء صلوات الله عليه كيف أخبر عن ذلك الغين، وشكا من صحبة الأضداد في أداء الرسالة؛ بقوله: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»^(٢).

(١) رواه البخاري (٦٠٢١)، ومسلم (٢٣٨٤).

(٢) رواه مسلم (٤٨٧٠)، وأحمد في مسنده (١٢٩٤)، وأبو داود (١٢٩٤).

اشرح لي صدري بنور القدس حتى أكون معك في مقام الأنس وادي عجائب الغيوب، وغرائب الكشوف: ﴿وَنَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ هيئ لي قوة من قوتك حتى أقوم بنعت الاستقامة معك في أداء رسالتك ونشر شريعتك ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ عجمة الإنسانية حتى أطيع أن أشرح ما كاشفت لي لعبادك بلسان شرع نبوي ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾؛ فإن لساني لسان الحقائق، ولو أتكلم معهم بلسان الحقيقة لا يفهمون إشاراتي وعباراتي منك، وأنا أريد الوقوف بسري معك في شهود الغيب، وإذا كنت غائباً لا أطيع أن أؤدي رسالتك بهيئتها ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا﴾ يعبر قولي لهم، فإنه يحس مقالتي، وإشاراتي التي هي من مجمع بحار الكلام الأزلي والشهود الأبدي، ولا أكون مشغولاً عنك بغيرك هذا من عموم التفسير وإشارات الحقائق أصفى من كل صفاء، وهي أن موسى كلیم الله عرف مكانه من مواجهة خطاب الأزل ومشاهدة جلال القدم وبقائه ببقاء الحق مع الحق وأنه يكون بضعف حدوثيته موازياً لشهود القدم إلى البقاء بوصف كشف الذات والصفات، وأنه يفنى بأول برقة تتبرق من بروق أنوار جلال الذات والصفات، ولو كان موسى ألف ألف موسى وكل موسى في موسى أعظم من العرش والكرسي والكون والكائنات، وما فيها يضمحل في صدمة واحدة من سطوات ألوهية الحق، فسأل أن يشرح صدره بنور تجلي الجود الأزلي، ويسطه ببسط الأبدي حتى يكون صدره حاملاً لتجلي جميع الذات والصفات؛ فمن هذه الإشارة وقع سؤاله في حيز الاستحالة؛ لأن الحق أجل من أن يكون ذاته وصفاته في حيز علوم الحدثن وإدراك أهل الزمان والمكان.

وقوله: ﴿وَنَسِّرْ لِي﴾ أمر طلب الربوبية أي: يسر لي الربوبية من حيث الاتصاف والاتحاد، وهذا جرأة العشاق ووقع أيضاً هذا السؤال في محل الاستحالة؛ لأن الربوبية لا تفارق عن مصدر الأزل.

وقوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ أي: لساني لسان الحدث، ويدله بلسان «قدوسي» سبوح صمداني رباني حتى أطيع أن أتكلم به معك كما تتكلم معي، وإذا كان لساني لسانك أكون قادراً بأن أخبر عنك وصفك كما هو، ولو أخبرهم عنك بلساني كيف أخبرهم، والعبارة عنك بغير لساني القدم مستحيلة.

وقال الحسين: لما أزال الحق عنه التوقف وجاء إلى الله بالله ولم تبق عليه باقية بما يمتنع أقيم مقام المواجهة، وأطلق مصطنيعه لسانه نظر إلى أليق الأحوال به فسأل مليكه شرح صدره ليتسع مقام المواجهة والمخاطبة.

ثم نظر إلى أليق الأحوال به فإذا هو تيسر أمره فنال ذلك على التمام ليترقى به حاله إلى

أرفع المقام وهو المجيء إلى الله بالله بأن من وصل إليه لا يعترض عليه عارضة بحال، ثم نظر إلى أليق الأحوال به فسأل حل العقدة من لسانه ليكون إذ ذاك مالكا لنطقه وبيانه؛ فلما تمت له هذه الأحوال صلح للمجيء إلى الله وكان ممن وفي المواقيت حقها غابت عنه الأحوال ولم يرها وذهب عن غيبه وظهوره وما عداهما إلا كان للحق منه ومعه حتى يحقق بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُوْلُكَ بِمُوسَى﴾ (٢٠).

وقال بعضهم: سأله هل عقد الحياء عنه؛ فإنه استحي أن يخاطب عدو الله فرعون بلسان به خاطب الحق.

وقال ابن عطاء: ﴿أَشْرَحَ لِي صَدْرِي﴾ لاستماع كلامك، ﴿وَنَزَّلْنِي أَمْرِي﴾ بالوقوف معك، ﴿وَأَخْلَلْ عُقْدَةَ﴾ النفسانية، ﴿مِنْ لِسَانِي﴾.

وقال الجنيد: ما سأل الله موسى في هذه الآية إلا الأخلاق.

وقال جعفر: لما كلم الله موسى عقد لسان موسى عن مكاملة غيره؛ فلما أمره بالذهاب إلى فرعون نجاه بسرّه، وقال: ﴿أَخْلَلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي﴾ لأكون قائما بالأوامر على أتم مقام.

وقال ابن عطاء: اكشف لي عن صدري حتى لا أشاهد غيرك ﴿وَنَزَّلْنِي أَمْرِي﴾ حتى لا أنطق إلا بمعرفتك، ﴿وَأَخْلَلْ عُقْدَةَ﴾ الإنسانية من لساني حتى لا أتكلم إلا بما يتلقنه منك.

وقال جعفر: ﴿وَأَخْلَلْ عُقْدَةَ مِنْ لِسَانِي﴾ عقدة الهيبة والإجلال، ولما سأل وزارة أخيه بين مراده منه بما أخبر الله عنه بقوله: ﴿كَيْ تَنْسِيحَكَ كَثِيرًا﴾ (٢١) وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (٢٢) أراد بالذكر والتسبيح الكثير نشر فضائل ما مَنَّ الله عليهما بنعت الحمد والشكر، والحمد إذا كان بلسان الحدث يكون قليلا ولكن إذا كان المعارف يذكر الله بالله ويسبح الله بالله يكون بالله الله كثيرا حيث من عين الجمع في محل الاتصاف والاتحاد ثناء موسى وهارون ثناء الله على نفسه، إذ لم يبق في البين غير الله فإن الكل هو الله وذكره موازي وصف قدمه، وذلك الذكر الكثير، وما دونه فهو في محل القليل.

قال ابن عطاء: لا يخطر بترك ما خطر بموسى حيث قال: ﴿كَيْ تَنْسِيحَكَ كَثِيرًا﴾ استكثر ما منه من العبادة، والتسبيح؛ فلا يخطر بك ما خطر به.

قال جعفر: قيل لموسى: استكثر تسبيحك وتكبيرك ونسيت بدايات فضلنا عليك في حفظك في اليم وردك إلى أمك وتربيتك في حجر عدوك، وأكثر من هذا كله خاطبنا معك

وكلمنا إياك وأكثر منه إخبارنا بصطناعنا لك، ولما كان قصد موسى بسؤاله إنفاذ مراد الحق لا مراد نفسه وقع الإجابة على موافقة الاصطفائية الأزلية بقوله: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴾ (٢٨) أي: وقع سؤالك محل خاصيتك التي صدر منا في الأزل فبتلك الخاصية سألت عنا مأمولك، وقد أعطيناك سؤالك: ﴿ وَلَقَدْ مَتْنَا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ (٢٩) بأن ألبستك نور اصطناعي واصطفائي حين خرجت من العدم وذلك النور.

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ (٣٠) أن أقذفيه في الثابوت فأقذفيه في اليمر فليلقيه اليمر بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ فرجعتك إلى أمك كي تفر عنها ولا تحزن، وقتلت نفسك فتجيتك من الغم وفتنتك فتوتنا فلبيت سين في أهل مدين ثم جئت على قدر يمسى ﴿ وَأَصْطَفَيْتُكَ لِتَفْسِي ﴾ (٣١).

قوله: ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ هذه خاصية عجيبة اصطفاه في الأزل لقبول وحيه ورسالته وسماع كلامه ورؤية مشاهدته؛ فلما أراد أن يجعله مسقط نور جلاله وجماله ألبسه نور محبته الأزلية السابقة للأنبياء والمرسلين والصديقين حتى يكون بقوتها متحملاً لحمل أنوار صفاته وذاته فمن كل صفة عليه نور، ونور المحبة علا على كل صفة ليكون مع هيئته وجلاله محبوب كل محب ومألوف كل أليف، وبذلك النور يكون حسناً مستحسناً مليحاً شريفاً ظريفاً

(١) قال الله سبحانه: ﴿ فَرَجَعْنَاكَ ﴾ [طه: ٤٠] يا موسى: ﴿ إِلَىٰ أُمِّكَ ﴾ [طه: ٤٠]. أي: إلى التراب الذي حقيقته المسكنة، والسكون، والسكوت، وكذلك رددناك يا موسى القلب إلى أصلك الذي هو الروح، وشأنه الفناء في المعرفة، والانقطاع عن تعلقات الذات والصفة، وقوله ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾، قرى العين هنا إشارة إلى قرار الذات، فإن الأصل لا يستقر إلا بجذب الفرع إليه، وكذا الفرع لا يزال ييكى إلى أن يدخل تحت ذيل الأصل، فالكل قالباً وقلباً ينجذب إلى ما يشاكله.

وفيه إشارة إلى أن الإقبار المفهوم من قوله تعالى: فأقبه رمز إلى دخول الفرع في الأصل، وحصول الجمع بعد الفرق، وأي لذة أعظم منها، فلا تخف من التراب، وسره الذي هو الفناء، فإن انضمامك إليه قرير عين لك، وقوله ﴿ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ تأسيس في صورة التأكيد، فإن قرار العين إشارة إلى سكون القلب، وعدم الحزن إشارة إلى راحة الروح، فالحزن من صفات الروح؛ وهو من المقامات العالية في الحقيقة، وعليه جرى الأنبياء والأولياء، فإن قلت: فإذا كان الحزن من المقامات العالية، فما معنى نفيه؟ قلت: إن الإنسان الكامل محزون وغير محزون، أمّا عدم حزنه: لأنه لم يفت عنه شيء من المقامات؛ بل قد وصل إلى ذروة الحالات والكمالات، وأمّا الحزن: لأنه من أحكام البشرية، والروح في ذلك تابع للقلب، فإن القلب له حجابية في الجمل، وإن تلطّف فوق الغاية؛ ولذا ترى أكمل الناس في كل عصر محترقاً أشد الاحتراق مع أنه في عين الوصل لا يزال يشرب من كأس الجمع العذاب البارد. مرآة الحقائق للشيخ حقي (١/ ٢٧٥) بتحقيقنا.

في أعين الخلائق جميعًا وهكذا حال كل محب للرحمن.

قال الواسطي: في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ سأل وبه ابتداء شرح صدره فجاز الاقتداء به للعوام دون الخواص؛ لأن الله أعلم بما فيه إبلاغ رسالته وأداء أمانته.

ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ﴾ إلى قوله: ﴿مَرَّةً أُخْرَى﴾ فذكر أيام حدائته ثم رده إلى أصله ثم رده من أصله إلى أصل الأصل؛ فقال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ فأضافه إلى نفسه ثم أكد ذلك بقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾.

قال السري السقطي -قدس الله روحه: ألقى عليه لطفًا من لطفه استجلب به قلوب عباده.

وقال ابن عطاء: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ لك، فمن رأى فيك محبتي لك أحبك يحبني لك.

قال فارس: زيتتك بملاحة من عندي حتى لا تصلح لغيري، ويحبك كل من يرى تلك الملاحة فيك؛ فقليل: أليس يوسف أعطي شطر الحسن، ولم يسكن يستوجب المحبة. فقال: الحسن لا يوجب المحبة والملاحة توجب المحبة، ألا ترى النبي ﷺ كان عليه ملاحة ممزوجة بهيبته.

قال بعضهم: بعينك لا يراك لا أحد إلا رق لك ومال إليك ولما خصه بكسوة نور محبته جعله محفوظًا في مقام الامتحان والبلاء لا ينقطع عنه أنوار تلك الخاصية، وكان في مجمع حجر وصلة الحق يريه بأيدي الأعداء ليبيّن منته واصطفائيته، كأنه خاطب لطفه قهره ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أي: لتكون مربى في مقام القهر بعين اللطف، وهذا خاصية عجيبة.

قال الواسطي: ما نجا نبي ولا ولي من محتته ولا سلم أحد من مشقته، وهذا معنى قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾.

قال ابن عطاء: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ أنا مشاهد لك حافظ أركانك بعيني ولا أسلم سياستك إلى غيري ليعلمه حسن العناية.

ثم إن الله سبحانه ذكر لموسى منته عليه بأن أنجاه من كيد العدو، وإرجاعه إلى أمه، وبأن لم يأخذه بجرم القتل بقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ إن الله سبحانه أعلم الحقائق أن من اصطفاه الله في الأزل بشرائف المعرفة ولطائف الولاية لا يضر به المعصية ولا يزيله من مقام

الاصطفائية مباشرة الكبيرة فألقى موسى في البداية في محنة المعصية كأبيه آدم عليهما السلام ليكون التواضع مصحوبًا له إلى النهاية ويربيه بحقائق القهر كما يزينه بحقائق اللطف ﴿فَنَجِّيتَكَ مِنَ الْغَمْرِ﴾ أي: نجيناك من طريان العتاب منا على قلبك ﴿وَفَتَّنَكَ فُتُونًا﴾ أخلصناك من النظر إلى غيرنا في جميع أنفاسك، وألبسناك أنوار لباس ربوبيتنا حتى عرفتنا بمعرفتنا، وصرت فنون عجائب لطفنا في العالم.

قال الراسطي: ألقاه في أعظم كبيرة حتى يوجد طعم الاصطفاء بقوله: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾.

وقال أبو الحارث: فتناك بنا عما سوانا.

وقال ابن عطاء: فنجيناك بالبلاء طبخًا حتى صلحت لبساط الأنس.

وقال سهل: أفنينا نفسك الطبيعي ودبغها حتى لا تأمن من مكر الله.

ثم زاد ذكر المنة عليه بأن جعل شيخه ومقدمه في طريقته شعبيًا ^{المتن} بقوله: ﴿فَلَبِثْتُ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ لبثه عند شعيب بأن رباه الله بصحبة المرسلين ليكون متخلقًا بخلقهم مهذبًا في آداب الحضرة، وهذا سنة الله للمريدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ﴾ أي: على قدر زمان الإرادة؛ فإذا كنت كاملاً جئت على قدر مقام المحبة، ووطئت بقدم المحبة على بساط القرية بعد قدم الإرادة في مقام الخدمة جئت بما اصطفيناك في القدم من العدم، لا يتغير قدرك بتقليل بدور العناصر عن قدر اصطفائيتنا.

قال بعضهم: قدرنا لك سبيل المعرفة وقتها فجئت على ذلك القدر أقدر.

ثم ذكر سبحانه أعظم منته عليه بقوله: ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾ أي: ضممت سرك بنور سري وقلبك بنور نوري وعقلك بسنا قدسي وروحك بجمال وجهي وألبستك نور محبتي وكسوتك كسوة ربوبيتي لتكون مشكاة أنوار صفاتي وذاتي، أتجلى من وجهك بالهيبة للعالمين وخصصتك بمخاطبتي وسماع كلامي؛ فإن في زمانك ليس في العالم سواك محل وقوع نور تجلياتي وكشوف أسرار سري ولتكون لنفسي خاصًا بالمحبة والشوق والعشق لا لغيري وأنا غيور عليك لا يراك أحد بعين المحبة إلا أبتليه، ولا ترى أحدًا بعين المحبة إلا أبتليك حتى لا يكون فيك نصيب أحد غيري.

قال الحرَّاز: في قوله: ﴿وَأَصْطَفَيْتَكَ لِنَفْسِي﴾؛ فمن أين وإلى أين ومنه وإليه وله وبه وفني فناؤه لبقاء بقائه بحقيقة فناؤه.

وقال فارس: أخلصتك لي حتى لا تصلح لغيري.

وقال أبو سعيد الخزاز في بعض كتبه: غير أن أولياء الله رهائن الله في أشياخهم قد خباهم وأخفاهم في أنفسهم من أنفسهم لنفسه، وهذا مقام الاصطناع الذي قال الله لموسى: ﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَتَفَقَّيْ﴾.

قال سهل: مفردًا إليّ بالتجريد لا يشغلك عني شيء^(١).

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِقَائِلَتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (١٢) ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٣) ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (١٤) ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ (١٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (١٢) أي: إذا أمر دعا أن تذكراني فاذكراني حتى لا تضعف تحت أثقال ذكري؛ فإن ذكر القديم لا يحتمل إلا بقوة من القديم، وأيضًا لا تغيبا عن مشاهدتي باشتغالكم بأمري حتى لا تكونا فاترين بي عني.

قال سهل: لا تكثرا الذكر باللسان، وتغفلا عن مراقبة القلب.

ثم إن الله سبحانه أمر موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون لقطع حجته وإظهار كذبه في دعواه بقوله: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٣) هذا تهديد لكل مدع لا يكون معه بينة من الله في هواه، والحكمة في إرسال الأنبياء إلى الأعداء ليعرفوا عجزهم عن هداية الخلق إلى الله، ومن يعجز عن هداية غيره فأيضًا يعجز عن هداية نفسه، ويعلموا أن الاختصاص لا يكون بالأسباب ويشكروا الله بما أنعم عليهم بلطفه، وربما يصطادون من بين الكفرة من يكون له استعداد نظر الغيب مثل حبيب النجار ورجل من آل فرعون وامرأة فرعون والسحرة.

قال ابن عطاء: الإشارة إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو المبعوث بالحقيقة إلى السحرة؛ فإن الله يرسل أنبياءه على أعدائه، ولم يكن لأعدائه عنده من الخطر ما يرسل إليهم أنبياءه ولكن يبعث الأنبياء إليهم ليخرج أولياء المؤمنين من أعدائه الكفرة.

ثم بين سبحانه لطفه وكرمه للمؤمنين بما أظهر لطفه بأعدائه بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ انظر كيف تلطفه بأعدائه؛ فهذا لطفه بأعدائه فكيف لطفه بأوليائه علم عجزه وضعفه وكذبه وعلمه بنفسه بأنه أعجز العاجزين، ولكن ضرب قهر الجبارية، ولطمه الميل على قفاه وبعده من باب العبودية مع استعداده بقبول المعرفة، ونولا ذلك لما قال: ﴿لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ

(١) أي تفرد إلي بالتجريد لا يشغلك عني شيء. تفسير التستري (١/٣٢٣).

يَحْشَى ﴿١١﴾، ومن ذلك الاستعداد وقع في بحر دعواه ولولا كان في نفسه شيء من ذلك لم يجترأ أن يخرج بتلك الدعوى ألا ترى أن دعواه لم يقع إلا لقليل من الخلق من الكفرة، وفي كل موضع يظهر به قهر القدم بنعت المباشرة يفيض سكرًا كما يفيض لطف الأزل سكرًا في اللطف وصف الروح الناطقة ولدعواه في الحقيقة وجه من الحقيقة، وسكر القهر وصف النفس الأمارة، ولولا اختلاف المكانين واللباسين يقع لفرعون ما يقع لأهل الحقائق من دعوى الأنانية، ومن هاهنا أمر الصفيين المكرمين بأن يقولوا له قولاً ليناً؛ لأنه يكفي ما عليه من قهر قدمه فأنقال البعد والسقوط من درجات المؤمنين العارفين وفيه إشارة لطف الله بموسى وهارون ليكونا متخلقين بخلق الله في تأديب عباد الله.

وعلم الله سبحانه حدة موسى، وقلة احتماله رؤية المخالفين من أعداء الله؛ فأكد العزم عليها لئلا يغضب عليه في دعواه الذي قال: ﴿لَئِنْ آتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي﴾ [الشعراء: ٢٩] لئلا يسقط سبيل الحجة عليه.

قال يحيى بن معاذ: هذا رفقك بمن آذاك فكيف رفقك بمن يؤذى فيك؟

قال النهرجوري: قال الله لموسى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾؛ لأنه أحسن إليك في ابتداء أمرك فلم تكافئه فأحببت أن أكافئه عنك.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿١٢﴾ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِيبِهِمْ قَدْ جَعَلْنَاكَ بِقَايَةِ مَن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿١٣﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿١٤﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوَسَى ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ ﴿١٢﴾ انظر إلى هذا اللطف من اللطيف الكريم أن معيته يكفيهما حيث إنه معها ولا يحتاج إلى قوله أسمع وأرى، فزاد التلطف، فقال أسمع وأرى وهذا كمال رعايته وحفظه لهما أي: أسمع قولكم وفعلكم جميعاً وأنا بالسمع والبصر معكما ومع فرعون، ولكن أنا بذاتي المنزه بنعت الكشف معكما خاصة.

قال سهل: أخبر الله أنه معها بالنصرة مشاهداً لهما في كل حال بالقوة والمعونة والتأييد لئلا يخافا إبلاغ الرسالة بحال قوله تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ ﴿١٣﴾ أي: السلام الأزلي والسلامة الأبدية بنعت الاصطفائية على من اتبع الأنبياء والأولياء، ولا يتبع الهدى إلا من سبق في الأزل له منا الهدى.

قال الواسطي: اتباع الهدى لسابقة الهدى، ومن سبقت له من الله الهداية اتبع الهدى في

جميع أحواله.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿١٦﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿١٧﴾ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿١٨﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿١٩﴾ كُلُوا وَارْزُقُوا أَتَعْمَكُمُ إِنِّي فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٢٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ ﴿١٦﴾ لم تبق ذرة من العرش إلى الثرى إلا وخرجت من العدم بنور القدم ووقع وجودها في حيز الرحمة وكساها الحق أنوار قدرته ثم أعطاها عقلاً سرياً تعرف بها صانعها وهو تعالى بذاته يعرفها نفسه، وكيف لا يعرف الوجود وجود صانعه، وهو بمجموعه مستغرق في بحر الألوهية؛ لذلك قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ١٧]؛ فما كان فيه روح فعله فزاد حياته بروح فعلى مثل الحشرات والوحوش والطيور ومعرفتها بقدر أرواحها وعقولها، ومن كان فيه روح الروحانية مثل الملائكة والجن؛ فمعرفتهم أيضاً بقدر أرواحهم وعقولهم، ومن كان روحه من نفخ الحق عند كشف الذات والصفات في أوائلها بمعرفتهم وهدايتهم من حيث الكشف والمشاهدة وهم القدسيون الربانيون الألوهيون.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَابْتَدَى ﴿٢٢﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِّنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿٢٣﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٢٤﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن تُخَشِّرَ النَّاسُ ضِحِّي ﴿٢٥﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٢٦﴾ قَالَ لَهُمُ مُّوسَىٰ وَتِلْكَمُ اللَّائِمَةُ عَلَيْهَا لُمَاءُ الْحَمِيمِ وَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ أَكْثَرُ فِي الْغَيْمِ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّامَتِ الْأَعْيُنِ وَنُجُودٍ فَنَظِرًا إِلَىٰ هَٰذِهِ لَسَجْرَانِ يُزِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ ﴿٢٨﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنَ اسْتَعْلَىٰ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنَ أُلْقَىٰ ﴿٣٠﴾ قَالَ بَلْ أُلْقُوا فَإِذَا جِبَاهُهُمْ مَّخِيلٌ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تُسْعَىٰ ﴿٣١﴾.

قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ ﴿٢١﴾ الإشارة

فيه إلى الأجسام والهيكل؛ لأن الأرواح من عالم الملكوت، ولولا أنها سترها الحق بقوالب ترابية لملاّت الأكوان والحدثان من روح واحدة ولا حترق الجميع في أنوارها، وإن الله سبحانه صوع^(١) من إكسير الأشباح لمعادن الأفراح، ورباها بنظام تجلي جماله وجلاله بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٣٩] فلما حملت الأرواح في مبادين العبودية حتى طارت منها الأرواح إلى عالم الربوبية بقيت السبائك في معادنها الزوائد تربية ربها، فلما تمت التربية لها من نور فعل الحق صارت الهياكل والأرواح على نعوت الروحانية، ولا تقوم الأرض بحملها بعد ذلك، ويكون موضعها عالم الغيب التراب يا عاقل هو معادن نور الفعل، ومصدر خاصية القبض الجبروتية، ما أشرف هذه الطينة حيث تخمرت بقبضة الأزل والأبد كان معدن معدن ملك الصفات ورجوعنا من الصفات إلى عالم الذات، ألا ترى كيف قال سبحانه في أصل خلقتنا ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]؛ فصددنا من الصفة لرؤية الذات، وصد من الذات للعلم بالصفات.

انظر كيف قال لحبيه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، الله لا تظن حديث النسطورية والأفروقية التي تقول بالثالث والثلاث؛ فإنهم في غلط الخيالات وقعوا في انقسام الجزئيات من الكلليات فنحن وقعنا من زنود تجلي القدم في العدم فكنا معدومين ونكون معدومين ونحن في وجودنا معدومون من حيث الحقيقة؛ لأن من ليس وجوده منه وبقاؤه به معدوم من حيث الحقيقة والمعدوم يكون معدوماً كما لم يكن في العدم والقديم لا يزال، كما لم يزل في القدم ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ وقع على تراب العدم الذي في قبضة القدم.

قيل لبحي بن معاذ: ما بال الإنسان يحب الدنيا؟ قال: حق له أن يحبها منها خلق وهي أمه، وفيها نشأ فهي عيشه، ومنها قد قدر رزقه فهي حياته، وفيها يعاد فهي كفاية، وفيها كسب الجنة فهي مبدأ سعادته، وهي ممر الصالحين إلى الله؛ فكيف لا يحب طريقاً يأخذ بسالكه إلى جوار ربه؟

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿قَالَ

(١) صوع: الصواع: إناء يُشْرَبُ فيه. وإذا هيأت المرأة موضعاً لنذف القطن قيل: صوّعت موضعاً، واسم الموضع: الصّاعة. العين (١/١٢٦).

ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأَقْطِعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِنَا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى ﴿٧٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ ﴿٧٦﴾ لا تعجب؛ فإن النفس الأمارة
بقيت في الأنبياء؛ ألا ترى إلى قول الصديق المرسل يوسف عليه السلام: ﴿ وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنْ
النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]، وتلك النفوس جبانة خلقت عاجزة عن حمل واردة
القهريات، وإن رأت كثيرًا من آيات الله لا يخرج من جبلتها قال تعالى: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ
اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] خاصة أن الله سبحانه ألبس سحر السحرة لباس قهره فتحركت بقوة قهر
الله؛ فلما رأى موسى انقلاب لباس قهر الله خاف من قهر الله لا من غيره؛ لأنه ﴿ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ [الأعراف: ٧].

سئل ابن عطاء عن قوله: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً ﴾ ما كانت هذه الخيفة، والله
يقول: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا ﴾، قال: خاف على قومه أن يفوتهم حظهم من الله، وما
خاف على نفسه فلما وجد الحق حركة نفس موسى في رؤية قهر الجبروت، قال الله:
﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ ﴿٧٨﴾ أي: إنك محفوظ بعيون رعاية جبروتنا، ومعك الآيات
الكبرى وهو لباس حفظنا، أنت في لطفنا تسبق على القهر وأصله «سبقت رحمتي غضبي»^(١).
قال ابن عطاء: لا تخف فإنك بمرأى منا، ومسمع منا ونحن معك في جميع أحوالك؛
فإنك القائم بالمسبب، وهم معتمدون على الأسباب.

﴿ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْيَتِّينَ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنْتَ
قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ ﴿٧٩﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا
أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَابْقَى ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَلِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ
لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٨١﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ
الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٨٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ
مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٨٣﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ
يَبْسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ۖ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا

(١) رواه البخاري (٦٩٩٨)، ومسلم (٤٩٤٠).

غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَغْيَيْنَاكُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُّوا مِمَّنْ طَيَّبَتْ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشَرٍ مِّثْلِكَ﴾ إن القوم شاهدوا في رؤية الآيات مشاهدة الذات والصفات، فهان عليهم عظام البليات. قال ذو النون: من أثر الله على الأشياء هان عليه ما يلقي في ذات الله؛ لأنه أثر الأثر، وحصل في حمله اللطيف الخبير.

قال الله حاكياً عن السحرة: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشَرٍ مِّثْلِكَ﴾ فطَرْنَا فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴿٨٢﴾ افعل بنا ما كنت فاعلاً؛ فإن الذي كشف لنا عنه يسهل في مشاهدته حل المؤمن ملاقة المكاره والضرر.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٣﴾ وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَىٰ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٥﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٣﴾ من كان له استعداد النظر إلى عالم الغيب وياشر حظوظ النفس احتجب عنه، فلما انقطع إلى الله ينظر الله إلى قلبه بنعت الإخلاص واليقين يكشف الله له أنوار حضرته ويجذبه إلى قربه، فلما رجع إليه بالكلية لا يبالي الله سبحانه بما جرى عليه في أيام الحجاب من أحكام مقاديره؛ لأنه كان معذوراً من جهة جهله بالطريق، فالتائب المنقطع إلى الله والمؤمن العارف بالله العامل بالصالحات ترك ما دون الله، فإذا كان كذلك فاهتدى بالله إلى ما لله، وما في الله ويكون مغفوراً برحمة الله ومعصوماً بعصمة الله.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ لمن رجع من طريق المخالفة إلى طريق الموافقة، وصدق موعود الله فيه وله واتبع السنة ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿٨٣﴾ أقام على ذلك لا يطلب سواه مسلماً وطريقاً.

قوله تعالى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ ﴿٨٥﴾ ضاق صدر موسى من معاينة

(١) فإن العجلة محمودة إذا كان المقصود الرضا، والله المعين في كل الأحوال.

الخلق وتذكر أيام وصال الحق فعلت العجلة الشوق إلى لقاء الحق.

قال الواسطي: عجلت إليك شوقاً مني إليك واستهانة بمن هو مبعوث إليهم فقال:

﴿ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ إن الله سبحانه أحب كلمه حباً بالغاً وأحب انبساطه وصولته وغضبه عليه ففتن قومه بحب العجل ليهيجه بذلك إلى غضبه ويشغله عن صحبة الأضداد بصحبته ومناجاته.

قال ابن عطاء: قال الله لموسى: تدري من أين أتيت؟ قال: لا يا رب.

قال: حين قلت لهارون اخلفني في قومي أين كنت أنا حينئذ حين اعتمدت على

هارون.

﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا ﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ حِيلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٤٨﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَبَكْنَا حَمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٤٩﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٥٠﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٥٣﴾ قَالَ يَنْهَرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٥٤﴾ أَلَا تَتَّبِعُنِ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٥٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ لِي تَأْخُذْ بِلِخْيَتِي وَلَا يَرَأَيْتُ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمَعِيُّ ﴿٥٧﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا ﴾ غضبه انبساطه وجراته في حضرة ربه من العلم بمكانه عند الله كأنه عربد في إضلال قومه وأسفه من فقدان وصاله واشتغاله بشريعته قيل «غضبانه» على نفسه إذ ترك قومه حتى ضلوا «وأسفًا» على ما فاته من مناجاة ربه.

قال الشبي: «أسفًا» على ما فاته من مخاطبة الحق إلى مخاطبة من لا أوزان لهم فردّه من شوقه إلى مشاهدته ولم يظفر ببغيته وشفي من وجد فغضبه كان من ذلك.

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا

وَكَذَلِكَ سَأَلْتِ لِي نَفْسِي ﴿٥٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ ۚ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٥٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أن الله سبحانه أراد بقوم من بني إسرائيل فتنة المحبة فأوقعهم في بحر المخائيل حتى عبدوا العجل؛ لأنه تعالى ربها أجرى طوفان عزة جلال ربوبيته فأغرق فيه قومًا، وذلك من كمال فرط محبته إظهار جماله وجلاله ومن كمال ذلك المعنى لا يبالي أن يُرى جلال ربوبيته للعوام فخلق طباع عبدة العجل رقيقة مائلة إلى حسن فعله من حركات سره في صميم إرادتهم إلى طلب ما ألقى من نور وجهه إلى الغيب ومن الغيب إلى الأفعال، وذلك جذب عجيب علته محبة الله شوق المشتاقين وحب المحبين فتجلى من قدسه وجلاله وجماله لفعل الخاص، ومن فعله الخاص لفعله العام، وتجلي من فعله العالم فبرز منه روح القدس فآثر به الحياة القدسية في كل من عكس عليه نوره فورد على تراب فقبض السامري من أثر فرسه قبضة؛ لأنه سمع من موسى تأثير القدسين في أشباح الأكوان فنثر على العجل الذهبي فجعل الحق سبحانه لها إكسيرًا من نور فعله فأنور العجل بنور فعله، وجعله حياله خوار فتحركت سر تلك الفطرة المختبئة في قلوبهم فطلبوا المعدن ولم يعرفوا طريقه فوجدوا سكون محبتهم في رؤية العجل الذي ملبوس بنور الفعل فغلطوا وعبدوه من غاية حبه، قال سبحانه: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] أي: حب العجل وهذا من نوادر تجلي الالتباس، ألا ترى كيف كانوا إذا عنموا مواضع الغلط قتلوا أنفسهم لله ومقصود الحق من ذلك أن يرى أحباءه على بابه قتلى صرعى.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ ﴿٥٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٦٠﴾ خَلِيدِينَ فِيهِ ۚ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٦١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٦٢﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٦٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٦٤﴾ وَتَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿٦٥﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ لما قص غلط عبدة العجل وغيره موسى عليهم وذبحه العجل وحرقه وإفراده القدم عن الحدوث بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿١﴾ قال في عقبه: مثل ما قصصت من أحكم الأولين وما فعلت بهم نقص أيضاً زيادة الباء هل الابتلاء اعتباراً وامتحاناً وإصابة الرشد والعلم بآثار أهل الحقائق.

قال ابن عطاء: موعظة بعد موعظة وبياناً بعد بيان، ثم خصه بما أفرده من العلم اللدني الإلهي والأنباء الغيبي بقوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٢﴾﴾ الذكر اللدني كشف ما ستر الحق على الخلائق من أسرار ربوبيته يعرف حبيبه بها معلومات الحق في القلوب والغيوب.

قال ابن عطاء: أي: موعظة تتعظ بها وتتأدب بملازماتها؛ فلا يخفى عليك شيء من أسرارنا وما أودعنا أسرار الذين قالوا قبلك، فيكون الأنبياء مكشوفين لك وأنت في سر الحق.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٣﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿٤﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿٦﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ عِلْمًا ﴿٧﴾ وَعَسَى الْأُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٨﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿٩﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿٣﴾﴾ إذا أراد الله سبحانه أن يطلع شمس ذاته وأقمار صفاته من مشارق قلوب العارفين يقلع عن قلوبهم شواغلات الإنسانية ورسومات النفسانية وعوارضات البشرية ورسومات العلومية، ورسومات العقولية، حتى بقيت الأرواح المقدسة على صحاري القلوب مطالعة لطلوع أنوار مشاهدات الأزلية ومكاشفات الأبدية بغير رسوم الفهوم، والعلوم فإذا اضمحلت المخائيل من جبال الشهوات وموهومات النفوسية شاهدوا الله بصرف المعرفة وحقيقة الفناء.

قال الحسين: هو الذي يطمس الرسوم ويعمى الفهوم ويميت الذهن ويترك الجسم قاعاً صفصفاً حتى يعجز الكل عن معرفته وبلوغ نفاذ قدرته، ثم يظهر من طوابع ربوبيته على أسرار أهل معرفته فيعرفونه به.

قوله تعالى: ﴿وَحَشَعْتَ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾^(١) أخبر الله سبحانه عن كشف العظمة والكبرياء والسلطنة للقدم، فهناك مقام فناء الأرواح والأشباح بنعت الخمود والخشوع فلا حيلة لهم هناك للخروج من تحت غواشي ضباب العزة؛ لأن الحوادث مضمحلة عند بروز أنوار سطوات الألوهية، فإذا ذهب طوفان بحار العظمة ويطلع عليهم زبرقان^(٢) الجمال من مشرق الجلال فيبقوا ببقائه ويفيقوا من صعقاتهم ويجيبوا الله ويسمعوا منه فالأول مقام الفناء والآخر مقام البقاء.

قال الواسطي: وهل كانت إلا خاشعة في الأول وهل يكون إلا خاشعة في الأبد فالإقتحام في حال الوجود بالتوثب والمنازعة ووقاحة الوجه ورعونة الطبع؛ لأنها لم تكن وهي إذا كانت كأنها لم تكن.

وقال الجنيد: كيف لا تخشع وقد كشف الغطاء وأبدي الخفاء فلهيئة الموقف وحياء الجنائيات خشعت أصواتهم وذلت رقابهم ثم أخبر عن ذهاب صولات العظمة وإقبال كشف الحال بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ من رضي الله عنه في الأزل واختاره باصطفائيته وحسن عنايته، ورضي عن قوله في دعواه في الدنيا بمحبته، ومعرفته مقرون بالصدق والإخلاص، وله لسان الولاية بإذن الله، يهب الله له بشفاعته، ولو شفع لجميع الكفرة، فإنه لا يرد مكان خاصية إرادته القديمة، وهناك تبين صدق الصادقين ودعوى المدعين.

قال الواسطي: لا تنفع الشفاعة إلا لمن لا ينسب إلى نفسه شيئاً، ولا يرى نعته فإذا عاين نعته نسي الأول، وإذا ظهر عليه رضوانه ذهب ما دونه، ثم أخبر عن كمال جلاله وعز قدمه وبقاء ديموميته التي تقاصرت الأوهام عن إدراكها وفنيت العقول عن الإشارة إليها بقوله: ﴿وَلَا تُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ كيف يحيط الحدث بالقدم والحدث فاني الوجود في كشف وجود الحق والفاني لا يدرك الباقي إلا بالباقي، وإذا أدرك الباقي بالباقي لا يبلغ إلى ذرة من كمال الأزلية؛ لأن الإحاطة بوجوده مستحيلة من كل الوجوه صفات وذاتاً وسراً وحقيقة يا عارف كيف تدعي معرفة من لا تدركه معرفة كل عارف، فإن معرفة كل عارف

(١) (وخشعت الأصوات) أي ارتخت وخفيت وخفضت لخشوع أهلها (للمرحمن) أي الذي عمت نعمه، فيرجى كرمه، ويخشى نقمه (فلا) أي فيتسبب عن رخاوتها أنك (تسمع إلا همساً) أخفى ما يكون من الأصوات، وقيل: أخفى شيء من أصوات الأقدام. نظم الدرر (٥/٢٦٩).

(٢) قالوا: سُمِّي الرجل زِبْرَقَان لجماله. وقالوا: زبرق ثوبه، إذا صبغه بحُمْرة أو صُفْرة. والزَّبْرَقَان، زعموا: القمر. جبهة اللغة (٢/١٣٢).

مستفاد من كرمه والحادث بمعرفته لا يعرف ماهية حديثه فكيف يعرف سر السر وعين العين وعلة العلة، أفهم أن ما تدرك منه يرجع إليك بكل معروف ومفهوم ومعلوم فكلها متقى إدراك حقيقة ذاته وصفاته.

قال ابن عطاء: لا يحيطون بشيء من ربوبيته علماً؛ لأنه لم يظهر شيئاً إلا تحت تليس؛ لكيلا يستوي علما في شيء واحد ومن لا يرى الكل تليساً كان المكر به قريباً، والعبيد لا يقفون على تليساته.

وقال الواسطي: كيف يطلب أحد طريق الإحاطة وهو لا يحيط بنفسه علماً ولا بالسما، وهو يرى جوهرها ثم زاد ذكر غلبة عزته وجلاله واشتغال أنوار هيبة ذاته وصفاته على كل ذرة من العرش إلى الثرى بقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أفهم يا صاحب العلم أنه سبحانه ذكر الوجوه، وفي العرف: «صاحب الوجه من كان وجيهاً عند كل ذي وجهة»؛ فالأنبياء والمرسلون والأولياء والمقربون في الحقيقة هم أصحاب الوجوه، وكيف أنت بوجوه حور العين ووجه كل ذي حسن وحسن فوجوه الجمهور مع حسنها وجلالها، المستفاد من حسن الله، وإن كانوا جميعاً مثل يوسف تلاشت وخرت وخضعت عند كشف نقاب وجهه الكريم وظهور جلاله وجماله القديم.

وقال سهل: خضعت له بقدر معرفتها به وتمكين التوفيق منه.

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا ۝ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَتَّخِذْ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝﴾ عن الله سبحانه وتعالى إِبصار سر نبيه وحبيبه، وكشف لها بحار علومه الأزلية وعرفه مكان قصور علمه فيها فأمره باستزاده، وقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝﴾.

قال محمد بن الفضل: «رب زدني علماً» نفسي وما تضره من الشرور والمكر والغدر لأقوم بمعونة في مداواة كل شيء منها تداويها، ثم أخبر سبحانه عن لسان آدم صورة الأمر من غلبة سطوة إرادته بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ﴾ إن الله سبحانه قدر قبل الكون وقبل آدم أن آدم مصطفى مجتبي بالرسالة والنبوة وعلم الأسماء والجلال والكمال وأنه يعرف الله بطريق كل اسم من أسمائه ونعت من نعوته، ونعت قهر جبروته، فجر آدم

باسمه إلى نعته ومن نعته إلى صفته، ومن صفته إلى رؤية ذاته فألبس نور بهائه الشجرة المنهية وأراه ذلك النور والبهاء الرباني، ثم أمره بالاجتناب عنها وألقي في قلبه محبة قربها؛ لأنها مرآة جلاله يتجلى لآدم منها فغلبت المنحبة على الأمر وسلبته لطائف هذا الجمال فوقع في هيجان شوقها وغمار لذة بهاء مشاهدتها فترك صورة الأمر لشوق جمال الأمر ووقع في بحر القهر بغير مبالاته على العهد؛ لأن عهد الأزل باصطفائيته سابق عهد الأمر فمن رؤيته عهد الأزل ترك عهد الأمر فاجترأ لعلمه بمكانته بوصف الاصطفائية عند الحق وقبوله؛ لأن بعد القبول الأزلي لا يؤثر فيه مباشرة المعصية، وقوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ لم يجد الحق في قلب آدم عزم متابعة أمر الظاهر عند العهد؛ لأن في قلبه رؤية ما يتولد من أكل الشجرة من خروج عرائس المقدرات الغيبية من مكنن القدم، يا عاقل فديت لنقض عهده الذي بسببه بدا إعلام دولة المرسلين والنبين والصدّيقين وحقيقة عهد الله مع آدم ألا يسكن بشيء دونه، وإن كان وسيلة إلى قربهِ ومشاهدته فلما ارتهن في طريق الوصول بوسيلة وقع العصيان عليه لما لم يسلك في طلب الحقيقة بنعت التجريد وإسقاط الوسائط قال ابن عطاء: عهدنا إلى آدم ألا لا تطالع معي سواي فنسى عهدي وطالع الجنان.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي: لم يطالع سره، ولكن طالعه بعينه فنأدى عليه ﴿وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾.

وقال الواسطي: ونسي ولم نجد له عزمًا أي: قوة على ضبط نفسه، وإن كان الواجب أن ارتكاب المباشرة أوجب زوال النسيان فإن غيبته عن شاهده ليريه شواهد عبوديته تنبيهًا وتزيينًا وقال أيضًا: ﴿فَنَسِيَ﴾ رجهان أي: جهل قدر عهده وفرق بين من نسي بالحضرة وبين من نسي في الغيبة، لذلك قال النبي ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان»^(١).

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ أَتَقَادِمُ هَلْ أَذُوكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكُ لَا يَبُلَىٰ ۖ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا مَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ خاف آدم في سره قبل دخول الجنة أن ينقطع عن لذائذ مشاهدته ووصاله في الجنة وأن يحتجب عن روح الأنس والنظر إلى جمال

(١) رواه ابن ماجه في سننه (٢١٧/٦)، والحاكم في «المستدرک» (٢١٦/٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨٤/٦).

القدس، وأن يعرى عن ثوب عافية الرعاية والكفاية باشتغاله عنه بالجنة، وهذا قرع سر القدم باب سره بأن ما يخاف عنه يقع فيه في ظاهر العلم، فأخبره سبحانه ﴿لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾ في شوقك إلى مشاهدتنا؛ لأن هناك تستغرق في بحر وصالنا ولا تعرى عن لباس أنوار الاصطفائية؛ فإنك ملبس أبدا بكسوة الاجتبابية، وأنت في ظل عنايتنا لا تعطش إلى مياه الزلفة؛ فإنك تكون في الوصلة، ولا تضحى لا تحترق في حر شمس الفراق، فلما وقع عليه واقعة الامتحان من القدر السابق صار عرياناً في الجنة عما دون الله، وذلك أنه سبحانه جرب صفيه بالجنة، وأجرى عليه شهوة الحنطة، فلما رآه في حجاب الامتحان جرده عن الجنان وأفرده عن الأكوان والحدثان غيرة على سر ما في قلبه؛ وفيه إشارة أخرى كأنه أشار بالسُرّ أي: لا تأكل الشجرة المنهية كيلا تجوع ولا تعرى؛ فإن من خالقنا وقع في بحر الحجاب وعرى عن ستر المآب.

قال ابن عطاء: آخر أحوال الخلق الرجوع إلى ما يليق بهم من المطعم والمشرب، ألا ترى إلى آدم بعد خصوصية الخلقة باليد، ونفخ روحه الخاص، وسجود الملائكة كيف رد لي نقص الطبائع بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾.

قال الواسطي: خلق الله آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، واصطفاه على الخلائق، ثم رده إلى قدره لئلا يعدو طوره قال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ وما تعرض لي في حكم الظاهر أن الله سبحانه قال لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أي: لو تخرجنا من الجنة بسبب المعصية تتعبا في الدنيا لأجل المطعم والمشرب والملبس في الحرارة، وغيرها في الدنيا وتعري وتظماً وتضحى، ولا يكون مثل هذه العقوبات في جنبي وجواري، كأنه خاطب معه من حيث الطبيعة خوف نفسه بالجوع والعري والظماً في الهواجر؛ لأن النفس لا تفزع إلا من مثل هذه العقوبات لئلا تقع في جوار الحق في المعصية، وإن من لطفه وكرمه عاقب آدم في الدنيا بالمجاهدات الكبيرة بما جرى عليه من المعصية في الحضرة ويعاقب المجهود في الآخرة بما جرى عليهم من المعصية في الدنيا وهذا خاصية له؛ لأن عقوبة الدنيا أهون، ولولا امتحان الله آدم بأكل الشجرة، ومثل هذا الخطاب لم يخرج آدم من الجنة، ولم يظهر أسرار علوم حقائق قهرمانه لأهل المعارف من الصديقين، ولم يقع عنده عذر المذنبين فخاطبه من حيث العبودية والحدوثية ولو خاطبه من حيث الربوبية لطار في الجنة في هواء الهوية، ولم ير أثره في الزمان والمكان، ولا في الجنان والحدثان.

سئل ابن عطاء عن قصة آدم: إن الله ﷻ نادى عليه بمعصية واحدة وستر على كثيرين من ذريته؛ فقال: إن معصية آدم كانت في بساط القرية في جواره، ومعصية ذريته في دار المحنة،

فزله أكبر وأعظم من زلتهم، ولما أراد الله أن يخرج من ذريته الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين ابتلاه بأكل الشجرة فقواه الشيطان حتى يوسوس، وهذا سر القدر الغيبي كأنه يوسوسه القدر، قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَقَادُمُ هَلْ أَذُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكُ لَا يَبْلَى ۝﴾ أجرى الله هذه الكلمة الغيبية على لسان الشيطان، وهو بذلك مغرور ظن أنه أوقع آدم في تيه الفرقة الأبدية، ولم يعلم أن ذلك سبب الوصلة الأبدية، وأنها شجرة الخلد بالحقيقة؛ لأن الشجرة ملبسة بأنوار السلطانية حاملة بأسرار الربانية ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهَا سَوَاءٌ تَهُمَا﴾ أسرارهما التي انكشفت لهما من الغيب بعد أكل الشجرة، ولم يد تعبيرها؛ فلما حازا الأسرار الألوهية خرجا من تحت موت الجهل، وبلغا إلى ملك لا يبلى، وذلك الملك الوقوف بالعلم الإلهي على أسرار قدر الأزال والآباد دلها الشيطان إلى هذه المعالم والمعادن الغيبية، وهو معزول عنها مثله مثل حية تمشي على وجه الأرض إلى رأس كنز، وخلفه إنسان ليقتلها فلما ضربها ظهر تحت ضربه كنز فصار الكنز نه، وصارت الحية مقتولة، وبلغ إلى الأمرين العظيمين البلوغ إلى المأمول والفلاح من العدو، فهكذا شأن آدم عليه السلام مع الملعون دله إلى كنز من كنوز الربوبية غرضه العداوة والضلالة فوصل آدم إلى الاجتباتية الأبدية بعد الاصطفائية الأزلية وبلغ الملعون إلى اللعنة الأزلية الأبدية.

قال اخضرمي: بدت لهما، ولم تبد بغيرهما لثلا يعلم الأغيار من مكافأة الجناية ما علما ولو بد للأغيار، لقال: بدت منهما ثم ذكر سبحانه تغيير آدم بالظاهر، وأخفى تلك الأسرار في الباطن قال: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝﴾ عصيان آدم الرجوع من الأصل إلى الفرع ومن مكاشفة إلى الجنة، والميل من طريق الأمر إلى طريق النهي، ولو سلك طريق الأمر ليكشف الحق سبحانه ما كان في الشجرة بغير عصيان؛ لأن في بساتين غيبه مائة ألف ألف شجرة غيبية مملوءة حاملة من علوم الأسرار، ولكن سلبته صولة المحبة، وتعجيل الاشتياق أكل من شجر القدم، وصار سكران في وادي الأزل يكشف علم الأزل له فطلع على الجنان، وكاد يفشي سر السر وغيب الغيب، ويشوش أحوال الجنانين؛ فأخرجه الحق إلى حبس الدنيا، وحبس لسانه عن إفشاء سر القدم والبقاء؛ فكان اصطفايته الأزلية مصحوبة زلته، فاستهلكت انزلة في الاصطفائية، وزاد عليها اجتباتيته الأبدية التي لا تغيرها حوادث الدهور.

قال ابن عطاء: اسم العصيان مذمة إلا أن الاجتباء والاصطفاء منعا أن يلحق آدم اسم المذمة بحال.

قال جعفر: طالع الجنان ونعيمها بعينه فنودي عليه إلى القيامة، وعصى آدم، ولو

طالعها بقلبها لنودي عليه بالهجران أبد الأبد، ثم عطف عليه فرحه بقوله: ﴿ثُمَّ أَجْتَبَنُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ فلما غرق في بحر الامتحان والحجاب عن الجنان فاطلع على قلبه الرحمن، ولم ير إلا الشوق إلى لقاء الرحمن أظهر نفسه له في منازل الفرقة بوصف الوصلة، بقوله: ﴿ثُمَّ أَجْتَبَنُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ زاد الاجتبائية على الاصطفائية وتاب الحق على صفيه؛ لأن القديم لا يلحقه الحدث، وإن اجتهد فأين يطلبه، ولا أين فأقبل عليه الحق بنعت كشف جلاله هو لم يزل مقبلاً عليه بنعت العناية والاصطفائية، ويرجع إليه بحسن الإقبال، وكشف الجمال، وهدي إلى طريق الوصال الذي لا تفرق فيه بعد ذلك أبداً بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ هدي منه إليه.

قال الواسطي: العصيان لا يؤثر في الاجتبائية، وقوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ﴾ أي: أظهر خلافاً ثم أدركته الاجتبائية؛ فأزالت عنه مذمة العصيان ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾، وكيف يعزم على المخالفة من هو في سر العصمة وخصوصية الاجتباء والاصطفاء.

﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٣﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٤﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿١٢٥﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٦﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٢٧﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٢٢﴾﴾ أي: من تبع خطابي وإلهامي فلا يضل عن طريق السنة ولا يشقى عن المتابعة.

قال سهل: هو الاقتداء وملازمة الكتاب والسنة لا يضل عن طريق الهدى، ولا يشقى في الآخرة والأولى ثم بين أن من أعرض عن طريق الإلهام والذكر ومتابعة السنة وقع في ضنك عيش الفرقة بقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: من اشتغل بذكر غيري احتجب عن أنوار ذكري، ومن كان محجوباً عن أنوار الذكر كان محجوباً عن أنوار مشاهدة المذكور، وله حياة غير طيبة ويرزق غير هني، وأي عيش أضيق من عيش من كان

محجوباً عن وصال الحق؟! ومن أقبل إلى الله أقبل الله إليه، ومن أقبل الله إليه أقبل إليه كل شيء بالخدمة والمتابعة، قيل: لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته وتشوش عليه حاله.

وقال جعفر: لو عرفوني ما أعرضوا عني ومن أعرض عني رددته إلى الإقبال على ما يليق به من الأجناس والأكوان، وقيل: قلة الصبر مع الذاكرين.

وقيل: ضيق الصدر على مداومة الطاعات، ثم زاد عليه ضنك معيشة الآخرة بقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (٣٦) يعني: جاهلاً بوجود الحق كما كان جاهلاً في الدنيا كما قال علي بن أبي طالب: «من لم يعرف الله في الدنيا لا يعرفه في الآخرة، وقيل: عن رؤية أوليائه وأصفيائه».

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ (٣٧) وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْفُكُ رِزْقًا غَنًّا نُنْزِلُكَ ۚ وَالْعَقِيبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّنَا أُولَٰئِكَ نَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿٤٠﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿٤١﴾ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ أي: إذا كنت متعرضاً لمشاهدة جلالنا؛ فاذكر آلاءنا ونعماءنا عليك بما عرفك خزائن جود الألوهية وعلوم الربوبية، ونزه بذكرك صفاتنا حتى تكون مقدساً بذكرنا عن رؤية غيرنا، فإذا تقدست بنا عن أوصافك تطلع عليك شمس جمالنا، وينكشف لك أنوار وصالنا، فإذا حان أن تغيب عنك حالك ففر بنعت القدس والطهارة عن لذة حالك إلينا حتى تبقى عليك آثار أنوار شمس عزتنا، وإذا كنت غائباً بشريعتنا في آناء ليل الامتحان قف على باب ربوبيتنا بنعت التنزيه والتفريد، واذكر شمائل متنا عليك نزيد عليك كشف الصمدانية وبروز أنوار الوجدانية، لعلك تصل إلى مقام المحمود من حيث دنو الدنو الذي لا يبقى بيني وبينك بين ولا بون ولا غير ولا حجاب، ترضى برويتي عن رؤية كل خلق ثم حذره عن النظر إلى زينة الكون بنظر الاستحسان؛ لئلا يشتغل بشيء دونه لحظة بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ فِيهِ﴾ أن الله سبحانه ألبس الكون أنوار بهائه

فصرف نظر نبيه عن ذلك حتى ينظر إليه صرفاً بلا واسطة.

ألا ترى إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الفرقان: ٤٥]، ولا أن روحه كان عاشقاً بالله مستأنساً بكل شيء مليح، وبأن نظره أعظم من أن ينظر به إلى شيء دون الله.

قال الواسطي: هذه تسلية للفقراء وتعزية لهم حيث منع خير الخلق عن النظر إلى الدنيا على وجه الاستحسان ثم بيّن أن ما له من المكاشفة والمشاهدة والقرينة والرسالة بلا واسطة خير مما كان له في رؤية الكون بقوله: ﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [٣٦] رزقه وصاله وكشف جماله ثم أمره بالعبودية وملازمة الطاعة بقوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، الاصطبار مقام المجاهدة، والصبر مقام المشاهدة^(١).

قال ابن عطاء: أشد أنواع الصبر الاصطبار، وهو السكون تحت موارد البلاء بالسر والقلب والنفس والصبر بالنفس لا غير.

وقال الجنيد: أي: وأمر أهلك بالاتصال ببناء، والاصطبار على تلك المواصلات معناه: ومن يطبق ذلك إلا المؤيدون من جهتنا بأنواع التأيد.

قال يحيى بن معاذ: للعابدين أردية يكسونها من عند الله سداها الصلاة ولحمتها الصوم ثم بيّن أن عواقب السعادة مقرونة بالتقوى بقوله: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [٣٦] التقوى الخروج مما دون الله والحياة في إجلال الله.

قال أبو عثمان: هو ذم النفس والجوارح عن جميع ما يقبحه العلم.

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ١ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ٢ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ٣ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ٤ ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ خَلْمٍ

(١) قال الحرالي . ويصح أن يراد بها الدعاء ، فمن صبر عن الدنيا وعلى المكارة وأنهى صبره إلى الصوم فأزال عنه كدورات حب الدنيا وأضاف إلى ذلك الصلاة استنار قلبه بأنواع المعارف ، فإذا ضم إلى ذلك الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى بلغ نهاية البر . نظم الدرر (٨٥/١).

بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِقَايَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ﴿٥١﴾ إن الله سبحانه حذر الجمهور من مناقشته في الحساب، وزجرهم حتى يتنبهوا عن رقاد الغفلات وترك الحساب أقرب من كل شيء منهم لو يعلمون، فإنه تعالى يحاسب العباد في كل لمحة ونفس، وحسابه أدق من الشعر وأخفى من ديبب النمل على الصفا، ولا يعرف ذلك إلا المراقبون الذين يحاسبون أنفسهم في كل نفس وخطرة وهم في غفلة في حجاب عن مشاهدة الله معرضون عن طاعته إذ لا حظ لهم في الطاعات، ولا شرب لهم في المشاهدات ويا غافلاً لو تدري حلاوة حساب الله ودقائق تعريفه مكان السهو والغلط تحاسب نفسك في كل نفس، ما أحلى خطابه وإلهامه في تعبير العارفين، ما أطيب مسامرته مع الصديقين في مؤاخذته دقائق الخطرات كأن بطون علم المجهول قد أشارت إلى أن هذا حركة جرسات الوصلة ولمعات أنوار القربة، كما قيل:

ويبقى السود ما بقي العتاب

وقال بعضهم: دنا أوان الانتباه، وهم في غفلتهم معرضون عن طريق التوبة والعظة والانتباه.

قال بعضهم: قرب أوان اللقاء وهم في غفلة عن استصلاح أنفسهم لتلك الحضرة، ثم وصف سبحانه القلوب الغافلة بقوله: ﴿ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ ﴾ ساهية عن الذكر وحقائقه ولذته، شاغلة بحفظ نفسها محجوبة عن لقاء خالقها.

قال ابن عطاء: معرضة عن طريق رشدهم.

وقال بعضهم: غافلة عن مسالك اليقين وطريق المتقين.

قال انواسطي: لاهية عن المصادر والموارد والمبدأ والمنتهى.

﴿ مَا أَمْنَتْ قِبَلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٥٤﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾ أي: فاسألوا أهل شهود جمال المذكور القديم بنعت صفاء الذكر في قلوبهم من مشرق نور مشاهدته، وهم الذين مخاطبون من الله بكل سر وكل حقيقة من علوم الغيبية الأزلية.

قال سهل: فاسألوا أهل الفهوم عن الله والعلماء به وبأوامره ونواهيه.

قال الجنيد: أهل الذكر العالمون بحقائق العلوم ومجاري الأمور، والناظرون إلى الأحكام بأعين الغيب.

﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١) وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿٣﴾ لَا تَرْكُضُوا وَآزِجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿٤﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْأَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٧﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَأَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٨﴾ .

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ (١) أي: ذكر مناقبكم من حيث الأرواح القدسية والأشباح الإنسية والعقول الملكوتية والأسرار الجبروتية والنفوس الهوائية، وهذه المراتب الجامعة لا تحصل إلا لآدم وذريته، وفيه بيان خبر الأزل بكرامتكم وخيريتكم على البرية، أين أنتم من معرفة نفوسكم لا تعقلون شرف نسبتكم في معرفتي ووصولكم إلى بعائتي الأزلية.

قال سهل: العمل بما فيه حياتكم.

قال الأستاذ: أي: شرفكم وفخركم؛ فمن استبصر بما فيه من النور سعد في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ كم قلب خرب عمران بنور ذكر الله بظلم الطبيعة ومباشرة الشهوة والدعاوي الباطلة، والنظر إلى الأغيار، وصار محجوبًا بها عن مشاهدة الأنوار وحقائق الأسرار.

وقال أبو بكر الوراق: في ظلم خراب العمران كما قال ﴿الظلم ظلمات يوم القيامة﴾ (٢).

إذا أظلم القلب عن المعرفة والإخلاص خرب، وعلامة خراب القلب عصيان الجوارح وتعديها وميلها إلى ما فيه هلاكها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾

(١) أي: طوال الدهر بالخير إن أطعتم، والشر إن عصيتم، وبه شرفكم على سائر الأمم بشرف ما فيه من مكارم الأخلاق التي كنتم تتفاخرون بها وبشرف نبيكم الذي تقولون عليه الأباطيل، وتكثرون فيه القال والقليل. نظم الدرر (٥ / ٢٩٠).

(٢) رواه البخاري (٢٣١٥)، ومسلم (٢٥٧٨).

كَانَتْ ظَالِمَةً ﴿٤﴾

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (٥) وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿٦﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٧﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٨﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ أخبر سبحانه عن الطبيعة الإنسانية التي هي منابت مخائيل الشيطانية، وحنظلات الهواجس النفسانية، فإذا صارت مجموعة بأباطيل شهواتها، وظلمات هواها أشرقت شمس مشاهدة الجلال والجمال من روازن الملكوت للقلب المستعد لشهود مشاهد القرية، فتدلت منه، وتجلت له حتى لا يبقى من ظلمات الطبيعة أثر، فإذا صار بدر الجمال مستقيماً في سقف سماء القلوب، وأضاء بأنوار الغيوب اضمحلت سجود ليالي النفوس، وانهدمت قيام أباطيل الشياطين.

وقال الواسطي: الوعظ للأكابر، ومنهم من له مشار مقذوف كقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾.

قال الأستاذ: يدخل نهار التحقيق على ليالي الأوهام، فينقشع سحب الغيبة، ويتجلى ضباب الأوهام، ويبرز شمس اليقين عن خفاء الظنون، ويصحو سماء الحقائق عن كل غبار الشبه ساطعاً.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٩) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿١٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿١٢﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٣﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فيه إشارة إلى إفراد القدم عن الحدوث وتنزيه الأزلية والأبدية عن العلة، كأنه دعا العارفين إلى رؤية الفردانية بنعت الانفراد عن الحدثان.

قال الساري: حثك في هذه الآية على الرجوع إليه والاعتماد عليه، وقطع العلائق والأسباب عن قلبك.

قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (٢١) قطع لسان الحدثان بمقراض هيبة الرحمن عن الانبساط في وقت كشوف عظمة الجبروت وشهود جلال الملكوت يفعل الخير ما يشاء، وليس لهم هناك لهجة سؤال، ولا لهم حجة مقال إذ لا وسمة على فعاله وعزة كماله، وهم معاتبون عما فعلوا؛ لأن أفعالهم وقعت ناقصة عن سنن نظام سنة الأزلية بمشيئة القدمية.

سئل ابن حماد المصري عن قوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لم لا يسأل؟ قال: لأن أفعاله من غير علة.

﴿لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِבَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَلَا يَنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٢٩﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) عزة سرمدية قطع لسان المسبحين من الكروبيين عن حقيقة الثناء ووقعت الاستحالة أن يحيط بجلال قدمه قول كل قائل، ووصف كل واصف ولا يطبقون أن يقولوا شيئاً من تلقاء نفوسهم أو يفعلوا شيئاً بإرادتهم، بل هم في قبضة عزته أذلاء تحت جلال جبروته يتبعون أمره كما أراد منهم.

قال القاسم: لا يسبقونه قصداً ولا فعلاً؛ لأنهم مربوطون بها ذكرهم مقموعون بها عرفهم لئلا يفتری عليه أحد ثم وصف لهؤلاء الكرام بالخشية منه والشفقة عنه بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٣) أي: هم من معرفة جلال قهره خائفون من فرقته يعلمهم بأنه منزه عن وجودهم وعدمهم، وهذه الخشية حقيقة العلم بالله يتولد منها الخوف والحياء والتعظيم والإجلال.

قال الواسطي: الخوف للجهال، والخشية للعلماء، والرغبة للأنبياء، وقد ذكر الله الملائكة وقال: ﴿وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٣).

قال الواسطي في قوله: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ قال: لا يستعجلون إظهاراً لعجزهم وتعريفاً لقدره.

﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾^(١١)
وَلَقَدْ آتَيْنَا بَرُسَ بْنَ قَيْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ^(١٢).

قوله تعالى: ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ أظهر الحق سبحانه جلال عظمته يوم القيامة؛ فلما رأوا سطوات عظمته تلاشوا في جلال هيئته، وكيف يقوم الحدثان عند ظهور جلال الرحمن حيث يتجلى لها بوصف العزة والعظمة والكبرياء، وأهل شهود القدم على نعت السرمدية لا يفزعون من طريان أفعاله وجريان قهره ولطفه؛ لأنها امتحانات عارية لا يفزع عنها إلا كل مشغول عنه.

قال بعضهم: من يبهته شيء من الكون؛ فهو لمحلّه عنده وغفلته عن مكنونه، ومن كان في قبضة الحق وحضرته لا يبهته شيء؛ لأنه قد حصل في محل الهيبة من منازل القدس.

﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ^(١٣) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ^(١٤) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ^(١٥) قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ^(١٦) وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَنْوِيلُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ^(١٧) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ^(١٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ^(١٩) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ^(٢٠).

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أخبر عن كمال إحاطته بكل مخلوق وتنزيهه عن العجلة بمواخذتهم أي: أنا بذاتي تعاليت أدفع بلطفي القديم عنكم قهر القديم، ولولا فضلي السابق، وعنايتي القديمة بالرحمة عليكم من يدفعه بالعلة الحدثانية، وهذا من كمال لطفي عليكم، وأنتم بعد معرضون عني يا أهل الجفاء، وذلك ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾

رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿١٧﴾

قال الواسطي: أي: من يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن، أي: يظهر عليكم ما سبق فيكم ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾، أي: ذكرهم إياه في الأزلية بالنجاة والهلاك. قال ابن عطاء: من يكلؤكم من أمر الرحمن سوى الرحمن، وهل يقدر أحد على الكلاءه سواه.

قوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ إن الله موازين عدله القديم لا تتغير بتغير الحدثان ولا برسوم الزمان والمكان، وكل ميزان له موضع ومقام فمنها للعاشقين، ومنها للعارفين ومنها للمحبين، ومنها للمشتاقين، ومنها للمستأنسين، ومنها للخاضعين، ومنها للأواهين من غلبة قهر المواجهيد، ومنها للواجدين، ومنها للعالمين، ومنها للباكين عليه منه فيزن بها معالي همهم ومقادير محنهم في زمان هجرانه وأوان امتحانه فيبقيهم بجلال قدره ما لا يحصى عدده من قرب مشاهدته وحسن وصاله فيفتح لهم خزائن وجود الأزل، وله ميزان للعارفين يزن أنفاسهم به يضع نفساً من أنفاسهم المعجونة بنفس صبح روح الأزل في كفه، ويضع جميع الجنان في أخرى، فيرجح ما فيه نفس العارف بحيث لا يبقى في جنبه الحدثان؛ لأنه خرج من غيب الرحمن منوراً بنوره.

قال القاسم: الأعمال والموازين شتى، والعدل ميزان الله في الأرض؛ فمن وزن أعماله بميزان العدل؛ فهو من العابدين، ومن وزن حركاته بميزان العدل؛ فهو من المحبين، ومن وزن خطراته وأنفاسه بميزان العدل؛ فهو من العارفين.

وميزان العدل في الدنيا ثلاثة: ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسر؛ فميزان النفس والروح الأمر والنهي، وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان القلب والعقل الإيمان والتوحيد وكفتاه الثواب والعقاب وميزان المعرفة والسر الرضا والسخط، وكفتاه الهرب والطلب؛ فمن وزن أفعال النفس والروح بميزان الأمر والنهي بكفة الكتاب والسنة، ينال الدرجات في الجنان، ومن وزن حركات القلب والعقل بميزان الثواب والعقاب بكفة الوعد والوعيد أصاب الدرجات ونجا من جميع المشقات ومن وزن خطرات المعرفة والسر بميزان الرضا والسخط بكفة الهرب والطلب نجا من الذي هرب، ووصل إلى ما طلب فيصير عيشه في الدنيا على الهرب، وخروجه منها على الطلب وعاقبته إلى غاية الطرب؛ فمن أراد الوصول إلى المسبب فعليه بالهرب من السبب؛ فإن السبب حجاب كل طالب.

﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكٍ أَنْزَلْنَاهُ﴾ كلام الله سبحانه في نفسه مبارك وإن لم يسمعه الجاهل، ولكن مبارك على من يسمعه بأسماع المحبة والشوق إلى لقاء المتكلم القديم

ويعمل بمضمونه، ويعرف إشارته ويجد حلاوته في قلبه، فإذا كان كذلك يبلغه بركته إلى مشاهدة معدنه، وهو رؤية الذات القديم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥].

قال ابن عطاء: مبارك على من يسمعه، مبارك على من يتعظ به، مبارك على من ينزل بهمة وقلبه عليه، مبارك على من آمن به وصدق بما فيه ومن لم ير على سره وقلبه ونفسه آثار بركات القرآن؛ فليعلم ببعده عن مصدر الخواص ودخوله في ميادين العوام من الأشقياء.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (١٨) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿١٩﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٢٣﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُذْبِرِينَ ﴿٢٤﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِءَالِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٢٧﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِءَالِهَتِنَا يَتْلُوهُنَّ إِبْرَاهِيمُ ﴿٢٩﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْتُلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٣٠﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣١﴾ ثُمَّ نَكُسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَٰتُولَآءِ يَنْطِقُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ ﴾ هذا خبر اصطفاية الخليل في الأزل بخلته ورسالته قبل إيجاده وإيجاد الكون وما فيه فإذا أوجد وجه من العدم كاشف لها جمال العدم وعرفها نفسه بنعت إعلامه أسماءه ونعوته وأسرار صفاته فعرفت الله بالله وعرفت سبل شهود الصفات ومشاهدة الذات، فلما التبست بصورته جاءت بعقل القدسي من الملكوت والعلم الإشاراتي من عالم الجبروت؛ فتعرف القلب طرق المحبة والخلة وتعرف النفس طرق الطاعة والخدمة، فلما أخرج الحق من مجال أنسه ألبسه أنوار قدسه فنظر بالعين المكحولة بنور المعرفة إلى عالم الكون، ورأى عجائب الملك وغرائب المملكة فأرادت نفسه أن يسكن إلى الدليل عن المدلول من حيث لها منه لذة مشاهدة اصطناع المالك القديم فغلبت عليها روحه الملكوتية وأغارت ما دون الحق عن ساحة كبريائه بقوله: ﴿ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا

تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ [هود: ٥٤].

سئل الجنيد: متى أتاه رشده؟ فقال: حين أتاه.

وقال أيضًا: آثار سوابق الأزل وإظهاره كما أظهر على الخليل في السخاء والبذل والأخلاق في بذل النفس والولد والمال في رضا الحق؛ فلا يشتغل إلا به ولا يفرح إلا عليه ولا يلتفت إلا إليه، فقال الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، ويقال: ذلك ما أضاء عليه من أنوار التوحيد قبل ما حصل منه من النظر في المخلوق، ويقال: هو مكاشفة روحه قبل إيداعها قلبه من تجلي الحقيقة^(١).

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ﴿٥٥﴾ أَفَلَا تَكْزُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِيلِينَ ﴿٥٨﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ﴾ طلب الحاجة من المحتاج وهن في المعرفة وشين في الحقيقة والمحقق في المعرفة يعرف الأشياء بالله بأنها مجاري أقدار الأزل، ولا تقوم بذاتها بل تصاغر في قبضة تصرف جلاله، ومن كان همته بهذه الصفة كيف يعتمد من الخالق إلى المخلوق.

قال حمدون القصار: استعانة الخلق بالخلق كاستعانة المسجون باستعانة المسجون.

﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٥٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٦٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ ﴿٦٣﴾ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عِبِيدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٦٧﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ

(١) أي صلاحه وإصابته وجه الأمر واهتدائه إلى عين الصواب وأدل الدلالة وأعرف العرف وأشرف القصد الذي جلبناه عليه؛ وقال الرازي في اللوامع: والرشد قوة بعد الهداية - انتهى.

سَوَاءٌ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَذَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٧٧﴾ كان الخليل منورًا بنور الله وكان النار من فعل الله؛ فغلب نور الصفة على نار الفعل، ولو بقيت النار حتى وصل الخليل صارت مضمحلة، فعلم الحق ذلك فقال: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ حتى تبقى لظهور معجزته وبيان كراماته، وفي الإشارة لنا إشارة، وفي إشارتنا سر أن الخليل طالب خليفه في مرآة مشاهدة الشمس والقمر والنجوم وأراه الله مطلوبه من وسط النار كما أرى موسى من وسط النار، والشجرة كأن نيران الكبرياء تكاد بصولة القدم أن تفتنى وتحرق إبراهيم، فقال سبحانه بنفسه مع نفسه لنفسه: ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٧٨﴾ فأسلمه من قهر نفسه بلطف نفسه.

قال ابن عطاء: سلم إبراهيم من النار بسلامة صدره، ولما حكى الله عنه بقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨٤﴾ [الصفات: ٨٤] خال من جميع الأسباب والعوارض ويرد عليه النار لصحة توكله وبقينه وثقته حيث ناداه جبريل ألك بي حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٧﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُخَفِّيَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٨﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ بين سبحانه أن الفضل معلق بفضله، لا يتعلق بالصغر والكبر والشيخوخة والاكتمال والتعلم، إنما الفهم تعريف الله تسليلاً أحكام ربوبيته بنور هدايته، وإبراز لطائف علومه الغيبية؛ فحيث يظهر ذلك فهناك مواضع الفهم والعلوم، فهو سبحانه مَنْ عَلَىٰ سُلَيْمَانَ بعلمه، ولم يمن عليه بشيء خارج من نفسه من الملك والحدثان، فإن العلم صفة من صفاته، فلما جعله متصفاً بصفاته مَنْ عَلَىٰ به بجلال كبريائه.

قال الجنيد: أفهم الله سليمان مسألة من العلم فمنَّ عليه بذلك، وأعطاه الملك فلم يمن عليه، وقال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾.

قال الواسطي: في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ بسلامته عن شواهد اللذات في الطاعات.

قال أبو بكر: لبره بأبيه ثم بين فضل أبيه داود بما أعطاه من الحكمة والعلم والشرف

والفضل، وإن شدد عنه فهم تلك المسألة فأراه الله ما منَّ على سليمان ليكون قرّة عينه بقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ معرفة بالربوبية وعلماً بالعبودية.

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرَّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا
وَذِكْرَىٰ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ وَاسْمِعِيلَ إِذْ رِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٥٢﴾
وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾.

لما أخبر الله سبحانه أيوب عليه السلام أنه حان وقت خروجه من البلاء عنم أيوب أن ما رأى من رؤية المبلى في بلائه يكون منقطعاً عنه إذا انقطع البلاء قال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾ إذ فات عني مشاهدتك في بلائي، وأيضاً إذا كان مبتلى كان في محل رؤية قهر القدم الذي شاهده الحق بوصف جلاله وجماله تربية بقهره لعرفانه، وجميع صفاته بطريق القهر واللفظ؛ فلما انهزم عساكر قهر سلطانه من جنود ألطاف ألوهية خاف أن يفوت ما حصل له من رؤية القهر ومباشرته، قال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾، ولأنه ادعى الصبر فجربه الحق بالبلاء فإذا خرج من مكائده طوفان قهر القدم وجد نفسه خارجاً من مقابلة بلائه الذي هو دأب فتیان الخضرة؛ فقال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾، وأيضاً مقام العافية حظ العاشق من المعشوق، والبلاء حظ المعشوق من العاشق، فلما انزل من حظ معشوقه عنه وبقي مع حظه منه قال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾، وأيضاً البلاء مقام الفناء في القدم والعافية مقام البقاء والعارف الصادق يؤثر فناء نفسه على بقاءه؛ لأن تنزيه القدم يقتضي فناء الغير فمن حجة كونه في مشاهدة الحق قال: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾ كون وجودي في وجودك؛ لأن حق الغيرة في الوحدة لا يقتضي كون الوجود في وجود الحق، وأيضاً كان روحه من مقام الأنس صدرت فطار صورته شبيه روحه باللطافة، وهو كان في هواء الأنس طياراً، وفي ميادين الحسن والجمال سياراً، فلما لحقه البلاء صار في البلاء وثقله ومرارته محجوباً عن لذة الأنس به؛ فقال الله:

﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾، ويا فهم العارف الصادق إذا كان متحققاً في معرفته فشكواه حقيقة الانبساط، ومناداته تحقيق المناجاة وأنيته في بلاء حبيبه حقيقة المباهاة، وفيما ذكرنا أنشدت يوماً في حق بلاء عشي في أيام امتحاني وشوقي إلى أيام وصالي ورؤية منابي فقلت:

هوائي يا منابي في لقاءك وعيشي يا رجائي في هواك
نزلت حظوظ نفسي من حياتي وآثرت الممات بأن أراكا

وجدت صفاء قلبي في همومي إذا كانت همومي في رضاكا
لقد طالت بلايا في بلاتي بلائي يا بلاتي من بلاكا
وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ أنه جاء إليه رجل؛ فسأله عن قول أيوب: ﴿أَنِّي
مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾ فبكى النبي ﷺ ثم قال: «والذي بعثني بالحق نبياً ما شكا فقراً نزل من ربه،
ولكن كان في بلائه سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات؛ فلما كان في بعض
الساعات، وثب ليصلي قائماً، فلم يطق للنهوض، فجلس ثم قال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، ثم قال النبي ﷺ: «أكل الدود سائر جسده حتى بقي عظاماً نخرة،
فكادت الشمس تطلع من قبله وتخرج من دبره»، ثم قال النبي ﷺ: «ما بقي إلا قلبه ولسانه،
وكان قلبه لا يخلق من ذكر الله ولسانه لا يخلق من ثنائه على ربه؛ فلما أحب الله له الفرج بعث
إليه الدودتين، إحداهما إلى لسانه، والأخرى إلى قلبه، فقال: يا رب ما بقي إلا هاتان الجارحتان
قلبي ولساني أذكرك بهما، وقد أقبلت هاتان الدودتان أحدهما إلى قلبي والأخرى إلى لساني،
وتشغلاني عنك، وتطلعان على سري ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾»^(١).

وقال الحسين بن علي ؑ: ذكر الله على الصفاء ينسي العبد مرارة البلاء.
وقال جعفر: خرج منه هذا القول على المناجاة مستدعياً للجواب من الحق ليسكن إليه
لا على حد الشكوى.

قال بعضهم: كان أيوب قائماً مع الحق في حال الوجد؛ فلما أن كشف عنه البلاء
وأظهره، وكشف ما به قال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾.

وقال الجنيد: عمل الدود في جسده فصبر، فلما قصدوا قلبه غار عليه؛ لأنه موضع
المعرفة ومعدن التوحيد ومأوى النبوة والولاية، وقال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾ افتقار إلى الله مع
ملازمة آداب النبوة.

وقال ابن خفيف: كان أيوب مستتراً بحال الصبر عن البلاء، فلما أراد إظهاره للخلق
ضج، فقال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾.

قال أبو علي المغازلي: أوحى الله إلى أيوب في حال بلائه: يا أيوب إن هذا البلاء قد
اختاره سبعون نبياً قبلك، فما اخترته إلا لك، فلما أراد الله كشفه عنه، قال: ﴿إِنِّي مَسْنِيَ
الضُّرِّ﴾.

(١) ذكره ابن عجيبة في تفسيره (٤/١٠٦).

قال الحسين: تجلى الحق لسره وكشف له أنوار كرامته، فلم يجد للبلاء الماء، قال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾ لفقدان ثواب البلاء والضر إذا صار البلاء لي وطنًا وعليَّ نعمة. وقال بعضهم: نال كل عضو منه البلاء إلا موضع النداء، فنادى الضر من الباقي منه على العافية لا عن مواضع البلاء؛ فقال: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾. أدرك بقية نفس فيك قد تَلَفْتَ قبل المات فهذا آخر الرَّمَقِ وَلَوْ مَضَى الْكُلُّ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ عَجَبًا وَإِنَّمَا عَجَبِي لِلْبَعْضِ كَيْفَ بَقِيَ سئل الجنيد عن قوله: ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ﴾، قال: عرفه فاقة السؤال ليمنَّ عليه بكرم النوال.

ثم أخبر الله سبحانه عن رفعه البلاء عن نبيه، وإجابة دعوته، وإخراجه من الضر بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ حقيقة هذه الآية أن الله عرف خوف أيوب من فرت مشاهدته ووصاله ووقوفه بأسراره في بلائه؛ فاستجاب دعوته، ورفع عنه مكائد قهره في ابتلائه، وغيره ربوبيته على عبوديته، فكاشفه جماله وجلاله بعد أن ألبسه لباس العافية، فارتفع الضر من جميع الوجوه، وبقي في شهود جماله؛ فصار إليه البلاء والعافية واحدًا.

قال بعضهم: استجاب دعاءه، وفتح عليه أبواب الرضا لئلا يعارض بعد ذلك في حال لا مستكشفًا للبلاء ولا متلذذًا به؛ لأن كليهما موضع العلل، والرجوع إلى النفس وتربيتها. قال الأستاذ: لم يقل: ارحمني بل حفظ آداب الخطاب؛ فقال: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ تسلية للمحبين الصابرين وتذكرة للمتعبدين.

قال الواسطي: موعظة للمطيعين عند نزول المحن بهم، وتعريضًا على الرضا، وحسن الدعاء من غير تصريح به بل إظهارًا للحال.

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَاَسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَّنْ نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ كان يونس عليه السلام في منزل الانبساط والعريضة؛ فغضب عليه إذا شغله بشريعته عنه، وعن مشاهدته وقربه

ووصاله، وظنَّ أنه في غضبه وعربدته لم يكن مأخوذاً به، ولم يكن محتجباً به، وكان محجوباً بسر واحد، وهو أن الانبساط حظ العارف والهيبه حظ الله فاختار حظه على حظه، وصار محجوباً عن محل الفناء فيه، ويمكن أنه كان مغاضباً على وجوده إذا كان موجوداً عند مشاهدة وجود الأزل كأنه غار على وحدانيته، ولم يطق أن يرى وجوده في وحدة القدم، فلما ابتلعه الحوت، صار تحت قهر القدم فانياً عن رؤية غيره الحق في رؤية الحق تقاضى سر سره مقام بقاءه وانبساطه فظن بسره أنه لا يخرج من درك الفناء، ولا يدرك في منازل الفناء درجة البقاء فكاشفه الحق نقاب السلطانية عن جمال القدم، وصار في معارج جمال أنس المشاهدة، فلما وجد البقاء في الفناء اعترف بعجزه، وقلة علمه بأسرار القدمية؛ فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٩٧) حين نازعت الربوبية بالربوبية علم أن الاتصال والاتحاد موضع المكر والخداع؛ فأسقط العلل، واعترف بالوحدانية الصرفة لأزلية الله تعالى.

قال الجنيد: مغاضباً على نفسه في ذهابه، فظنَّ أن لن يأخذه بغضبه وذهابه.

قال ذو النون: أخفى أيخدع به العبد الألفاف والمكرمات ورؤية الآيات؟^(١)

قال الجنيد في قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٩٧) أي: من الجاهلين إنك لا تقرب بطاعة، ولا تبعد بمعصية، وقد ظننت في زمان الصبا أن الله سبحانه أراد أن يهبي ليونس عليه السلام معراجاً، ومشاهدة في بطن الحوت فتعلل بالأمر والنهي، والمقصود منه القربة والمشاهدة فأراه الحق في أطباق الثرى في ظلمات بطن الحوت ما أرى محمداً ﷺ فوق العرش، فلما رأى الحق تحير في جلاله، وقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ﴾، نرمت نفسك عما ظننا فيك، فأنت بخلاف الظنون، وأوهام الحدثان، ﴿كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، في

(١) اعلم أن الآية هذه حكاية كلام يونس عليه السلام وهو في قعر البحر في بطن الحوت، فجعل كلامه معه تعالى من طريق الخطاب لا من طريق الغيبة؛ إذ لا غيبة بالنسبة إليه تعالى؛ فإنه هو المتجلى في كل شيء بحسبه؛ أي بحسب ذلك الشيء لا بحسبه تعالى، فإنه تعالى لا يسعه شيء إلا بالاعتبار، وبعض الوجوه، فيونس إنما خاطب الله المتجلى فيه. والحاصل أن خطاب يونس، وهو في تخوم الأرض؛ كخطاب نبينا ﷺ، وهو في المستوى، وذروة العرش حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك أنت؛ كما أثيت على نفسك»، فإذا كل من المقامات العلوية والسفلية؛ مقام الخطاب، والسماء على أنه لا سفل بالنسبة له إلى الله تعالى؛ ولذا شرع التسبيح والتكبير في انتقالات الصلاة؛ تقديساً له تعالى عن التقييد بمرتبة من المراتب الكونية بحسب قوله تعالى: ﴿قَدْ غَنِيَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فظهر من هذا التقرير: إن كلَّ من الخطاب، والغيبة، والتكلم؛ نسبة من نسب الكلام معتبرة بحسب المقام.

وصف جلالك إذ وصف لا يليق بعزة وحدانيتك فوق هذا القول منه موقع قول سيد المرسلين حيث قال: «لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

ولذلك قال عليه السلام: «لا تفضلوني على أخي يونس»^(٢)؛ فلما رأى ما رأى استطاب الموضوع، وظن أن لن يدرك ما أدرك في الدنيا بعد فغاب الحق عنه فاهتم ودعا بالنجاة فنجاه الله من وحشة بطن الحوت بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: من كان هذا حاله مع الله سبحانه ننجي به منه.

قال الجنيد: من همومهم وكروبهم بالإخلاص والصدق والافتقار والالتجاء، وحقيقة حسن الاعتراف وإظهار الاستسلام.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ حيث اختلج سري أن أريد غير ما أردت.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٣). قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ ما اختلج في سر الإرادة من صميم سر سري أن شيخ الأنبياء عليه السلام رأى ما ورد عليه من أنوار كبرياء الله وجلال عظمتة وعز سلطانه في مشاهدة ذاته فخاف من محل الاتحاد والاتصاف الذي يقتضي حلاوة شربة التفريد في دعوى الأنانية والربوبية فاستعاذ بالله أن يكون محتجباً به عنه، فقال: ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ حين أفردتني بفردانيتك، فإن ذلك على عارية تنصرف إلى القدم، والحدث ينصرف إلى الحدث.

ألا ترى كيف قال: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٤) ترث صفة بقائك بعد فنائي بغيرتك، وأيضاً ﴿لَا تَذَرْنِي﴾ في ﴿فَرْدًا﴾ عنك بك حتى لا أحتجب بك عن حقيقتك، وأيضاً كان سره يتحرك من جذب أسرار مقادير القدم التي تجذب سره إلى رؤية روح يحى في مكنن الغيب فافتقر إلى الله بالسؤال إدخال روحه في هيكله ليكون سحرًا في إفشاء أسرار ربوبيته.

قال جعفر: لا تجعلني ممن لا سبيل له إلى مناجاتك، والتزين بزينة خدمتك.

وقال أيضاً: فرداً عنك لا سبيل لي إليك.

وقال ابن عطاء: خالياً عن عصمتك، وقال الجنيد: خالياً عنك مشغلاً بشيء سواك.

(١) رواه مسلم (١١٩، ٧٥١، ٧٥٤)، وأبو داود (٥٤/٣)، والترمذي (٣٩٨/١١).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٣٣٣/١١).

وقال الواسطي: الفرد المعرض عن ذكر الله الغافل عنه.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۚ وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿١١﴾ وَالَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿١٣﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٤﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيدٍ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُوبٌ ﴿١٥﴾ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١٧﴾ وَقَاتَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا تَوَلَّوْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿١٩﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءِ إِلَٰهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٠﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ موضع النداء والدعاء في منازل العبودية مكان الخوف والرجاء والرغبة من جلال عظمته، والرغبة في وصول جماله وقربه، وبهاتين الصفتين صار العارف خاشعاً لله في طاعته ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿١١﴾﴾ فاني تحت أذبال عظمتي ورداء كبريائي.

قال الواسطي: أمر الله الأنبياء بالخشوع، وهو الوقوف بين الرغبة والرغبة، وحقيقته سكون يشير إلى الرضا، قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾.

وقال بعضهم: رغبة فينا ورغبة عما سوانا، وقيل: رغبة في لقائنا، ورغبة في الاحتجاب عنا.

قال أبو يزيد: الخشوع زمام الهيبة وخود القلب عن الدعاوى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ ۖ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۖ وَعَدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ وصف الله أهل الولاية والنبوة والرسالة الذين اصطفاهم في الأزل بحسن عنايته ومعرفة جلاله وجماله مشاهدة كماله ووصاله ووقاهم من عذاب الفرقة والحرمان عن انشاهدة بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ ﴿١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ هي في جنان الوصلة لا يحسون شواهد أهل العلة من البرية فظاهر حسن العناية السابقة منهم أربعة أشياء الانفراد من الكونين والرضا بقاء الله عن الدارين وإمضاء العيش مع الله بالحرمة والأدب فظهور أنوار قدرة الله منهم بالفراسات الصادقة والكرامات الظاهرة وباطن حسن العناية السابقة من الله في الأزل لهم أربعة أشياء: المواجد الساطعة، وانفتاح العلوم الغيبية، والمكاشفات القائمة، والمعارف الكاملة، وفي كل موضع ظهرت هذه الأشياء بالظاهر والباطن صار صاحبها مشهوراً في الآفاق بسماة الصديقين وعلامات المقربين وخلافه المرسلين.

قال الحسن بن الفضل: سبقت العناية، وظهرت الولاية.

وقال الجنيد: من سبق من الله إليه إحسان؛ فإنه لا يزال ينتقل في ميادين المحسنين إلى أن يبلغ إلى أعلى مراتب أهل الإحسان بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال الواسطي: أولئك قوم هداهم الله فهداهم بذاته وقدسهم بصفاته فسقط عنهم الشواهد والأعراض، ومطالعات الأعراض؛ فلا لهم إشارة في سرائرهم، ولا عبارة عن أماكنهم وحجبهم عن الاستقرار في المواطن؛ فلا لهم هم بأنفسهم، ولا هم حاضرون في حضورهم بحضورهم.

وقيل: الحسنى العناية السابقة، وهي خمسة أشياء: العناية، والاختيار، والهداية، والعطاء، والتوفيق، فبالعناية وقعت الكفاية وبالاختيار وقعت الرعاية، وبالهداية وقعت الولاية، وبالعطاء وقعت الخلعة، وبالتوفيق وقعت الاستقامة والحسنى هذه السوابق.

وقال الواسطي في قوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾: هم أهل الحقائق لا يحسون بضجيج أهل الدنيا؛ لأنهم مصدودون عنها بما ورد على سرائرهم من وهج الحقائق فهم مترددون في منازلهم لا يقطعهم عن ذلك قاطع لانغماسهم في بحور الحقيقة، ثم وصفهم الله بالأمن الدائم والحسن القائم بقوله: ﴿لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ كيف يلحقهم الفزع، وهم في مشاهدة جلال الحق مدهوشين والهين وأصلين إلى مناهم غير محجوبين عنه بشيء من الحدثان، والحق سبحانه يكون مرادهم يفعل كما يريدون.

قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ اشتهاؤهم في جمال الحق دوام المشاهدة بنعت الوصلة على السرمدية، وهذا اشتهاؤ قلوبهم واشتهاؤ عقولهم كشف العلوم من معدن الصفات، واشتهاؤ أرواحهم الاستغراق في بحار الذات، واشتهاؤ أسرارهم الفناء بنعت البقاء، والبقاء بنعت الفناء واشتهاؤ نفوسهم اللذة والخلوة والخطاب والحسن والجمال والإدراك بنعت التحصيل من القدم في لباس الحسن.

قال ابن عطاء: للقلب شهوة، وللأرواح شهوة، وللنفوس شهوة، وقد يجمع الله لهم في الجنة جميع ذلك، فشهوة الأرواح القرب، وشهوة القلوب المشاهدة، والرؤية وشهوة النفوس الالتذاذ بالراحة.

قال الجنيد في قوله: ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: اجتازوا عليها، ولم يحسوا بها وما عرفوها لصحة قصدهم إلى اللقاء، وللنزول في دار البقاء.

وقال الصادق: كيف يسمعون حسيسها، والنار تحمد لمطالعتهم وتلاشى برويتهم، قال النبي ﷺ: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جز يا مؤمن؛ فقد أطفأ نورك لهبي»^(١).

قيل في قوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: النفوس ثلاثة أشياء: أرواح وأشباح وقلوب، فشهوة الروح الوصلة وشهوة القلوب اللقاء، وشهوة النفوس الأكل والشرب والزينة، وكل مبذول له بقدر همته وحظه يوصل إلى مناه، وشهوته فيها خالداً مخلداً أبداً.

ثم وصف الله سبحانه جلال أهل قربه بحيث يحنيهم الملائكة السفارة الكرام البررة يدخلونهم حجال الوصال، وشهودهم مشاهدة الجمال بقوله: ﴿وَتَتَلَقَّوْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١٢) أي: هذا يوم الوصلة بلا فرقة، وهذا يوم المؤانسة بلا وحشة، وهذا يوم الراحة بلا محنة، وهذا يوم العافية بلا بلية، وهذا يوم كشف النقاب بلا حجاب، وهذا يوم الخطاب بلا عتاب، قيل: ميعاد أهل الجنة فيها الوصلة، وميعاد أهل النار فيها القطيعة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾^(١٣) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ^(١٤) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ^(١٥) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ

(١) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣٣٩/٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٢٠/٢٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٠/١).

مُسْلِمُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَم بَعِيدُ
مَا تُوعَدُونَ ﴿١٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ
الصَّالِحُونَ﴾ ﴿١٨﴾ كان في علم الأزلية أن أرض الجنان ميراث عباده الصالحين من الزهاد
والعباد والأبرار والأخيار؛ لأنهم أهل الأعراض والثواب والدرجات، وأن مشاهدة جلال
أزليته ميراث أهل معرفته ومحبته وشوقه وعشقه؛ لأنهم في مشاهد الربوبية، وأهل الجنة في
مشاهد العبودية.

قال سهل: أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح معناه: لا يصلح لي إلا ما كان لي
خالصاً لا يكون لغيري فيه أثر وهم الذين أصلحوا سريرتهم مع الله، وانقطعوا بالكلية عن
جميع ما دونه، ثم بيّن سبحانه أن كلامه الأزلي يبلغ الصديقين إلى معادنه من رؤية الصفات
والذات الأزلي بقوله: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ ﴿١٩﴾ مشاهدين جلالنا
وجمالنا بهمهم العلية، وقلوبهم الحاضرة وعقولهم الصافية وأرواحهم العاشقة، وأسرارهم
الطاهرة.

قال سهل: لم يجمع البلاغ لجميع عباده بل خصّ القوم العابدين، وهم الذين عبدوا
الله، وبذلوا له مهجتهم، لا من أجل عوض، ولا لأجل نار ولا جنة بل حُبّاً له وافتخاراً بما
أهلهم من عبادتهم إياه.

ثم وصف الله سبحانه حبيب محمد ﷺ بأنه أرسله رحمة إلى جميع خلقه بقوله: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ إنما الفهم أن الله سبحانه أخبرنا أن نور محمد ﷺ أول
ما خلقه في الأول من جميع خلقه، ثم خلق جميع الخلائق من العرش إلى الثرى من بعض
نوره، فأرساله من العدم إلى مشاهدة القدم رحمة لجميع الخلائق إذ الجميع صدر منه فكونه
كون الخلق ذكر أنه سبب وجود الخلق، وسبب رحمة الله على جميع الخلائق إذ هو سبب وجود
الجميع، فهو رحمة كافية؛ وافهم أن جميع الخلائق صورة مخلوقة مطروحة في فضاء القدرة بلا
روح حقيقية منتظمة لقدم محمد ﷺ؛ فإذا قدم في العالم صار العالم حياً بوجوده؛ لأنه روح
جميع الخلائق.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾، ويا عاقل إن من

(١) قال سيدنا الجيلي في كتاب «الكهف والرقيم» في شرح بسم الله الرحمن الرحيم ما نصه: الحقيقة المحمدية
خلق العالم بأسره منها لما ورد في حديث جابر أن الله تعالى خلق روح النبي ﷺ من ذاته وخلق العالم

العرش إلى الثرى لم يخرج من العدم إلا ناقصاً من حيث الوقوف على أسرار قدمه بنعت كمال المعرفة والعلم فصاروا عاجزين عن البلوغ إلى شط بحار الألوهية وسواحل قاموس الكبريائية فجاء محمد ﷺ يكسير أجساد العالم وروح أشباح العالمين بحقائق علوم الأزلية، وأوضح سبل الحق لهم بحيث يجعل سفر الآزال والآباد للجميع خطوة واحدة؛ فإذا قدم من الحضرة إلى سفر الغربية بلغهم جميعاً بخطوة من خطوات صحارى ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى﴾ حتى وصل إلى مقام «دنا» فغفر الحق لجميع الخلائق لمقدمه المبارك فالكافر والمؤمن والذئب والظبي والبازي والحمام والجنة والنار والدنيا والآخرة في حيز رحمته؛ لأنه كان رحمة أزلية أبدية قطرة من بحر رحمة الرحمن وغرفة غرفت من نهر الغفران.

قال أبو بكر بن طاهر: زين الله تعالى محمداً ﷺ بزيينة الرحمة فكان كونه رحمة ونظره إلى من نظر إليه رحمة، وسخطه ورضاء وتقريبه وتبعيده وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه من رحمته؛ فهو الناجي في الدارين عن كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢١) فكانت حياته رحمة ومماته رحمة كما قال النبي ﷺ: «حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم»^(١).

وقال ابن عطاء: رحمة الدارين لمن تبعك، وآمن بك، والرحمة العاجلة لمن لم يؤمن بك بتأخير العذاب عنه إلى العاقبة.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٢) وَإِنْ أَدْرَى
لَعَلَّهُ فِتْنَةً لِّكَزَّ وَامْتَنَعَ إِلَىٰ حِينٍ قُلْ ﴿٢٣﴾ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ
عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ ﴿٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ (٢٢) يعلم شكاية العارفين منه إليه بالفاظ مجهولة من مقام الأنس، ويعلم ما في ضمائرهم من حقائق إشارات الحقيقة من أوصاف القدس، يسليهم بهذا الخطاب أي: لا تجزعوا، فحان وقت الوصال، وكشف الجمال؛ فكيف يخفى عليه، وهو بمحبته أزعجهم إلى الحرية والانبساط.

قال الحسين: كيف يخفى على الحق من الخلق خافية، وهو الذي أودع الهياكل أوصافها من الخير والشر والنفع والضرر؟! فما يكتُمونه أظهر عنده مما يبدوونه وما يبدوونه مثل ما

بأسره من روح محمد ﷺ فمحمد ﷺ هو الظاهر بالمظاهر الإلهية، ألا ترى إليه ﷺ كيف سري بجسمه إلى فوق العرش وهو مستوي الرحمن، انتهى.

(١) رواه البزار في مسنده (٣٠٨/٥)، والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (١٧٤/٤) بنحوه.

يكتُمونه جل الحق أن يخفي عليه خافية من عباده مُحال، والله أعلم.

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا
تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ
سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبُّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ إن الله سبحانه
نادى نداء الوعيد للناسين عهد الأزل، ومشاهدة الأبد أي: أين أنتم أيها الغافلون عن بروز
جلال عظمتي من حجاب الغيب في صحاري القيمة اتقوا عن عذاب فرقتي لكي تصلوا إلى
جلال وصلتي؛ فإن الأكوان والحدثان تزلزل عند ظهور أنوار كبريائي وسلطان بهائي فحقيقة
التقوى الخروج مما دون الله بالله.

قال بعضهم: التقوى ألا يستغفر لك شيء دون مولاك، وهو الحرية، وكل من طلب
الجزاء لم يكن متقيًا، وإن كان وعد له عليه.

ثم وصف أهل شهود سطوات العظمة والكبرياء بالوله والهيان والسكر والهيجان
بقوله: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ يولهون في رؤية العظمة وجلال الهيبة،
ويهيمنون في أودية أنوار الكبرياء والسلطنة.

قال جعفر: أسكرهم ما شاهدوا من بساط العز وبساط الجبروت وسرادق الكبرياء
حتى ألبأ النبيين إلى أن قالوا: نفسي نفسي.

وقال الأستاذ: فمنهم من سكره سكر الشراب، ومنهم من سكره سكر المحاب،
وشتان بين سكر وسكر، سكرهم سكر أهل الغفلة، وسكرهم سكر أهل الوصلة، وإن
سألني من سكر أصحاب الوقائع في كواشف القدوسية، وبروز أنوار السبوحية في مشاهد
القيمة فسكر الأعداء من رؤية القهريات، وسكر الموافقين من رؤية بدائع الأفعال، وسكر
المريدين من لمعات الأنوار، وسكر المحبين من كشوف الأسرار، وسكر المشتاقين من ظهور
سنا الصفات، وسكر العاشقين من مكاشفة الذات، وسكر المقربين من الهيبة والجلال،
وسكر العارفين من الدخول في حِجال الوصال، وسكر الموحدين من استغراقهم في بحار
الأولية، وسكر الأنبياء والمرسلين من اطلاعهم على أسرار سر الأزلية، فبعض السكارى واله

في العظمة، وبعض السكارى تائه في العزة، وبعض السكارى غائب في الجمال، وبعض السكارى فاني في الجمال، وبعض السكارى صاح في البقاء، وبعض السكارى مضمحل في الكبرياء، وبعض السكارى سكره من حلاوة الخطاب، وبعض السكارى سكره من الانبساط، وبعض السكارى سكره من العتاب، وبعض السكارى سكره من كشف النقاب، وبعض السكارى سكره من رؤية القدم في مرآة الالتباس، وبعض السكارى سكره من وقوعه في صرف شهود الأزل، فهؤلاء السكارى في منازلهم، سكرهم مقادير مواردهم في شهود القرب، وقرب القرب؛ فمن كان سكره بغيره فهو غير سكران إنما هو مخبط حاله من رؤية الأحوال، ومن كان سكره به فسكره من شراب الوصال، فسكري هناك من سكري هاهنا به لا بها منه شرابي من رؤية صرف كنه القدم وغيري من العباد والزهاد سكرهم من مشارب الكرم.

أَلَمْ بَنَّا طَيْفٌ يَجِلُّ عَنِ الْوَصْفِ وفي طرفه خمراً وخمرٌ على الكف
فَأَسْكُرَ أَصْحَابِي بِخَمْرٍ كَفِهِ وأسكروني والله من خمرة الطرف

وقال الحسين: أسكرهم رؤية الجلال، ومشاهدة الجمال.

قال الحريري: ما أسكرهم إلا الهية والإجلال^(١).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ۖ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هؤلاء الناس أهل الخيال من المشبهة والمعتزلة وأمثالهم من الذين جادلوا في الله بالقياس والخيال المحال.

قال سهل: يخاصم في الدين بالهوى والقياس من دون الاقتداء، فعند ذلك يضل ويتدع.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا

(١) قد روي أن الشبلي قال: شربت بالكأس التي شرب بها الحلاج فصحوت وسكر الحلاج، فبلغ ذلك الحلاج فقال: لو شرب بالكأس التي شربت بها لسكرت، فبلغ الجنيد أمرهما فقال: نقبل قول الصاحي على السكران، فرجع حال الشبلي على حال الحلاج.

ولذلك قالوا: أكثر الشطح يكون من سُكر الحال وغلبة سلطان الحقيقة، فمن ثم من تم صحوه وخلص عن بقية السكر ونزلت في قلبه السكينة ستر الحقيقة بالعلم، ووقف على حد العبودية، فاعلم ذلك فإنه عزيز علمه، إذ تنكشف به الالتباسات التي لم تزل خفية على أكثر أرباب القلوب.

نَشَأَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِجٍ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَتَّبِعُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٨﴾ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٩﴾ ثَانِي عِطْفِهِمْ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١١﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾
أرذل العمر أيام المجاهدة بعد المشاهدة، وأيام الفترة بعد المواصلة لكيلا يعلم بعد علم بما جرى عليه من الأحوال الشريفة والمقامات الرفيعة، وهذا غير الحق على دعوى المتحققين حين أفشوا أسرارهم بالدعاوى الكثيرة، أستعيد بالله من ذلك، وأستزيد منه فضله وكرمه ليخلصنا به من فتنة النفس وعثرتها، ويمكن أن ذلك يتعلق بالسير في عالم النكرات حين اختلطت بحار حقائق الربوبية في قلب العارف الصادق، فيستغرق في لجج نكرات امتناع الأحدية عن إدراك الخليقة، فيضمحل ما علم فيها لم يعلم من معرفة الذات والصفات فتحت نكراته معارف الألوهية، وتحت انعارف نكرات غير الأزل فإذا خرج من الفناء في النكرة عن النكرة إلى مقام الصحو في المعرفة فيطلع على أسرار النكرة بأسرار المعرفة، كما قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى﴾
يحييهم بالمعرفة بعد موتهم في النكرة، وبحياة المشاهدة بعد موت الفرقة، ولذلك ضرب الله مثلاً في هاتين الحالتين كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ .

وهذا ما وافق قول الواسطي في ذلك، قال: اندرج ما علم منه بما بسط له وفتح عليه وضرب له مثلاً ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: ساكنة عن النبات حافية عن الخضر ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ أي: ظهرت عليه وردت ورويت ونمت، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾ [فصلت: ٣٩] بالنعوت ﴿لَمُخَيِّ الْمَوْتَى﴾ بالعلوم في الدنيا وبالأرواح في الآخرة.

وقال الأستاذ: أرذل العمر زمان الفترة بعد المجاهدة، وحال الحجة عقب المشاهدة،

ويقال: السعي للحظوظ بعد القيام بالحقوق، ويقال: العشرة مع الأضداد.

ويقال: يحيى النفوس بتوفيق العبادة، ويحيى القلوب بأنوار المشاهدة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۚ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۚ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١٤ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۝١٥ يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ ۚ لَيْفَسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْفَسَ الْعَشِيرُ ۝١٦ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝١٧ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ۝١٨ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَتَذَكَّرُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُهْدِي مَن يُرِيدُ ۝١٩ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على طمع وهوى ورؤية عرض وطمع كرامات ومحمدة الخلق، وقيل: الدنيا وإذا أصابته أمانيه سكر في العبادة وإذا لم يجد شيئاً منها ترك التحلي بحلية الأولياء، قال تعالى في وصفه: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۚ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۚ﴾

ثم بيّن حاله في الدنيا والآخرة بقوله: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ خسارته في الدنيا فقدان القبول والجاه عند الخلق، وافتضاحه عندهم وسقوطه من طريق السنة والعبادة إلى الضلالة والبدعة، وخسارته في الآخرة بقاءه في الحجاب عن مشاهدة الحق واحتراقه بنيران البعد.

قال الواسطي: ﴿يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ على رهن التجنب واطمأن إليه.

قال بعضهم: على طمع أن يرى ثواب عمله أو يجازي على قدر أعماله.

وقال بعضهم: الخسران في الدنيا ترك الطاعات، ولزوم المخالفات، والخسران في الآخرة كثرة الخصوم والتبعات.

وقالت رابعة في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: كيف يكون ما

منك إليه عوضاً لما منه إليك، وما عنك إليه لا يكون إلا بما منه إليك؟!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٣٨﴾﴾ • هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٣٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿١٤٠﴾ وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿١٤١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٤٢﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ من أهانه الله في الأزل بقهره لا يكون عزيزاً لعمله ولا بعزة غيره عزيز إذ العز كله لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وقال: من قَدَّر الله عليه الإهانة في السبق لا يقدر أحد على كرامته؛ لأن لباس الحق لا يزول ولا يحول، وهو على الدوام.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ يدخل العارفين الذين لهم صلاحية مشاهدته واستعداد قبول معرفته إلى جنان قربه ووصاله، قيل: هم الذين صدقوا الله في السر، واتبعوا سنة محمد ﷺ فلم يتدعوا بحال.

﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿١٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ وصف من دخل جنات المشاهدة، ورتعوا رياض المكاشفة عرفوا طيب الخطاب في مقام المداناة والمناجاة، وكوشف لهم أنوار سبل الذات والصفات طيب الله ألسنتهم وتلوهم بطيب ذكره وهداهم إلى سبل معرفته.

قال ابن عطاء: الطيب من القول هو ذكر الله.

وقال جعفر: هو الأمر بالمعروف.

وقيل: هو نصيحة المسلمين، وقيل: هو قراءة القرآن.

قال الأستاذ: الطيب من القول ما صدر عن قلب خالص وسر صافٍ مما رضي به

علوم التوحيد الذي لا اعتراض عليه للأصول، ويقال: الصراط الحميد: ما كان طريق الاتباع دون الابتداع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَبْكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدَقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ٥٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءً الْعَبْكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ﴾ داره دار كرامته ومنزل أضياف المعرفة إذا كشف من بيته ما فيه من آياته الكبرى يصل بركتها إلى المقيم والمسافر وحضرته القديمة منازل المقيمين فيها بالأرواح من العارفين والمشاهدين والطيارين من حاثم أسرار الواصلين، فالمقيم بقلبه هناك من أول عمره إلى آخر عمره والطارئ عليها لحظة من المكاشفين والمشاهدين ينكشف له ما ينكشف للمقيمين؛ لأنه وهاب كريم يعطي للتائب من المعاصي ما يعطي المطيع المقيم في طاعته طول عمره.

قال محمد بن علي الترمذي: الفتوة أن يستوي عندك الطارئ والمقيم، وكذا يكون بيوت الفتيان من ترك فيها؛ فقد تحرم بأعظم حرمة وأجل ذريعة، ألا ترى الله تعالى ذكره كيف وصف بيته ﴿سَوَاءً الْعَبْكُفُ فِيهِ وَالْبَادُ﴾.

قال الأستاذ: بمشهد الكرام يستوي فيه الأقدام؛ فمن وصل إلى تلك العقوة^(١) فلا ترتيب ولا رد، وبعد الوصول فلا زجر ولا صد^(٢).

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٥٣٦﴾ وَأَذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٥٣٧﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ هذا لخليله وجميع أحبائه بيته ودله إلى ما فيه من الآيات والكرامات، وما ألبسه من أنوار حضرته ليكون وسيلة لعبادته ومرآة لأنوار آياته، وأمره ألا يطلب في طلبه شيئاً من غيره في طاعته من الجنة وما فيها وجعل بيته مثلاً لبيته الخاص الذي هو قلب العارف في هذا الظاهر الآيات وفي بيت الباطن أنوار الصفات ومشاهدة الذات؛ فأمره أن يطهر بيت الظاهر والباطن من خطرات

(١) أي: تلك الخيرية.

(٢) انظر: تفسير القشيري (٥/ ١٨٥).

النفسانية وخطرات الشيطانية بقوله: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ الطائفون: عساكر أنوار تجلي الحق وزوار وارد الغيب، والقائمون: أنوار المعرفة والتوحيد، والركع السجود: أنوار الإيمان والإسلام، وأيضا الطائفون: ملائكة الإلهام، والقائمون: الأرواح، والركع السجود: العقول أي: طهر قلبك عن ذكر ما سواي حتى لا يشوش هؤلاء في قرار أنوار صفاتي وذاتي.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ ﴾: وفقناه لبناء البيت، وأعناه عليه، وجعلناه منسكا له، ولمن بعده من الأولياء والصديقين إلى يوم القيامة، وبيناء فيه آثاره، وأمرنا الخليل عند بنائه ألا يرى فعله وبناءه، ولا يشرك بنا في ذلك شيئا.

قال بعضهم: في قوله: ﴿ طَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾: وهو قلبك، ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾: وهي زوائد التوفيق، ﴿ الْقَائِمِينَ ﴾: وهي أنوار الإيمان، ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾: الخوف والرجاء. قال جعفر بن محمد: ﴿ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾: طهر نفسك عن مخالفة المخالفين والاختلاط بغير الحق، ﴿ الْقَائِمِينَ ﴾: هم فؤاد العارفين المقيمون معه على بساط الأنس والخدمة، ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾: الأئمة السادة الذين رجعوا إلى البدايات عن تناهي النهاية.

قال سهل: كما طهر البيت من الأصنام والأوثان وطهر القلب من الشرك والريب والغل والغش والقسوة والحسد، ولما استقام الخليل في تجريد التوحيد أمره الحق بأن يدعو بلسان الخلد زوار الحضرة من أماكن الغيبية ومكامن العدمية بقوله: ﴿ وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ دعاهم بلسان الحق لذلك أجابوه بالتلبية بقولهم: «ليكن اللهم ليكن»، وتلك الإجابة من الأرواح القدسية من معادنها من الغيب عشقا ومحبة، وهذه المعاني تدل على كون الأرواح قبل الأشباح يأتون مقام خلقتك المحبين المفردين من غيرنا المتجردين من أنفسهم في زيارتنا ﴿ وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ نفوس مهزولة بالمجاهدات، ﴿ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ من كل طريق بعيد من الأوهام؛ لأنهم في طرف الأسرار ونوادير الأنوار يأتونك من مقام المشاهدة إلى مقام المتابعة إظهارا للعبودية بعد كونهم في مشاهدة الربوبية.

قال ابن عطاء: رجلا استصلحناهم للوفود إلينا، وليس كل أحد يصلح أن يكون وفدا على سيده، والذي يصلح للوفادة هو اللبيب في أفعاله، والكيس في أخلاقه، والعارف بما يفديه، وبما يرد ويصدر.

ثم ذكر سبحانه علة الدعوة، وبناء الكعبة بقوله: ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ أي:

ليشهدوا بأرواحهم مشاهد قرنا ومشاهدتنا، وما أعدنا لهم من علو المقامات وسني الدرجات.

قال ابن عطاء: ما وعدوا من أنفسهم لربهم، وما وعده الله لهم من القرية.

قال جعفر: ليشهدوا الذي بيني وبينهم.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَابِ السَّائِسِ الْفَقِيرِ ﴿١٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَابِ السَّائِسِ الْفَقِيرِ﴾ أمرهم بالتواضع في مؤاكلة الفقراء والمساكين أهل بؤس المجاهدات، والافتقار إلى المشاهدات أي: أطعموهم من أطيب ما تأكلون، ولا تؤثروا أنفسكم عليهم؛ فإنهم لا يأكلون طعام البخلاء والمؤثرين هواهم على مرادنا، وفيه إشارة إلى أهل روح وصال المشاهدة والمكاشفة أن يخبروا طلاب المعرفة والمحبة بما كوشف لهم من أحكام الملكوت، وغيب الجبروت.

قال أبو عثمان: أدب أدب الله به عباده ألا يطعموا الفقراء إلا بما كانوا يأكلون، ولا يجعلوا الله ما يكرهون هو أن تشاركوهم في مأكلاتهم وملابسهم ومشاربهم لقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا﴾.

وقال ابن عطاء: البائس الذي تأنف من مجالسته ومؤاكلته، والفقير من تعلم حاجته إلى طعامك، وإن لم يسأل.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٢٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۚ فَإِنَّهُمْ كَرِهُوا إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۚ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ الْمُقِيمِ الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢٥﴾ وَالْبُذُرَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا

صَوَافٌ فَإِذَا وَجِبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُّوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ حرمة مقام الاتصاف والاتحاد؛ فمن اتصف بصفاته، وتوحد بتوحيده ذاته يقع في بحر الربوبية، ويستغرق في لجج الديمومية، وينكشف له أسرار السرمدية والأزلية، ويسكر بشربات وشراب المشاهدة، ويقتضي هذه أحوال له دعوى الأنانية من حلاوة مباشرة أنوار الأزلية بنعت التجلي والوصلة؛ فمن كان هناك محفوظاً بقي على نعت العبودية، ولا يخفى على حرمة الحقيقة؛ فهو خير له بأن يزيد حاله من الله سبحانه، ويكون إماماً في الصحو والتمكين مثل الخلفاء والنجباء يقتدي به سلاك الطريقة وملوك الحقيقة، ومن خرج برسوم أهل السكر، ويدع الأنانية يكون محترقاً بنيران الغيرة، مصلوباً على باب الهيبة والكبرياء والسلطنة، وأيضاً من شاهد مشاهدة الحق بنعت الانفراد عن الحدثان خالصاً عن الجنان متبرئاً من حظوظه التي يطمع فيها عند مشاهدة الرحمن، فهو من أهل الحرمة في القربة، ومن كان حبه لحظه؛ فهو غير محترم في مقام الحرمة، يا غافل الحرمة في العبودية تقتضي قرب الربوبية والحرمة في الربوبية يسقط علل الحدوثية.

قال الواسطي: من تعظيم حرمة الله ألا تلاحظ شيئاً من كونه، ولا من طوارق محنته، ولا تلاحظ خليلاً ولا كلياً ولا حياً، مادام تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً.

وقال فارس: حرمة الله صفاته، ومن تهاون بحرمة الأمر والنهي؛ فقد تهاون بالذات، وهو نفس النفاق.

قال ابن عطاء: الحرمة ثلاثة أوجه؛ أولها: القطع من الموافقة، ثم القطع من لذة المشاهدة، وقال بعضهم: رؤية الأفعال وطالب الأعواض.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك مقام حرمة، وبين أن من عظم أمره؛ فقد عظم جلاله وعظمته بقوله: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَهُ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿٥٤﴾ بين أن تعظيم الله تعظيم شعائره يصدر من قلوب المتقين الذين هم في مشاهدة عظمة الله وجلاله وكبريائه في احتشامه وهيئته، وتقوى القلوب هو الاجتناب عن سوء الأدب في العبودية والتجمل والحياة في مشاهدة الربوبية.

قال سهل: تقوى القلوب هو ترك الذنوب، وكل شيء يقع عليه اسم الذم.

قال الجنيد: من تعظيم شعائر الله التوكل والتفويض والتسليم؛ فإنها من شعائر الحق في أسرار أوليائه، فإذا عظمت حرمة زين الله ظاهره بفنون الآداب.

ثم وصفهم بالإخبات والتواضع والخشوع والخشوع في عظمتهم وجلاله وكبريائه وبشرهم بدوام وصاله بقوله: ﴿وَنَشِيرَ الْمُخَبِتِينَ﴾، ومن أوصاف المخبتين الفناء في العظمة والحياء في رؤية الكبرياء والخجل في مشاهدة الربوبية، والتواضع في العبودية، وكتمان الأسرار والبكاء في الخفية والسكون في الخلوة، ومراقبة الله بنعت الهيبة.

قال ابن عطاء المخبت هو الذي امتلأ قلبه من المحبة، وقصر طرفه عما دونه كما أن الفريق شغله نفسه عن كل شيء سوى نفسه كذلك المخبت لشغله مولاه عن كل شيء سواه.

وقال جعفر: ﴿وَنَشِيرَ الْمُخَبِتِينَ﴾: من أطاعني ثم خافني في طاعته، وتواضع لأجلي، وبشر من اضطرب قلبه شوقاً إلى لقائي، وبشر من ذكرني بالنزول في جواربي، وبشر من دمعت عيناه خوفاً فيحفظوا بشرهم «إن رحمتي سبقت غضبي»^(١).

ثم زاد سبحانه في وصفهم بوجل القلوب من معاينة أنوار الغيوب، والصبر في المجاهدات، وتطهير أنفسهم من الذنوب بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إذا سمعوا خطاب الله من الله، والله من غير الله، وجلت قلوبهم من رؤية عظمة الله، والشوق إلى لقاء الله، وغلبان محبة مشاهدة الله وقع السماع لهم على آذان أرواحهم المطربة من روح أنس الله العاشقة جمال قدس الله؛ فتضطرب بين الأنس والقدس بنعت المحبة والشوق وتطير بجناح المعرفة إلى سرادق كبرياء المعروف؛ فيسكن هناك وجلها، واضطرابها فتسمع من الله خطابه، وتطمئن بجماله، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]؛ فإذا سمع الذكر من غيره اقتضى الوجل، وإذا سمع من الله اقتضى السكون والطمأنينة ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ الذين وصفهم الوجل والإخبات صبروا تحت موارد أنوار مشاهدته إذا أتت عليهم طوارقها بأثقال الربوبية لا يجزعون ولا يتحركون حتى يفنوا في كبريائه ويبقوا في بقائه.

قال ابن عطاء: هل رأيت ذلك الوجل عند سماع الذكر أو عند سماع كتابه أو خطابه أو هل أخرسك الذكر حتى لا تنطق إلا به، وأصمك حتى لم تسمع إلا منه هيهات هيهات.

قال الواسطي: الوجل على مقدار المطالعة ربها يريه مواضع السطوة وربها يريه مواضع المودة والمحبة.

وقال أبو علي الجوزجاني: في قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾: التاركى الجزع عند حلول النوائب والمصائب.

(١) رواه البخاري (٦٩٦٨)، ومسلم (٢٧٥١).

قوله تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ﴾ فيه إشارة إلى ذبح النفس بالمجاهدات وزمها بالرياضات عن المخالفات وفداء الوجود للمشاهدات حتى لا يبقى للعارف في طريقه حظ من حظوظه، وبقي الله مفرداً من جميع الخلائق.

قال الوراق: الحكمة في «البدن»، وما ذكر الله من شعائره فيه وحصول الخيرية هو تطهير بدنك من جميع البدع والمخالفات وقتلها بسيوف الخوف والخشية، وأن تجعل التقوى شعارها، والرضا دثارها؛ فإذا فعلت ذلك كان لك فيه أوائل الخيرات، وهو أن يفتح لك السبيل إلى الله، وينور قلبك بنور اليقين، ويظهر سرك عن طلب شيء سوى الله.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَنَبِّئِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿١٣٨﴾ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿١٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوَامِعُ وَبِيعَ صَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿١٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِىٰ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ مُّشِيدٌ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ الإشارة فيه أن جميع الأعمال الصالحة من العرش إلى الثرى لا يلحق الحق نحو المراد منه، ولكن يصل إليه قلب، جريح من محبته ذبيح بسيف شوقه، مطروح على باب عشقه.

قال سهل في قوله: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى﴾: هو التبري والإخلاص.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَتَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ

﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ ﴿١٥﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٦﴾ فَأَلْذِيقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلِئِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ﴿١٦﴾ الجهال يرون الأشياء بأبصار الظاهر وقلوبهم محجوبة عن رؤية حقائق الأشياء التي هي تلمع منها أنوار الذات والصفات، أعماهم الله بغشاوة الغفلة وغطاء الشهوة.

قال سهل: اليسير من نور بصر القلوب يغلب الهوى والشهوة؛ فإذا عمى بصر القلب عما فيه غلبت الشهوة، وتواترت الغفلة، فعند ذلك يصير البدن متخبطاً في المعاصي غير منقاد للحق بحال.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٩﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ ﴿١٩﴾ إن الشيطان خلق لابتلاء الأنبياء والأولياء فيلقي كل وقت بين ذكركم وتلاوتهم وسأوسه مخيلة، فيحترق في نور أذكارتهم، ويتخسأ من صولة أنوارهم وأسرارهم، وذلك من الحق إظهار كرامتهم ومعجزتهم، وحقيقة الحكمة فيه إلقاء الخجل عليهم في مقام المناجاة^(١)؛

(١) قال المصنف: وهذا الملعون لم يخل أحد من شره حتى نبينا ﷺ فربما يعترضه ويؤذيه، وذلك أنه ﷺ كنز الله في الأرض، والملعون السارق يحوم حول ذلك الكنز؛ ليسرق منه شيئاً، ألا ترى كيف حكى الله سبحانه وتعالى مما ألقاه في صلاته، قال: ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾. قال الحسين بن علي - رضي الله عنهما -: «نُبِّئتُ أَنَّ جَبْرِيلَ ﷺ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، وَقَالَ: إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ يَكِيدُكَ، فَإِذَا آوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ». وقال أبو أمامة، قال رسول الله ﷺ: «وَكُلُّ بَالِغٍ مِّنْ مِّائَةِ وَسْتُونَ مَلَكًا يَذُبُّ عَنْهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ، مِنْ ذَلِكَ الْبَصَرُ سَبْعَةَ أَمْلَاقٍ يَذُبُّونَ عَنْهُ كَمَا يَذُبُّونَ عَنْ قِصْعَةِ الْعَسَلِ الذَّبَابُ فِي الْيَوْمِ الصَّائِفِ». وما لو بدا لكم لرأيتموه على كل سهل وجبل كلهم باسط يده فاغر فاه، وما لو وكل العبد إلى نفسه طرفة عين لا تختطفه الشياطين، وهذا من كمال فضل الله حرس عبده بمعقباته من الملائكة المقربين من العوارض والحوادث كلما يلقي الشيطان إليه ألقى يريه الملك شيئاً من أحكام الآخرة، ويحدث معه بشيء من الخيرات ما يدفع به شر عدوه، وربما يقذف الحق نوراً من غيبه على قلبه يرى به مكائد العدو،

ألا ترى كيف شكّا عنه موسى حين عارضه الملعون بقوله ما سمعت؛ فهو كلامي فكاد موسى أن يذوب من هيبة الله وحياته حتى أوصله الحق إلى أماكن الطاف حفظه، ورعايته وخلصه من كيد عدوه.

قال سهل: من قرأه، وهو يلاحظ الحق؛ فإنه يكون بريئاً مصوناً من إلقاء الشيطان، ومن قرأه، وهو يلاحظ نفسه أو يشاهد الخلق؛ فإن ذلك محل إلقاء الشيطان.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: القرآن كلامه الحق ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ المعرفة بالله تورث الفناء في الله؛ فصارت قلوب العارفين بالله مغبتين لأمر الله. قال الواسطي: إن الربوبية إذا تجلت على السرائر عمت آثارها، وعت رسومها وتركبتها خراباً.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ تَحَكُّمٌ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٢٦﴾ لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ بَرٍّ وَخَيْرٍ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ تَحَكُّمٌ بَيْنَهُمْ﴾ ملك الجمال والجلال وكشف اللقاء للعارفين والعاشقين لله يومئذ يواسي قلوبهم بإعطائه إياهم مأمولهم؛ فإذا برز أنوار سلطنة كبريائه اضمحل فيها الظنون والخواطر والرسوم والأعلام.

قال ابن عطاء: الملك على دوام الأوقات، وجميع الأحوال له، ولكن يكشف للعوام الملك يومئذ لإبداء القهارية والجبارية؛ فلا يقدر أن يجحد ما عاين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ﴾ الذين هاجروا مما دون الله، وقتلوا بسيف محبة الله، وماتوا من غلبة شوق الله تحت أثقال رؤية عظمة الله ليرزقنهم الله رزق مشاهدته، ودوام وصلته على السرمدية، ويحييهم بروحه إلى أبد الآبدين، وملك الحياة والأرزاق غير مقطوعة ولا ممنوعة.

قال الجريري: هو تصحيح التوجه بالفردانية، ومعانقة التجريد بالسمع والطاعة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ إذا ظهر الحق بنعت الحقيقة للعارفين اضمحلت في قلوبهم الحوادث، وسقط عنهم علل الأكوان.

قال ابن عطاء: هو الحق فحقق حقيقته في شرك ولا ترجع منه إلى غيره؛ فإن ما سواه باطل.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلَّكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أنزل مياه تجلي الصفات من بحار الذات على صحارى قلوب الصديقين فتصبح أرضها بصبح صفات مشاهدته مخضرة بأنوار ورد المكاشفات ونور المحبة والشوق والعشق، ورياحين الزلفات وشقائق المودة، ونرجس المداناة، وتنبت فيها رياحين المعارف بزال الكواشف.

قال بعضهم: أنزل مياه الرحمة من سحاب القربة وفتح إلى قلوب عباده عيوناً من ماء الرحمة، فأنبت المعرفة فاخضرت القلوب بزينة المعرفة؛ فأثمرت الإيثار وأبنت التوحيد، وأضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها، واشتأقت إلى ربها، وطارت بهمتها فأناخت بين يديه وعكفت عليه، وأقبلت عليه وانقطعت عن الأكوان أجمع إذ ذاك أواها الحق إليه، وفتح لها خزائن أنواره، وأطلق لها التنزه في بساتين الأنس ورياض الشوق والقدس.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ۝﴾
 لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْتَرَعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأَذَعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ
 لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ اللَّهُ
 يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
 مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ وَيَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
 نَصِيرٍ ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، ﴿أَحْيَاكُمْ﴾
 بمشاهدته، ﴿يُمِيتُكُمْ﴾ يفنيكم في سطوات عظمته، ثم ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ بروح بقاءه حتى تبقوا
 ببقاء مع بقاءه أبداً.

قال الجنيد: أحياكم بمعرفته، ثم يميتكم بأوقات الغفلة والفترة، ثم يحييكم بال جذب
 بعد الفترة، ثم يقطعكم عن الجملة فيوصلكم إليه، حقيقة إن الإنسان لكفور يعد ما له،
 وينسى ما عليه.

﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِئْسَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ
 يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مَنِ
 ذِكُرْتُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِئْسَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 الْمُنْكَرَ﴾ إن الله سبحانه يبين أن شواهد الملك والملكوت كلها منتظر خطاب الأزل لتسمع
 بأسماع شائقة إلى معاني الصفات، وأهل الأرواح القدسية ينتظرون بسماع الغيب ليستمعوه
 بأسماع غيبية ويعقلوه بعقول ملكوتية؛ فإذا خاطبهم الحق بلسان السفيرة؛ تنجذب أسرارهم
 وأسرار جميع الخليقة إلى منازل وقوع الخطاب فيقع نوره الرحاني عليها، فصارت موقع
 الخطاب منورة بنور الصفة، وذلك النور يظهر بنعت الاستبشار في وجوه العارفين لنظار
 الملكوت، ويتشع نور الأكوان بجميع ذراتها من نور الخطاب.

وأهل الغباوة والجهل المبعدون من ساحة كبرياء الأزل بقوا في ظلمات الجهالة، وغبار
 القهريات تحت غشاء الضلالة فأسماعهم محجوبة بعوارض الامتحان عن سماع القرآن،

وشواهد أسرارهم من ظلمة الإنكار تظهر عن سواد وجوههم عند سماع الخطاب، يعرفها كل بصير بالله، ومن كمال شقاوتهم لا يعرفون أصلاً من أصل، ونوراً من نور، وجلالاً من جلال، وقدمًا من قدم، وأزلاً من أزل الذي مصادره أوجدتهم يا ليتهم يعرفون مصادر القهريات التي نقضتهم إلى ميادين الغفلة؛ فإنهم لو يبصرون معادن فطرتهم لا يخالفون ما يصدر من معادن اللطفيات، فإن جميع المصادر الأزلية واحدة من جميع الوجوه.

قال أبو بكر بن طاهر: يتبين في شواهد المعرضين عنا آثار الوحشة وظلمة المخالفة؛ لأن الظواهر إنما أشرقت بالسرائر، والسرائر أشرقت بأنوار الحق؛ فمن كان سره في ظلمة وإنكار كيف يلوح آثار الأنوار على شاهده، وكل شاهد، شاهد الأعراض والأكوان هو في ظلمة حتى شاهد الحق، ولا يشاهد معه غيره إذ ذاك يلوح عليه أنوار مشاهدة الحق، قال الله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٧﴾ اللَّهُ يَصْطَلِفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ بين الله سبحانه ذل الخليقة تحت قهر سلطانه وعظمة كبرياء قدمه لئلا يقبل على معدن الضعف، وذل من يطلب العز السرمدي؛ فإن الخليقة ممنوعة عن قوة قادية أحدية، وكيف يكون لها مشيئة وقدرة وجميعها في قبضة الجبروت عاجزة أسيرة لعزته، وجلاله، دعا الخلق بنعت الإقبال إليه بلسان الغيرة عن الإقبال على معادن الحديث ليكونوا عارفين بعز الربوبية وذل الخليقة.

قال ابن عطاء: دلهم بهذا على مقاديرهم؛ فمن كان أشد هيبة، وأعظم ملكاً لا يمكنه الاحتراز من أهون الخلق وأضعفه؛ ليعلم بذلك عجزه وضعفه وعبوديته وذلته، ولا يفتخر على أبناء جنسه من بني آدم بما يملكه من الدنيا.

قال أبو بكر بن طاهر: «ضعف الطالب» أن يدركه، والمطلوب أن يفوته.

ثم بين سبحانه بعد ذكره عجز الخلق والخليقة جلال قدرة الذي لا يعرفه غيره بقوله:

﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أزال المخائيل والأوهام والعقول عن إدراك جلاله وقدره، وهذا شكاية الله عن إشارة الخلق إليه بما هو غير موصوف به ذكر غيرته إذا أقبلوا إلى غير من هو موصوف بالقوة الأزلية والعزة السرمدية، ألا ترى كيف قال الله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾.

قال الواسطي: لا يعرف قدر الحق إلا الحق، وكيف يقدر قدره أحد وقد عجز عن معرفة قدر الوسائط والرسل والأولياء والصديقين، ومعرفة قدرة ألا تلتفت عنه إلى غيره، ولا تغفل عن ذكره، ولا تفتر عن طاعته إذ ذاك عرفت ظاهر قدره، وأما حقيقة قدره فلا يقدر قدرها إلا هو.

ثم بين سبحانه أنه اصطفى من الملائكة، ومن الناس رسلاً يخبرون عنه ما يتعلق بعجز الخلق عن إدراكه من وصف ذاته وصفاته بقوله: ﴿ اللَّهُ يَصْطَلِفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ ﴾، الملائكة وسائط الأنبياء والأنبياء وسائط العموم والأولياء للأولياء خالصة.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَزْكَعُوا وَأَسْجُدُوا وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَزْكَعُوا وَأَسْجُدُوا وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ هذا خبر عن مقام المكاشفة في المراقبة أي: إذا شاهدتم مشاهدة الكبرياء اركعوا، وإذا شاهدتم مشاهدة العظمة اسجدوا، وإذا شاهدتم جمال ربوبيته افنوا في العبودية: ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ تخيرون عن هذه المقامات طلاب معرفتي ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ بي عني، وتظفرون بعد فنائكم في ببقائكم مع بقائي.

قال ابن عطاء: اركعوا واسجدوا واخضعوا وانقادوا لأوامره وسلموا لقضائه وقدره تكونوا من خالص عباده، وافعلوا الخير ابتغاء الوسيلة لعلكم تفلحون أي: لعلكم تجدون الطريق إليه، ثم أمرهم بحق الجهاد لوجدان حقيقة المعاد، والرجوع إلى المراد؛ لأن ما أمرهم بالركوع والسجود على مقادير العبودية، وطلب حق الربوبية في العبودية منهم بقوله: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ لا تظن أن هذا الأمر أمر مستحيل من حيث عجز الخلق عن درك إدراك حقيقته، إنما أراد بهذا الأمر فناء الخليقة في الحقيقة، وهذا ممكن خاصة أنه

أخبر تعالى أنهم بذلك مصطفون بقوله: ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ﴾ أي: هو اجتباكم بالفناء في بقائه حين ينكشف أنوار شمس القدم لأهل العدم، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: أفنوا في الله حق الفناء بحيث لا ترون فناءكم في بقائه بل ترون وجوده بوجودكم لا بوجودكم؛ لأن هذه الاجتباية الأزلية يقتضي لكم مشاهدته، ومشاهدته يقتضي لكم فناءكم فيه، ثم بين أن في هذا الطريق المبارك، والدين الشريف لم يكن حرج، وتكليف ما لا يطاق بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إذا شاهدتم مشاهدة جمال سهل عليكم فناءكم في جلالي؛ لأن من عاينني عشقني، وطاب عيشه معي، وسهل عليه بذل مهجته إليّ لأن هذا مقام العاشقين الرامقين المحبين مثل الخليل والحبيب والكليم^(١).

ألا ترى كيف قال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ ملة أبيكم العشق والمحبة والخلة والاستسلام والانقياد، وبذل الوجود بنعت السخاء والكرم يا أسباط خليلي رأى أبوكم استعداد هذه المراتب الشريفة فيكم قبل وجودكم بنور النبوة بقوله: ﴿هُوَ سَمَّنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ سماكم منقادين، وبين يدي عارفين بوحدانيتي، وفيما ذكرنا من أوصافكم حبيبي شاهد عليكم عندي، يعرف هذه الفضائل منكم، وهو بلغكم ونشر فضائلي عليكم.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾^٢ ﴿هُوَ أَجْتَبَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^٣ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾^٤ ﴿هُوَ سَمَّنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(٥).

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بأنكم تعرفونهم فيما هم فيه وأن رسلهم قد بلغهم رسالاتي التي سبب نجاتهم، ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة شكرًا لنعمته وحمدًا لأفضاله أي: اطلبوني في مقام مناجاتكم في الصلاة، وادخلوا بهمتكم فيها؛ فإنها

(١) تلوح من هذه الجملة الإشارة إلى أنه إذا بقي المريد عن أحكام الإرادة فليخطط رجله بساحات العبادة فإذا عديم اللطائف في سرائره فليستدِّم الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقق بأحكام الحقيقة فليخلق بأداب الشريعة، وإن لم يتخرج عن تركه الفضيلة فلا يدنس تصرفه بالحرام والشبهة. تفسير القشيري (٨٩/٢).

حصتي، وكونوا بنعت التجريد عن الدنيا، وما فيها في بذل أنفسكم إليّ، وفي هذه المعاملات الشريفة اطلبوا الاعتصام مني، استعينوا بي لأقويكم في طاعتي ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَانُكُمْ﴾ حبيبكم وناصركم في الأزل ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ حيث لا مولى غيره ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾ حيث لا يخذل من نصره بأن نصره عزيز ممتنع من تقائص النفس.

قال جعفر: حق المجاهدة على القلب فإن النفس لا يقوم بحق المجاهدة، وحق المجاهدة ألا يختار عليه شيئاً كما لم ينجح عليكم بقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَنُكُمْ﴾

قال بعضهم: المجاهدة على ضروب مجاهدة مع أعداء الله، ومجاهدة مع الشياطين، وأشدّها المجاهدة مع النفس، وهو الجهاد في الله، وهو الذي روي عن النبي ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»^(١)، وهو مجاهدة النفس، وحملها على اتباع ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

وقال ابن عطاء: الاجتنابية أورثت المجاهدة لا المجاهدة أورثت الاجتنابية.

وقال أيضاً: «ملة إبراهيم»: هو السخاء والبذل والأخلاق، والخروج من النفس والأهل والمال والولد.

وقال أيضاً: في قوله: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُتْسَلِّمِينَ﴾: زينكم بزينة الخواص قبل أن أوجدكم؛ لأنكم في القدرة عند الإيجاد كما كنتم قبل الإيجاد سبق لكم من الله الخصوصية في أزلّه.

وقال النوري: الاعتصام بالله للخواص، والاعتصام بحبل الله للعوام، والاعتصام بحبل الله هو التمسك بالأوامر على السنن، والاعتصام بالله هو حفظ القلب، والسر عما يشغل عنه، والاشتغال بمراقبته، والإقبال عليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَانُكُمْ﴾ أي: هو الذي يغنيكم به إن أقبلتم على الاعتصام.

وقال جعفر: نعم المعين لمن استعان به، ونعم النصير لمن استنصره.



(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٥١١) بنحوه.

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ
عَلَى صَلَواتِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ فاز بالله العارفون بمشاهدته عن حجة الذين أجابوا الله
من العدم بخطاب القدم، وشاهدوا القدم بالقدم ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾
هم الذين قاموا بالله بنعت الهيبة في مشاهدة عظمة الله في مقام المناجاة مع الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ عن لغو شياطين الإنس والجن وهو وهوا جس النفوس، وكل
ما سرى ذكر حبيبهم، ﴿مُعْرِضُونَ﴾ كان من طباع العارفين ألا يلتفتوا من حيث طبيعتهم
إلى شيء يقتضي اللغو واللغو ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ باذلول الأرواح والأشباح لله
وفي الله ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾ ساترون عورات أسرارهم عن الأغيار
﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ إلا على أهل القصة والنحلة ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ من أفشى سر الحق عنه غير أهله؛ فقد تجاوز حد الله؛
فيكون محجوباً عن الله بالله، ومن لم يحافظ نفسه في حركات شهواتها، فيسقط في هاوية الغفلة
بغلبة الشهوة في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ الروح والقلب
والعقل والسر، وما معهن من كشف أحكام الغيب من الإيذان والبرهان والإيقان والعرفان
أمانة الله الغيبة، ومراعاتي بدفع الخطرات عنها، ورياضة النفس عندها؛ فهو من شعار أهل
الله الذين عاهدوا الله في سماع خطبه حين قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وهم به يستقيمون في

طاعته ومرافقته وخدمته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ﴿١﴾ محافظتهم عليها حفظ قلوبهم عن الوسوس عند جريان صفاء المواصله وحلاوة المدائنه والاستقامه في المناجاة.

ثم وصف هؤلاء الموصوفين بهذه الأحوال الشريفة، والدرجة الرفيعة، والمعاملات الزكية بأنهم ورثوا علم مشاهدة الله في بساين غيبه، وحجال ملكوته، ورثوا قرية وصاله، ثم ورثوا منها مواليد حقائقها من هذه الأعمال والأحوال، وأمثالها من خواص العبودية في مشاهدة الربوبية بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ ﴿٣﴾ ورثوا من فيض الله معرفة الله حين عاينوا الله في عهد الأزل، ويرثون بها مشاهدة الله إلى الأبد.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤﴾: وصلوا إلى المنحل الأعلى والقربة والسعادة، وأفلق من كان مصدقا لله بوعده.

قال أحمد بن عاصم: قال الأنطاكي: المؤمن من يكون بضاعته مولاه، بغيضته دنياه، وحبيبه عقباه، وزاده تقواه، ومجلسه ذكراه.

وقال القاسم في قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: هم المقيمون على شروط آداب الأمر مخافة أن يفوتهم بركة المناجاة.

وقال بعضهم: لما طالعوا موارد الحق عليهم، ومطالعة الحق إياهم خشعت له ظواهرهم.

وقال بعضهم: خشعت جوارحهم وهمهم عن التدنس بشيء من الأكوان لعلو همهم لكبائرها وهمته الصغرى أجل من الدهر.

قيل: المؤمن من يأمن قلبه من نفسه.

قال يوسف بن الحسين: كلك عورات وعلل، وليس يسترها إلا التقوى، وحفظ الحرمات، والتزام الشرائع كلها.

قال جعفر في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: عن الكون وما فيه متجردون، ولربهم منفردون.

وقال بعضهم: اللغو ما يشغلك عن الحق.

وقال أبو عثمان: كل شيء للنفس فيه حظ؛ فهو لغو.

وقال أبو بكر بن طاهر: كل ما سوى ذكر الله؛ فهو لغو.

قال ابن عطاء: كل ما سوى الله؛ فهو لغو.

قال محمد بن الفضل في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ﴾: جوارحك كلها أمانات عندك، أمرت في كل واحدة منها بأمر؛ فأمانة العين الغض عن المحارم، والنظر بالاعتبار، وأمانة السمع صيانتها عن اللغو والرفث، وإحضارها مجالس الذكر، وأمانة اللسان اجتناب الغيبة والبهتان، ومداومة الذكر، وأمانة الرجل المشي إلى الطاعات، والتباعد عن المعاصي، وأمانة الفم ألا يتناول به إلا حلالاً، وأمانة اليدين ألا تمدها إلى حرام، ولا تمسكها عن الأمر بالمعروف، وأمانة القلب مراعاة الحق على دوام الأوقات حتى لا يطالع سواه، ولا يشهد غيره، ولا يسكن إلا إليه.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن حليف: الأمانة حفظ حدود الله، والوقوف على ما أجاب من لفظ «بلى».

وقال ابن عطاء: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾: المحافظة عليها هو حفظ السر فيها مع الله، وهو ألا يختلج فيها شيء سوى الله.

وقال بعضهم: في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾: الذين يصلون إلى موارث أعمالهم من رياضاتهم.

قال بعضهم: الفردوس ميراث الأعمال، ومجالسة الحق ميراث رؤية الفضل والنعماء. قال الأستاذ في وصف الإيمان: ابتساط الحق في السريرة، ومخامرة التصديق خلاصة القلب، واستمكان التحقيق من تأمير الفؤاد.

وقال: الخشوع في الصلاة إطراق السر على بساط النجوى باستكمال نعت الهيبة، والذوبان تحت سلطان الكشف، والامتحان عند غلبات التجلي^(١).

وقال في قوله: ﴿عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: ما يشغل عن الله؛ فهو سهو، وما ليس لله؛ فهو حشو، وما ليس بمسموع من الله أو مقول مع الله؛ فهو لغو، وما فيه حظاً للعبد؛ فهو لهو.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٥﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ

(١) أي: الأحقاء بأن يُسمَّوا وارثين، دون غيرهم ممن ورث رغائب الأموال والذخائر وكرائمها، وقيل: إنهم يرثون من الكفار منازلهم في الجنة، حيث فوَّثوها على أنفسهم، لأنه تعالى خلق لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار. البحر المديد (٤ / ١٧٠).

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ ۖ لَقَسْدِرُونَ ﴾ ﴿ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ ۖ وَأَغْشَيْنَا لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةً وَمِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدَّهْنِ وَصَنِغٌ لِللَّكْلِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ فَقَالَ يَتَقَوَّمِرْ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا ۖ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتَرِّصُوا بِهِ ۖ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كُذِّبُونَ ﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴾ ﴿ لما خلق الله سبحانه الكون والكائنات من العرش إلى الثرى، طبق العرش فوق الكرسي، وطبق الكرسي فوق السماوات السبع، وقد أحاط الكرسي بالسماوات، وركب بعضها بعضاً، ثم تجلى من قهر سلطان عظمته، وجلال قدمه بنعت الاستواء على العرش فزلزل العرش، ثم تزلزل الكرسي، ثم تزلزلت السماوات، فعرقت السماوات من ثقل الكرسي، وعرق الكرسي من ثقل العرش، وعرق العرش من ثقل سطوة الاستواء؛ فجرى عرقها، وصار بحوراً؛ فدخلت البحور بين السماوات، وتلاطمت بعضها بعضاً من هيبه عزة القدم، وصولة الجلال التي نفذت أنوارها في جميع ذرات الكون؛ فكثر تلاطمها حتى ألقت خوالص زبدها وروحها فوقها، فبيست تلك الزبدة التي هي حقائق عرق الوجود الذي صدر من نور الاستواء، وهو حامل بسر التجلي قد خلت البحور تحتها، وصارت كالزبدة اليابسة من كثرة حركة محاض الكون.

ثم انسطحت وأظهرت حقائقها؛ فمضت عليها أيام الله التي معاهدها مرور أنوار تجلي الصفات والذات عليها؛ فلما رباها الحق بأفانين تجلي صفاته وذاته، قبض منها قبضة بقبضة جبروته، وطرحتها فوق ملكوته، وتلك القبضة من خالص تلك الزبدة المعجونة لعقاير أنوار

الصفات؛ فمطر عليها وبل بحر الألوهية، وخرها بأيدي العزة، وصورها بنقوش خاتم الملك، وألقاها في وادي القدرة بين فضاء الآزال والآباد حتى مضى أصبح مشارق شمس الذات، وأقمار الصفات، ثم كشف ستر الغيرة من وجه الروح التي خلقها قبل صورتها بألفي ألف عام، وكانت في حجال الأنس وبحار القدس أصدرها من مكامن غيوب العلوم، وهي أسرار الأولية مصورة بنقش صورتها فأدخلها فيها فصار الروح والصورة كاملة بكمال الذات والصفات.

فلما صار آدم موضع ودائع أسرار الذات والصفات والقدم والبقاء وصفه حبيب الله صلوات الله عليهما بقوله: «خلق الله آدم على صورته»^(١)، وكان الطيف معادن الأرواح القدسية والأشباح الأنسية؛ فإذا أراد سبحانه خلق ذريته حركه بقدرته، وألقى عليه سبائًا من عظمته، وأخرج حواء من ضلعه ثم حركها بسر سره، وذلك السر شهوتها التي أورث فيها تجلي نعوت الجمال والجلال فوصل الشهوة بالشهوة، وانشقت بالنطفة الخالصة التي مصادرها ما ذكرنا من أسرار تجلي الاستواء، وأبقاها في مصدر الفعل، وقلبها في دهور التجلي وأيام التدلي وساعات كشف الملكوت والجبروت والملك والقدرة.

ثم تجلى لها في قرار رحم الفعل بالهبة والعزة؛ فصارت ملونة بلون حسن الفعل الذي هو مرآة تجلي الجمال، وذلك قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۖ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ فلما أذابها في كبر العشق بنفخ المحبة، وصبغها بصبغ المودة صوغها في بوتقة الفطرة ذهبًا لنقش نقوش خاتم الملك، وألقاها في مشرق كشف شمس الربوبية حتى نضجت بنيران المحبة، وصارت سبيكة من لطف التجلي، وهذا معنى قوله: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ ثم صيرها سواقي بحار دماء الطبيعة، وجعل سواقيها عروق مشارب الفطرة، فتحركت من غلبتها؛ فغرس فيها الحق أشجار فعله حتى سكن بناؤها باستوائه قدرته بقوله: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾.

ثم خلعها خلعة مزيد فيض النظر في زمان التربية بقوله: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ ثم تركها في ضياء فعله ونور تجلي قدرته ليكمل استعدادها قبول نقش الملك فنقشها بنقش سر العلم بصورة آدم، ثم زين وجهها بزينة نور جماله، وصورها بصورة روح فعله وكلها برحمته،

(١) رواه البخاري (٥٨٤٣)، ومسلم (٢٦١١).

وجعل قلبها مجامع الأخلاق، وكيد وكبدها مجامع الطبائع ودماغها منوراً بنور عقل؛ فلما كساها نور خلقه وكملها بقدرته، وأدخلها روحه فصار آدم ثانياً مواضع كنوز ربوبيته وحقائق قدرته وعلمه، وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

ثم نزه نفسه عن المشابهة بالحدثان والتغاير بتغاير الزمان والمكان بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿١﴾ قدس جلاله عن الإبعاض والتجزؤ والتمثيل والتصوير ما أحسن صنعه وقدرته عين جاء أبناء آدم عالماً، وجعل في آدم ما في جميع العالم. وقال الحسين: الخلق متفاوتون في منازلهم، ومقامات خلقهم وصفاتهم، وقد كرم الله بني آدم بصورة الملك والملوك وروح النور ونور المعرفة والعلم، وفضلهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً.

وقال أيضاً: خلق بني آدم بين الأمر والثواب وبين الظلمة والنور فعدل خلقهم وزاد المؤمنين بإيمانهم نوراً مبيناً وهدى وعلماً، وفضلهم على سائر العالمين، كما نقلهم في بدء خلقهم من حال إلى حال؛ فأظهر فيهم الفطرة والإياب وتكامل فيهم الصنع والحكمة والبيئات، وتظاهر عليهم الروح والنور والسبحات من كانوا تراباً ونطفة وعلقه ومضغة ثم جعله خلقاً سوياً إلى أن كملت فيهم المعرفة الأصلية، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ...﴾ إلى قوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال الحسين: خلق الخلق فاعتد بها على أربعة أصول الربع الأعلى الهية والربع الآخر آثار الربوبية والربع الآخر النورية بين فيها التدبير والمشیئة والعلم والمعرفة والفهم والفطنة والفراصة والإدراك والتميز ولغات الكلام والربع الآخر الحركة والسكون كذلك خلقه فسواه.

وقال أيضاً في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾: فطر الأشياء بقدرته ودبرها بلطيف صنعه، فأبدى آدم كما شاء بها شاء، وأخرج منه ذرية على النعت الذي وصف من مضغة وعلقه، وبديع خلقه، وأوجب لنفسه عند خلقته اسم الخالق، وعند صنعته الصانع لم يحدثوا له اسماً كان موصوفاً بالقدرة على إبداء الخلق؛ فلما أبدأها أظهر اسمه الخالق للمخلوق، وأبرزه لهم، وكان هذا الاسم مكنوناً لديه مدعواً به في أزلهم سمي بذلك نفسه، ودعا نفسه به، فالخلق جميعاً عن إدراك وصف قدرته عاجزون، وكل ما وصف الله به نفسه فهو له، وهو أعز وأجل أظهر للخلق من نعوته ما يطيقونه، ويليق بهم ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

ثم إن الله سبحانه بعد وصف الخلق والخلقة وآدم والذرية أعلمنا محل فنائنا عن هذه الأوصاف الكاملة والصنائع الشريفة لتربية أخرى في التراب، وإظهار زيادة قدرة فينا بإدخال حياة ثانية في أشباحنا وتربية ثانية في أرواحنا بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعِيتُونَ﴾ الموت يتعلق بصعقة سطوات العزة، وظهور أنوار العظمة، وحياتنا تتعلق بكشف جمال الأزلي، هنالك تعيش الأرواح والأشباح بحياة وصالية لا يجري بعدها موت الفراق.

قال الحسين: ملك الموت هو موكل بأرواح بني آدم، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم، وموت العلماء هو بقاءهم إلا أنه استتار عن الأبصار، وموت المطيعين المعصية إذا عرف من عصاه.

وقال بعضهم: من مات من الدنيا خرج إلى حياة الآخرة، ومن مات من الآخرة خرج منها إلى الحياة الأصلية، وهو البقاء مع الله.

ثم بين سبحانه وصف أعلام قدرته، وعجائب صنوف صنعه في خلقه من سماواته وما فيها من طرقها إلى عالم ملكوته بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ وضح سبع طرائق لنا إلى أنوار صفاته السبعة، وتلك الطرائق: طريق الروح إلى معادن الربوبية وعرفانها بالحقيقة، فمنها طريق العقل، ومنها طريق العلم، ومنها طريق الحكمة، ومنها طريق المعاملة، ومنها طريق النفس، ومنها طريق القلب، ومنها طريق السر، وطريق العقل التفكير في الآلاء والنعماء، وطريق العلم معرفة الخطاب بطريق الحكمة المعرفة بحقيقة الأشياء، وطريق المعاملة تحصيل ذوقها وصفاتها باستعمال الآداب، وطريق النفس قطعها عن حظوظها والمعرفة بمكائدها وأخلاقها، وطريق القلب المعرفة بنازلات لطائف الغيب فيه، وطريق السر معرفة اتصالها بنور الحضرة.

فمن قطع هذه الطرق يصل إلى سبع الصفات، ورؤيتها والعلم بها حتى يصل إلى بحار الذات، واستغرق فيها بنعت الخيرة، فإذا استغاث من حيرته به أدركه بفيض المعرفة والوصلة، وذلك معنى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ ظاهر الآية تنبيه يوجب الإجلال والتعظيم في منازل المراقبات؛ فمن بقي في هذه الحجب السماوية والأرضية وارتهن بشيء منها، فقد انقطع عن مواصلة المشاهدة.

قال أبو يزيد في هذه الآية: إن لم تعرف؛ فقد عرفك، وإن لم تصل إليه؛ فقد وصل إليك، وإن غبت أو غفلت عنه؛ فليس عنك بغائب ولا غافل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ

أَخْلَقَ غَافِلِينَ ﴿٢٧﴾ .

وقال بعضهم: سبع حجب متصلة تحجبه عن ربه، فالحجاب الأول: عقله، والحجاب الثاني: علمه، والحجاب الثالث: قلبه، والحجاب الرابع: حسه، والحجاب الخامس: نفسه، والحجاب السادس: إرادته، والحجاب السابع: مشيئته؛ فالعقل باشتغاله بتدبير الدنيا، والعلم لمباهاته مع الأقران، والقلب الغفلة والحواس لإغفالها عن موارد الأمور عليها والنفس؛ لأنها مأوى كل بلية، والإرادة وهي إرادة الدنيا، والإعراض عن الآخرة، والمشيئة وهي ملازمة الذنوب.

وقال الأستاذ: فوقنا حجب ظاهرة وباطنة؛ ففي ظاهر السماوات حجب تحول بيننا وبين المنازل العالية، وعلى القلوب أغشية وغطاء كالمنية والشهوة والإرادة الشاغلة والغفلات المتركمة، أما المريدون إذا أظلمت سحائب الفترة سكن هيجان إرادتهم، فذلك من الطرائق التي علتهم، وأما الزاهدون فإذا تحرك بهم عروق الرغبة نفذ قوة زهدهم وضعف دعائم صبرهم فيترخصون بالجنوح إلى بعض التأويلات فيعود رغباتهم قليلاً قليلاً، ويحيل رتبة عروقهم، وتنهد دعائم زهدهم، فبداية ذلك من الطرائق التي خلق فوقهم.

وأما العارفون فربما تظلمهم في بعض أحيائهم وقفة في تصاعد سرهم إلى ساحات الحقائق؛ فيصرون موقوفين ريثما ما يتفضل الحق سبحانه بكفاية ذلك، فيجدون نفاذاً ويرفع عنهم ما عاقهم من الطرائق في جميع هذا الحق سبحانه غير تارك للعبد، ولا عن الحق غافل قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أنزل من سماوات القيومية مياه أنوار المعرفة بقدر قوى الأرواح القدسية، وأسكنها في أماكن قلوب العارفين فتجري على عرضاتها، وتنبت أشجار الحقائق وأزهار الدقائق ويأسمين المودة وورد المحبة ونرجس السعادة، وينفسج الكفاية بقوله: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاحٍ كَثِيرٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وتنبت على سيناء العقل شجرة الإيمان التي تنبت ثمرة الإيقان التي دهنها وصبغها حقيقة التوحيد والعرفان، قال الله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْمَاءٍ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْكَالِينَ﴾ .

قال الأستاذ ^(١): ماءٌ هو صوب الرحمة يزيل به درن العصاة وآثار زلتهم، وغبار

(١) انظر: تفسيره (٥/٢٤٧).

عشرتهم، وماء هو يسقي قلوبهم يزيل به عطش كيدهم، ويحيي به أموات أحوالهم، فينبت في رياض قلوبهم فنون أزهار البسط وصنوف أنوار الروح وماء هو شراب المحبة فيخضر به قلوب بساحات القرب، فيزيل عنها به حشمة الوصف، ويسكر به قلوباً فيعطلها عن التمييز، ويحملها على التجاسر والخطر بذل الروح، فإذا شربوا طربوا، وإذا طربوا لم يُبالوا بما وهبوا^(١).

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿١٧﴾ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أمر الله سبحانه نبيه نوحاً عليه السلام أن يصنع أعماله جميعاً على وصف المراقبة والمشاركة حتى يكون محفوظاً بعصمته عن طريان القهر.

قال الجنيد: من عامل على المشاركة أورثه الله عليه الرضا.

قال الله: ﴿اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا لَخْسِرُونَ ﴿٢٥﴾ أَلَيْسَ لَكُم مِّثْلُكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظْماً أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٦﴾ هَٰئِلَاتِ هَٰئِلَاتٌ لِّمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(١) (وصيغ للاكلين) أي: إدام لهم، قال مقاتل: جعل الله في هذه إداماً ودُهناً، فالإدام: الزيتون، والدهن: الزيت.

قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿١٠﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿١١﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُلَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿١٣﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿١٧﴾ فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿١٨﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي: أنزلني منزل مشاهدتك حتى أصل بركة وصالك، وأفوز برؤية جمالك وجلالك^(١).

قال ابن عطاء: أكثر المنازل بركة منزل تسلم فيه من هواجس النفس ووساوس الشيطان وموبقات الهوى، وتصل فيه إلى محل القرية منازل القدس، وسلامة القلب من الأهواء والبدع.

وقال الأستاذ: الإنزال المبارك أن يكون بالله، والله على شهود الله من غير غفلة عن الله، ولا مخالفة لأمر الله^(٢).

(١) قوله: منزلاً مباركاً بضم الميم، وفتحها بمعنى: موضع إنزال، أو موضع نزول؛ وهي السفينة النوحية هاهنا؛ لأن الخطاب لنوح عليه السلام، فكانت السفينة منزلاً مباركاً له، ولكن معه من المؤمنين حيث نجوا منها من الطوفان، كما أن البر كان منزلاً غير مبارك لمن عصاه من المشركين حيث أغرقوا من فيه بالطوفان، وذلك لأن دخول السفينة كان بإذن الله تعالى؛ فكانت منزلاً مباركاً يستتبع نفعاً كثيراً ظاهراً وباطناً، والإباء عن دخولها بإضلال الشيطان، وتسويل النفس؛ فكان عاقبته شراً محضاً، وهلاكاً صرفاً، فكما أن دخول السفينة كان خيراً محضاً؛ لكونه امتثالاً لأمر الله تعالى، فكذا الخروج عنها بعد ما كان أمر الله مفعولاً؛ فكانت الأرض أيضاً منزلاً مباركاً لهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ [هود: ٤٤]؛ لأنها مع الماء المستوعب لا يتنفع بها، ولما كانت السورة مكية؛ كان من إشارتها أن يدعوا نبينا ﷺ بهذا الدعاء لنزله الله المنزل المبارك الذي هو المدينة المنورة؛ فكانت المدينة مباركة ببركة قدمه ﷺ، كما كانت مكة المكرمة مباركة بقدمه، وبأقدام سائر الأنبياء أيضاً عليهم السلام، فكلٌّ منهم منزل مبارك لمن أراد أن يكون في جوار الله تعالى، وجوار سيد المرسلين.

(٢) وفيه إشارة إلى أن الدنيا من المنازل الرفيعة حيث استدعى لسان الروح النزول إليها، وكذا البدن =

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٥﴾﴾
يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٥﴾﴾ جعل الله عيسى وأمه مشكاتي أنوار قدسه، ومرآتي تجلي جلاله وجماله لبصراء الصديقين ونظار المقرين وآواهما إلى ربوة تلال مشاهد القدم ذات قرار لأسرار العارفين ومعين سواقي بحار الكرم التي شرباتها تحيي الأسرار من موت الفناء، وتبلغها إلى حياة البقاء.

ثم خاطب روحه وكلمته باسم الجمع؛ لأنه كان مجامع أخلاق جميع الأنبياء والرسل، ويمكن أن هذا خطاب مع سيد الرسل محمد المصطفى ﷺ، وهو أليق بذلك؛ لأنه بحر الله ينشق منها أنهار الأنبياء والرسل.

ثم أمره بأكل الحلال بقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الإشارة إلى خوان دنا فتدلى ومشاهدة الأعلى بين كان قاب قوسين أو أدنى جلال مشاهدته ووصال جماله جلال للعارفين، حيث لا يدخل فيه علة الحرمان، ولا فيه مخائيل الشيطان؛ فطلب منه بعد أكل موائد المشاهدة العمل الصالح، وهو التبري من الحدثان، وتلاشي النفس بنعت المعرفة في جمال الألوهية بقوله: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ فلما دنا من قرب القرب، ووصل إلى سر السر فرد القدم عن علة الحدث بقوله ﷺ:

«لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(١) أكل عيسى من ربوة المشاهدة مائدة القربة، فلما رأى سطوات الديمومية شملت وجوده أفنى نفسه لثبوت العمل الصالح

الإنساني ذلك الروح الإضافي، وإن لم يكن حالاً فيه؛ بل متعلقاً به تعلق التدبير والتصرف؛ لكنه كان كالمنزل له، وإنما كان مباركاً؛ لأن الروح إنما يترقى إلى الكمالات، ويضع القدم في المعراج، والمصاعد بإعانة البدن له بمزاولة الأعمال الصالحة، ولذلك كانت دوائرهم ويقاعهم من المنازل المباركة أيضاً، فمن وفقه الله تعالى للنزول فيها، والتردد إليها غُدّاً ورواحاً؛ كان عبداً مباركاً نافعاً للعالمين، فطوبى لمن تشرف بهذا الشرف العظيم، ويحلّ لمن وقع في الذلّ والعذاب الاليم بدخول دويرات المبتدعة، والفسقة الخارجة عن الصراط المستقيم. ومن المنازل العلية: القلب الإنساني؛ لأن الواردات الإلهية تنزل فيها، وله برزخية جميع الكمالات الإنسانية، ومن دخله؛ كان آمناً من برد انطبع، وحر الشهوة، سالماً من آدت الشكوك والظنون، متصفاً بالصفات الإبراهيمية، والمحمّدية، وسائر الكمّل الندر.

عن إدراك عزته بشرط الحقيقة بقوله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦].

قال سهل: الطيبات الجلال، والصالحات من الأعمال آداب الأمر بالفرض والسنة، واجتناب النهي باطنًا وظاهرًا.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أي: ملة المحبة والمعرفة المفردة عن شوائب الطبيعة مقرونة بنور الإسلام والإيمان لمن تابع المصطفى بنعت الأسوة والقدوة في جميع المعاملات والأحوال.

قال القاسم: أي: تفردت بشرف محمد ﷺ ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ مني شرف محمد ﷺ.

ثم قال: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أي: لا تقطعوا عني بشيء سواي، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أي: شاهدي وبوصف إجلال جلالي وخوف عظمتي؛ فأنا ربكم أربيكم بحسن وصالي، ومعاشرة صحبتي.

﴿فَنَقْطَعُوا أَمْرَهُمُ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣١﴾

قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ هذا إشارة تغيير لأهل المعاملات فشكا عنهم سبحانه أنهم يفرحون بمعاملاتهم، ورؤية أعواضها، وأضاف العلة إليهم؛ لأن أعمالهم التي لديهم صفات الحدثانية، ولا ينبغي للعارفين أن يفرحوا بما دون الله من العرش إلى الثرى، فالفرح الحقيقي ما صدر من شهود مشاهدة جلاله للأرواح القدسية الملكوتية فتفرح بوصاله، وروح جماله أبدًا في محل الأفراح.

ويا لبيب افهم كلامي؛ فإن العارف الصادق إذا استغرق في بحار المعرفة فهمومه أكثر من فرحه؛ لأن الفرحة بما وجد من الله من قرية على ندر حاله، وما بقي عنه؛ فهو غير محدود، فإذا كان بما وجد محجوبًا عن الكل، فما معنى الفرحة بمقام واحد، والوقوف علة يحجب بها الآخرون، فبقي العارف من بحر الهموم أبدًا؛ لأن إدراكه قاصر عن البلوغ إلى عزة جلاله إذ جلاله منزله عن درك المدركين، وإحاطة عرفان العارفين تعالى الله عن كل وهم وفهم.

قال بعضهم: ربط كل أحد بحظه في سعاياته وحركاته، والسعيد من جذب عن حظه،

ورد إلى حظ الحق فيه.

وقال الواسطي: الواقفون مع العارف على مقدار تأثير أنوار الحق فيهم لا على قدر حركتهم وسعيهم؛ لأنه ليس أحد يصل إلى معروفة بجهد ولا اجتهاد، ومن ظن أن شيئاً من أفعاله يوصله إلى مولاه؛ فقد ظن باطلاً فسبق العناية بصون الأشباح والأرواح وبوصل أهل معرفته إليه، فمن اعتمد غير ذلك؛ فقد سكن إلى غرور وفرح بالأماني وهو قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (٢٤) كيف يفرح بما لديه، وليس يعلم ما سبق له في محتوم العلم^(١).

﴿الْمُحْسِبُونَ أَنَّمَا نُعِيذُهُمْ بِهٖ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ (٢٥) تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِقَائِمَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٢٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٣٠) أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٣١) وَلَا تَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ (٣٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ (٣٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْفَرُونَ (٣٤) لَا تَجْفَرُوا الْيَوْمَ ۖ إِنَّا كَرَّمْنَا لَا تُنصِرُونَ (٣٥) قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰٓ أَغْفَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٣٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهْجُرُونَ (٣٧) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٣٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٤٠).

قوله تعالى: ﴿الْمُحْسِبُونَ أَنَّمَا نُعِيذُهُمْ بِهٖ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ (٢٥) تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ

(١) واعلم أن الإلقاء من الله، ومن الملك، ومن الخضر، ومن المشايخ أمر واحد في المعنى؛ لأن الشيخ إذا كان خليفة الرسول في المعنى، والرسول خليفة الله في الحقيقة؛ فالقائه عين إلقائه، ولا يلقى المحل إلا بقدره، اللهم إلا أن يقال: إن نفخ خاتم الأولياء أقوى من نفخ المشايخ؛ لأنه ملك ملوك المشايخ؛ فهو أغنى منهم؛ كالسلطان فإنه أغنى من الوزير، وهو بمن دونه، ولا شك أن الأخذ من الأغنى لاسيما إذا علّق ذلك به؛ كان أنفع، وقد يجتمع الإلقاءات، فيلقى الشيخ في بداية الأمر، ثم خاتم الأولياء في وسط الحال، ثم الروح المطهر النبوي في نهايته، ثم الله تعالى في نهاية النهايات.

إن الله سبحانه امتحن الممتحنين بزينة الدنيا ولذاتها وجاهها ومالها وخيراتها ليقطعوا طرق الامتحان، وحرّموا إلى مشاهدة الرحمن فاستلذوها، واحتجبوا بها ظنوا أنها مآل جميع الراحة، وأنهم مقبولون حين أعطوا هذه المقامات، ولم يعلموا أنها استدراج لا منهاج، قال الله تعالى: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

قال عبد العزيز المكي: من تزين بزينة فانية؛ فتلك الزينة تكون وبالأعلى عليه إلا من تزين بها يبقى من الطاعات والموافقات والمجاهدات، فإن الأنفس فانية والأموال عوار، والأولاد فتنة، فمن يسارع في جمعها وحفظها، وتعلق القلب بها قطعته عن الخيرات أجمع، وما عند الله بطاعة أفضل من مخالفة النفس، والتقلل من الدنيا؛ وقطع القلب عنها؛ لأن المسارعة في الخيرات هو اجتناب الشرور، وأول الشرور حب الدنيا؛ لأنها مزرعة الشيطان فمن طلبها وعمرها؛ فهو حرّاته وعبدته وشر من الشيطان من يقين الشيطان على عمارة دار، وقال الله: ﴿أُحْسِبُونَ﴾.

ثم إن الله سبحانه وصف الصادقين بالخشية والخوف والإيمان والتوحيد واليقين بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ الذين هم متعظمون عظمتهم وجلاله بعد كونهم معانين رؤيته ومشاهدته خائفين من الهجران والاحتجاب بشيء من الحداث، ثم قال تعالى في وصفهم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرِفَاقِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ يوقنون أنها مشاهد مشاهدة قدسية وظهور صفاته وذاته.

ثم وصفهم بأنهم لا يؤثرون عليه شيئاً من الحوادث بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ لا يلتفتون في طاعته إلى غيره، ولا ينظرون منه إلى أنفسهم، وحفظها من الكونين.

ثم زاد في وصفهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي: الذين سافروا سفر العبودية بحقائقها، وشاهدوا جمال الربوبية وأنوارها بنعت الخجل والوجل لعلمهم بأن ما أتوا من الطاعات وبذل المهج والوجودات في رؤية كبرياته وجلاله مع طاعات جميع المخلوقات أقل من ذرة، ووجل قلوبهم من صوله تجلي العظمة لها قلوبهم في الغيوب جواله وأرواحهم في الملكوت والجبروت طيّارة، وأسرارهم في ميادين تجلي الصفات والذات فانية.

ثم وصفهم بالتسارع إلى الخيرات بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٢٤) لطلب مرضاته ووصولهم إلى مشاهداته، وهم في ذلك سابقون في الأزل من الله بالسعادات الأولية والآخرية.

قال بعضهم: في قوله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٢٤): الإشفاق والخشية اسمان باطنان وهما عملان من أعمال القلب والخشية سر في القلب خفي والإشفاق من الخشية أخفى. قيل: الخشية انكسار القلب من دوام الانتصاب بين يديه، ومن بعد هذه المرتبة الإشفاق، والإشفاق أرق من الخشية والطف، والخشية أرق من الخوف، والخوف أرق من الرهبة، ولكل منها صفة ومكان وأدب.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِعَاقِبَتِهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٥): مطالعة الكون بأبصار القلوب، فتعلم أنها في حدّ الفناء، وما كان بين طرفي فناء؛ فهو فان فيؤمنون بالحق يفتح أبصار قلوبهم بالنظر إلى المغيبات.

وقال الجنيد في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٢٦): من فتش سره فرأى فيه شيئاً أعظم من ربه أو أجل منه؛ فقد أشرك به، إذ جعل له مثلاً. قال الواسطي: الخائف الرجل من لا يشهد حظه بحال.

قال بعضهم: وجل العارف من طاعته أكثر من وجله من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب تصحيحها، والإخلاص والصدق فيها؛ لذلك قال الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا... الآية﴾.

وقال أبو الحسن الوراق في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٢٧): ذلك بما تقدم من الآيات بالمسارعة إلى الخيرات يبتغي درجة السابقين، ويطلب مكارم الواصلين لا بالدعاوى والإمهال، وتضييع الأوقات، من أراد الوصول على المقامات من غير آداب ورياضات ومجاهدات؛ فقد خاب وخسر وحرم الوصول إليها بحال.

وقال يحيى بن معاذ في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: الراغبون في رضا المولى.

حكى عن الشبلي أنه قال: وصفهم بالإشفاق والخشية، وذلك حين رفعهم مولاهم إلى منازل اليقين حتى وصلوا من علم اليقين إلى عين اليقين، وشربوا من عين اليقين بكأس

اليقين؛ فشهدوا في مقام عين اليقين، وارتفع عن قلوبهم كل شك، وريب ثم نقلهم من تلك المقامات كلها إلى منازل الخوف، فنازلوا الإشفاق والحذر والخشية، فوجلت قلوبهم من تلوين الأحوال عليهم، وهم من خشية ربهم مشفقون.

وقال النهرجوري: هم القائمون مع الله من حيث قام لهم، ومن حيث يرون قيام الله لهم؛ فهم في أحوالهم مشفقون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أن الله سبحانه خلق النفوس الروحانية من عالم الملكوت، وهي صدرت من فيض لطف صفاته؛ فهي تحمل أمانات معرفة ربوبيته، وهي تطيق حمل ما رد تجلي الذات والصفات إذ هي محمولة بمطايا أنوار العناية والكفاية، وخلق النفوس الإنسانية من عالم أنوار الفعل، وهي صدرت من تواتر سلطان قهر القدم، وهي مجبولة لحمل أثقال العبودية إذ هي محمولة بمطية ذلك القهر؛ فكانت النفوس مطايا حمل الربوبية والعبودية، وهي تسعها به لا بها.

لذلك قال عليه السلام حاكياً عن الله تعالى: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»^(١)؛ فإذا جاءت بنعت الإشفاق إلى مشاهدة الذات والصفات، وبنعت العجز عن مقابلة الجبروت، وعجزها عن حمل عزة الملكوت، خرست عن الأعذار يعتذر صانعها بنطق أزلي بأنها صادرة من الحدثان غير مخلوقة لحمل أصل القدم، قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يشهد لها لا عليها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢) بأن القدم بوصف القدم يكون حملها بل يكون حملها على قدر وسعها.

قال الجريري: لم يكلف الله العباد بمعرفته على قدره، وإنما كلفهم على أقدارهم، فقال: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولو كلفهم على قدره ومقداره لجهلوه وما عرفوه؛ لأنه لا يعرف قدره أحد سواه، ولا يعرفه على الحقيقة سواه، وإنما ألقى إلى الخلق منها اسماً ورسمًا إكراماً منه لهم بذلك، وأما المعرفة؛ فإنها التحير والتهوية.

﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^٣ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾^(٤) أمر تستلهم خراجاً فخرأج ربك خمر وهو خمر الرزقين^(٥) وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم^(٦) وإن

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/٤٩٦)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/٢٥٥).

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُنَّ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ رَجُمْتَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا
 بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤُا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا
 لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْتَضِرُونَ ﴿٦٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ
 مُبْتَلِسُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
 وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧١﴾ وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّـۥ وَيُمَيِّتُ وَلَهُ
 أُخْتَلِفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٢﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٧٣﴾
 قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٧٤﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا
 هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧٥﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ
 السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٧٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٧٩﴾
 قُلْ مَنْ يَدْعُوهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾
 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨١﴾ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٢﴾
 قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾

فيهم ﴿ انهم أن الله سبحانه البس وصف قهره النفوس الأبية فاستكبرت عند مباشرتها
 القهر الجبروتي، وخرجت بنعت الكبرياء إلى ميادين الربوبية فألقى الحق سلطان عزيمة قدمه
 عليها وكسر قرونها بطاعته، ولولا أنه تعالى حبسها في ملازمة قهره لخربت الأرض بفسادها
 وتكبرها، ولم يرتفع طاعة المطيعين إلى السماء، وكيف يكون الصانع القديم بمراد النفوس
 الحديثة إذ جلاله كان منزلها عن محل إرادة كل مريد وحلول كل حادث، أعطاها شرف
 مباشرة ربوبيته فأبت بحفظها عن رؤيتها، لذلك قال سبحانه: ﴿ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ
 فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿ بذكره الأزلي ذكرهم بالعبودية وشرفهم بالطاعة، فهم
 عن شرف الطاعة معرضون، وأيضاً تجلى الحق في لباس القرآن لأهل العرفان، ولم تبصره
 أبصار أهل الطغيان.

قال الواسطي: أول ما كاشف الله خلقه كاشفهم بالمعارف ثم بالوسائل ثم بالسكينة
 ثم بالبصائر؛ فلما عاينوا الحق بالحق فنوا عن كل همة وإرادة.

قال بعضهم: لولا أن الله تعالى أمر بمخالفة النفوس ومباينتها لاتبع الخلق هواهم في شهوات النفوس، ولو فعلوا ذلك لضلوا عن طريق العبودية، وتركوا أوامر الله، وأعرضوا عن طاعته، ولزموا مخالفتها، ألا ترى الله يقول: ﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

ثم بيّن سبحانه أن حبيبه صلوات الله عليه يدعوهم إلى تلك المشاهدة بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الصراط المستقيم ما أوضحه أنوار جماله ومشاهدته، وهو طريق معرفته في قلوب الصديقين لأرواح القدسية، وتلك الطريقة منتهاها المحبة، وبدايتها الأسوة والمتابعة لقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن عطاء: إنك لتحملهم على مسالك الوصول، وليس كل أحد يصلح لذلك السلوك، ولا يوفق له إلا أهل الاستقامة، وهم الذين استقاموا لله مع الله، ولم يطلبوا منه سواه، ولم يروا لأنفسهم درجة ولا مقامًا.

قال بعضهم: لي الإقبال على الله، والإعراض عمن سواه، ثم بيّن سبحانه حال المحرومين عن هذه الطريقة المباركة والإيمان بالغيب والآخرة، ووصفهم بالضلالة عن طريق الصواب بقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ﴾ أي: الذين لا يشاهدون بقلوبهم أنوار الغيب لناكبون عن متابعتك يا محمد.

قال أبو بكر الوراق: من لم يهتم لأمر معاده ومنقلبه، وما يظهر عليه في الملأ الأعلى والمشهد الأعظم؛ فهو ضال عن طريقته غير متبع لرشده، وآخر منه حالاً من يهتم لما جرى له في السبق من ربه؛ لأن هذا المصدر فرع لتلك السابقة، قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ...﴾ الآية.

ثم بيّن أن لو كشف لهم حجاب الهجران، ورأوا جمال الرحمن لادعوا من سكرهم في جمال الأنانية بقوله تعالى:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُودُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

خلصهم عن درك الامتحان، وكشف عنهم ضر الحرمان للجدوا في دعاويهم العظيمة التي تفسد الرسوم، وبقوا في طغيان دعاويهم.

قال ابن عطاء: الرحمة من الله على الأرواح المشاهدة، ورحمته على الأسرار المراقبة، ورحمته على القلوب المعرفة، ورحمته على الأبدان آثار الخدمة عليها على سبيل النسبة.

وقال أبو بكر بن طاهر: كشف الضر هو الخلاص من أمانى النفس، وطول الأمل،

وطلب الرياسة والعلو، وحب الدنيا؛ فإن هذا كله مما يضر بالمؤمن.

قال الواسطي: للعلم طغيان، وهو تفاخر به، وللمال طغيان، وهو البخل، وللعمل والعادة طغيان، وهو الرياء والسمعة، وللنفس طغيان، وهو اتباع شهواتها.

ثم بيّن أنه تعالى ابتلاهم بعذاب الفرقة، ولم يتحسروا بذلك، وما أرادوا الرجوع إليه بنعت التصريح بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أفرد أرواحهم في مبادئ العهد بشهود نور جماله لها وخطابه معها، فلما وصلت الأشباح ابتلاها بحجاب النفوس والشياطين، ولم ترجع إلى طلب معادنها؛ فشكا الله سبحانه عنها، ومن حق معرفتها أنها تفنى براءة الحجاب والخطاب بالعتاب، وهذا وصف بعض العارفين الذين هاموا في أودية الكبرياء والعظمة، ولا يجدون لذة الوصال والجمال من صولة التوحيد؛ فوقعوا في بحار الأولية، وباشروا بالجرأة ما يوجب العتاب، فلم يلتفتوا إلى مراعاة الرجوع لاستكبارهم بمقاماتهم العظيمة، ولا يهتمون على فوائت حظوظ المشاهدة يا ليت لو علموا خفايا مكره لتضرعوا واستكانوا حتى يكشف ما وراء أحوالهم من عظام غيوبات الصفات، وعجائب كشوف الذات، التي لو شاهدوها لذابوا ساعة بنعت الفناء في القدم، ولتاهوا ساعة بنعت البقاء مع السكر والصحو في الأبد.

وافهم أن الله سبحانه وقع المریدين في موت الفوت؛ فجاهدوا أنفسهم بأنواع العبادات والرياضات، ولو استعاذوا به، واستعانوا لسهل عليهم طريق الرجوع إليه، فأين هم من التضرع والبكاء، وتعفير الوجوه بالتراب على فناء وحدانيته وجناب ديموميته؟ وبهذا وصل الواصلون إلى الله.

قال سهل: ما أخلصوا الربهم في العبودية، ولا ذلوا له بالوحدانية.

﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عِلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ ﴿وَرَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا آتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ نزه نفسه سبحانه عن مخايل الزنادقة، وكان منزلها عن أباطيل إشارة المشبهة، وذاته ممتنع بكمال أحديته عن زعم الثنوية، كيف يجوز أن يكون القدم محل الحوادث إذ القدم المنزه إذا تجلى بنعت القدم

للحدثان صار معدوماً كالعدم تعالى الله عن كل وهم وإشارة.

قال الحسين: الصمدية ممتنعة من قبول ما لا يليق بها؛ لأن الصمدية تنافي أضدادها على الأبد، وهي ممتنعة عن درك معانيها؛ فكيف تبقى مع أضدادها، وما لا يليق بها^(١).

﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ ﴿٣٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ دعا حبيبه إلى استعمال خلقه العظيم وظرفه الكريم الذي استفاد من خلقه حين ألبسه إياه حين اصطفاه على العالمين أي: احتمل بحلمك جفاء الجافين، وراعههم بطيب الكلام، وحسن السلام، وإعراض الجميل.

قال القاسم: استعمل معهم ما جبلناك عليه من الأخلاق الكريمة والشفقة والرحمة؛ فإنك أعظم خطراً من أن يؤثر فيك ما يظهرونه من أنواع المخالفات.
قال بعضهم: ادفع عنك بأخلاقك جهلهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٣٦﴾.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ بين سبحانه أن من كان ساقطاً عن مركب الطاعات لم يصل إلى الدرجات، ومن كان محروماً عن المراقبات في البدايات كان محجوباً عن المشاهدات والمعاینات في النهايات، وإن أهل المزخرفات والدعاوى والترهات تمنوا في وقت النزاع إن لم يمض عليهم أوقاتهم بالغفلة عن الطاعات، ولم يتكلفوا بالدعاوى والمحال.

قال أبو عثمان في كتاب له إلى أهل «جرجان»: لو عمل أهل النار عملاً أنجى لهم من طاعة الله وصلاح لما فرغوا في وقت العيان إلا إليه بقولهم: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾؛ فأقبل على طاعة مولاك، واجتنب الدعاوى، وإطلاق القول في الأحوال فإن ذلك فتنة عظيمة، هلك في ذلك طائفة من المريدين، وما فرغ أحد إلى تصحيح المعاملات إلا أداه بركة ذلك إلى سني الرتب، ولا ترك أحد هذه الطريقة إلا تعطل.

(١) واعلم إن الأحدية ينافيها الازدواج؛ لتأديته إلى التكثر، والصمدية ينافيها الاحتياج؛ لتأديته إلى الذلة المنافية للالوهية.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (٥١) ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٥٢) ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٥٣) ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ (٥٤) ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ (٥٥) .

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ ﴾ أخبر عن أوائل كشف جلاله وجماله؛ فإذا قاموا على بساط الهيبة، وسرادق الكبرياء والعزة، وعاینوا الذات القديم، ولهوا في مشاهدته مستغرقين في بحار أنوار جماله وجلاله، واشتغلوا بذوقهم في وصاله من وصاله عن مرافقة كل رفيق، ومصادقة كل صديق، وانتسابهم إلى الأخوة والمصاحبة، ولا يتساءلون عند سطوات عظمتة حالهم بعضهم بعضاً لشغلهم بمعاينة وجوده ونثر جوده؛ فإنهم غائبون في شهودهم مشاهدة قربه ومعاينة قدمه وبقائه فنسبهم هناك نسب المعرفة والمحبة الأزلية واصطفائية القدمية، لا يفتخرون بشيء دونه من العرش إلى الثرى.

قال فارس: الأنساب رؤية الأعمال، ورجاء الخلاص بها، ﴿ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ لا يتذكرون مما جرى عليهم في الدنيا من نعيمها وبؤسها شغلاً بها هم فيه.

قال محمد بن علي الترمذي: الأنساب كلها منقطعة إلا من كانت نسبته صحيحة في عبودية ربه؛ فإن تلك نسبة لا تنقطع أبداً، وتلك النسبة المفتخر بها لا نسبة الأجناس من الآباء والأمهات والأولاد^(١).

﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ (٥٦) ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (٥٧) ﴿ قَالَ أَحْسَعُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ ﴾ (٥٨) ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥٩) ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ (٦٠) .

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴾ (٥٦) أي: غلبت علينا الدعاوى الباطلة، والخوض في الطامات والترهات.

قال أبو تراب: الشقوة: حسن الظن بالنفس، وسوء الظن بالخلق.

(١) (فلا أنساب بينهم يومئذ) تنفعهم، لزوال التراحم والتعاطف بينهم؛ من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة، بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه. البحر المديد - (٤ / ٢٠٦).

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٣٣) قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿٣٤﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ جزيتهم بمشاهدتي بما صبروا في طاعتي، واحتماهم جفاء أعدائي؛ فإنهم فائزون من فراقى أبداً، خارجون من عناء الفرقة، وطعن الطاعنين في زمان المحبة.

قال أبو عثمان: ما صبروا حتى أكرموا بالصبر، والصبر حبس النفس عن الشهوات.

قال ابن عطاء: صبروا عن الخلق، وصبروا مع الله.

وقال أبو بكر بن طاهر: الفائزون: الآمنون من أهوال القيامة.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣٦) فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿٣٧﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿٣٩﴾

قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ غيرهم بما سكنوا إليه مما وجدوا منه حيث ظنوا أن ما وجدوا منه على حد الكمال فوقفوا؛ فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ للوقفة عني بشيء مما وجدتم مني ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ بنعت الفناء عما وجدتم، وعما سكتتم به عني، ثم عظم جلاله وكبريائه عن إدراكهم، وإن رجعوا إليه به بقوله: ﴿فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ تعالى جلاله عن أن يدركه المدركون، ويلحق بعزته اللاحقون، هو الحق بحقيقته، وحقيقته لا يطلع عليها إلا هو، تلاشت الحدثان في سطوات جلاله حتى أن العرش الكريم مع عظمه صغر في عين نملة من قهر عزته، ومن نظر إلى شيء سواه، وإن كان منه رتبة عظيمة في المعرفة؛ فهو محجوب به عنه بقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

ثم أمر صفي المملكة بعذر عجزه، وتحيره عن درك نعوته الأزلية، وصفاته الأبدية بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ اغفر تقصيري في معرفتك، وارحمني بكشف زيادة المقام

في مشاهدتك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ إذ كل رحمة في الكونين قطرة مستفادة من بحار رحمتك القديمة.

حكى يوسف بن الحسين عن أحمد بن أبي الحواري في قوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾: لا يصل إلى قلبك روح التوحيد، وله عندك حق لم تؤده.
وقال الواسطي: أظهر الأكوان ليظهر آثار الولاية على الأولياء، وآثار الشقاء على الأعداء.

وقال في قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾: لا يحتمله إلا الحق حجب الكون بالصفات والنعوت، ثم حجب النعوت بالحقيقة.

وقال: الحق عجز الخلق أن يدركوه بإدراكهم، وإنما يدرك بإدراكه.
قال ابن عطاء: تعالى أن يغيره الدهور أو يجري عليه قوادح الأمور، نفى الأشكال عن نفسه بتعاليه، ونفى الأضداد والنظراء عن نفسه بتمام ملكه عز وعلا.
وقال الأستاذ: الحق بنعوت جلاله متوحد، وفي عز أزاله، وعلو أوصافه متفرد فذاته حق، وصفاته حق، وقوله صدق، ولا يتوجب لمخلوق عليه حق.

تم الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث، وأوله:

سورة النور



فهرس المحتويات

٣.....	سورة التوبة
٦١.....	سورة يونس
١٠٤.....	سورة هود
١٤٥.....	سورة يوسف عليه السلام
٢١٥.....	سورة الرعد
٢٥١.....	سورة إبراهيم
٢٧٣.....	سورة الحجر
٣٠٧.....	سورة النحل
٣٤٦.....	سورة بني إسرائيل
٣٩٢.....	سورة الكهف
٤٤٩.....	سورة مريم
٤٧٢.....	سورة طه
٥٠٩.....	سورة الأنبياء

٥٧٤ ----- عرائس البيان في حقائق القرآن / الجزء الثاني

سورة الحج ٥٣٠

سورة المؤمنون ٥٤٩

فهرس المحتويات ٥٧٣

‘ARĀ’IS AL-BAYĀN FĪ ḤAQĀ’IQ AL-QUR’ĀN

By
Rūzbahān al-Baqli

Edited by
Aḥmad Farīd al-Mizyadi

VOLUME II

